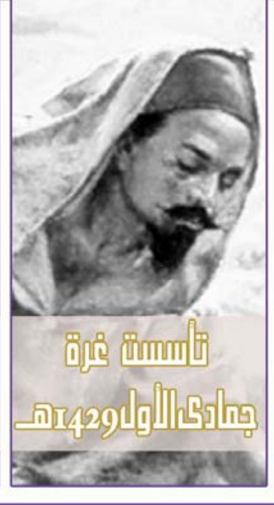










السنة السادسة - العدد الواحد والعشرون | سبتمبر (أيلول) 2013م - شوال 1434هـ

الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

Kan historique périodique

www.kanhistorique.org

info@kanhistorique.org

رقمية الموطن
عربية الهوية
عالمية الأداء

متاحة للقراءة والتحميل عبر:


دار ناشري


الأرشيف العالمي

الراعي الرسمي





كان التاريخية

أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٨

دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:



دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
www.nashiri.net





أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
www.archive.org

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير، هي سلسلة كتب علمية تاريخية، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

المؤرخ الصغير®
صادرة بالإيداع يونيو ٢٠٠٧

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم





www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

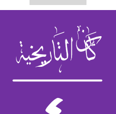
هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحث باللغة العربية في حدود (٧٥ - ١٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج".
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس- يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني:

info@kanhistorique.org

- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

mr.ashraf.salih@gmail.com

محتويات العدد

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



صَّناعةُ التَّارِيْخ

صحيح أننا نعيش دائمًا في الحاضر على اعتبار أن الماضي راح وانقضى، وأن المستقبل لم يأت بعد، وإنما هو مجرد تصورات ذهنية، وأفكار مجردة، وقد يكون فيها بعض التخيلات والأوهام، وأنه في اللحظة التي يتحقق فيها شيء متعلق بالمستقبل يكون قد تحول إلى حاضر وواقع. وإذا كان هناك من المفكرين مَنْ يذهب إلى صعوبة التنبؤ بالمستقبل، لأن المستقبل من اختراع الإنسان بفضل خصوبة وقوة خياله الذاتي، فمن الصحيح أيضًا أن توقعات العلماء والمفكرين بما سيكون عليه الحال في المستقبل تستند إلى الخبرات السابقة والقدرة على قراءة مسار الأحداث، وذلك تأكيدًا لصحة القول "الذين يحسنون قراءة الماضي، هم الأجدر بقراءة المستقبل".

لقد سخر البعض في العقود الغابرة من دراسة التاريخ، أمثال كريستوفر دوسن Christopher Dawson (١٨٨٩ - ١٩٧٠): "ما أسعد أمة ليس وراءها تاريخ"، وجان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨): "الحمقى هم الذين يسمحون لأولادهم بأن يتعلموا التاريخ". إلا أن أهمية التاريخ في حياة الأمم لم تعد موضع شك، ولم تعد مكانة علم التاريخ في مناهج الدارسين على اختلاف مراحلهم موضع تساؤل، إن الزمان قد تغير، ولم يصبح من الممكن أن نتطور، وننتظم في مدارج الحضارة والرقي بعيدًا عن نبض الماضي، وبمنأى عن فقه صحيح لتجارب السابقين. فالتاريخ هو الدراسة العملية للماضي، وتفسيره في ضوء القوى الكبرى والتطورات طويلة المدى، بمساعدة من النظرية الاجتماعية، والأسلوب الكمي وغيره من أدوات العلم الاجتماعي هو الذي يسهم في خلق أساس ثابت للمعرفة التي يتم على أساسها اتخاذ فعل سياسي وقرارات سياسية في الحاضر.

إن دراسة التاريخ في حقيقتها هي البداية الصحيحة لـ "صناعة التاريخ"، أي قراءة أحداث الماضي من أجل تسليط الضوء على ما يخدم منها الجماعة الإنسانية في حاضرها ومستقبلها، إنه صمام الأمان الذي يقي الأجيال من الانسلاخ من شخصيتها، والتنكر لتراثها، واستدبار مرجعيتها، مما يجعلها موسومة بالتبعية المدنية، والعبودية الحضارية، والوجود الملفق.

من المؤكد أن كثيرًا من الأحداث الراهنة ستصبح مستقبلاً وقائع تاريخية، ومن منطلق أن التاريخ هو ذاكرة الشعوب والمجتمعات، نجد الناس يحاولون أن يتركوا بصمات حتى يحفظ التاريخ إنجازاتهم أو أسماءهم، كما نجد بعضهم في المقابل يحاولون طمس الآثار السلبية حتى لا تسجل ضدهم. وباعتبار التاريخ علمًا يساعد الإنسان على فهم حركته في الكون، تظل دراسته مهمة وقادرة دومًا على تحديد الهوية، والبحث عن الذات، وإدراك الخصوصيات التي تميز أنواع الحضارات ومدى استفادة بعضها من بعض. وفي كل الأحوال فإن الرجوع إلى التاريخ للمعرفة والعبرة يدفع إلى اقتحام الحاضر واستشراف المستقبل.

وتبقى الإشارة إلى أن الحدث لا يصنع التاريخ، وإن سُجل في مدوناته، لكن مَنْ يوجد الحدث هو مَنْ يصنع التاريخ، وهؤلاء هم البشر، بل المميزون منهم، فهل لدينا الآن مَنْ صنع التاريخ، أو مَنْ هو قادر على ذلك ؟!

رئيس التحرير

المراجع

- أحمد أبوزيد، **المعرفة وصناعة المستقبل**.- الكويت: وزارة الإعلام – مجلة "العربي"، ٢٠٠٥.
- **ما التاريخ الآن؟**/ تحرير: ديفيد كانادين/ ترجمة وتقديم: قاسم عبده قاسم.- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦.
- نجيب بن خيرة، **"في الوعي التاريخي"**.- مجلة الوعي التاريخي (الشارقة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية).- ع٢، نوفمبر ٢٠٠٨.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الثورة الجزائرية في مرحلة المخاض (١٩٥٣ - ١٩٥٤) ظروف تأسيس جبهة التحرير الوطني (FLN) والحركة الوطنية الجزائرية (MNA) (نوفمبر - ديسمبر ١٩٥٤)

د. سعاد يمينة شبوط
أستاذة محاضرة – قسم التاريخ
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
سعاد يمينة شبوط، الثورة الجزائرية في مرحلة المخاض (١٩٥٣ - ١٩٥٤): ظروف تأسيس جبهة التحرير الوطني (FLN) والحركة الوطنية الجزائرية (MNA) (نوفمبر - ديسمبر ١٩٥٤).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٩ – ٢٦.
www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

تعتبر أزمة حزب الشعب– حركة انتصار الحريات الديمقراطية- أزمة بين جيلين مختلفين: جيل تشبع بالمبادئ من خلال نشاطه السياسي باسم الحركة الوطنية الجزائرية التي استمدت جذورها من رصيدها النضالي الذي بدأ منذ مطلع القرن العشرين، وجيل ثاني من النشطاء الشباب يريدون خوض العمل المباشر للكفاح المسلح وتجاوز الخلافات وأزمة الحزب. وقد تميزت حركة انتصار الحريات الديمقراطية، باستقطابها لشباب متحمس، على استعداد تام للجوء إلى العمل المسلح لنيل الاستقلال. وقد تبلور الوعي السياسي وأصبح أكثر نضجًا عقب مجازر ماي (مايو) ١٩٤٥ الدموية التي كانت حسب محمد بوضياف "قد قدمت الدليل القاطع بأن هزيمة الاستعمار الفرنسي لا يمكن أن تحدث إلا من خلال الوسائل الثورية" وهي بالنسبة لمناضلي جيله تعد نقطة تحول في تشكّل وعيهم وإحداث قطيعة مع أساليب الماضي.

وتكمن الأسباب المباشرة التي أدت إلى تأسيس جبهة التحرير، في الصراع العنيف الذي شهدته حركة انتصار، بين مصالي الحاج الذي طالب بحصوله على سلطات مطلقة مدى الحياة من جهة، واللجنة المركزية للحزب التي اعتبرت مطلبه غير ديمقراطي ورفضته من جهة ثانية. فقام مصالي الحاج بعقد مؤتمر في بلجيكا في صيف ١٩٥٤، لم يدع فيه إلا أنصاره، وقرر عن طريقه فصل أعضاء اللجنة المركزية الذين عارضوه، وردّ هؤلاء بدورهم بنفس الفعل، وعقدوا مؤتمرًا وطنيًا في الجزائر، قرّروا على إثره فصل مصالي من قيادة الحزب وأكدوا على أنهم يمثلون السلطة السياسية الوحيدة في الحركة. وأدى هذا الانشقاق إلى ظهور تيار ثالث تجاوز أطروحة المصاليين والمركزيين على حد السواء وحصر اهتمامه في ضرورة المبادرة بقيام عمل ثوري عسكري وفوري، حتى يتم استغلال الظروف المناسبة التي أتاحها فرصة تاريخية ثمينة، وضم هذا التيار شبابًا اكتسب تجربة من العمل السري داخل المنظمة الخاصة. وسارع بإنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل، التي تحولت إلى لجنة ٢٢ ثم لجنة ٥، فلجنة ٦ وأخيرًا لجنة ٩، ومن ثَمَّ تأسست جبهة التحرير الوطني. وبذلك ساهمت الأزمات المتعاقبة في تعجيل انطلاقة الثورة المسلحة في أول نوفمبر ١٩٥٤. وفي خضم هذه الظروف لم يكن ميلاد جبهة التحرير الوطني في حقيقة الأمر سوى حلاً استراتيجيًا لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه على حد قول المناضل محمد بوضياف.

مُقَدِّمَة

في خضم اشتداد الأزمة المزمنة التي ضربت هياكل الحزب طالبت القاعدة بضرورة عقد مؤتمر لتصفية كل المشاكل التي يتخبط فيها الحزب من جهة، واتخاذ قرار انطلاق العمل المسلح من جهة ثانية، غير أن ذلك المؤتمر الذي عقدته حركة الانتصار في شهر أبريل ١٩٥٣ لم يحل أي مشكل، والأكثر من ذلك أنه أُستغل لإبعاد كل العناصر التي تعكس وجهات نظر ومطالب قواعد الحزب

وخاصةً تلك التي ارتبطت تنظيميًا بالمنظمة الخاصة، بالإضافة إلى أن المؤتمر انتهى إلى تصعيد الخلاف القائم على مستوى القيادة نفسها وهو خلاف قُوبل برفض معظم مناضلي قواعد الحركة وبشكل خاص الأعضاء النشطاء السابقين في المنظمة الخاصة الذين كانوا على دراية تامة بأن الصراع كان من أجل المسؤولية وبين الأشخاص وليس في صالح مشروع النضال الشعبي.(١)

وتؤكد بعض الروايات بأن المؤتمر فتح الباب على مصراعيه أمام أزمة قيادة بين زعيم الحزب (مصالي الحاج)، والأمانة العامة ومن ورائها أغلبية أعضاء اللجنة المركزية، الأمر الذي أدى إلى انقسام (الحزب الثوري مع مطلع سنة ١٩٥٤) وهو انقسام أعاد الحركة الوطنية الثورية إلى نقطة الصفر.(٢) لقد تركت تلك الأزمة التي انتهت بتصدع الحزب نتائج وآثارًا انعكست سلبًا على الحياة السياسية خصوصًا تلك التي ارتبطت بطبيعة العلاقات بين صفوف المناضلين في هياكل الحركة، ويتعلق أمر في هذا السياق بمصالي الذي اكتسح الساحة السياسية حيث تعاطفت معه معظم القاعدة وكثر مناصروه خصوصًا في فرنسا.(٣) وبما أن التقاليد خوّلت لمصالي تعيين الإطارات القيادية للحزب فإنه لم يعترف باللجنة المركزية التي تشكّلت عن طريق تصويت المؤتمرين وطلب منها في سبتمبر١٩٥٣ صلاحيات مطلقة، وفي نفس الوقت أعلن عن سحب ثقته من الأمين العام حسين لحول(٤) الذي رفضت اللجنة طلب الصلاحيات المطلقة، وثبتت الأمين العام في منصبه وتمسكت بمبدأ القيادة الجماعية.(٥)

أولاً: الظروف الداخلية المحيطة بنشأة جبهة التحرير الوطني (مارس ـ نوفمبر ١٩٥٤)

١/١- انسداد العلاقة بين المصاليين والمركزيين:

منذ هذا التاريخ دخل النزاع بين المصاليين والمركزيين(٦) مرحلة التأزم الذي أدى إلى القطيعة النهائية في جو مشحون بالكراهية، وتبادل التُّهم باحتكار المناصب الحزبية العليا، والابتعاد عن المبادئ والأهداف المنشودة، وقد تجّلت مظاهر هذا الصراع في ذلك المؤتمر الذي دعا إليه مصالي الحاج بأورنو(Hornu) في بلجيكا بين (١٣-١٦) جويلية (يوليو) ١٩٥٤ حيث حُلّت اللجنة المركزية وأبقي على الزعيم القديم لرئاسة الحزب مدى الحياة، وردًا على ذلك دعا الأمين العام حسين لحول وجماعته من المركزيين إلى عقد مؤتمرهم بالجزائر بين (١٣-١٦) أوت (أغسطس) ١٩٥٤ وبموجبه تم إقصاء مصالي وجماعته من مناصبهم في الحزب.(٧) وقد أفرزت هذه الثنائية في القيادة فريقين يتعارضان ويختصمان حول السلطة داخل الحزب، وفي هذا السياق يذهب سليمان الشيخ قائلاً: "الحقيقة أن هذا الزعيم الكاريكاتوري المعّين من طرف الزعيم المكرس والقائل بأن "الحزب هو أنا" ليس من طبيعة مختلفة عن قول المركزيين إن الحزب هو "نحن"، لأن الفريقين عُميا عن بروز قوى جديدة تُمثّل البديل الحقيقي(٨) وضلاً في صمم عن الإصغاء لضرورات النضال الجديدة.(٩)

٢/١- ميلاد اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) مارس ١٩٥٤(جهود ومساعي رأب الصدع):

دفعت هذه الظروف الصعبة بأنصار التعجيل بالعمل المسلح من نشطاء المنظمة الخاصة إلى بعث "حركة رأي" لدى القاعدة من أجل الحفاظ على وحدة الحزب لتوجيه التيار الاستقلالي نحو الهدف الذي وُجد من أجله مع تحديد سبل الأهداف بوضوح من خلال تبني فكرة العمل المسلح كبديل وحيد لمقارعة الاستعمار، وحسب رواية المناضل محمد بوضياف(١٠) أن هذه الفكرة -الخطوة- هي أساس مشروع إنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل،(١١) ولم يكن في الواقع الأمر محور النشاط الرئيس لهذه اللجنة هو مباشرة العمل المسلح ميدانيًا، وإنما يكمن في تحقيق هدفين هما: العمل على تسوية العلاقات القائمة داخل قيادة الحزب، ومنع تصدع صفوف القاعدة وتحزبهم لأحد الطرفين.(١٢) ويذكر بوضياف بأن اشتداد الصراع في الحزب بين أنصار مصالي وأعضاء اللجنة المركزية كان السبب الرئيس للإسراع في تفجير الثورة.(١٣)

تأسست اللجنة الثورية للوحدة والعمل في ٢٣ مارس ١٩٥٤ في مدرسة الرشاد في العاصمة من طرف أربعة شخصيات تاريخية: عضوين من قدماء المنظمة الخاصة وهم مصطفى بن بولعيد،(١٤) ومحمد بوضياف، وعضوين من اللجنة المركزية وهما: محمد دخلي(سي البشير) المسؤول العام عن التنظيم، ومساعده رمضان بوشبوبة(١٥)(سي موسى) مراقب التنظيم.(١٦) وحسب رواية بوضياف أن اختيار هذين الأخيرين يفسره موقفهما في جهاز الحزب -حركة الانتصار- بوصفهما مسؤولي التنظيم فهما يراقبان كل الهياكل والأجهزة، ومساعدتهما كانت ضرورية للاتصال بالمناضلين الكفيلين بدعم جهود الحركة التي باشرها المنادون بالكفاح المسلح، وبذلك يمكن التمكن من توفير وسائل الحزب المادية والمالية.(١٧) وقد كان هدف هذه اللجنة الظاهري والرسمي كما يبدو من تسميتها والمعلن عنه في بيان تأسيسها هو التحرك لتوحيد الصفوف والمصالحة بين مختلف الاتجاهات في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ضمن أفق محدد هو التحضير الجدي للعمل المباشر ودفع الحزب برُمّته إلى العمل الثوري.(١٨)

ويمكن الإشارة في هذا المقام من قبيل التوضيح؛ بأن فكرة "الوحدة والعمل" في أدبيات الحركة الوطنية كانت سابقة لميلاد اللجنة الثورية للوحدة والعمل التي أعطت مع ذلك لهذا الشعار مضمونًا وبعدًا جديدين.

- فالوحدة في عنوان اللجنة تعني "وحدة إيديولوجية سياسية حول هدف محدد هو الاستقلال"
- والعمل يعني الاتحاد حول الوسيلة الممكنة الوحيدة لتحقيق الاستقلال وهي الثورة.(١٩)

وتشير بعض الدراسات حول هذا الموضوع بأن ظهور اللجنة الثورية اكتنفه الكثير من الغموض بسبب تزامنه مع اشتداد حالة التأزم الداخلية في صفوف الحركة التي تصدعت في صيف ذلك

العام إلى تيارين متصارعين ونخبة مترقّبة،[٢٠] وتباين وتشابك مقاصد الأطراف المعْنية بدرجة أو بأخرى.[٢١] ومهما يكن من الأمر فإن اللجنة سَعت إلى وضع آليات جديدة لتحقيق الأهداف التالية:

١- تحرير المناضلين: من نفوذ الزعامات المتناحرة ومحاولة توجيههم نحو الثورة المسلحة بكيفية أو بأخرى.

٢- توحيد صفوف "الحزب الثوري" في خضم الكفاح المسلح، علمًا بأن ردود الفعل الاستعمارية لن تتوان في قمع أي محاولة ثورية.

ويفسر الثوار على لسان بوضياف في شهادته بأن تحالفهم القصير[٢٢] مع مسؤولي لجنة التنظيم كان لأمرين في غاية من الأهمية: الأول؛ التمكن بواسطة اللجنة من الاتصال بأكبر نسبة من المناضلين انطلاقًا بالأعضاء الأوائل في المنظمة الخاصة. والثاني؛ استغلال اللجنة للحصول على المساعدة المادية من الأمانة العامة (اللجنة المركزية) التي كانت لا تزال تتصرف في الشؤون المالية ووسائل الحزب.[٢٣]

٣- إصدار جريدة الوطني (Le-Patriote)[٢٤] لتبليغ أطروحات اللجنة إلى شريحة كبيرة من المناضلين، وكانت مقالاتها تكتب بصفة جماعية تقريبًا من طرف القادة الأربعة.[٢٥]

٤- السعي إلى عقد مؤتمر موسع بضم الأطراف المتنازعة في الحزب وذلك من أجل إعادة الالتحام والخروج بقيادة ثورية موحدة.[٢٦]

وانطلاقًا من هذه المعطيات بدأت الاتصالات بالطرفين (المصاليين والمركزيين) الأمر الذي لاحت مظاهره بالفشل في إمكانية جمع شمل الطرفين على طاولة واحدة، خصوصًا عندما اتجه كل منهما للعمل على تحضير مؤتمره وأصبح الانشقاق أمرًا مقضيًا لا مفر منه، وبذلك فشلت اللجنة الثورية للوحدة والعمل في مسعاها الوطني الذي تضمنه بيان تأسيسها بشكل رسمي وعلني. وبعد فشل هذه اللجنة في أهدافها وقع خلاف بين البعض من قادتها لاسيما بين محمد دخلي، وبوضياف، فبينما كان يرى الأول ضرورة استمرار اللجنة في مهمتها من أجل لمّ الشمل بين الإخوة الرفقاء "الفرقاء"، كان يرى الأخير أنه يجب تجاوز هذه الأزمة والتفرّغ للتحضير الميداني المباشر لاندلاع الثورة التحريرية.[٢٧]

٣/١- بروز الخيار العسكري الراديكالي: ميلاد جبهة التحرير الوطني (FLN)

وحسب شهادة عبد الحميد مهري[٢٨] بأن اللجنة الثورية انتهت عمليًا في منتصف شهر مايو عندما تفطّن دخلي إلى نشاطات بوضياف الموازية التي قام بها مع النشطاء من بقايا المنظمة الخاصة قبل انفجار الحزب،[٢٩] فاعتبر ذلك ضربًا للثّقة القائمة بين الرجلين التي لاحت مظاهرها مع مطلع شهر مارس.[٣٠] وقد وقعت القطيعة بين الطرفين حسب شهادة بوضياف خلال اجتماع في البليدة مع دخلي وبوشبوبة بعد تأكده من اتجاه مصالي لعقد مؤتمر لأتباعه واحتمال أن تذهب اللجنة المركزية في نفس الاتجاه، وكان السؤال المطروح: ما العمل ضمن هذا الاتفاق؟... وأجاب دخلي، ومع ذلك على اللجنة مواصلة مساعيها، غير أن بوضياف رد عليه مخالفًا بقوله: "نواصل ماذا؟ لقد حانت ساعة العمل"... ويضيف "وهنا افترقت بنا السبل بعد فشلنا في تحقيق وحدة الحزب".[٣١] وفي نفس السياق يذكر أحمد بن بلة بأن بوضياف عاد من فرنسا مع مطلع شهر مارس ١٩٥٤ وهو يحمل صفة "منسق بين الداخل والخارج" بموجب ما تم الاتفاق عليه خلال اجتماع مون روج ضواحي باريس مع أواخر سنة ١٩٥٣ مع كل من مهساس،[٣٢] وبن بلة.[٣٣]

وتؤكد بعض الروايات وعلى رأسها شهادة عيد الرحمان كيوان،[٣٤] بأن بوضياف شرع منذ شهر مايو في تحويل وجهة اللجنة الثورية نحو التحضير الفعلي للعمل المسلح، بعد الاتصال ببقايا نشطاء المنظمة الخاصة وجماعة القاهرة.[٣٥] وعند هذا المقام يمكن القول بأنه أصبح من الضروري على بوضياف إيجاد صيغة أخرى للشروع في التحضير السريع للثورة بالاعتماد على نواة من المناضلين القدماء في المنظمة الخاصة، وبخصوص هذه المسألة يوضّح بوضياف بأن قرار الشروع في العمل المسلح لم يكن في حقيقة الأمر سوى حلاً استراتيجيًا لإنقاذ الحركة الوطنية من حالة التصدع والانهيار.[٣٦]

وقد تجسدت أولى هذه الخطوات الهامة من حيث حرصها على توضيح المواقف في الدعوة إلى عقد اجتماع تاريخي في ٢٥ جوان (يونيو) ١٩٥٤ أصطلح على تسميته بالقاعدة الأولى للثورة الجزائرية[٣٧] الذي انعقد بمنزل المناضل إلياس دريش في كلوصالمبي Clos Salembier (بلدية المدنية حاليًا) بأعالي العاصمة، جمع اثنين وعشرين مناضلاً بمبادرة من بوضياف، وديدوش، وبن بولعيد، وبن مهيدي، وبيطاط وهي اللجنة الخماسية التي أخذت على عاتقها مهمة التحضير لهذا اللقاء التاريخي، حيث وُجهت الدعوة لاثنين وعشرين من الإطارات الثورية التي آمنت بفكرة الثورة لحضور اجتماع في العاصمة لاستخلاص النتائج من تجربة المنظمة الخاصة، وتبادل الآراء والتحضير للانتفاضة.[٣٨] وتحولت هذه اللجنة الخماسية إلى مكتب للاجتماع برئاسة مصطفى بن بولعيد باعتباره أكبر المدعّوين سنًا،[٣٩] بينما قام بوضياف بتقديم تقرير مفصّل خلال الفترة الصباحية أنهاه بالعبارات التاريخية التالية "نحن قدماء المنظمة الخاصة ينبغي علينا اليوم أن نتشاور ونقرر المستقبل".[٤٠] ومن أهم المحاور الأساسية التي ركّز عليها التقرير المفصّل الذي ألقاه بوضياف على مسامع الحاضرين نذكر:

- لمحة عن مسيرة المنظمة الخاصة من التأسيس إلى الاكتشاف (١٩٤٧ - ١٩٥٠).

- التحضيرات الميدانية التي قامت بها عناصر المنظمة منذ بداية ١٩٥٢.

- جذور أزمة الحزب وأسبابها العميقة وعلى رأسها النزاع بين التياران الإصلاحي والثوري الذي أدى إلى القطيعة النهائية في نهاية المطاف.

- الإشارة إلى قيام الثورة في كل من تونس والمغرب.[٤١]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وبعد نقاش حاد وطويل استغرقته الفترة المسائية حول عناصر التقرير السابق الذكر انتهى اللقاء بتحرير مذكرة بعد المصادقة عليها من طرف كل الحاضرين في الاجتماع تضمنت ما يلي:

(١) إدانة الجماعة المتسببة في انقسام الحزب.

(٢) إعلان المجموعة عن محو آثار أزمة الحزب وإنقاذ الحركة الثورية من حالة التصدع و الانهيار.

(٣) الإعلان عن قرار الثورة المسلحة كوسيلة وحيدة لتجاوز الخلافات الداخلية وتحرير الجزائر.(٤٢)

وحول نفس الموضوع يذكر رابح بيطاط بأن من أهم القرارات الحاسمة التي احتلت جانبًا كبيرًا من النقاش بين الحضور خلال جلسات الاجتماع هو اتخاذ قرار إعلان الثورة وتحديد أهدافها.(٤٣) ونظرًا لما يشكّله اجتماع ٢٢ التاريخي بالنسبة لمرحلة الانطلاقة باعتباره القاعدة الأولى للثورة وبمثابة الجمعية التأسيسية الثورية التي أخرجت جبهة التحرير الوطني إلى الوجود في نوفمبر ١٩٥٤ لابد من الإشارة إلى قائمة العناصر المشاركة في هذا الاجتماع المصيري حيث ضمت ما يلي:

- قائمة المنظمون الرئيسيون: محمد بوضياف، مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، ومراد ديدوش ورابح بيطاط.
- المشاركون من منطقة العاصمة وهم: عثمان بلوزداد، محمد مرزوقي، الزبير بوعجاج إلياس دريش صاحب المنزل.
- المشاركون من منطقة البليدة: أحمد بوشعيب،(٤٤) وبوجمعة سويداني.(٤٥)
- المشاركون من منطقة وهران: عبد الحفيظ بوصوف، رمضان بن عبد الملك.
- المشاركون من منطقة قسنطينة: محمد مشاطي، عبد السلام الحباشي، رشيد ملاح، السعيد بوعلي.
- المشاركون من شمال قسنطينة: يوسف زيغود، لخضر بن طوبال، عمار بن عودة، مختار باجي.(٤٦)
- المشاركون من جنوب قسنطينة: عبد القادر العمودي.(٤٧)

كما أشار بوضياف إلى نقطة هامة تتعلق بالتشكيلة عند افتتاح الاجتماع وتأسّف لغياب ممثلي القبائل قائلاً: "إخواننا في منطقة القبائل الذين لا يزالون تحت سيطرة المصاليين وبعض من رفقائنا الذين يقبعون في السجون."(٤٨) وتحت رئاسة بن بولعيد واصلت المجموعة نقاشها حول وضعية الحزب ومستقبل القضية الوطنية واتفق الاثنين والعشرون تمامًا على مبدأ تعيين قيادة من أجل تنسيق أفضل وحركة أكثر سيولة للأخبار، وقرروا تعيين مسؤول يختار مساعديه ليشكلوا هيئة الأركان. وخلال مناقشة هذا الموضوع أُقر باقتراح واحد في انتخاب المسؤول وليس تعيينه بطريقة عشوائية، وأعرب كل الحضور عن ثقتهم في مصطفى بن بولعيد ليقوم بفرز الأصوات، وعقب انتهاء الاجتماع قام بن بولعيد بفرز القصاصات وصرح بأن الحصول على النتائج يكون عقب الدور الثاني، وبلّغ بن بوالعيد نتيجة الاقتراع إلى بوضياف، وقال له "أنت الذي انتخبوك"، ورد عليه بوضياف قائلاً: "مع رفقائنا الثلاثة العربي، ومراد، ورابح الذين ساعدونا في تحضير هذا اللقاء سنكون خمسة في انتظار قرار نهائي بخصوص عدد العناصر التي تكون هيئة الأركان"،(٤٩) وبذلك أمنت هذه المجموعة بأن إشعال نار الثورة هو الكفيل بإخماد النزاع القائم.(٥٠)

لقد كرس الاجتماع بصيغة أخرى اللجنة الخماسية كقيادة للحركة الوليدة ومنسقها محمد بوضياف، وفي لقاء آخر درست لجنة الخمسة مضمون المذكرة وكيفية تطبيقها ولذلك اتخذت عدة قرارات منها:

- تجميع العناصر القديمة في المنظمة الخاصة والعمل على إعادة هيكلتها.
- مواصلة التكوين العسكري اعتمادًا على كرّاسات المنظمة الخاصة التي طبعت مرة أخرى.
- تحديد فترات منظّمة للتكوين في عمليات صنع المتفجرات استعدادًا لانطلاق الثورة، وتم في نفس اللقاء توزيع المهام بين أعضاء اللجنة والإصرار على مواصلة الاتصالات مع منطقة القبائل لإدماجهم في الحركة الجديدة.(٥١)

وعند هذا المقام لا بد من الإشارة إلى؛ أن عملية تجميع أعضاء المنظمة الخاصة لم تنحصر في العناصر السابقة أو القديمة في المنظمة، بل امتدت إلى بعض القسمات القليلة هنا وهناك التي تمكنت القيادات الثورية أن تحيدها بنسب متفاوتة منذ بداية الأزمة بين مصالي والأمانة العامة وقد اعترضت عملية التجميع في الميدان عراقيل كثيرة منها:

- ميل أغلبية المناضلين في القاعدة إلى زعيم الحزب، وأثّر ذلك على العناصر الثورية ذاتها كما وقع بمنطقة جرجرة، وبذلك استغرقت مفاوضات "لجنة الخمسة" مع كريم بلقاسم ورفقائه أربع أشهر كاملة، ولم تتوج بانضمامهم إلى مجموعة الـ ٢٢ حتى أواخر شهر أوت (أغسطس) ١٩٥٤.(٥٢)
- مناوئة كل من المصاليين والمركزيين للحركة الوليدة، فالمصاليين يرون في بوضياف مجرد وسيلة في يد اللجنة المركزية، أما المركزيين يعتقدون أن الظروف غير مواتية بعد للإعلان عن الثورة وتخوّفوا من أن يؤدي "العمل المبستر" إلى كارثة أشبه بمأساة الـ ٨ مايو ١٩٤٥.(٥٣)

وقد راهنت لجنة الخمسة على مسألتين في غاية الأهمية:

(١) **البعد الخارجي**: حيث كان العُمق الاستراتيجي العربي يكتسي أهمية حيوية بالنسبة لمجموعة بوضياف التي تمكنت من ربط الاتصال من جديد بأحمد بن بلة من الوفد الخارجي لحركة الانتصار في القاهرة في العاصمة السويسرية "برن" مع بداية شهر جويلية (يوليو) ١٩٥٤. وفي اللّقاء الثاني في برن وعد بن بلة بكسب

تأييد ودعم حكومة القاهرة التي اشترطت دعمها بالانطلاق في الثورة بالإمكانيات الذاتية للثوار ريثما يصل السلاح.(٥٤)

(٢) **ركيزة الشعب**: لم تجد لجنة الخمسة في صائفة ١٩٥٤ سوى عنصر "الشعب"، لكي تراهن عليه في معادلة النجاح أو الفشل انطلاقًا من التجارب السابقة وعميق الثقة في نتائج النضال الوطني عبر صفحات سجلّه الضخم الحافل بالبطولة والتضحية.

وتشير الكثير من الشهادات الحية لعناصر مختلفة من السياسيين ومناضلين في الحركة الوطنية وقادة ثوريين بأن الشعب فعلاً أصبح جاهزًا للانطلاقة، وفي هذا الصدد يشير المناضل الدكتور الأمين دباغين بأنه مع منتصف شهر أوت (أغسطس) ١٩٥٤ أصبحت الظروف الداخلية والخارجية مناسبة لإعلان الثورة المسلحة خصوصًا وأن الجماهير مستعدّة للالتفاف حول المجموعة التي بادرت بذلك.(٥٥) كما يؤكد تلك القناعة المناضل الطيب بولحروف(٥٦) عشية انعقاد مؤتمر المركزيين شهر أوت (أغسطس) ١٩٥٤ قائلاً: "إن الإحساس السائد حينئذ أن مَنْ يطلق الرصاصة الأولى سيكتب له الفوز بقيادة الثورة بدون منازع".(٥٧)

ويذهب مصطفى الأشرف بأن الاستعداد والتحفّز بلغ قبيل الفاتح نوفمبر إلى درجة أن بعض المناضلين فهموا تعليمات الاستعداد للعمل كأوامر نافذة تستدعي طلاق الحياة على الفور بدءًا بالعائلات والديار.(٥٨) وفي نفس الفترة عقب الإعلان عن التحاق منطقة القبائل بركب الثورة بقيادة كريم بلقاسم لمّح هذا الأخير لمحمدي سعيّد قائلاً بأن ساعة العمل أصبحت وشيكة، طمأنه بقوله "نحن جاهزون فو الله لو ثار عشرة رجال هذه المرة لانتصروا على فرنسا".(٥٩) أما محمد بوضياف فإنه يؤكد من جهته بأن أول نوفمبر نشأ أساسًا على فكرة الاعتماد على الشعب.(٦٠) ونقف عند محمد العربي بن مهيدي الذي لخّص كل ما تمت الإشارة إليه سالفًا بمقولته المشهورة "القوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب".(٦١)

وعندما تعلق الأمر بمسألة الإمكانيات المادية التي تمكّن قادة الثورة من انطلاقتها كان من الطبيعي أن يستفيد بوضياف ورفاقه من الموروث العسكري الذي تركته "المنظمة الخاصة" الذي يمكن أن نحدده فيما يلي:

- الخبرة، والتكوين، والتدريب العسكري المكتسب في الجيش الفرنسي نفسه.(٦٢)
- التكوين، والتدريب في إطار المنظمة الخاصة ذاتها، وقد أعطت هذه التجربة فائدة في التعرف على الميدان والإطار الجغرافي المهيأ لإمكانية انطلاق العمل المسلح في المستقبل.(٦٣)
- مخزون الأسلحة التي تم جمعها وشراؤها بوسائل مختلفة ومعظمها من مخلّفات الحرب العالمية الثانية، تم تهريبها من ليبيا إلى الحدود الجزائرية الشرقية لكي تخزّن بشكل خاص في منطقة الأوراس.(٦٤) ومع نهاية شهر أوت (أغسطس) التحقت منطقة القبائل بركب التحضير للثورة بعد مشاورات طويلة انتهت بموافقة كريم بلقاسم بانضمامه إلى لجنة الخمسة، التي أصبح العضو السادس فيها رفقة بوضيافو ديدوش، وبن بولعيد، وبن مهيدي، وبيطاط، وبذلك عرفت بلجنة الستة ابتداءً من شهر سبتمبر.(٦٥)

شرعت هذه اللجنة مع بداية شهر سبتمبر بعقد سلسلة من الاجتماعات التاريخية لدراسة مختلف الجوانب في عملية التحضيرات المادية، والمعنوية، والتكتيك، والاستراتيجية، ومسائل التنظيم، والهيكلة، ونوعية القيادة، بالإضافة إلى محتوى الحركة الجديدة على المستوين السياسي والإيديولوجي، واتفق القادة الستة في النهاية بإقرار مبدأين اثنين واستراتيجية من ثلاثة مراحل:

١- اللامركزية في المبادرة والقرار بسبب اتساع الرقعة الجغرافية، وضعف الإمكانيات الأمر الذي صّعب من مهمة جهاز مركزي في عملية تسيير الكفاح بشكل فعال.

٢- أولوية الداخل عن الخارج، أي أن القرارات الهامة يجب أن تصدر من الثوار المقاتلين في الداخل أما عن المراحل فهي:

(أ) مرحلة بناء الهيكل السياسي (جبهة التحرير الوطني)، والعسكري (جيش التحرير الوطني) لتحضير العمل المسلح وضمان إنشائه.

(ب) مرحلة تعميم انعدام الأمن على نطاق واسع.

(ج) مرحلة تكوين المناطق (وتوزيع المسؤوليات).(٦٦)

ووضعت آخر اللمسات لانطلاق الثورة التحريرية في اجتماعي (١٠) و(٢٣) أكتوبر ١٩٥٤ في الجزائر من طرف لجنة الستة التي اتفقت على القرارات التاريخية التالية:

١- تسمية المنظمة الجديدة بـ "جبهة التحرير الوطني"(٦٧) التي حلت محل اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وفتح باب العضوية فيها لكل مَنْ يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر، على أن يكون الالتحاق بصفة فردية.

٢- تسمية المنظمة العسكرية بـ "جيش التحرير الوطني" يدعم العمل السياسي، وينفذ القرارات العسكرية.

٣- تحديد موعد انطلاق الثورة التحريرية باختيار ليلة الأحد إلى الاثنين ١ نوفمبر ١٩٥٤ كتاريخ لانطلاق العمل المسلح لاعتبارات تكتيكية وعسكرية.

٤- تقسيم التراب الوطني إلى خمس مناطق وتعيين قادتها بشكل نهائي:

(أ) المنطقة الأولى (الأوراس النمامشة): يقودها مصطفى بن بولعيد بمساعدة شيحاني بشير.

(ب) المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني): يقودها ديدوش مراد بمساعدة زيغود يوسف.

(ج) المنطقة الثالثة (منطقة القبائل): يقودها كريم بلقاسم بمساعدة عمر أوعمران.

(د) المنطقة الرابعة (الجزائر وضواحيها): بقيادة رابح بطاط بمساعدة سويداني بوجمعة.

(هـ) المنطقة الخامسة (القطاع الوهراني) بقيادة العربي بن مهيدي بمساعدة بن عبد المالك رمضان

كما تم تكليف محمد بوضياف بمهمة التنسيق بين الداخل والخارج مع التركيز على مبدأ القيادة الجماعية.[٦٨]

ويمكن القول؛ بأن اجتماع ١٠ أكتوبر بالمرادية هو الذي أقرت فيه لجنة الستة بيان الفاتح من نوفمبر الذي أعلن عن ميلاد حركة جديدة باسم "جبهة التحرير الوطني"، ونداء إلى الشعب الجزائري باسم الجيش التحرير الوطني، وفي نفس الاجتماع تم تحديد موعد جديد لإعلان الثورة ليلة فاتح نوفمبر الذي يصادف عيد القديسين، ويعتبر الفاتح من نوفمبر أرضية إيديولوجية وسياسية وافية، حيث تضمن مختلف العناصر المتعلقة بجبهة التحرير الوطني وأهدافها ووسائلها، وتهدف الجبهة إلى تحقيق الاستقلال باعتباره مدخلاً ضروريًا لإقامة دولة جمهورية ديمقراطية اجتماعية كاملة السيادة في إطار المبادئ الإسلامية. وبإمكان الدّارس المتتبع لتاريخ الثورة التحريرية أن يلاحظ الغموض الكبير الذي اكتنف انطلاقة الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ لعدة عوامل أهمها:

- عنوان جبهة التحرير الوطني ظل في طي الكتمان المحكم ولم يعلن عنه إلا في بيان الإعلان الثوري،[٦٩] الذي شرع في توزيعه غداة اندلاع الثورة التحريرية. وتجدر الإشارة في هذا السياق؛ بأن هذا العنوان لم يَرِد قط، قبل الفاتح من نوفمبر في أي خطاب، أو تقرير، أو مذكرة إعلامية للسلطات الاحتلال محليًا أو مركزيًا بفرنسا ذاتها.[٧٠]
- اندلاع الثورة في خضم انقسام الحزب الثوري (حركة انتصار الحريات الديمقراطية).
- مسارعة مصالي بتبني الثورة المسلحة اعتمادًا على القاعدة النضالية العريضة.[٧١]

وفي ظل هذا الغموض جاء بيان أول نوفمبر ليبين التوضيحات اللاّزمة ويقضي على الالتباس فقط لأنه لم يكن في تلك الفترة قد انتشر على نطاق واسع بعد. فقد تضمن تعريفا بالحركة التي بادرت بإشعال فتيل الثورة (جبهة التحرير الوطني). وعند هذا المقام يمكن القول؛ بأن الجبهة هي حركة تجديدية، قام بها الشباب من الحركة الوطنية (حزب الشعب الجزائري) لا علاقة له بالطرفين المتسببين في تصدّع هذه الحركة: مصالي وأنصاره من جهة، والأمانة العامة ومعها أغلبية اللجنة المركزية من جهة ثانية، وهي أيضًا (الجبهة) حركة ثورية بناء على المهام التي وضعت على عاتقها إنجازها سواء على مستوى الطبقة السياسية الجزائرية، أو في إطار التصدي للنظام الكولونيالي.

ثانيًا: تأسيس الحركة الوطنية الجزائرية (MNA)[٧٢] ديسمبر ١٩٥٤

بدأت ردود الفعل الفرنسية مباشرة عقب اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ بإعلان حالة الطوارئ، وأقدمت على حل حركة الانتصار الحريات الديمقراطية[٧٣] بقرار من مجلس الوزراء في الرابع من نوفمبر رافقته حملة من الاعتقالات شملت عدد من المسؤولين والمناضلين ليلة الرابع إلى الخامس من نوفمبر ١٩٥٤.[٧٤] لقد رأى المركزيون بأن العمل الذي أقدمت عليه الجبهة التحرير الوطني مغامرة مجهولة النتائج، الأمر الذي دفعهم إلى التحقّظ عن اتخاذ أي موقف في بداية الأمر، خصوصًا بعد اعتقال أبرز مناضليهم مثل يوسف بن خدة، وعبد الرحمان كيوان، وأحمد بودة، إلا أن اتصالاتهم الأولى بعبان رمضان عقب إطلاق سراحهم في شهر مارس ١٩٥٥ كان لها كبير الأثر في الإسراع للالتحاق بركب الثورة، وكان ذلك بمثابة إعلان رسمي عن نهاية التيار المركزي والاعتراف بجبهة التحرير الوطني كهيئة شرعية في قيادة الثورة التحريرية.[٧٥] في حين التف المصاليون حول زعيم الحزب قبل ذلك الوقت وعقدوا مؤتمرهم في هورنو ببلجيكا ١٣ إلى ١٦ جويلية ١٩٥٤ أكدوا فيه على التمسك بهوية تيارهم ورفضوا الانضمام إلى جهة التحرير الوطني عند إعلانها عن تفجير الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤.[٧٦]

١/٢- موقف مصالي الحاج من اندلاع الثورة التحريرية (١ نوفمبر ١٩٥٤):

لم يتخذ مصالي الحاج موقفًا واضحًا علنيًا عند الانطلاقة، وفي هذا السياق يشير المؤرخ الفرنسي بنيامين سطورا (Benjamin Stora) بأن هذا التأجيل في الإفساح عن موقفه لا يفسر فقط بتشديد الرقابة عليه في إقامته الجبرية،[٧٧] بل كان يرغب كذلك في ترك الأحداث تتطور ليتمكن بعدها من تقييم الوضع الجديد كما هو، ويضيف سطورا (Benjamin Stora) بأن مصالي كان أمام حلين: الحل الأول؛ أنه كان بإمكانه أن يندد ويرفض الأعمال التي وقعت في أول نوفمبر ١٩٥٤. الحل الثاني؛ يفر من فرنسا إلى القاهرة لتوحيد العمل مع بن بلة وخيضر[٧٨] كما اقترح عليه قادة اللجنة الثورية للوحدة والعمل.[٧٩] إلا أن مصالي اختار حلاً ثالثًا عندما سارع إلى تبني الثورة المسلحة معتمدًا في ذلك على أغلبية المناضلين في القاعدة، وقد حاول منذ الأيام الأولى للانطلاقة خطفها من أيدي أصحابها الحقيقيين ونسبها إلى نفسه، حيث أوهم الرأي العام الوطني في الأسبوع الأول من اندلاعها على أنه صاحب الحركة، وفي هذا الصدد تلقى أنصاره إشارة واضحة بأمر منه يوم الرابع من نوفمبر مفادها "لا تسألوا عمَن فجر الثورة، حاولوا ركوب الموجة والسيطرة على قاطرة الحركة".[٨٠]

وفي هذا الاتجاه؛ يبدو أن مصالي لم يشجب الأعمال التي وقعت في الفاتح نوفمبر واعتبرها مرحلة أخيرة منطقية في كفاح الشعب الجزائري وحزبه مع رفض تقييد حريته في التصرف وحرية حركة

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

انتصار الحريات الديمقراطية، الأمر الذي يعكس بعمق مضمون ذلك التصريح الذي أدلى به لوكالة الأنباء الفرنسية يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٤ قائلاً "بمجرد الإعلان عن الأحداث التي جرت في الجزائر في ليلة ٣١ أكتوبر إلى ١ نوفمبر... عززت على نحو خطير الرقابة المفروضة حول شخصي (...) لقد قلنا ذلك في وقت سابق ونكرره اليوم :إنه بإنهاء هذا النظام والاستجابة لطموحات شعبنا يمكن وضع حد لهذه الانفجارات التي ليست في الحقيقة إلا أعمالاً صادرة عن اليأس وهنا يمكن العلاج".[٨١]

وتُجمع جُلُّ الكتابات التاريخية المتوفرة المدعمة بشهادات حية حول رفض مصالي الدعوة للانضمام إلى الثورة التحريرية التي حضّرت لها اللجنة الثورية للوحدة والعمل وفجّرتها باسم الحركة الجديدة -جبهة التحرير الوطني- واعتبرها مغامرة كبرى بالنظر إلى أنه كان يرى نفسه هو الذي يحضر منذ ثلاثين سنة لاستقلال الجزائر.[٨٢] وفي نفس السياق يشير فرحات عباس حول رفض مصالي للثورة قائلاً: "لم يؤكد مصالي الحاج حركة أول نوفمبر١٩٥٤ بل بالعكس أخطأ مرتين: أخطأ عندما رفض رئاسة جبهة التحرير الوطني من طرف لجنة الستة الممثلين في الجزائر، ثم أخطأ ثانية عندما فقد ثقة أنصاره لأنه نسب الثورة للحركة الوطنية الجزائرية، ومهما يكن فإن لجنة التسعة لا يمكن أن تتسامح بشأن هذه الحقيقة.[٨٣]

لقد وجدت الشخصية القيادية التي تميز بهام مصالي الحاج نفسها بصورة طبيعية جدًا في خضم تسارع الأحداث التي شهدتها مرحلة ما قبل الانطلاقة مستبعدة عن "الحركة" التي بادرت إلى العمل المسلح. الأمر الذي ولّد رد فعل أشد عنفًا، وهو رد "الزعيم" الذي لا يقبل بمشروع عمل وطني إلا إذا جاء من عنده هو ولما كان يعتبر نفسه بمثابة الأب الروحي المؤسس "للحركة الوطنية"، فإنه شعر بأن أصحاب هذه المبادرة من أبناء "الأب المقدس" الذين يظلّون في عينه مجرد أطفال، وأنه هو الذي ربّاهم ونشّأهم على ضرورة احترام الأب قد اعتدوا على حقوقه اعتداءً لا يحتمل. وفي الحقيقة: أن هؤلاء الأبناء ترددوا كثيرا في المبادرة إلى القطيعة مع الأب ويشهد على ذلك المحاولات التي قامت بها عناصر اللجنة الثورية في إصلاح ذات البين بين المصاليين والمركزيين ويشهد على ذلك أيضا أخر جهد بذله بن بولعيد وكريم بلقاسم لكي يقبل مصالي مبادرة الشباب إلى العمل المسلح، فاضطر مؤسسو الجبهة أمام هذا الإخفاق إلى تعيين اليوم الأول لبدء الصراع المسلح. وبذلك نشأة الجبهة عن قطيعة داخلية داخل الحركة الوطنية التي هيمن عليها مصالي لمدة طويلة.[٨٤]

وانطلاقًا من هذه المعطيات التاريخية: يمكن للباحث في هذا الموضوع أن يدرك بأن مصالي الحاج لم يكن ضد إعلان الثورة من أجل استقلال الجزائر، بل أن الأمر الذي لم يستسغه أو يستوعبه أن تندلع الثورة بدون علمه وبعيدًا عن قيادته، وبواسطة شباب ينتمون إلى حزب هو رئيسه الأمر الذي دفعه على التوّ إلى تأسيس تنظيم موازي للجبهة عُرف بـ الحركة الوطنية الجزائرية (MNA).[٨٥] وبسبب تعنّت مصالي وإصراره على فكرة "الزعيم الملهم"، أو الزعامة الفردية للثورة من جهة، وتمسك عناصر اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) بفكرة القيادة الجماعية، قرر تأسيس حركة سياسية جديدة باسم "الحركة الوطنية الجزائرية".[٨٦]

٢/٢- تشكيل الحركة الوطنية الجزائرية (MNA):

اختلفت الكتابات التاريخية المتخصصة في مرحلة الثورة التحريرية حول ضبط تاريخ ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية،[٨٧] إلا أن المؤكد بالاستناد إلى الكثير من الدراسات الموثّقة والشهادات الحية أن ظهور الحركة الوطنية كان مباشرة بعد ميلاد جبهة التحرير الوطني في أول نوفمبر ١٩٥٤.[٨٨] وفي هذا السياق يشير سليمان الشيخ بأن مصالي أقدم على إنشاء الحركة الوطنية (MNA) في شهر نوفمبر ١٩٥٤ دون ذكر تاريخ اليوم.[٨٩] أما محمد تقية (Mohamed Teguia) يرجع تاريخ التأسيس إلى ٠٦ نوفمبر ١٩٥٤ وهو تاريخ الذي تزامن مع قرار حل الحركة انتصار الحريات الديمقراطية في الخامس من نفس الشهر،[٩٠] في حين يرى محمد حربي أن المصاليين وضعوا التسمية الجديدة لحركتهم مع مطلع شهر ديسمبر ١٩٥٤.[٩١] ويدعم هذا الطرح كل من بنيامين سطورا (Benjamin Stora)، وإيف كوريار (Yves Courrière)، وجاك سيمون (Jacques Simon) الذين أوردوا التاريخ نفسه (مطلع شهر ديسمبر١٩٥٤)،[٩٢] إلا أن المجاهد أحمد بودة في شهادة له لمحمد بلقاسم يذهب إلى رأي آخر، إذ يرى بأن تأسيس الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) كان بفرنسا مع مطلع شهر مارس ١٩٥٥.[٩٣]

ومهما يكن من الأمر: فإن جُلُّ الكتابات التاريخية المتوفرة تتفق على أن بداية شهر ديسمبر ١٩٥٤ هو التاريخ الرسمي لتأسيس الحركة الوطنية الجزائرية ويمكن تفسير ذلك بظهور أولى النشاطات الرسمية العلنية في الجزائر على شكل أعمال عنف، وفي هذا الإطار يشير محمد حربي بأنه بعد المفاجأة التي أحدثتها الانطلاقة في أول نوفمبر،[٩٤] تموقع المصاليون بشكل سريع في معسكر الصراع، حيث تم هيكلة الحركة وكُيِّفت مع الأوضاع الجديدة، وظهر الإرهاب المصالي في الشمال القسنطيني، وبالضبط في سكيكدة، عندما قامت مجموعة فدائية من المصاليين في ديسمبر بتصفية شرطي جزائري يدعى شنوفي بدعوى أنه عميل لدى الشرطة الفرنسية، الأمر الذي استنكره ديدوش مراد، واعتبر ذلك محاولة تخريب، لأن كل ما يتّم خارج جهة التحرير الوطني هو من قبيل التشويش وإثارة البلبلة والفوضى.[٩٥]

وانعكست هذه الظروف الصعبة على تطور العمل الثوري في مرحلته الأولى في ظل جو اكتنفه المزيد من الغموض، وتطورت حالة الالتباس عندما التحق المصاليون بالركب فعلاً وإعلان ثورتهم باسم "حركة الوطنية الجزائرية"، وبعيّن مؤسسها مصالي لنفسه هدفًا محددًا لا هدف بعده هو محاربة جهة التحرير الوطني.[٩٦] وخطف الثورة من أيدي قيادتها الشرعية ونسبها إلى حركته الجديدة، الأمر

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الذي أشار إليه بوضوح في رسالة وجهها إلى رئيس مجلس الوزراء سورية يوم ١٠ مارس ١٩٥٧.[٩٧]

ثالثا: حرب التصريحات والمناشير بين جبهة التحرير والحركة الوطنية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٥٥)

على الرغم من فشل مساعي بعض الأعضاء من لجنة الستة في محاولة إقناع مصالي للمشاركة في الثورة وقبول قيادتها قبيل الانطلاقة،[٩٨] لم تنقطع الاتصالات بين قادة الجبهة والحركة الوطنية الجزائرية إلى غاية بداية ١٩٥٥، وهو ما يفسر عدم مواجهة الجبهة لتصريحات مصالي التي تبنى فيها المبادرة الثورية، لأن ذلك كان يسد العجز الكبير والحاجة الملحة لواجهة سياسية ذات شعبية وشهرة على المستويين الداخلي والخارجي، ويبقى الأمر على هذا الحال في ظروف لم تكن فيها جبهة التحرير تملك كفاءات سياسية لمواجهة الحركة الوطنية الجزائرية إلى غاية التحاق عبان رمضان بالثورة في شهر فيفري (فبراير) ١٩٥٥ ومنحه للجبهة القيادة السياسية التي كانت في أمس الحاجة إليها، وأعلن إصراره وعزمه عن عدم السماح للحركة الوطنية أن تتبنى الثورة أمام الرأي العام في الداخل والخارج.[٩٩]

سعت الحركة الوطنية الجزائرية بعد الانطلاقة لاحتواء الجبهة بكل الطرق والوسائل في كل المواقع، فإذا كان موقف قيادة الجبهة بالقاهرة واضحًا في رفضها الالتحاق بمصالي، فإنه في الجزائر كان غير ذلك حيث لجأ قادة الجبهة إلى التملص والمراوغة لكسب الوقت من أجل تعزيز مواقعهم وجمع قواهم. وفي هذا السياق نشير إلى محاولة اتصال الحركة الوطنية بكريم بلقاسم في الجزائر وسلمته مبلغًا معتبرًا من المال، ودعته لقيادة العمل المسلح تحت راية مصالي، غير أن كريم رد بالتماطل وحاول من جهته أن يستقطب إلى جانبه الإطارات المصالية المنتمين للمنظمة الخاصة سابقًا، وفي نفس الاتجاه التقى محمد خيضر بالمناضل ياسف سعدي بنية خداعه، غير أن اقتراحاته باءت بالفشل.[١٠٠] واستمرت الاتصالات حتى بداية سنة ١٩٥٥، حيث كان كريم بلقاسم على قناعة تامة بأنه مالم تحدث القطيعة لن يتمكن المصاليون من تشكيل مجموعات قتالية الأمر، الذي يسمح باستمرار التحاق المناضلين الحقيقيين بالجبهة، ويفسر حربي استمرار هذا الطرح (أو اللغة) بعجز الجبهة عن خوض معركة سياسية مع الحركة الوطنية في وقت لم يكن أي إطار من إطاراتها الموجودين في الداخل قادرًا على إنجاح هذه المعركة حتى التحاق عبان رمضان بالثورة، كما تمت الإشارة إليه سابقًا (فيفري ١٩٥٥).[١٠١]

عرفت العلاقة بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية مع بداية ربيع ١٩٥٥ ، تدهورًا كبيرًا من خلال حرب التصريحات والمناشير التي كادت أن تؤدي إلى صدام مسلح على المستويين الداخلي والخارجي.[١٠٢] وقد حاولت قيادة الثورة تفادي المواجهة المسلحة مع المصاليين في كثير من الأحيان وواصلت الاتصالات معهم،[١٠٣] ومنحتهم الفرصة لإعادة النظر في مواقفهم، وقد أكد ذلك المناضل محمد ماروك الذي كان يحتل منصبًا في الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) قائلاً: "كان التصلب من جانب الحركة الوطنية الجزائرية حتى شهر أفريل (أبريل) ١٩٥٦، وبعد هذا التاريخ ستبادلها جبهة التحرير بالمثل".[١٠٤]

(أ) على المستوى الداخلي:

احتدم التنافس السياسي بين الطرفين المتصارعين منذ ربيع ١٩٥٥ وتدهورت العلاقات وتحولت إلى حرب كلامية ضمن سلسلة طويلة من التصريحات والمناشير عبر وسائل إعلامية مختلفة، لجأت الحركة الوطنية الجزائرية بعد التحاق منطقة القبائل بالثورة التحريرية إلى تضليل الرأي العام، على أن الثورة قام بها المصاليون، كما أن كريم بلقاسم وعمر أوعمران اللذين كانا من مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ولم تعزلهما القيادة من المسؤولية بعد مؤتمر هورنو الأمر الذي يسّر لهما حمل المنطقة على الانضمام الجماعي للثورة التي شاركا فيها من جهة أخرى كعضوين في اللجنة الثورة للوحدة والعمل ولم يقطعا علاقتهما القديمة بمصالي.

وقد لخصّت هذا الادعاء صحيفة "صوت الشعب"[١٠٥] لسان حال الحركة الوطنية الجزائرية يوم ١٦ فيفري (فبراير) ١٩٥٥ بنشر رسالة من "الوطني كريم بلقاسم" سجل فيها استنكاره للقمع من منطقة القبائل.[١٠٦] كما ادعت الحركة الوطنية بانتساب بن بولعيد للحركة المصالية منذ محاكمته يوم ٢٢ جوان ١٩٥٥ في منشور إعلامي جاء فيه "إن بن بولعيد القائد الكبير للحركة الوطنية الجزائرية والقائد العام السابق لجيش التحرير الوطني المحكوم عليه بالإعدام عدة مرات، والذي انتزعته من السجن وحدات الحركة الوطنية واغتيل بجبن يوم ٢٧ مارس ١٩٥٦ من طرف موفودين من قبل جبهة التحرير الوطني واغتالوا بالإضافة إليه قادة آخرين عديدين في الجبال.[١٠٧]

وإذا كانت جبهة التحرير الوطني لا تزال تطالب إلى غاية شهر جوان ١٩٥٥ من مصالي الالتحاق بالثورة، فإنه في شهر سبتمبر تغير الوضع حيث شددت لهجتها في بيان أصدرته بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٥٥ وأصبحت تشير إليه على أنه العدو الذي يجب القضاء عليه "لقد سبق وأن كان سبب تصدع وحدة الحركة الوطنية وهو اليوم مساعد للاستعمار في صراعه مع القوة المقاتلة".[١٠٨] وفي مقابل ذلك لجأت الحركة الوطنية الجزائرية في شهر ديسمبر من نفس السنة بدعم وتحريض من مختار زيتوني إلى توزيع منشور في كل من الجزائر، والبليدة، ووهران، بعنوان "سلة السرطانات" يرى فيه بأن قيادة جبهة التحرير الوطني مشكّلة من الخونة "أي من الأشخاص المطرودين من حركة الانتصار للحريات الديمقراطية مثل بن خدة والأمين دباغين ... وغيرهم".[١٠٩]

وعلى الميدان عملت الحركة الوطنية على تأسيس عدة فروع تابعة لها في الجزائر، وقسنطينة، ووهران، وبعض المدن الداخلية، وانطلق نشاطهم بإصدار قرارات على السكان ففي شهر أفريل

(أبريل) ١٩٥٥ أصدرت قرارًا بمقاطعة ومنع الكحول، والتبغ ومَنْ لم يلتزم بذلك يكون عرضة لعقوبات صارمة.(١١٠) وتطور الأمر بعد أن تحول نشاط الحركة الوطنية إلى التهديد ومحاولات التخريب والعنف ضد الأبرياء المدنيين من الجزائريين لاستغلالهم وابتزازهم لجمع الأموال، وفي هذا الإطار قامت عناصر الحركة الوطنية بتهديد التجّار المزابيين بالعاصمة والبليدة عن طريق رسائل باسم الجبهة ومطالبتهم بمبالغ مالية.(١١١) ولتعزيز ولاء الأفراد وتماسك الجماعة الإسلامية، يذكر حربي بأن الحركة الوطنية قامت بمهاجمة فئة التجار المزابيين في أحياء العاصمة بحجة أنهم يتضامنون مع مواطنيهم، ومنهم مَنْ تعرض للقتل بسبب الاعتداءات المتكررة في القبة وبلكور.(١١٢)

حاولت جبهة التحرير الوطني في مقابل ذلك استغلال هذه الأحداث لضم الطائفة المزابية(١١٣) للثورة التحريرية، حيث طلبت من التجار الذين وصلتهم رسائل تهديد بأن لا يمدوهم بالأموال وعليهم مساعدة الجبهة التي تحارب الاستعمار الفرنسي وعملائه من الخونة. وفي هذا السياق وقعت عدة اتصالات بين المزابيين وجبهة التحرير الوطني التي مثلها لخضر رابح، وعن المزابيين الشيخ بيوض لدى الحاج يوب بحسين داي، ثم وقع اتصال ثنائي بين الشيخ بيوض، وعبان رمضان رفقة بن يوسف بن خدة، وكلل اللقاء بانضمام الطائفة المزابية للثورة التحريرية باسم "جبهة التحرير الوطني".(١١٤) وبعد توقيف مختار زيتوني العضو النشط في الحركة الوطنية الجزائرية، غيرت هذه الأخيرة من استراتيجيتها حيث سعت في شهر فبراير ١٩٥٦ لتحقيق الوحدة على قدم المساواة "ليس هدف الحركة الوطنية توجيه قوتها... ضد حركة شقيقة إن الوضع يجعل من الضروري تحقيق وحدة وطنية... ومواصلة العمل ضد الوحدة جريمة في حق الوطن"، إلا أن جبهة التحرير الوطني رفضت هذا المسعى بالقول "الخونة لا يجري التحالف معهم بل صرْعُهم".(١١٥)

(ب) على مستوى الخارجي:

لم تكن الجزائر وحدها مسرحًا لحرب التصريحات والمناشير التي عرفتها الثورة التحريرية في عامها الأول بين جبهة التحرير الوطني، والحركة الوطنية الجزائرية. ويمكن القول في هذا الصدد؛ بأن الصراع بين الجبهة والحركة الوطنية خارج التراب الوطني كان صراعًا سياسيًا استراتيجيًا بالدرجة الأولى لإثبات الذّات. وقد كان كل طرف يسعى بكل إمكانياته المادية والمعنوية إلى كسب التأييد والدعم. فالحركة الوطنية كانت قوية جدًا في فرنسا بفعل تواجد مصالي هناك، في حين كانت الجبهة قوية جدًا في مصر وتونس فيما بعد بفعل استقرار الوفد الخارجي في مصر، ثم خروج قيادة الثورة لجنة التنسيق والتنفيذ من الجزائر إلى تونس في شهر أفريل (أبريل) ١٩٥٧. وقد شرع مصالي الحاج من مقر إقامته الجبرية بفرنسا في حربه ضد الجبهة التحرير الوطني خاصةً وأن حركته كانت تتمتع بشعبية واسعة خصوصًا في المناطق الشمالية في أوساط العمال المهاجرين الجزائريين،(١١٦) وقد ساعد على تنامي الحركة بشكل خاص حيادها الودي بالنسبة للسلطات الفرنسية.(١١٧)

وانطلاقًا من فرنسا سيطرت تصريحات وخطب مصالي ومولاي مرباح وعبد الله فيلالي على أغلب مقالات جريدة صوت الشعب (La Voix de Peuples)، ففي عددها الصادر بتاريخ ١١ مارس ١٩٥٥ نشرت على واجهة الجريدة صورة مصالي في إطار باللون (الأخضر والأبيض والأحمر) القائل "إن الشعب الجزائري لا يعتبرني كزعيم وإنما يعتبرني كأب".(١١٨) وفي نفس الاتجاه وجّهت الصحيفة المصالية نقدًا لاذعًا لجبهة التحرير الوطني واتهمتها بالشيوعية وبولائها للحزب الشيوعي الفرنسي، واعتبرت أن الاتحاد السوفيتي وراء دعم وتمويل الثورة وجبهة التحرير بالأسلحة عن طريق مصر.(١١٩)

وفي مقابل ذلك تمكنت جبهة التحرير الوطني من استدراك الوضع في فرنسا خلال سنة ١٩٥٥ قبل أن تبلغ العلاقة بين الطرفين حدًا كبيرًا من التنافس، حيث كان مناضلو الجبهة يسمعون فحوى الحديث المتداول في البيوت ذات الانتماء المصالي لاسيما في ليون وغر ونوبل Lyon- Grenoble وفي الدائرة ١٨ في باريس، حيث كان حديث الساعة يدور حول مسألة معرفة من كان يقود الكفاح المسلح؟ وقد كان الجواب بديهيا بالنسبة لأغلبية المصاليين بأن المركزيين وراء عملية حشد مناضلي جبهة التحرير الوطني وتفجير الثورة.(١٢٠) وعلى هذا الأساس لم تتوان الجبهة لتصحيح هذه الصورة، فمن منطقة القبائل والأوراس والقاهرة وجهت رسائل توضح للمهاجرين بأن جبهة التحرير الوطني حركة جديدة لا علاقة لها بالمركزيين، وأن جيش التحرير الوطني أداتها العسكرية وسرعان ما حققت الجبهة تقدمًا ملحوظًا بانخراط المهاجرين الجدد الذين كان منهم عدد كبير من المناضلين السابقين في حركة الانتصار الحريات الديمقراطية يعرفون من فجّر الثورة التحريرية.(١٢١)

وكللت جهود الجبهة بقيادة بوضياف بولادة فدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا سنة ١٩٥٥ بعد أن كلف المناضل طربوش بإعادة تجميع كل العناصر المعادية للمصالية من مركزيين وحياديين ومناضلين انحطت معنوياتهم بسبب الصراعات الداخلية.(١٢٢) ولم يتوقف الأمر بالحركة الوطنية الجزائرية عند هذا الحد، حيث سعت إلى إفشال عمليات انغراس جبهة التحرير في فرنسا وحاولت إقناع الناس بأن المركزيين "رتبوا مؤامرة اتسمت بديماغوجية مأساوية لا تستهدف القضاء على الحركة الوطنية فقط، بل خنق كل شعور ثوري لدى الشعب الجزائري وبمساعدة بعض العناصر غير المسئولة، تجمعت في اللجنة الثورية للوحدة والعمل وقاموا بعمل مدو في أول نوفمبر ودام الهجوم يومًا واحدًا، غير أنهم لم ينجحوا مع ذلك في الاستيلاء على الحركة الوطنية التي كانت أسرع إلى العمل ولم تنتظر نهاية الاستعدادات وأعطت الأوامر لمناضليها في ٢ نوفمبر بدخول المعركة وفتح مرحلة الثورة دون تأخير،(١٢٣) ويبدو

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أن هدف الحركة الوطنية كان الاحتفاظ بدعم المهاجرين مهما كلف ذلك من ثمن.[١٢٤]

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى نشاط التيار المصالي قبل الانطلاقة عندما سافر أحمد مزغنة مسؤول العلاقات الخارجية في ١٥ أكتوبر ١٩٥٤ موفدًا من طرف مصالي رفقة مبارك فيلالي إلى الجامعة العربية، قصد الحصول على تأييد الثورة التي كان مصالي يدعي بأنه يريد تفجيرها في جانفي (يناير) ١٩٥٥.[١٢٥] إلا أن الغريب في الأمر أن سَفَر أحمد مزغنة تأخّر كثيرًا بسبب تماطل وفد الثورة في القاهرة (بن بلة وخيضر) في منح التأشير المصرية لهم، وفي خضم هذه الظروف اكتشف مزغنة وفيلالي بأن تاريخ اندلاع الثورة قد حدد يوم ١ نوفمبر ١٩٥٤.[١٢٦] وعندما اندلعت الثورة التحريرية في التاريخ المحدد، بعث مصالي الحاج يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٥٤ برسالة إلى الأمين العام للجامعة العربية عبد الخالق حسونة يدعي فيها بأنه كان وراء تلك الأحداث التي شهدتها الجزائر في أول نوفمبر وطلب الدعم والتأييد المادي من الجامعة العربية مرة أخرى.[١٢٧]

وفي القاهرة تمكن أعضاء جبهة التحرير الوطني (بن بلة، وأيت أحمد، ومحمد خيضر) من استمالة أحمد مزغنة ممثل مصالي في القاهرة لتوقيع على ميثاق مشترك في ١٠ فبراير١٩٥٥ يعلن عن تشكيل جبهة التحرير الوطني، وقد رفض مزغنة في البداية التوقيع إلى توقيع جانب حسن الأحوال الذي اعتبره مطرودًا من حزبه، غير أنه استسلم ووقّع على البيان المشترك في نهاية المطاف تحت ضغط فتحي الديب، شريطة أن تتوسع الجبهة لتشمل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الذي مثله أحمد بيوض وجمعية العلماء المسلمين التي مثلها البشير الإبراهيمي.[١٢٨]

وقد تمكنت قيادة الجبهة من استغلال هذه الفرصة، حيث استعملت هذا الميثاق ضد الحركة الوطنية الجزائرية في الجزائر وفرنسا بشكل خاص مُعلنةً بانضمام والتحاق المصاليين بجبهة التحرير الوطني، الأمر الذي دفع بمصالي معلنًا انفصاله عن أحمد مزغنة، الذي برّر موقفه في رسالة إلى عيسى عبدلي عضو المكتب السياسي للحركة الوطنية الجزائرية قائلاً: "أما بخصوص القرار الذي اتخذتموه ضدّي، فاعتقد بأنكم تسرعتم كثيرًا فأنا أفْهَم أنكم تعيشون في جو آخر، ولا أعتقد أني مسؤول عن العمل الماكر من جانب إسماعيل، وكان بإمكانكم انتظار تفسير من جانبي فللمجرم حق الدفاع عن نفسه".[١٢٩]

لكن سرعان ما بدأت ردود الفعل من طرف الحركة الوطنية الجزائرية، حيث لجأ ممثلوها في القاهرة إلى القيام بعدة اتصالات للتشويش على جبهة التحرير وضرب الثورة التحريرية، حيث توجّهوا إلى ليبيا وفرنسا تحت شعار جبهة التحرير الوطني لبثّ التفرقة بين الجزائريين، وطلب الشاذلي المكي من السفارة الاندونيسية في مصر تأشيرة الدخول إلى اندونيسيا لتمثيل الحركة الوطنية الجزائرية في مؤتمر باندونغ ١٩٥٥، غير أن السلطات المصرية بطلب من جهة التحرير الوطني منعت منح التأشيرة للشاذلي المكي. وفي نفس السياق قررت الجبهة باتفاق مع حكومة القاهرة وقف نشاط المصاليين بعد لقاء جمع أحمد بن بلة ورئيس المخابرات المصرية يوم ١١ جويلية ١٩٥٥، تقرر فيه منع المصاليين من السفر نحو ليبيا وفرنسا أمثال أحمد مزغنة، والشاذلي المكي اللّذان أُلقيّ بهما في السجن إلى غاية ١٩٥٨.[١٣٠]

أما على مستوى هيئة الأمم المتحدة حاولت الحركة الوطنية الجزائرية التكّلم باسم الثورة التحريرية والقضية الجزائرية، وفي هذا السياق بعثت بممثل لها في هيئة الأمم المتحدة السيد عابد بوحافة وهو من أصل تونسي ويمتهن التمثيل، وكان يدّعي بأنه يتكلم باسم الحركة الوطنية الجزائرية تارة وباسم لجنة تحرير المغرب العربي تارة أخرى. غير أن هذا الشخص كان في حقيقة الأمر يتكلم باسم الحركة الوطنية الجزائرية ولا يتكلم باسم الثورة وقيادة جبهة التحرير الوطني الأمر الذي دفع بأعضاء وفد الجبهة إلى التنديد ومعارضة تمثيل عابد بوحافة للشعب الجزائري وثورته في هيئة الأمم المتحدة.

وفي هذا الإطار بعثت قيادة الجبهة تصحيحًا لهيئة الأمم بتاريخ ٧ جانفي (يناير) ١٩٥٦ ترفض فيه تمثيل بوحافة جاء فيه "إن وفد الجزائر في القاهرة الممثل لجبهة وجيش التحرير الوطني يرى من الضروري التوضيح بأن السيد بوحافة ليست له صلاحية التكلم باسم الجزائريين وأنه لا يمثل في نيويورك لا جيش التحرير ولا جبهة التحرير الوطني ولا لجنة تحرير المغرب العربي، ولأن تصريحات الأشخاص غير المسؤولين تلقي اللبس والغموض الذي يستفيد منه الاستعمار الفرنسي الذي يريد أن يصوّر الشعب الجزائري في صورة الشعب المنقسم على نفسه".[١٣١]

ويمكن القول بعد هذا العرض؛ أنه بعد الحرب الشرسة في أكثر من موقع بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية من خلال سلسلة التصريحات والمناشير والبيانات عبر وسائل الإعلام سرعان ما انتقل الصراع إلى صدام مسلح ودموي امتدّ طيلة الثورة التحريرية داخل الجزائر وخارجها بدأ حسب محمد تقية (M. Teguia) في شهر أكتوبر ١٩٥٥.[١٣٢] وأصبح الأمر أكثر جدية ووضوحًا عندما أعلنت جبهة التحرير الوطني خلال اللقاء التاريخي الذي جمع قادة الثورة في مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦ رسميًا قرار التصفية المنظّمة للجماعات المصالية. ويشير نص بيان مؤتمر الصومام بخصوص هذه القضية ساخرًا بالقول "إن سيكولوجية مصالي قريبة من القناعة المجنونة لديك الحكاية الذي لا يكتفي بملاحظة طلوع الفجر، بل يعلن على الملأ أنه هو الذي جعل الشمس تطلع"، ويضيف قائلاً "إن الشمس تشرق من غير أن يكون للديك يد في ذلك، كما أن الثورة تنتصر من غير أن يكون لمصالي في ذلك أي فضل".[١٣٣]

ISSN: 2090 – 0449

خاتِمةٌ

وفي ختام هذه الدراسة يمكن الوقوف على بعض النتائج والاستنتاجات الهامة التي تستوقف الباحث في مرحلة المخاض العسير الذي انتهى بميلاد فصيل ثوري تحمل مسؤولية الشروع في العمل المسلح:

- إن أزمة حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديمقراطية- تعتبر أزمة بين جيلين مختلفين: جيل تشبع بالمبادئ من خلال نشاطه السياسي باسم الحركة الوطنية الجزائرية التي استمدت جذورها من رصيدها النضالي منذ بداية القرن العشرين، وجيل ثاني من النشطاء الشباب يريدون خوض العمل المباشر للكفاح المسلح وتجاوز الخلافات وأزمة الحزب.
- لقد ساهمت الأزمات المتعاقبة في تعجيل انطلاقة الثورة المسلحة في أول نوفمبر ١٩٥٤. وفي خضم هذه الظروف لم يكن ميلاد جهة التحرير الوطني في حقيقة الأمر سوى حلاً استراتيجيًا لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.
- تميزت حركة انتصار الحريات الديمقراطية، باستقطابها لشباب متحمس، مستعد للجوء إلى العمل المسلح لنيل الاستقلال. وقد تبلور الوعي السياسي وأصبح أكثر نضجًا على إثر مجازر مايو ١٩٤٥ الدموية التي كانت حسب محمد بوضياف "قد قدمت الدليل القاطع بأن هزيمة الاستعمار الفرنسي لا يمكن أن تحدث إلا من خلال الوسائل الثورية" وهي بالنسبة لمناضلي جيله تعد نقطة تحول في تشكّل وعيهم وإحداث قطيعة مع أساليب الماضي.
- شهدت سنتي (١٩٥٢- ١٩٥٣) أزمة ثقة خطيرة بين الجماهير الشعبية وقيادة الحركة. وعمت هذه الأزمة بقية الأحزاب الأخرى (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، الحزب الشيوعي الجزائري، جمعية العلماء المسلمين). وذلك "بسبب غياب مشروع واضح لتحرير الجزائر، حيث كانت الجماهير واعية بطبيعة الوضع، لكنها لم تجد في أي حزب منهم استجابة لتطلعاتها.
- تكمن الأسباب المباشرة التي أدت إلى تأسيس جهة التحرير، في الصراع العنيف الذي شهدته حركة انتصار الحريات الديمقراطية، بين مصالي الحاج الذي طالب بحصوله على سلطات مطلقة مدى الحياة من جهة، واللجنة المركزية للحزب التي اعتبرت مطلبه غير ديمقراطي ورفضته من جهة ثانية. فقام مصالي الحاج بعقد مؤتمر في بلجيكا في صيف ١٩٥٤، لم يدع فيه إلا أنصاره، وقرر عن طريقه فصل أعضاء اللجنة المركزية الذين عارضوه، ورّد هؤلاء بدورهم الفعل، وعقدوا مؤتمرًا وطنيًا في الجزائر، قرروا على إثره فصل مصالي من قيادة الحزب والتأكيد على أنهم يمثلون السلطة السياسية الوحيدة في الحركة. وأدى هذا الانشقاق بدوره إلى ظهور تيار ثالث يتجاوز أطروحة المصاليين والمركزيين على حد السواء، حيث حصر اهتمامه في ضرورة المبادرة بقيام عمل ثوري عسكري وفوري، حتى يتم استغلال الظروف المناسبة التي أتاحتها فرصة تاريخية ثمينة، وضم هذا التيار شبابًا اكتسب تجربة من العمل السري داخل المنظمة الخاصة. وسارع بإنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل، التي تحولت إلى لجنة (٢٢) ثم لجنة (٥)، فلجنة (٦) وأخيرًا لجنة (٩)، ومن ثمة تأسست جهة التحرير الوطني.
- إن المشاكل والأزمات السابقة التي تعرضت إليها الحركة الوطنية الجزائرية، توارثت عبر الأشخاص إلى مرحلة ما بعد الانطلاقة لتدشّن مرحلة جديدة من الصراعات الداخلية والمشاكل الصعبة التي اعتبرت في الحقيقة الأمر استمرارية لتجربة سابقة مرت بها حركة انتصار الحريات الديمقراطية قبل تصدع الحزب وبداية القطيعة.
- لقد كانت انطلاقة الثورة التحريرية في أول نوفمبر ١٩٥٤ مفاجأة بالنسبة للعديد من الفاعلين في الميدان السياسي، مما حدا بالبعض إلى اعتبارها مغامرة غير محسوبة، بينما اعتبرها آخرون سحبًا للبساط من تحت أرجلهم.
- أثر حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية، أقدم المصاليون على تأسيس حزب جديد سمي بالحركة الوطنية الجزائرية (MNA) كتنظيم سياسي وعسكري، وأكدوا على التمسك بهوية تيارهم ورفضوا الالتحاق بالثورة التحريرية عند انطلاقتها وسارعوا في العداء لجهة التحرير الوطني.
- عرفت العلاقة بين جهة التحرير الوطني، والحركة الوطنية الجزائرية بين (١٩٥٥- ١٩٥٦) توترًا كبيرًا من خلال حرب التصريحات والمناشير التي كادت أن تؤدي أحيانًا إلى صدام مسلح على المستويين الداخلي والخارجي.
- أعلنت جهة التحرير الوطني في مؤتمر الصومام (٢٠ أوت ١٩٥٦) رسميًا قرار التصفية المنظمة للجماعات المصالية، وبذلك انتقل الصراع من بين الجهة والحركة الوطنية الجزائرية (MNA) من حرب التصريحات والمناشير، عبر وسائل الإعلام إلى صدام مسلح ودموي امتد طيلة الثورة التحريرية داخل الجزائر وخارجها.

الهوامش:

(١) جمال قنان، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ٩٩٤ ، ص٢٢١، كما يجب الإشارة إلى أن الحزب أكد خلال هذا المؤتمر عن أسلوبه في العمل الشرعي ونهجه الإصلاحي، وهو نهج لم يكن يخدم أطروحات أعضاء المنظمة الخاصة التي رأت فيه مضيعة للوقت، ورأت ضرورة الإسراع في انتهاج العمل المسلح، كيف لا والحزب العتيد الذي ناد بفكرة الاستقلال منذ ميلاده سنة ١٩٢٦ يرتد إلى مسايرة السياسة الاستعمارية والعمل في إطار ما تسمح به الشرعية الفرنسية.

(٢) انظر: شهادات كل من المناضلين عبد الحميد مهري، ومحمد بوضياف، في محمد عباس، الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن (١٩٤٥-١٩٦٢)، دار القصبة، الجزائر،٢٠٠٧، ص٥١.

(٣) محمد بوضياف، "**تحضير الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤**"، في مجلة أول نوفمبر، عدد (١٤٧)، الجزائر، ١٩٩٥، ص ٢١.

(٤) **لحول حسين (١٩١٧- ١٩٩٥):** من مواليد مدينة سكيكدة يوم ١٧ ديسمبر ١٩١٧، فبعد دراسة ابتدائية وإعدادية ناجحة بالمدينة اضطرت عائلته الهجرة إلى العاصمة في سنة ١٩٣٣، اتصل بالرعيل الأول من مناضلي نجم شمال إفريقيا أمثال أحمد مزغنة وإبراهيم غرافة وفي سنة ١٩٣٥ أصبح أول دائم للحركة في الجزائر. وعندما حلّ مصالي في الجزائر في صائفة ١٩٣٧ أصبح لحول من أقرب مساعديه، وكان من رفاقه في سجن بربروس والحراش ما بين (أوت ١٩٧٣ - وسبتمبر١٩٣٩) وقد نقل لحول من السجن إلى محتشدات جيش الاحتلال لغاية إجراءات العفو العام الصادرة في مارس١٩٤٦. وفي نهاية ١٩٤٨ استحدث منصب أمين عام لأول مرة في الحزب فأسنده إليه وقد شغله ربيع ١٩٥١، كان من أبر معارضي مصال في اللجنة المركزية. وقد انتهت هذه المعرضة إلى أزمة (١٩٥٣- ١٩٥٤) التي رأى بعض المناضلين مواجهة ثنائية بين الزعيم وأمينه العام السابق، كان لحول باسم إدارة الحزب على صلة بالعناصر الثورية العاملة في سبيل الثورة المسلحة، وقدم يد المساعدة للجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) وقبيل إعلان الثورة كان لحول رفقة أمجمد يزيد في القاهرة في إطار الاتصالات والمباحثات مع التيارات الأخرى. وقد حاول لحول بالقاهرة الطعن في طريقة تعامل المصريين مع الثورة الجزائرية -على مستوى مخابراتهم- فأثارهم وآثار معهم بن بلة عليه وكان سببًا في تحييده وتهميشه طوال الثورة التحريرية تقريبًا. وبعد الاستقلال شغل منصب مدير عام ديوان السكن المعتدل الكراء ومؤسسة المنتجات النسيجية، توفي في الجزائر في سنة ١٩٩٥، انظر: محمد عباس محمد عباس، **رواد الوطنية: شهادات ٢٨ شخصية وطنية**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٥٧ - ٥٨.

(٥) يذهب البعض إلى أن الأزمة الحقيقية نشبت بعد مؤتمر الثاني للحزب (٤-٦ أفريل١٩٥٣ في الجزائر ففي غياب صالي بمنفاه في نيور بفرنسا) منذ سنة ١٩٥٢ برز داخل الحركة (MTLD) توجُّه يطالب بجعل بُنى الحزب ديمقراطية وشدّد على ضرورة القيادة الجماعية، ومعنى ذلك أن الهجوم مس السلطة الشخصية لمصالي الذي أسْكرته شعبيته فاعتبر أنه لا يخطئ ولم يكن يقبل مناقشة أحد ولمّا كان محاطًا بمعجبين مخلصين ورجال ينقادون له بدون شرط ولا قيد، فإنه يعتبر أن الحزب ملكه الشخصي وخاضع لإرادته وحدها. أنظر: سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح**، ترجمة محمد حافظ الجمالي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، ٢٠٠٢ ، ص ٥٢.

(٦) جماعة المصاليين بقيادة مصالي وأنصاره وهم: أحمد مزغنة، ومولاي مرباح، وفيلالي بوعبد الله، وعيسى عبدلي. وقد أعطت هذه الجماعة لمصالي حق الرئاسة الدائمة وخولته كل السلطة لتحديد الخطط السياسية وإدارة الحزب، وهناك جماعة المركزيين بقيادة لحول حسين، وعبد الرحمان كيوان، وسيد علي عبد الحميد، وبن يوسف بن خدة، وأحمد بودة، وقررت هذه الجماعة نزع كل السلطات من أيدي مصالي وتأكيد مبدأ القيادة والتسيير الجماعي انظر بالتفصيل:

Benyoucef Ben Khedda, *les Origines du premier Novembre 1954*, 2eme édition, Ed. du Centre National d'Etudes et de Recherches sur le Mouvement National et la Révolution du 1er novembre 1954, Alger, P 216-219.

(٧) خصوصًا مزغنة ومولاي مرباح، انظر بالتفصيل: سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح**، مرجع سابق، ص٦٠ - ١٣٥.

(٨) المقصود بها جماعة المحايدين يؤطرها بوضياف، وبن بولعيد، وبن مهيدي، وديدوش، وبيطاط، وقد اختارت طريق الحياد بعيدًا المجموعتين السابقتين وعملت على حل النزاع على مستوى الحزب، ثم قررت العمل على تهيئ ظروف تتناسب مع طموح الشعب الجزائري تهدف لانطلاق الكفاح المسلح، انظر: محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية المنظمة الخاصة**، ترجمة محمد الشريف بن دالي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، ٢٠٠٢، ص١٦٥.

(٩) سليمان الشيخ، المرجع نفسه، ص٦٠.

(١٠) **محمد بوضياف:** ولد سنة ١٩٤٢ بأولاد ماضي بولاية المسيلة، اشتغل بمصالح تحصيل الضرائب بجيجل، انضم إلى صفوف حزب الشعب وبعدها أصبح في المنظمة السرية. في سنة ١٩٥٠ حوكم غيابيًا وفي ١٩٥٣ التحق بفرنسا حيث أصبح عضوًا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية وبعد عودته إلى الجزائر ساهم في تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل. وكان من بين أعضاء مجموعة الاثنين والعشرين (٢٢) المفجرة للثورة الجزائرية. اعتقل في حادثة اختطاف الطائرة في ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ من طرف السلطات الاستعمارية التي كانت تقله مع رفقائه من المغرب إلى تونس. في سبتمبر ١٩٦٢ أسس حزب الثورة الاشتراكية. وفي جوان ١٩٦٣ تم توقيفه وسجنه في الجنوب الجزائري لمدة ثلاث أشهر لينتقل بعدها للمغرب ومن عام ١٩٧٢ عاش متنقلاً بين فرنسا والمغرب في إطار نشاطه السياسي إضافة إلى تنشيط مجلة الجريدة سنة ١٩٧٩. وبعد وفاة الرئيس هواري بومدين قام بحل حزب الثورة الاشتراكية وتفرغ لأعماله الصناعية إذ كان يدير مصنعًا للآجر بالقنيطرة في المملكة المغربية. في جانفي ١٩٩٢ بعد استقالة الرئيس الشاذلي بن جديد استدعته الجزائر لينصب رئيسًا لها وفي ٢٩ جوان من نفس السنة اغتيل في مدينة عنابة. انظر: محمد عباس، **اغتيال حلم، أحاديث مع بوضياف**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠١.

(١١) انظر: **شهادات محمد بوضياف حول أصول فكرة ميلاد اللجنة الثورية للوحدة والعمل**، في شهادته للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢)، القرص المضغوط، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٢. وكذلك:

Mohamed Boudiaf, Op.cit. P.15

(١٢) جمال قنان، المرجع السابق، ص١١١. وللتوضيح يذهب المناضل عبد الحميد مهري إلى أن إنشاء اللجنة الثورية ونشاطها لم يكن بمعزل عن الصراع الذي كان يدور داخل الحزب الأمر الذي يبين بأن اللجنة لم تكن محايدة، انظر: تقديم عبد الحميد مهري في كتاب:

Aissa Khéchida , *les Architectes de la Révolution*, ed Chihab, Batna, 2001, P7-21.

(١٣) تصريح محمد بوضياف، في حديث له مع جريدة الشعب، ١٦ نوفمبر ١٩٨٨.

(١٤) **مصطفى بن بوالعيد (١٩١٧- ١٩٥٦)** من مواليد في فيفري ١٩١٧ في أريس ولاية باتنة وسط عائلة ثرية ومتشبعة بالقيم الإسلامية، تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه ثم بمدينة باتنة أين التحق بمدرسة الأهالي "الأنديجان"، كما تلقى تعليمًا بمدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هاجر إلى فرنسا سنة ١٩٣٧ وعرف عن قرب أوضاع الجزائريين هناك، وكون نقابة تدافع على حقوقهم، سنة ١٩٣٩ أدى الخدمة العسكرية الإجبارية، وأعيد تجنيد أثناء الحرب العالمية الثاني، بدأ نشاطه السياسي في صفوف حزب الشعب منذ الأربعينات إذ كان من أنشط العناصر في الأوراس، وعند نشأة المنظمة الخاصة كان له نشاط دءوب في تكوين الشبان سياسيًا وتدريبهم عسكريًا، وأنفق من ماله الخاص لتدريب وتسليح المناضلين، شارك في انتخاب

ISSN: 2090 – 0449

المجلس الجزائري سنة ١٩٤٨ وفاز فوزًا سحيقًا لكن السلطات الفرنسية زورت الانتخابات، كان له دور كبير في إنشاء المنظمة الخاصة، وبعد أن أكتشف أمرها بدأ في توفير السلاح عن طريق شرائه من ليبيا، كما ساهم في إيواء المناضلين المطاردين، أنشأ مع رفاقه اللجنة الثورية للوحدة والعمل وشارك في اجتماع الـ ٢٢ في جوان ١٩٥٤، وأصبح مسؤولاً على المنطقة الأولى (الأوراس)، كما كان عضوًا في لجنة الستة، أشرف على توزيع الأسلحة على المناضلين بنفسه. سافر سنة ١٩٥٥ إلى ليبيا لتزويد الثورة بالسلاح لكنه أعتقل في ١١ فيفري ١٩٥٥ وحوكم بالمحكمة العسكرية بقسنطينة في جوان ١٩٥٥ وحكم عليه بالإعدام. استطاع الفرار من السجن رفقة الطاهر الزبيري في شهر نوفمبر ١٩٥٥ عاد إلى قيادة الثورة وخاض معركتي إيفري البلح وأحمر خدو، واصل جهاده حتى أستشهد في ٢٢ مارس ١٩٥٦ إثر انفجار اتصال "إرسال واستقبال" مفخخ ألقته القوات الفرنسية. انظر: المتحف الوطني للمجاهد، **الشهيد مصطفى بن بوالعيد**، سلسلة رموز الثورة التحريرية، الجزائر، ٢٠٠١. والطاهر جبلي، **البطل الرمز مصطفى بن بولعيد،- ثعلب الأوراس، شهيد الجبل الأزرق**-، جريدة صوت الأحرار، العدد٩٣٠، الخميس ٢٢ مارس ٢٠٠١، الحلقة الأولى، ص٧. والعدد٩٣١، السبت ٢٤ مارس٢٠٠١، الحلقة الثانية، ص٨.

(١٥) **رمضان بوشبوبة (١٩٢٤-١٩٩٩):** المعروف بسي موسى ببودواو في ٨ أفريل ١٩٢٤، التحق بحزب الشعب مع بداية الحرب العالمية الثانية ودخل السجن بسبب نشاطه النضالي أول مرة سنة ١٩٤٧، أفرج عنه في أكتوبر من نفس السنة فأصبح دائمًا بالحزب ومسؤولاً على الدائرة الأخضرية، في ديسمبر ١٩٥٣ (أي قبل انفجار الأزمة التي أدت إلى انقسام الحزب). عُين مراقبًا عامًا بلجنة التنظيم وذلك بعد أن كان مسؤولاً بعدة ولايات آخرها وهران، شارك في مؤتمر المركزيين (أوت١٩٥٤) وعُين باللجنة المركزية المنبثقة عنه، لكن ما لبث أن التحق بالجبهة وشارك في الفداء بفرنسا وتقلد مسؤوليات باتحادية الجبهة هناك. وقد أسر يوم ٢٦ نوفمبر١٩٥٩، أفرج عنه في ٤ أفريل ١٩٦٢ وعمل غداة الاستقلال بالمصالح التابعة لوزارة الفلاحة وتقلد بها عدة مسؤوليات لغاية ١٩٧٠، توفي في ٩ جانفي ١٩٩٩، محمد عباس، **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص١٩٢.

(١٦) محمد حربي، **الثورة الجزائرية: سنوات المخاض**، ترجمة نجيب عباد صلاح المثلوثي، الجزائر، ١٩٩٤، ص ٥٤.

(١٧) **شهادة محمد بوضياف**، في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق. وأيضًا:

Mohamed Boudiaf ,.Op.Cit p 16.

لقد تم اختيار هذان المركزيان بالنظر لموقعهما الاستراتيجي في الحزب فاللجنة الثورية كانت تموّل من ميزانية الحزب المركزي واستفادت من الوسائل المادية (آلات السحب- سجلاّت) وإمكانية الاتصال مع مناضلي القاعدة، وخاصة مناضلي المنظمة الخاصة من خلال اللجنة المركزية للحزب والتي ترغب هي الأخرى أن تستفيد من هذا التحالف بأن تعزز موقفها من مصالي وتستميل أعضاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل(**CRUA**) إلى صفها، فالعلاقة مع المركزيين كانت ظرفية لا غير لأن الهدف لم يكن واحد. انظر: الجيلالي صاري - محفوظ قداش، **المقاومة السياسية (١٩٠٠ - ١٩٥٤)، الطريق الإصلاحي والطريق الثوري**، ترجمة عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧، ص١١٦.

(١٨) كانت تسمية اللجنة الثورية للوحدة والعمل تختزل برنامجها وأهدافها بشكل دقيق لأن تسميتها تتضمن في شطرها الأول "اللجنة الثورية": الإشارة إلى طبيعتها وجذورها أما شطرها الثاني "الوحدة والعمل": فهو يتضمن الإشارة إلى الهدفين المرحليين الدقيقين لبرنامجها العملي انظر: عبد الحميد زوزو، **أصول السياسة والاجتماعية والاقتصادية لثورة نوفمبر ١٩٥٤**، الحلقة الخامسة، جريدة اليوم، ٠٤ نوفمبر ٢٠٠٠، ص١١.

(١٩) محمد عباس، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٢٠) بنيامين سطورا، **مصالي الحاج: رائد الوطنية الجزائرية (١٨٩٨ – ١٩٧٤)**، ترجمة الصادق عماري مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٢١١. وأيضًا: جمال قنان، المرجع السابق، ص ٢٣٠- ٢٣١.

(٢١) يمكن حصر أربعة أطراف على الأقل وهم: ١- الثوار المصممون على القيام بدورهم كأداة ثورية وإشعال فتيل الثورة. ٢- لجنة التنظيم التي كان همها إنقاذ هيكل الحزب من الانهيار وكانت تتصور لذلك أن عقد مؤتمر استثنائي يمكن من خلاله لمّ صفوف الحزب. ٣- المحايدون الذين ظهروا في البداية في فرنسا بواسطة "نداء الحكمة" الداعي إلى بعث تيار محايد قوي في صفوف المناضلين يلزم المتخاصمين بالاحتكام إلى مؤتمر استثنائي للفصل بينهما. ٤- الأمانة العامة (اللجنة المركزية) التي حاولت استغلال الثوار في نزاعها مع مصالي وأنصاره بعد أن علم اثنان من أعضائها (لحول حسين وسيدي علي عبد الحميد) بتأسيس اللجنة الثورية ومشاريعها، وللمزيد من التفصيل حول الأطراف المعنية واختلاف النوايا والمقاصد في تركيبة اللجنة. انظر: محمد عباس: المرجع السابق، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢٢) لم تتعد ثلاث أشهر (مارس – مايو) (٢٣ مارس- ٠٨ مايو ١٩٥٤) أي بعد اجتماع القبة الذي جمع بوضياف، وبن بلعيد عبد الكريم بلقاسم، وأوعمران، وعقد الاجتماع ضمن أفاق "المؤتمر الاستثنائي الفاصل" بدليل أنه توّج باتفاق مبدئي نص على مساندة منطقة جرجرة لمساعي اللجنة في الاتجاه المرسوم.

(٢٣) **شهادة محمد بوضياف**، في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ ، المصدر السابق، وأيضًا:

Mohammed Boudiaf, op.cit, p. 16 - 17.

(٢٤) **الوطني الجزائري** (Le Patriote algérien): لسان حال اللجنة الثورية للوحدة والعمل، نُشرت بالفرنسية مرقونة ومسحوبة بالرونيو تتألف من عدة صفحات، وهي نشرة داخلية "للارتباط الوطني" صدرت في أفريل ١٩٥٤ في ستة أعداد وسحبت منها ٢٥٠ و٣٠٠ نسخة، وصدر آخر عدد لها في ٠٥/٠٧/١٩٥٤، كانت تسحب بتمويل مالي من حركة انتصار الحركات الديمقراطية في مقر الكشافة الإسلامية الجزائرية وبفضل تفهم صالح الونشي القائد الكشفي وعضو اللجنة المركزية، كانت نشرة اللجنة الثورية التي أشرف على مقالاتها حسين لحول وحملت بصمات محمد بوضياف، معادية تمامًا للمصالية، كما أصدرت اللجنة صحف دورية أخرى: "صوت المناضل "la Voix du Militant ونشرة الأخبار(Bulletin d'information). انظر رابح بلعيد، **اللجنة الثورية للوحدة والعمل في رسالة الأطلس**، الحلقة ٥٤، عدد ١٤٧، باتنة، جويلية ١٩٩٧، ص ١١، وأيضًا: عاشور شرفي، المرجع السابق، ص٣٧٥.

(٢٥) انظر: **شهادة عبد الحميد مهري حول أزمة حزب الشعب**، في جريدة الشعب اليومية، في ١ نوفمبر ١٩٩٠، ص ١١. ومحمد عباس، **رواد الوطنية**، مطبعة دحلب، الجزائر١٩٩٢، ص ١٢٠. ومحمد حربي، **جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع**، المرجع السابق ، ص ٩٢.

(٢٦) محمد عباس، **الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن**، المرجع السابق، ص٥٧.

(٢٧) في هذا الاتجاه تمكن بوضياف من تجديد الاتصالات ببقايا المنظمة الخاصة بفضل جولة قادته إلى الشرق الجزائري وغيرها رفقة بوشبوبة، وفي نفس الوقت عاد إلى فرنسا واتصل ببعض المناضلين الدائمين في اتحادية الحزب وأطلعهم على ميلاد اللجنة الثورية وشرح لهم مقاصدها وأقنعهم بالدعوة للانضمام إليها: أنظر محمد عباس، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢٨) **عبد الحميد مهري:** ولد عبد الحميد مهري في الخروب سنة ١٩٢٦، ناضل في صفوف الحركة الوطنية وعُين عضوًا في المجلس الوطني للثورة منذ سنة ١٩٥٦، وعضوا لجنة التنسيق والتنفيذ، وفي سنة ١٩٥٨ عُين وزيرًا لشؤون شمال إفريقيا في الحكومة المؤقتة، ثم وزيرًا للشؤون الاجتماعية والثقافية سنة ١٩٦٠. وفي حكومة الرئيس بومدين شغل عبد الحميد مهري منصب الأمين العام لوزارة التعليم الثانوي، ثم في حكومة الرئيس الشاذلي بن جديد عُين وزيرًا للإعلام والثقافة، ثم سفيرًا في فرنسا والمغرب، ثم انتخب أمينًا عامًا لحزب جبهة التحرير الوطني بعد أحداث أكتوبر ١٩٨٨، أنظر: رابح

لونيسي، **بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر(١٨٣٠- ١٩٨٩)**ج١، دار المعرفة، الجزائر ٢٠١٠، المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٢٩) تعود مساعي بوضياف في عملية الاتصالات بأبرز عناصر المنظمة الخاصة إلى سنة ١٩٥٢ بعد تشكيل لجنة رباعية (بوضياف، بن مهيدي، ديدوش، وبن بولعيد) وبتعاطف كل من عبد الحميد مهري مهمتها التحضير الميداني للعمل الثوري بالتنسيق مع الحركات الوطنية في المغرب وتونس. انظر تفاصيل هذا الموضوع في **شهادة محمد بوضياف** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤. وأيضًا: **شهادة عبد الحميد مهري**، في تقديم كتاب عيسى كشيدة، **مهندسو الثورة التحريرية**، دار الشهاب، الجزائر ٢٠٠٣، ص. ١٦.

(٣٠) محمد عباس، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٣١) عيسى كوشيدة، المصدر السابق، ص ١٦-١٧. وأيضًا: محمد بوضياف، في شهادته للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق.

(٣٢) **أحمد محساس**: (الأصح مهساس) المدعو علي، ببودواو، ولد في نوفمبر 1923، من عائلة قروية، غادر مقاعد الدراسة سنة 1940، وهو لايزال في المرحلة الثانوية، انضم إلى شبيبة حزب الشعب الجزائري في بلكور سنة 1941، أوقف لأول مرة من طرف السلطات الفرنسية بسبب نشاطه السياسي في شبيبة الحزب، في نفس السنة، تم إيقافه مرة أخرى سنة 1945، وأطلق سراحه بعد عام، عُين عضوًا في اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1947، وبعد سنة عضوًا قياديًا في المنظمة الخاصة. أُلقي عليه القبض بعد اكتشافها سنة 1950، وفرّ من سجن البليدة رفقة أحمد بن بلة في أواخر سنة 1951، ثم هرب سنة 1952 إلى فرنسا، حيث انضم إلى اتحادية جبهة التحرير بفرنسا، عين في أواخر سنة 1956 مسؤولاً سياسيًا وعسكريًا على قاعدة تونس من طرف أحمد بن بلة، وبعد مؤتمر الصومام عوض بالعقيد عمر أعمران، ثم كلف بشبكة الدعم اللوجستيكي على مستوى أوروبا، بعد الاستقلال شغل منصب وزير الفلاحة، من بين أعضاء مجلس الثورة لسنة 1965، وهو ما يزال على قيد الحياة، مقيمًا بالعاصمة، أنظر: محمد عباس، **ثوار عظماء**، مطبعة دحلب، الجزائر، ١٩٩١، ص 149.

(٣٣) **شهادة أحمد بن بلة**، في للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق. وأيضًا: أحمد مهساس، **الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة**، ترجمة الحاج مسعود ومحمد عباس، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، ٢٠٠٢ ، ص٣٨٤. وأيضًا: جمال قنان، المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٣٤) **عبد الرحمان كيوان**: ولد المناضل عبد الرحمان كيوان في الجزائر سنة ١٩٢٥ واستطاع أن يتم دراسته بمراحلها الثلاثة بصورة عادية تقريبًا، التحق بالحزب الشعب وهو طالب في المرحلة الثانوية ولعب دورًا بارزًا في جمعية طلبة الثانوي سنة ١٩٤٤. وفي المرحلة الجامعية شغل منصب أمين عام "جمعية الطلبة المسلمين المغاربة" من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٨، بدأ العمل في المحاماة سنة ١٩٤٧ وأصبح مسؤولاً عن الدفاع على المناضلين. في بداية الخمسينات أصبح عضوًا في الأمانة العامة للحزب إلى جانب بن خدة وعلي عبد الحميد، انضم إلى الجبهة في سبتمبر ١٩٥٥ والتحق في القاهرة للعمل في الحقل السياسي والدبلوماسي للجبهة إلى غاية الاستقلال، وبعد الاستقلال ساهم في بناء الإدارة الجزائرية وشغل منصب مدير الوظيف العمومي لغاية ١٩٧٦، أنظر: محمد عباس، **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص١٣٢.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٣٦) **شهادة محمد بوضياف**، في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق. وأيضًا: شهادة محمد بوضياف، في حديث له لجريدة الشعب، يوم ١٦/١٧ نوفمبر ١٩٨٨، ص ٠٥.

(٣٧) بوسعنا أن نعتبر لجنة ٢٢ بمثابة الجمعية التأسيسية الثورية التي أخرجت جبهة التحرير الوطني إلى الوجود في نوفمبر ١٩٥٤، وبذلك يمكن تشبيه هذا الاجتماع بأنه كان ثاني مؤتمر تأسيسي للمنظمة الخاصة وأول مؤتمر تأسيسي لجبهة التحرير الوطني.

(٣٨) محمد حربي، **الثورة الجزائرية، سنوات المخاض**، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣٩) عمار قليل، **ملحمة الجزائر الجديدة**، ج١، ط١، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٩٩١، ص ١٧٨.

(40) Mohamed boudiaf, Op.Cit, P15 – 16.

(41) Mohamed boudiaf, Op.cit. , P15 - 16.

وانظر أيضًا:

Mohamed Harbi -Gilbert Meynier, *Le FLN documents et histoire 1954-1962*, Ed Casbah, Alger, 2004, P. 28 - 29.

(٤٢) شهادة محمد بوضياف في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق. وانظر أيضًا: محمد عباس، **الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن**، المرجع السابق، ص٦٠.

(٤٣) شهادة رابح بطاط في محمد عباس، **ثوار عظماء حديث الاثنين**، مطبعة دحلب، الجزائر، ١٩٩١، ص٨٠. وانظر أيضًا: أحسن بومالي، إستراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر ١٩٩٤، ص ١٠٩.

(٤٤) **أحمد بوشعيب**: ولد بعين تموشنت يوم ١٣ جويلية ١٩١٨ م، انخرط في حزب الشعب الجزائري، رشّحه الحزب في الانتخابات البلدية وصار من نواب رئيس البلدية ١٩٤٧م، انضم إلى المنظمة الخاصة، عيّن عضوًا في ولاية وهران، وهناك شارك رفقة مجموعة من المسلّحين في الهجوم على مركز البريد الرئيسي لمدينة وهران. ثم انتقل بعد اكتشاف المنظمة الخاصة رفقة سويداني بوجمعة إلى العمل السري في منطقة متيجة، أثناء الثورة ألقت عليه السلطات الفرنسية القبض وأودع السجن في سبتمبر ١٩٥٥م، وحكمت عليه بعشرين سنة نافذة، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد وقف إطلاق النار في ١٩ مارس ١٩٦٢م. انظر: محمد عبّاس، **ثوار عظماء**، المرجع السابق، ص١١٧ .

(٤٥) **سويداني بوجمعة** : ولد في ١٠ جانفي ١٩٢٢ بمدينة قالمة ، سياسي وثوري جزائري ، كان من الطليعة التي فجرت الثورة انضم إلى المنظمة الخاصة عند تأسيسها سنة ١٩٤٧ وقام من خلالها بعدة نشاطات نذكر منها مثلا جمع السلاح ،وفي عام ١٩٤٨ اكتشف أمره و ألقي عليه القبض وحكم عليه بالسجن مدة١٨شهر نافذة. بعد خروجه من السجن واصل نشاطه النضالي في إطار المنظمة السرية ،حيث كلف بمهمة نقل السلاح ،و في إحدى العمليات تعرّفت عليه الشرطة الفرنسية في حاجز أمني بين سكيكدة و قالمة إلا انه استطاع الفرار متّجها الى وهران شارك في الهجوم على بريد وهران بغية الحصول على الأموال اللازمة لمواصلة نشاط المنظمة ،على إثر هذه العملية أصدرت محكمة وهران في حقه حكما غيابيا بالإعدام . انتقل سويداني بوجمعة إلى العاصمة و منها إلى منطقة بودواو وأقام عند المناضل فلاحي لخضر و نتيجة لوشاية قام بها أحد العملاء حوصر في الكوخ الذي كان يأويه واستطاع الفرار بأعجوبة بعد أن أطلق النار على مفتش الشرطة "كيلي" و أراده قتيلا ، بعد بودواو توجّه الشهيد إلى منطقة السويدانية وأقام بها فترة من الوقت وبعدها نقله الحزب إلى منطقة الصومعة، ثم بوينان ليستقر بها عند المناضل موايسي المحفوظ الذي زوّجه إحدى بناته سنة ١٩٥١، من منطقة متيجة واصل سويداني بوجمعة نشاطه النضالي، وخاصةً بعد وقوع أزمة الحزب الشهيرة والتي فتحت الطريق أمام مجموعة من قدماء مناضلي المنظمة السرية للشروع في التحضيرات الأولية للثورة المسلّحة أحد أعضاء لجنة (٢٢) التي فجرت الثورة، نائب قيادة منطقة الجزائر قبل مؤتمر الصومام، لعب سويداني بوجمعة دورًا رياديًا إذ أنه قد أشرف بنفسه على مختلف مراحل التحضير للثورة في منطقة متيجة وخطّط لهجمات ليلة أول نوفمبر، كما شارك في عملية الهجوم على ثكنة بوفاريك رفقة المناضل أعمر أوعمران، وبوعلام قانون، ورابح عبد القادر،

ISSN: 2090 – 0449

بدأ سويداني بوجمعة نشاطه النضالي بإعادة تنظيم الأفواج والإشراف على تدريب المناضلين وفقًا لظروف الثورة ومستجدات الأحداث، ولهذا الغرض عقد عدة اجتماعات محلية من أهمها اجتماع أولاد فايت، اجتماع سيدي امحمد بلعيش، كما أقام عدة مخابئ في الناحية الغربية للمنطقة التي جعلت كمراكز حماية يلجأ إليها المناضلين عند الضرورة، وكذلك خطط الشهيد للعديد من العمليات الفدائية شارك في الكثير منها، استمر في نشاطه العسكري والسياسي إلى أن استشهد يوم ١٦ أفريل ١٩٥٦ بعد وقوعه في حاجز قرب مدينة القليعة. انظر: نظيرة شتوان، **سويداني بوجمعة**، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ جامعة الجزائر، ٢٠٠٢- ٢٠٠٣.

(٤٦) سيف الإسلام الزبير، «**مؤامرة من خلف الستار**»، د.ط، مطبعة النخلة، الجزائر، ١٩٩٢، ص ٥١.

(٤٧) عمار بوحوش، **تحويل المنظمة الخاصة إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري**، مجلة الذاكرة، العدد: ٠٣، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٥ ، ص ٤٢.

(48) Aissa, Kechida, Op.Cit, p 72.

(49) Ibid., p 72.

(٥٠) عبد الرحمان رزاقي، **الحركة الوطنية وفكرة العمل المسلح**، مجلة الباحث، العدد:٠٢، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٣٦.

(٥١) عبد الرحمن ابن إبراهيم بن العقون، **الكفاح القومي والسياسي (من خلال مذكرات معاصر)**، ج٣ ،(مود)، الجزائر ١٩٨٦. ص٢١٩.

(٥٢) **شهادة محمد بوضياف**، مجلة أول نوفمبر، ع ١٤٧ ، سنة ١٩٩٥، ص٢٥ . وأيضًا: شهادة بوضياف لمحمد عباس، **ثوار عظماء**، المرجع السابق، ص٦٤-٦٥.

(٥٣) شهدت قسنطينة والبليدة بشكل خاص مواجهات حادة جمعت الأطراف الثلاثة (الثوار وكل من المصاليين والمركزيين وفي مواجهة أولاد يعيش بالبليدة، أطلق بوضياف "رصاصة" كلمته المدوية "سنعمل" الثورة ولو بقردة منطقة الشفة. انظر:

Yves Courrière, *les Fils de la toussaint*, Editions, Paris, 1968. P.196.

(٥٤) **شهادة أحمد بن بلة**، للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق.

(٥٥) **شهادة الشيخ حامد روابحية**، لمحمد عباس، في **رواد الوطنية**، دار هومة الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٢٨٠-٢٢٧.

(٥٦) **الطيب بولحروف:** ولد المناضل الطيب بولحروف بوادي الزناتي في٠٩ أفريل ١٩٢٣ ونشأ بعنابة حيث درس وطرد من التعليم بسبب اهتماماته السياسية، التحق نظاميًا بحزب الشعب في غضون الحرب العالمية الثانية وسجن عقب أحداث ماي ١٩٤٥، عُين في اللجنة المركزية للحزب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية- سنة ١٩٤٩، وفي سنة ١٩٥١ التحق باتحادية الحزب بفرنسا، التحق بالجبهة غداة اندلاع ثورة التحرير وعمل باتحادية فرنسا لغاية ١٩٥٨، وعند ميلاد الحكومة المؤقتة في ١٩ سبتمبر١٩٥٨ عُين ممثلاً لها في روما وجنيف، ومن هذا الموقع لعب دورًا مهمًا في الاتصالات التمهيدية بالفرنسيين والتي توجت باتفاقيات ايفيان، وعند الاستقلال التحق بالسلك الدبلوماسي كسفير بعدة عواصم لغاية ١٩٨٤. انظر: محمد عباس، **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص١٥٧.

(٥٧) **شهادة الطيب بولحروف لمحمد عباس**، المرجع نفسه، ص ١٥٧-١٧٢.

(٥٨) محمد عباس، **الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن**، المرجع السابق، ص٦٣.

(٥٩) المرجع نفسه، ص٦٣.

(٦٠) **شهادة محمد بوضياف**، للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق.

(٦١) يمكن القول أنه كان لابد لانطلاق الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤ بضرورة الاعتماد على **"الأداة الثورية"** أولاً، والمقصود بها لجنة الخمسة والشعب المستعد ثانيًا ريثما تكلل مسيرة العمل المسلح بلمّ شمل الحزب المتصدع.

(٦٢) نشير في هذا السياق إلى أن الجيش الفرنسي أقام عدة ورشات لتكوين الشباب ما قبل سن الخدمة الإجبارية (٢١ سنة) سواءً في إطار الإعداد للخدمة، أو الترغيب في التعاقد مع الجيش، وقد تكاثرت هذه الورشات في ظل حكومة فيشي خلال الحرب العالمية الثانية، ومن أبرز العناصر التي تدرّبت في هذه الورشات ولها مكانتها في هياكل المنظمة الخاصة نذكر كريم بلقاسم، والحاج بن علا، ومحمد ماروك، وعبد القادر بلحاج الجيلالي، دون أن ننسى مشاركة بعض عناصر المنظمة في الحرب العالمية الثانية وتحصّلوا على أوسمة متميزة نذكر منهم أحمد بن بلة، و مصطفى بن بولعيد... و غيرهم.

(٦٣) يمكن العودة بخصوص هذه النقطة إلى المهام الاستطلاعية التي قام بها أحمد بوشعيب في ناحية جبال الونشريس، وبن بولعيد في منطقة الأوراس المرشحة لتكون قلعة الثورة في انطلاقتها وسويداني في المتيجة قبل الانطلاقة (١٩٥٠-١٩٥٤).

(٦٤) **شهادة المجاهد عبد القادر العمودي**، في الملتقى الوطني حول قوافل السلاح خلال الثورة التحريرية، يومي ١٩-٢٠ مارس ١٩٩٩، بالوادي (شريط فيديو) بمكتبتي الخاصة، وللمزيد من التفاصيل حول جهود المنظمة الخاصة في ميدان التسليح، انظر: الطاهر جبلي، **شبكات الدعم اللوجيستيكي للثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠١٠، ص ٢٨-٥٢.

(65) Mohamed Boudiaf, Op.Cit. P.16.

(٦٦) محمد عباس، **فكرة الثورة في التجربة الجزائرية**، مجلة الحدث العربي والدولي، عدد خاص بالثورة الجزائرية، نوفمبر ٢٠٠٢، ص٢٠-٢١.

(٦٧) يشير بوضياف بأن تسمية الحركة باسم جبهة التحرير الوطني قد ولدت في أوت ١٩٥٤ بوادي ملوية غير بعيد عن مدينة مغنية الحدودية خلال حوار ثنائي بين بوضياف وبن مهيدي، انظر:

Mohamed Boudiaf, Op.Cit., P19

وأيضًا شهادة محمد بوضياف في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، المصدر السابق. وليس مستبعدا أن تحمل هذه التسمية تأثيرات داخلية و خارجية:

* **داخلية:** من وحي تجربة الحركة الوطنية بمعناها الواسع التي عرفت الجبهة الجزائرية المسلمة في أواخر الثلاثينات كما عرفت الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية و احترامها مع مطلع الخمسينات.

* **خارجية** :من وحي التجربة الفيتنامية بقيادة الجبهة الوطنية للتحرير التي كانت في أوج إشعاعها بعد هزيمة الجيش الفرنسي في معركة "ديان بيان فو"" يوم ٠٧ ماي ١٩٥٤.

(68) Mohamed Boudiaf,. Op.Cit., P. 17.

وانظر أيضًا:

Mohamed Harbi , *La Guerre commence en Algérie*, Op.cit, P. 20 - 23.

قررت اللجنة مبدأ القيادة الجماعية بعد فشلها في إيجاد شخصية لتكون بمثابة **"الغطاء السياسي"** للحركة الوليدة على أساس أن أعضاء اللجنة خرجوا مؤخرا من الحياة السرية و لم يكونوا معروفين لدى عامة الشعب بل لدى عامة المناضلين نظرًا للتكتم الشديد على نشاطهم داخل الحزب نفسه و كانت أهم محاولة في هذا الاتجاه مع المناضل محمد الأمين الدباغين لكن لم تأت بنتيجة أسوة لمحاولات سابقة مع مصالي نفسه انظر:محمد حربي، الثورة الجزائرية سنوات المخاض،المرجع السابق، ص٦٩.

(٦٩) **بيان أول نوفمبر** (Proclamation du1er Novembre 1954): نص صاغته لجنة "الستة" بمعونة محمد العيشاوي، صحافي مناضل في حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)، سحب بالرونيو بإغيل إمولا (تيزي وزو) عند عائلة زعموم بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٥٤م تمّ طبع حوالي (١١٠٠ نسخة) من نص- بيان أوّل نوفمبر- في مطبعة تابعة للمركزيين ، ووزّع بطرق عديدة حتّى عن طريق البريد إلى عدّة شخصيات يوم ٢ نوفمبر، وبذلك تشكّلت جبهة التحرير الوطني رسميا في ٣١ أكتوبر بواسطة بيان

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



الثورة وأذيع على أمواج الإذاعة المصرية في نفس الوقت مع إعلان اندلاع الثورة وهدف إلى توضيح موقف أصحابه واتجاههم للرأي العام وإلى الحكم على المحتل والأهداف المنشودة. لم يتطرق لا إلى مذهب ولا إلى إيديولوجيا، بل أراد أن يكون نداء إلى التجمع من أجل الكفاح المسلح كون الأساليب المطلبية الأخرى من أجل الاستقلال قد فشلت، كانت النظرة إلى الواقع الجزائري واضحة وواقعية، العناصر المواتية على الصعيد الداخلي والخارجي تم تحديدها: داخليًا، الشعب موحد وراء شعار الاستقلال، وخارجيًا، مناخ الانفراج تبدو مواتية لحل المشاكل الصغرى ومنها مشكلتنا، بفضل الدعم الدبلوماسي من إخواننا في العالم العربي الإسلامي، عن الحديث عن حل المشاكل الصغرى والتي منها مشكلتنا يتم عن استهانة بالإرادة الفرنسية في الحفاظ على الجزائر، وبالتالي الاعتقاد في حرب قصيرة بعد استظهار القوة، التحليل يشوبه تفاوت في الطرح وما يمكن أن نلمسه من هذا النص التأسيسي هو أن الأهداف قد جرى التعبير عنها بوضوح من قبل جبهة التحرير الوطني وهي الأهداف التي بلغتها بعد سبع سنوات ونصف من الحرب، سوف تتحقق الأهداف الداخلية والخارجية ما عدا هدف الوحدة المغاربية، ولم يغفل البيان العمل السياسي المتماشي مع الكفاح المسلح ولا التحالفات والمرتكزات الخارجية، ويتضح أن بيان أول نوفمبر يشكل الخط العام للثوار الذين قادوا الجزائر إلى الاستقلال، بغض النظر عن تناقضاتها، فقد برهنت جبهة التحرير الوطني عن تصميم ومثابرة لتجسيد هدفها الواضح وغير القابل للتغيير: الاستقلال الوطني وأول ترجمة غير رسمية نحو العربية تمت في ١٩٥٦ بواسطة أحمد توفيق المدني لكن الأقرب إلى النص الأصلي هي تلك التي قامت بها مصالح وزارة الإعلام في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. بعد الاستقلال جرى تداول ٦٠ ترجمة للنص. انظر: عاشور شرفي، المرجع السابق، ص٣٩. وأيضًا:

Mohamed Harbi, *le F.L.N, Mirage et Réalité.Les Origine Prise du Pouvoir (1945-1962)* édition, paris, 1985, p.115.

(٧٠) محمد عباس، **الثورة الجزائرية: نصر بلا ثمن**، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٧١) محمد عباس، **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص ٢٦٠.

(72) MOUVEMENT NATIONAL ALGERIEN

(٧٣) لم تقم حركة انتصار الحريات الديمقراطية بإدانة انطلاق ١ نوفمبر ١٩٥٤ وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموقف، انظر: أبرز الصحف الجزائرية التي رصدت الحدث في بنيامين سطورا، **مصالي الحاج (١٨٩٨-١٩٧٤) رائد الوطنية الجزائرية**، المرجع السابق، ص٢٢٦. وأيضًا:

Mohamed Teguia, *L'Algérie en guerre*, OPU, Alger, 1988, p. 172.

(٧٤) أصدرت السلطات الفرنسية قرارًا بنقل مصالي من إقامته الجبرية بنيور إلى إقامة أخرى بمدينة السابل دولون (Sables Delonne) في الشمال الغربي من فرنسا، كما اعتقل المناضل مولاي مرباح في اليوم الموالي لاندلاع الثورة لأنه كان في نظر الإدارة الاستعمارية المسؤول الأول عن تفجير الثورة، انظر: محمد عباس، **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص ٣١٥ - ٣١٦. وانظر أيضًا:

M'hamed Yousfi , *Le Complot (algerie1950-1954)*, Ed E.N.L, Alger,.1986, p.154.

(75) Mohamed Harbi, *le FLN Mirage et réalité*, Ed Jeune Afrique, Paris, 1980, p.113 - 114.

وانظر أيضًا:

Khalfa Mammeri, *Abane Ramdane une vie pour l'Algérie*, Ed Karim Mammeri, 3eme éditions, Alger, 1996, p.210.

وانظر كذلك: محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع**، المصدر السابق، ص١٢٠.

(76) Mohamed Abbas, *Messali Hadj Modèle Charismatique, in Messali hadj parcours et témoignages*, Ed Casbah, Alger, 1998, P. 29.

(٧٧) بعد نقل مصالي إلى إقامته الجبرية بمنطقة السابل دولون مُنع عليه الخروج من منزله وكذا استقبال الزوار.

(٧٨) **محمد خيضر**: ولد في ١٣ مارس ١٩١٢ في الجزائر في عائلة متواضعة من بسكرة أين زاول دراسته قبل أن يضطر إلى مغادرة المدرسة لإعالة أهله الفقراء، اشتغل قابضًا في حافلات النقل الحضري التي تربط بسكرة بباتنة وغيرها من المدن. انخرط في صفوف نجم شمال إفريقيا ثم في حزب الشعب الجزائري حيث انتخب نائبًا عن الجزائر العاصمة سنة ١٩٤٦، اتهمته السلطات الاستعمارية بتوريطه في حادثة السطو على بريد وهران سنة ١٩٥٠، استعملت سيارته لنقل النقود من وهران إلى الجزائر العاصمة. لجأ إلى القاهرة سنة ١٩٥١ بعد أن ثار ضد قرار الحزب الذي طلب منه تسليم نفسه للسلطات الاستعمارية وأصبح مندوبًا لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في القاهرة وعضوًا في جبهة تحرير المغرب العربي التي كان يرأسها عبد الكريم الخطابي، ومن موقعه هذا حاول التقريب بين المصاليين والمركزيين دون جدوى وبعد اندلاع الثورة ساهم في تزويد جيش التحرير الوطني بالأسلحة وفي ضمان الدعم العربي للثورة. اعتقل مع أحمد بن بلة ورفقائه يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ بعد اختطاف الطائرة التي كانت تقلهم إلى تونس، ولم يطلق سراحه إلا في ١٩ مارس ١٩٦٢. عُين عضوًا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية وشرفيًا في لجنة التنسيق والتنفيذ في سنة ١٩٥٧، كما أدرج اسمه كوزير دولة في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (١٩٥٨-١٩٦٢) بعد توقيف القتال أطلق سراحه في ١٩ مارس ١٩٦٢ برفقة أحمد بن بلة. انظر:

Benjamin Stora, *Dictionnaire biographique des militants nationalistes algériennes (1954-1962)*, L'Harmattan, Paris, 1982, p.288.

(٧٩) بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص٢٢٧.

(٨٠) هذه التعليمات وجهها مصالي أساسًا لممثله الشخصي في الجزائر المناضل مولاي مرباح، إلا أنها لم تصله بسبب تعرضه لعملية إلقاء القبض من طرف السلطات الفرنسية. انظر: شهادة مولاي مرباح، في:

Mohamed Abbas, *Témoignage de Moulay Mer bah-Messali Hadj Modèle Charismatique, In Réflexions, Messali hadj 1898-1998 parcours et témoignages*, Ed., Casbah, Alger, 1998, P.187 - 202.

وأيضًا: شهادة مولاي مرباح، في **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص ٣١٦.

(٨١) بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص٢٨. إن نص التصريح الذي أدلى به صالي الحاج يوم ٠٨ نوفمبر ١٩٥٤ إلى الوكالة الفرنسية للصحافة (AFP) من مدينة السابل دولون (Sable Dolonne) على الشاطئ الأطلسي الشمالي لا يُدين عمل جبهة التحرير، بل أنه يركز على مسؤولية النظام الاستعماري في إثارة الأحداث، وعندما نضع حدًا لهذا النظام بإعطاء المطامح الوطنية حقها فإننا نضع حدًا لهذه الانفجارات التي تمثل في الواقع ردود فعل إنسانية وأعمالاً صادرة عن اليأس. انظر: سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(82) Claure de Berger, « FLN la terreur », in, Historia Magazine, N°.208, 1971, P. 450.

رفض مصالي الحاج المشاركة في تفجير الثورة عندما عرضت عليه قيادة اللجنة الثورية للوحدة والعمل وصرح بعد أسبوعين من اندلاعها أنها مغامرة جنونية، كما حاول قيادة الحركة نحو صفة وتسييرها من فرنسا وهو في إقامته الجبرية، ومن طرف مناضليه، وقد صرح قائلاً عن زعامة الحركة الثورية "أنا هو رمز المعركة ولما لا أنا هو القائد". انظر:

Ali Haroun, *Le 7eme willaya la guerre de FLN en France 1951-1962*, Ed., du Seuil, Paris, 1986, P.254.

وحول نفس الموضوع يذكر المناضل عبد الحميد مهري بأن مصالي لم يستبعد فكرة الكفاح المسلح، لكنه كان يريد أن تكون الفكرة صادرة عنه وهو صاحب المبادرة، لذلك لم يتجاوب مع دعوة بن بولعيد بدليل أنه أعاد تشكيل فريق عمل مسلح بعد مؤتمر بلجيكا. انظر: **شهادة عبد الحميد مهري**، صحيفة الخبر اليومي، عدد ٥٣٣٥، ليوم الأحد ١ جوان ٢٠٠٨ ، ص ١٥.

(83) Farhat Abbas, Autopsie d'une guerre l'aurore, Edition Garnier, Fières, Paris, 1981, P.59, 60-,61.

(٨٤) سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح**، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(٨٥) وضع مصالي لحزبه الجديد (الحركة الوطنية الجزائرية) هدفًا مزدوجًا، هو البحث عن حل سلمي متفاوض عليه مع فرنسا، ثم محاربة جهة التحرير الوطني التي اعتبرتها مغتصبة في طمعها بأن تكون الممثل الوحيد للشعب وللحركة الوطنية الجزائرية، إلا أن المصالية تطمع في مثل هذا تمامًا، وإذا هي جابهت حركة التحرير فذلك لكي تفرض هي نفسها هذه القدرة الحصرية على التمثيل، انظر: سليماني الشيخ، المرجع نفسه، ص ٢٩٦.

(٨٦) تم اختيار اسم الحركة الوطنية الجزائرية من طرف مصالي لما له من شهرة واسعة ومكانة هامة في أوساط لجماهير، انظر: محمد العربي الزبيري، **الثورة الجزائرية في عامها الأول**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص١٩٦.

(٨٧) كان هذا التنظيم تجسيدًا للانقسام الذي تعرضت له حركة انتصار الحريات الديمقراطية، إلا أنه لم ينزل إلى الشارع إلا بعد ميلاد الجهة التحرير الوطني الذي وقف منافسًا لها ورافضًا قيادتها للثورة الجزائرية. انظر: الطاهر حليسي في حوار مع الدكتور رابح بلعيد، **هكذا خُطفت جهة التحرير الثورة من مصالي**، الحلقة الرابعة، جريدة الشروق اليومي، عدد ١٤٨، الأربعاء ٠٢ ماي ٢٠٠١، ص٥.

(٨٨) يشير المجاهد علي هارون أنه بعد مرور مؤتمر هورنو في شهر جويلية ١٩٥٤ ظهر تجاه جديد يبرز انفصال المصاليين والتفافهم حول الزعيم في إطار تنظيم مهيكل، ولم يكن للحركة الوطنية الجزائرية أي معنى أو أثر إلا بعد اندلاع الثورة في أول نوفمبر ١٩٥٤ لتجسيد انقسام حركة انتصار الحريات الديمقراطية. انظر:

Ali Haroun, la 7eme wilaya, Op.Cit, pp. 254 - 257.

(٨٩) سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(90) Mohamed Teguia, l'Algérie en guerre, OPU, Alger, 1988, P. 172

(٩١) محمد حربي، **جهة التحرير الوطني**، مصدر سابق، ص١٢٩.

(٩٢) بنيامين سطورا، المرجع السابق ، ص ٢٢٨، وأيضًا:

Yves Courrière, la Guerre d'Algérie les fils de la toussant, Fayard, Paris, 1991, P. 432.

وأيضًا:

Jacques Simon, Messali Hadj 1898-1974 Chronologie commentée, L'Harmattan, Paris, 2002, P.175.

وأيضًا:

Jacques Simon , Missali Hadj (1898-1974) lapassion de de l'agérie libre , Préface de Guy le néouannic, Éditions Tirésias, Paris, 1998, p.193, 194.

وانظر أيضًا: محمد عباس، **خصومات تاريخية**، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٠، ص٤٠.

(93) Mohamed Belkacem, Témoignages de Mohamed Bouda, In, Réflexions, Messali hadj 1898-1998 parcoure et témoignages, Op.cit., p. 04-210.

(٩٤) لم تعد خلايا القاعدة تضم أكثر من ثلاثة إلى خمسة مناضلين مع اللامركزية في التنظيم واستقلالية التسيير بالنسبة للأقاليم (المناطق)، ولم يعد للقيادة الوطنية غير دور سياسي. انظر: محمد حربي، المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٩٥) وقد وقع نفس الشيء في القطاع الوهراني، كما يشير حربي في نفس السياق بأن هذه الخطوات انتهت بالتفكيك الكامل للمنظمة المصالية التي نجحت جهة التحرير الوطني في استيعاب مناضلي قاعدتها في الشمال القسنطيني. انظر: محمد حربي، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٩٦) سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص٢٩٣. وأيضًا: محمد عباس، **الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن**، المرجع السابق، ص ٧٩.

(٩٧) يفهم الباحث من خلال قراءته لنص الرسالة بأن جهة التحرير الوطني هي مشكّلة من عناصر مطرودة من حركة انتصار الحريات الديمقراطية وفشلت في تفجير الثورة، حيث ولدت وماتت في اليوم نفسه، وفي الثاني من نوفمبر رفعت الحركة الوطنية الجزائرية راية الجهاد بزعامة مصالي في الأوراس والقبائل بقيادة بن بولعيد، وكريم بلقاسم الوفيين بولاءهما لمصالي. انظر التفاصيل في كتاب:

Mohamed Harbi, Les Archives de la révolution Algérienne , Ed. Jeune Afrique, Paris, 1981, P133-139.

(٩٨) نشير في هذا السياق إلى مساعي كل من مصطفى بن بولعيد لدى مصالي الحاج، وكريم بلقاسم لدى مولاي مرباح، الذي اعتبر أنه الفائدة من الاتصال بالناطقين باسم اللجنة الثورية لأن هؤلاء ليسوا في حقيقة الأمر سوى مفوضين باسم اللجنة المركزية، انظر:

Mohamed Harbi, La Guerre commence en Algérie, Op.Cit, P. 77

(99) Mohamed Harbi, le FLN mirage et réalité, Op.Cit, P. 147-148.

(١٠٠) محمد حربي، جهة التحرير الأسطورة والواقع، مصدر سابق، ص١٣٠. وانظر أيضًا: بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

(١٠١) يرى محمد حربي بأن عبان رمضان يعتبر المثقف الوحيد الذي كان في نفس الوقت رجل فعل قدم لجهة التحرير في الداخل الوجه السياسي الذي كانت الجهة بحاجة ماسة إليه، ولم يعد يسمح للحركة الوطنية بأن تقدم نفسها للرأي العام على أنها صاحبة المبادرة للثورة وهو ما كان في اعتقاد الكثيرين من أتباع كريم بلقاسم. انظر:

Mohamed Harbi, Mirage et réalité, Op.cit, P.147-148-149.

(١٠٢) سوف يعجل المواجهة بين الطرفين حادثة اغتيال مناضل قديم في حزب الشعب الجزائري الذي كان فندقه بشارع أومير في الدائرة الثالثة في باريس ملجأ لغير الشرعيين، الأمر الذي دفع بعبان رمضان إلى توجيه تحذير للحركة الوطنية الجزائرية في أول جوان ١٩٥٥. انظر:

Mohamed Harbi. P. 148-149.

وانظر أيضًا: محمد العربي الزبيري، **الثورة في عامها الأول**، م م ك، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٢٠١.

(١٠٣) لم تنقطع الاتصالات بين الجبهة والحركة الوطنية كانت آخرها تلك التي قام بها كل من فيلالي، والأمين دباغين في شهري مايو وسبتمبر ١٩٥٥ انظر:

Khalfa Mammeri, Op.Cit, P. 151.

(١٠٤) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(١٠٥) **صوت الشعب** (La Voix de Peuple): صدر أول عدد منها يوم ١ ديسمبر ١٩٥٤ وهي الناطقة باللغة الفرنسية، وكانت تطبع في مطبعة (*Sarebruk Funk*) وهي مطبعة خاصة بالتروتسكيين الذين شجعوا الحركة الوطنية المصالية وساهموا في تأسيس هذه الجريدة، ومن أهم محرريها نذكر: علي بوقرط، والسيد علي قداح.

(١٠٦) بنيامين سطورا، **مصالي الحاج**، مرجع سابق، ص٢٣٣.

(١٠٧) استند سطورا في توضيح هذه الجملة على وثيقة خاصة بالحركة الوطنية

Bulletin d'information du MNA N°19-20, du 20 Juin 1958, Rome, P.3

انظر: بينامين سطورا، المرجع نفسه، ص ٢٣٣-٢٤٦. وللمزيد من التفاصيل حول معاقل نشاط الحركة المصالية في الجزائر، انظر: الخريطة في الملحق.

(108) Mohamed Harbi, Mirage et réalité, Op.cit, p. 148 – 149.

(109) Ibid. P148, 149.

(١١٠) عادت هذه التقنيات إلى الظهور بعد أن استخدمها حزب الشعب الجزائري حركة انتصار الحريات الديمقراطية للتغلغل في أوساط السكان والطبقات الشعبية سنوات (١٩٤٦-١٩٤٧). انظر: محمد حربي، المصدر السابق، ص١٢٩.

(111) Sliman Chikh, L'Algérie en armes, OPU, Alger, 1981, p.132.

وأيضًا: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١١٦.

(١١٢) محمد حربي، **الأسطورة والواقع**، مصدر سابق، ص١٢٩. وانظر أيضًا:

Khalfa Mammeri, Op.cit., p.188

(١١٣) مثّل الطائفة المزابية في صراعهم ضد الحركة الوطنية كل من الشيخ إبراهيم بيوض، ومفدي زكرياء.

(114) Mohammed Lebjaoui, Bataille d'Alger ou bataille d'Algérie, Ed. Gallimard, Paris, 1972 P27, 28, 29.

وانظر أيضًا:

Benyoucef Ben khadda, Op.Cit., p.52.

(١١٥) مع نهاية شهر فبراير وبداية شهر مارس اشتدت الصدامات المسلحة بين الجبهة والحركة الوطنية في منطقة القبائل ووقعت عدة اشتباكات في البويرة وذراع الميزان وواضية (Ouadhia) وعين بسام...انظر: محمد حربي، المصدر نفسه، ص١٣٢.

(١١٦) سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٩٨.

(١١٧) نفسه، ص ٩٨.

(118) Ali Haroun, la 7eme wilaya..., Op.Cit. P.270.

(119) Ibid., P. 271 – 276.

(١٢٠) محمد حربي، **الأسطورة والواقع**، مصدر السابق، ص١٣٥.

(١٢١) نذكر منهم مسعود قدروج عضو اللجنة المركزية في **(ح أ ح د)** الذي أصبح مسئولاً في فدرالية الجبهة، وحسن زروق الذي أصبح كذلك مسؤول ولاية باريس، انظر: محمد حربي، نفس المصدر، ص١٣٥ - ٣٤٣.

(١٢٢) يعود الفضل في تأسيس الفدرالية إلى طربوش، ومسعود قراس، ومحساس، وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: محمد عباس، **مثقفون في ركب الثورة، في كواليس التاريخ (٢)**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٢٣٢- ٢٣٩. وحول التفاصيل التاريخية حول نشأة فدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا انظر:

Ali lakhlifi, Naissance.de la fédération de France Banquiers du Fln ou 7éme wilaya, in Archives d'Algérie (magazine), les Dossiers de la Révolution, N-06, mars2005, p.4-10.

(١٢٣) انظر بالتفصيل نص المذكرة التي بعث بهام صالي إلى الرئيس مجلس وزراء بسورية في ١٠ مارس ١٩٥٧ في كتاب:

Mohammed Harbi, les Archives de la Révolution, Op.cit, P.133-139.

(١٢٤) محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، مصدر السابق، ص ١٣٥. للمزيد من التفاصيل حول مناطق المواجهة بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية (MNA) خلال الفترة (١٩٥٥-١٩٦٢). في فرنسا انظر: الخريطة في الملحق.

(١٢٥) بنيامين سطورا، **مصالي الحاج**، المرجع السابق، ص ٢١٩.

(١٢٦) بنيامين سطورا، **مصالي الحاج**، المرجع السابق، ص ٢١٩.

وانظر أيضًا:

M'hamed Yousfi, Le Complot, Op.Cit., p152.

(١٢٧) الطاهر حليسي، المرجع السابق، ص ٥.

(١٢٨) محمد حربي، **الأسطورة والواقع**، مصدر سابق، ص١٣٠. وانظر أيضًا: **شهادة حسين لحول**، في محمد عباس، **رواد الوطنية**، المرجع السابق، ص٥٩-٧٥.

(١٢٩) محمد حربي، المصدر السابق، ص١٣٠. وأيضًا: محمد حربي، **حياة تحد وصمود مذكرات سياسية (١٩٤٥-١٩٦٢)**، ترجمة عبد العزيز بوباكير، دار القصبة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ١٤٨. وللتوضيح أن اسم إسماعيل هو الاسم المستعار لمحمد بوضياف سنة ١٩٥٤.

(١٣٠) فتحي الديب، **جمال عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط١، دار المستقبل العربي، مصر، ١٩٨٤، ص٧٧.

(١٣١) جمعة بن زروال، **الحركة الوطنية الجزائرية المصالية وموقفها من الثورة (١٩٥٤-١٩٦٢)**، مذكرة ماجستير في تاريخ الثورة، قسم التاريخ، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، ٢٠٠٢، ص ٤٩.

(١٣٢) لقد كانت المصالح الفرنسية تدرك المكاسب التي يمكن أن تحققها حالة العداء بين الطرفين. انظر:

Pierre Vidal-Naquet, Une fidélité têtue, In, Vingtième Siècle. Revue d'histoire. N°10, avril-juin 1986. P 5.

وانظر أيضًا:

Mohammed Teguia .Op.Cit., P.173

(١٣٣) انظر بالتفصيل:

El Moudjahid , Numéro spécial, N° 4, Edition Résistance Algérienne, (SD), P.63

وأيضًا: بنيامين سطورا، **مصالي الحاج**، مرجع سابق، ص ٢٥٤. وسليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح، المرجع سابق، ص ٣٢٤.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449



الواقع العسكري للثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى (١٩٥٤ – ١٩٥٦)
دراسة تحليلية نقدية للإمكانيات المادية والبشرية



د. الطاهر جبلي

أستاذ محاضر التاريخ المعاصر

قسم التاريخ – جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان – جمهورية العراق

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهر جبلي، الواقع العسكري للثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦): دراسة تحليلية نقدية للإمكانيات المادية والبشرية.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٢٧ – ٣٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

شكلت الإمكانيات المادية والبشرية ضرورة ملحة بالنسبة لقادة الثورة، باعتبارها من المسائل الحيوية والحساسة لانطلاق واستمرارية أي عمل ثوري، وتجمع المصادر التاريخية المكتوبة والشفوية منها على أن الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة عند انطلاق العمل المسلح ضئيلة جدًا، فهناك نسبة قليلة من المجاهدين لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف مجاهد مسلحين ببنادق الصيد وبنادق أوتوماتيكية من مخلفات الحرب العالمية الثانية صالحة للاستعمال بنسبة العشر، أي أن طلقة واحدة من بين عشرة طلقات نارية تكون صالحة. الأمر الذي أدى بالثورة التحريرية عشية انطلاقها إلى مواجهة مشاكل عدة تعلقت بمتطلبات العمل العسكري كالتحويل والتموين، وهياكل التنسيق، والتخطيط لعمليات التسليح، والتخزين، وإنشاء المخابئ، وتوزيع الرجال والأسلحة على كافة المناطق العسكرية بشكل محكم، وعلى هذا الأساس حاول قادة الثورة، التكيف مع الظروف والمستجدات ومعالجة هذه المشاكل بدقة خصوصًا في ميدان التسليح والتموين. ويمكن القول؛ بأن جبهة التحرير الوطني أعلنت انطلاق الثورة التحريرية بإمكانيات مادية جد ضعيفة خصوصًا إذا ما قورنت بإمكانيات العدو الضخمة المدعّمة بمليون أوروبي في الجزائر أغلبهم مسلحون بأسلحة حربية، الأمر الذي دفع بالبعض إلى القول بأن الثورة انطلقت تقريبًا من الصفر.

مُقَدِّمَةْ

اغتنمت القيادة المنبثقة عن اجتماع الـ ٢٢[١] الذي انعقد في شهر جوان ١٩٥٤ الفرصة للتفكير في أطوار العمل الثوري وفي أول اجتماع لهذه اللجنة في حي القصبة في الجزائر العاصمة، وضع أعضائها الخمسة قانونًا داخليًا قرروا فيه ما يلي:

١- تقوية المنظمة الجديدة عن طريق ضم الأعضاء السابقين للمنظمة الخاصة وهيكلتهم في التنظيم الثوري الجديد.

٢- استئناف التكوين العسكري بالاعتماد على منشورات المنظمة الخاصة التي أعيد طبعها.

٣- تنظيم الفرق التي تتولى جمع السلاح.[٢]

وفي نفس الوقت خرجت هذه اللجنة في الأخير بإقرار مبدأين اثنين واستراتيجية من ثلاثة مراحل:

- **أولاً**: اللامركزية في المبادرة والقرار لسبب اتساع الرقعة الجغرافية وضعت الإمكانيات، الأمر الذي يصعب من مهمة جهاز مركزي في عملية تسيير الكفاح بشكل فعال.
- **ثانيًا**: أولوية الداخل عن الخارج أي أن القرارات الهامة يجب أن تصدر من الثوار المقاتلين في الداخل.[٣]

أما المراحل فهي: مرحلة بناء الهيكل السياسي (جهة التحرير الوطني)، والعسكري (جيش التحرير الوطني) لتحضير العمل المسلح وضمان اتساعه.

- مرحلة تعميم انعدام الأمن على نطاق واسع.
- مرحلة تكوين المناطق (توزيع المسؤوليات).[٤]

وبعد كسب تأييد كل من مسؤولي منطقة القبائل وأعضاء نواة الوفد الخارجي في القاهرة، اجتمعت لجنة الستة يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٤ لوضع حصيلة العمل حيث سجلت ما يلي:

(١) صعوبة الحصول على الأسلحة.[٥]

(٢) اتساع الهوة بين التيارين في حركة الانتصار من أجل الحريات الديموقراطية الذين أعلنوا حربا كلامية بينهم عن طريق الصحافة والمناشير.

(٣) فشل الاتصالات مع الشخصيات القديمة في الحزب لكسب تأييدهم.[٦]

ومواصلةً للعمل الميداني لانطلاق الثورة، تم اقتراح رئاسة هذه المبادرة أي زعامة الثورة على المناضل الأمين دباغين وتغطيتها بشخصيته غير أنه رفض ذلك، فاختار أعضاء اللجنة مبدأ القيادة الجماعية، وتم تحديد يوم ١٩٥٤/١٠/١٥ كأجل لاندلاع الثورة التحريرية غير أنه بسبب تسرب بعض المعلومات إلى السلطات الاستعمارية تراجع قادة اللجنة عن هذا التاريخ.[٧]

أولاً: اللمسات الأخيرة للانطلاق الثورة التحريرية: (المسؤولية التاريخية والقرارات المصيرية)

التقى قادة لجنة الستة مرة أخرى يوم ١٩٥٤/١٠/٢٤ أين تم وضع آخر اللمسات لاندلاع الثورة التحريرية، وقد تم في هذا الاجتماع مناقشة قضايا مهمة وانتهى في الأخير إلى القرارات التاريخية التالية:

١- تسمية المنظمة الثورية الجديدة بجبهة التحرير الوطني، حلت محل اللجنة الثورية للوحدة والعمل CRUA، وفتح باب العضوية فيها لكل من يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر على يكون الالتحاق بصفة فردية (أي ليس في إطار جمعيات أو أحزاب).

٢- تسمية المنظمة العسكرية بجيش التحرير الوطني يدعم العمل السياسي وينفذ القرارات العسكرية.

٣- تحديد الأفكار الرئيسية لتحرير نداء سياسي يذاع ليلة أول نوفمبر، وهو الذي عرض فيما بعد بنداء أول نوفمبر.[٨]

٤- تحديد تاريخ اندلاع الثورة التحريرية وقد كان لاختيار هذا التاريخ وهو ليلة الأحد إلى يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٥٤ كتاريخ لانطلاق العمل المسلح لاعتبارات تكتيكية وعسكرية.

٥- تحديد كلمة السر ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ (خالد وعقبة).

٦- تحديد خريطة المناطق وتوزيع المسؤوليات بشكل نهائي لتقسم التراب الوطني إلى خمس مناطق كتالي:

- **المنطقة الأولى** (الأوراس النمامشة) يقودها مصطفى بن بولعيد[٩] بمساعدة بشير شيحاني.
- **المنطقة الثانية** (الشمال القسنطيني) يقودها ديدوش مراد بمساعدة زيرود يوسف.
- **المنطقة الثالثة** (القبائل) يقودها كريم بلقاسم بمساعدة عمر أوعمران.
- **المنطقة الرابعة** (الجزائر العاصمة وضواحيها) يقودها رابح بيطاط بمساعدة سويداني بوجمعة.[١٠]
- **المنطقة الخامسة** (وهران) قائدها محمد العربي بن مهيدي[١١] بمساعدة بن عبد المالك رمضان.[١٢]
- أما منطقة الجنوب (الصحراء) فإنها تركت إلى وقت لاحق.[١٣]

أما رئيس اللجنة محمد بوضياف،[١٤] فقد أسندت إليه مهمة ربط كافة هذه القيادات بأعضاء الوفد الخارجي بالإضافة إلى مسؤولية تهريب السلاح إلى المنطقة الغربية.[١٥] وفي القاهرة تم تعيين أحمد بن بلة[١٦] مسؤولاً عن إدارة نكتب الثورة (نواة الوفد الخارجي) بالدعاية للثورة الجزائرية وتنوير الرأي العام بالإضافة إلى جمع الأموال والأسلحة.[١٧] وحول طريقة العمل الثوري يذكر محمد بوضياف في شهادته أنه حددت استراتيجية على ثلاث مراحل زاوجت بين العمل السياسي والعمل العسكري:

- **المرحلة الأولى:** إقامة الجهاز العسكري والسياسي للتحضير والتوسع وكان هدف هذه المرحلة سياسيا نظرا لمفاجأة الجماهير وافتقارها للأخبار. عند الاندلاع فإن مهمة الخلايا السياسية وحتى حاملي السلاح مهمتهم الرئيسية هي شرح بُعد وطبيعة وأهداف الحركة للجماهير قصد كسب التعاطف والمساندة.[١٨]
- **المرحلة الثانية:** تتمثل في انعدام الأمن الشامل ، وذلك بشل الحياة الاقتصادية للبلاد عن طريق التخريب والتهديم المتواصل وضرب البنية التحتية للاستعمار والهجوم على مراكز العدو وثكناته وإجبار السكان الأوروبيين على مغادرة البلاد.[١٩]
- **المرحلة الثالثة:** هي مرحلة تكوين مناطق محررة لإيواء نواة قيادة وطنية للثورة تكون صورة مصغرة عن قيادة ما بعد الاستقلال.[٢٠]

أما بالنسبة للأسلحة والأموال، يذكر محمد بوضياف بأنها شكلت المهمة ما قبل الأخيرة بالنسبة للجنة الستة وفي هذا السياق كلفت كل منطقة لتدبير الأموال بوسائلها الخاصة، أما الأسلحة فإن المخزن الرئيسي كان يوجد بالأوراس وضم حوالي ٣٠٠ قطعة إيطالية تم شراؤها من ليبيا خلال فترة المنظمة الخاصة خزنت في المرحلة الأولى بوادي سوف ثم نقلت إلى الأوراس أين خبئت في براميل مملوءة بالزيت.[٢١]

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

ثانيًا: الوضعية المــــادية (العدة والعتاد)

في خضم هذه الظروف الصعبة، شكلت الإمكانيات المادية والبشرية ضرورة ملحة بالنسبة لقادة الثورة، باعتبارها من المسائل الحيوية والحساسة لانطلاق واستمرارية أي عمل ثوري. ولعل من أهم الصعوبات التي تواجه الباحث في دراسة هذا الموضوع، قلة المصادر التاريخية (الشهادات الحية والوثائق الأرشيفية) التي تعطي إحصائيات دقيقة حول التعداد المادي والبشري الذي انطلقت به الثورة إلى غاية مؤتمر الصومام ١٩٥٦.[٢٢] وعلى الرغم من ذلك تجمع الكتابات التاريخية على أن الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة عند انطلاق العمل المسلح ضئيلة جدًا، فهناك نسبة قليلة من المجاهدين لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف مجاهد مسلحين ببنادق الصيد وبنادق أوتوماتيكية من مخلفات الحرب العالمية الثانية صالحة للاستعمال بنسبة العشر، أي أن طلقة واحدة من بين عشرة طلقات نارية تكون صالحة.[٢٣] ويعود السبب في ذلك إلى بقاء هذه الأسلحة مدة طويلة في باطن الأرض، وبالتالي تعرضها للبلل والرطوبة بالإضافة إلى أن أسلحة المنظمة الخاصة هي بدورها كانت مدفونة في مطامير تحت الأرض في منطقة الأوراس منذ سنة ١٩٤٧.[٢٤]

وهناك قطع أخرى اشتراها المناضلون بأموالهم الخاصة، من مخلفات الحرب العالمية تأهبًا لأي عمل مسلح،[٢٥] وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن عملية شراء الأسلحة لم تكن هي الأخرى معممة على كافة مناطق الجزائر، بحيث لم يتمكن المناضلون في الشمال القسنطيني من الحصول سوى على ستة أو سبعة قطع من الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، والمنطقة الوحيدة التي كانت تتربع على كمية لا بأس بها من الأسلحة الأوتوماتيكية هي منطقة الأوراس.[٢٦] وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى؛ أن كمية الأسلحة التي تم جمعها إلى غاية انطلاق الثورة كانت مخبئة في كل من مخازن الأصنام، والأغواط، والقبائل، والجزائر العاصمة، وجبال الأوراس وكوندي سمندو (زيرود يوسف حاليًا)، بعد أن فشلت الشرطة الفرنسية في الوصول إلى هذه المخابئ إثر عملياتها التفتيشية.[٢٧]

لكن الذي حدث ولم يكن متوقعًا أخلط حسابات محمد بوضياف ورفاقه بشأن حجم الإمكانيات المتوفرة لتفجير الثورة. حيث أن زلزال الأصنام الذي وقع في شهر سبتمبر ١٩٥٤ ترتب عنه إتلاف مخزون الأسلحة بكامله وفقدان المكلفين بحراسته، وفي الأغواط سلم السلاح إلى الشرطة الفرنسية عن طريق أحد العملاء. أما مخزون منطقة القبائل فقد كان بيد الميصاليين وبذلك لم تسلم سوى مخازن السمندو والأوراس والجزائر التي لا يزيد رصيدها من الأسلحة عن (٣١٠) قطعة وهي من صنع إيطالي أكثر من ربعها غير صالح للاستعمال، ويعتبر مخزن الأوراس أغناها حيث كان يتوفر على (٣٠٠) قطعة سلاح سلمت بعضها إلى كل من منطقة القبائل ومنطقة الشمال القسنطيني في فترة كان المناضلون يترقبون قدوم أسلحة من الخارج.[٢٨] والجدير بالذكر؛ أنه لم يتم دخول أية قطعة سلاح من خارج سواء من المغرب كما كان متفقًا عليه في لقاء برن بسويسرا، أو من مصر التي كانت تنتظر قيام الثورة الجزائرية، وعليه اعتمد القادة الأوائل على ما كان موجودًا داخل البلاد من الأسلحة التي تم شراءها من ليبيا سنتي ١٩٤٧، ١٩٤٨ وقدرت بحوالي (٥٠٠) قطعة سلاح أدخلت إلى الجزائر على طريق غدامس ثم الواد وبسكرة ومشونش وأريس.[٢٩]

ثالثًا: الوضعية الماليـــــة

أما بخصوص الوضع المالي الذي عرفته انطلاقة الثورة المسلحة، فقد كان للرواد الأوائل الدور الأساس في عملية التمويل، وفي هذا الإطار يمكن الإشادة بالخطوة التي قام بها مصطفى بن بولعيد، حيث أقدم على رهن قسم كبير من ممتلكاته الخاصة لفائدة الثورة.[٣٠] ونفس الشيء قام به ديدوش مراد، وتمكن الحاج بن علا من جمع تبرعات قدرت قيمتها بـ (١٥٠٠٠٠) فرنك قديم في منطقة الظهرة.[٣١] وفي منطقة الشمال القسنطيني تم جمع اشتراكات المنخرطين التي كانت مجمدة من مارس إلى جويلية ١٩٥٤،[٣٢] وحسب شهادة المجاهد لخضر بن طوبال أن ميزانية المنطقة الثانية لتفجير الثورة لم تتجاوز (٦٠) ألف فرنك قديم وقد كان بحوزة زيرود يوسف (١٥٠٠٠ فرنك) أما عمار بن عودة الذي كان في نواحي عنابة وجد لديه (٤٥٠٠) فرنك قديم.[٣٣] أما بالنسبة لبلاد القبائل فقد احتفظ كريم بلقاسم لنفسه بمجموع الاشتراكات الخاصة بالمصاليين، وحسب المناضل أحمد مزغنة أن المكتب السياسي سمح لكريم باستخلاص (١٠%) من محصول الاشتراكات لشراء الأسلحة.[٣٤] إضافة إلى الاشتراكات التي كان يقدمها السكان في المدن والأرياف، وهو ما يؤكده المناضل المدعو سي ناصر الذي كان مسؤولاً في الجهة الغربية من الوطن قائلاً "تم تكوين لجنة ضمن أثني عشر مجاهدًا ممن يعرفون تلك الجهات معرفة صحيحة، وقد تحمل الشعب أعباء التمويل إذ فرضت عليه اشتراكات مع مراعاة طاقة كل واحد."[٣٥] ويذكر المناضل محمد بوضياف أنه بالرغم من هذه المجهودات، فإنه عندما اقتربت ساعة تفجير الثورة وحان وقت جلب الأسلحة من الخارج، لم يتوفر لدى جبهة التحرير الوطني سوى (١٤٠٠٠٠٠) فرنك.[٣٦]

رابعًا: الواقع العسكري للثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)

يُلاحظ الباحث في واقع الثورة العسكري في مرحلته الأولى أن جل الكتابات التاريخية ومذكرات المجاهدين خالية من الإحصائيات الدقيقة خصوصًا في غياب الوثائق التي تعتبر حجر الأساس في البحث التاريخي الأكاديمي، وعلى هذا الأساس سوف نحاول في سياق ضبط الإمكانيات المادية والبشرية التي انطلقت بها الثورة وفقًا للتقسيم العسكري الذي وضعه قادة جبهة وجيش التحرير الوطني قبل الانطلاقة الاعتماد على المادة التاريخية المتاحة عمومًا والأكاديمية الموثقة منها على وجه الخصوص. لقد واجهت الثورة

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التحريرية عشية انطلاقها مشاكل عدة تتعلق بمتطلبات العمل العسكري كالتحويل والتموين وهياكل التنسيق والتخطيط لعمليات التسليح والتخزين، وإنشاء المخابئ، وتوزيع الرجال والأسلحة على كافة المناطق العسكرية بشكل محكم، وعلى هذا الأساس حاول قادة الثورة، التكيف مع الظروف والمستجدات ومعالجة هذه المشاكل بدقة خصوصًا في ميدان التسليح.[٣٧] لقد انطلقت الثورة التحريرية يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٥٤ من خلال ثلاثين عملية عسكرية جريئة شملت كامل التراب الوطني، رغم الاختلاف الذي سجلته من حيث القوة والنتائج التي تمخضت عنها من منطقة إلى أخرى[٣٨] الأمر الذي يدفع الباحث إلى محاولة التساؤل عن حجم الإمكانيات المادية والبشرية لمناطق الثورة الخمس، ومدى استعدادها وواقعها المادي والعسكري.

حجم الإمكانيات المادية والبشرية للثورة التحريرية:

(جهود فردية لأهداف مشتركة)

(١) المنطقة الأولى (الأوراس):

قائدها مصطفى بن بولعيد بمساعدة شيحاني بشير وكانت المنطقة تغطي جبال الأوراس، والحضنة، وجبال النمامشة، وجبال سوق أهراس، وبني صالح، وطريق قالمة، وعين عبيد، وسطيف، وبرج بوعريريج.[٣٩] وقد شكلت منطقة الأوراس الرئة التي استندت إليها الثورة عند انطلاق العمل المسلح، ولم تكن الجغرافيا، العامل الأساس الذي جعل من هذه المنطقة القلعة الأولى للثورة وإنما يعود الفضل في ذلك إلى ثُلة من رجالها الذين جعلوا منها المنطقة التاريخية الأكثر تنظيمًا وعدة عن بقية المناطق الأخرى، ويعود الفضل في توحيد صفوف قبائلها وفي تعبئة المنطقة بأكملها نحو الإيمان بفكرة المشروع الثوري إلى مجموعة من قدماء المنظمة الخاصة، وبعض مناضلي حركة انتصار الحريات الديموقراطية الذين التقوا حول بن بولعيد قبيل الانطلاقة بأشهر قليلة.

شرعت قيادة الثورة في الأوراس في عملية الاستعداد للثورة منذ صيف ١٩٥٤ بفضل مجهودات قائدها بن بولعيد، حيث تم استخراج السلاح المخزن بالمنطقة لاسيما الموجود بقرية الحجاج، لفرزه وتنظيفه وصيانته وإعداده لعملية التوزيع، مع الاستمرار في عملية صنع القنابل كتلك التي صُنعت بقريتي تازولت والحجاج، وقد تخصص في صناعتها كل من برغوث علي، وبعزي علي، وبلقاسم أسمايحي، وبتاريخ ٠٨ أكتوبر ١٩٥٤ شرع في توزيع السلاح انطلاقًا من قرية الحجاج على مراحل: ففي المرحلة الأولى، قام بن بولعيد، رفقة شيحاني بشير بحمل شحنة كبيرة من السلاح في سيارته إلى بلاد القبائل. أما في المرحلة الثانية، فقد تكلف مرة أخرى بشير شيحاني بنقل كمية أخرى من السلاح إلى ذراع الميزان. وفي المرحلة الثالثة، تم نقل شحنة إلى السمندو والخروب بمنطقة الشمال القسنطيني تسلمها زيرود، ثم شرع بن بولعيد في توزيع حصة المنطقة على المجاهدين بالأوراس.[٤٠]

وفي يوم ٣١ أكتوبر وزع السلاح على المجاهدين في الأوراس بعد إخراجه من المطامير وتنظيفه، وبذلك وصلت شحنات منه إلى كل من مشونش، وبنيان، وغسيرة تاحموت، وكيمل، وزلاطو، وأريس، وإيشمول، والشمرة. ونشير إلى أن هذه الأسلحة كانت مخبأة بمكانين الأول في منزل بعزي لخضر قرب وادي الحمام، والثاني بمنزل طريسة بشير في الأوراس.[٤١] وما بقي من أسلحة تم توزيعها عقب آخر اجتماع عقده بن بولعيد ليلة أول نوفمبر في دار بن شايبة بدشرة أولاد موسى بإشمول في منزل بولقواس بخنقة لحدادة في تيبكاوين، حيث قام بتوزيع السلاح المستخرج من مطامير قرية الحجاج التي تتواجد بها دور عزوي وبعزي وبشاح وتحصى بعض الكتابات التاريخية عدد المجاهدين الذي حضروا جلستي الاجتماع فقط بحوالي (٣٥٠) مجاهدًا.[٤٢]

وتشير المادة التاريخية المتوفرة إلى حجم الإمكانيات المادية والبشرية التي انطلقت بها الثورة التحريرية رغم الاختلافات الموجودة بينها حول نسبة المشاركة فيها من منطقة إلى أخرى، وفي هذا الإطار تذكر بعض المصادر بأن بن بولعيد قاد الطلائع الأولى لجيش التحرير الوطني عند اندلاع الثورة، بحيث جمع حوله في اجتماع دار بولقواس بقرية عين الطين (أريس) ما بين (٣٠٠) و (٣٩٦) مجاهدًا.[٤٣] كما تذكر الروايات الشفوية لعدد من المجاهدين المقربين منه أنه قام بتقسيم مجاهدي الأوراس إلى تسع وثلاثين فوجًا ليلة أول نوفمبر، نجح منهم ثلاثة أفواج في مهمتهم على أحسن وجه،[٤٤] وقد كان كل فوج يتكون من مجموعة تتراوح ما بين (٢٠) و(٣٠) مجاهدًا.[٤٥]

وتجدر الإشارة إلى؛ أن بن بولعيد أسند قيادة معظم الأفواج إلى مجموعة تتكون من (٢٧) عنصرًا من قدماء المنظمة الخاصة الذين كانوا من أكثر العناصر مقدرة على قيادة مختلف مناطق الأوراس، ومن أشهر هؤلاء نذكر شيحاني بشير، وعباس لغرور، وعجول، ومسعود بلعقون، وعبد الوهاب عثماني، ومحمود الواعي، ولخضر لعبيدي، ولزهر شريط، والطاهر نويشي .... وغيرهم. كما أحصى المؤرخ محمد حربي عدد الرجال الذين كانوا يحملون السلاح في الأوراس بـ (٣٥٠) مقاتلاً. أما بخصوص التسليح، لم يكن الوضع سيئًا مقارنةً مع بقية المناطق الأخرى.[٤٦] ومن جهة أخرى؛ يتفق كل من مراد صديقي، ومصطفى هشماوي على أن الثورة في الأوراس انطلقت بـ (٥٥٠) مجاهدًا وتوفر لديهم (٢٠٠) بندقية إيطالية عيار (٥٦, ملم)، ومجموعة أخرى من بنادق الصيد،[٤٧] في حين صرح سكرتير الدولة الفرنسية للشؤون الحربية جاك شوفالي، آنذاك قائلاً: "إن منطقة الأوراس في حالة ثورة حقيقية وعدد الثوار فيها قدر ما بين (٤٠٠) و (٤٥٠) مقاتلاً، وهم يستخدمون أسلحة أوتوماتيكية، وأجهزة لا سلكية للإرسال والاتصال."[٤٨]

وحول نفس الموضوع تؤكد بعض الدراسات الأكاديمية الموثقة في أرشيف فانسان، أن حجم القوة العسكرية في المنطقة الأولى تراوح إلى غاية شهر أكتوبر ١٩٥٥ بين (١٥٠٠) إلى (٢٠٠) مجاهد

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مسلحين بنسبة (٧٥ %) سلاح حربي و (٢٥ %) سلاح صيد.[٤٩] ومهما يكن من أمر؛ فإن رفقاء بن بولعيد في قيادة الثورة كانوا يعلقون كل أمالهم على منطقة الأوراس لكي تكون قلعة الثورة، خصوصًا وأنه ظل يعتقد بأن المنطقة تمتلك القدرة على الصمود أمام القوات الاستعمارية لفترة طويلة، الأمر الذي دفعه إلى تقديم وعود لرفاقه في لجنة الستة قبيل الانطلاقة بإمكانية تحمل المنطقة الأولى أعباء الانطلاقة لمدة ثمانية عشر شهرًا،[٥٠] وذلك بالنظر إلى حجم الإمكانيات المادية المتوفرة إلى جانب رصيدها التاريخي الذي صنعته حنكة بن بولعيد العسكرية، وقدرته على التنظيم والتعبئة منذ فترة المنظمة الخاصة.

(٢) المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني):

عُين على رأس قيادتها مراد ديدوش بمساعدة زيرود يوسف، وتمتد هذه المنطقة حتى الحدود التونسية، مارة بسيبوس، وصدراته، ومداوروش. ومن الناحية الغربية نجد سطيف، وخراطة، وسوق الاثنين، ويحدها شرقًا الحدود التونسية.[٥١] وتعد المنطقة الثانية من بين أبرز المناطق التاريخية، واعتبرت أحد أهم معاقل الحركة الوطنية بمختلف تياراتها قبل الانطلاقة، كما شكلت أيضًا مصدرًا أساسيًا مول صفوف القيادة الثورية بعدد لا بأس به من العناصر التي تشكلت منها أول نخبة ثورية كانت وراء تأسيس جبهة وجيش التحرير الوطني في أول نوفمبر ١٩٥٤.[٥٢] وقسمت هذه المنطقة عشية اندلاع الثورة إلى أربع نواحي:

١-ناحية سوق أهراس، عُين على رأسها باجي مختار بها (٣٠) مجاهدًا.

٢-ناحية عنابة وضواحيها، على رأسها مصطفى بن عودة وبها (٠٨) مجاهدين.

٣-الناحية الغربية، عُين على رأسها لخضر بن طوبال وبها (١٧) مجاهدًا.

٤- الناحية الوسطى، عُين على رأسها زيرود يوسف وبها (٤٥) مجاهدًا.[٥٣]

وتختلف الروايات حول تقدير حجم الإمكانيات المادية والبشرية التي شهدتها المنطقة عشية انطلاق الثورة، حيث يُقدر كل من مراد صديقي، ومصطفى هشماوي، حجم العدة والقياد فيها بـ (٥٣٠) مجاهدًا يتوفر لديهم (٦٠) بندقية إيطالية عيار (٥٦.)، وبنادق صيد،[٥٤] إلا أن محمد حربي يقدر استنادًا إلى شهادة لخضر بن طوبال تعداد مجاهدي المنطقة الثانية في نفس الفترة بـ (٥٠) مقاتلاً من ضمن قرابة (٧٠٠٠) مناضل في صفوف حركة انتصار الحرية الديموقراطية، وهي نسبة هزيلة وتافهة حسب حربي مقارنة مع حجم القاعدة العريضة التي تمتعت بها الحركة في منطقة الشمال القسنطيني.[٥٥] لذلك يمكن القول؛ أن التعثر الظاهر في انطلاق الثورة الذي شهدته المنطقة شكل في حقيقة الأمر مفارقة شديدة بالنظر إلى ما كانت تتوفر عليه من قادة وتنظيم في الفترة التي شهدت المراحل المتقدمة في عملية التحضير للثورة.[٥٦]

وحسب التقرير الذي قدمه زيرود يوسف خلال جلسات مؤتمر الصومام، فإن عدد مجاهدي الشمال القسنطيني عند الانطلاقة كان يبلغ مائة رجل فقط لا يمتلكون سوى (١٣) قطعة سلاح، لكن دون تفصيل حول وضعية المناطق. ويوضح دحو جربال تلك الوضعية الصعبة بالإشارة إلى أن ديدوش مراد لم يكن لديه سوى (٣٥) رجل في مركز قيادة المنطقة الثانية (عزابة- ميلة- عين الكرمة- فج مزالة- الطاهير)، ولم يكن تحت إمرة بن عودة في عنابة سوى ثلاثة رجال، بينما كان زيرود (سكيكدة- قسنطينة) يقود (٢٧) مجاهدًا، وبن طوبال يقود مجموعة تتكون من (١٣) مجاهدًا، وقد تقاسم هذين القائدين (٣٢) قطعة سلاح.[٥٧]

وليس ببعيد عن الأرقام المذكورة سابقًا يحصي أحسن بومالي استنادًا كذلك إلى رواية لخضر بن طوبال عدد مجاهدي المنطقة عند اندلاع الثورة بـ (٦٦) لا يملكون إلا كمية ضئيلة من أسلحة المنظمة الخاصة أغلبها غير صالح للاستعمال، ورصيد مالي قدر بمائة ألف فرنك قديم ساهم به كل من زيرود يوسف، وعمار بن عودة، ولخضر بن طوبال،[٥٨] وفي نفس الوقت تذهب روايات أخرى إلى أن الأسلحة التي كانت بحوزة مجاهدي المنطقة قليلة جدًا ومعظمها بنادق حربية قديمة، وأسلحة صيد، وبعض المتفجرات تم توزيعها على المجاهدين ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤.[٥٩] وبعد الانطلاقة بعشرة أشهر لم يتمكن زيرود يوسف من حشد أكثر من (٢٠٠) مجاهدًا عشية هجومات ٢٠ أوت ١٩٥٥، حيث يذكر محمد حربي بأن عدد المجاهدين الذين كانوا تحت قيادة زيرود يوسف لم يتجاوز (١٧٥) مجاهدًا، بينما رجع جولبار مينيه (Gilbert Meynier) أن عددهم كان يتراوح ما بين (٢٠٠) إلى (٣٠٠) رجل.[٦٠]

غير أن هذه الوضعية لم تستمر طويلاً، لأن جيش التحرير تمكن من مضاعفة وتدعيم صفوفه عقب ذلك بمدة قصيرة، الأمر الذي يوحي بأن ذلك كان نتيجة مباشرة للتداعيات التي أفرزتها الهجومات من جهة، وردود الفعل الفرنسية من جهة أخرى، وفي هذا الإطار يشير علي كافي في مذكراته بأن زيرود عقد اجتماعًا عامًا لرجاله بعد أقل من ثلاثة أشهر من الهجومات بمناسبة الذكرى الأولى للانطلاقة في ٠١ نوفمبر ١٩٥٥ بدوار بني صبيح حضره حوالي (٤٠٠) مجاهدًا.[٦١] وهو ما يوضح بشكل جلي أن تحسن وضع المنطقة من حيث التسليح وتطور وحدات جيش التحرير الوطني فيها من حيث العدد والأداء كان في المرحلة التي تلت تلك الهجومات. وفي هذا السياق تشير الإحصائيات الفرنسية إلى أن المنطقة الثانية أصبحت تضم إلى غاية أكتوبر ١٩٥٥ بين (٩٠٠) إلى (١٢٠٠) مجاهد مسلحين بنسبة (٣٠%) سلاح حربي و(٧٠%) سلاح صيد.[٦٢]

(٣) المنطقة الثالثة (القبائل):

عُين على رأسها كريم بلقاسم بمساعدة أعمر أوعمران، ومحمد زعموم، يحدها شمالاً سوق الاثنين ومن الجنوب خط السكة الحديدية الرابط بين قسنطينة والجزائر إلى سطيف، ثم تمتد إلى برج بوعريريج، والمسيلة، وعين الحجل، وسور الغزلان، وعين بسام، والأخضرية، ومن الغرب الثنية، وكوربي مارين، ومن الشرق سطيف خراطة.[٦٣] غطت المنطقة الثالثة ناحية تيزي وزو، ووادي الصومام، ووادي الساحل، وطريق البويرة، والأخضرية، وبومرداس، وقد عمت الثورة معظم نواحيها[٦٤] بعد أن قسمت إلى خمسة نواحي، توزعوا على قيادتها رفقاء كريم بلقاسم ومن أشهر هؤلاء كان: علي زعموم، وشقيقه محمد المدعو (سي صالح)، ودهيليس بن سليمان (سي صادق)، وعلي ملاح (سي شريف)، ومحمدي السعيد (سي ناصر)، والسعيد يازوران (بريروش)، ثم انضم إليهم عميروش آيت حمود، وعبد الرحمن ميرة، ومحند أولحاج، ومحمد حماي (قاسي) وغيرهم. وقد شكلت منطقة القبائل المعقل الثاني للثورة[٦٥] بعد الأوراس عند انطلاقتها بالنظر إلى الثقل الكبير لهذه المنطقة من الناحيتين التنظيمية والسياسية باعتبارها أكثر مناطق البلاد كثافة بالمناضلين والإطارات السياسية في صفوف التيار الثوري من جهة، وبفعل الحاجة الملحة إلى العدد والعدة بالنسبة إلى مهندسي الثورة الأوائل من جهة أخرى. وقد سمحت هذه المستجدات لقادة منطقة القبائل من استدراك الموقف قبل ثلاثة أشهر فقط من اندلاع الثورة، ونجحوا في إقناعهم في لجنة الخمسة بإعطاء منطقتهم وضعًا تنظيميًا على قدم المساواة مع بقية المناطق التاريخية الأخرى.[٦٦]

إن الإحصائيات المتوفرة حول تعداد الإمكانيات المادية والبشرية في منطقة القبائل تتباين بشدة من مصدر إلى آخر، وفي هذا الإطار يشير كل من مراد صديقي، ومصطفى هشماوي، إلى أن عدد المجاهدين في المنطقة الثالثة وصل إلى (٥٧٠) مجاهدًا، لم يتوفر لديهم سوى (٨٨) بندقية مختلفة الصنع بين إيطالية وفرنسية وسلاح صيد، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف طلقة فقط لجميع أنواع الأسلحة.[٦٧] بينما يذهب كل من محمد حربي، وإيف كوريار (yves courriere) إلى تقدير حجم الإمكانيات في المنطقة بـ (٤٥٠) رجل،[٦٨] الأمر الذي يبين أن هذه المنطقة لوحدها كانت تشكل (٤٥%) من صفوف جيش التحرير عشية اندلاع الثورة حسب ما ورد في سياق إشارتهما إلى عدد مفجري الثورة في مجمل مناطق التراب الوطني. غير أن هذه التقديرات لا تجد قبولاً عند جولبار مينيي (Gilbert Meynies) الذي يذكر بأن منطقة القبائل ضمت ما بين (٢٠٠) إلى (٣٠٠) رجل حيث رتبها في المرتبة الثانية بعد منطقة الأوراس التي ضمت حسب تقديراته (٥٠٠) رجل.

إن ما مذكره جولبار مينيي يمكن أن يكون أقرب من الصحة مقارنة مع التقديرات التي أوردها كل من محمد حربي، وإيف كوريار، لأن معظم الإحصائيات المستقاة من الكتابات الوطنية ومن الشهادات الحية لعدد من المجاهدين عبر مختلف المناطق التاريخية تتقاطع فيما بينها حول فكرة جوهرية مفادها أن منطقة الأوراس اعتبرت أكثر المناطق عدة وعددًا عشية اندلاع الثورة بينما شكلت منطقة القبائل المعقل الثاني من حيث الأهمية التنظيمية والعسكرية. إلا أنه بعد انطلاق العمل المسلح وتطور النشاط الثوري ارتفع عدد مجاهدي المنطقة الثالثة، حيث يقدر يوسف مناصرية حجم القوات العسكرية في المنطقة الثالثة إلى غاية شهر أكتوبر ١٩٥٥ بـ (٥٠٠) رجل مسلحين بنسبة (٣٠%) سلاح حربي و (٧٠%) سلاح صيد ولها (٥٠٠) مجاهد يتبعون المسلحين وجاهزين كذلك لحمل السلاح.[٦٩] كما قدر رصيدها المالي بمليون فرنك.[٧٠]

(٤) المنطقة الرابعة (الجزائر وضواحيها):

عُين على رأس قيادتها رابح بطاط بمساعدة سويداني بوجمعة، وأحمد بوشعيب وتحتل هذه المنطقة موقعًا استراتيجيًا وسط البلاد، حيث شملت بالإضافة إلى العاصمة الساحل والمتيجة، والشلف، وسرسو، وجبال الظهرة، والونشريس، وزكار، والتيطري، والأطلس البليدي.[٧١] وقد كان يحدها شمالاً "كورين مارين" وتنس، ومن الجنوب البويرة، وعين بسام وبئر غبالو، والبرواقية وتيارت، ومن الغرب حدود القطاع الوهراني، ومن الشرق الثنية والأخضرية والبويرة.[٧٢]

وتجدر الإشارة إلى: أن هذه المنطقة لم تكن تشكل ثقلاً عسكريًا وسياسيًا على غرار منطقتي الأوراس والقبائل، حيث كانت ضعيفة من حيث العدة والعتاد بشكل ملحوظ، رغم أنها كانت تضم إقليم الجزائر العاصمة الذي شكل المنطقة المركزية في عملية التحضير للعمل المسلح، حيث برزت في أحيائها الشعبية الأنوية الأولى للتنظيمات الثورية السرية التي يعود لها السبق في مباشرة الثورة وقيادتها خلال المهلة الأولى.

ومما لا شك فيه؛ أن افتقاد رابح بيطاط[٧٣] ورفاقه في قيادة المنطقة الرابعة من أعضاء لجنة الـ ٢٢ لمدة زمنية كافية لجمع السلاح وتعبئة الصفوف كان أهم العوامل الرئيسية التي دفعت بهم الانطلاقة لتفجير الثورة ببضعة عشرات من المجاهدين الذين كانوا في معظمهم لا يمتلكون أسلحة، شخصية الأمر الذي يعكس محدودية مجال العمل العسكري وطبيعته ونوعية الأهداف المستهدفة في العاصمة وضواحيها في ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤.

لقد كشفت محدودية العمليات الثورية في الرقعة الجغرافية عن قلة الصفوف التي تم جمعها من طرف بيطاط، وسويداني، وبوشعيب، وبوعجاج، وكذلك مرزوقي، ويمكن دعم هذا الطرح بما أشار إليه بعض الباحثين والمجاهدين في نفس الوقت في بحوثهم وشهاداتهم. وفي هذا السياق يذكر المجاهد مرزوقي في روايته بأن المنطقة الرابعة كانت تمتلك عشية اندلاع الثورة مجموعتين من المجاهدين توزعت بين العاصمة والبليدة، حيث ضمت الأولى (٢٦) مجاهدًا مقسمين إلى خمسة أفواج، الأمر الذي يعني أن كل فوج ضم في المتوسط خمسة أفراد بما فيهم قائد الفوج، بينما ضمت المجموعة الثانية (٥١) مجاهدًا تم تقسيمهم إلى ثمانية أفواج[٧٤]

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

وهو ما يسمح بتقدير أن الفوج كان يضم في المتوسط ستة مجاهدين.

لا تبتعد هذه الإحصائيات مع ما أشار إليه المجاهد عمر أوعمران في تقرير له قدمه خلال جلسات مؤتمر الصومام، وما أشار إليه أيضًا كل من خالفة معمري، ومحمد حربي، وكوريار(yves courriere) الذين قدروا تعداد مفجري الثورة بالمنطقة الرابعة بخمسين مجاهدًا.(٧٥) بينما نجد هذه التقديرات تختلف كثيرًا مع ما أورده كل من مراد صديقي، ومصطفى هشماوي من جهة، ومحمد تقية من جهة أخرى، حيث يُقدر كل من مراد صديقي، ومصطفى هشماوي حجم الإمكانيات المادية والبشرية في المنطقة الرابعة عشية انطلاق الثورة بـ (٢٣٨) مجاهدًا، و(١٥) رشاشًا فقط.(٧٦) أما محمد تقية يذكر في دراسة له حول جيش التحرير الوطني في الولاية الرابعة، أن تعداده عشية انطلاق الثورة كان يقدر بحوالي (٢٠٠) رجل يملكون (٥٠) قطعة سلاح.(٧٧)

غير أن بعض الدراسات ترى بأن ما ذكره محمد تقية كان بفعل الالتباس الذي قد يكون وقع فيه عندما اعتمد على الشهادات التاريخية، التي أشارت إلى الخطوة التي أقدمت عليها منطقة القبائل لمساعدة المنطقة الرابعة بمجموعة من المجاهدين عند بداية الثورة لإنجاح العمليات المسلحة الأولى، الأمر الذي يسمح بالقول أن تقدير (٢٠٠) مجاهد الذي أشار إليه تقية لم يكن يشغل تعداد جيش التحرير في المنطقة الرابعة، وإنما ضم كذلك عشرات من مجاهدي المنطقة الثالثة بقيادة أوعمران للقيام بعمليات مسلحة في نواحي البليدة والجزائر العاصمة.

ومهما يكن من أمر؛ فإن تقدير المتوسط لجيش التحرير في المنطقة الرابعة عند انطلاق الثورة كان يتجاوز المائة بقليل عند حساب مجموعة المنطقة الثالثة إلى جانب الأفواج الـ ١٣ التابعين للمنطقة الرابعة،(٧٨) الأمر الذي يتطابق نسبيًا مع رواية المجاهد أحمد بوشعيب التي ذهب فيها إلى القول بأن عدد أفواج المنطقة الرابعة كان (٢٠) فوجًا (وليس ١٣ كما ذكر مرزوقي)، ويتراوح عدد أفراد كل فوج ما بين (٥) إلى (٧) مجاهدين (مرزوقي ذكر ما بين ٠٥ إلى ٠٦) ويعني هذا التقدير أن عدد مفجري الثورة في المنطقة الرابعة كان يتراوح ما بين (١٠٠) و (١٤٠) مجاهد كأقصى حد.(٧٩)

(٥) المنطقة الخامسة (القطاع الوهراني):

عُين على رأس قيادتها محمد العربي بن مهيدي بمساعدة كل من بن عبد المالك رمضان، وعبد الحفيظ بوصوف، وتشغل هذه المنطقة مساحة شاسعة من التراب الوطني، حيث كانت تمتد على الحدود الإدارية لعمالة الجزائر وهي تتربع على١/٣ من مساحة الجزائر. تميزت عمليات أول نوفمبر ١٩٥٤ في المنطقة الخامسة بالبساطة والضعف من جهة، والمحدودية في الإطار الجغرافي المستهدف، وفي هذا الإطار تجمع المصادر التاريخية المكتوب منها والشفوي على أن الانطلاقة في القطاع الوهراني تمركزت جغرافيًا في منطقتين متباعدتين؛ الأولى في ناحية سيدي علي قرب مستغانم، والثانية في ناحية أخفير ضواحي تلمسان، مع الإشارة أيضًا إلى أن هاتين العمليتين لم تكن ذات طابع عسكري بل تخريبي مع طلقات نارية رمزية.(٨٠)

والملاحظة: أن ظروف وملابسات الانطلاقة في هذا القطاع كان أشبه إلى حد بعيد بالوضعية التي شهدتها المنطقتين الثانية والرابعة، غير أنه كان أكثر ضعفًا من الجانبين التنظيمي والعسكري مقارنةً مع الشمال القسنطيني والجزائر وضواحيها. وتذهب المصادر للتدليل على صحة هذا الطرح بالإشارة إلى أن حجم الإمكانيات البشرية بها عند الانطلاقة لم يكن يتجاوز بضعة عشرات من المجاهدين. وفي هذا السياق يشير محمد حربي إلى تقدير هذا العدد بـ (٦٠) مجاهدًا(٨١) يتوزعون عبر تراب منطقة تعد من أكبر المناطق التاريخية من حيث اتساعها الجغرافي، ويذكر المجاهد الحاج بن علا أحد مساعدي بن مهيدي في روايته أن عدد أفواج المجاهدين عند الانطلاقة في المنطقة الخامسة، كان يبلغ (١٢) فوجًا وأعطى قائمة بأسماء (١٥) مجاهدًا من الرعيل الأول بدون أن يذكر عدد مجاهدي كل فوج من الأفواج التي صرح بها.(٨٢)

وإذا كانت الظروف والأوضاع في المنطقة الخامسة أشبه بظروف المنطقة الرابعة أين كانت جل الأفواج تتكون من مجموعات صغيرة لا تتجاوز عدد عناصرها الخمسة في القليل من الأحيان، فإنه يمكن القول بأن ما ذهب إليه حربي يتوافق بشكل كبير مع ما ذكره الحاج بن علا في شهادته. وتشير الروايات التاريخية أن تلك المجموعات انتشرت في كل مستغانم، وتلمسان، وعين تموشنت، والمحمدية، ووهران، وسيق قبيل اندلاع الثورة غير أنها لم تكشف عن استعدادها العسكري بسبب تسليحها السيء عند انطلاق العمل المسلح، وفي هذا الإطار يذكر محمد بوضياف بأن مجاهدي المنطقة الرابعة والمنطقة الخامسة لم تكن لهم عيشة اندلاع الثورة سوى (١٠) قطع من الأسلحة الحربية، وأن بن مهيدي نفسه لم يكن يملك ذخيرة كافية لمسدسه الشخصي.(٨٣)

ومما لا شك فيه؛ أن تلك الوضعية المتردية التي شهدتها المنطقة الخامسة ساهمت بشكل مباشر في تعرض التنظيم الثوري لضربات قاسية من طرف القوات الاستعمارية التي تمكنت من تصفية مجموعة بن عبد المالك رمضان يوم ٠٤ نوفمبر ١٩٥٤ بناحية بوسكي قرب مستغانم، واغتيال مجموعة محمد زبانة (أحمد زهانة) خلال اشتباك بمنطقة غار بوجليدة يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٤.

وقد انعكست تداعيات التصعيد الاستعماري على العمل الثوري، الأمر الذي أدى إلى تراجع قيادة المنطقة باتجاه الحدود المغربية وعزلة بقية قادة الأفواج عن العمل المسلح بسبب العجز عن المواجهة وخشية من الاعتقال والسجن، وفي هذا السياق يشير المجاهد مختار بوعيزرم المدعو (سي ناصر) أن عملية التحاق المجاهدين في المنطقة الخامسة بصفوف الثورة بعد اندلاعها بأشهر قليلة كانت تتم في مدينة وجدة المغربية، وقد بين ذلك مظاهر

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

تفكك التنظيم البسيط الذي أعدته المنطقة الخامسة وعن تراجع قيادتها إلى ما وراء الحدود الجزائرية في وقت مبكر من الثورة التحريرية، كما ذكر بأن المجاهدين لم يكونوا يقومون بدفن الشهداء من زملاءهم، وإنما كانوا يتركون هذه المهمّة للسكان المدنيين الجزائريين، الأمر الذي كشف بعمق عن ضعف وتدهور الإمكانيات المادية والبشرية (العدد والعدة).[٨٤]

وتذهب بعض الدراسات إلى أن هذه الوضعية التي آلت إليها المنطقة، حسب ما ذكره مختار بوعيرزم، لم تكن تعبر عن خطة تراجع تكتيكي وإنما تحولت بشكل سريع إلى ما يشبه عملية انسحاب شبه كلي من الميدان العسكري، لأن العمل الثورة بالمنطقة الخامسة دخل مرحلة ركود تام استمر إلى غاية نهاية سنة ١٩٥٥،[٨٥] وهي نفس الفترة التي بلغ فيها تعداد جيش التحرير الوطني في المنطقة بـ (٣٠٠) مسلح بسلاح حربي يتبعهم (٢٠٠) مجاهد جاهزين لحمل السلاح كما امتلكت المنطقة (٣٠٠) قطعة سلاح حربي منها (١٥٠) قطعة مخزنة.[٨٦]

خامسًا: قيادة الثورة بين أهبة الاستعدادات النفسية وضعف الإمكانيات المادية

ويمكن للباحث بعد هذا العرض أن يدرك بعمق انطلاقًا من جملة المصادر التاريخية المكتوب منها والشفوي، بأن جبهة التحرير الوطني أعلنت انطلاق الثورة التحريرية بإمكانيات مادية جد ضعيفة خصوصًا إذا ما قورنت بإمكانيات العدو الضخمة[٨٧] المدعمة بمليون أوروبي في الجزائر أغلبهم مسلحون بأسلحة حربية، الأمر الذي دفع بالبعض إلى القول بأن الثورة انطلقت تقريبًا من الصفر، وفي هذا الإطار يشير المجاهد لخضر بن طوبال بخصوص التحضيرات المادية والبشرية قائلاً "بأن الصفر والوسائل في درجة واحدة بحيث لم يكن لدينا الشيء الكثير فالمناطق كانت محدودة من حيث الإمكانيات والوسائل مع بعض التفاوت القليل، ففي الأوراس كان هناك سلاح، إلا أنه كان عبارة عن سلاح صيد (بنادق) في حالة سيئة وغير صالح في معظم الأحوال."[٨٨] ويضيف أحمد بن بلة في مذكراته بأن الثورة الجزائرية بدأت في الواقع بقليل جدًا من الأسلحة قدرت بـ (٣٥٠) أو (٤٠٠) قطعة فقط من البنادق الإيطالية (Mousqueto) وصلت من ليبيا قبل الانطلاقة، وعندما آن الأوان وزع السلاح في كل مكان تقريبًا من البلاد وبالأخص في الأوراس الذي أريد منه أن يكون الحصن الأساسي للثورة، بيد أن أي قطعة سلاح لم ترسل إلى عمالة وهران.[٨٩]

بالعودة إلى الإحصائيات الخاصة بحجم الإمكانيات المادية والبشرية التي أشرنا إليها سابقًا في كل منطقة من مناطق العمل العسكري، يمكن للباحث أن يستنتج أن عدد الذين التحقوا بصفوف الثورة عشية انطلاقها في أول نوفمبر ١٩٥٤ في كامل التراب الوطني بشكل عام حوالي (١٠٦٦) مجاهد، أما بالنسبة للسلاح فقد كان ضئيلاً جدًا بالنظر إلى عدد المجاهدين من جهة واتساع رقعة العمل العسكري من جهة أخرى، حيث بلغ عدد قطع الأسلحة التي سجلت بها الانطلاقة حوالي (٣٦٨) قطعة متنوعة بين بنادق إيطالية وفرنسية، وإن كانت قليلة العدد، أما بنادق الصيد كانت كثيرة، بالإضافة إلى هذا النوع من الأسلحة نجد حوالي (١٥) رشاشًا خفيف و(٤٥) مسدسًا من مختلف العيارات، إلى جانب ذلك هناك حوالي (٢٠) قنبلة يدوية، وقد كانت الذخيرة قليلة بالنظر إلى كمية الأسلحة.[٩٠]

خاتمة

لم تكن تلك الثلة المتميزة من الرواد الأوائل الذين أقدموا على تفجير الثورة المسلحة تعتمد على إمكانيات بشرية مؤهلة لحمل السلاح، ولا تملك في رصيدها مبالغ مالية، ولا أسلحة حربية بذخيرة كافية لمواجهة أكبر قوة استعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين، الأمر يدفع الباحث في هذا الموضوع إلى الاعتماد بأن تلك الخطوة التي أقدم عليها كل من بوضياف، بن بولعيد، وديدوش، وكريم، وبن مهيدي، وبيطاط، ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤، كانت أشبه بالمغامرة. فالكثير ممَن عاصروا تلك الفترة يجمعون على أن قيادة الجبهة من الرعيل الأول لم تضيع الوقت في محاولات توفير الإمكانيات والوسائل، وإنما ركزت جل اهتماماتها في الإعلان عن تفجير الثورة، والبحث عن السبل الناجحة من أجل التحاق الجماهير بها والالتفاف حولها منذ الانطلاقة.

وقد عبر ديدوش مراد عن هذا الأمر قائلاً: "إن المشكلة ليست في المال أو في الرجال، ولكن هدفنا هو إطلاق الرصاصة الأولى، حيث أنه ليست لنا أماكن نؤوي فيها الرجال، وليست لنا وسائل أيضًا نعالجهم بها، إن مشكلة الإمكانيات ليست مطروحة لدينا فالضرورة تحتم علينا إطلاق الرصاصة الأولى وبالإمكانيات المتوفرة بين أيدينا، وهي الموجودة في الأوراس فقط فكما هو معلوم أننا في كل مرة نطلب فيها المساعدة من أشقائنا العرب نتلقى منهم نفس الجواب عن ماذا يساعدوننا؟ إن التونسيين والمغاربة يحاربان الاستعمار الفرنسي، أما نحن فلا نزال تنتظر."[٩١]

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

الهوامش:

(١) شرع محمد بوضياف في تشكيل لجنة مصغرة أو أمانة تنفيذية عرفت بلجنة الخمسة اختار لعضويتها كل من محمد العربي بن مهيدي، ومصطفى بن بولعيد، وديدوش مراد، ورابح بيطاط مهمتها الإعداد الميداني لانطلاق العمل المسلح بكل الوسائل والمتطلبات. انظر: شهادة محمد بوضياف في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، **تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢)** القرض المضغوط، وزارة المجاهدين، الجزائر ٢٠٠٢.

(٢) **محمد بوضياف في حديث لجريدة الشعب**، يوم ١٦/١١/ ١٩٨٨. ص٢٣

(٣) محمد عباس، **فكرة الثورة في التجربة الجزائرية**، مجلة الحدث العربي والدولي، عدد خاص، رقم ٢٤، نوفمبر ٢٠٠٢، ص ٢١. أما الوفد الخارجي يقتصر دوره على شراء الأسلحة والقيام بالرعاية والقرارات تصدر من القادة المحاربين داخل الجزائر.

(٤) محمد عباس، المرجع السابق، ص ٢١.

(٥) يشير المرحوم رابح بطاط بخصوص مشكلة التسليح في إطار الإعداد للثورة في المنطقة الرابعة بأن قلة السلاح كانت أكبر مشكلة لدينا. وقد تناولت قيادة الثورة التي اجتمعت في بوانت بيسكاد يوم ١٩٥٤ عند تحديد الأهداف التي ينبغي مهاجمتها ليلة أول نوفمبر هذه المسألة وقررت بأن الأسلحة التي ستغنم من ثكنتي "بيزو في البليدة وثكنة بوفاريك تقسم مع أقرب منطقة وهي الثالثة (القبائل) وهو ما يفسر وجود مجاهدين من هذه المنطقة معنا ليلة أول نوفمبر. انظر: محمد عباس، **ثوار عظماء حديث الاثنين**، مطبعة دحلب الجزائر، ١٩٩١ ، ص ٨٠.

(6) Mohamed Teguia, ***L'Algerie en guerre (1954-1962)***, office des publications un universitaires, Alger, 1988. p 131.

(٧) سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، ترجمة محمد حافظ الجماني، الجزائر ٢٠٠٢ ، ص ٧١.

(٨) حرر البيان من طرف محمد بوضياف، وديدوش مراد حددت فيه أهداف ووسائل الكفاح.

(٩) **مصطفى بن بوالعيد (١٩١٧- ١٩٥٦):** من مواليد في فيفري ١٩١٧ بأريس ولاية باتنة وسط عائلة ثرية ومتشبعة بالقيم الاسلامية. وقد تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه ثم بمدينة باتنة أين التحق بمدرسة الأهالي "الأنديجان"، كما تلقى تعليمًا بمدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هاجر إلى فرنسا سنة ١٩٣٧ وعرف عن قرب أوضاع الجزائريين هناك، وكون نقابة تدافع على حقوقهم، سنة ١٩٣٩ أدى الخدمة العسكرية الإجبارية، وأعيد تجنيد أثناء الحرب العالمية الثاني، بدأ نشاطه السياسي في صفوف حزب الشعب منذ الأربعينات إذ كان من أنشط العناصر بالأوراس، وعند نشأة المنظمة الخاصة كان له نشاط دءوب في تكوين الشبان سياسيًا وتدريبهم عسكريًا، وأنفق من ماله الخاص لتدريب وتسليح المناضلين، شارك في انتخاب المجلس الجزائري سنة ١٩٤٨ وفاز فوزًا سحيقًا، لكن السلطات الفرنسية زورت الانتخابات، كان له دور كبير في إنشاء المنظمة الخاصة، وبعد أن أكتشف أمرها بدأ في توفير السلاح عن طريق شرائه من ليبيا، كما ساهم في إيواء المناضلين المطاردين. أنشأ مع رفاقه اللجنة الثورية للوحدة والعمل وشارك في اجتماع الـ ٢٢ في جوان ١٩٥٤، وأصبح مسؤولاً على المنطقة الأولى (الأوراس)، كما كان عضوًا في لجنة الستة، أشرف على توزيع الأسلحة على المناضلين بنفسه. سافر سنة ١٩٥٥ إلى ليبيا لتزويد الثورة بالسلاح لكنه أعتقل في ١١ فيفري ١٩٥٥ وحوكم بالمحكمة العسكرية بقسنطينة في جوان ١٩٥٥وحكم عليه بالإعدام. استطاع الفرار من السجن رفقة الطاهر الزبيري في شهر نوفمبر ١٩٥٥ عاد إلى قيادة الثورة وخاض معركتي إيفري البلح وأحمر خدو، واصل جهاده حتى أستشهد في ٢٢ مارس ١٩٥٦ إثر انفجار اتصال"إرسال واستقبال" مفخخ ألقته القوات الفرنسية. انظر: المتحف الوطني للمجاهد، **الشهيد مصطفى بن بوالعيد**، سلسلة رموز الثورة التحريرية، الجزائر٢٠٠١. والطاهر جبلي، **البطل الرمز مصطفى بن بولعيد، ثعلب الأوراس، شهيد الجبل الأزرق**، جريدة صوت الأحرار، العدد٩٣٠، الخميس٢٢ مارس٢٠٠١، الحلقة الأولى، ص٧. والعدد٩٣١، السبت ٢٤ مارس٢٠٠١، الحلقة الثانية، ص٨.

(١٠) **سويداني بوجمعة:** ولد في ١٠ جانفي ١٩٢٢ في مدينة قالمة، سياسي وثوري جزائري، كان من الطليعة التي فجرت الثورة. انضم إلى المنظمة الخاصة عند تأسيسها سنة ١٩٤٧ وقام من خلالها بعدة نشاطات نذكر منها مثلاً جمع السلاح، وفي سنة ١٩٤٨ اكتشف أمره وألقي القبض عليه وحكم عليه بالسجن مدة ١٨شهر نافذة. بعد خروجه من السجن واصل نشاطه النضالي في إطار المنظمة السرية، حيث كلف بمهمة نقل السلاح، وفي إحدى العمليات تعرّفت عليه الشرطة الفرنسية في حاجز أمني بين سكيكدة وقالمة، إلا أنه استطاع الفرار متّجهًا الى وهران. شارك في الهجوم على بريد وهران بغية الحصول على الأموال اللازمة لمواصلة نشاط المنظمة، على إثر هذه العملية أصدرت محكمة وهران في حقه حكمًا غيابيًا بالإعدام. انتقل سويداني بوجمعة إلى العاصمة ومنها إلى منطقة بودواو، وأقام عند المناضل فلاحي لخضر ونتيجة لوشاية قام بها أحد العملاء حوصر في الكوخ الذي كان يأويه، واستطاع الفرار بأعجوبة بعد أن أطلق النار على مفتش الشرطة "كيلي" و أرداه قتيلاً، بعد بودواو توجّه الشهيد إلى منطقة السويدانية وأقام بها فترة من الوقت، وبعدها نقله الحزب إلى منطقة الصومعة، ثم بوينان ليستقر بها عند المناضل موايسي المحفوظ الذي زوّجه إحدى بناته سنة ١٩٥١، من منطقة متيجة واصل سويداني بوجمعة نشاطه النضالي، وخاصةً بعد وقوع أزمة الحزب الشهيرة والتي فتحت الطريق أمام مجموعة من قدماء مناضلي المنظمة السرية للشروع في التحضيرات الأولية للثورة المسلّحة أحد أعضاء لجنة ٢٢ التي فجرت الثورة. نائب قيادة منطقة الجزائر قبل مؤتمر الصومام، لعب سويداني بوجمعة دورًا رياديًا إذ أنه قد أشرف بنفسه على مختلف مراحل التحضير للثورة في منطقة متيجة وخطّط لهجمات ليلة أول نوفمبر، كما شارك في عملية الهجوم على ثكنة بوفاريك رفقة المناضل أعمر أوعمران وبوعلام قانون، ورابح عبد القادر. بدأ سويداني بوجمعة نشاطه النضالي بإعادة تنظيم الأفواج والإشراف على تدريب المناضلين وفقًا لظروف الثورة ومستجدات الأحداث، ولهذا الغرض عقد عدة اجتماعات محلية من أهمها اجتماع أولاد فايت، اجتماع سيدي امحمد بلعيش، كما أقام عدة مخابئ في الناحية الغربية للمنطقة التي جعلت كمراكز حماية يلجأ إليها المناضلين عند الضرورة، وكذلك خطط الشهيد للعديد من العمليات الفدائية شارك في الكثير منها، استمر في نشاطه العسكري والسياسي إلى أن استشهد يوم ١٦ أفريل ١٩٥٦ بعد وقوعه في حاجز قرب مدينة القليعة. انظر: نظيرة شتوان، **سويداني بوجمعة**، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ جامعة الجزائر، ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣.

(١١) **الشهيد العربي بن مهيدي (١٩٢٣- ١٩٥٧):** في ولد عام ١٩٢٣ بدوار الكواهي بناحية عين مليلة وهو الابن الثاني في ترتيب الاسرة التي تتكون من ثلاث بنات وولدين، دخل المدرسة الابتدائية الفرنسية بمسقط رأسه وبعد سنة دراسية واحدة انتقل إلى باتنة لمواصلة التعليم الابتدائي، ولما تحصل على الشهادة الابتدائية عاد لأسرته التي انتقلت هي الأخرى إلى مدينة بسكرة، وفيها تابع محمد العربي دراسته وقبل في قسم الإعداد للالتحاق بمدرسة قسنطينة. في سنة ١٩٣٩ انضم لصفوف الكشافة الإسلامية "فوج الرجاء" في بسكرة، وبعد بضعة أشهر أصبح قائد فريق الفتيان. وفي سنة ١٩٤٢ انضم لصفوف حزب الشعب بمكان إقامته، حيث كان كثير

الاهتمام بالشؤون السياسية والوطنية، في ٠٨ ماي ١٩٤٥ كان الشهيد من بين المعتقلين ثم أفرج عنه بعد ثلاثة أسابيع قضاها في الاستنطاق والتعذيب بمركز الشرطة. سنة ١٩٤٧ كان من بين الشباب الأوائل الذين التحقوا بصفوف المنظمة الخاصة، حيث ما لبث أن أصبح من أبرز عناصر هذا التنظيم وفي سنة ١٩٤٩ أصبح مسؤول الجناح العسكري بسطيف وفي نفس الوقت نائبًا لرئيس أركان التنظيم السري على مستوى الشرق الجزائري الذي كان يتولاه يوم ذاك محمد بوضياف، وفي سنة ١٩٥٠ ارتقى إلى منصب مسؤول التنظيم بعد أن تم نقل الشهيد محمد بوضياف للعاصمة. بعد حادث مارس ١٩٥٠ اختفى عن الأنظار وبعد حل المنظمة عيّن كمسؤول الدائرة الحزبية بوهران إلى ١٩٥٣. وعند تكوين اللجنة الثورية للوحدة والعمل في مارس ١٩٥٤ أصبح الشهيد من بين عناصرها البارزين، ثم عضوا فعالاً في جماعة ٢٢ التاريخية. لعب بن مهيدي دورًا كبيرًا في التحضير للثورة المسلحة، وسعى إلى إقناع الجميع بالمشاركة فيها، وقال مقولته الشهيرة "القوا بالثورة إلى الشارع سيحتضنها الشعب"، وأصبح أول قائد للمنطقة الخامسة (وهران). كان الشهيد من بين الذين عملوا بجد لانعقاد مؤتمر الصومام التاريخي في ٢٠ أوت ١٩٥٦، وعيّن بعدها عضوًا بلجنة التنسيق والتنفيذ للثورة الجزائرية (القيادة العليا للثورة)، قاد معركة الجزائر بداية سنة ١٩٥٦ونهاية ١٩٥٧. إلى أن أعتقل نهاية شهر فيفري ١٩٥٧ استشهد تحت التعذيب ليلة الثالث إلى الرابع من مارس ١٩٥٧، بعد أن أعطى درسًا في البطولة والصبر لجلاديه. انظر: **شهداء الثورة الجزائرية الكبرى**، على موقع شبكة الأنترنت: (*http://www.dzayerna.net/vb/showthread*)

(١٢) أحمد مهساس، **الحركة الوطنية الثورية في الجزائر، من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة**، ترجمة الحاج مسعود، ومسعود محمد عباس، منشورات الذكري الاربعين للاستقلال، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٣١٧. وانظر كذلك:

Mohamed harbi, ***la guerre commence en Algerie***, ed complexe Bruxelles, 1984, p 20-23

(١٣) لقد تشكلت هذه المنطقة فيما بعد خلال مؤتمر الصومام ١٩٥٦ وقبل ذلك كان خاضعة إلى مسؤولية مصطفى بن بولعيد بمساعدة عاشور زيان. انظر: أحس بومالي، **استراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)**، منشورات من وللمجاهد، الجزائر ١٩٩٤، ص ٧٦ - ٧٧.

(١٤) **محمد بوضياف (١٩٤٢- ١٩٩٩)**: ولد سنة ١٩٤٢ بأولاد ماضي بولاية المسيلة، اشتغل بمصالح تحصيل الضرائب بجيجل، انضم إلى صفوف حزب الشعب وبعدها أصبح في المنظمة السرية. في سنة ١٩٥٠ حوكم غيابيًا وفي ١٩٥٣ التحق بفرنسا حيث أصبح عضوًا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية وبعد عودته إلى الجزائر ساهم في تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل وكان من بين أعضاء مجموعة الاثنين والعشرين (٢٢) المفجرة للثورة الجزائرية، اعتقل في حادثة اختطاف الطائرة في ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ من طرف السلطات الاستعمارية التي كانت تقله مع رفقائه من المغرب إلى تونس في سبتمبر ١٩٦٢ أسس حزب الثورة الاشتراكية. وفي جوان ١٩٦٣ تم توقيفه وسجنه في الجنوب الجزائري لمدة ثلاثة أشهر لينتقل بعدها للمغرب ومن سنة ١٩٧٢ عاش متنقلاً بين فرنسا والمغرب في إطار نشاطه السياسي إضافة إلى تنشيط مجلة الجريدة سنة ١٩٧٩. وبعد وفاة الرئيس هواري بومدين قام بحل حزب الثورة الاشتراكية وتفرغ لأعماله الصناعية، إذ كان يدير مصنعًا للآجر في القنيطرة في المملكة المغربية. في جانفي ١٩٩٢ بعد استقالة الرئيس الشاذلي بن جديد استدعته الجزائر لينصب رئيسًا لها وفي ٢٩ جوان من نفس السنة اغتيل في مدينة عنابة. انظر: محمد عباس، **اغتيال حلم، أحاديث مع بوضياف**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠١.

(١٥) فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط١، القاهرة ١٩٨٤، ص ٣٩. وانظر أيضًا: محمد عباس، **اغتيال حلم، أحاديث مع بوضياف**، دار هومة. الجزائر.٢٠٠١ ، ص ٥٩.

(١٦) **أحمد بن بلة (١٩١٦- ٢٠١٢)**: ولد في ٢٥ ديسمبر١٩١٦ بمغنية بالغرب الجزائري. من أسرة فلاحية، تابع دراسته الثانوية في تلمسان وأدى الخدمة العسكرية الاجبارية سنة ١٩٣٧، وأعيد تجنيده كبقية الجزائريين في الحرب العالمية الثانية، بعد انتفاضة ٨ ماي ١٩٤٥. انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري ثم في حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وتدرج في عدة مناصب ومسؤوليات. ترشح في انتخابات سنة ١٩٤٨ على مستوى مدينة مغنية. أصبح مسؤولاً عن القطاع الوهراني في المنظمة الخاصة التي بدأت تحضر للعمل المسلح وخطط للهجوم على بريد وهران سنة ١٩٤٩ والذي استهدف من ورائه الحصول على المال لتمويل للعمل العسكري عين على رأس المنظمة الخاصة بعد استبعاد حسين آيت أحمد في ١٩٤٩ إلى غاية سنة ١٩٥٠ تاريخ اكتشاف المنظمة الخاصة. وقد اعتقلته السلطات الاستعمارية في ١٩٥٠ وحكم عليه بالسجن لمدة ٠٧ سنوات. وفي ١٦ مارس ١٩٥٢ تمكن من الفرار من سجن البليدة، وبعد فراره التحق بالوفد الخارجي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية بالعاصمة المصرية القاهرة، شارك في تأسيس جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٥٤. وبعد اندلاع الثورة أصبح عضوًا في الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني مكلفًا بالجوانب العسكرية خاصةً تزويد الثورة بالسلاح. اختير عضوًا في لجنة التنسيق والتنفيذ التي أقرها مؤتمر الصومام وعضوًا في المجلس الوطني للثورة (١٩٥٦ – ١٩٦٢). وفي ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ ألقت عليه السلطات الاستعمارية القبض برفقة آيت أحمد الحسين، ومحمد بوضياف، ومحمد خيضر، والكاتب مصطفى الأشرف في حادثة اختطاف الطائرة. وبقي في السجون الفرنسية إلى غاية ١٩ مارس ١٩٦٢، أطلق سراحه بعد وقف إطلاق النار أيد قيادة أركان الجيش وعارض الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي طردها من العاصمة بفضل بومدين، أنتخب سنة ١٩٦٢ رئيسًا للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية عُزل سنة ١٩٦٥ من طرف مجلس الثورة بقيادة بومدين، أطلق الشاذلي بن جديد سراحه سنة.١٩٨٠، وهو منذ ذلك في المعارضة، لخص شارل هنري لافرود مساره بعد الاستقلال بهذه العبارة (رئيس قليلاً، سُجن كثيرًا، منفي بلا مرارة). وافته المنية يوم ٢٠١٢/٠٤/١١ عن عمر يناهز ٩٦سنة. انظر: عاشور شرفي، **قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢)**، تر: عالم مختار، دار القصبة الجزائر، ٢٠٠٧، ص٦٧. وانظر: **المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطني وثورة أول نوفمبر١٩٥٤**، القرص المضغوط، المرجع السابق. وأيضًا: أحمد بن بلّة، **مذكرات أحمد بن بلّة كما أملاها على روبير ماربل**، تر: العفيف الأخضر، ط٢، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، (د.ت).

(١٧) سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص ٧٢.

(١٨) شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر، عدد ١٤٧ سنة ١٩٩٥، ص ٢٦.

(١٩) يوسف مناصرية، **واقع الثورة العسكرية خلال السنة الأولى (١٩٥٤-١٩٥٥) مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية**، في جمعية أول نوفمبر مآثر الثورة في الأوراس باتنة، ١٩٩٩، ص ٣٣- ٣٤.

(٢٠) **شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر**، المرجع السابق، ص ٢٦. وانظر أيضًا: محمد حربي، **جبهة التحرير، الأسطورة والواقع، الجزائر (١٩٥٤-١٩٦٢)** ترجمة، كميل قيصر داغر، ط١، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ١١١.

(٢١) **شهادة محمد بوضياف لمجلة أول نوفمبر**، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢٢) من الدراسات الجادة والموثقة تلك الدراسة التي قدمها الدكتور يوسف مناصرية بعنوان "**قوات جيش التحرير الوطني المتمركز على الحدود الشرقية**"، خلال أعمال الملتقى الدولي حول "**نشأة وتطور جيش التحرير الوطني**" المنعقد بفندق الأوراسي ٢، ٣، ٤ جويلية ٢٠٠٥ بالعاصمة، وهي دراسة تناولت حجم الإمكانيات المادية والبشرية في كل منطقة من مناطق العمل الثوري حيث اعتمد فيها على أرشيف فانسان انظر: ص ١١٩، ١٤٢.

(٢٣) محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، ترجمة نجيب عيد، صالح المثلوثي، الجزائر ١٩٩٤، ص ٦٩. وانظر أيضًا: المديرية الفرعية للبحث والأرشيف التاريخي، **الأسس الأولية في التنظيم العسكري لجيش التحرير الوطني**، مجلة الجيش نوفمبر ١٩٩٧، ص ٢٣.

(٢٤) أحسن بومالي، **استراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٦٢)**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٤، ص ٧٨. وأيضًا: المديرية الفرعية للبحث والأرشيف التاريخي، المرجع السابق، ص ٢٣. وانظر كذلك: **شهادة المجاهد عمار بن العقون في الندوة المفتوحة حول الشهيد مصطفى بن بولعيد ١٩٨٨/٠٣/١٧**، في المتحف الوطني للمجاهد شريط سمعي بصري رقم II في مكتبة المتحف الوطني للمجاهد.

(٢٥) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢٦) شهادة عبد الله بن طوبال لمجلة الباحث جويلية ١٩٨٧، ص ٤٨-٤٩. وانظر أيضًا: **شهادة عبد الله بن طوبال جريدة الجمهورية يوم ١٩٨٢/٠٣/٢٩**، ص٥. وانظر أيضًا: **شهادة عبد الله بن طوبال**، مجلة الباحث ع٢، نوفمبر ١٩٨٤، ص ١٣٤، ١٣٦. ونفس الطرح ورد في **شهادة عمار بن عودة**، مجلة الباحث جويلية ، ١٩٨٧، ص ٢٧.

(٢٧) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٧٠. ويؤكد المجاهد سي سالم بوبكر من المنطقة الأولى (الأوراس) بأن زلزال الأصنام كانت له خسائر كبيرة في الورشات السرية التي كانت تقوم بصناعة القنابل والمتفجرات. انظر: **شهادة المجاهد سي سالم بوبكر**، في ندوة حول "**الشهيد مصطفى بن بولعيد**"، المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧، شريط سمعي بصري في مكتبة المتحف.

(٢٩) **شهادة أحمد بن بلة**، في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢) القرص المضغوط، وزارة المجاهدين ٢٠٠٢.

(٣٠) انظر: **شهادة المجاهد علي بن شايبة**، في الندوة حول "**الشهيد مصطفى بن بولعيد**"، المنعقدة في المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧ (شريط بصري في مكتبة المتحف الوطني للمجاهد).

(٣١) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٧٠.

(٣٣) **شهادة المجاهد لخضر بن طوبال**، مجلة الباحث، العدد ٢. المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٣٤) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣٥) **شهادة المجاهد سي ناصر**، مجلة الباحث، المرجع السابق، ص ١٣٦.

(36) Mohamed boudiaf, ***la preparation du premier November in El Jarida*** . n15. November. December 1974, p9-24 .

(٣٧) محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية**، المنظمة الخاصة، ترجمة: محمد الشريف بن دالي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر ٢٠٠٢ ، ص ١٦٩.

(٣٨) تصدرت المنطقة الأولى (الأوراس) الريادة خلال الانطلاقة من حيث سبق التوسع والشمولية، وقوة التسليح، وصدى العمليات المسلحة، وحصيلة نتائجها مقارنةً مع بقية المناطق تكشف عنها الوثائق والشهادات الحية.

(٣٩) يوسف مناصرية، "**قوات جيش التحرير الوطني المتمركز على الحدود الشرقية**"، مداخلة في الملتقى الدولي حول "**نشأة وتطور جيش التحرير الوطني**"، المنعقد فيفندق الأوراسي ٢، ٣، ٤ جويلية ٢٠٠٥، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ١٢١.

(٤٠) عبد الوهاب عثماني، "**التحضير للثورة وتكوين الأفواج في معالم بارزة في ثورة نوفمبر ١٩٥٤**"، في الملتقى الأول بباتنة ١٨٨٩، ص ٨٩، ٩٠. وأيضًا: بوبكر حفظ الله، **التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤- ١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦، ص ١٦٥. وانظر أيضًا: محاضرة عبد الرحمن عمراني، "**التسليح أثناء الثورة**" في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، **التسليح والمواصلات أثناء الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، الجزائر ٢٠٠١، ص٩٥.

(٤١) بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٤٢) محمد الطاهر عزوي، **عظمة ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤**، في جمعية أول نوفمبر لحماية مآثر الثورة في الأوراس. مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، باتنة، ١٩٩٩، ص ٢١، ٢٢. وأيضًا: محمد الطاهر عزوي. **واقع الثورة في الولاية الأولى بالأوراس في السنة الأولى بين توحيد القيادة وتفككها**. في جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس. الثورة الجزائرية أمجاد وبطولات. باتنة ١٩٩٤. ص ٥٢ – ٥٣.

(٤٣) لخضر الحاج (العقيد)، **قبسات من ثورة نوفمبر ١٩٥٤**، الشهاب للنشر، الجزائر (د س ن)، ص ٥٩، وانظر أيضًا:

Daho Djerbel, ***le 1er Novembre 1954 l'evenment et saportée in la nuit rebelle***, édition la tribun, novembre 2004, Alger, p 127.

(٤٤) أورد هذا الرقم الدكتور يوسف مناصرية في مقالة، "**واقع الثورة العسكرية خلال السنة الأولى ١٩٥٤، ١٩٥٥ مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية**"، في جمعية أول نوفمبر مآثر الثورة في الأوراس باتنة، ٩٩٩ ، ص ٣٤، في حين يذكر محمد العربي مداسي أن عدد أفواج الأوراس عند الانطلاقة كان ٢٥ فوجًا فقط بما فيها فوج الصحراء الذي كان يقودها حسين برحال في منطقة بسكرة (مشونش- أولاد جلال): انظر:

Mohamed Larbi madaci, ***les tamiseurs des sable : Aurés nememchas 1954-1959*** ,ed ANEP d'Alger, 2001, pp 13-14.

(٤٥) لخضر الحاج (العقيد)، المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤٦) محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع**، الجزائر (١٩٥٤-١٩٦٢) ترجمة، كميل قيصر داغر، ط١، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ١١٤. وانظر أيضًا: أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤٧) مراد صديقي، **الثورة الجزائرية، عمليات التسلح السرية**، ترجمة أحمد الخطيب، مكتبة الحياة، بيروت (د س.ن)، ص ٢٨، وانظر كذلك: مصطفى هشماوي، **التنظيم العسكري والسياسي للثورة الجزائرية في معالم بارزة في الثورة نوفمبر ١٩٥٤**، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٤٨) فايزة سعد، **سنوات الدم، الثورة الجزائرية**، مطبعة روزل يوسف، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٠٧.

(٤٩) يوسف مناصرية، **قوات جيش التحرير الوطني المتمركز على الحدود الشرقية**، المرجع السابق، ص ١٢١.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٥٠) محمد عباس، **فكرة الثورة في التجربة الجزائرية حزب ثوري، طليعة مسلحة وشعب جاهز للثورة**، مجلة الحدث العربي والدولي، المرجع السابق، ص ٢١.

(٥١) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٧٦.

(52) Mohamed harbi, ***le FLN Mirage et réalité (désorganise ala pris du pouvoir. (1945-1962)*** ed J.A : paris 1980p 116.

(٥٣) الأخضر جودي بوالطمين، **لمحات من ثورة الجزائر**، ط٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧، ص ٢٣.

(٥٤) مراد صديقي، المرجع السابق، ص ٢٨. وانظر أيضًا: مصطفى هشماوي، **جذور نوفمبر ١٩٥٤ في الجزائر (دراسة)**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر – مطبعة هرمة (د س ن)، ص ١٠٤.

(٥٥) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١١٤. وأيضًا:

Mohamed harbi, op.cit., p 127

(٥٦) إن ضعف انطلاق الثورة بالشمال القسنطيني غالبًا ما يفسر بالارتباك الذي طرأ في صفوف الهيئة الأولى لقيادة الثورة، والملاحظ أن المسألة كانت تتعلق في جوهرها بالظروف الاستعجالية التي تمت من خلالها مباشر العمل المسلح، والتي لم تتح لمختلف نواحي المنطقة الثانية الفرصة كحشد الرجال وجمع السلاح، كما لعبت أيضًا عوامل التهاون والتقصير عند بعض القادة دورًا هامًا في عدم مسايرة المنطقة الثانية لكل من الأوراس والقبائل.

(٥٧) محمد لحسن أزغيدي، **مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية (١٩٥٦-١٩٦٢)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٦، ص ١٢٣. وأيضًا:

Daho Djerbel, op.cit., p 127-128.

(٥٨) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٥٩) الأخضر جودي بو الطمين، المصدر السابق، ص ٢٣.

(60) M. Harbi, op.cit., p 127 . *Also see*: Giblert meynier, ***Histoire intérieure du FLN 1954-1962***, ed casbah, Alger, 2003, p 279.

(٦١) علي كافي، **مذكرات علي كافي (١٩٤٦-١٩٦٢)**، دار القصبة، الجزائر، ١٩٩٩، ص ٩٣.

(٦٢) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٦٣) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٧٦.

(٦٤) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٦٥) ويعود الفضل في ذلك إلى عنصرين بارزين من قدماء التنظيم الشبه عسكري للتيار الاستقلالي وهما كريم بلقاسم، وأعمر أوعمران اللذان كانا يتمتعان بسمعة ثورية منذ منتصف الأربعينيات، وبالرغم من المطاردات البوليسية الاستعمارية، إلا أنهما تمكنا من تعزيز مكانتهما في المنطقة كقائدين محليين بعدما تمكنا من تشكيل معقل مسلح ضم في صفوفه أكثر من ٣٠٠ رجل، ومن جهة أخرى لابد من الإشارة إلى أن هذا المعقل لم يكن بمعزل عن الأزمة الداخلية التي شهدها التيار الثوري (١٩٥٣-١٩٥٤)، وإنما كان ذو ميول مصالية في الغالب بالنسبة للقاعدة النضالية الأمر الذي جعله موضوع تحفظ شديد من طرف لجنة الخمسة التي حاولت احتواء المنطقة دون إشراكها في القيادة العسكرية. انظر: عبد النور خيثر، **تطور مؤسسة قيادة الثورة التحريرية (١٩٥٤- ١٩٦٢)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، (٢٠٠٥ – ٢٠٠٦)، ص ٢٦٧.

(٦٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٧.

(٦٧) مراد صديقي، المصدر السابق، ص ٢٨. وأيضًا: مصطفى هشماوي، المرجع السابق، ص ١٠٤. وانظر أيضًا: فتحي الديب، المرجع السابق، ص ٣٧.

(٦٨) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١١٤. وأيضًا:

M. Harbi, op.cit., p 127. *And see*: yves courriere, ***la guerre d'Algérie, les fils de la toussaint, fayard***, Paris, 1991, p 88.

وأيضًا: المتحف الوطني للمجاهد، وثائق مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦، محضر الجلسات ومقتطفات من الوثيقة الأساسية الجزائر ١٩٩٦، ص ١٠. ويذهب إلى نفس الطرح أحسن بومالي حيث يذكر أن عدد المجاهدين في المنطقة الثالثة وصل إلى (٤٥٠) مجاهدًا يملكون كمية من بنادق الصيد أخذت من المواطنين، انظر: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٦٩) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٧٠) المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، ص ١٠.

(٧١) نظيرة شتوان، **الثورة التحريرية (١٩٥٤- ١٩٦٢) الولاية الرابعة نموذجًا**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص١٠٦.

(٧٢) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٧٦.

(٧٣) إن أول ارتباك في التحضير للثورة في المنطقة الرابعة يعود إلى ذلك التغيير المفاجئ الذي حدث في فترة متقدمة من عملية التحضير للعمل المسلح على مستوى قيادتها عندما تنازل عنها ديدوش مراد لرابح بيطاط بعد التأزم الذي شهدته العلاقة بين لجنة الخمسة ومجموعة قسنطينة عقب لقاء ال ٢٢. وقد انتهى ذلك التغيير إلى تعثر المبادرة بالعمل المسلح في المنطقة الرابعة على غرار ما حدث في الشمال القسنطيني.

(٧٤) للمزيد من التفاصيل حول هذه الأفواج وقادتها والأهداف التي كلفوا بها، انظر: **شهادة محمد مرزوقي** في جمعية أول نوفمبر لحماية مآثر الثورة في الأوراس، مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، باتنة، ١٩٩٩، ص ١٩٩-٢١٠.

(٧٥) ذكر أوعمران في تقرير له قدم في جلسات مؤتمر الصومام أن عدد مجاهدي المنطقة الرابعة عند الانطلاقة قدر بـ (٥٠) مجاهدًا، وهو نفس العدد الذي أشار إليه كل من حربي، وكوربار، وخلفة معمري، وانظر: محمد حربي، المصدر السابق، ص ١١٤. وأيضًا:

yves courriere, op.cit., p.88 – 89 ; Mohamed Harbi, op.cit., p. 127 -128 ; Kkalfa Mammerie, ***Abane ramdane, un vie pour l'Algérie***, ed, karim mammerie, 3 éd Alger. (sd) p. 101.

وانظر أيضًا: المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، ص ١٣.

(٧٦) مراد صديقي، المرجع السابق، ص ٢٩؛ وأيضًا: مصطفى هشماوي، المرجع السابق، ص ١٠٤، وانظر أيضًا: فتحي الديب، المصدر السابق، ص ٣٧.

Mohamed Teguia, ***La ALN dans la wilaya IV***, Casbah édition, Alger, 2002, p.19 - 77.

(٧٨) يتيح هذا الطرح استنتاج مخالف لما أشارت إليه روايتي كل من محمد مرزوقي، وأوعمران وإحصائيات كل من محمد حربي، وخالفة، ومعمري، وحتى التقدير الذي ذكره محمد تقية.

(٧٩) **شهادة أحمد بوشعيب**، في اليوم الدراسي حول التحضير والإعداد للثورة، يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٠، مؤسسة ذاكرة الولاية الرابعة التاريخية البليدة (شريط سمعي بصري).

(80) Mohamed Harbi, Op.cit., p.127.

وانظر أيضًا: محمد العربي الزبيري، **الثورة الجزائرية في عامها الأول**، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، ١٩٨٤، ص ١٣٦.

(٨١) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١١٤. وأيضًا:

M. Harbi, op.cit., p. 127.

كما قدر رصيدها المالي استنادًا إلى محضر جلسات مؤتمر الصومام ١٩٥٦ بـ ٨٠٠٠٠ فرنك قديم انظر: المتحف الوطني للمجاهد، المرجع السابق، ص ١٢.

ISSN: 2090 – 0449



(٨٢) **شهادة الحاج بن علا**، في جمعية أول نوفمبر، مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص ٢١١-٢١٢. وانظر أيضًا:

Omar Carlie, le 1 novembre1954 à Oran .action symbolique.in charles rober ageron.la guerre d'algere et les algeriens.1954-1962.armand colin.paris1997.p12, 13.

(٨٣) **شهادة محمد بوضياف**، حول عملية التحضير للثورة، في جريدة الشعب عدد ٧٧٨٦، ٧٧٨٧ ليومي ١٧/١٦ نوفمبر ١٩٨٨، ص٥. وأيضًا: **شهادة محمد بوضياف**، مجلة أول نوفمبر، عدد ١٤٧، سنة ١٩٩٥، ص ٢٥. وأيضًا: محمد عباس، **ثوار عظماء**، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٨٤) **شهادة الرائد مختار بوعيرزم** (سي ناصر) لمجلة الراصد، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ الجزائر، عدد نوفمبر ديسمبر ٢٠٠١، ص ٢٨ - ٢٩.

(85) Hartmut el senhans, ***la guerre d'Algérie 1954-1962***, ed publisud, Paris, 1999, p. 434.

(٨٦) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص ١٢٢. وللإشارة أن هذه التقديرات التي أشار إليها مناصرية مؤرخة بتاريخ ١٩٥٥/١٠/٢٠ وهي مرحلة انبعاث النشاط الثوري في المنطقة الخامسة المعروفة بهجومات أكتوبر ١٩٥٥ على غرار هجومات ٢٠ أوت ١٩٥٥ (في الشمال القسنطيني).

(٨٧) كان تعداد ٥٥ ألف جندي لكن الإليزي قرر رفع التعداد إلى ٨٠ ألف في جانفي ١٩٥٥ ليرتفع إلى أكثر من ١٥٠ ألف جندي بعد أحداث ٢٠ أوت ١٩٥٥. للمزيد من التفاصيل حول ارتفاع تعداد قوات الجيش الفرنسي في الجزائري، انظر:

Philippe Tripier, ***l'Autopsie de la guerre d'Algérie***, ed France Empire, Paris, 1972, p. 75 - 76.

(٨٨) **شهادة لخضر طوبال**، مجلة الباحث، عدد ٠٢، نوفمبر ١٩٨٤، ص ١٣٦. وانظر أيضًا: **شهادة المجاهد عمار بن عودة**، لمجلة الباحث، جويلية ١٩٨٧، ص ٢٧.

(٨٩) أحمد بن بلة، **مذكرات كما أملاها على روبير ميل**، المصدر السابق، ص ٩٦.

(٩٠) حفظ الله بوبكر، المرجع السابق، ص ١٧١. يشير الغالي الغربي في دراسته إلى أن نوعية الأسلحة وطبيعتها فقد تميزت بالتنوع تبعًا للظروف والمعطيات الداخلية والخارجية التي مر بها الكفاح المسلح، وقد كان مجموع الأسلحة التي بحوزة المجاهدين في المهلة الأولى من الثورة التحريرية لا تتعدى بعض البنادق الموروثة من الحرب العالمية الثانية، وبنادق الصيد والقنابل والألغام التي صنعت محليًا والمسدسات بالإضافة إلى الأسلحة البيضاء، للمزيد من التفاصيل انظر: الغربي الغالي، **الاستراتيجية الفرنسية في مواجهة الثورة التحريرية (١٩٥٤ - ١٩٥٨)**، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة وهران، ٢٠٠٤/٢٠٠٥، ص ٣٢٤.

(٩١) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٨٢.



الانتقال الصعب من الأزمة إلى وضع مؤسسات الدولة الجزائرية المستقلة (١٩٦٢ - ١٩٦٥)



د. بليل محمد
أستاذ محاضر – قسم التاريخ
جامعة ابن خلدون
تيارت – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
بليل محمد، الانتقال الصعب من الأزمة إلى وضع مؤسسات الدولة الجزائرية المستقلة (١٩٦٢ - ١٩٦٥).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٤٠ – ٤٥.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

لقد عاشت الجزائر صائفة ساخنة، بسبب الخلافات السياسية ما بين صناع الثورة الجزائرية، حيث تأزمت الأوضاع ووصلت إلى حد الاقتتال فيما بينهم؛ ما بين قيادة الأركان بزعامة الرئيس الراحل السابق العقيد بومدين وأنصاره أمثال الرئيس الأسبق أحمد بن بلة، وقوات الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وانتهت الأزمة بسيطرة ما كان يُعرف بجماعة تلمسان واستقالة يوسف بن خدة بهدف حقن دماء الجزائريين وتفادي انهيار الدولة الفتية، ذلك ما سنحاول أن نتعرف علية في هذه الدراسة مؤكدين على أهمية بناء مؤسسات الدولة الجزائرية ما بين (١٩٦٢) و (١٩٦٥)، رغم ما شابه المرحلة والانتقاد التي وجه لها. وهدفنا من ذلك إبراز دور هذه المؤسسات في تجنيب البلاد من الفتن والمحن، معتقدين أنها الباقية وأن الرجال يذهبون وتبقى الجزائر شامخة فوق الجميع.

مُقَدِّمَةْ

لقد أثار انتباهي لقضية تاريخية جوهرية من تاريخنا الوطني المعاصر، أعادتنا إلى أيام الاستقلال الأولى من خلال ما كتب من دراسات تاريخية وسياسية، خاصةً بواقع الجزائر السياسي أيام الاستقلال الأولى، في غياب حقائق تاريخية موثوقة؛ رغم أن الأرشيف الحي لرجال لا زالوا على قيد الحياة، قد أدلوا بشهاداتهم عن ذلك الواقع، من خلال مذكرات عديدة لسياسيين وعسكريين،[١] بدأت تنشر هنا وهنالك، مستغلين الجو السائد لحرية التعبير والكتابات التاريخية والسياسية في الجزائر منذ أحداث أكتوبر والسماح للتعددية السياسية رغم ما أصابها من خلل بسبب حداثة التجربة، وأيضًا إهتمام سلطات البلد العليا برئاسة سيادة رئيس الجمهورية "عبد العزيز بوتفليقة" الذي سهل من مهمة الباحثين بضرورة الإعتناء بالتاريخ الوطني، في إطار ما يسمح به القانون وأخلاقيات الكتابة البعيدة عن التجريح الشخصي والإلتزام بالأمانة العلمية في التعامل مع الحقائق التاريخية النسبية.

وينبغي علينا أن لا ننسى أن بعض الكتابات التاريخية قد سبقت ذلك بكثير، أيام الاستقلال الأولى، بل في عزّ الثورة المسلحة من خلال كتابات المؤرخ الجزائري "محمد حربي،"[٢] والصحفي إيف كوريار"،[٣] وبعض المعارضين السياسيين الجزائريين للسلطة الناشئة آنذاك، أمثال آيت أحمد وبن خدة بن يوسف، وفيما بعد فرحات عباس والبشير الابراهيمي. ونتسائل نحن بدورنا أبناء جيل الاستقلال عن الصعوبات التي واجهت الدولة الجزائرية الفتية مع نهاية الحرب الاستعمارية في الجزائر. ذلك أننا درسنا في مدارس وجامعات الجزائر المستقلة، وعشنا مع مجتمعنا حلوه ومره عبر كل شبر من هذا التراب الوطني، الذي سقاه الشهداء بدمائهم وحاول الخلف الإستمرار على نهجهم. وقبل الخوض في هذا الموضوع الحساس لواقع التجربة السياسية للجزائر، أيام الاستقلال الأولى من أزمة سياسية إلى غاية انتخاب أولى مؤسسات الدولة، علينا أن

نضع مسحًا تاريخيًا من أجل مقاربة تاريخية، لنحاول الإستفسار عن الوقائع التاريخية لانتخاب أول رئيس للجزائر المستقلة وأول مجلس تأسيسي بتأطير جزائري، عكس المجلس التأسيسي الذي حاول المشرع الاستعماري فرضه على الجزائريين بصيغة نظامين انتخابيين وفق سيطرة المستوطنين اللأوربيين سنة ١٩٤٧.

وقد ترددت كثيرًا في الكتابة عن هذا الموضوع الحساس، باعتبار أن الموضوع محل جدل بين المؤرخين الذين يحاولون توثيق المادة التاريخية وفق أسس أكاديمية وعلمية، والسياسيين المندفعين للكتابة عن نفس الموضوع وفق قناعاتهم السياسية والأيديولوجية، لموضوع لا زالت المعلومات عنه شحيحة، رغم مرور سنوات عديدة عن استقلال الجزائر، ذلك أن الصعوبات التي واجهت الجزائر في بداية الاستقلال، شكلت في نظرنا أهم التحديات التي اعترضت حكومة سيادة الرئيس الأسبق "أحمد بن بلّة"، لنحاول أن نتعرف في هذه الدراسة المتواضعة عن التطور السياسي للجزائر في فترة حرجة من تاريخها بالتحول من بلد مستعمر بشكل استيطاني، قلما عرف التاريخ مثله، سوى الاستعمار الروماني الاستيطاني لبلاد المغرب قديمًا، والاحتلال الاستيطاني اليهودي لأرض فلسطين حديثًا.

أولاً: أزمة صائفة ١٩٦٢ وانعكاساتها السلبية على مسار الاستقلال

بعد سنوات عديدة من الكفاح البطولي، الذي قادته جبهة التحرير الوطني التي تأسست على أنقاض اللجنة الثورية للوحدة والعمل؛ المشكلة أساسًا من عناصر شبانية للمنظمة الخاصة، والتي استطاعت تفجير الثورة المسلحة في الفاتح نوفمبر١٩٥٤، وما صحب ذلك من تغيير المفاهيم لدى العديد من الأقطاب السياسية التقليدية، وجعلتهم ينقلبون على مساراتهم السابقة والالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني في سنة ١٩٥٦، حيث استطاعت هذه الجبهة الثورية قيادة العملين السياسي والمسلح، ضد جيش الاحتلال الفرنسي.

وطرحت أيضًا عدّة أفكار وتصورات في التفاوض مع الحكومات الفرنسية في عهد الجمهورية الرابعة، وتمكنت من تنظيم نفسها رغم الصعوبات والتحديات التي واجهت العمل المسلح، وتعقد مؤتمرها الأول بوادي الصومام سنة ١٩٥٦ الذي تولّدت عنه قيادة سياسية وعسكرية، تمثلت في أولى مؤسسات الثورة، كلجنة التنسيق والتنفيذ والمجلس الوطني للثورة الجزائرية، وتفتح مجموعة الإثنان والعشرين على العديد من التيارات السياسية أمثال الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري بزعامة السيد "فرحات عباس"، والعلماء و بعض الأفراد الشيوعيين، في حين عارضها وبشكل قوي تيار "مصالي الحاج" زعيم الاتجاه الاستقلالي سابقًا لخلافات تنظيمية وشخصية أحيانًا، حسب العديد من الدراسات، واستطاعت الثورة في أقل من سنتين من أن تشكل هيئة سياسية في الداخل وتنظيم جيش التحرير الوطني عبر كامل التراب الوطني بعد إنشاء الولاية السادسة في الصحراء بقيادة علي ملاح.

إلى غاية هذه الحقائق التاريخية المتفق عليها من قبل مؤرخي المدرسة الجزائرية للتاريخ، ومؤرخي المدرسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة، تظل الثورة الجزائرية تستمد قوتها من تفاعل الجماهير الجزائرية وشرعية المفجرين لها،[٤] لكن ثمّة أحداث بارزة غيرت من هذا المنحنى الواضح للثورة إلى منحنى الخلافات والصراعات بين أقطاب الحركة الثورية في الجزائر، دون نزول هذه الأفة إلى عمق الجماهير التي واصلت احتضان الثورة. إن تطرقنا إلى هذه الأحداث بشكل تسلسل تاريخي، يجعلنا نعتقد أن فرنسا الاستعمارية ومصالح استعلاماتها، لم تكن بعيدة عما كان يحدث داخل صفوف الثورة،[٥] ومحاولة ضربها من العمق حيث حاولت الحكومات الفرنسية المتتالية حسب ما يذكر رئيس الحكومة المؤقتة الثالثة السيد "بن خدة بن يوسف" في كتابه "اتفقيات ايفيان"[٦] :"لم تحاول أبدًا الحكومات المتعاقبة على الحكم في باريس منذ ١٩٥٤ الوصول إلى حل بالتفاوض،... حاولت هذه الحكومات الفرنسية أن تفرض حلولها التي فشلت كلها، ومنها فكرة الإندماج التي طرحها "سوستال" الحاكم العام للجزائر الذي أراد تطبيقها، واقترح "غي موليي" نقاطه الثلاثة، وقف إطلاق النار، الانتخابات، المفاوضات، والتي رفضتها بالطبع جبهة التحرير الوطني...".

تلقت فرنسا ضربة قاسية، بعد ما تمكنت جبهة التحرير الوطني من خلال هيئتها التنفيذية "لجنة التنفيذ والتنسيق" التي تحولت إلى الخارج سنة ١٩٥٧، على إثر معركة الجزائر، التي حاول فيها المظليون بقيادة "جاك ماسو Massu" القضاء على الثورة في العاصمة، والتي نجم عنها استشهاد "العربي بن مهيدي"، واعتقال العديد من القادة الثوريين،[٧] واستغلت جبهة التحرير الوطني هذه الظروف لتتمكن من تأسيس "الحكومة المؤقة للجمهورية الجزائرية" في ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ برئاسة السيد "فرحات عباس". ويتسآل العديد من الدارسين والباحثين عن سر تغيير استراتيجية الثورة بامتصاصها لعناصر قيادية في أحزاب أخرى وفق قيادة جماعية لجبهة التحرير الوطني، كانت بالأمس القريب في خانة المعارضين للثورة حسب ما يذكر الكثير من الباحثينين في الثورة. مثل ما يذكر ذلك الدكتور "ابراهيم لونيسي" في دراسته: "الصراع السياسي في الجزائر خلال عهد الرئيس "احمد بن بلّة" موضحًا أن فرحات عباس انضم إلى بن بلة لتحقيق التوازن داخل الثورة، رغم انتقاده لجماعة بن بلة فيما بعد، لأنه لم يكن يعلم نواياهم".[٨]

ونعتقد أن الثورة عرفت هي الأخرى تطورات سياسية، حاولت من خلالها إشراك القوى السياسية الأخرى لإعطاء طابع الشمولية ردًا على المناورات الفرنسية الهادفة إلى عزل الثورة عن محيطها السياسي والشعبي، بمحاولتها الاتصال بحركات سياسية أخرى مناوئة لقيادة الثورة. وحاولت القيادة الجديدة إرساء قواعد جديدة بوضع مؤسسات قوية، وفرض الانضباط السياسي

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

والعسكري على الجميع، وهو ما عرف باسم "نظام الجبهة" الذي كان يخشاه كل مَنْ يخالف أوامرها خاصةً من قبل الخونة، أو ما بات يُعرف "بالحركي"، حيث تناولت عدّة دراسات هذاالموضوع، فيمكن الرجوع لجريدة الخبر الأسبوعي؛(٩) حول طبيعة بعض هؤلاء "الحركى" وظروف إلتحاقهم بالجيش الفرنسي المحتل أمثال "بلونيس"، و"شريف بن سعيدي"، وآخرون، لا زال أرشيف الإدارة الاستعمارية في ماوراء البحر وبعض المواقع الإلكترونية، تهتم بأسمائهم وأنشطتهم.

هذا الضغط السياسي للثورة، أدى إلى سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة ومجيئ الجمهورية الخامسة بقيادة الجنرال "ديغول"، ليصرح في ١٦ سبتمبر ١٩٥٩، عن حق الجزائر في تقرير مصيرها بشروط فرنسية، بعد ما أدرك هذا الأخير عجزه عن تحقيق نصر عسكري، ووجدت الحكومة المؤقتة نفسها بعيدة عن العمل العسكري في الداخل الذي أن أصبحت تميل نحو القيادات العسكرية الناشئة فوق أرض المعركة، مما أوجد إشكالية الصراع بين السياسي والعسكري، وبين الداخل والخارج، رغم التوافق الذي استمر ظاهريًا، وساهمت فيه إتساع العمليات العسكرية، واعتراف العديد من الدول بالحكومة المؤقتة وطرح القضية الجزائرية في المحافل الدولية.

في هذه الظروف السياسية والعسكرية، بدأت الاتصالات الأولى بين الحكومة المؤقة وحكومة الجنرال ديغول حسب ما يذكر في مذكراته "الأمال"،(١٠) فقد واجهته صعوبات عسكرية في الجزائر وأخرى سياسية من قبل مستوطني الجزائر وأنصارهم في باريس، أما الحكومة المؤقتة فقد واجهتها صعوبات جمّة تطرق لها العديد من الدارسين والسياسيين السابقين لجبهة التحرير الوطني أمثال السيد "بن خدة بن يوسف"، و"محمد لبجاوي"، و"رضا مالك" في تناولهم لأزمة صائفة ١٩٦٢،(١١) وتأثيرها على مسار المفاوضات والاستقلال فيما بعد.

وأسهم المؤرخ الجزائري "محمد حربي" في توضيح بعض معطيات تلك الأزمة في دراسة له عن "جبهة التحرير الوطني بين السراب والحقيقة"،(١٢) إذن تطرح أمامنا عدّة معطيات تاريخية وتحاليل سياسية حول صُناع الثورة حيث لازال بعضهم على قيد الحياة، فساهم كل واحد منهم بفك بعض الألغاز حسب وجهة نظرهم؛ ولم يصبح الحديث أو الكتابة عن الموضوع من الطابوهات. وأضحى اليوم تلاميذتنا وطلبتنا في الجامعات، خاصةً أقسام "التاريخ" يعرفون الكثير عن هذه الحقبة، من خلال أبحاثهم وتدخلاتهم خلال المحاضرات والأعمال الموجهة.

والهدف من ذلك في نظرنا، لم ولن يكن موجهًا ضد أية شخصية وطنية أو رموز البلاد الذين صنعوا مجد جزائر العزّة والكرامة، رغم ما أصابها من مشاكل وتحديات؛ وفي المقابل أصبح الباحثون والدارسون للتاريخ الوطني، إستطاعة الوصول إلى بعض الحقائق المتواضعة عن مرحلة هامة من تاريخنا المعاصر من أجل أن نعرف ماضينا ونفهم حاضرنا ونهيء لمستقبلنا، وأهم ما شدّ انتباهنا هي تلك الدراسات، التي أظهرت بأن الشعب الجزائري ونخبه السياسية في فترة ما قبل الثورة التحريرية؛ وأثنائها كانوا متشبعين بالفكر الديموقراطي، أو بمعنى آخر التفتح على الآخر والاحترام المتبادل مثل ما يذكر الأستاذ "دحو جربال"(١٣)عن المسألة الديموقراطية في ظل الحركة الوطنية والثورة التحريرية، وأيضًا الأستاذ "صادق بن قادة"(١٤) في نفس الموضوع، وكذلك دراسة الدكتور"الأمين شريط" حول "التعددية الحزبية في تجربة الحركة الوطنية."(١٥) أما الدراسات التي تناولت أزمة صائفة ١٩٦٢ وانعكاساتها قد عرفت تنوعًا في التحليل والاعتماد على مصادر علمية، منها مرجع للأستاذ "رابح لونيسي" عن "الصراع بين العسكريين والسياسيين الجزائر"،(١٦) ومرجع آخر للأستاذ "إبراهيم لونيسي" عن "الصراع السياسي في الجزائر خلال عهد الرئيس "أحمد بن بلة"،(١٧) ومقال آخر أعتقد أنه هام في نظري للأستاذ "محمد الميلي"(١٨) وزير التربية الأسبق عن "الجزائر إلى أين..."في مجلة "المستقبل العربي". أما الدراسات الأجنبية هي الأخرى متعددة حول الموضوع، من أهم ما اطلعت عليه، دراسة للمؤرخ الفرنسي "جلبار مني" حول الثورة الجزائرية وتطور جبهة التحرير الوطني،(١٩) ومؤلف "حرب الجزائر للصحفي "إيفكوربار"،(٢٠) حيث توضح لنا هذه الدراسات جذور أزمة ١٩٦٢، فاعتمد كل منهم على أرشيف غني خاصًا به.

ما حولنا أن نصل إليه، يتمثل في أن جيل الاستقلال الأول والأجيال اللاحقة باتت تعرف الكثير من الحقائق التاريخية، حول الصراع الذي عرفته الثورة الجزائرية ما بين مجموعات نافذة في مؤسساتها، حيث كانت متمركزة في هيئتين أساسيتين، الأولى مجموعة "الحكومة المؤقتة التي كان يرأسها كل من فرحات عباس، وابن خدة بن يوسف، وهيئة أركان جيش التحرير التي نشأت في أواخر ١٩٥٩ وبداية ١٩٦٠ على إثر اجتماع المجلس الوطني للثورة وكلف العقيد "هواري بومدين" برئاستها، ذلك ماذكره الأستاذ محمد الميلي في مقاله السابق الذكر:(٢١) "... لكن ما أن تشكلت قيادة أركان عامة لجيش الحدود الشرقية والغربية للجزائر، حتى انتقل مركز الثقل تدريجيًا إلى هذه القيادة التي يرأسها العقيد هواري بومدين، وما لبث الخلاف بين قيادة الأركان والثالوث، أن برز للقيادات العسكرية في مرحلة أولى، ثمّ انفجر الخلاف بعد ذلك للعلن مع وقف إطلاق النار، متمثلاً في الصراع بين الحكومة المؤقتة التي حاولت الاعتماد على بعض جيوش الداخل وقيادة الأركان التي كانت تعتمد على جيش الحدود أو بعض الفرق العسكرية في الداخل...".

وكانت النهاية معروفة للمكتب السياسي الذي حاول السيد "أحمد بن بلة" تشكيله خلال مؤتمر طرابلس المنعقد في أواخر ماي (مايو) وأوائل جوان (يونيو) ١٩٦٢، حيث لم يصادق المجلس الوطني عليه، ودفع بالحكومة المؤقتة للدخول إلى أرض الوطن

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

لاستكمال تنفيذ إتفاقيات إيفيان، في حين دخلت قيادة الأركان بزعامة "بومدين" رفقة "بن بلة" إلى تلمسان ومحاولة حسم الصراع عسكريًا فوق التراب الوطني، حيث لا زالت دماء الشهداء لم تجف بعد. وتمكن المكتب السياسي من الاجتماع بعد إعادة تنصيبه بتاريخ ١٥ جويلية (يوليو) ١٩٦٢ وحضرته العديد من القيادات السياسية والعسكرية، تمّ الإنتهاء من تنصيب أعضائه بتاريخ ٢٢ جويلية ١٩٦٢، وحسب ما يذكر الأستاذ "محمد تاقية"[٢٢] في مؤلفه "الجزائر في حرب" موضحًا طبيعة الصراع المتجدد، لعدم اعتراف الحكومة المؤقتة بشرعية المكتب السياسي، حيث اندلعت اشتباكات مسلحة بين الطرفين التابعين لهما.

وفي هذه الظروف الصعبة أعلن السيد "بن خدة بن يوسف" استقالته يوم ٠٧ أوت (أغسطس) ١٩٦٢ حقنًا لإراقة الدماء، فازدادت الأمور تعقيدًا بين مجموعات متصارعة،[٢٣] لم تنته إلاّ بخروج الجماهير الجزائرية في العاصمة وبعض المدن مرددة "سبع سنين بركات"، مما دفع بالأطراف المتصارعة إلى التفاهم حول إطلاق النار يوم ٠٤ سبتمبر ١٩٦٢ وتمكن العقيد بومدين من دخول العاصمة في ٠٨ سبتمبر ١٩٦٢ على رأس (٤٠٠٠) جندي، وبعد تأجيل مستمر لأنتخاب المجلس التأسيسي تمّ تحديد تاريخ ٢٠ سبتمبر لذلك.[٢٤] إذن حسم الصراع وانتهت الأزمة مؤقتًا، لصالح السيد "أحمد بن بلة"، وحلفائه من قيادة الأركان، وبعض الوجوه السياسية أمثال السيد "فرحات عباس".

وما يهمنا في الأمر أن الجزائر خرجت من عنق الزجاجة، لتجسيد إتفاقيات إيفيان على أرض الواقع على الأقل من وجهة نظر قيادة الأركان التي لم توقع عليها، وفضلت القيادة الجديدة المتأثرة بأفكار القومية العربية والاشتراكية، تطبيق المبادئ الاشتراكية بشكل سريع وارتجالي أحيانًا، وذلك لصعوبات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، حيث لا زالت ترسبات الماضي الاستعماري ظاهرة للعيان، من مزارع "للكولون" وسكانات فخمة، ومدن عصرية، ومن جانب آخر ترتب عن حرب التحرير مليون ونصف المليون شهيد، وألاف المعطوبين واليتامى، وانتشار مظاهر الفقر والأمية.[٢٥]

إضافة لهذه الانعكاسات المترتبة عن الماضي الاستعماري، انعكاسات أخرى استجدت بسبب أزمة الصراع على السلطة؛ فقد نجم عن الحسم السياسي والعسكري لصالح جماعة معينة من صُناع الثورة، بروز معارضة سياسية قوية تزعمها قيادات وشخصيات سياسية معروفة، أبرزها "محمد بوضياف"، و"أيت أحمد"، وغيرهم...، في حين ظلت قيادة جمعية العلماء بقيادة "الإبراهيمي"، محل خناق وتضييق؛ حيث يبدو أنها لم تكن راضية على القيادة الجديدة لصراعات تاريخية، حيث أن الرئيس "بن بلة" كانت علاقته مع الشيخ "الإبراهيمي" مضطربة، منذ أن كانا في القاهرة، حيث ذكر ذلك الرئيس "بن بلة" نفسه في حوار أجراه معه محمد خليفة في مؤلفه "الطريق"، أو "إيتبرينار"،[٢٦] بأن الشيخ كان معارضًا للثورة، وللأمانة العلمية أن الشيخ كتب عدة مقالات في مؤلف له "في قلب المعركة" جمع مقالته المؤرخ الجزائري "سعد الله أبو القاسم" يناقض ذلك.

نستخلص مما سبق ذكره؛ بأن التطورات السياسية والأمنية ما قبل أزمة صائفة ١٩٦٢، شكّلت هاجسًا أمام كل من الحكومة الفرنسية، والحكومة المؤقتة الشرعية في نفس الوقت، فحكومة "دي غول" كانت تحاول الإسراع في التفاوض لإنهاء الموضوع خوفًا من ضياع الجزائر بدون الحفاظ على امتيازات لها في مستعمرتها الإستطانية، وكانت الحكومة المؤقتة تدرك حجم المشاكل والصعوبات، لذلك كانت تريد الحصول على الاستقلال، ثمّ التطرق للإشكاليات الخلافية في ما بعد الاستقلال وفعلاً قد تحقق الاستقلال، وتحصلت فرنسا الإستعمارية على امتيازات متنوعة، حددتها مواد اتفاقيات إيفيان، وإنهاء القتال بشكل مشرف للطرفين، حسب ما ذكر ذلك "دي غول" في مذكراته "الأمال"،[٢٧] وراهنت فرنسا على فشل الجزائريين في تسيير شؤون بلادهم من خلال عدم احترامهم لبعض بنود "إتفاقية ايفيان" بهروب إطاراتها والسماح للمعمرين بحرق المزارع وتدمير المصانع والتساهل مع منظمة الجيش السري بارتكاب مجازر رهيبة في حق الجزائريين، واستغلال الأزمة السياسية في الجزائر، والتقليل من فرحة الجزائريين بأيام الاستقلال الأولى، والتأخر المسجل في بناء مؤسسات الدولة الوطنية المعاصرة التي استرجعت السيادة بعد كفاح طويل.

ثانيًا: إرساء مؤسسات الدولة

لقد تطرقنا بأن الثورة التحريرية، سارت على خطين متوازيين، خط عسكري تمثل في تنظيم الجيش عددًا وعدة، وخط سياسي تمثل في إنشاء مؤسسات الثورة، التي تعرضت لاظطرابات عديدة خلال أزمة صائفة ١٩٦٢، ولهذه الغاية حاولت القيادة السياسية الجديدة بقيادة "بن بلة" الذي عُين رئيسًا للحكومة من قبل المجلس التأسيسي المنتخب هو بدوره يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٦٢ االذي كلف هذا الأخير بتشكيل الحكومة، وبعد أن حضي بهذا المنصب، فكر الرئيس الجديد جديًا في إعداد دستور للبلاد؛ مثل ما نصت عليه إتفاقيات إيڤيان وقرارات المجلس الوطني للثورة في طرابلس، وعرضه على المجلس التأسيسي للمصادقة عليه يوم ٠٨ سبتمبر ١٩٦٣، ونال "أحمد بن بلة" تزكية المجلس له كرئيس للجمهورية بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٦٣. وفيما بعد أمينًا عامًا لحزب جبهة التحريرالوطني، حيث طرحت إشكالية مَنْ يحكم الدولة؟ الحزب أم الرئيس، حسب دراسة للدكتور "الأمين شريط"[٢٧] حول إشكالية: "دولة المكتب السياسي، دولة الأمر الواقع"، موضحًا بأن الحزب أضحى يخضع لرئيس الجمهورية، تلا ذلك إعداد ميثاق الجزائر في سنة ١٩٦٤، للتعريف بالمرحلة الجديدة للحكم في الجزائر أيام الاستقلال الأولى. هذه المؤسسات السياسية التي جاءت في ظروف صعبة، ينبغي علينا أن نؤكد عليها، لأنها جسدت على الأقل بداية

نشأة الدولة الوطنية المستقلة، رغم ما وجه لها من انتقادات بسبب انقلابها على شرعية الحكومة المؤقتة.

إن اختيار النظام السياسي الذي حكم الجزائر في بداية الاستقلال، للأسلوب الاشتراكي ومبدأ الحزب الواحد،[٢٨] جاء في نظرنا نتيجة حتمية لوقوع الجزائر في ظل احتلال استيطاني ونظام رأسمالي إستغلالي بشع، صادر أراضي الجزائريين وحطم الملكية الجماعية وأدخل الملكية الفردية، مما سمح للمستوطنين الأوروبيين من الإستلاء على ملايين الهكتارات التابعة للجزائريين، من خلال ترسانة قانونية وضعتها الهيئة التشريعية الفرنسية لصالح النظام الكولونيالي ببلادنا، وأضحى الجزائريون فقراء وتعساء؛ يعملون فوق أراضيهم التي انتزعت منهم بشتى الصيغ، وانتشر الفقر والأمية، إضافة لسياسة التقتيل المنظمة بهدف إبادة الشعب الجزائري ومحاولة فرض نخب مثقفة وسياسية تؤمن بحضارة المستعمر. وهناك دراسات أكاديمية عديدة لباحثين جزائريين تطرقوا لهذا الموضوع، من بينها رسالة جامعية لأحد الباحثين[٢٩] "حول موضوع الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض بين الجزائريين والمعمرين وأيضًا يمكننا الرجوع أيضًا للمؤرخ والقانوني الفرنسي "كلود كولو" حول: "المؤسسات الاستعمارية في الجزائر"[٣٠] الذي وضح لنا أبرز القوانين العقارية التي تمّ من خلالها مصادرة آراضي الجزائريين.

نعتقد من وجهة نظرنا أن الجزائر لم يكن أمامها نظام أخر، يمكن تبنيه في بداية الاستقلال سوى النظام الاشتراكي، الذي ارتبط في مفهومه وتطبيقاته لدى الذاكرة الشعبية من فلاحين وعمال وطبقات أخرى، حرمت من خيرات بلادها بالتراث الاسلامي، المبني على العدل والاحترام المتبادل بين الطبقات الاجتماعية، وهي نفس المبادئ التي ناضلت من أجلها تيارات الحركة الوطنية، وجسدها بيان أول نوفمبر ومواثيق الثورة. وإن الإشتراكية في اعتقادنا لم تكن أبدًا ضد التعددية السياسية، لأن "جبهة التحرير الوطني" في حد ذاتها لم تكن حزبًا خاصًا، إنما تكتلا لشخصيات سياسية؛ كانت تنتمي أصلاً لتشكيلات سياسية، شكلت المشهد السياسي للجزائر قبيل حرب التحرير. هذا الإشكال هو الذي نتج عنه الصعوبات السياسية التي عرفتها الجزائر إلى غاية السماح للتعددية السياسية في بلادنا سنة ١٩٨٩. وهو ما يجعلنا كدارسين لهذه الظاهرة، أن نستخلص العبر ونستقرئ الأسباب التي نتجت عنها تلك الأخطاء والتناقضات لجيلنا والأجيال المقبلة، ليساهم الجميع في بناء مؤسسات قوية بمنأى عن العواصف الهوجاء.

ثالثًا: الدروس الممكن الاستفادة منها

إن المتتبع للتطور العام للجزائر في الأيام الأولى للإستقلال (١٩٦٢ – ١٩٦٥)، يمكنه على الأقل أن يتعرف على واقع الجزائر الصعب في تلك الفترة؛ وهو ما دأبت فيه قيادة البلاد منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا التأكيد عليه، في المناسبات الوطنية وعبر المناهج التربوية. وهي الدروس التاريخية التي كانت ولا زالت تلقن للأجيال عن "أوضاع الجزائر عشية الاستقلال"،[٣١] وانفرد "ميثاق طرابلس" لسنة ١٩٦٢ بتشريح وضعية البلد المستعمر. وبعد مرور سنوات عديدة من الاستقلال وانتخاب السيد "أحمد بن بلة كأول رئيس للجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، حيث لم يستمر حكمه للبلاد سوى ثلاثة سنوات، يمكننا أن نستخلص ما يلي:

- لقد نجحت الثورة الجزائرية بعد سبعة سنوات ونصف من تحدي ألة الاستعمار التدميرية، وإجبار المستعمر على الاعتراف بحق تقرير مصير الجزائريين والتوقيع على إتفاقيات إيفيان مع القيادة السياسية للثورة واعتراف رئيس الجمهورية الفرنسية رسميًا باستقلال الجزائر يوم ٠٣ جويلية ١٩٦٢ بعد ما ألغى البرلمان الفرنسي قرار ١٨٣٤، القاضي بإلحاق الجزائر بفرنسا والمادة التاسعة من دستور ١٨٤٨ الفرنسي الذي اعتبر فيه الجزائر ثلاث عمالات تنتمي للتراب الفرنسي،[٣٢] ولذلك حلت المسألة القانونية لمشكلة الاحتلال نهائيًا.
- أثبتت التجربة السياسية للشعب الجزائري، أن في الجزائر عقلاء وحكماء سياسيين، ورجال أخلصوا لله والوطن بعدم إراقة دماء الجزائريين، حيث كان موقف السيد "بن خدة بن يوسف" مشرفًا في هذا الموضوع.

وفي المقابل أصر السيد "أحمد بن بلة" على توحيد الصفوف وفرض الانضباط، ومحاولته السهر على تأسيس الدولة الفتية، رغم تعرضه لانقلاب سلمي من قبل أبرز رفاقه "العقيد بومدين". ورغم الانتقادات التي وجهت إلية من قبل معارضيه، بالانفراد بالسلطة والتأثر بأفكار "جمال عبد الناصر" الرئيس المصري، إلا أن تجربته في السجن والاقامة الجبرية في الجزائر، ثمّ إطلاق سراحه في ثمانينات القرن الماضي والتقائه بالعديد من زعماء العالم ومشاركته في المشهد السياسي للجزائر في عهد التعددية، جعل منه شخصية تاريخية موقرة وحكيمة بسبب التجارب التي عاشها، حيث أصبح من بين أهم حكماء افريقيا.

نعتقد أن هذه التجربة النضالية الطويلة، قد تفيد الساحة السياسية الحالية للجزائر بإرساء قواعد التسامح والحرية والتعبير الديموقراطي الحقيقي، تضاف لتجربة الجزائر السابقة. وهو ما نطمح إليه جميعًا، بتوجيه النصح للمؤثرين في القرار السياسي ببلادنا من قبل هذه الشخصيات التاريخية، التي ساهمت في التطور السياسي للجزائر؛ واستفادت من تجارب الماضي بما لديها من حنكة سياسية.

- برهن السياسيون الجزائريون أيضًا في تلك الفترة على نضجهم السياسي بمعارضة النظام السياسي القائم آنذاك بالتمرد عليه، لكنها فشلت لأسباب موضوعية، لأن التيار كان يجري لغير صالحها رغم سلبية المسار. إلا أنهم عبروا عن عدم رضاهم بالأحادية، لأن الثورة كانت عملاً جماعيًا ساهم الشعب كله فيه ذلك ما نستلهمه من مقولة البطل الشهيد "العربي بن مهيدي" الذي كان يردد: "إلقو بالثورة في الشارع

سيحتضنها الشعب"، وهو ما يجعلنا نستفيد من أخطاء الماضي بأن يفسح مجال الحريات أمام الجميع وفق أطر قانونية واضحة وملزمة للجميع، بشرط إرساء قواعد اللعبة الديموقراطية، بعيدة عن إقحام ثوابت الأمة ورموز الدولة عن اللعبة السياسية، لأنها مبادئ ثابتة جمعت أفراد الأمة الجزائرية عبر تاريخه الطويل وجسدتها مواثيق الثورة ودساتير الدولة الجزائرية.

- وأخيرًا؛ نقف وقفة إجلال وإكبارًا لهؤلاء الشهداء الذين صنعوا مجد الجزائر وضحوا بأنفسهم من أجل أن يعيش الأبناء في حرية ومساواة وعدالة اجتماعية، انتزعت منهم إبان فترة الاستعمار الفرنسي البغيض.

خاتمةٌ

إن الدولة الجزائرية التي تمكنت من استرجاع سيادتها بعد قرن وأثنان وثلاثون سنة من السيطرة الاستعمارية، بفضل جهاد أبنائها وتضحيات جسام خلفت ملايين الشهداء، لَقادرة اليوم من تجاوز محن الماضي التاريخي الأليم والاستفادة من تجارب ودروس التاريخ. وأثبت الشعب الجزائري خلال ثورته المباركة أنه صاحب المبادرة بوقوفه إلى جانب قادة ثورة التحريرية الجزائرية وتدعيمها بالإمكانات المادية والبشرية والروحية من أجل تحقيق الاستقلال، وتمكن الجزائريون فعلاً من تحقيق هذ الحلم المنشود سنة ١٩٦٢، لكن الوصول إلى هذا المبتغى وجهته مشاكل وصعوبات تنظمية ولوجستيكية وأزمات سياسية خانقة، نظرًا لإرهاصات الانتقال الصعب من حرب التحرير إلى بناء الدولة، والتي ترتب عنها عدّة انعكاسات على مستوى السلطة والسيطرة على القرار، فنشأت أزمة صائفة ١٩٦٢، وبرزت للعيان في الفترة الأخيرة عدّة مذكرات لصناع القرار آنذاك توضح هذا الغموض. ولكن قادة الثورة التحريرية تمكنوا من تجاوز هذه المحن خلال الدولة الناشئة الوطنية الأولى ما بين (١٩٦٢ – ١٩٦٥) في عهد الرئيس المرحوم "أحمد بن بلّة" من وضع اللبنات الأولى لمؤسسات الدولة الجزائرية بعد دهر من الاحتلال والاستدمار.

الهَوامِشُ:

(١) الطاهر الزبيري، **نصف قرن من الكفاح، مذكرات قائد أركان جزائري**، الشروق للإعلام والنشر، ط١، ٢٠١١، ص ٦ – ١٩.

(٢) حربي محمد، **الثورة الجزائرية، سنوات المخاض**، ترجمة نجيب عباد وصالح المثلوثي/ موفم للنشر ١٩٩٤ سلسلة صاد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ١٩٩٩، ص ١٦٠-١٦٢.

(3) Yves Courrière, *La Guerre d'Algérie: les fils de la Toussaint*.- le Livre de poche, 1973.

(4)Benbella (A), Itinèraire ed, *El Badil/ Alternative 1987*. pp. 174 - 175.

(5) ibid, pp. 180 – 181.

(٦) بن يوسف بن خدّة، **نهاية حرب التحرير في الجزائر: إتفاقيات إيفيان**، ط. ٢٠٠٢، مزدوج اللغة، تعريب لحسن زعدار. ص٥٠- ٥٥.

(٧) طلاس مصطفى والعسلي بسام، **الثورة الجزائرية**، دار الشورى، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص ٣٠٧ – ٣٠٨.

(٨) لونيسي إبراهيم، **الصراع السياسي في الجزائر خلال عهد الرئيس أحمد بن بلة**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٤٠.

(٩) **الخبر الأسبوعي الجزائرية**، العدد ٥٤٩، سبتمبر ٢٠٠٩.

(١٠) ديقول شارل، **مذكرات الأمل**، ترجمة د. سموحي فوق العادة، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧١، ص ٤٣.

(11) Benkhada (B), *L'Algérie a L'Indipendence, La Crise de 1962*, ed Dahleb, Algèr, 1997, p.146.

(١٢) حربي محمد، مصدر سابق، ص 60.

(13) djerbal (DJ), *La Question Democratique Dans le Mouvement National Algèrien 1945 - 1962*, In Revue Insaniyate N° 25 -26 juillet – dècembre, 2004, Crasc, Oran, Algèrie pp. 159 – 178.

(14) Benkada (S), La Rèvendication des Libertès Publiques dans le Discours Politique Du Nationalisme Algèrien et de L'Anticolonialisme Français In Revue Insaniyate N° 25 -26 juillet – dècembre, 2004, Crasc, Oran, Algèrie pp. 179 – 214.

(١٥) شريط أمين، **التعددية الحزبية في تجربة الحركة الوطنية (١٩١٩ – ١٩٦٢)**، د.م.ج، الجزائر، ١٩٩٨، ص ١٢٦- ١٢٧.

(١٦) لونيسي رابح، **الجزائر في دوامة الصراع بين العسكريين والسياسيين**، دار المعرفة، ٢٠٠٠، ص ٧٢ – ٧٨.

(١٧) لونيسي إبراهيم، مرجع سابق، ص ٨١ - ٩٠. حيث وضح في فصل له بدراسته، واقع المعارضة السياسية لحكم بن بلة.

(١٨) الميلي محمد، "**الجزائر إلى أين**" في مجلة المستقبل العربي الصادرة عن المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ع٢٧١، سبتمبر ٢٠٠١، ص ١١ – ٢٧.

(19) Mynier (G), La Revolution du F.L.N, 1954 - 1962 In Revue Insaniyate N° 25 -26 juillet – dècembre, 2004, Crasc, Oran, Algèrie p p. 25 – 37.

(20) Couriere (Y), op cit p

(٢١) الميلي محمد، مرجع سابق، ص ٥٠.

(22) Tegia (M), *L'Algèrie en Guerre*, O.P.U, 1988, pp. 408 – 423.

(23) Ibid, P. 406.

(٢٤) لونيسي إبراهيم، مرجع سابق، ص ٥٨.

(25) Benkhada (B), Op. cit., P. 147.

(26) Benbella (A), Op. cit, P. 176.

(٢٧) شريط أمين، مرجع سابق، ص ١٢٨ - ١٣١.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٣٢- ١٣٥.

(٢٩) بن داهة عدة، **ظاهرة الاستيطان والصراع على الأرض بين الجزائريين والمستوطنين**، رسالة دكتورة تحت إشراف، فغرور دحو قسم التاريخ وعلم الأثار، جامعة السانيا وهران ٢٠٠٨، ص ٤٠٩ – ٥٣٥.

(30) COLLOT (C), *LES Instituions de L'Algérie Durant la Pèriode coloniale, 1830-1962*, C.N.R.S,O.P.U, Algèr, 1987, Pp.156 – 158.

(31) Tegia (M), Op. Cit., P. 420 - 423

(٣٢) محمد بليل، **تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر بين ١٨٨١ و ١٩١٤، القطاع الوهراني نموذجًا**، رسالة ماجيستير - قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة السانيا وهران (٢٠٠٦-٢٠٠٧) ص٣ – ٢٠.



القاهرة، المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة
دراسة اجتماعية وتاريخية وسياسية



أ.د. محمد عبد الرحمن يونس

باحث وقاص وروائي، وأستاذ جامعي يعمل في:
جامعة جين جي الوطنية – تايوان
جامعة ابن رشد – هولندا

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عبد الرحمن يونس، القاهرة، المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة: دراسة اجتماعية وتاريخية وسياسية.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٤٦ – ٦١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

ما من عمل أدبيّ شعبيّ نال شهرة واسعة في آداب المجتمعات الإنسانيّة أكثر من ألف ليلة وليلة. وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا العمل في جوانبه المتعدّدة، بوصفه نتاجًا معرفيًّا وحضاريًّا لكثير من الأمم والشعوب. ويمكن القول إنّ حكايات ألف ليلة وليلة تعبّر عن مخزون الذاكرة المعرفيّة الجمعيّة للمجموع الإنسانيّ عبر رحلته التاريخيّة والحضاريّة، هذه الذاكرة التي عايشت تاريخ المجتمعات، وعاداتها وأحوالها، والتحولات الفكريّة والسياسيّة لهذه المجتمعات في تطوّرها الحضاريّ. ويحاول الباحث في هذه الدراسة أن يتبيّن ملامح القاهرة في الليالي، التي لا يذكرها الرّواة تحديدًا، بل يستبدلونها بمدينة مصر التي هي مدينة القاهرة، لأن الرواة عندما يذكرون مدنًا مصرية أخرى فإنهم يحدّدونها، كالإسكندريّة والقليوبيّة ودمياط، وأن أتبيّن ملامحها، وبعضًا من بنيتها المعرفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، منطلقًا من نصّ الليالي نفسه، ومعتمدًا في آن بعض الخلفيات المرجعية التاريخيّة التي ذكرت هذه المدينة.

مُقَدِّمَةٌ

إنّ أهمّ المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة هي المدن الحضريّة القريبة من البحار والأنهار، والمليئة بالعمران والبساتين، والحمّامات والأسواق والخانات التجاريّة. وحكايات ألف ليلة وليلة هي حكايات المدينة العربيّة الإسلاميّة في أوج نموّها المعرفيّ والحضاريّ في العصر الوسيط، ومثاقفتها وعلاقاتها مع المدن الأخرى، والحضارات الأخرى الهنديّة والفارسيّة والصينيّة، وإن ابتعدت هذه الحكايات عن المدن المزدهرة، فإنّها لا تبتعد عن بنية هذه المدن إلاّ لتنتقل إلى مدن أسطورية وجزر تبدو غاية في الجمال، وكأنها الصورة النديّة لهذه المدن. يقول أحد الرواة واصفًا إحدى هذه الجزر: « فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجارًا وأنهارًا وثمارًا وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار من تحت تلك الأشجار، وهي كأنّها الجنّة».[1] وعمومًا تبدو المدن التي يصل إليها الرّواة كأنّها جنان الأرض، من حيث التشكيل العمراني، ونشاط الحركة التجاريّة، وجمال النساء اللاتي يصفهنّ الرّواة بالأقمار المشعّة.

غير أنّ المدن التي وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة ليست مدنًا مدينية تمامًا، بل تبدو علاقاتها علاقات بدويّة، على الرغم من استهجان الراوي المديني لعلاقات البادية، فحتى بغداد المركزيّة أو البصرة المدينة الحضريّة المهمّة في الليالي لا تخلو تمامًا من علاقات البداوة وقيمها. لقد كان رواة ألف ليلة وليلة وَلِعين بوصف المدن الكبيرة والارتحال إليها، في حين أنّ المدن الصغيرة لم تكن إلاّ محطّات سفر، يرتاح فيها الأبطال والتجّار، أو طرقًا إجبارية يضطرّ السرد للمرور بها للوصول إلى المدينة المركز الحلم، التي تحتضن الأبطال وتعطيهم المال والشهرة والنساء، وكل ما لذّ وطاب. لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة في الليالي، وتأتي بعدها من حيث الأهميّة

القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمّتان اللتان لعبتا أدوارًا سياسيّة وتجاريّة مهمّة في الدولة العربية الإسلاميّة. فدمشق كانت عاصمة للدولة العربية -أيام الأمويّين- التي بسطت هيبتها على جميع بلاد أواسط آسية (في التركستان)، وغربيّ الهند (باكستان اليوم)، وعلى شمال القارة الأفريقية، وعلى شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال)، حتى أنّ الزحف العربي اجتاز جبال البرانس إلى فرنسة، ووصل إلى مدينة تور في الشمال الغربي من فرنسة.[٢]

أمّا القاهرة، فقد «مثّلت عاصمة المدنيّة» في ليالي ألف ليلة، إذ كانت « مصر تجذب التجار لا ليثروا من التجارة فيها، ولكن ليروا مظاهر المدنيّة والخصب والثراء".[٣] إلاّ أنّ مركزيّة القاهرة في الليالي أهمّ بكثير من دمشق، على الرّغم من أنّ دمشق في التاريخ كانت عاصمة للخلافة الإسلاميّة، وكانت أكثر مركزية من القاهرة. ولا ندري ما السبب الرئيس الذي جعل الرّواة يحتفون بالقاهرة أكثر من دمشق، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ «الإضافات الأخيرة التي أُضيفت إلى هذا الكتاب [كتاب ألف ليلة وليلة] الضخم حدثت في مصر، والراجح أنّ ذلك كان في أواخر عهد المماليك،[٤] ولعلها وُضِعت في القاهرة (...) وهذا الرأي يمكن استنتاجه (...) من لغة هذا الجزء [الإضافات] فهي تشبه اللغة العربية في عصورها المتأخّرة وتقرب في كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة».[٥] ولأنّ هذه الإضافات حدثت في القاهرة، فقد كان نصيب القاهرة في هذه الحكايات أكبر من نصيب دمشق، لأنّه من الطبيعي أن يسجّل الرواة أخبار مدينتهم قبل المدن الأخرى، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ ثمّة إشارات غير قليلة في الليالي إلى أهمية دمشق ومركزيتها أيام الدولة الأمويّة، وهذه الإشارات تجعلها تتفوق على مدن أخرى كثيرة، ومنها: الكوفة، والقدس، والإسكندرية، وحلب، وصنعاء، وفاس، وغيرها من المدن العربية والأجنبيّة الأخرى الواردة في الليالي، والتي لا تتعدّى أن تكون محطات لاستراحات قصيرة جدًا.

ويُلاحظ أنّ حكايات القاهرة لا تنتهي تحديدًا إلى فضاءات القاهرة، بل إنّ الرّواة كانوا يعرفون أهمية بغداد المركز، ولذا فقد بدأوا بسرد الحكاية من القاهرة، ثم ارتحل أبطالهم مع ارتحال السرد إلى بغداد المركز. وهكذا تنتهي بعض حكايات (القاهرة) في بغداد، كحكاية **"علاء الدين أبي الشامات"**، وحكاية **"علي الزيبق المصري"**، وحكاية **"علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد"**. وقد اعتبر الدّارسون أنّ الحكايات المصرية أضافها رواة محترفون إلى كتاب ألف ليلة وليلة، وقد عمل هؤلاء الرّواة على تضخيم حجم الكتاب بقصص عربيّة فيها الكثير من التقاليد الإسلاميّة، والأساطير الفرعونيّة والسير الهوديّة في آن،[٦] واعتبروا أنّ هذه الحكايات مرّت في ثلاثة أطوار:

(١) الطور الفاطمي: وفيه رُوِيت حكايات متأثّرة بالطلاسم والسحر والجن.

(٢) الطور الأيوّبي: وفيه رويت قصص البطولة والحروب.

(٣) الطور المملوكي: وتسجّل حكايات هذا الطور أخبار المدن والشطّار.[٧]

ولم تسهم الإضافات الأخيرة إلى كتاب ألف ليلة وليلة، من قبل الرّواة المصريين، في ترجيح كفّة القاهرة على بغداد، لأنّ بغداد تمثّل الكلّ الحضاريّ والمعرفيّ المزدهر للدولة الإسلاميّة، ولأنّها تتربّع على عرش المجد السياسيّ في التوسّع والنفوذ والقوّة، يضاف إلى ذلك « أنّ القصاص المصري إذا تحدّث عن مصر. وهو منها وفيها . تحدّث عمّا يرى، وعبّر عمّا يسمع (...) أمّا إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثّر بعوامل أربعة: يتأثّر بما وُضِع من الأقاصيص الجميلة في بغداد، ويتأثّر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبّهة الخلافة، ويتأثّر بما ركّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي، وتعظيم البعيد، ويتأثّر بجهله أحداث التاريخ وتطوّر الأمم، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت«الرشيد» ومصرع «بغداد» ونكبة المجد الأثيل».[٨]

ومن البديهي أن نقول: إنّ بغداد المركزيّة في الليالي، والأولى في الحضارة العربية الإسلاميّة، في العهد العباسيّ، تتفوّق على دمشق، لا من حيث عدد الحكايات فحسب، بل من مستويات عديدة أخرى، كنموّ الأحداث وتشعبها، وحركة الأبطال، وحركة الوحدات السرديّة منها وإليها، وتشعب الملامح الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة التي امتازت بها بغداد، وتعدّد الفضاءات المكانيّة وأهميّتها في بناء حكايات بغداد، وقدرة بغداد هذه المدينة المنفتحة حضاريًا على استيعاب الأقوام والشعوب ومن جنسيّات مختلفة، وعلى التفاعل معها، واحتضانها.

وقد أسهم انزياح دمشق عن مركزيّتها بعد أفول الدولة الأمويّة، في تقليل أهميتها في حكايات ألف ليلة وليلة عن أهميّة بغداد، وانزياحها عن أن تكون مركزيّة في هذه الحكايات، هذا إذا عرفنا أنّ معظم رواة حكايات الليالي في جزئها العربي، وفي طبقتها البغداديّة تحديدًا، هم من العباسيّين، ومنهم إسحق الموصلي،[٩] ومحمد البصري،[١٠] وإبراهيم بن المهدي عمّ الخليفة المأمون بن هرون الرشيد،[١١] والقاضي أبو حسان الزيادي، أيام المأمون،[١٢] وأبو سعيد بن سالم الباهلي، أيام هرون الرشيد.[١٣] وآخرون، وأنّ رواة آخرين هم من الفرس الأعاجم، مثل علي العجمي الذي يروي لهرون الرشيد.[١٤] مع ملاحظة أنّ هؤلاء الأعاجم كانوا يكرهون النظام الأمويّ، ويتمنّون زواله، لأنّ هذا النظام اعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية، ولا يحقّ لهم ما يحقّ للعرب، وبالتالي طبّق عليهم سياسة التمييز العنصريّ، مما جعل «نقمتهم تتعاظم كلّما فكّروا في خضوعهم لسلطانه. و[قد] طما سيل الاستياء، أكثر مما طما، حول مدينة دمشق».[١٥]

وهنا يبدو من غير المستحبّ أن تُروى الحكايات التي تمجّد دمشق بحضور خلفاء لا يحملون لتلك الدولة الأمويّة الآفلة أي مظهر من مظاهر الاحترام، أو لا يعترفون لها بالحقّ في خلافة خلفاء رسول الله (ﷺ)، وقيادة زمام الدولة الإسلاميّة. فـ «على أثر قيام

الدولة العباسيّة، تسقط مدينة دمشق، وينتهي عصرها الذهبي وتدخل عهد الانحطاط، ذلك أنّ ذِكر الأمويّين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديدة، فصبّوا [أي العباسيّون] على المدينة غضبهم وحقدهم، وخرّبوا القصور، وانتهكوا حرمة قبور الخلفاء، وهدّموا أسوار المدينة، رغبة منهم في أن يحرموا السكان ما يتحصّنون به إذا ثاروا عليهم. وإذا كان الجامع الأمويّ قد سَلِم من هذا التخريب فالفضل في ذلك يرجع لما كان يتمتع به من احترام في نفوس المسلمين، ولا عجب بعد ذلك، أن تنحطّ دمشق إلى مصافّ المدن الثانويّة، فتنتقل منها دار الخلافة وتغدو قصبة ولاية تعمل فيها عناصر الانحلال لتفكيك عُرى ذلك النظام القديم».[١٦]

أولاً: لمحة تاريخيّة عن القاهرة

بعد الفتح العربي لمصر،[١٧] وضمانًا لسيطرة العرب المسلمين عليها، ونظرًا لأنّ بُعدها عن أرض الجزيرة العربية يجعل من استردادها، إن هي سقطت، أمرًا صعبًا، قرّر الفاتحون الاستقرار فيها، وكان عليهم أن يختاروا عاصمة لها، فقد أراد عمرو بن العاص أن يتّخذ من الإسكندرية قاعدة لحكمه نظرًا لشهرتها وثرائها، لكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض أن يترك قوّاته في مدينة تفصلها مياه الفيضان عن أرض الجزيرة العربية في كل عام.[١٨]

ويروي ياقوت الحمويّ[١٩] أنّ عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر مضى إلى الإسكندرية، وأقام عليها ستّة أشهر حتى فتحها الله عليه، عندها: « كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في سكناها فكتب إليه: لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر، فقال عمرو لأصحابه: أين نتزل؟ فقالوا: نرجع أيّها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء، فقال للناس: نرجع إلى موضع الفسطاط، فرجعوا وجعلوا يقولون: نزلت عن يمين الفسطاط وعن شماله، فسميت البقعة بالفسطاط لذلك». لكنّ المسلمين لم يتّفقوا على اختيار الموقع الفعلي لمدينة الفسطاط، فهل يكون على الضفّة الشرقية أو الغربية؟ فقد رأى الأتقياء في جيش عمرو بن العاص أن يجعلوها على الضفّة الغربية تيمّنًا بما يروى عن رسول الله (ﷺ): «أن الجيزة بها روضة من رياض الجنة»، لكن عمرو بن العاص كان عمليّ التفكير، وانطلاقًا من رؤيته العسكريّة فقد فضّل الضفّة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتّصال قوي بجيشه، وهكذا وقع الاختيار على الضفّة الشرقية في الأرض المجاورة لحصن بابليون، المهيمن على الطرق المؤدّية إلى الصعيد.[٢٠]

وحول موقع مدينة الفسطاط، يروي الطبري[٢١] قصة ربما تكون حقيقية، وربما تخيّليّة، لكنها في بنيتها العامة تلتقي مع قصص الأساطير العربية، التي كانت تجد صدىً واسعًا لدى عامّة الناس في العصر الجاهلي، وحتى في العصور الإسلاميّة اللاحقة له، فعندما عزم عمرو بن العاص السفر إلى الإسكندرية لفتحها، أمر «بفسطاطه أن يُقوَّض فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه. فقال: لقد تحرَّمت بجوارنا أقِرّوا الفسطاط حتى تنفُق وتطير فراخها، فأُقِرَّ فسطاطه، ووكّل به من يحفظه». وعندما رجع عمرو من الإسكندرية بنى المدينة مكان الخيمة التي بنت اليمامة عشّها عليها.

وتشير الدراسات إلى أنّ الفسطاط قد امتدّت «في القرن الثاني الهجري وأنشئت كذلك مدينة «العسكر»، وكان امتدادها نحو الشمال، حيث أنشأ أحمد بن طولون مدينة «القطائع»، التي انتهت عند ميدان المنشيّة. وهذه هي المدن الثلاث التي أنشأها العرب في مصر قبل إنشاء "القاهرة".[٢٢]

أسّس القاهرة القائد جوهر الصقلّي في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩ م، في عهد الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله.[٢٣] وأحاطها بالأسوار والأبواب المحصّنة كباب الفتوح وباب زويلة، وأنشأ فيها شارعًا رئيسًا عظيمًا سُمّي فيما بعد بشارع المعزّ لدين الله الفاطمي، وقد أُنشِئ هذا الشارع بطريقة فنيّة متعرّجة، بحيث يهدف إلى حماية روّاده من أشعة الشمس في صيف القاهرة، وقد كان هذا الشارع المركزي مصبًا للأسواق الفرعية، والمساجد، والحمّامات، والخانات، والأسبلة، والمدارس.[٢٤] ويبدو أنّ بناء القاهرة كان نتيجة حتمية لاتساع حاجات الدولة الفاطمية إلى مدينة كبيرة تستوعب الجيوش التي قدمت معها، وتراعي زيادة عدد السكان الجدد، وهو في المحصّلة النهائيّة نتيجة طبيعية أفرزها التطوّر العمراني في المدن الإسلاميّة.

عُرِفت القاهرة في البداية باسم « المنصورية »، تبرّكًا باسم مدينة «المنصورية» التي «أنشأها خارج القيروان، المنصور بالله والد المعزّ، ولكن الخليفة [المعزّ لدين الله] الذي جاء ليستقر في مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م، غيّر اسمها إلى «القاهرة».[٢٥] وتشير إحدى الدراسات إلى أنّ هنالك مجموعة من الدوافع دفعت القائد جوهر الصقلّي لبناء هذه المدينة، ومنها:

١ . الدوافع الجغرافية: قربها من مدينة الفسطاط واتصالها بها.

٢ . الدوافع الاستراتيجية: كون القاهرة أول مدينة يصل إليها المسافر بعد خروجه من الشام.

٣ . الدوافع العسكرية: حينما بنى جوهر الصقلّي مدينة القاهرة أراد أن يكون و أصحابه وأجناده في منأى عن العامة.

٤ ـ الدوافع الاقتصاديّة: اختيار موقع للمدينة أقرب إلى نهر النيل، بحيث يكون النيل طريق نقل للبضائع والركاب، إذ تصعد فيه المراكب إلى الصعيد، وتنحدر إلى الإسكندرية.[٢٦]

إلاّ أنّ هذا الموقع الذي رآه جوهر الصقلّي موقعًا متميّزًا، لم يعجب المعزّ لدين الله لأنه رآه بلا ساحل. عندها نبّه قائده جوهر الصقلّي، قائلاً: «فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقسّ (ميدان المحطّة)، فهلا كنت بنيتها على الجرف...؟ (منطقة الرصد)» .[٢٧] لكنّ الدراسات الجغرافية المعاصرة فيما بعد أثبتت أنّ جوهر الصقلّي «كان موفّقًا في اختيار موقع القاهرة، حيث يضيق عنده مجرى النيل، وحيث تتخلل الجزر المكان الذي تشرف عليه القاهرة، والتي هي أشبه بممرّ طبيعي يسهل للناس الانتقال من ضفّة إلى أخرى ويهون عليهم أمر ذلك كثيرًا».[٢٨]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وإذا كان القائد جوهر الصقلّي قد فاته ما قاله المعزّ لدين الله، انطلاقًا من رؤيته العسكرية لموقع القاهرة الذي ظنّ أنّه يحقق موقعًا مهمًّا لجنوده، وذلك من خلال الميدان الفسيح الذي كانت تُقام فيه حفلات استعراض الجيش والذي يتّسع لعشرة آلاف ما بين فارس وراجل،[٢٩] فإنّ «الخلفاء الفاطميين لم تفتهم النظرة إلى مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجيزة، فانتقلوا بها إلى شاطئ النيل وحافتي الخليج، وشبرا حيث كانت الخضرة والماء، فأنشئوا [كذا] المناظر والحدائق وكانوا يقضون فيها أوقاتًا سعيدة».[٣٠]

وقد قُسّمت المدينة لأن تتوزّع فيها الطبقات بحسب موقعها في الهرم السلطوي، بحيث يكون قصر الخليفة بعيدًا عن قصور الطبقات الشعبية، وهذا ما يُلاحظ في معظم المدن الإسلاميّة التي شكّلت مدنًا مركزية وعواصم للدولة الإسلاميّة. فالشارع المركزي - المشار إليه سابقًا- كان طوال العصر الفاطمي مقصورًا « على سكن الخليفة ورجاله (...) وقصر السلطان هو مركز القاهرة، ويحيط به قصور الأمراء والقادة، وفي الدائرة الأوسع التجّار والعامة. وعند هوامش القاهرة يعيش المزارعون».[٣١] وقد احتلّت مدينة القاهرة مكانة مهمّة بين مدن مصر. ولم تنازعها مكانتها هذه في تاريخ مصر سوى مدينتي طيبة والإسكندرية. والقاهرة أقدم مدينة في العالم باعتبارها وريثة « منف » القديمة.[٣٢]

ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أشار الشعراء الجوّالة إلى القاهرة باسم بابليون Babilone، وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوربا، إلّا أنّ المؤلفين الأكثر اطلاعًا بجغرافية المدن وتاريخها رأوا أنه من الضروري التمييز بين بابليون التوراتية،[٣٣] وبين عاصمة مصر، التي ميّزوا فيها بين مدينتين: هما بابليون التي تحمل اليوم اسم مصر العتيقة، وبين القاهرة الحقيقية التي أسّسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي[٣٤].

وتُعدّ القاهرة من أهم المدن الإسلاميّة التي تمتاز « بثقل ثقافي وحضاريّ وتاريخيّ، حيث تتجمّع فيها مختلف المظاهر العمرانية والتراثية عبر مراحل تاريخها، وذلك منذ تأسيسها سنة ٩٦٩م شمالي الفسطاط».[٣٥] ويرى أحد علماء الجغرافية العرب أنه لو حُصِرت العواصم المخضرمة العربية في الدنيا، فلعلّ القاهرة هي أهم المدن جميعًا.[٣٦] وموقع القاهرة هو موقع فريد في مصر وخارجها، فهو موضع التقاء الدلتا بالصعيد في عقدة الوادي.[٣٧] ويرى أحد الدّارسين أنّ المميّزات المادية لموقع القاهرة جذب العديد من السكان في حين أن بواعث دينية أخرى أسهمت في جلبهم.[٣٨] إذ إنّ الأقاصيص الدينية نسجت هالة قدسية حول هذا الموقع، فقد ساد بين الناس «أنّ الدعوات التي تُؤدّى على جبل المقطّم مجابة، وأنّ الله قد وعد بأن يجعل من السفح [سفح المقطّم] روضة من رياض الجنّة، وأنّ هذا السفح يتمتع بخاصيّة خارقة للطبيعة مباركة، فالجثث التي تُدفن فيها لا تبلى لوقت طويل (...) وقد أُعتقد أنّ من يُدفن في نهاية الطرف الجنوبي يُبعث أيام الأربعاء والخميس والجمعة المقدّسين..» .[٣٩]

من الملاحظ أنّ المصادر القديمة، والتي جاءت بعد تأسيس القاهرة، لم تذكر القاهرة تحديدًا، بل ظلّت تطلق عليها اسم الفسطاط تارة ومصر تارة أخرى، فياقوت الحمويّ[٤٠] المتوفَّ ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، بالرغم من استفاضته بالحديث عن الفسطاط ومصر بكثير من التفاصيل، فإنه لا يذكر القاهرة إلاّ مرّة واحدة قائلاً: « ثم اتّفق في سنة ٥٦٤ [هـ] نزول الإفرنج على القاهرة فأضرمت النار في مصر لئلا يملكها العدو». ويبدو أنّ هذه المصادر ظلّت تعدّ القاهرة هي مصر والفسطاط، حيث يغلب الاسم القديم للبلد الكل (مصر) على الجزء المحدث (القاهرة).[٤١] وقد ظلّ اسم مصر أو الفسطاط غالبًا أيضًا على الاسم الجديد (القاهرة) في حكايات ألف ليلة وليلة.

وتبقى القاهرة في المحصّلة النهائية المدينة الجديدة المتطوّرة التي احتوت، وضمّت إليها بعد التجديد في بنائها، المدن الصغيرة السابقة لها المسمّاة بـ: بابليون Babilone والقطائع والعسكر والفسطاط، والتي يمكن عدّها أحياءً كبيرة مجاورة للقاهرة، وفي ما بعد ذابت ملامحها في القاهرة تمامًا، وبقي الملمح الكل الجامع لها ملمح القاهرة المزدهرة عمرانيًا وحضاريًا، المليئة بالمساجد والشوارع، كما يروي ياقوت الحمويّ[٤٢] عن القاضي أبي عبد الله القضاعي، أنّه « كان في مصر من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حمّامًا».

وفي المصادر التاريخيّة تبدو مصر بلدًا مباركًا وطيبًا، وعمرانها أبعد العمران عن الخراب، إذ يروي ياقوت الحمويّ[٤٣] عن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أنّه قال عن مصر: « وهي اليوم أطيب الأرضين ترابًا وأبعدها خرابًا لن تُزال فيها بركة ما دام في الأرض إنسان (...) وقالوا: مثلّت الأرض على صورة طائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربتا خربت الدنيا» .

إنّ القاهرة التاريخيّة سليلة الحضارات القديمة الفرعونية والرومانية هي «مدينة تجمع بين القديم الوسيط والحديث بل إنّها مدينة تجمع التاريخ كله » [٤٤]. وقد تحدّث الرحالة عن هذه المدينة بإعجاب ودهشة، يصلان حد التبجيل، فها هو يعقوب الفيروني J. de Véroné، يأتي من البندقية وعندما يصل إلى القاهرة في آخر أيلول ١٣٣٥م، يصفها قائلاً[٤٥]: « وصلت إلى القاهرة، المدينة التي تحوي الكثير من العجائب التي تستحّق الذكر، لأنها زعيمة كل مصر وفلسطين والأرض المقدّسة، وكل بلاد الآشور حتى أرمينية (...) والهواء فيها عذب وخال من أي شكل من أشكال الوخامة، والسكان أغنياء جداً بفضل تجارة الهند» . ويصفها رحالة آخر بأنها «بندقية الشرق»[٤٦]. ويبدي أحد الرحالة المعاصرين إعجابه الشديد بها، فيصفها بأنها « المدينة، التي نطق فيها السيد المسيح أول كلماته» [٤٧]. و«هي قطب العالم العربي، خاصة في مجال الثقافة الشعبية» [٤٨]. وهي « الخليّة العامرة بالحياة والتي لا مثيل لها» [٤٩]، وهي

المدينة الآمنة التي توفّر ملاذًا أمينًا لّلاجئين إليها منذ أيام الملك هيرود، حتى المجاعة على الساحل الأفريقي، إلى الأيام المعاصرة.(٥٠)

وبعد انهيار بغداد العباسيّة وأفول عزّها، وسقوط الخلافة العباسيّة فيها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ستصبح القاهرة مدينة مركزية مزدهرة بالنسبة للدولة الإسلاميّة، مثلها مثل دمشق أيام الخلافة الأمويّة، ومثل بغداد أيام الخلافة العباسيّة. ونظرًا للدور الجديد الذي ستلعبه مصر، وللمركزية السياسيّة التي تحتلها في ظلّ دولة المماليك، فإنّ القاهرة ستصبح في ظلّ هذه الدولة: « القلب من الجسم بعد أن تكوّنت للعروبة معالم واضحة فامتدّت حدود هذه الدولة من اليمن جنوبًا حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً، وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرية حتى بلاد برقة، وعلى ضفاف النيل حتى أعالي النوبة».(٥١)

هذه هي بعض ملامح القاهرة عبر التاريخ، كما وصفتها المصادر والمراجع. فما هي أهم ملامحها الإنسانية والاجتماعيّة في حكايات ألف ليلة وليلة؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الصفحات الآتية.

ثانيًا: القاهرة في ألف ليلة وليلة

يتّفق الدارسون على أنّ كتاب ألف ليلة وليلة يتكون من طبقات متعددة، وإحدى هذه الطبقات كُتبت في بغداد وأخرى كتبت في مصر.(٥٢) والطبقة المصرية أُضِيفت إلى الكتاب في زمن متأخر،(٥٣) فـ «الأقاصيص الهيّنة الجيدة السبك التي تمثّل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلّها على يد الخليفة هي من الطبقة البغدادية، وأمّا حكايات الصعاليك وحكايات الجن -وهذه في الغالب ضعيفة الأسلوب- فهي من طبقة مصرية متأخّرة».(٥٤) إنّ ما يميّز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات في بنية أحداثها «التي تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسيّة الحادة من جانب آخر»(٥٥). على أن الدارس، مهما كان دقيقًا، لا يستطيع أن يصنّف خصائص معينة ودقيقة للطبقة المصرية، تميّزها عن البغدادية أو الهندية أو الفارسية، لأنّ معظم الحكايات تلتقي في معظم بنياتها التركيبية، التي تتشابه من حيث الحيلة والمكر والقتل والدهاء والجواري الجميلات، ورجال السلطة السفّاحون، والملوك والأمراء الذين يتطاحنون حروبًا مدمّرة في تنافساتهم السياسيّة. فالطور البغدادي يتداخل مع الطور القاهري، ويتزامن معه، والسارد الذي يكون في بغداد سرعان ما ينتقل إلى القاهرة، وبالعكس، كما في حكاية «**علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة**»، والذي يكون في القاهرة سرعان ما ينتقل إلى بغداد، بوحداته السرديّة كما في حكاية « **علاء الدين أبي الشامات** »، وقد « كان القصاص المصري يعتمد على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والرّوايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ثم يضيف إلى ذلك ما تُنوقل في مصر وما تجمّع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدوّنون ما رأوا من الأعاجيب» (٥٦).

ويمكن بشيء من التقريب القول: إنّ الطريقة التي يمكنها أن تلقي الضوء لمعرفة الطور القاهري، ولو بشكل نسبي، هي متابعة السارد وهو يحدد الأماكن الواقعية التي يصل إليها الأبطال، أو يسمّي بعض أحيائها، أو يحدد أسماء حكّامها الحقيقيين في الأزمنة التي حكموا فيها، وسيساعدنا أيضًا، في تحديد هذه الحكايات لغة الحكاية التي تنهل في تركيبتها من لهجة المدينة، لأنّ هذه اللهجة من شأنها «أن تقودنا إلى أصل النص »(٥٧)، فالحكايات التي تذكر المدن المصرية تحتفظ بلهجة عاميّة، لا تزال معروفة في مصر حتى الآن. على أنّ ذكر الشخصية المقرونة بمكان معين، أو بزمان يدور الأبطال في فضائه التاريخيّ، ليس دليلاً كافيًا لمعرفة أصل الحكاية، أو الطبقة التي تنتمي إليها، فعلى سبيل المثال نجد أن الحكاية التي « تُقال عن الرشيد قد تكون أُلفّت بعده بقرون، أو حتى أُلِفّت قبله بقرون وأُضيف إليها اسمه إضافة مفتعلة عندما أراد القاصّ أن ينزل هذه القصّة القديمة إلى جوّ المسلمين فسمّى الملك القديم هارون الرشيد، ولم يجد من سامعيه تحرّجًا ولم يقدّر أنّ قومًا سيتساءلون ويخضعون قصصه، الذي ألفّه ليؤدّي غرضًا آخر، لقوانين العقل والواقع والحق»(٥٨).

وفي دراستي لملامح القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة التي وصفتها، سأعتمد بالدرجة الأولى، في تحديد حكايات الطبقة المصرية، المسمّيات المكانية للمدن المصرية وأحيائها، من دون أن أجدني مضّطرًا للخوض في الآراء الكثيرة المتشعّبة والمتضاربة التي تؤكّد أو تنفي أو ترجّح أنّ هذه الحكاية أو تلك قاهرية أو بغدادية، أو هندية أو فارسية، لأنّ دراستي ستنطلق من الفضاء المكاني، وأهمّ ملامحه، وعلاقات شخوصه، ودور هؤلاء الشخوص في تحديد سمات المكان وهم يصفونه، أو يتعايشون معه. وفي البداية تجدر الإشارة إلى؛ أنّ الرّواة لا يذكرون القاهرة في جميع الحكايات إلاّ مرّتين(٥٩)، وهم يستعيضون عنها باسم مصر، أو مصر القديمة، وهم يعنون بها القاهرة، لأنهم عندما يذكرون مصر فإنّهم يذكرون أحياء حقيقية لا تزال معروفة حتى الآن بالأسماء نفسها في القاهرة المعاصرة، ومن هذه الأحياء:

القليوبيّة(٦٠)، وخان مسرور، وباب زويلة، والحبّانيّة، وبين القصرين(٦١)، وحي البندقيّين، وحارة اليمانيّة والجودريّة(٦٢)، وميدان الفيل(٦٣)، وباب النصر، وحي العادليّة(٦٤).

أمّا حكايات القاهرة في الليالي فهي: حكاية « الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين»، وهي داخلة ضمن حكاية « هرون الرشيد مع الصياد» (٦٥)، وتجري حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «النصراني لملك الصين »، وهي ضمن حكاية « الأحدب وملك الصين» (٦٦)، وحكاية «علاء الدين أبي الشامات» (٦٧)، وهي مصرية وبغدادية في آن، وحكاية «وردان الجزّار» (٦٨)، وهي في زمن الحاكم بأمر الله، وحكاية « الملك الناصر والولاة الثلاثة» (٦٩)، وحكاية «علاء

الدين والي قوص مع أحد اللصوص» [٧٠]، وحكاية « الرجل البغدادي الذي سافر إلى مصر لأجل ما رآه في الحلم » [٧١]، وفيها يرتحل السرد من بغداد إلى القاهرة، ثم يعود إلى بغداد، وحكاية «الحاكم بأمر الله مع الرجل الكريم » [٧٢]، وحكاية « علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد » [٧٣]، وكما يظهر من عنوان الحكاية، فإنّ الشخصية المصرية فيها ترتحل من القاهرة لتستقرّ ببغداد، وحكاية « جودر ابن التاجر عمر وأخويه » [٧٤]، وحكاية «علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة» [٧٥]، وحوادثها في القاهرة وبغداد، وحكاية « سيف الملوك وبديعة الجمال » [٧٦]، وهي داخلة ضمن حكاية « التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك »، وحكاية « معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة » [٧٧]، وحكاية « الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي » [٧٨].

إذا كانت بغداد في ألف ليلة وليلة قد نالت حظوة كبيرة عند الرّواة، باعتبارها مدينة مركزيّة للسياسة والسطوة والعلم والمعرفة والترف والرفاهية، فإنّ حظّ القاهرة بالرّغم من حكاياتها الكثيرة أقلّ من حظّ بغداد، إذ يصورّها الرّواة على أنّها مدينة « للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل » [٧٩]، ويمكن القول إنها تحتّل المرتبة الثالثة بين فضاءات المدن العربية في ألف ليلة وليلة، بعد بغداد والبصرة، لكنّ هذه المدينة بالرّغم من أنها فضاء للاحتيال بامتياز، فإنّ عليها قسمات وملامح جماليّة غير قليلة، فهي قريبة إلى القلب وعزيزة على النفس، وفضاء لمتعة العين والقلب: « فليس على وجه الأرض أحسن منها » [٨٠]. ومن ملامحها: أنّ الحياة فيها طيّبة، وأنها تجمع كل ما تطمع إليه ملذّات النفس البشريّة، التقيّة والمارقة، وسكانها محلّ صدق، كما يذكر أحد الشعراء[٨١]:

أأرحل من مصر وطيب نعيمها ... وأي مكان بعدها لي شائق؟
بلاد تشوق العين و القلب بهجة ... وتجمع ما يهوى تقي ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم ... مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى ... فثمّ عهود بيننا ومواثق.

ومن صفاتها، أنها « مدينة مصر المحروسة » [٨٢]، و« مدينة مصر السعيدة » [٨٣]، والمدينة التي يقصدها الراوي هنا، هي القاهرة تحديدًا. والقاهرة في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مدينة تجاريّة مزدهرة، وتجّارها أثرياء مترفون حتى التخمة: « كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تُحصى».[٨٤] لكنّ الرّاوي العاشق لبغداد ذات الشهرة التجاريّة التي لا تُضاهى، لا يستطيع أن يتخلّص من سحرها وجاذبيتها، وهو يصف ثراء التّجار في القاهرة، بل يؤكّد أنهم يعودون بجذورهم إلى أصول بغدادية. فالتاجر المصري الغني صاحب الأموال التي لا تحصى «كان اسمه حسنًا الجوهري البغدادي ».[٨٥]

ومن مظاهر ثراء التّجار في مصر وأبّهتهم، ما نقرأه عن شمس الدين والد علاء الدين أبي الشامات، فهو « صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير».[٨٦] وما يُلاحظ على أولاد هؤلاء التّجار أنّ فضاء القاهرة بكلّ شساعته وجمال نسائه لا يغريهم بدوام العيش فيه، فابن التاجر حسن البغدادي، المدعو بـ «علي المصري»، وعلاء الدين أبو الشامات ابن التاجر شمس الدين، يرفضان العيش في القاهرة بالرغم من ثرائها الأسطوري، ويرتحلان إلى بغداد المركز ليستقرّا هناك بقيّة حياتهما. وهذا الارتحال عائد إلى أضواء الشهرة والثراء التي عاشتها بغداد المركزيّة.

ويقدّم الرّاوي تجّار مصر في صورة مليئة بالكرم، وبخاصة في علاقاتهم المتميّزة مع رجال السلطة. فها هو أحد تجّار مصر الأثرياء الذي يملك مائة جارية،[٨٧] يكرم الخليفة الحاكم بأمر الله وجنوده، عندما ينزلون في بستانه، ويطعمهم جميعًا مما أرسلته إليه جواريه المائة من طعام، إذ أخرج الرجل: « مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبديّة ملأى بالشرابات السكريّة» [٨٨]، ثم قدّمها للخليفة وحرّاسه. ويقول الرّاوي:[٨٩] إنّ الخليفة الحاكم بأمر الله سجد « شكرًا لله تعالى وقال: الحمد لله الذي جعل في رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، من فاضل طعامه» .

وصعايدة مصر هم الآخرون كرماء في ألف ليلة وليلة، ويذكر الرّاوي أن متولّي القاهرة الأمير شجاع الدين محمد نزل وأعوانه عند رجل من أهل الصعيد، وباتوا عنده، فأكرمهم خير إكرام، وقدّم لهم كل ما يليق بهم[٩٠].

إنّ صورة رجال مصر الكرماء في الليالي لها خلفيّة تاريخيّة واقعية تسجّلها بعض المصادر التاريخيّة والاجتماعيّة، إذ يذكر ابن خلدون[٩١] أنّ أهل مصر « أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار» . ويتعاطف الرّاوي مع رجال مصر، وبطبيعة الحال يفضّلهم على رجال الإفرنج، انطلاقًا من أيديولوجيته الإسلاميّة، ويدفع نساء رجال الإفرنج إلى ترك أزواجهنّ محبّة برجال مصر، ففي حكاية « الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي»، يتزوّج أحد رجال الصعيد امرأة إفرنجية جميلة، من سبايا نساء الإفرنج -أيام الحروب الصليبية- وعندما تُعقد الهدنة بين المسلمين والإفرنج لتبادل سبايا الطرفين وفقًا لمعاهدات وقف الحرب، يُحضرون المرأة الإفرنجية، ويسألها رسول ملك الإفرنج، بحضور الملك الناصر وزوجها الصعيدي: « أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك فقد فكّ الله أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وتزوّجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بي، فقال الرسول: أيُما أحبّ إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟ فقالت كما قالت للسلطان » [٩٢].

أمّا الصورة النقيضة لصورة ثراء التجار الفاحش في القاهرة، فهي صورة المهمّشين اقتصاديًا وماليًا، فمقابل الثراء الفاحش هناك الفقر المدقع، فأرباب المهن الدونيّة يتضوّرون جوعًا، مقارنة بالتجار الأثرياء، ولعلّ صورة معروف الإسكافي تجسّد حال هؤلاء المهمّشين، فقد « قعد في الدكان إلى نصف النهار، فلم يأته شغل [و] لم يكن

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

معه من حقّ الخبز شيء ثم إنه مرّ على دكان الكنافي ووقف باهتًا واغرورقت عيناه بالدموع »[٩٣].

إنّ دراسة نصوص الليالي المتباعدة في الزمان والمكان، والعادات والطباع والأخلاق، من شأنها أن تجعل الباحث لا يركن إلى نتائج دقيقة وثابتة أو متشابهة، لأنّ رواة الليالي المتعددين متناقضون في رؤيتهم للحياة بعلاقاتها وقيمها، وكذلك نجد أنّ المدن والشخوص التي يصفونها، هي الأخرى مليئة بالتناقض أيضًا. وربما قد تكون ثمّة قواسم مشتركة بين الحكايات من حيث الأحداث والغايات، من جهة، وبين ملامح الشخوص ورؤيتها من جهة أخرى، لكنّ هذه القواسم تظلّ قابلة لشروخ وثغرات عديدة. ومن هذه الثغرات يبرز المتغاير، فإذا كان أحد الرّواة قد وقف مع الأمراء والأميرات، والأبطال التجار المغامرين، وحقّق لهم كل ما يطمحون إليه، فإنّ راويًا آخر وقف مع إسكافي فقير (معروف الإسكافي)، ونقله من حيّه الفقير بمصر، إلى مدينة (اختيان الختن)، وأكرمه وسخّر له خاتم «شبيك لبيك أنا بين يديك »، ثم جعله ملكًا على مدينة (اختيان الختن)[٩٤]. وإذا كان راوٍ آخر قد رأى أنّ المرأة شرّ مطلق، فهي الزانية في طبعها، والماكرة في حياتها، فإنّ راويًا آخر قد رآها مليئة بالنبل والكرم والطهارة.

وإذا كان أحد رواة ألف ليلة وليلة يذكر أنه « كان في مصر سلطان عدل وإحسان»[٩٥]، فإنّ راويًا آخر، انطلاقًا من فكرة الثنائيات الضدّية التي يركّز عليها معظم رواة ألف ليلة وليلة، يذكر أنه كان في مصر ملك يسمى شمس الدولة، يعذّب الناس ظلمًا، ويغتصب ممتلكاتهم قهرًا، إذ أرسل هذا الملك «إلى أخوي جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، (...) وأخذ الخرجين منهما ووضعهما في السجن»[٩٦]. وإذا كان ظلم الحكام مستشريًا في مصر، شأنها شأن كل مدن ألف ليلة وليلة وبلدانها، فإنّ هذا لا يمنع من أن تكون هناك شريحة تنتمي إلى السلطة، وتتحلّى بالكرم والنبل، ويؤلمها ما يعاني منه المظلومون والبؤساء في مصر، وهذا ما نلمسه في حكاية: « معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة »، إذ إنّ القاضي فطن إلى مكر زوجة معروف الإسكافي، فأنصفه منها، وتصدّق عليه: « وكان ذلك القاضي من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار»[٩٧]. ولا يعني إذا كان هذا القاضي عادلاً، أنّ أعوانه عادلون، بل هم ظلمة، مثلهم مثل طبقة الحاشية التي تحيط بالرجل السلطوي الكبير في الليالي، سواء أكان خليفة أم سلطانًا، أم قاضيًا أم وزيرًا، إذ يذكر الراوي في الحكاية السابقة أن رسل القاضي، بعد أن أفرج هذا عن معروف الإسكافي، ذهبوا ليأخذوا منه أتاوة غصبًا، على الرغم من أنه بريء ومظلوم: «وإذا بالرسل أتوا إليه وقالوا له: هات خدمتنا؟ فقال لهم: إنّ القاضي لم يأخذ مني شيئًا بل أعطاني ربع دينار. فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضي أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهرًا عنك»[٩٨].

ومن الملامح الاجتماعيّة في قاهرة ألف ليلة وليلة: ملمح المرأة الشريرة والمتعهّرة والشاذّة جنسيًا، وربما يكون هذا الملمح أهم ملمح لنساء ألف ليلة وليلة بعامة، ولنساء القاهرة بخاصة، «وشيء طبيعي أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة في الليالي هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت في تعقيده وسفكه للدماء»[٩٩].

وتمثّل فاطمة العرّة، في حكاية « معروف الإسكافي »، المرأة في أبشع صورها الشريرة والمحتالة. فقد كانت، كما يقول الرّاوي:[١٠٠] «فاجرة شرّانيّة قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمة على زوجها، وفي كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة».

ومن صور هذه المرأة الشريرة، شراهتها في طلب الطعام، وإصرارها على أن يجلب لها زوجها كنافة خاصة بعسل النحل، وعندما لم يجد في المدينة إلاّ كنافة بعسل القصب اضطرّ أن يحضرها، وعند ذلك انفجرت زوجته شرًا وسفهًا: « وغضبت عليه وضربته بها في وجهه وقالت له: قم يا مغفّل هات لي غيرها، ولكمته في صدغه، فخلعت سنًا من أسنانه ونزل الدم على صدره (...) وقبضت على لحيته»[١٠١]. ولم تكتف هذه المرأة بذلك بل حاكت له مكيدة كادت تودي به، لأنه لم يستطع أن يشبع رغباتها المسعورة في الحصول على الحلوى الفاخرة غالية الثمن، إذ إنها ربطت رباطًا على ذراعها ولوّثت ثيابها بالدم، وذهبت باكية إلى القاضي مدّعية أن زوجها معروف الإسكافي ضربها، وكسر ذراعها وقلع سنّها.[١٠٢] وعندما يصلحهما القاضي تذهب إلى قاضٍ آخر وتشكو زوجها، مدّعية أنّه ضربها للمرّة الثانية.[١٠٣] فيصلحهما القاضي، وعندما يعجز الزوج عن شراء الحلوى تصمّم على الانتقام منه وإذلاله، فتذهب إلى الباب العالي لتشكو زوجها للمرة الثالثة.[١٠٤] فما كان من هذا الزوج المخذول إلاّ أن ترك القاهرة هاربًا منها إلى مدينة أسطورية بعيدة اسمها «اختيان الختن»[١٠٥].

وتمعن بعض نساء القاهرة، في ألف ليلة وليلة، في التهتك والشذوذ الجنسيّ، الذي يصل إلى حدّ ممارسة الجنس مع الحيوانات، فها هي المرأة في حكاية «وردان الجزّار» . لا يذكر الراوي اسمًا لها. تلوذ بجسد دبّ ضخم في دهليز بعيد عن القاهرة، وتشتري كل يوم خروفًا من وردان الجزّار، وتطعمه لهذا الدبّ. يصف الرّاوي حالتها مع هذا الدبّ: «فلما فرغت [من إطعامه] أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل وحطّت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدبّ بطاسة من ذهب، حتى حصلت لها نشوة السكر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدبّ وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم، حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقعها. ولما فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتى فعل فيها عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشيًا عليه، وصارا لا يتحركان»[١٠٦]

قد يبدو الفعل الجنسي هنا أسطوريًا في عدد مرّاته، وفي الفضاء الواقع فيه (فضاء الدهليز)، لكنه ليس مستحيلاً، من حيث كونه تعبيرًا عن إحدى حالات الشذوذ التي لم تسلم منها أية مدينة من المدن العربية الإسلاميّة، إذ شهدت العلاقات الجنسيّة انحرافًا، و« زحف الشذوذ الجنسيّ على المجتمعات العربية»[١٠٧]،

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وعلى الرغم من محاربة الفقهاء والمتشدّدين، للشذوذ الجنسيّ في المدينة الإسلاميّة، إلاّ أنّه « استمرّ رغم كل المراقبة والتحذيرات » [١٠٨].

ويبدو أنّ مدينة القاهرة في أزمنة الليالي كانت أكثر المدن فضاءً للحريّات والعلاقات الجنسيّة، ويبدو أنّ سلطاتها في تلك الأزمنة كانت غير صارمة في تطبيق الحدود على العلاقات الجنسيّة، أو هي غير قادرة على تطبيقها، نظرًا للكمّ الكثير من الأجناس البشرية التي وفدت إلى القاهرة.[١٠٩] وهنا تتشابه القاهرة مع بغداد إلى حدّ بعيد من حيث الجنسيّات المتعددة التي دخلتها عبر التاريخ.

ويُلاحظ أن الشخوص إذا ما تعرّضت في بعض مدن ألف ليلة وليلة إلى الكبت والحرمان الجنسيّ، فإنها تهرب من مدنها إلى فضاء مصر لتحقيق لذّاتها الجنسيّة، كما في حكاية « داء غلبة الشهوة عند النساء ودواؤها»، إذ تَوْلَع إحدى الشابات الأميرات بنكاح قرد، وعندما يكتشف والدها السلطان أمرها، يقرّر أن يقتلها خوف الفضيحة، فتهرب مع قردها إلى فضاء مصر الآمن لتحقيق الفعل الجنسيّ الشاذ معه: « فتزيّت بزيّ المماليك وركبت فرسًا وأخذت لها بغلاً حمّلته من الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت به مصر، فنزلت في بعض بيوت الصحراء» [١١٠]. ولا يقصد الراوي بالصحراء تلك البعيدة عن مصر، بل يقصد الفضاء المحيط بمدينة القاهرة، والبعيد نسبيًا عن الازدحام، لأنّ هذه الأميرة كانت تشتري كل يوم « لحمًا من شاب جزّار.» [١١١]. هذا إذا عرفنا أنّ المرافق التجاريّة في تلك الأيام لم تكن موجودة في الصحراء، باستثناء بعض الخانات التي شكّلت محطّات استراحة على الطرق الصحراوية، التي تربط بين المدن.

ونساء القاهرة متحررات وجريئات، إذ يخرجن إلى الأسواق ويلتقين بالرجال، ويبدو هذا طبيعيًا في مدينة تغصّ أسواقها بالازدحام، ويلتقي فيها الرجال بالنساء، من دون كبير عناء، فـ «تزاحم البشر في القاهرة [عبر تاريخها الطويل] يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً.»[١١٢]. ويبدو أنّ مظاهر الترف التي عرفتها بعض أسر القاهرة الأرستقراطية، دفعت هاته النسوة للتحرّر، والاحتكاك بالرجال، والخروج من فضاءات المنازل إلى فضاءات المتاجر والأسواق المزدحمة بالمارين من الجنسيّات المتعددة.[١١٣]

وتشير حكاية «النصراني لملك الصين» الداخلة ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين» إلى أنّ إحدى نساء القاهرة الجميلات المتحرّرات التقت بتاجر بغدادي شاب في سوق «قيصرية جرجس» بالقاهرة، وسرعان ما أعلنت له حبّها، وواعدته على اللقاء بمنزلها، المليء جمالاً وأبّهة، بحي الحبّانيّة. يصف الراوي لقاءهما بمنزل المرأة: «لم أشعر إلاّ و الصبية أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدرّ والجوهر، فلما رأتني تبسّمت وحضنتني ووضعتني على صدرها، وجعلت فمها على فمي وجعلت تمصّ لساني وأنا كذلك (...) وتمكن حبّها عندي وهان عليّ جميع المال. ثم أخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى أن أتى الليل.. » [١١٤].

ويسجّل التاريخ بعضًا من ملامح نساء مصر المتحرّرات واللواتي يخرجن إلى الأسواق بحرّية[١١٥]، من دون أن يثير خروجهن حفيظة مجتمعهن وأزواجهن وإخوتهن وآبائهن. وعلى ما يبدو كان هذا الخروج الحرّ مثيرًا ومغريًا للطامعين والمغامرين بغزو البلدان واغتصابها، ودافعًا لغزو مصر، إضافة إلى ذلك حالة الترف والبطر التي عاشتها مصر، والتي كانت هي الأخرى مغرية للاندماج فيها، ولحصاد نعيمها. ويروي تقي الدين أحمد بن علي المقريزي[١١٦] الخبر الآتي: « أرسل أحد المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار. فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار. وكانت السيدة ابنة الإخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعزّ» . فما كان من المعزّ لدين الله الفاطمي، إلاّ أن أغرته هذه الحكاية، فاستدعى الشيوخ، وطلب من التاجر أن يحكي لهم الحكاية، وعندما قرّر أن يغزو مصر قائلاً:[١١٧] « يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فإنّ القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها وما هذا إلاّ من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم[١١٨] فانهضوا لمسيرنا إليهم» . فأجاب الشيوخ: « سمعًا وطاعة».

وإذا أخذنا بصحّة هذا الخبر، فإنّه يمكن اعتبار أنّ إيديولوجيا غزو مصر من قبل المعزّ لدين الله كانت تستتر خلف نوايا عدوانية مبيّتة، تطمح لتحقيق مكاسب خاصة، يحققها احتلال مصر، هذا البلد الذي يعني بالنسبة للمعزّ الرفاهية وملذّات العيش، وفضاء حرًا تحقق النفس فيه ما تصبو إليه من ثراء وامتلاك وملذّات لا يستطيع فضاء القيروان أن يحققها للمعزّ وقادته وأركان دولته. وإذا كانت جيوش المعزّ لدين الله زحفت من القيروان إلى مصر واستطاعت أن تحتلها، فإنّ هذا الاحتلال لم يكن ناتجًا عن ضعف نفوس رجال مصر، ولم يكن ناتجًا عن الحريات الاجتماعيّة العامة التي أعطت المرأة نوعًا من الاستقلالية في تصرفاتها، بعيدًا عن سلطة الرجال وجبروتهم، بل لأن سياسة الغزو كانت مهيّأة نفسيًا لأن ترى في مصر فضاء جميلاً، تتحقّق فيه أحلام الغزاة الجامحة صوب الرفاهية وامتلاك الأموال والابتناء بالجواري، إضافة إلى ذلك الاستعدادات الحربية لجيش غازٍ ضخمٍ «بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهّزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يُحصى من الخيول التي حُمّلت بالفضّة والمؤن والذخائر» [١١٩].

وإذا كانت مصر في بعض حكايات الليالي فضاء حرًا تتحقق فيه حرية الفعل الجنسيّ، باعتباره فضاءً مفتوحًا على الموبقات والمعاصي . وهي في هذا تشبه بغداد إلى حد بعيد، بل هي تفوقها. فإنه من الطبيعي أن يكون من بين هذه المعاصي شرب الخمرة. ففي حكاية « الملك الناصر وولاته الثلاثة »[١٢٠]، يعترف والي القاهرة للملك الناصر بأن رجلين من رجال سلطته القضائية كانا ولعين بالخمرة، وما استطاع أن يضبطهما متلبّسين بالجرم، عندها احتال عليهما، وعندما ضبطهما عفا عنهما مقابل تقديمهما له رشوة

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

مالية[١٢١]، على أنّ والي القاهرة لم يكن معنيًا في الحكاية بمنع الناس من شرب الخمرة،[١٢٢] لأنه كان هناك دكاكين « للخمارين »[١٢٣]، كما تذكر الحكاية، بل كان همّه أن يضبط هذين الرجلين من رجال سلطته، حتى ينتقم منهما[١٢٤]، من دون الآخرين، ويقدّمهما إلى القضاء.

وفي حكاية «النصراني لملك الصين» يرتحل بطل الحكاية، وهو شاب بغدادي، -لا يذكر الراوي اسمًا لهذا الشاب- إلى القاهرة، وينزل في أحد الخانات بحي « بين القصرين»، ويبيع تجارته، ويمعن في ملذّات الطعام والشراب: « وأقمت أيامًا كل يوم أفطر على قدح الشراب وأُحْضِر اللحم الضاني والحلويات » [١٢٥]. وعندما يتعرّف إلى إحدى السيدات القاهريات الثريات، فإنها تدعوه إلى منزلها، وهناك يغيبان في حمّى الشراب والجنس كل ليلة: «فقدّمت لنا الجواري الطعام والمدام فإذا هي حضرة كاملة فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا، ونمنا فنمت معها إلى الصباح، فما رأيت عمري مثل هذه الليلة » [١٢٦].

ونظرًا لثراء القوم وبطرهم في القاهرة، وميلهم إلى اللذائذ والمتع، فإنّ حفلات شرابهم تكون عامرة بالطعام الفاخر. ويصف الرّاوي العشاء الذي أعدّه الشاب التاجر البغدادي، وأرسله إلى عشيقته القاهرية: « وجهّزت العشاء، فعملت جوزًا ولوزًا وتحتها أرز مفلفل، (...) وأخذت فاكهة ونقلاً ومشمشًا وأرسلتها » [١٢٧]. وإذا كانت عشيقة هذا الشاب (القاهرية) في إحدى صفاتها مخلّة بالعرف الاجتماعيّ باعتبارها هي الباحثة عن الرجال، الطالبة لهم، والفاعلة في علاقاتها الجنسيّة، لأنها هي التي تطلب من الشاب تحقيقها، وهي التي تبتزّه، لأنها تقبض منه بعد كل لقاء جسدي «خمسين دينارًا» [١٢٨]، فإنها، وعندما يفتقر هذا الشاب ويصرف كل أمواله عليها، تبدي نبلاً عميقًا وأخلاقًا كريمة، إذ تعيد له كل أمواله، وتملّكه كل أموالها، وتتزوّجه حلالاً. يقول الشاب[١٢٩]: « وأرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم اكتبوا كتابي على هذا الشاب واشهدوا أني قبضت المهر، فكتبوا كتابي عليها ثم قالت: اشهدوا أنّ جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب فشهدوا عليها، وقبلت أنا التمليك وانصرفوا بعدما أخذوا الأجرة، ثم أخذتني من يدي وأوقفتني على خزانة وفتحت صندوقًا كبيرًا، وقالت لي انظر هذا الذي في الصندوق، فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت هذا مالك الذي أخذته منك (...) فخذ مالك فقد ردّه الله عليك» .

إنّ هذا الملمح النبيل لصورة الأنثى في الليالي لا يتكرّر كثيرًا، لأنّ الغالبية العظمى من نساء الليالي محتالات وداعرات، ومبتزّات لأموال الرجال، وهذا ما تثبته البنية الفكرية والإيديولوجية لمجمل الرّواة الذين أضفوا على نساء الليالي مزيدًا من الدونية والمكر والخداع ونقص العقل.[١٣٠]

ومن وجوه القاهرة في ألف ليلة وليلة: وجه الاحتيال واللصوصية، وهو الوجه الأبرز لهذه المدينة، فهناك المرأة المحتالة، وهناك الرجل المحتال، سواء أكان لصًا أم فقيرًا صعلوكًا، أم ملكًا كبيرًا.

ومن لصوص القاهرة المحتالين، ما ذكره الراوي في حكاية «الملك الناصر وولاته الثلاثة»، فبينما كان والي بولاق يومًا من الأيام جالسًا في داره مهمومًا، من جرّاء دَين أصابه: « ثلاثمائة ألف دينار »[١٣١]، وإذا بمجموعة من اللصوص يطرقون بابه، ويقولون له[١٣٢]: « إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدَّين الذي عليك» . فما كان من الوالي إلاّ أنّ قدّر الموقف الذي عدّه كريماً من هؤلاء اللصوص، وأعطاهم المئة ألف دينار، التي كان قد ادّخرها لرد دينه، كما يذكر الراوي[١٣٣]، معتبراً أنّ هذا المبلغ جزء من ثمن هذه الغنيمة التي ظنّ أنها كافية لردّ كل ديونه، إلاّ أنّ اللصوص لم يكونوا أصحاب مروءة، فهم مجرّد لصوص محترفين[١٣٤]، ومحتالين مهرة. وتنطلي الحيلة على والي بولاق، ويفاجئنا راوي الحكاية بمكوّنات هذه الغنيمة، على لسان الوالي نفسه: «فلما أصبح الصباح رأيت ما في الصندوق نحاسًا مطليًا بالذّهب والقصدير يساوي كله خمسمائة درهم. فعظم عليّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي، وازددت غمًا على غمّي»[١٣٥].

ويبقى سرد الراوي لهذه الحكاية ليس بريئًا، و« ليست هناك حكايات بريئة »[١٣٦] في ألف ليلة وليلة، فهذا الراوي يُدين بشكل غير مباشر سلوك والي بولاق المتعاطف مع الظّلمة في مدينته من جهة، يشير من جهة أخرى إلى الجهل الذي تغرق فيه السلطة، فبدلاً من أن يقبض الوالي على هؤلاء اللصوص، ويردّ ما سرقوه إلى أصحابه، ويكشف ما في الصندوق قبل ذهابهم، فإنه يعطيهم مائة الألف دينار، ويتركهم يمضون «تحت الليل إلى حال سبيلهم، ولم يعلم بهم أحد»[١٣٧].

وقد كان فقراء القاهرة في الليالي قادرين أيضًا، على حبك الحيلة في أعلى تقنياتها. فها هو معروف الإسكافي، بعد أن يهرب من القاهرة ويلجأ إلى «اختيان الختن»، يمارس الاحتيال ويدّعي أنه تاجر ثري كبير، وأنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل بعد أيام إلى المدينة، ويصدّقه الناس، ويقرضونه « ستين ألف دينار»[١٣٨]، ويوهم الناس بأنّ أمواله الكثيرة جدًا القادمة مع الحملة قادرة على تبديد فقر المدينة، فيقوم بتوزيع المبلغ الذي اقترضه على فقراء المدينة[١٣٩]، ومن ثمَّ لتكون هذه الحيلة طريقًا إلى كسب ودّ الملك، فما كان من الملك إلاّ أن قرّبه، ورغب في تزويجه ابنته الجميلة[١٤٠]. ووفق النسق السحريّ الذي يحكم بنية السرد والفضاءات المكانية، التي يرتحل إليها السرد، يضفي الراوي على سلوك معروف الإسكافي هالة من الثراء الأسطوري، فيبدأ بتشكيل حالات من التخيّل الكاذبة، تقوم بدورها في حبك حيلة جديدة على الملك وابنته، إذ يدّعي أنه سيقدّم لابنة الملك مهرًا يليق بمكانتها السياسيّة والاجتماعيّة. يقول معروف الإسكافي[١٤١]: «لابدّ أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس،

وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزّقة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم؟ وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجواري والخدم، فأعطي كل واحدة جوهرة تعظيمًا لمقام العروسة؟ وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء ».

إنّ هذا التخيّل السحريّ الخارق، الذي يحلم به رجل إسكافي فقير، هو بنية تتكرر في غير حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فعندما يجد هذا الفقير أنّ الواقع الذي يعايشه لا يحقق ما يصبو إليه، فإنه يتحايل على من حوله، ويضفي على حيلته تخيّلات لا تتحقّق إلاّ بالمصادفات الغرائبية السحريّة الموجودة في ألف ليلة وليلة، فـ «في النصوص العجائبية -وألف ليلة وليلة من أهمها- يروي المؤلف أحداثًا غير قابلة للوقوع في الحياة»[١٤٢]. وطالما أنّ الراوي الشعبي يعايش واقعًا أسود، ويتموضع في طبقة دونية مهمّشة منه، فإنه شكّل بطلاً شعبيًا كمعروف الإسكافي، جعله يتجاوز هذه الطبقة الدونية وفق عمليات التخيّل، وصولاً إلى الطبقة العليا، والزواج بإحدى نسائها، وحمّل هذا البطل أحلامه الملغاة وأوهامه التي يستحيل أن تتحقق في واقعه الأسود، ففي الأدب الشعبي «سبق لأقدم الشعوب بحقّ أن حقّقت رغباتها في حكاياتها، وهي تلك الرغبات التي لم تظفر بتحقيقها قطّ في الحياة»[١٤٣].

ويبقى فضاء مصر من أهم الفضاءات المكانية التي يعتمد فيها الناس، من خلال علاقاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، على الحيلة لتحقيق مآربهم. وعلى الرغم من أنّ بغداد كانت حقلاً خصباً للشطّار والمحتالين، إلاّ أن القاهرة فاقتها في خبرات الاحتيال في بعض الأحيان، فها هو علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري يأتي إلى القاهرة، وعندما يصل إلى مدينة بغداد يحتال على بوّاب مدينتها وعلى سكانها مدّعيًا أنه تاجر كبير، ويوهمهم أنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل إلى بغداد بعد أيام قليلة[١٤٤]، وها هو علي الزيبق المصري يبزّ كل محتالي بغداد، ويتفوّق على حيلهم بحيل أشدّ ذكاء ومهارة منها.[١٤٥]

لقد كان « القصاصون العرب [في ألف ليلة وليلة] مدينين للمصريين بأعمال اللصوص الماكرة وبالحيل »[١٤٦]. وقد ظهرت معظم أشكال المكر والاحتيال في كل مدن ألف ليلة وليلة . العربية وغير العربية . وبخاصة في مدينتي القاهرة وبغداد. ولم تقتصر الحيلة على مذهب دون آخر، فهي عند المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وهم مواطنو مدن ألف ليلة وليلة. وقد تورّط فيها أهم ملوك مصر في الليالي، وهو الملك الناصر (أشهر سلاطين المماليك)، إذ احتال هذا الملك على وزيره، أبي عامر بن مروان، لكي يأخذ منه غلاماً جميلاً من غلمان النصارى كان قد أُهدي إليه، وبعد أن يأخذه حيلة، يشي أعداء أبي عامر عند الملك الناصر بأنّ «عنده من الغلام بقية حرارة وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول فيقرع السنّ على إهداء الغلام»[١٤٧]. وعندما سمع الملك الناصر هذه الوشاية قرر أن ينتقم من وزيره أبي عامر، بعد أن يحتال عليه ليكشف مدى إخلاصه وولائه له، بكتابة رسالة مزوّرة عن لسان الغلام، يطلب فيها من مولاه الوزير أن يتحايل في استدعائه من عند الملك، لأنه لا يطيق الصبر على مفارقته، وأنّه غير راغب بالبقاء في دار الناصر، لكن الوزير وبفطنته السياسيّة اكتشف أنّ هذه الرسالة ما هي إلاّ مكيدة من الملك لاكتشاف مدى إخلاصه، فأخذ رسالة الغلام، وكتب على ظهرها هذه الأبيات:[١٤٨]

أمن بعد أحكام التجارب ينبغي	لذي الحزم أن يسعى إلى غابة الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحبّ عقله	ولا جاهل ما يدّعيه أولو الحسد
فإن كنت روحي قد وهبتك طائعًا	وكيف تردّ الروح إن فارقت جسدي.

ويتابع الراوي قائلاً:[١٤٩] «فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته ولم يعد إلى استماع واشٍ فيه بعد ذلك».

وقد كان ملوك مدن الليالي، سواء أكانت عربيّة أم أجنبيّة، يستشيرون ويقرّبون أصحاب الحيل الأذكياء، وعندما يجدون أنفسهم عاجزين عن حلّ مشكلة معيّنة، فقد كانوا يأخذون بآرائهم، وبخاصة آراء العجائز الماكرات اللواتي يفقن رجال زمانهنّ مكراً ودهاءً وخبرةً معرفيّة. فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك أفريدون ملك القسطنطينية، عندما تهزمه الجيوش الإسلاميّة -جيوش الملك شركان حاكم دمشق، وأخيه ضوء المكان حاكم بغداد- يلجأ إلى العجوز شواهي ذات الدواهي (أم حليفه الملك حردوب)، لكي تخطط له كيف يحارب ويحتال على الجيوش الإسلاميّة،[١٥٠] أي أنّ أصحاب الحيل والمكر والمكيدة -في الليالي- لم يكونوا يحتالون من أجل كسب العيش، أو إشباع شهواتهم الجنسيّة، أو من أجل الحصول على منصب يقرّبهم من السلطان فحسب، بل كانت لديهم معارفهم في خطط الحروب العسكرية، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة، لما يجري في مدنهم، وعلاقاتها الطبقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وقد تعلّموا الحيلة وأتقنوها وتفننوا في حبكها.

إنّ القاهرة التي تبدو واقعية في الليالي تمتزج بكثير من اللوحات السحريّة، والتخيّليّة[١٥١]، التي أضفاها الرواة عليها، وهذه حال معظم مدن الليالي. فالمدينة الواقعيّة لا تتشكّل من فضاءاتها وعاداتها وملامحها التاريخيّة الواقعية فحسب، بل توغل بعيدًا في السحر والخرافة إذا ما رأى الرّواة أنّ ثمّة ضرورة لهذا السحر، لأنّ الحدث الواقعي لا ينمو مكتفيًا بذاته في مدن الليالي، بل يحتاج إلى حوافز سحريّة لاستكمال بنائه.

ويحفل الفضاء السحريّ للقاهرة، في حكايات الليالي، بالجان وبأولاد ملوك الجان. ومن ملامح العوالم التخيّليّة والسحريّة التي تحتفي بالجان والعفاريت ما يسجّله الراوي في حكاية «معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة»، فعندما يهرب معروف من شرّ زوجته وظلمها يجلس باكيًا عند إحدى الدور الخربة المهجورة بحي العادلية، وإذا بحائط الدار ينشقّ، ويبرز منه مارد «طويل القامة

رؤيته تقشعر منها الأبدان »[١٥٢]، ويطلب منه أن يخبره بقصته حتى يساعده، وعندما يعرف قصّته مع زوجته يقول له[١٥٣]: «أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقًا؟ قال له: نعم. قال: اركب فوق ظهري. فركب وحمله وطار به بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبل عالٍ». ولأنّ معروفًا الإسكافي يعيش في فضاء شعبي مصري يؤمن بالسحر والقدرات الخارقة للجان والعفاريت، فإنّ الرّاوي - في ما بعد- يقدّم له كل الحوافز (الموتيفات) السحريّة التي تجعله غنيًا في مدينة «اختيان الختن» الأسطورية، ثم ملكًا عليها، إذ يقدّم له كنزًا أسطوريًا في طريق رجوعه من «اختيان الختن»، بعد أن هبطت عليه المواجع والأحزان. ويذكر الراوي أنه بينما كان عائدًا شاهد رجلاً مسكينًا يحرث أرضه في إحدى القرى الصغيرة، فعرض عليه أن يساعده في الحراثة، ومن خلال حراثته وجد كنزًا كبيرًا غاصًا بالأموال والجواهر الثمينة.[١٥٤]

إنّ الراوي الشعبي، وهو يقدّم هذا الكنز الكبير لبطله معروف الإسكافي، لن يعرّضه لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، وهو في طريق عودته إلى «اختيان الختن»، بل سيقدّم له -حتى تصل الحكاية إلى ذروتها- حرّاسًا لهذا الكنز، ولأنّ حراس هذا الكنز الكبير قد يعجزون عن الدفاع عنه، فيما إذا كانوا بشرًا عاديين، فإنه وفقًا للنسق السحريّ الغرائبي، سيقدّم له خاتمًا سحريًا يخدمه مارد من الجان[١٥٥]، وستسهم هذه الأداة السحريّة في نمو الحكاية، لأنّها ستعيد معروفًا الإسكافي إلى مدينة «اختيان الختن» مكللاً بالمال والمنعة، ومن شأن هذه الأداة السحريّة أنّها تساعد البطل «في النهاية [على] التخلص من سوء الطالع، ولكن قبل استلام الأداة السحريّة يصبح البطل عرضة لعدد مختلف من الأحداث التي تؤدّي كلها، على أية حال، إلى نتيجة حصوله على تلك الأداة»[١٥٦]. ولم تسهم هذه الأداة السحريّة في تخليص معروف الإسكافي من سوء طالعه فحسب، بل قذفت به إلى أعلى المراتب الاجتماعيّة والسياسيّة وتوّجته ملكًا على «اختيان الختن»، بعد أن أثبت للناس جميعًا أنّه صادق في ثرائه، وأثبت لوالد زوجته الملك أنه كفؤٌ لابنته الجميلة.

ويتكرّر إسعاف البطل في حكايات ألف ليلة وليلة المصرية بالأداة السحريّة التي تنقله من وضع طبقيّ دوني إلى وضع آخر متميّز، سلطوي وثري، أو تزيل عنه همًا أو ظلماً حلّ به، وبخاصة إذا كان هذا البطل من أفراد الطبقة الشعبيّة، فالراوي في حكاية « جودر وأخويه »، يجعل التاجر المغربي يقدّم لجودر -عندما لقيه في الحجّ- خاتمًا سحريًّا، وذلك بعد أن كان أخواه سالم وسليم قد تآمرا عليه وباعاه إلى رئيس بحر السويس، ولهذا الخاتم خادم من الجان اسمه الرعد القاصف، يقوم بمساندة البطل، ويتكفّل بنقله إلى مصر[١٥٧]، وهنا يمكن القول: إنّه لا غرابة. وفق المنطق السحريّ العجائبي الذي يتحكم في علاقات الأبطال وارتحالاتهم في أن ينقل العفريت- خادم الخاتم السحري- جودر بن عمر من مكّة إلى مصر، لأنّ المعتقد الشعبي «يجعل للجان من القوى والسمات الفائقة ما يقدّمهم على الإنسان ذاته، فلا يعود الإنسان مركز المخلوقات، ولا هو الذي أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلاّ إبليس فقد أبى واستكبر، وإنّما هو أدنى قوة وأقلّ سلطانًا من الجان..»[١٥٨]. وستسهم هذه الأداة السحريّة (الخاتم) في ما بعد[١٥٩]، في أن تقدّم لجودر أجمل امرأة في المدينة، وهي الأميرة آسية بنت الملك شمس الدولة[١٦٠]، وفي تتويجه ملكًا على مصر، بعد أن يموت ملكها شمس الدولة[١٦١].

إذا كان الراوي في بعض الحكايات المصرية لا يقدّم لأبطاله الفقراء الأداة السحريّة التي ستجعلهم يتجاوزون مدنهم ومواطنهم مالاً وسلطة، فإنه لا يحرمهم من الكنوز الأسطورية[١٦٢] التي تجعلهم في مصافِّ الملوك ثراءً. ويبقى تقديم هذه الكنوز لهؤلاء الأبطال المهانين اقتصاديًا، نوعًا من التعويض والسمّو على الواقع الرثّ وتجاوزه بالاتكاء على الحلميّ والتخيّليّ الذي يحقّق الإنسان فيه كل ما يصبو إليه، «ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة المنطلقة يهرب العامّة من مواجهة مشاكلهم ومنها مسألة الحصول على الثروة إلى تخيّلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة »[١٦٣]. إلاّ أنّ الرّاوي، في موضع آخر، قدّم الأداة السحريّة (خاتم شبيك لبيك) إلى البطل الشعبي جودر ابن التاجر عمر، لأنّ زمان الحكاية أسطوري تخيّليّ، وملك مصر في هذا الزمان هو ملك أسطوريّ، واسمه «شمس الدولة»، وهو غير معروف تاريخيًا من بين الملوك الذي حكموا مصر في الدولة الإسلاميّة.

ويُلاحظ أنّ الكنوز في الحكايات المصرية مرصودة بأسماء أبطال مصريين محددين[١٦٤]، ولا يمكن أن تفتح أبوابها إلاّ لهؤلاء الأبطال، وها هو الحاكم بأمر الله يقول[١٦٥] لوردان الجزّار: «إنّ هذا الكنز لا يقدر لأحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصنعتك (...) وهو عندي مؤرّخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع».

إنّ فضاءات مصر في حكاية «جودر ابن التاجر عمر» هي فضاءات سحريّة يسكنها ملوك الجان، ففي بركة «قارون»[١٦٦] يسكن الجان أولاد الملك الأحمر الذين أتوا من فاس[١٦٧]. وهذه البركة مرصودة أيضاً باسم الصياد « جودر »، إذ إنّ ملوك الجان الذين يعيشون على هيئة أسماك في هذه البركة لا يُنتصر عليهم إلاّ بشخص جودر ابن التاجر عمر، باعتباره التعويذة القادرة على فكّ سحرهم، كما يؤكّد الساحر الكهين الأبطن للمغربي عبد الصمد: « فرأيت أن هذا الكنز لا يُفْتَح إلاّ على وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه سيكون سببًا في قبض أولاد الملك الأحمر وذلك الغلام يكون صيادًا، والاجتماع به يكون على بركة قارون ولا ينفعك هذا الرصد إلاّ إذا كان جودر »[١٦٨].

خاتِمَةٌ

هذه هي بعض ملامح مصر والقاهرة في ألف ليلة وليلة، وإن غابت القاهرة في معظم الأحيان تسميةً في الليالي واستُبدلت بمصر، فإنها هي المعنيّة في أغلب الحكايات، لأنّ الرّواة يذكرون أحياء حقيقية عرفتها القاهرة قديمًا، ولا تزال هذه الأحياء تحتفظ بأسمائها حتى وقتنا الراهن. كما أُشير إلى ذلك سابقًا.

إنّ القاهرة مدينة السحر، وهي تحتلّ في الأدب الشعبي مكانة مهمّة ومتميّزة، وهي «البلاد المليئة بالعجائب فحكاياتها الخرافية التي وصلت إلينا قد دُوّنت في (...) أسلوب فني، وهي إلى ذلك تُعدّ ينبوعاً للتراث الشعبي والعقائد القديمة البالغة في القدم. وما يزال بعض هذه الحكايات يعيش في الحكايات الشعبية لدى كثير من الشعوب»[(١٦٩)]. ولا تزال فضاءات القاهرة الشعبية هي الفضاءات العربية الأولى . إذا ما استثنينا فضاءات مدن المغرب التي تضاهيها. المغلّفة بنكهة السحر والأساطير والحيل والتمائم والحُجُب، والأولياء الصالحين، والحشيش والجوزة (النارجيلة)، والمقاهي التي لا تزال تحتفظ بطعم حكايات ألف ليلة وليلة، والنساء اللواتي يقرأن الكفّ ويفتحن المندل، ويغامرن في شعاب الحياة كما الرجال، بل ربما أكثر. ويبدو أنّ هذه المدينة الثّرية البطرة، التي تعاقبت عليها حضارات ومدنيّات وأمم كثيرة، كان لها حظّ وافر من الموسيقى والخمور والجواري والملاهي والنساء. والاحتفالات بأعياد الفرح، وإقامة طقوس لهوها الخاصة،[(١٧٠)] والمعارف والعلوم والطبّ والسحر وفنون الاحتيال.

وكما كانت حكايات مدينة القاهرة وغيرها من مدن ألف ليلة وليلة محكومة بثنائية الواقعيّ والتخيّليّ، فإنّ حكايات القاهرة المعاصرة هي الأخرى لا تزال موشومة بكثير من الواقعيّة السحريّة والتخيّل الغرائبي.[(١٧١)] وأحبّ أن أشير في نهاية هذه الدراسة إلى أنّ القرآن الكريم لم يذكر أي بلد عربي باسمه في كل آياته سوى مكّة ومصر[(١٧٢)]. وإذا كانت مصر في الأدبيات الكلاسيكية وكتب الرحالة مثالاً للرخاء والرفاهية، والدولة المركز العامرة بالحياة، والرافلة بالترّف، كما يذكر ابن خلدون[(١٧٣)] نقلاً عمن تحدّث عنها: « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب، حتى إنّ كثيرًا من الفقراء في المغرب ينزعون إلى النُّقْلَة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أنّ شأن الرَّفْه بمصر أعظم من غيرها»، فإنها لم تسلم من هجاء بعض الشعراء، الذين رأوها دارًا للفسق والبغاء. يقول أحد الشعراء فيها:[(١٧٤)]

مصـــــر دار الفاســــقينا ... تســــــتفزّ الســـــامعينا
فــــإذا شـــاهدتَ شـــاهد ... تَ جنونــــاً ومجونـــــا
وشـــــــيوخاً ونســــــاء ... قـد جعلـنَ الفسـق دينا

الهَوامِشُ:

(١) مؤلف مجهول: **ألف ليلة وليلة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. ٣٢٧/٣.

(٢) حتى، فيليب: **الإسلام منهج حياة**، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار١٩٨٣م. ص١٧١- ١٧٢.

(٣) القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٦٦م، ص٢٣٢.

(٤) يؤكد أحمد حسن الزيّات أنّ حكايات ألف ليلة وليلة جُمِعت بصيغتها النهائية بين عامي (٩٢٣ – ٩٣٣ هـ)، وهما يوافقان عامي (١٥١٧ – ١٥٢٦م). يُنظر: "**ألف ليلة وليلة**" في: "ألف ليلة وليلة"، كتب **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ترجمة إبراهيم خورشيد، ود. عبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، الكتاب العاشر، ص٩١ .

(٥) ماكدونالد، د.ب: "**ألف ليلة وليلة**"، في: "ألف ليلة وليلة"، م ن، ص٣١.

(٦) طرشونة، د. محمود: **مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة**، المطابع الموحدة، تونس، الطبعة الأولى ١٩٨٦م. ص٩٥.

(٧) المرجع نفسه، ص٩٥

(٨) الزيّات، أحمد حسن: "**ألف ليلة وليلة . تاريخ حياتها**". في: **محاضرات المجمع العلمي العربي**، دمشق، طبعة ١٩٥٤م، المجلد الثالث، ص٤٥١.

(٩) **ألف ليلة وليلة**، ٤١٦/٢.

(١٠) المرجع نفسه، ٧١/٣.

(١١) **ألف ليلة وليلة**، ١١٩/٣.

(١٢) المرجع نفسه، ١٢٤/٣.

(١٣) المرجع نفسه، ١٧٢/٣.

(١٤) المرجع نفسه، ١٤٤/٢.

(١٥) لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول ١٩٧٧م. ص٧٠.

(١٦) منيمنة، د. سارة حسن: "**مورفولوجية مدينة دمشق**"، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت/الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر)/ تشرين الثاني(نوفمبر)، ١٩٨٢م. ص٢٤٠.

(١٧) ذكر ياقوت الحموي أن فتحها كان يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠ للهجرة. ينظر: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م): **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٢٦٣/٤.

(١٨) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة الألف الكتاب (الثاني) الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص١١- ١٢.

(١٩) **معجم البلدان**، ٢٦٣/٤.

(٢٠) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص١٢.

(٢١) عن/ **معجم البلدان**، ٢٦٣/٤.

(٢٢) حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٩٥م، ص١٣٥.

(٢٣) حلاّق، د. حسّان: **مدن و شعوب إسلاميّة**، دار الراتب الجامعيّة، بيروت، الطبعة الأولى آذار(مارس)، ١٩٩٢م، ٣٨/١.

(٢٤) نبيل، مصطفى: "**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**"، مجلة الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الرابع، أبريل ١٩٩٣م، ص٨٣.

(٢٥) الصاوي، أحمد: "**القاهرة مجمع أسواق الشرق**"، مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، ليماسول/ قبرص، السنة الخامسة، العدد السابع والخمسون، أيار/ مايو، ١٩٩٠م، ص٧٨.

(٢٦) العلواني، نوري عباس: مراجعة لكتاب: "**دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلاميّة**" لعبد الجبار ناجي، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة الثانية، العدد السابع، ربيع ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣١٠.

(٢٧) حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص١٣٨.

(٢٨) عثمان، د. محمد عبد الستّار: **المدينة الإسلاميّة**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد ١٢٨، الطبعة الأولى، ذو الحجّة ١٤٠٨م/آب (أغسطس)، ١٩٨٨م، ص٩٩. وأخذ عن/ مصطفى، د. نيازي: **القاهرة: دراسات تخطيطية في المرور والنقل والمواصلات**، ص٩ – ١٠، دون أن يذكر دار النشر وتاريخ الطبعة.

(٢٩) حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص١٣٧.

(٣٠) المرجع نفسه، ص١٣٨.

(٣١) نبيل، مصطفى: "**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**"، ص٨٣.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٧٥.

(٣٣) أمّا مدينة بابليون التوراتية القديمة فقد «نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دُعي "قصر الشام". وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن. وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضًا في اتجاه الشمال أثر ظهور "حي العسكر"، وعلى أيدي العباسيّين في القرن الثامن، وحي "القطائع" في القرن التاسع (الميلادي) بجهود الفاطميين. وفي سنة ٩٦٩م تأسست (...) نواة، القاهرة الحديثة إلى الشمال أيضًا وتوسّعت وتحصّنت على يد صلاح الدين الأيوبي». يُنظر: دوب، ب.هـ؛ Dopp, P.H: "**القاهرة كما رآها الرّحالة الغربيون في العصر الوسيط**"، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مجلة دراسات تاريخيّة، جامعة دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان ٤٩/٥٠، آذار/ حزيران ١٩٩٤م، ص٦٤.

(٣٤) المرجع نفسه، ص٦٣.

(٣٥) حلاّق، د. حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، ٣٨/١.

(٣٦) حمدان، د. جمال: "**القاهرة الكبرى: دراسة في جغرافية المدن**"، مقدمة كتاب: القاهرة، لـ: ديزموند ستيورات، ترجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص١٢.

(٣٧) المرجع نفسه، ص١٩.

(٣٨) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص١٥.

(٣٩) المرجع نفسه، ص١٥ – ١٦.

(٤٠) **معجم البلدان**، ٢٦٦/٤.

(٤١) وهذا ما يُلاحظ حتى الآن بين سكان مصر، فالرجل من الإسكندرية أو من المنصورة أو من طنطا أو من الصعيد، وغيرها من مدن مصر، عندما يذهب إلى القاهرة يقول: أنا نازل مصر.

(٤٢) **معجم البلدان**، ٢٦٦/٤.

(٤٣) **معجم البلدان**، ١٣٧/٥. إلاّ أنّ حوادث التاريخ المعاصر تثبت بطلان هذا الرأي، فمصر مثلها مثل كل البلدان المعرّضة للخراب بفعل الكوارث الطبيعية، وما الزلازل والفيضانات التي حدثت في الأعوام العشرة الأخيرة في مصر، والتي فتكت بمئات الناس إلاّ الدليل على بطلان رأي عبد الرحمن بن العاص.

(٤٤) حلاّق، د. حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، ٤٣/١.

(٤٥) عن/ دوب، ب . هـ: "**القاهرة كما رآها الرّحالة الغربيون في العصر الوسيط**"، ص٦٨،٧٠.

(٤٦) ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ترجمة يحي حقّي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص١٣٥.

(٤٧) ثورو، بيتر: "**القاهرة قلب مصر المضيء**"، مجلة الجيل، مؤسسة الجيل للصحافة، باريس، المجلد السادس عشر، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٩٥م، ص١٠.

(٤٨) المرجع نفسه، ص١٤.

(٤٩) المرجع نفسه، ص١٧.

(٥٠) المرجع نفسه، ص١٥.

(٥١) نبيل، مصطفى: "**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**"، ص٧٩.

(٥٢) ميلر، أوغست: Muller, August، عن/أويستروب، ج؛ Oestrup.J: "**ألف ليلة وليلة**"، في: "**ألف ليلة وليلة**"، كتب دائرة المعارف الإسلاميّة، ص١٧. وكذلك: الموسوي، د. محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر: ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي**، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص٨. وكذلك: القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص٨٤.

(٥٣) أويستروب، ج: "**ألف ليلة وليلة**"، م س، ص١٧.

(٥٤) المرجع نفسه، ص٢٨.

(٥٥) الموسوي، د. محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر**، ص٩.

(٥٦) الزيّات، أحمد حسن: "**ألف ليلة وليلة**"، في: "**ألف ليلة وليلة**"، كتب دائرة المعارف الإسلاميّة، ص٨٣.

(٥٧) الموسوي، د. محسن جاسم: م س، ص١١.

(٥٨) القلماوي، د. سهير: م س، ص٨٤.

(٥٩) وذلك في حكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة، ألف ليلة وليلة: ١١٤/٣، وفي حكاية الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي: م ن، ٤٣١/٤.

(٦٠) **ألف ليلة وليلة**، ٩٥/١.

(٦١) المرجع نفسه، ١٣٠/١. ويطلق بعض المصريين المؤمنين بكرامات الأولياء على باب زويلة في هذه الأيام اسم: باب المتوليّ.

(٦٢) **ألف ليلة وليلة**، ٩٠/٤.

(٦٣) م ن، ١٩٥/٤.

(٦٤) م ن، ٣٧٤/٤.

(٦٥) م ن، ٩٣/١.

(٦٦) م ن، ١٢٨/١.

(٦٧) م ن، ٣٤٧/٢.

(٦٨) م ن، ٨٢/٣.

(٦٩) م ن، ١١٤/٣.

(٧٠) م ن، ١١٨/٣.

(٧١) م ن، ١٢٨/٣.

(٧٢) م ن، ١٦٩/٣.

(٧٣) م ن، ٢٠٨/٣.

(٧٤) م ن، ٥٣/٤.

(٧٥) م ن، ١١١/٤.

(٧٦) م ن، ١٨٤/٤.

(٧٧) ألف ليلة وليلة، ٣٧٠/٤.

(٧٨) م ن، ٤٣١/٤.

(٧٩) الزيّات، أحمد حسن: "**ألف ليلة وليلة . تاريخ حياتها**"، في: محاضرات المجمع العلمي العربي، ٤٥١/٣.

(٨٠) ألف ليلة وليلة، ١٤٥/١.

(٨١) م ن، ١٤٥/١.

(٨٢) م ن، ٣٧٠/٤.

(٨٣) م ن، ٣٧٥/٤.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



(٨٤) م ن، ٢٠٨/٣.
(٨٥) **ألف ليلة وليلة**، ٢٠٨/٣.
(٨٦) م ن، ٢٤٧/٢.
(٨٧) م ن، ١٦٩/٣.
(٨٨) م ن، ١٦٩/٣.
(٨٩) م ن، ١٦٩/٣.
(٩٠) م ن، ٤٣١/٤.
(٩١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت.٨٠٨هـ/١٤٠٦م): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق وشرح: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ٨٧٤/٢.
(٩٢) ألف ليلة وليلة، ٤٣٥/٤.
(٩٣) م ن، ٣٧١/٤.
(٩٤) هذا ما تحكيه حكاية "**معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة**"، في المجلد الرابع، من ص٣٧٠ إلى ص٤١٩.
(٩٥) **ألف ليلة وليلة**، ٩٤/١.
(٩٦) **ألف ليلة وليلة**، ٧٨/٤.
(٩٧) م ن، ٣٧٣/٤.
(٩٨) م ن، ٣٧٣/٤.
(٩٩) حمّاد، د. هيام علي: **المرأة في ألف ليلة وليلة**، مكتبة نهضة الشرق/ جامعة القاهرة، القاهرة، طبعة سبتمبر ١٩٧٩م، ص٧٢.
(١٠٠) **ألف ليلة وليلة**، ٣٧٠/٤.
(١٠١) **ألف ليلة وليلة**، ٣٧١/٤.
(١٠٢) م ن، ٣٧٢/٤.
(١٠٣) م ن، ٣٧٣/٤.
(١٠٤) م ن، ٣٧٤/٤.
(١٠٥) م ن، ٣٧٧/٤.
(١٠٦) م ن، ٣/ ٨٣-٨٤.
(١٠٧) بو حديبة، د. عبد الوهّاب: **الإسلام والجنس**، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص٢٧٢.
(١٠٨) م ن، ص٢٣٢.
(١٠٩) تشير الدراسات التاريخيّة إلى أنّ القاهرة كانت غاصّة بالسكان من الجنسيّات المتعددة، فقد "طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكّام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (...) إلى جانب أولئك جميعًا تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش وأكثر من هؤلاء عددًا وتدفقًا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادي، تجري في عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة". ينظر: ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ص١٤١.
(١١٠) **ألف ليلة وليلة**، ٨٦/٣.
(١١١) م ن، ٨٦/٣.
(١١٢) ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ص١٥١.
(١١٣) يقول ابن خلدون عن القاهرة: "فانتقلت إلى القاهرة (...) فرأيت حضرة الدنيا. وبستان العالم. ومحشر الأمم (...) وكرسيّ الملك. تلوح القصور والأواوين في جوّه (...) ومررت في سكك المدينة تغصّ بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم.". **مقدمة ابن خلدون**، ٨٥/١-٨٦.
(١١٤) **ألف ليلة وليلة**، ١٣٣/١-١٣٤.
(١١٥) وممّا يشير إليه خروج النسوة إلى الأسواق وحرّية حركتهنّ في المجتمعات الإسلاميّة. دون أن يثير حفيظة الرجال. أنّ هنالك خلفية اجتماعيّة ومعيشيّة منفتحة على الآخر بحسّها المدينيّ، ومغموسة بالترف والبطر.
(١١٦) عن/فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص٤٤ –٤٥ .
(١١٧) م ن، ص٤٥.
(١١٨) ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ رأي المعزّ متشكّل من الموروث الرجولي المتسلّط، الذي يرى في خروج المرأة عيبًا، وخرقًا للرّؤية الجمعية المتشدّدة التي انتشرت في بعض المجتمعات الإسلاميّة المتزمّتة، وأنّ هذا الرّأي فيه الكثير من الإجحاف بحقّ المرأة، وبحقّ الرّجل الذي تعدّه هذه الرؤية ضعيف النفس، إن هو أعطى ابنته أو زوجته الحرّية، ووثق بها حين خروجها من منزلها. إضافة إلى احتمال أن يكون ما قد رُوي عن المعزّ مجرّد افتراء، أو هو من جملة الأكاذيب التي حُشِرت داخل التاريخ العربي، منذ بدايات تشكّله حتى زمننا الراهن.
(١١٩) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص٤٥.
(١٢٠) الملك الناصر: (محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، ٦٨٤ . ٧٤١ هـ/ ١٢٨٥-١٣٤١م): هو أحد سلاطين المماليك.
تولّى عرش مصر ثلاث مرّات مختلفة ما بين عامي ١٢٩٣م و ١٣٤١م، وقد تطوّرت العمارة في عهده وازدهرت، وأشهر منجزاته القناة التي شقّها من الإسكندرية إلى النيل. عن/لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، ص١٠٠.
(١٢١) **ألف ليلة وليلة**، ١١٥/٣.
(١٢٢) في مدينة القاهرة التي عاشت رفاهية وثراءً واسعًا في عهد المماليك بسبب "نجاحهم في جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط إلى القاهرة التي صارت مركزًا للنقل التجاريّ". [فولكف، أولج، م س، ص٩٦]، يبدو طبيعيًا أن تنتشر الحوانيت التي تبيع الخمور، هذا إذا عرفنا ميل المماليك . تاريخيًا. على اللذائذ، والإمعان في اللهو وطلب المتعة، فقد "كان المماليك والأمراء في مقدمة صفوف الشعب إقبالاً على الفنون والملاهي ومتع الحياة ولذّاتها." يُنظر: البقيلي، محمد قنديل: **الطرب في العصر المملوكي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٣٨٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، ص٤٤.
(١٢٣) **ألف ليلة وليلة**، ١١٤/٣.
(١٢٤) م ن، ١١٤/٣.
(١٢٥) م ن، ١٣١/١.
(١٢٦) م ن، ١٣٤/١.
(١٢٧) م ن، ١٣٤/١.
(١٢٨) م ن، ١٣٤/١.
(١٢٩) م ن، ١٣٧/١.
(١٣٠) لمزيد من الاطلاع على آراء هؤلاء الرّواة الإيديولوجية المعادية للمرأة، يُنظر: **ألف ليلة وليلة**، ٢٩٣،٢٩٩/٢. و: ١٧١/٣.
(١٣١) م ن، ١١٦/٣.
(١٣٢) م ن، ١١٦/٣.
(١٣٣) م ن، ١١٦/٣.
(١٣٤) وعبر تاريخها الطويل عانت القاهرة من اللصوص الكثر الذين انتشروا في أزقتها ومقابرها، ونظرًا لكثرة اللصوص في القاهرة المملوكيّة، والذين شكّلوا خطرًا على الحوانيت التجاريّة، وبخاصة في الليل، فقد انتشر في القاهرة "حرّاس موكّلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية". يُنظر: فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثاني)، الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص١٠٣.
(١٣٥) **ألف ليلة وليلة**، ١١٦/٣.

(١٣٦) هذا هو جزء من عنوان كتاب:
Miquel, André: *Sept contes des mille et une nuits, ou il n'ya pas de conte innocent*, Paris, Éditions Sindbad,1981.
(١٣٧) **ألف ليلة وليلة**، ١١٦/٣.
(١٣٨) م ن، ٣٨١/٤.
(١٣٩) م ن، ٣٨٢/٤.
(١٤٠) م ن، ٣٨٣/٤.
(١٤١) م ن، ٣٨٥/٤. وهكذا وردت إشارات الاستفهام في النصّ، فآثرت أن أتركها كما هي.
(١٤٢) تودوروف، تزفيتان: **مدخل إلى الأدب العجائبي**، ترجمة الصديق بوعلام، مراجعة د. محمد برّادة، دار شرقيات، القاهرة، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٤م، ص٤٩.
(١٤٣) ديرلاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافيّة**، ترجمة د. نبيلة ابراهيم، مراجعة د.عزّ الدين اسماعيل، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان/أبريل ١٩٧٣م، ص١٣١.
(١٤٤) ألف ليلة وليلة، ٢١٣/٣-٢١٤.
(١٤٥) وقد احتال هذا الرجل على طبّاخ دليلة المحتالة. وهي أشهر امرأة محتالة، هي وابنتها زينب النصّابة في جميع حكايات ألف ليلة وليلة. وعلى عبيدها وكلابها، وذلك بأن سقى الطباخ خمراً، ثم وضع البنج في الطعام الذي ستأكل منه العبيد والكلاب، ودليلة وابنتها زينب، حتى يتمكّن من سرقة جميع الثياب التي سرقتها دليلة من متاجر بغداد. لمزيد من الاطلاع يُنظر: ألف ليلة وليلة، ١٥٢/٤، ١٥٤.
(١٤٦) دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ص٢١٧.
(١٤٧) **ألف ليلة وليلة**، ٤٤٦/٤.
(١٤٨) م ن، ٤٤٦/٤.
(١٤٩) م ن، ٤٤٦/٤.
(١٥٠) **ألف ليلة وليلة**، ٣٥٧/١.
(١٥١) وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ القادمين إلى القاهرة كانوا يشاهدونها مقارنة بمدنهم، وكأنها منسوجة من عوالم خيالية، بل هي تصل في غرابة حياتها إلى حدّ يفوق التخيّل، ويُروى عن الفقيه الكاتب أبي القاسم البَرْجي قاضي العسكر بفاس، أنه قال عن القاهرة: "إنّ الذي يتخيّله الإنسان فإنّما يراه دون الصورة التي تخيّلها لاتّساع الخيال عن كل محسوس، إلاّ القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيّل فيها". عن/ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ٨٦/١.
(١٥٢) **ألف ليلة وليلة**، ٣٧٤/٤.
(١٥٣) م ن، ٣٧٤/٤.
(١٥٤) لمزيد من الاطّلاع على محتويات هذا الكنز الأسطوري ينظر: **ألف ليلة وليلة**، ٣٩٥/٤.
(١٥٥) يقول الرّاوي: "ثم إنّه فتحها [العلبة الذهبية] فرأى فيها خاتمًا من الذهب مكتوبًا عليه أسماء وطلاسم مثلاً دبيب النمل فدعك الخاتم وإذا بقائل يقول لبيك يا سيدي فاطلب تعط؟ هل تريد أن تعمّر بلدًا أو تخرّب مدينة، أو تقتل ملكًا أو تحفر نهرًا أو نحو ذلك؟ فمهما طلبته فإنّه قد صار بإذن الملك الجبّار خالق الليل والنهار". م ن، ٣٩٥/٤.
(١٥٦) بروب، فلاديمير: **مورفولوجيا الحكاية الخرافيّة**، ترجمة وتقديم أبو بكر أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم نصر، منشورات النادي الأدبي الثقافي جدّة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١٠٠. وهذه الأحداث التي أشار إليها فلاديمير بروب تتشكّل أيضًا في حكاية معروف الإسكافي، ولعلّ أهمها: ادعاء معروف الإسكافي بأنّه تاجر ثريّ، وأنّ حملته التجاريّة لم تصل بعد إلى المدينة [٣٨٨/٤]، ثمّ زواجه بابنة ملك اختيان الختن [٣٨٨/٤]، ثمّ شكّ وزير الملك بمعروف، ومحاولة التآمر عليه عند الملك [٣٨٩/٤]، ثمّ اعترافه أخيرًا أمام زوجته (ابنة الملك) بأنّه رجل إسكافي وهارب من زوجته الشريرة بمصر [٣٩١/٤]، ثم خروجه من المدينة حزينًا باكيًا على فراق زوجته بنت الملك [٣٩٣/٤].
(١٥٧) **ألف ليلة وليلة**، ٨٠/٤.
(١٥٨) صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧١م، ص١٥٣-١٥٤.
(١٥٩) وقبل أن يُقْتَل جودر بفعل السمّ الذي دسّه له سالم وسليم، في مأدبة الطعام التي أقاماها له. **ألف ليلة وليلة**، ٩١/٤.
(١٦٠) م ن، ٨٩/٤.
(١٦١) م ن، ٩٠/٤.
(١٦٢) في حكاية "وردان الجزّار" يكتفي الراوي بتقديم الكنز إلى وردان دون الأداة السحريّة، يقول وردان: "وبعد ذلك نظرت في المحلّ [دهليز تحت الأرض] فوجدت فيه من الذّهب والفصوص واللؤلؤ ما لا يقدر على جمعه أحد من الملوك". [٨٤/٣]. ولماذا لم يقدّم الراوي الأداة السحريّة لوردان الجزّار؟ لأنّ الحكاية وقعت في زمن الحاكم بأمر الله*، وهو شخصية تاريخيّة حقيقيّة حكمت مصر، ولو أنّه قدّم هذه الأداة لجعل وردان الجزّار حاكماً على مصر بدلاً من الحاكم بأمر الله، وهذا سيجعل الحكاية تفتقد إلى مصداقيتها التاريخيّة، وبخاصة إذا عرفنا أنّ هذا الرّاوي يحاول أن يوهم قارئه بواقعية حكايته، وصحّة تاريخها، حين يقول: "وهذا السوق موجود إلى الآن ويُعرف بسوق وردان". [٨٥/٣]. *الحاكم بأمر الله: (منصور بن العزيز، ٣٧٥ .٤١١ هـ/٩٨٥ . ١٠٢١م): هو الخليفة الفاطميّ الذي حكم مصر من سنة ٩٩٦م إلى سنة ١٠٢١م. تردّت الدولة في عهده. وقد أمر بتدمير كنيسة القيامة في بيت المقدس عام ١٠٠٩م، وقتل بعض وزرائه بدون سبب، وزعم أنّ الله تجسّد فيه. كان متطرفاً في التعصب وعدم السماح مع غير المسلمين. عن/روم، لاندو: **الإسلام والعرب**، ص٩٥، ١١١.
(١٦٣) صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، ص١٣٩.
(١٦٤) ولا يرصد الرّواة الكنوز المصرية للأبطال المصريين فحسب، بل يرصدون كنوزًا أخرى بأسماء هؤلاء الأبطال، كما في حكاية "جودر ابن التاجر عمر"، إذ نجد أنّ كنز الكهين "الشمردل" في مدينة فاس المغربية مرصود باسم "جودر"، مما جعل التّاجر المغربي يأتي مصر ليطلب من جودر أن يفتحه له [٦٣/٤]، وكذلك نجد أنّ الكنز البعيد في القرية الأسطورية التي يصل إليها معروف الإسكاف -لا يحدّد الرّاوي اسمًا لها- هو مرصود باسم معروف الإسكافي الهارب من فقره وزوجته في مصر. [٣٩٦/٤].
(١٦٥) **ألف ليلة وليلة**، ٨٥/٣.
(١٦٦) قارون: وزير فِرْعون الذي رفض أن يؤمن بما جاء به موسى عليه السلام، وقد طغى وتجبّر بسبب ثروته الهائلة التي كان يزعم أنّه حصل عليها بسبب علمه وبراعته في الكيمياء. وقد خسف الله به وبداره الأرض. ويرتبط قارون ببحيرة في مصر باسم بِرْكة قارون في الفيّوم. ويقول المقريزي في كتاب "الخُطط" إنّ كافوراً شيَّد داراً بجانبها فطرده منها الجن. يونس، د.عبد الحميد: **معجم الفولكور**، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص١٧٥.
(١٦٧) **ألف ليلة وليلة**، ٦٢/٤.
(١٦٨) م ن، ٦٢/٤.
(١٦٩) دير لاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافية**، ص١٧٨.
(١٧٠) لمزيد من الاطلاع يُنظر: صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، من ص١٢٨ إلى ص١٣١.

(١٧١) يزعم ديزموند ستيورات العاشق للقاهرة الجميلة أنّه لا تزال بعض النساء الأجنبيات اللواتي عشقن الطبّ الفرعوني، تمارس بعض فنون السحر في قصور القاهرة الفارهة، حتى وقت متأخر، ويروي القصّة الآتية: "في أحد القصور المطلّة على النهر [نهر النيل] كان يقيم باشا مصري متزوّج من سيّدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطبّ الفرعوني القديم أن خصصّت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثري قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرًا فتحدّاها أن تُظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًّا في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضًا من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثمّ اضطرّت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هي هناك وصلتها برقيّة تفيد أنّ صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت . فيما يبدو . بالسرطان فاتّصلت من زيوريخ بالتلفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أنّ العنكبوت الذي كان على وشك الموت جوعًا داخل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدّامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما إن تمّت العملية حتى شفي صديقها الضحيّة في الحال". **القاهرة**، ص١٦١ . ١٦٢.

(١٧٢) والآيات الكريمة التي تشير إلى مصر هي: آية (٦١) سورة البقرة، آية (٨٧) سورة يونس، آية (٩٩) سورة يوسف، آية (٥١) سورة الزخرف.

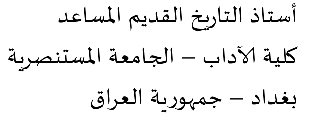
(١٧٣) **مقدمة ابن خلدون**، ٨٧٣/٢ . ٨٧٤.

(١٧٤) عن/ الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، ١٤١/٥. ولمزيد من الاطّلاع على ما قيل في هجاء مصر، يُنظر هذا المصدر ١٤١/٥- ١٤٢.



العقاقير والأدوات والقوى السحرية ودورها في العلاج
دراسة في معتقدات حضارات الشرق الأدنى القديم والحضارات الكلاسيكية





د. أسامة عدنان يحيى

أستاذ التاريخ القديم المساعد

كلية الآداب – الجامعة المستنصرية

بغداد – جمهورية العراق

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسامة عدنان يحيى، العقاقير والأدوات والقوى السحرية ودورها في العلاج: دراسة في معتقدات حضارات الشرق الأدنى القديم والحضارات الكلاسيكية.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٦٢ – ٧٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

إن دراسة المعتقدات الدينية الخاصة بحضارات الشرق الأدنى القديم والحضارات الكلاسيكية يتضح منها إن الإنسان القديم قد آمن بوجود قدرات فوق الطبيعية تساعده على الشفاء من الأمراض سواء كانت صلوات مرفوعة إلى الإله، أو قرابين مقدمة على مذبحه، أو طقوس سحرية وتعاويذ، ولكن لم تكن هذه فحسب هي ما اعتقد به المجتمعات القديمة، فهناك إلى جانب ذلك صنف أخر لا يقل أهمية عن ذلك وهو العقاقير السحرية، وهناك أيضًا عدد من الرموز الطقسية والدينية، وأدوات جامدة كالأحجار وغيرها التي اعتقد الأقدمون بقابليتها الهائلة في العلاج، ومن ذلك الماء الذي آمن الكثيرون بأهميته الشفائية. وتعرض هذه الدراسة لدور العقاقير والأدوات والقوى السحرية في العلاج وفقًا لمعتقدات الإنسان القديم في حضارات الشرق الأدنى القديم والحضارات الكلاسيكية.

أولاً: العقاقير السحرية

تشير المصادر إلى أن العقاقير السحرية شكلت في كثير من الحضارات القديمة قدرة شفائية عالية قد توازي الممارسات السحرية التي ينفذها الطبيب الساحر، بل قد تفوقت عليها أحيانًا. ولم تكن هذه العقاقير السحرية بالضرورة شرابًا سحريًا، بل ربما تعدى الأمر في بعض الحضارات بالمشروبات المقززة، كما سنرى في وادي الرافدين أو وادي النيل، وأحيانًا العقار هو نبات سحري أوجدته الآلهة، وهذا نقرأ عنه جيدًا في وادي الرافدين، وفي إيران القديمتين. ويمكن أن نصنف العقاقير السحرية التي نقرأ عنها في مصادرنا إلى:

١/١- النباتات السحرية:

نقرأ عن هذا النمط من النباتات في وادي الرافدين وتشير أسطورة ايتانا إليها، فالملك السومري ايتانا يبتهل إلى الإله شمش من أجل أن يمنحه نبتة الولادة:

"أعطني(أي شمش) النبات الذي يساعد حمل المرأة
اكشف عن العشب الذي يساعد على الحمل".

ولما كانت هذه النبتة بحوزة الربة عشتار، لذا يبادر ايتانا للصعود إلى السماء على ظهر نسر، الذي يخاطبه:

"تعال يا صديقي [لأحملك إلى سماء عشتار(؟)]
مع عشتار ذات السناء
[يوجد النبات المساعد على الحمل(؟)]"[١].

وهناك ختم اسطواني يعود للعصر الاكدي يصور صعود ايتانا على ظهر نسر إلى السماء ليجلب الدواء الذي يزيل العقم عن زوجته.[٢]

وكان العبريون القدماء يعتقدون بالنباتات السحرية لاسيما للنساء العاقرات، فقد عد العبريون إن نبات اللفاح يعمل على شفاء النساء من عقمهن.[٣] واعتقد الزرادشتيون[٤] في إيران بدور نبات يدعى الهاوما في الشفاء من الأمراض، والواقع إن تسمية هاوما

تشير إلى اسم نبات، واسم إله يمثل هذا النبات، وهناك نص يمجد الهاوما كقوة علاجية: "... يمجدون هاوما الشافي، القوة العلاجية الواضحة التي تمكث في القرية [في البيت وبين العشيرة]".[٥] وفي نص أخر يقول: "هاوما امنح الوسائل العلاجية لِمَنْ تعالجهم"،[٦] ويوصف في نص:"هاوما، المنعم بالحياة، الشافي الجميل"،[٧] و: "الشافي الرائع، هاوما ذو العيون الذهبية".[٨] وقد عد الهاوما في النصوص المتأخرة بـ: "قائد النباتات العلاجية [الطبية]".[٩] وعرف نبات الهاوما أيضًا باسم گاوكيران، وهي شجرة الهاوما البيضاء، التي تنمو في وسط البحر الأسطوري المدعو ڤاروكاشا، وتحاط بعشرات الآلاف من النباتات الشافية، التي خلقها اهورامزدا لمقاومة الأمراض التي خلقها انگرامانيو رمز الشر في الديانة الزرادشتية.[١٠] وقيل إنها تنمو في الجبال: "هاوما المشع، الحاكم، الشافي، ذو الرؤوس الذهبية، التي تنبت على قمة جبل هاراتي وهكاري".[١١]

ويتحدث نص بهلوي عن شجرة الهاوما البيضاء ويسمها: "شجرة كل البذور[گاوكيران] الشافية ذات البذور الكثيرة والتي نمت في بحر فراخگارد"، و"في نبع الماء اردفيسورا تم خلق الهاوما الأبيض".[١٢] وهناك شجرة يرد ذكرها في افيستا تدعى شجرة النسر تشابه في صفاتها گاوكيران، وربما هي ذاتها: "شجرة النسر التي تنتصب وسط بحر ڤاروكاشا التي تدعى شجرة الأدوية الجيدة، شجرة الأدوية القوية، شجرة كل الأدوية التي توجد عليها بذور كل النباتات".[١٣] وتتحدث النصوص البهلوية عن النباتات الطبية الشافية وظهورها من دماغ الثور الأول الذي خلقه اورمزد: "عندما مات الثور، المخلوق الوحيد، نمت هناك، عندما سال دماغه، بذور (٥٥) نوعًا من الحبوب، و(١٢) نوعًا من النباتات الطبية الشافية".[١٤] وفي اليونان وتتحدث أسطورة عن غلاوكوس (Glaucus)، ابن باسيفي من مينوس ملك كريت الذي اختنق في صندوق عسل وعاد إلى الحياة عن طريق عشبة سحرية.[١٥] وتشير التقاليد الإغريقية إلى بعض الأزهار كانت مقدسة للربة هيرا باعتبار إن هذه الأزهار تحتوي على خصائص طبية ذات أهمية خاصة للنساء، إذ تنظم مجيء الدورة الشهرية، أو تستعمل كعلاج من العقم.[١٦]

ويتحدث الشاعر الروماني فرجيل أنه عندما جرح اينياس أثناء الحرب مع اللاتين وعجز الطبيب يافس عن معالجته، هبت أمه الربة فينوس لمساعدته، فذهبت إلى جبل ايدا وهو جبل في كريت، وأحضرت منه العشبة ديتاني وهي عشبة ذات ساق بري وأزهار أرجوانية. هذه العشبة أحضرتها فينوس، ثم اخفت وجهها، وغمستها بالماء ورشتها هناك مع العنبر والدواء، ولم يفطن يافس لما حدث، فاستعمل له الماء الشافي، وسرعان ما توقف الألم وجفت الدماء ولفظ السهم خارجًا دون أن يسحبه رجل، وعادت إلى اينياس قواه السابقة، وهنا قال يافس له: "لم يشفك فني يا بني، بل إن الأرباب يدعونك لمهمتك".[١٧]

٢/١ - الأدوية السحرية:

نقرأ عن هذا النمط في العديد من الحضارات القديمة عادةً ما تكون هذه الأدوية مركبة، ففي بلاد الرافدين، نعرف أن الأدوية التي يركبها الطبيب الاسو قد تكون لها قابلية شفائية عالية ليس ضد المرض فحسب، بل ضد السحر أيضًا: "الدواء الذي أرسلته إلى الملك على نوعين يختلف بعضها عن بعض...ربما سيقول الملك سيدي، لأي شيء فائدتها؟ إنها مفيدة لفك السحر وهي مفيدة لامرأة في المخاض". فمن الواضح أنه كان يظن أن الأدوية الطبية قادرة على أن تعمل ضد القوى الخارقة الشريرة. وفي بعض الحالات نقرأ أن أدوية الاسو يمكن استخدامها ضد تأثير العفاريت التي فشلت معها طرق الاشيبو: "إذا استمرت فاعلية يد الشبح بحيث إن الاشيبو لم يتمكن من إزاحتها، ومن أجل إزاحتها عليك (أي الاسو) أن تخلط (ثمانية أنواع من الأدوية)....". وهناك أسباب كافية للاستنتاج إن استخدام الاسو للمواد الطبية كان يعد سحرًا أي يعمل ضد العفاريت التي سببت الأعراض، وليس علاجًا مباشرًا.

فهناك الأدوية التي كانت تستخدم وكانت فائدتها الفعلية عرضة للتساؤل، وقد يعطي الاسم دلالة واضحة على التفكير بالخط السحري. فهناك مثلاً شيء يسمى فرج الأتان وكان ذلك محارة بحرية، وبدون شك فقد أُخذ اسمها الغريب من شكلها وحجمها وضمن أشياء أخرى كان من الممكن استخدامها لمعالجة مشاكل القضيب، أما تسحق وتنفخ في القضيب بوساطة أنبوب، أو تشرب مع الجعة. وقد لا يكون لهذا أي فائدة عملية مهمة للمرض المقصود، ولكن يمكن أن نستشف من ذلك بسهولة كيف أن التفكير المسيطر عليه السحر، قد يقترح أن نوعًا من المحار بذلك الاسم قد يكون له تأثير ما على القضيب. ونعرف إن الاسو كان يستخدم الضمادات في حالة الأمراض التي كانت تنسب أسبابها إلى القوى الخارقة، مثل يد الشبح. وفي مثل هذه المعالجة كانت الضمادات تضم أدوية معينة ضد أجزاء معينة من الجسم وطالما لم يكن هناك تلف في الأنسجة في مكان معين لمعالجته، لذا يبدو أن الغرض كان لطرد المرض من الجسم سحريًا بالاتصال المباشر مع الأدوية الفعالة ضد العفريت المسبب للمرض.[١٨]

ومن الجدير بالذكر؛ أن الاشيبو كان في بعض الأحيان يستخدم في علاجه أدوية عادية كتلك التي يستخدمها الاسو وتشير إلى هذه الحقيقة بعض النصوص التشخيصية: "إذا ظهر تورم احمر على جسم الرجل، فهذه(يد عشتار)، وقد حق عليه التحريم(العزل)، دق ملح... مع البابونج... وسوف يشفى"، أو: "إذا ظهر تورم أبيض على جسم الرجل، فهذه (يد شمش)، خذ... والكركم والسماق... وامزجهم باللبن... وسوف يشفى"، أو: "إذا كانت إذن الرجل... فإنها (يد نينورتا)... مع تربنتين الصنوبر لسبعة أيام وسيشفى"، أو: "إذا مست(يد الشبح) رجلاً في أثناء الممارسة... فحبوب الترمس والخردل... وسوف يشفى"،[١٩] أو: "لقد نفحت ريح السماء العالية المرض في عين الرجل، الآلهة ناممو رأت المرض في عين الرجل، خذ

مسحوق (القرفة)، أقرأ الدعاء الأتي... واعصب على عينه".[٢٠] ولا نعرف إن كان الاشيبو ينظر إلى هذه الأدوية نظرة اعتيادية أم عدها أدوية ذات فعاليات سحرية.

وفي مصر تشير النصوص إلى ما يمكن أن ننسبه إلى فكرة الأدوية السحرية، فالدواء المقدم إلى المريض لم يكن هدفه الوحيد العلاج، وإنما على غرار وادي الرافدين هو القضاء على السحر: "علاج لإبعاد السحر من الجوف...".[٢١] ومن العقاقير التي استخدمها المصريون كان العسل الذي كان له دور في الطب السحري، وعد دواء طاهرًا وهذا بلا ريب راجع إلى كون المصريون عدوا النحل مخلوق من دموع الإله رع.[٢٢] واعتقد الإيرانيون القدماء بالأدوية السحرية، وهناك رواية ترد لدى الفردوسي يقول فيها إن الاسكندر لما كان في الهند أرسل إليه ملكها كيدًا طبيبًا ركب له دواء يشفيه من كل الأمراض.[٢٣]

في اليونان نقرأ عن الأدوية السحرية، إذ تتحدث الإلياذة عن عقاقير سحرية كانت في حوزة الآلهة تستخدم لشفاء الجروح، فالعملاق هيدز الذي أصيب بسهم في كتفه، عالجه إله ثانوي يدعى بايون الذي قام: "بنثر الأدوية التي تهدئ الألم وشفاه".[٢٤] وعندما جرح الإله أريس رب الحرب الإغريقي في معركة يتجه إلى زووس فيأمر بايون بمعالجته: ".. طلب من بايون أن يشفيه. وبعد أن رش الأدوية لتهدئة الآلام أعاده بايون إلى عافيته".[٢٥] وتتحدث النصوص المسيحية أيضًا عن مراهم سحرية تعطى للمريض، ففي رواية تقول إن يسوع مر برجل أعمى منذ ولادته، لذا حمل حفنة من التراب وبصق فيها ليحولها إلى طين، ثم وضعه على عيني الأعمى وقال له إن يذهب ويغتسل في بركة سلوام، فذهب الرجل واغتسل فعاد بصيرًا.[٢٦]

٣/١- العقاقير المقززة:

ونقرأ عن هذه العقاقير في بلاد الرافدين ومصر القديمة، فالدلائل تشير إلى إن الأطباء السحرة قد يستخدمون الأدوية، ولكن بعضها غير عادية غير مستحبة بل مقززة وغير مستحبة، وربما كان الغاية منها كما يرى كونتينو إثارة تقزز الشيطان وإرغامه على ترك جسد المريض، إذ لم يكن بوسع المريض أن يبتلع إلا بصعوبة واشمئزاز البراز أو الصدف المحروق، أو التراب أو الشحم أو الزنخ.[٢٧] ونقرأ نص عن هذا النمط من العلاج، فمن أجل علاج المرض الحاد كما يسميه البابليون أو الصرع فإنه يشرح ذلك: "فلأجل إنقاذه، خذ من زرع الرجل (أو مما يأتي عن دورة المرأة)، ومن ثمر البحر، وفأر السم المكسو بالشعر، ونهاية أذن كلب أسود، وشعر بغل أسود، وشعر ذنب كلب أسود، غلف الكل في جزة ماعز باكر بيضاء أو سوداء أوضعها في حلقه، فإنه يشفى".[٢٨]

وفي نص نقرأ عن علاج يبدو أن مَنْ قام به هنا هو الاسو وليس الاشيبو يقول إنه يجب جعل المريض يشرب حليبًا تم غلي سحلية فيه.[٢٩] ونقرأ عن عقارات سحرية تستخدم لعلاج الأمراض المختلفة ففي وصفة طبية لعلاج التهاب الملتحمة، الذي عالجه الطبيب الساحر بشق بصلة ومزجها بالبيرة، ثم يعطى للمريض هذا المزيج، فضلاً عن ذلك فإنه يجب: "استخراج أحشاء ضفدعة صفراء، واضرب مراراتها حتى تصبح سائلاً سميكًا ثم ضعه على العين". ويعلق الأستاذ حسن كمال على العلاج بأن الشق الأول منه ذا فائدة عملية فمزيج البصل والبيرة يؤدي إلى إدرار الدموع، وهي إفراز قاتل للجراثيم المرضية، أو بعبارة اصح مطهر، فهو لذلك شاف لالتهاب الملتحمة، إذن كان إدرار الدموع كافيًا، بعد ذلك دهنوا العين الملتهبة بالزيت، إلى هنا يمكننا أن نعد هذا العلاج سليمًا إلى درجة ما. لكن كهنة بابل رأوا إن هذا العلاج غير كاف لمقاومة ضرر العفريت المسبب للمرض فأضافوا علاجًا سحريًا أيضًا.[٣٠] وفي نص أخر يشير إلى علاج العين: "خذ ضفدع اخضر، وامزج مرارته بالدهن وضعها بعينه وسوف يشفى".[٣١]

في مصر نعرف من النصوص عن وجود عقارات سحرية مقززة تستخدم في العلاج، استعملت فيها مواد غريبة كشعر التيس وروث فرس البحر والتمساح،[٣٢] لاسيما العلاج المقدم من أجل التخلص من السحر: "لإزالة مرض حمستا(السحر؟): خنفساء يقطع جناحاها، وتقلى في الدهن وتوضع عليه. فإذا أردت بعد ذلك شفاءه فاطبخ رأسها وجناحيها في دهن الدودة (عبننت) سخنه، واترك المريض يشربه".[٣٣] وفي وصفة أخرى نقرأ فيها نفس المكونات السابقة: "علاج لطرد السحر: خنفساء كبيرة مفصول رأسها وجناحاها. تحرق، وتوضع في زيت، وتعطى له. فإذا رغبت في إخراجها، فيجب أن تحرق رأسها وجناحيها. توضع في دهن حيواني (بننت) دافئ، واجعل الشخص يشربه".[٣٤] ولا نعرف السبب من وراء وجود هذه الأدوية المقززة، ولكن بلا شك كما رأينا في وادي الرافدين كانت هذه تعطى للمريض لإرهاب الشيطان وإخراجه من الجسم، فلابد من أن تجريع المريض دواء مقززًا يجعل الشيطان يشمئز فيخرج من جسده.

وهناك أدوية يمكن أن توصف من أجل ترضية الشيطان تتكون من مواد جيدة، مثل لبن وعسل وزبد وأعشاب عطرة.[٣٥] ويشير هيرودوت إلى إن البول قد عد في مصر دواء سحريًا، وهو يروي خبر عن ملك مصري أطلق عليه هذا المؤرخ تسمية فرعون، ويقول عنه أنه أصيب بالعمى وفي السنة الحادية عشرة جاءته النبوءة من مدينة بوتو، بأن عقوبته انقضت وله أن يتعافى ويسترد بصره، إذا غسل عينيه ببول امرأة مخلصة لم تؤثر على زوجها رجلاً أخر. فكان إن ابتدأ بزوجته، فلم يشف، فأخذ في تجربة بول نساء أخريات دون طائل، إلى أن وفق في النهاية، وشفي من العمى.[٣٦] وبصرف النظر عن صحة هذه الرواية التي ربما تعكس اعتقاد المصريين القدماء، أو ربما اعتقاد هذا المؤرخ اليوناني فإنها توضح أهمية البول في الشفاء من الأمراض.

٤/١- أدوية إعادة الشباب والخلود:

تشير المادة المتوفرة أنه ليس فقط كانت هناك علاجات ضد الأمراض أو الشياطين المسببة لها، بل نمتلك من الدلائل عن وجود

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

أدوية من أجل إعادة الشباب سواء تلك التي في حوزة الآلهة أو تلك التي يصنعها الأطباء، فقد اعتقد القدماء بلا شك إن الشيخوخة مرض لابد من علاجه، بل إن هناك عقاقير من أجل قهر الموت والحصول على الخلود، ففي الملحمة البابلية التي تعرف باسم ملحمة كلكامش نقرأ كيف إن اوتنابشتم الإنسان-المؤله، قد أفشى للبطل كلكامش عن سر وجود نبات له قدرة سحرية على إعادة الشباب إلى الإنسان، يطلق عليه اسم الرجل الكهل يعود شابًا، وكيف إن كلكامش اهتدى إلى هذا النبات، وأصابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذي ولى، ثم كيف إن حية تسللت، قبل أن يأكل كلكامش من هذا النبات السحري، وسرقته.(٣٧) وهناك وصفة كاملة تهدف إلى إعادة الشباب إلى الشيخ في مصر القديمة تقول: "احضر مقدارًا كبيرًا من فاكهة همايت، بما يقارب ٢ خار، شقها وعرضها للشمس، فإذا جفت تمامًا قشرها كما يقشر الحب وذرها حتى تبقى الفاكهة، كيل كل ما يتحصل عليه من ذلك، ثم انخله بطريقة المنخل، كيل بالضبط كل ما يتحصل من ذلك، واقسمه إلى قسمين، أحدهما مكون من هذه الفاكهة، والأخر كذلك. عالج كل قسم كالأخر". ويبدو إن كل قسم كان يحضر بطريقة خاصة: "خذ القسم الأول وامزجه بالماء، حوله إلى مادة طرية وضعه في إناء جديد على النار، اطبخه جيدًا وتأكد من غليانه، اجعله يتبخر حتى يجف، دون أن تبقي فيه رطوبة، ثم أخرجه من الإناء، وبعد أن يبرد ضعه في إناء أخر لتغسله في النهر، اغسله جيدًا وتأكد من غسله بتذوق طعم الماء الذي في الإناء حتى يختفي أثر المرارة فيه، بعد ذلك ضعه في الشمس وانشره على كتان، وبعدما يجف اطحنه في طاحون حجري".

أما القسم الثاني فيتم تحضيره: "اجعل القسم الثاني في ماء على جانب، اجعله ما يشبه مادة طرية وضعه في جرة على نار، اطحنه جيدًا وتأكد من غليانه حتى تفور رغوته منه، استخرج المادة الموجودة بالإناء وغطسه أو بلله بمجرفة، وبعدما يتحول إلى مادة شبيهة بالطين ضعه في إناء، استخرج المادة وانشرها على قماش من الكتان على فوهة هذه الجرة، بعد ذلك ضع هذه المادة في إناء مصنوع من حجر ثمين". يبدو إن الأثر السحري لهذه الوصفة الطويلة التحضير تكشف عن السبب وراء هذا التحضير، الذي يتضح (الأثر السحري) في نهاية الوصفة: "ادهن الشخص فهو يزيل أسارير الرأس فإذا دهن اللحم به فإنه سيجمل البشرة ويزيل الشوائب، وكل التشوهات وكل أعراض الشيخوخة وكل أنواع الضعف الموجود في اللحم، وجد ناجعًا ملايين المرات".(٣٨)

ثانيًا: الأدوات والقوى السحرية

لم تكن العقاقير السحرية فحسب هي التي استخدمت كوسيلة للعلاج، فهناك من الدلائل الكثيرة التي تشير إلى إن الأقدمين كانوا يعتقدون بقدرة بعض الأدوات السحرية القادرة على الشفاء، وعادةً ما تكون هذه الأدوات دينية، وفي حالات أخرى كانت طقسية تستخدم في أداء طقوس معينة ولها القدرة على الشفاء. وفي كثير من الروايات الشائعة عن هذه الأدوات السحرية تذكر إنها إما هبة إلهية للبشر، أو مرتبطة بحدث محوري في الديانة المتبعة، وبشكل عام تمثل وسائل ذات قوى سحرية هائلة يتمكن الشخص عن طريقها الحصول على العلاج الفوري من غير ظهور لطقوس سحرية، وأحيانًا من غير تدخل إلهي، عن طريق اللمس أو النظر. ويمكن أن نقسم هذه الرموز إلى أنواع وهي:

١/٢- الأحجار:

تشكل الأحجار مواد ذات طبيعة سحرية تساعد في الشفاء، وتشير النصوص من بلاد الرافدين إلى بعضها وهي من مسمياتها تكشف عن وجود الخط السحري فيها، فهناك حجر يعرف باسم حجر الولادة (aban aladi)، وحجر الإخصاب(aban erî)، وحجر الإجهاض(adan-la-ahadi)، وحجر العقم(aban-la-erî).(٣٩) وتشير النصوص الإغريقية على وجود حجر يشفي من عضة الثعبان ولذلك يسمونه حجر الثعبان. ولكي يختبر الإنسان مفعوله كان يكفي أن يطحنه على شكل مسحوق ثم يرشه على الجرح.(٤٠) ويتحدث بليني (Pliny) عن نوع من الأحجار التي كان الناس يعتقدون في قدرتها على شفاء اليرقان لأن لونها كان يشبه جلد المريض به.(٤١)

ونعرف أنه بُني في القدس كنيسة تحت الأرض كُرست على اسم الإمبراطورة هيلانة وكان الزوار ينزلون ست عشرة درجة حتى يصلوا إلى المكان، والطريف أن سكان القدس من مختلف الديانات كانوا يزورون هذا المكان، حيث كانوا يقومون بقطع شظايا من الصخور من أجل التداوي، ويعلنون أنه إذا كان هناك إنسان مصاب بالحمى من الممكن شفائه على الفور، إذا شرب بعض الخمر والماء، موضوع فيها قطعة من هذه الصخور.(٤٢) ويشير التلمود إلى قدرة الأحجار السحرية على الشفاء، إذ نقرأ عن حجر كان في حوزة إبراهيم وعلقه في عنقه شفى بوساطته كل الأمراض المعروفة، وقد وصل هذا الحجر إلى أحد الحاخامات وصار في قدرته عن طريق الحجر شفاء العلل وإحياء الموتى.(٤٣)

٢/٢- الماء:

شكل الماء وسيلة سحرية للشفاء من الأمراض، فالماء عند الشعوب القديمة يسبق كل الأشكال، وإن الغوص بالماء يرمز إلى التقهقر والرجوع إلى ما يسبق التشكل، ويرمز إلى الاندماج مجدد في عالم غير متمايز، عالم ما قبل الوجود. وأن الطفو يكرر حركة التجلي الشكلي للكون، وعلى هذا فإن رمزية الماء تتضمن في آن واحد الموت والانبعاث. فإن التماس بالماء ينطوي دومًا على التجدد، لأن الانحلال تتبعه ولادة جديدة وبالتالي تتبعه حياة جديدة أي يتبعه وجود إنسان جديد. ومن ثَمَّ الماء يحتفظ بوظيفته على نحو ثابت لا يتغير في أي معتقد ديني نلقاه، أنه يفك الأشكال ويحل الصور ويغسل الخطايا وهو في آن واحد يطهر ويجدد.(٤٤) ولدينا تعويذة بابلية تتلى عند النزول في ماء الفرات للحصول على الشفاء:

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

"تعويذة: أيها النهر، يا مبدع الأشياء كلها
عندما حفر مجراك الآلهة الكبار
حفوا ضفافك بكل ما هو حسن وطيب
وفيك أقام اله الأعماق أيا مسكنه
ووهبك فيضان الماء الذي لا يقاوم
كما وهبك الإلهان أيا ومردوك
غضبًا ناريًا وجلالاً وروعًا
أنت قاضٍ في مشاكل البشر
أيها النهر العظيم، أيها النهر المبجل
يا نهر المقامات المقدسة
يا من بمائك يأتي الشفاء تقبلني
انتزع ما بجسدي وارمه إلى ضفافك
ارمه إلى ضفافك (أو) دعه يغور في أعماقك".[٤٥]

في مصر اعتقد السكان أن نهر النيل يمتلك خواص علاجية منها قدرته على إعادة الشباب، ونتيجة لذلك عُد طمى النيل من المواد الداخلة في العلاج، ومنها قدرته على شفاء الجروح بسرعة.[٤٦] وفي النوبة القديمة عد الماء من الوسائل السحرية للحصول على الشباب، والقضاء على الشيخوخة، فالمعمرين الأثيوبيين، وكما تقول المأثورات الإغريقية كانوا يذهبون إلى نبع ماء تفوح منه رائحة البنفسج وتجعل بشرة المستحم في مياهه تتلألأ وكأنه استحم بالزيت. ويقال أن مياه هذا النبع قليلة الكثافة لدرجة أنه ما من شيء يطفو فوق سطحها، بما في ذلك الخشب، وأي مادة أخف منه، إذ تغوص جميعها إلى الأعماق. وأن استخدام الأثيوبيين المستمر لهذه المياه هو ما يجعلهم يعمرون.[٤٧]

ولدى العبريين اعتقاد بقوة الماء الشفائية، وتكشف قصة نعمان قائد جيش ملك دمشق الآرامية اعتقاد سكان فلسطين بذلك، فالقائد الآرامي كان مصابًا بالمرض، فلما استشار اليشع وهو أحد الأنبياء اليهود نصحه بالاستحمام في نهر الأردن وبالفعل نفذ اليشع ذلك الطقس إذ: "نزل نعمان إلى نهر الأردن وغطس فيه سبع مرات، كما أمر رجل الله، فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر من برصه". ويتضح من الرواية لم تكن كل الأنهار ذات قابلية شفائية بل كان نهر الأردن بالذات يحتوي على هذه الخصيصة، فالقائد الآرامي نعمان وقبل أن ينفذ الطقس، أعلن امتعاضه من نصيحة اليشع، على أساس إن أنهار دمشق أفضل من نهر الأردن: "أليس ابانة وفرفر نهرا دمشق أفضل من جميع مياه إسرائيل؟ ألم يكن في إمكاني الاغتسال فيها فاطهر؟".[٤٨]

وفي أورشليم كان قرب أحد أبواب المدينة ويدعى باب الغنم بركة اسمها بيت حسدا، يرقد إلى جانبها جمع كبير من المرضى سواء عميان وعرج ومشلولين، ينتظرون أن تتحرك مياه البركة، لأن ملاكًا كان يأتي من حين لأخر إلى البركة ويحرك ماءها، فكان الذي ينزل أولاً يشفى مهما كان مرضه.[٤٩] وتؤكد الأناجيل عن دور المياه المقدسة في الشفاء، وأنها أرجعت السبب إلى تدخل السيد المسيح بذلك، فهناك قصة تتحدث عن الماء الذي غُسل فيه السيد المسيح عندما كان طفلاً قد شفى فتاة مجذومة: "أخذت امرأة ماءً معطرًا لتغسل المولى يسوع، وبعدما غسلته، أخذت الماء الذي استخدمته، وصبت بعضه على فتاة كانت تعيش هناك، وكان جسدها أبيض من الجذام وغسلتها به، وما إن تم فعل هذا حتى شفيت الفتاة من الجذام".[٥٠]

وفي أخرى نقرأ: أن مريم عندما دخلت بيت لحم مع ولدها، شاهدت هناك كثيرًا من الأمراض الشديدة قد أصابت أعين الأطفال، الذين كانوا يموتون بالتتابع، وكانت امرأة هناك لديها ابن مريض، يكاد أن يموت، فجلبته إلى السيدة مريم، التي رأته، عندما كانت تغسل يسوع المسيح، فقالت لها أن تأخذ قليلاً من الماء الذي غسلت به ابنها، وترشه به. وبناءً على ذلك أخذت قليلاً من الماء، مثلما أخبرتها السيدة مريم، ورشته فوق أبنها الذي زال عنه المرض بعد ذلك.[٥١] وتتحدث قصة مسيحية أخرى عن شاب كان قد اقترف أعمالاً شنيعة، ونتيجة لذلك جفت يداه (ربما شلت) كما يقول النص إلى درجة لم يعد قادرًا على وضعهما في فمه، لذا يعرض حالته على الرسول توما الذي أمر بجلب ماء إليه في وعاء، وعندها قال: اقبل أيها الماء من المياه الحية، السرمدي أرسلها لنا من السرمدية، وأرسل الراحة الينا من الواحد الذي يعطي الراحة، وقوة الخلاص الصادرة عن القوة التي تقهر الجميع، وتخضع لإرادتها، اقبل واسكن في هذه المياه، حتى تتحقق أعطية الروح القدس تمامًا فيهم. وقال للشاب: اذهب واغسل يديك بهذه المياه، وعندما غسلهما عادتا.[٥٢]

لقد أصبح التعميد بالماء وسيلة للشفاء أيضًا، فطبقًا لرواية مسيحية تتحدث عن مرض أصيب به الإمبراطور الروماني تيباريوس، فتم تعميده من قِبَل الرسول ناثان فشفي من مرضه: "قدم ناثان وعمده باسم الأب والابن وروح القدس... وعلى الفور تعافى الإمبراطور تيباريوس من جميع أمراضه".[٥٣] ولم يكن الماء ذا قوة علاجية في المعتقدات المسيحية وحسب، بل كذلك كان للصابئة الذين عاصرت حركتهم السيد المسيح، إذ نعرف من النصوص المندائية إن للماء قدرة على إخصاب النساء فأم يوحنا المعمدان لم تكن تنجب لكن أصبحت حاملاً بعد شرب ماءً مقدسًا: "لقد أعطى أنش أثرا (روح من أرواح الحياة) انشبي (أم يوحنا) ماء من اليردنة (ربما نهر الأردن) لتشرب، ومن ذلك أصبحت حاملاً". وفي رواية أخرى؛ نقرأ: "زكريا وانشبي كانا شيخين، وحدث إن شربت ماء وأصبحت حاملاً من ذلك الماء".[٥٤]

ولدى العرب القدماء اعتقاد بقوة الماء الشفائية ويتحدث ابن الكلبي إن سادنا للكعبة في مكة يدعى عمرو بن لحي قد مرض مرضًا شديدًا، فقيل له إن بالبلقاء في بلاد الشام حَمة إذا أتاها شفي من مرضه، فاتاها واستحم بها وبرأ.[٥٥] ولقد نظر الزرادشتيون إلى الماء كقوة شافية، ففي نصوص عديدة تخاطب المياه كشافية للأمراض:

دورية كان التاريخية - دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

"أيتها المياه! سميت الأفضل والأروع،
غزارتك وحنانك [كحنان الأمهات]،
دفئك، حكمك المطلق، واعتناؤك بالفقراء.
لك كل المنح الطيبة يا صاحبة الأيادي الطويلة التي [باستطاعتها] أن تصل إلى الأمراض والتعاسة [وتشفيها]
يا أم الحياة".[٥٦]
أو: **"امجد مياه اردفيسورا اناهيدا،**
واسعة التدفق [كما هي] وذات التأثير الشافي".[٥٧]

وهناك صلاة توضح الدور الكبير للمياه في شفاء الأمراض: "تعالي أيتها الغيوم من فوق الأعالي، إلى الأسفل نحو الأرض، بوساطة ألاف القطرات وأعدادًا لا تحصى منها. قل هذه الكلمات أيها المقدس زرادشت: لتفتك بالمرض، لتفتك بالمرض، وتفتك بالموت، لتفتك بالمرض الذي يقتل، وبالموت الذي يقتل، ولتفتك بگادها، اباگادها (أمراض غير معروفة). إذا جاء الموت بعد الظهيرة فليأت الشفاء عند الليل! وإذا جاء الموت في الليل فليأت الشفاء عند الفجر! وينزل مع هذه الأمطار ماء جديد، أرض جديدة، نباتات جديدة، علاجات جديدة وشفاء جديد".[٥٨] وبلا شك كان الإيرانيون في العصر الساساني (٢٢٦-٦٣٧م) كانوا لا يزالون يؤمنون بقوة المياه الشافية، فقد قيل إن الملك الساساني يزدجرد قد مرض ذات مرة فأشار عليه المنجمين بالاغتسال بمياه عين ماء معينة فلما اغتسل فيها شفي في الحال.[٥٩]

٣/٢- الشعر، والعظام، والقماش:

ربما استخدم الشعر في طقوس العلاج السحرية رغم أننا لا نقرأ عن هكذا نمط من العلاج في نصوص السحر بل من التقاليد الأدبية. إذ تشير الأساطير المصرية إن شعر الإله رع عد دواء سحريًا، ففي أسطورة تقول إن الإله جيب عندما تولى حكم الأرض أمر بفتح الصندوق الذهبي أمامه، ذلك الصندوق الذي وضع فيه رع شعره، وكان رع قد أخفى الصندوق مع عكازه وخصلة من شعره في قلعة عند الحدود الشرقية لإمبراطوريته كطلسم خطر وفعال. وعندما فتح الصندوق قتل تنفس الأفعى الإلهية جميع مرافقي جيب، واحترق جيب نفسه حروقًا شديدة، ولم يشف جيب إلا بوضع خصلة شعر رع على الحروق.[٦٠]

كانت للعظام دورًا شفائيًا كما نقرأ في مصادرنا، ففي الديانة المسيحية كانت عظام القديسين والتراب المدفونين فيه قد أصبحت وسيلة شفائية إذ نقرأ في رواية مسيحية عن ملك هندي يدعى ميسدايوس قد أصيب أحد أبناءه بمرض من قبل الشيطان، وما من أحد أمكنه شفاءه، وشرع الملك يفكر ويقول: "إنني سوف أذهب، وافتح الضريح (الخاص بالقديس توما) وأخذ واحدة من عظام رسول الرب وأعلقها على ابني، وهو سوف يبرأ، ولكن عندما كان ميسدايوس يفكر حول هذا، ظهر له الرسول توما، وقال له: إنك لم تؤمن بالإنسان الحي (السيد المسيح)، فهل ستؤمن بالميت؟ ومع ذلك لا تخف، لأن مولاي يسوع المسيح عنده رحمة نحوك، وشفقة عليك من خلال صلاحه. وذهب(ميسدايوس) وفتح الضريح، ولكنه لم يجد الرسول هناك، لأن واحد من الأخوان كان قد سرقه وأخذه إلى بلاد الرافدين، غير إن ميسدايوس أخذ بعض التراب من المكان الذي تمددت فيه عظام الرسول... وعندما علق التراب على أبنه أصبح الغلام سليمًا".[٦١]

وعند العرب القدماء كان الشخص إذا أصيب بالجنون علقوا عليه الأقذار وعظام الموتى. وإذا أراد شخص دخول قرية وكان يخشى وباءها أو جنها وقف على بابها قبل أن يدخل فنهق نهيق الحمار، ثم علق عليه كعب أرنب كان بمثابة رقية من الوباء والجن.[٦٢] وعد القماش أيضًا لاسيما إذا كان مرتبطًا بالقوى المقدسة ذا قدرة علاجية كبيرة. ونقرأ في رواية مسيحية إن الإمبراطور الروماني تيباريوس قد أصابه مرض لذا أخذ في البحث بشكل جاد على قطعة قماش لامرأة تدعى فيرونيكا قيل إنها مسحت وجه المسيح، وطبقًا للأسطورة المسيحية انطبعت صورة وجهه على قطعة القماش، وقد بحث أتباع الإمبراطور عن هذه القطعة حتى عثروا على فيرونيكا: "ثم إنهم بحثوا بتيقظ كبير للحصول على صورة الرب المسيح، وقد وجدوا امرأة اسمها فيرونيكا لديها صورة الرب. ثم إن الإمبراطور تيباريوس قال لأحد أتباعه ويدعى فيلوشيان: كيف حفظتها؟ فأجابه: لقد وضعتها في قطعة قماش ذهبي، ولففتها في شال، فقال الإمبراطور تيباريوس: اجلبها لي، وانشرها أمام وجهي، حتى أخر إلى الأرض، واطوي ركبتي، علني أتمكن من عبادتها على الأرض. ثم إن فيلوشيان نشر شاله مع قطعة القماش الذهبية التي عليها انطبعت صورة الرب، ورآها الإمبراطور تيباريوس، وعلى الفور تعبد صورة الرب بقلب صاف، ونظف جسده (بها) وأصبح مثل جسد طفل صغير، وتم شفاء جميع العميان والمجذومين، والعرجان، والبكم والصم، والمصابين بمختلف أنواع الأمراض، الذين كانوا موجودين هناك".[٦٣]

٤/٢- الحيوانات والأشجار:

اعتقد الكثير من الشعوب القديمة إن لبعض الحيوانات قابلية شفائية، وأحيانًا أجزاء من هذه الحيوانات، فلدى العبريين اعتقاد بقدرة بعض الحيوانات على الشفاء، فقد اعتقد العبريون بقدرة الأفعى على الشفاء، إذ نقرأ إن الرب أمر موسى بأن يصنع حية من نحاس ويرفعها على سارية (شجرة)، فإن كل إنسان يتعرض للسع الحية وينظر إلى حية النحاس فإنه سيشفى.[٦٤] وقد اعتقد الإغريق بقدرة الأفعى على شفاء الأمراض، وكانت هناك أفاع مقدسة تعمل على لعق الجزء المصاب من جسم المريض فتشفيه.[٦٥] ونقرأ في الأساطير الإغريقية عن المرأة الأفعى ميدوزا التي قتلها البطل نصف الإله بيرسيوس، وقد أعطى دمها لاسكليبيوس الذي جمع دم أوردتها اليمنى في إناء ودماء أوردتها اليسرى في إناء أخر، فكان بدم الجهة اليمنى يشفي، وبدم الجهة اليسرى يعطي السم القاتل.[٦٦]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وليس الأفعى فقط كانت ترمز للعلاج فهناك طائفة من الحيوانات ذات قابليات شفائية كالحوت، إذ ونقرأ إن طوبيا قد أصيب بالعمى لذا يقوم بصيد حوت ويستخدم مرارته لأنها: "تنفع لمسح العيون التي عليها بياض فتشفى."[٦٧] وفي بلاد الرافدين استخدمت السلحفاة هي من رموز الإله نركال في مراسيم طرد العفاريت الشريرة.[٦٨] ويعتقد الرومان بوجود حيوانات معينة لها القدرة على الشفاء بمجرد النظر إليها، فالشخص المصاب باليرقان ما أن ينظر إلى الكروان الجبلي بحدة، وبادله الطائر تلك النظرة في الوقت نفسه شفي المريض من مرضه. ويقول بلوتارك (Plutarch) في ذلك: "هذه طبيعة ومزاج ذلك الطائر الذي يسحب المرض ببصره فيتدفق كالنهر من جسم المريض". لقد كان هواة الطيور يعرفون تلك الخاصية التي يتمتع بها كروان الجبل لدرجة أنه حين يخرج أحدهم لبيع إحداها كان يحرص على إخفائه وتغطيته خشية أن ينظر إليه شخص مصاب باليرقان فيشفى من مرضه بدون مقابل. ولم تكن هذه الخاصية مرتبطة بلون الطائر ذاته بل بعينيه الذهبيتين الكبيرتين اللتين تجذبان الصفرة بسهولة ويسر. ويتكلم بليني (Pliny) عن طائر أخر ولعله هو الكروان الجبلي ذاته، كان الإغريق يطلقون عليه نفس الاسم المستعمل عندهم لمرض اليرقان، لأنه لو نظر إليه شخص مصاب بذلك المرض فارقه مرضه في الحال، ومات الطائر.[٦٩]

٢/٥- الجسد المقدس:

في بعض الديانات تظهر دلائل إن الناس اعتقدوا بوجود أجساد مقدسة لها القدرة على الشفاء بمجرد لمسها، وأحيانًا بعض أجزاء ذلك الجسد الذي هو في حقيقته هبة إلهية. ونقرأ في أسطورة إغريقية إن الآلهة منحت بيلوبس ابن تانتالوس كتفًا عاجيًا، ولهذا الكتف قوى اعجازية، فإنه مجرد لمسه يمكن أن تشفى الجروح وإن كانت مميتة.[٧٠] وهناك روايات تكشف كيف إن جسد يسوع المسيح ذاته قد أصبح رمزًا سحريًا للشفاء، ففي الكثير من الروايات لاسيما تلك التي وردت في أناجيل الابوكريفا يمكن أن تعطينا تصورات خاصة عن ذلك. ففي رواية نقرأ إن مريم العذراء تلد ابنها السيد المسيح وتدخل القابلة سالومي عليها في الكهف الذي تلده فيه لتتأكد من الأمر لأنها لم تصدق بأن العذراء تلد طفلاً، لذا يحل عليها غضب الرب فتشل يدها ولم يكن أمامها إلا أن تصلي لكي يتم غفران ذنبها وبالتالي شفاءها: "مضت القابلة إلى الداخل وقالت لمريم: اعدي نفسك، لأن هناك خلافًا صغيرًا يتعلق بك (أي إنها تشك إن مريم عذراء)، وأدخلت سالومي إصبعها لتفحص وضعها، فصرخت قائلة: الويل لشروري، ولعدم تصديقي، لأنني جربت الرب الحي، وانظروا، إن يدي سقطت وانفصلت عني، واحترقت بالنار. وجثت على ركبتها أمام الرب قائلة: يا رب أبائي، تذكرني، لأنني من ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولا تجعلني وسيلة تشهير لبني إسرائيل، بل أرجعني من أجل الفقير، لأنك تعلم يا رب، إنني باسمك مارست القيام بواجباتي، وإنني منك تلقيت أجرتي. ونظرت وإذ بملاك الرب ظهر، وقال لها: سالومي، لقد سمع الرب دعائك اجلبي يدك إلى الطفل والمسيه، والخلاص والسرور سوف يكون لك. واقتربت سالومي منه ولمسته قائلة: إنني سوف أعبدك، لأن الملك العظيم قد ولد لبني إسرائيل، وشفيت سالومي حسبما طلبت"[٧١].

وفي نسخة ثانية من نفس الرواية تقول، إن القابلة سالومي قد لمست أطراف القماش الذي كان ملفوفًا فيه.[٧٢] وفي رواية أخرى نقرأ إن مريم وابنها يسوع قد دخلوا مرة إلى بلدة كان يجري فيها احتفال زواج، ولكن نتيجة لتدخل الشيطان أصبحت العروس خرساء، ولم يعد بإمكانها التفوه بكلمة واحدة، ولكن مريم ذهبت إلى العروس ومعها أبنها الطفل يسوع، فمدت الأخيرة يدها نحو السيد المسيح، وجذبته نحوها، وأخذته بين ذراعيها، واحتضنته بقوة وقبلته، وانحنت فوقه وحركت جسدها نحو الأمام ونحو الخلف، وعلى الفور انحلت عقدة لسانها، وانفتحت أذناها.[٧٣]

٢/٦- الرموز الدينية والطقسية:

وتظهر في بعض الديانات القديمة، فللصليب أهمية شفائية في الديانة المسيحية، ويذكر المؤرخ السرياني البطريرك ميخائيل السرياني الكبير في تاريخه إن هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين توجهت إلى القدس وتمكنت من العثور على ثلاث صلبان، فلم تتمكن من تمييز الصليب الذي صلب عليه المسيح، من الصلبان التي صُلب عليها اللصين، فجاء الأسقف بامرأة تحتضر، فوضع عليها صليبي اللصين فلم تتحرك، ولما وضع الصليب العائد للسيد المسيح نهضت.[٧٤] والزيت في الديانة المسيحية كان له دورًا مهمًا في تحقيق الشفاء، إذ تقوم العقيدة المسيحية على مجموعة من مبادئ تعرف بالأسرار السبعة منها سر مسح المرضى، وهو طقس كنسي يقوم أثناءه الكاهن بمسح المريض بزيت مقدس فيشفى المريض من أمراضه الروحية والجسدية.[٧٥]

٢/٧- الجبال والحلي:

تُظهر الجبال خصائص شفائية، فعند العرب القدماء تؤثر في حياة الإنسان، فكان من تأثير جبل أبي قبيس أن يزيل وجع الرأس.[٧٦] وعدت الحلي أحيانًا من وسائل الشفاء، فمن عادات العرب القدماء إنهم يعلقون الحلي والجلاجل على اللديغ يرون أنه بذلك يفيق.[٧٧]

خاتِمَةٌ

- شـكلت العقـاقير السـحرية قـدرة شـفائية عاليـة قـد تـوازي الممارسـات السـحرية التي ينفـذها الطبيـب السـاحر، بـل قـد تفوقـت عليهـا أحيانًـا. وقـد تباينـت هـذه العقـاقير مـن نباتـات سحرية إلى عناصر مركبة آمن القدماء بأهميتها الشفائية.
- لقد كانت النباتات السحرية من القوى التي تهبها الآلهة للبشر سـواء كانـت تلك بيـد الأخيرة فتمنحهـا للبشـر، أو أنهـا ببسـاطة تمثل في نفس الوقت آلهة مجسدة بشكل نباتات شافية مثلما هو الحال في نبات هوما في الأساطير الإيرانية القديمة.
- هناك نمط آخر من العقاقير التي نقرأ عنها في الأدبيات القديمة وهي الأدويـة المركبـة التي يحضـرها عـادةً الطبيـب أو السـاحر الشـافي، ويعتقـد القـدماء بـأن مكوناتهـا تتسـم بقـدرة سـحرية عالية للتخلص من المرض. وهناك إلى جانبها العقاقير المقززة التي تعد من مواد تثير اشمئزاز المريض والهدف منها بلا شك هو دفع العفريت المسبب للمرض على مغادرة جسد المريض.
- في كثير من الأحيان نقرأ عن علاجات أخرى تستخدم وتمثل ببساطة أدوات إما سحرية مثل الأحجار والماء، أو طقسية تحل محـل الأدويـة السـحرية المركبـة منهـا أو المقـززة لتلعـب دور الشافي، فقد كانت الكثير من الأدوات التي تحيط بالإنسان تعد ببساطة أدوات ذات سحر تساعد على الشفاء، فالمريض ما أن ينزل للماء حتى يتطهر ويتخلص من المرض في ذات الوقت، وكثير ما يخاطب النهر بأنه يطهر ويشفي المرضى.
- إن الاعتقاد بقدرة الأدوات السحرية والعقاقير على التخلص من المرض يعد من الامور الشائعة والمقبولة ذهنيًا لدى القدماء، فقبـل كل شـيء هـم يعتقـدون بوجـود قـوى خفيـة بكثير مما يحيطوهم، ومن ثَمَّ بلا شك كانت هذه القوى الخفية تعمل بشـكل فـوري على مسـاعدتهم نظرًا لقابلياتهـا السـحرية، ومن هـذا المنطلق كان الإنسان يشـعر بأنه عـاجز نوعًا ما أمام هـذه القوى، وأنـه يحتـاج إلى تـدخلها السـحري رغـم كل شـيء، وبلا شـك فـإن هـذه تمثـل رغبـة دفينـة في أعمـاق الـنفس البشـرية تهـدف إلى الـتخلص مـن المـرض حتى لا يشـعر الإنسـان بـالألم النـاتج عنه.

الهَوامِشُ:

(١) صموئيل نوح كريمر، **السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم**، ترجمة: فيصل الوائلي، (الكويت: دار غريب للطباعة، ١٩٧٣)، ص٥٨؛ قاسم الشواف، **ديوان الأساطير**، (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٧)، ج٢، ص٥٠٠،٥٠٤؛ صموئيل هنري هوك، **منعطف المخيلة البشرية**، ترجمة: صبحي حديدي، (اللاذقية: دار الحوراء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص٦٦.

(٢) فاتن موفق فاضل علي الشاكر، **رموز أهم الآلهة في العراق القديم: دراسة تاريخية دلالية**، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٢)، ص٥٣.

(٣) علي الشوك، **الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة**، (لندن: دار اللام، ١٩٨٧)، ص٢٠٦؛ ناجح المعموري، **تأويل النص التوراتي: أسطورة نبات اللفاح وعقائد الانبعاث الكنعاني**، (بغداد: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٨)، ص٢٩.

(٤) حول الترجمة الكاملة للافستا الزرادشتي انظر: خليل عبد الرحمن، **افيستا: الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية** (ترجمة)، (دمشق: روافد للثقافة والفنون، ٢٠٠٨).

(٥) ياسنا،١١: ٧.

(٦) ياسنا،١١: ٩.

(٧) ياشت،٩: ١٧.

(٨) ياشت،١٧: ٣٧.

(٩) بنداهيشن، الفصل:٢٤.

(١٠) عبد الرحمن، افيستا، ص٣٧٨.

(١١) ياشت،١٠: ٨٨.

(١٢) بنداهيشن، الفصل:٢٧.

(١٣) ياشت،١١: ١٧.

(١٤) بنداهيشن، الفصل:١٤.

(١٥) ماكس شابيرو وردوا هندريكس، **معجم الأساطير**، ترجمة: حنا عبود، (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٨)، ص١٠٨.

(١٦) سامي سعيد الأحمد، **الإله زووس: مقدمة في دراسة الاعتقاد بزووس حتى اضمحلال روما**، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٠)، ص٣٨؛ عبد اللطيف أحمد علي، **التاريخ اليوناني: العصر الهيلادي**، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٦)، ص٢٢٧ - ٢٢٨.

(١٧) بيبليوس فرجيليوس مارو فرجيل، **الانيادة**، ترجمة: عنبرة سلامة الخالدي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨)، ص٢٥١.

(١٨) هاري ساكز، **قوة أشور**، ترجمة: عامر سليمان، (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٩)، ص٣٢٣ - ٣٢٦.

(١٩) عبد اللطيف البدري، **الطب في العراق القديم**، (بغداد: منشورات المجمع العلمي، ٢٠٠٠)، ص٤٠.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٢١) حسن كمال، **الطب المصري القديم**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص٥٦٣.

(٢٢) آنا رويز، **روح مصر القديمة**، ترجمة: إكرام يوسف، (القاهرة: مكتبة الشرق الدولية، ٢٠٠٦)، ص١٥٣.

(٢٣) أبو القاسم الفردوسي، **الشاهنامة: ملحمة الفرس الكبرى**، ترجمة، سمير المالطي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩)، ص١٢٣.

(٢٤) هوميروس، **الإلياذة**، ترجمة: ممدوح عدوان، (أبو ظبي: دار كلمة للطباعة، ٢٠٠٩)، ٥: ٣٩٤-٤٠٢.

(٢٥) هوميروس، **الإلياذة**، ٥: ٨٩٩- ٩٠٠.

(٢٦) يوحنا، ٩: ١-٧.

(٢٧) جورج كونتينو، **الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور**، ترجمة: سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٩)، ص٤٨٨؛ مارغريت روتن، **علوم البابليين**، ترجمة: يوسف حبي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص٧٣.
(٢٨) روتن، **علوم البابليين**، ص٧٤.
(٢٩) ساكز، **قوة أشور**، ص٣٢٩.
(٣٠) كمال، **الطب المصري**، ص١٤.
(٣١) البدري، **الطب**، ص١٠٣.
(٣٢) محمد أبو المحاسن عصفور، **معالم حضارات الشرق الأدنى القديم**، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٧)، ص١٢٩؛ بول غليونجي، **الطب عند قدماء المصريين**، (الإسكندرية: دار مطابع المستقبل، بلا.ت)، ص٤٨.
(٣٣) كمال، **الطب المصري**، ص٥٧٠.
(٣٤) المصدر نفسه، ص٤٣٤.
(٣٥) محمد الخطيب، **معالم حضارة مصر القديمة**، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٣)، ص٢١٧.
(٣٦) هيرودوت، **تاريخ هيرودوت**، ترجمة: عبد الإله الملاح، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٧)، ص١٨١.
(٣٧) جيمس فريزر، **الفولكلور في العهد القديم**، ترجمة: نبيلة إبراهيم، مراجعة: حسن ظاظا، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢)، ص٥٢.
(٣٨) كمال، **الطب المصري**، ص٥٣٣ - ٥٣٤.
(٣٩) البدري، **الطب**، ص٧٤.
(٤٠) جيمس فريزر، **الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين**، ترجمة: أحمد أبو زيد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١)، ص ١٧١.
(٤١) المصدر نفسه، ص١٢٠.
(٤٢) سهيل زكار، **الأناجيل: النصوص الكاملة (ترجمة)**، (دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، ص١٠٢.
(٤٣) سامي سعيد الأحمد، **الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان**، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٠)، ص١٠٣.
(٤٤) ميرسيا الياد، **المقدس والعادي**، ترجمة: عادل العوا، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩)، ص١٦٠ - ١٦١.
(٤٥) فراس السواح، **الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية**، (دمشق: منشورات علاء الدين، ٢٠٠١)، ص٧٦.
(٤٦) رويز، **روح مصر الخالدة**، ص٢٩٢.
(٤٧) هيرودوت، **تاريخ**، ص٢٢٧.
(٤٨) انظر: النص الكامل للرواية في: **الملوك الثاني**، ٥: ١-١٤.
(٤٩) يوحنا، ٥: ١-٤.
(٥٠) **إنجيل الطفولة العربي**، :١٧.
(٥١) **إنجيل الطفولة العربي**، :٢٧.
(٥٢) **أعمال القديس توما**:٥١.
(٥٣) **إنقاذ فينديكتا**: ٣٥.
(٥٤) محمد عمر حمادة، **تاريخ الصابئة المندائيين**، (دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٢)، ص١٠٣.
(٥٥) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٥)، ص٨.
(٥٦) **ياسنا**، ٣٨: ٥.
(٥٧) **ياسنا**، ٦٥: ١.
(٥٨) **فينديداد**، ٢١: ٢-٣.
(٥٩) الفردوسي، **الشاهنامة**، ص١٤٧.
(٦٠) الخوري، **معجم الأساطير**، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠)، ج١، ص٢٣٨-٢٣٩؛ ج.ڤايد، **"ديانة مصر القديمة: الآلهة والأساطير"**، بحث ضمن موسوعة: **تاريخ الأديان**، تحرير: فراس السواح، (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٧)، ج٢، ص١٨.
(٦١) **أعمال القديس توما**: ١٧٠.
(٦٢) محمد عبد المعيد خان، **الأساطير العربية قبل الإسلام**، (القاهرة: بلا.مط، ١٩٣٧)، ص٥٤.
(٦٣) **إنقاذ فينديكتا**: ٣٢ - ٣٣.
(٦٤) العدد، ٢١: ٨- ٩.
(٦٥) كمال، **الطب المصري**، ص١٧.
(٦٦) فراس السواح، **لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢)، ص١٥٤.
(٦٧) **طوبيا**، ٦: ٩.
(٦٨) الشاكر، **رموز أهم الآلهة**، ص١٧٥.
(٦٩) فريزر، **الغصن الذهبي**، ص١١٩.
(٧٠) ريكس وارنر، **الإغريق والطرواديون أو حرب طروادة**، ترجمة: صالح التويجي، (بغداد: مطبعة الاقتصاد،١٩٨٧)، ص١٤.
(٧١) **إنجيل جيمس**، ٢٠: ١- ٤.
(٧٢) **إنجيل متى المزيف**: ١٣.
(٧٣) **إنجيل الطفولة العربي**: ١٥.
(٧٤) زكار، **الأناجيل**، ص٩٩.
(٧٥) محمد أبو رحمة، **الإسلام والدين المصري القديم: دراسة مقارنة بين الدين القديم والأديان السماوية**، (القاهرة: حابي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥)، ص١٠٠.
(٧٦) خان، **الأساطير العربية**، ص٥١.
(٧٧) المصدر نفسه، ص٥٤.

دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



المرأة اليمنية
بين السياسة والحضارة
خلال القرنين (٧ – ٨ هـ/ ١٣ – ١٤م)

أحمد محمد عبد الحميد محمد

مدرس مساعد – قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة المنصورة
الدقهلية – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد محمد عبد الحميد محمد، المرأة اليمنية بين السياسة والحضارة خلال القرنين (٧ – ٨ هـ/ ١٣ – ١٤م).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٧١ – ٧٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

إن الحديث عن المرأة اليمنية وإسهاماتها السياسية والحضارية داخل ميادين المجتمع اليمني يقتضي البحث والتقصي، فالمرأة اليمنية ظلت مغمورة طوال فترات تاريخية متعددة نتيجة العديد من العادات والتقاليد والقيود الاجتماعية التي فرضها الواقع اليمنى، ولذلك وجب التطرق لواقع المرأة ودراسته خلال تلك الفترة الزمنية. فقد لعبت المرأة اليمنية منذ القدم دور ريادي في مختلف المجالات والأنشطة السياسية والاقتصادية والمجتمعية والمعرفية، ومما يؤكد ذلك دور الملكة بلقيس في إدارة شئون البلاد فترة من الزمن أعدتها بعض المصادر من أفضل فترات التاريخ اليمني، ولم ينتهي نشاط وإسهامات المرأة اليمنية عبر العصور اللاحقة، فنجد السيدة أسماء بنت شهاب الصليحي، والملكة أروى الصليحية كان لهن دور بارز في تسير أمور الدولة الصليحية. كما شهدت اليمن خلال القرن السابع والثامن الهجري – الذي يعد أزهى عصور اليمن النهضوية – العديد من إنجازات وإسهامات المرأة اليمنية في كافة ميادين العمل العام، ففي مضمار الواقع السياسي لليمن آنذاك شاركت في تدبير شئون البلاد من وراء حُجب وإيصال العرش لورثته، وتولت زعامة القبائل، ولعبت دورًا بارزًا في الصراع الدائر بين أبناء البيت الحاكم، وسعت سعيًا حثيثًا في حل القضايا والإشكاليات السياسية، وفك الأسرى، كما شاركت في الحروب والمعارك من خلال تضميم الجروح، وجبر الكسور وغير ذلك من الأعمال الخاصة به. ولم يقتصر التواجد النسائي داخل المجتمع اليمني على المشاركات السياسية فحسب، بل تعداه للمساهمة والمشاركة في ميادين الحياة العامة من نواحي اقتصادية كالزراعة، والصناعة، والتجارة، ونواحي اجتماعية ككفالة اليتيم، وتبني قضايا الفئات المستضعفة، ونواحي عمرانية كتشييد المساجد والمدارس والدور والأسبلة وتمهيد الطرقات، وأخيرًا دورها المعرفي الفعال وإسهاماتها داخل النتاج التأليفي.

مُقَدِّمَة

يشكل المجتمع عدد من الناس في مكان ما، نشأت بينهم علاقات وصلات تفرضها طبيعة وجودهم معًا، وبما أن المرأة نصف المجتمع أينما وجد ذلك المجتمع وأيًا كان نوعه وزمنه من التاريخ، فإنه لا يتصور مجتمع بدون امرأة كما لا يمكن إغفال دورها الذي يتمثل في نصف الحياة . ورغم القيود الاجتماعية التي فرضتها العادات والتقاليد على المرأة اليمنية، والتي من بينها المقولة الشائعة في الموروث اليمنى "المرأة ناقة وإن هدرت"،[1] إلا أنها أثبتت جدارتها، وهذا المثل يكفي مؤنة السؤال عن قيمة وإنجازات وإسهامات المرأة داخل بلاد اليمن.

ومن هذا المنطلق كانت تلك الدراسة الموسومة بـ "المرأة اليمنية بين السياسة والحضارة خلال القرنين (٧ - ٨هـ/ ١٣- ١٤م)"، بمثابة تسليط الضوء على إسهامات الوسط النسائي في اليمن خلال تلك الحقبة، ويعالج هذا الموضوع من خلال ثلاث محاور،

جاء الأول لإبراز مكانة المرأة اليمنية عبر التاريخ، والثاني لإيضاح الإسهامات السياسية للنساء اليمنيات، وتتمثل في توجيه سياسية الحكام - من وراء ستار - والإدلاء بالمشورة، ودورها في الصراع بين أبناء البيت الحاكم، وحل العديد من الإشكاليات، والثالث يناقش التواجد النسائي داخل الميدان الحضاري في المجالات الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية والمعرفية.

منهج البحث

واعتمدت تلك الدراسة على العديد من مناهج وطرق البحث، كالمنهج الوصفي التاريخي، والمنهج التاريخي التتبعي في جوانب، والمنهج التحليلي الاستقرائي في جوانب أخرى، كي تساهم تلك المناهج في إيضاح الصورة المشرقة للمرأة اليمنية.

الدراسات السابقة

وعلى حسب علم الباحث لم يتطرق أحد لدراسة هذا الموضوع خلال تلك الحقبة الزمنية بشكل تفصيلي ومجهري، وإنما كانت معظم الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع من قريب، أو بعيد عبارة عن إشارات ضمنية، أو دراسات سابقة عن الحقبة الزمنية المعنية بالدراسة، ومن أهم هذه الدراسات:

أسامة أحمد حماد: **مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي: عصر دولتي بني أيوب وبني رسول**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ٢٠٠٤م. عفت وصال حمزة: **نساء حكمن اليمن**، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م. زياد منى: **بلقيس- امرأة الألغاز وشيطانه الجنس**، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م. عبد الله محمد الحبشي: **معجم النساء اليمنيات**، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م. حياة عبد القادر المرسى: **دور السيدة أروى بنت أحمد الصليحى في اليمن (٤٧٣ - ٥٣٢/ ١٠٨٠ - ١١٣٨م)**، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٩٨٠م.

مصادر الدراسة

من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة كتاب "السلوك في طبقات العلماء والملوك" للمؤرخ محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (ت٧٤٢/١٣٤١م) الذى يعد عمدة مؤرخي تلك الفترة، حيث أتاح كتابه العديد من التراجم التي أوضحت الكثير من المشاركات السياسية والحضارية للمرأة، وكتاب "العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية" لأبى الحسن على بن الحسن الخزرجى (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م) الذي عاصر كثير من الأحداث التاريخية المعنية بالدراسة، وشارك فيها، لذا كانت معلوماته أصدق وأفر المعلومات التى أوضحت لنا الكثير من الإسهامات السياسية والحضارية للمرأة اليمنية، كما كانت المراجع العربية من أهم مصادر ومراجع البحث التي أفادته في كافة مناحيه، ومنها السفر العلمي للقاضي إسماعيل بن على الأكوع الموسوم ب "المدارس الإسلامية في اليمن"، وكتاب عبد الله محمد الحبشي المعروف بـ"معجم النساء اليمنيات".

أولاً: مكانة المرأة اليمنية عبر التاريخ

تعد المرأة اليمنية مسئولة عن كل ما جاء به الإسلام في الكتاب والسنة من قيادة وسياسة واجتماع واقتصاد وغيرها من شتى مناحي الحياة، وهذا موافق لقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾،[٢] وهذه دلالة على المساواة بين الطرفين في القابلية لكسب العمل صالحاً كان أم طالحاً وما يترتب عليه من جزاء. وعلى هذا الأساس لعبت المرأة اليمنية دورًا بارزًا في التاريخ اليمنى، فقد برز الكثير منهن على المسرح السياسي قبل الإسلام وبعده، كما ظهرت أُخريات في عالم الفكر والثقافة وكان لهن الإسهامات المبدعة في هذا المجال وغيره من المجالات، ويكفي القول بأن منهن أعظم ملكة عربية قبل الإسلام وبعده كبلقيس وأروى الصليحية، فملكة سبأ اتسمت بالمكانة الرفيعة والعظمة في مُلكها والمقدرة على ممارسة شئون قومها.[٣]

وظهرت العديد من مشاهير النساء اليمنيات في الفترة السابقة على موضوع الدراسة، مع بداية نشوء الدويلات اليمنية المستقلة عن دار الخلافة بعد بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فمثلاً عند بداية تدهور سلطة الدولة الزيادية في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، نجد أن هند أخت أبى الجيش ابن زياد تصبح هي الكافلة لابن أخيها الأمير القاصر وصاحبة الكلمة الأولى والسلطة الحقيقية للدولة خلال أربعين سنة كاملة وبموتها تنتهي الدولة الزيادية في اليمن،[٤] والدولة الحبشية عَرفت أيضًا بعض النساء الشهيرات كالحرة أم فاتك التي كانت في زمانها الملكة الفعلية وكان وزراؤها يتحدثون باسمها ويأتمرون بأمرها.[٥]

أما الدولة الصليحية (٤٣٩ – ٥٣٣هـ/١٠٤٧-١١٣٨م) التي كانت من أشهر الدول في اليمن، فالحقيقة أن تاريخها هو تاريخ المرأتين العظيمتين فيها، وهن أسماء بنت شهاب- زوجة مؤسس تلك الدولة الداعي على بن محمد الصليحي والمشاركة له في الحكم، وأروى بنت أحمد الصليحى- زوجة ابنهما المكرم والتي حكمت اليمن ما يقارب الخمسين عامًا (٤٩٢- ٥٣٢ هـ/ ١٠٩٩-١١٣٧م)، وقد بلغ من علو شأن السيدة أسماء بنت شهاب ومكانتها في دولة زوجها أنه كان يُخطب لها على المنابر، فيخطب أولاً للمستنصر الخليفة الفاطمي في مصر، ثم لعلى الصليحى ثم لزوجته أسماء فيقال: "اللهم أدم أيام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنين"، وفيها قال أحد الشعراء:

رسمت في السماح سنة جود   لم تدع من معالم البخل رسمًا

قلت إذا عظموا لبلقيس عرشًا

دست أسماء من ذرى النجم أسمى.[٦]

وأما أروى بنت أحمد (٤٤٠ – ٥٣٢هـ/١٠٤٨-١١٣٧م) فقد وصفها المؤرخون بأنها "أعظم ملكات العرب في الإسلام، وكان يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها"،[٧] ومن أوصاف المؤرخ اليمنى عمارة لها أنها كانت "قارئة تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ، امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل"، وقد شاركت

زوجها في أمور الدولة لما أصابه المرض- الفالج[٨]- وأصبح عاجزًا عن إدارة شئون الحكم وأعتكف بعيدًا عن السياسة والحكم بناء على نصيحة الأطباء ففوض الأمر إليها،[٩] وبعد موت زوجها وصراعها مع الأمراء الصليحين المنافسين عينها الخليفة المستنصر ملكة بدون منازع على اليمن ومارست السلطة الكاملة في كل شؤون الدولة والدعوة الفاطمية حوالي خمسين عامًا.[١٠]

ومن أعمال هذه الملكة العناية بالتنظيم الإداري، من خلال تقسيم البلاد إلى أقاليم ومدن وعينت على كل مدينة ولاه أكفاء من قبلها فكانت بذلك على علم بكل صغيرة وكبيرة تحدث داخل نطاق مملكتها،[١١] كما اهتمت بالجيش واستقدمت القواد والخبرات والجنود من الخارج لتحسين مستواه، كذلك أولت النواحي الاقتصادية عناية فائقة فاهتمت بالزراعة والتجارة، وشيدت القصور والحصون والقلاع والاسبلة ومهدت الطرقات، ونقلت العاصمة من صنعاء إلى ذي جبلة، حيث الاهتمام بالعمل والإنتاج والزراعة، بدلاً من الحرب ولمع السيوف في صنعاء،[١٢] وأوقفت العديد من الأراضي الزراعية على طلبة العلم والمدارس،[١٣] وفيها يستحق مدح الشاعر:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخرًا للهلال
ولو أن النساء كمن عرفنا لفضلت النساء على الرجال.[١٤]

ثانيًا: الإسهامات السياسية للنساء اليمنيات

إن الحضور السياسي للمرأة في المجتمع ليس حقًا فحسب، إنما هو واجب من واجباتها، فإسهاماتها تلك ليست نوعًا من أنواع المزاحمة بل نوع من أنواع التكاملية لبناء مجتمع مستوفي كافة العناصر، فالله تعالى يقول في محكم آياته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾،[١٥] ومن هذا المنطلق ستبين الدراسة أهم الإسهامات السياسية التي شاركت فيها المرأة داخل المجتمع اليمنى. فقد قامت المرأة بالعديد من الأدوار داخل الحياة السياسية والتي من بينها المشاركة في تدبير شئون البلاد - من وراء حُجب- وإيصال العرش لورثته، فهذه أم الناصر أيوب بن طغتكين التي قامت عقب مقتله سنة ٥٩٩هـ /١٢١٤م، بإدارة أمور البلاد وتدبير شئون المملكة الأيوبية اليمنية لانقطاع الذكور من البيت الأيوبي وعدم وجود من يتولى مهام الحكم، كما استطاعت أن تحفز مماليك ولدها للانتقام والثأر من قتلته ونجحت في هذا الصدد، وظلت تتولى الأمور حتى قدوم أمير أيوبي في موكب الحجيج يدعى "سليمان بن تقي الدين الأيوبي"، فاستدعته وتزوجت به ثم سلمته مقاليد السلطة، وتولى خلال عام (٦١١-٦١٢هـ/ ١٢١٤-١٢١٥م).[١٦]

ومنهم الدار الشمسي (ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م) ابنة السلطان المنصور عمر بن على بن رسول (ت٦٤٧ هـ/١٢٤٩م)، التي ساهمت في مساندة أخيها السلطان المُظفر يوسف بن عمر (ت٦٩٤ هـ/١٢٩٤ م)، لاسترداد ملكه المسلوب من قبل بنت جوزة - الزوجة الثانية للسلطان المنصور- التي حاولت أن تجعل ولاية العهد لأبنها المُفضل بن المنصور الأصغر سنًا والأقل كفاءة، وعقب مقتل والد الدار الشمسي في الجند،[١٧] كانت تقيم في مدينة زبيد،[١٨] فقامت بالسيطرة والحفاظ عليها من المماليك الذين أثاروا النهب والسلب بزعامة ابن عمها فخر الدين بن أسد بن رسول، والذى حاول اعتلاء العرش والسطو عليه لكنه لم يجد لذلك سبيلاً، فأخرجت الطواشى بدر الدين الملقب بالصغير من السجن الذى وضع فيه من قبل بنت جوزة نتيجة حبه الشديد للمُظفر،[١٩] وامتاز هذا الطواشى بالحنكة السياسية وأنه كان على قدر كبير من تدبير الأمور، كما أمدته بالعديد من العدد والعتاد والأموال لرد الهجوم الذي يشنه المماليك على زبيد، حتى قدوم المُظفر الذي كان في المهجم،[٢٠] ثم أرسلت لأخيها العديد من الرسائل تحثه على الإسراع في القدوم من أجل فك الحصار واستلام مقاليد الحكم.[٢١]

وكانت زبيد أول مدينة تدخل تحت نطاق سلطان المُظفر، ثم أكمل المسيرة لاسترداد بقية المدن والحصون التي غلب عليها أيدى المعتدين، فسقطت واحدة تلو الأخرى تحت مشورة ومساندة الدار الشمسى، ومن أشد الحصون ضراوة في الصمود أمام المُظفر كان حصن الدملوه[٢٢] الذي كانت تسيطر عليه بنت جوزه، وهنا يبزر مدى الدور الفعال للدار الشمسي في المساهمة الفعلية في استرداد ملكه، حيث وضعت خطة مع أخيها المُظفر للاستيلاء على هذا الحصن، فصعدت إلى الحصن لخالتها بنت جوزة ومعها بن أخيها الأشرف الأول بن المُظفر وزوجته كرهائن، شاكية لها الخلاف الدائر بينها وبين أخيها، وبعد الاطمئنان من قبل بنت جوزة، مكثت لديها عدة أيام قامت خلالها باستمالة العديد من العمال والخدم ووعدتهم بالأموال والخير وإصلاح الأمور حتى تستعملهم لصالحها، وبعد مدة أصدرت الدار الشمسى إشاعة بأن "البقرة الفلانية ولدت عجلاً برأسين"،[٢٣] فأرادت بنت جوزة أن تراه وأخذت ولديها ونزلت من الحصن من أجل النظر إليها، وطلبت من الدار الشمسى أن تنزل معها فاعتذرت بأنها مريضة، وعندئذ سيطرت الدار الشمسى على الحصن واستدعت أخيها لتسلمه، ولم تستطيع بنت جوزة العودة إليه مرة أخرى.[٢٤]

كما قامت جهة صلاح أم السلطان المجاهد (ت. ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) وزوجة السلطان المؤيد داود (ت. ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، بالمساهمة في إرساء قواعد مُلك ولدها وكانت له خير معين في أوقات الأزمات والمحن التي تعترى دولته الناشئة، ومنها الصدام الدائر بينه وبين عمه المنصور أيوب بن السلطان المُظفر فقبض على المجاهد وسجنه في حصن تعز، فقامت والدته بمراسلة غلمان ابنها وأغدقت عليهم الأموال من أجل فك أسر ولدها وأقامته في الحكم مرة أخرى والقبض على عمه المنصور أيوب،[٢٥] وأمام هذا الحادث قام ابن عمه الظاهر بن المنصور أيوب سنة (٧٢٤هـ/١٣٢٣م) بحصار المجاهد في عقر داره بحصن تعز، فقامت والدته بالوقوف بجانبه وإمداده بالأموال والرجال لفك الحصار واسترداد المناطق المسلوبة.[٢٦]

ولعبت جهة صلاح دورًا هامًا في الحفاظ على عرش ابنها ومرافقته في كافه خطواته، فعندما سافر لأداء فريضة الحج سارت معه،[٢٧] وأثناء دخوله في صدام مع الركب المصري وتغلبه عليه اضطر إلى الاستسلام فأُسر وتم نقله إلى مصر، وفي هذه الآونة كانت والدته تراقب الموقف عن بُعد بسبب عدم إمكانية الدخول في صدام مع القوات المصرية، وسعت في استرداد ما تبقى من أملاك ولدها من خيل وبغال وآلات ثم عادت إلى اليمن حزينة،[٢٨] وبعد بلوغها الديار اليمنية لم تظهر شيئًا وأقيم لها الاحتفاليات والزينة وطلبت أولاد ابنها ليكونوا بجانبها حتى لا يصيبهم أي مكروه، وتحصنت في حصن تعز، ثم استدعت خيرة الأمراء والرجال التي تثق فيهم من أجل الأخذ بمشاورتهم وسير الأمور على ما يرام حتى عودة المجاهد، وطلبت من الصالحين الدعاء لرجوع المجاهد فبشروها بعودته قريبًا.[٢٩]

عانت جهة صلاح أثناء مدة غياب المجاهد من كثرة الفتن والصراعات القبلية التي شهدتها البلاد، لاسيما بعد خروج المعازبة،[٣٠] والقرشيين،[٣١] مرات متتالية، فبذلت مجهود كبير في الوقوف أمام تلك الصدامات التي كانت تهدف لقطع أواصر الترابط بين أجزاء الدولة، وبذلت الكثير من الأموال من أجل ذلك،[٣٢] كما هيأت المدن والأمراء والرجال لاستقبال المجاهد بعد فك أسره وأقامت الاحتفاليات فرحًا بذلك.[٣٣] كذلك كانت جهة طغ (ت. ٧٨٤ هـ/١٣٨٢م) من النساء البارزات التي اتسمت بالحنكة السياسية والعبقرية الفذة في إدارة شئون البلاد ووصفت بأنها سيدة ملوك الشام واليمن،[٣٤] فبعد وفاة زوجها الملك الأفضل العباس سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، استدعت الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة وعلمائها ووجوه الأشراف ومشائخ العرب، وأغدقت عليهم العديد من الهدايا والكسوات والجوائز السنية والأموال، ثم طلبت منهم الولاء والطاعة للأشرف الثاني إسماعيل (ت.٨٠٣هـ/١٤٠٠م) فأعلنوا له الطاعة والبعد عن المناوئين لسياسته وبهذه السياسة الحكيمة أرست دعائم مملكة الأشرف الثاني.[٣٥]

لم يقتصر الأمر على نساء البيت الحاكم في التوجه السياسي للأحداث من خلال مشورتهم ومواقفهن التي غيرت مجراها، حيث شاركت العديد من نساء المشائخ والقبائل والتي من أشهرهم الشيخة بنت جابر زوجة الشيخ ابن القرابلي - أحد كبار مشايخ العرب وأرفعهن منزلة في تهامة- وذلك أثناء التجاء السلطان المظفر إليه في صراعه مع منافسوه على الحكم ليقف إلى جانبه ويساعده، فصاحب هذا الأمر مهانة المُظفر من قبل قبيلة ابن القرابلى الذين كانوا يدخلون عليه بدون استئذان ويخاطبونه بدون ألقاب، فتدخلت بنت جابر لوضع حد لهذا الأمر، كما أمرت بحاجب يقف على بابه.[٣٦]

وتولت العديد من النساء اليمنيات زعامة القبائل التي تقطنها، مثل الشيخة بنت العاطف المعزبية التي احتلت مكانة عظيمة بين قومها المعازبة في منطقة تهامة، وكانت على علاقة طيبة بالسلطان المجاهد الذى ولاها زعامة قومها بعد العصيان والتمرد، وأصبحت المتحدثة والمسئولة عنهم أمامه كما منحها المجاهد العديد من الصلاحيات والصلات والكسوات والنفوذ مما لم يكن لغيرها.[٣٧]

ومن المشاركات السياسية للمرأة اليمنية، الدور البارز في الصراع بين أبناء البيت الحاكم، فبنت جوزة كانت تقحم نفسها في الأمور السياسية بعدما أرادت أن يشترك ابنها -المفضل والفائز- في إدارة حكم بعض المناطق ذات الثقل والفاعلية في معترك الأحداث السياسية التى تشغل تلك الفترة، وأن يكونوا بجانب السلطان المنصور فيصبحوا أقرب لولاية العهد، خاصةً بعدما لاحظت المكانة العظمى للمُظفر - كما أوضحنا سابقًا- نتيجة لذلك أراد المنصور إقطاع المفضل صنعاء لكنه وجد معارضة شديدة من الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن رسول - المقيم على هذا الإقطاع في تلك الفترة- وذلك عندما عَلم بأن هدف المنصور الأساس هو إرضاء زوجته، فأدى ذلك إلى حدوث صدع في العلاقات وصراع فيما بينهم.[٣٨]

بعد الرفض والإصرار من جانب الأمير أسد الدين لجأ المنصور إلى منح المفضل المحالب،[٣٩] والتي كانت بيد ابنه الأكبر المظفر، فأدى ذلك إلى حدوث خلاف بين المنصور وولده المظفر مما أدخل الأسرة في صدام مرير كان له الأثر البالغ على كافة مناحي الحياة اليمنية.[٤٠] كما قامت الدار الشمسي بدور في هذا المنحى، حيث تولت رعاية وكفالة ابن أخيها المؤيد دواد بن المظفر وكانت تحبه حبًا جمًا، مما جعلها تسانده في الصراع القائم بينه وبين أخيه الأشرف الأول، كما اشتد ألمها عندما قبض عليه الأشرف وأودعه السجن، فسعت إلى العاصمة الرسولية لتطلب من الأشرف الإفراج والعفو عن المؤيد، لكنه رفض طلبها مما تسبب في مرضها وأدى في النهاية إلى حتفها سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٥م).[٤١]

وجهة الدملوة نبيلة بنت السلطان المظفر يوسف الأول (ت. ٧١٨هـ/١٣١٨م)، التي عُرفت بالصلاح والحنكة السياسية وبحبها الشديد لابن أخيها الأشرف الأول، والتي دخلت في صدام مع أخيها المؤيد الذى أصيب بمرض، فأرسلت إلى الملك الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف للقدوم للدعوة لنفسه، ولما علم المؤيد بذلك خرج مسرعًا من تعز إلى الجند حيث يقيم الناصر فحاصره وشدد عليه الحصار حتى طلب منه الذمة وعقد الصلح فيما بينهم، وعلى أثر ذلك اتخذ المؤيد موقفًا معاديًا لأخته وأمرها بالنزول من حصن تعز.[٤٢]

كما كانت جهة صلاح من البارزين في هذا المجال، فعندما حدث صراع بين المجاهد والملك الناصر جلال الدين بن الأشرف، أصدر المجاهد أوامره بأن بيوت المنصورية مشاع للجميع، فعاد كل من اجتمع لدى الناصر خوفًا من النهب والسلب، وهنا برز دور جهة صلاح عندما رأت انتهاك بيوت أعمام المجاهد وهتك الأعراض، فطلبت من المجاهد بالكف عن ذلك، فأمر مناديًا يصيح في الناس بأن مَنْ أخذ شيئًا من بيوت المنصورية فليردها.[٤٣]

وفي مضمار الواقع السياسي للمرأة اليمنية، كان السعي في حل القضايا والإشكاليات وفك الأسرى، مثل قيام الدار النجمي ابنة الأمير على بن رسول وأخت السلطان المنصور، بالتوسط لدى ابن أخيها المظفر للإفراج عن أخويها بدر الدين الحسن وفخر الدين أبى بكر القادمين من مصر والذي زجهم في سجن مدينة حيس[٤٤] سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م)، لكنه رفض واحتجب عنها.[٤٥] وهذه الدار الشمسي التي كانت لها حُظوة لدى أخيها السلطان المظفر وكان يحترم أراءها ويأخذ بمشورتها، والتي طلبت منه التخفيف عن ابن عمها الأمير فخر الدين بعد أن تم القبض عليه وتقييده بالحديد وتسليمه للأمير مبارز الدين برطاس الذى عُرف بجبروته، ففعل ذلك احترامًا وتقديرًا.[٤٦] وطلبت جهة صلاح من المجاهد الإفراج عن المسجونين السياسيين من ملوك وأمراء بني رسول فنفذ طلبها وأطلق سراحهم ثم أسكنهم قرية السلامية بزبيد، وكان الغرض من ذلك من وجهه نظر جهة صلاح كسب الود والمحبة معهم، وعلو شأن المجاهد أمام الخاصة والعامة.[٤٧]

كما كان من بين الإسهامات النسائية في الميدان السياسي، مشاركتهن في المعارك والحروب، حيث يذكر أن أحد النساء قد جمعت في إحدى المعارك التي دارت رحاها بين أهل جعر، وابن أصهب من أهالي وصاب، خلال يوم واحد، ثمانية عشر ترسًا فضلاً عما جمعته من غنائم ومؤن، مما يعطي إشارة بالمساهمة في الحروب إلى جانب الرجال، كما شاركت في تضميم الجروح، وجبر الكسور، وغير ذلك من الأعمال الخاصة بها.[٤٨]

ثالثا: الفعاليات الحضارية للمرأة اليمنية

لم يقتصر التواجد النسائي داخل المجتمع اليمني على المشاركات السياسية فحسب، بل امتد للمساهمة في ميادين الحياة العامة من نواحي اقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة، ونواحي اجتماعية ككفالة اليتيم وتبني قضايا الفئات المستضعفة، ونواحي عمرانية كتشييد المساجد، والمدارس، والدور، والأسبلة، وتمهيد الطرقات، وأخيرًا دورها المعرفي الفعال وإسهاماتها داخل النتاج التأليفي. فالمرأة اليمنية كان لها دورًا كبيرًا في النشاط الاقتصادي، حيث عملت بالزراعة وجني الحاصلات إلى جانب الرجل خاصةً في المواسم التي يكون بها الزرع والحصاد، ويذكر مؤرخو تلك الفترة أن النساء شاركن الرجال في العمل بالزراعة لاسيما أيام المواسم التي يزيد فيها الزرع والحصاد، ويرتفع فيها الأجور مما شجع العديد منهن - نساء الطبقات الكادحة- للعمل في الأرض والحصول على الأموال.[٤٩]

كما شاركت المرأة في مزاولة العديد من الحرف والصناعات التي تسمح أوقاتهن وقدرتهن بها، مثل الغزل والنسيج التي عملت به زوجة الأمير شمس الدين علي بن رسول أم السلطان المنصور أثناء وقت فراغها، فقامت بشراء القطن وغزله، كما قامت العديد من نساء العامة بهذا العمل وبيعه في السوق وأغلبهن من شريحة نساء الفقهاء والعلماء لشدة الحاجة إلى الأموال،[٥٠] وصناعات من خوص النخيل وغيرها من الحرف.[٥١]

وكانت التجارة أحد ميادين العمل الإنتاجي التي توضح المشاركة الفعلية للمرأة، فسافرن ببضائعهن إلى مناطق متفرقة من الديار اليمنية وخارج اليمن إلى مكة والحجاز وغيرها من البلدان، ومنهم السيدة عائشة بنت العجمية (ت.٨٠١ هـ/١٣٩٨م) التي كانت تسكن عدن وتسافر بتجارتها إلى مكة،[٥٢] كما كانت المرأة اليمنية تساهم في البيع والشراء في الأسواق اليومية والأسبوعية والموسمية التي تنعقد في المناطق اليمنية، ويشير إلى ذلك ابن المجاور بأن المرأة اليمنية تميزت بالنشاط والحركة خاصةً نساء الأرياف حيث يخرجن باكرًا من مناطق سكنهم إلى السوق وهن محملات بالبضائع، قاطعة بذلك المسافات الشاسعة بين الجبال، والأودية، والشعاب، والسهول حتى تفرش بضاعتها في السوق مع بداية اليوم، ثم تمارس البيع والشراء خلال يومها هذا، ثم تشترى متطلبات بيتها وأسرتها وتعود إلى بيتها محملة قاطعة نفس المسار، وتظل على هذا الحال ردحًا من الزمان.[٥٣]

كما كانت مهنة الدلالة من المهن المرتبطة بالتجارة، وتعرف القائمة بها بلقب "الدلالة" وهى من المهن المربحة للنساء في هذا العصر، وتتسم طبيعة عملها بالقيام بشراء بضائع ومنتجات متنوعة من التاجر الرئيس على أن تسدد الأموال في فترة لاحقه، ثم تقوم ببيع هذه البضائع على نساء جيرانها في منطقتها السكنية وغيرها من المناطق، وتكون معروفة لديهن، ويتخلل هذا العمل مقدرة على معرفة المتطلبات التي تحتاجها نساء تلك المناطق والمهارة في التعامل والصدق والأمانة والوفاء، وتميزت أيضًا بالربح الوفير نظرًا لبيع السلعة بمقدار الضعفين،[٥٤] كما شاركت المرأة اليمنية بالعمل في الموانئ - كميناء عدن- خاصةً في تفتيش النساء القادمات مع السفن التي ترسو في الميناء.[٥٥]

وفي الميدان الاجتماعي قدمت سيدات اليمن العديد من الخدمات الجليلة والتي من بينها، تنشئة الأجيال وتهيئتهم للانخراط داخل الوسط الاجتماعي وتأهيلهم ليكونوا على قدر كبير، ومن الشواهد على ذلك أن الحرة ابنة الفقيه عبد الله بن سالم الأصبحي وزوجة الفقيه يحيى بن فضل المليكى (ت. ٦٢٩هـ/١٢٣١م) عرفت بالصلاح والتقوى والعناية بأولادها وتنشئتهم تنشئة سليمة حتى كان منهم العلماء والفقهاء.[٥٦] والحرة ابنة الشيخ عمران الصوفي (ت. ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) التي ارتقت بأبنائها وعلمتهم القرآن الكريم وتلقوا العلم والتربية السليمة،[٥٧] وزوجة القاضي حسان بن أسعد العمراني التي تكفلت بولدها أثناء سجنه وتعذيبه، وسافرت إلى مكة عند أهلها واعتنت به وبعلمه، فعندما كبُر تولى قضاء زبيد سنة (٧٢٣هـ/١٣٢٣م).[٥٨]

وفي مجال الخدمات الاجتماعية، تبنت النساء العديد من قضايا وإشكاليات وهموم الفئة المستضعفة، من خلال التصدق والأنفاق عليهم وخاصةً طلبة العلم الفقراء، والأيتام، وتوفير

الكسوة، والطعام والشراب، ومتطلبات العملية التدريسية، ومن أشهرهم الدار النجمي ابنه الأمير شمس الدين علي بن رسول التي كانت تشارك في ميدان الإنفاق على المرضى العاجزين بدفع نفقة العلاج وتبحث عن هؤلاء المرضى.(٥٩) ومن المشاركين في تقديم الخدمات الاجتماعية ماء السماء ابنة السلطان المُظفر التي اتسمت بكثرة الصدقة والإحسان على الفقراء والمساكين والأيتام وتكفلت بمتطلباتهم المادية وأوقفت عليهم العديد من الأوقاف،(٦٠) وجهة فاتن ابنه السلطان المؤيد التي أوقفت العديد من الأوقاف على أعمال البر والإحسان على الفقراء والمساكين في وادي زبيد،(٦١) وزوجة السلطان الأشرف الثاني التي اشتهرت بفعل الخيرات وإقامة السبل وإصلاح المدرجات والعقبات في الطرق، والتصدق على طلبة العلم والفقراء،(٦٢) ومن نساء العامة زوجة الفقيه صالح بن عمر السوادى التي اشتهرت بالصلاح، والفضل، والورع، والتصدق على الفقراء، والسائلين، وأصحاب الحاجات.(٦٣)

كما شاركت النساء اليمنيات في حركة الإنشاء والتعمير المنتشرة في ذلك العصر، والتي يدخل في إطارها المساهمة الفعالة للمرأة في الرقي بالعلم ومؤسساته وتطوير الأداء التعليمي والنهضة المعرفية، فشيدوا العديد من دور العلم وأربطته في مختلف مناطق اليمن، ومن أبرزهن الدار النجمى ابنة علي بن رسول التي أنشأت مسجدًا في ذى جبلة، ورتبت فيه مدرسين وطلبة، كما شاركت في ترميم العديد من المآثر الدينية والعلمية،(٦٤) وشيدت جهة صلاح والدة السلطان المجاهد مسجد في قرية التربية من وادى زبيد ورتبت فيه إمام ومؤذن وقيم ومعلم وأيتام يقرءون القرآن، كما ألحقت به سبيلاً لشرب الدواب.(٦٥) وشاركت نساء الأشراف في حركة الإنشاء والتعمير لمعاقل العلم، حيث قامت فاطمة بنت الأمير أسد الدين بن إبراهيم الكردى زوجة الأمام صلاح الدين محمد المهدي (ت. ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م) بالعناية بمسجد الأبهر بصنعاء سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) فكان من أحسن مساجد صنعاء من حيث الحسن والاتساع الفائق.(٦٦)

ولم تقتصر تلك المشاركة من جانب الأميرات وسيدات البيت الحاكم بل شاركت فيها الجواري مثل جواري جهة صلاح الدين أم السلطان المجاهد، وهما الحاجة سمح التي ابتنت مسجدًا عند سوق الشباك بزبيد، والحاجة قنديل التي ابتنت مسجدًا عند باب القرتيب بزبيد، والحاجة غصون التي شيدت مسجدًا جنوبى دار السلطان بزبيد، وأوقفن العديد من الأوقاف،(٦٧) وشاركت نساء العامة في تشييد دور العلم مثل الحرة حسنة بنت محمد المصري (ت. ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) التي ابتنت مسجدًا في وصاب، وشيدت زوجة الشيخ سليمان بن مسعود الغياثي في سنة (٧٨٠هـ/١٣٧٨م) جامع معذرة في وصاب وكان مجمعًا للمصلين يوم الجمعة.(٦٨)

وشيدت النساء اليمنيات العديد من المدارس وخاصةً أبناء البيت الحاكم، ومن أبرزهن أم الملك المظفر يوسف التي أنشأت مدرستين الأولى عُرفت باسم مدرسة أم السلطان في مدينة تعز، والثانية المعروفة باسم المدرسة السيفية الكبرى في زبيد، ورتبت العديد من الفقهاء والطلبة وأجرت عليه الأوقاف،(٦٩) والجهة الكريمة ماء السماء ابنة السلطان المُظفر الأول التي شيدت المدرسة الواثقية في مدينة زبيد، ورتبت فيها معلمًا وأيتامًا يقرءون القرآن الكريم، ومدرسًا وطلبة يقرءون العلم وأوقفت على الجميع العديد من الأملاك التي تقوم بكفايتهم،(٧٠) ومنهم جهة الطواشى جمال الدين معتب بن عبد الله الأشرف التي أنشأت المدرسة المعتبية في مدينة تعز، ورتبت بها إمامًا ومؤذنًا ومعلمًا وطلبة يتعلمون القرآن الكريم.(٧١)

كما شاركت بعض الأميرات في إنشاء وتعمير المدارس مثل الأميرة لؤلؤة زوجة الأمير علي بن رسول، وأم الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، التي أنشأت المدرسة العومانية في قرية عومان من مديرية جبلة بمحافظة إب، ورتبت بها العديد من الفقهاء وطلبة العلم وأوقفت عليه العديد من الأوقاف،(٧٢) والأميرة جهة دينار ابنة الأمير محمد بن علي بن رسول وإحدى زوجات الملك المظفر يوسف، وأم ابنه الملك المؤيد داود، ويذكر المؤرخون بأنه كان لهذه الأميرة مدرسة ابتنتها في قرية مدية بمديرية ذى السفال بمحافظة إب، ورتبت بها العديد من الطلبة والمدرسين وأحبست عليهم العديد من الأراضي والأوقاف التي تقوم بكفايتهم، وألحقت بهذه المدرسة معلامة (كُتاب) لتعليم الأطفال القرآن الكريم والقراءة والكتابة،(٧٣) والحرة زهراء بنت الأمير بدر الدين بن الحسن بن علي بن رسول التي ابتنت مدرسة بنى خضير بذى جبلة،(٧٤) وشاركت الجوارى في تشييد المدارس مثل ماشطة الحرة بنت جوزة التي تُنسب إليها المدرسة الشقرية في مدينة الجند،(٧٥) أما نساء العامة فقد كان لديهم دور في بناء المدارس مثل الحرة سيدة بنت أحمد النظارى التي بنت مدرسة النظارى في إب.(٧٦)

كما كان للمرأة اليمنية دور فعال في ميادين العلم والثقافة، فقد أدلت بدلوها داخل عملية التعليم، فمارست التدريس وقادت حلقات العلم وارتادت بين جنباته، وساهمت في الإنتاج التأليفي والفكري، ومن النساء العالمات اليمنيات، ابنه الفقيه أبى عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حسان المعروف بالقدسي (ت. ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) التي كانت من فقهاء عصرها حازمة عفيفة قارئة كاتبة، وكانت تلقى العلم في رحاب الرباط الذي ابتناه والدها في إب.(٧٧) ومن النساء البارزات الحرة الصالحة هند بنت محمد بن علي القوتاتى زوجة الفقيه أحمد بن يوسف المكى، والتي عُرفت بالعالمة الصالحة لما تلم به من معارف وعلوم، وكانت تدرس للطلبة من منتصف الليل إلى وقت الضحى، واستفاد منها الكثير من حملة العلم.(٧٨)

وكانت الشريفة صفية بنت المرتضى بن المفضل بن العفيف الحسنية (ت. ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) من ذرية الأمام الهادى يحيى بن الحسين، التي تلقت العلم على يد والدها وبلغت من العلم مبلغًا كبيرًا، ولم يكن لها شغل غير التدريس وطلب العلم وكانت تنسخ

الكتب بخطها، وتزوجت رغبة في تحصيل العلم على يد زوجها، وكانت تراجع العديد من العلماء في مسائل عدة، ولها العديد من المصنفات مثل رسالة بديعة في نصيحة ابنتها حورية بنت محمد بن يحى القاسمي.(٧٩) وممَن وصفت بالعلم السيدة الشريفة الفاضلة فاطمة بنت المرتضى (ت.٧٩١هـ/١٣٨٨م) كانت من بيت علم وذو فضل وبرعت في علوم الفقه واللغة، ورثاها أحد الشعراء بقوله:

أمير المؤمنين أخوك فينا وأنت أميرة المؤمنات.(٨٠)

وفي الوقت نفسه شاركت النساء اليمنيات في إلقاء الشعر في الاحتفالات والمجالس التي كان يقيمها مشائخ وزعامات وسلطانات القبائل، شأنهن في ذلك شأن كبار الشعراء، ومنهم الشاعرة بنت السودوى التي عاصرت الشاعر محمد بن حمير، وكثيرًا ما توهب هذا الشعر لكبار وزعامات القبائل، حيث كان الشيخ محمد بن زكرى القرابلى يعطيها الأموال لفصاحتها وإجادتها، ومن شعرها:

ما بال أهلك يا سعاد قد غيروا عهد الوداد
تحميهم جدد الجهاد والسمهريات الحداد.(٨١)

خاتِمَةُ

أسفرت الدراسة عن العديد من النتائج الهامة وهي:

- احتفاظ المرأة اليمنية بكينونتها ومكانتها على مر الأزمان، حيث أنها امتازت بالكثير من المهارات والصفات الحميدة التي أهلتها لسبر أغوار كافة مناحي الحياة العامة من قيادة، وسياسة، واجتماع واقتصاد وغيرها من المجالات.
- إن الحضور النسائي في معترك الساسة ليس حقًا فحسب بل واجب كباقي واجباتها، وليس نوع من أنواع المزاحمة، إنما هو نوع من أنواع التكاملية لبناء مجتمع مستوفي كافة العناصر.
- بروز التواجد الفعلي للسيدة اليمنية داخل الميدان السياسي من خلال إدارة وتدبير شئون الحكم والإدلاء بمشورتها مما يعكس مدى الخبرة والحنكة والدراية بالأمور السياسية.
- إيضاح المقدرة النسائية على الصمود أمام الأزمات ودخول ميدان الصراعات التي تعتري نشأة الدول، وتولي زعامات القبائل التي تقطنها وتصبح المتحدثة الرسمية لها، وبيان الدور الرائد للمرأة اليمنية في حل الإشكاليات والقضايا المثارة.
- ظهور التواجد النسائي داخل ميادين العمل الإنتاجي سواء الزراعي أو المهني أو التجاري ومدى المشاركة الفعلية في هذا المنحي.
- ساهمت النساء اليمنيات بقوة في الميدان الاجتماعي، فقدمن الخدمات الاجتماعية الجليلة كتنشئة أجيال عدة قادرة على الانخراط داخل الوسط الاجتماعي والتفاعل الجدي، كذلك تبني قضايا وهموم الفئات المستضعفة.
- شاركت المرأة اليمنية في حركة الإنشاء والتعمير المنتشرة داخل المجتمع اليمني، فشيدن الكثير من المآثر الدينية والعلمية كالمساجد والمدارس والأسبلة وتمهيد الطرقات.
- ساهمت العالمات اليمنيات بدور فعال في ميادين العلم والثقافة، حيث أدلت بدلوها داخل عملية التعليم فمارست التدريس، وقادت حلقات العلم، وارتادت بين جنباته، وساهمت في الإنتاج الفكري.

الهوامش:

(١) حياة عبد القادر أحمد المرسي: **دور السيدة أروى بنت أحمد الصليحي في اليمن (٤٧٣-٥٣٢هـ/١٠٨٠-١١٣٨م)**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٨٠م، ص١٦٢.

(٢) **سورة الليل**: أية رقم (٣ – ٤).

(٣) ابن زبارة: **الأنباء عن دولة بلقيس وسبأ**، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ١٩٨٤م، ص١٢؛ زياد منى: **بلقيس – امرأة الألغاز وشيطانة الجنس**، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ص ص٦٦-٧٠؛ بلقيس الحضراني: **الملكة بلقيس- التاريخ والأسطورة والرمز- دراسة في مكانة ملكة سبأ في الديانات السماوية ولدى المؤرخين وفي المثيولوجيا وفي الأدب اليمني**، بغداد، ١٩٩٤م، ص١٩.

(٤) ابن الدبيع: **الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد**، تحقيق يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٥٢.

(٥) نفس المصدر، ص٧٠.

(٦) عصام الدين الفقي: **اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام الدولة الرسولية**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٨٢م، ص ص١٣٤، ١٣٧؛ عبد العزيز المقالح: **قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة**، دار العودة، بيروت، طبعه ١٩٨٢م، ص ١٦٦.

(٧) حسين الهمداني: **الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن من ٢٦٨-٦٢٦هـ**، دار التنوير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م، ص ١٤٣؛ محمد بن إسماعيل الكبسي: **اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية**، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٤م، ص٢٦.

(٨) **الفالج**: مرض يسبب الرعشة وعدم الاتزان في الجسم، أصيب به المكرم بن على بن محمد الصليحي أثناء صدامه مع النجاحيون وفك أسر أمه أسماء بنت شهاب من قيودهم في زبيد. انظر: عفت حمزة: **نساء حكمن اليمن**، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ١٦٥.

(٩) عمارة اليمني: **تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعرائها وملوكها وأعيانها وأدبائها**، تحقيق محمد بن على الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ص١٣٣.

(١٠) حياة عبد القادر: **تاريخ اليمن وعلاقته بالدولتين العباسية والفاطمية- دراسة في الأحوال السياسية والعلمية في القرنين الخامس والسادس الهجريين**، رسالة دكتوراه، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨م، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

(١١) حياه عبد القادر أحمد المرسى: **دور السيدة أروى بنت أحمد الصليحى في اليمن**، ص١٤٢-١٤٣.

(١٢) فاطمة أحمدي: **الصليحيون وأثارهم المعمارية في اليمن**، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد الثاني، العدد (١١)، ٢٠٠٤م، ص٢٢.

(١٣) عمارة اليمني: **المفيد في تاريخ صنعاء**، ص١١٥، ١٦٨، ٢٣٧؛ عبد الرحمن المختار: **الحياة العلمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس الهجريين**، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٠١- ١٠٤؛ عبد العزيز السنيدي: **المدارس وأثرها على الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨/١٢٢٩-١٤٥٤م)**، رسالة ماجستير، جامعة الأمام محمد بن سعود، الرياض، ١٩٩٠م، ص ٤٥-٤٧؛ عبد الحكيم العرشى: **الدولة الرسولية في عهد السلطان المظفر يوسف بن عمر(٦٤٧-٦٩٤هـ): دراسة سياسية حضارية**، رسالة ماجستير، جامعة عدن، اليمن، ٢٠٠٦م، ص١٦٠- ١٦١؛ عبد الله الحداد: **مسجد ومدرسة التكية بحيس دراسة معمارية أثرية**، مجلة الإكليل، صنعاء، العدد٢٦، ٢٠٠٢م، ص ٣٩؛ محمد العروسى: **العمارة اليمنية في العصر الإسلامي**، مجلة الإكليل، العدد٢٧، صنعاء، ٢٠٠٢م، ص٦٨.

(١٤) حسين الهمذاني: **الصليحيون**، ص١٤٣.

(١٥) **سورة التوبة**: الآية ٧١.

(١٦) ابن حاتم: **السمط الغالى الثمن في أخبار الغز في اليمن**، تحقيق ركس سميث، طبع ضمن مجموعة جب التذكارية، لندن،١٩٧٤م، ص ١٥٨-١٥٩.

(١٧) **الجند**: تقع في الشمال الشرقي من مدينة تعز على بعد ٢٢ كم، وسميت بهذا الاسم نسبه إلى جند بن شهران أحد بطون المعافر. انظر: الهمدانى: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن على الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص٩٩.

(١٨) ابن حاتم: **السمط الغالي**، ص ٢٣٤.

(١٩) الجندي: **السلوك في طبقات العلماء والملوك**، تحقيق محمد بن على الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ج٢، ص٤١.

(٢٠) **المهجم**: مدينة تهاميه مشهورة شرق مدينة الزبيدية، كانت عاصمة تهامة الشمالية قديمًا، أول مَن اختطها الحسين بن سلامة، وجدد عمارتها الملك المظفر سنة (٦٤٧ هـ/١٢٤٩م). انظر: إبراهيم المقحفى: **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، ٢٠٠٢م، المجلد الثاني، ج٤، ص١٦٧١.

(٢١) ابن حاتم: **السمط الغالي**، ص ٢٤٦-٢٥٤.

(٢٢) **الدملوه**: قلعة منيعة مشهورة فوق قرية المنصورية من جبل الصلو، على بعد نجو٦٠ كم جنوب شرق مدينة تعز، اشتهرت بحصانتها ومناعتها، ولعبت دورا كبير في حروب بنى أيوب وبنو رسول. انظر: المقحفى: **معجم البلدان**، المجلد الأول، ج٢، ص٦٢١.

(٢٣) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق محمد بن على الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م،ج١، ص١٠١-١٠٢.

(٢٤) ابن الدبيع: **قرة العيون بأخبار اليمن الميمون**، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار بساط، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص٣٨٤.

(٢٥) ابن عبد المجيد: **تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن من تاريخ اليمن**، تحقيق عبد الله محمد الحبشى وأحمد محمد السنباتى، دار الكلمة اليمانية، صنعاء، الطبعة الأولى،١٩٨٨م، ص٢٨٧- ٢٨٩.

(٢٦) الخزرجى: **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص٤٧.

(٢٧) مجهول: **تاريخ الدولة الرسولية في اليمن**، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، دار الكاتب العربي، دمشق، طبعة ١٩٨٤م، ص٦١.

(٢٨) الخزرجى: **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص ص٨٣-٨٥.

(٢٩) الشرجى: **طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص**، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص١٩١- ١٩٢.

(٣٠) **المغازبة**: قبيلة مشهورة تنسب إلى معزب بن عبيد بن محمد بن زيد بن زوال، وهي بطن من قبيلة الأشاعر اليمنية، وغالب سكانها من زبيد وبيت الفقيه. انظر: عسيرى مسفر: **أبو الحسن الخزرجي وآثاره التاريخية**، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٩٨٦م، ص ١٢- ١٣.

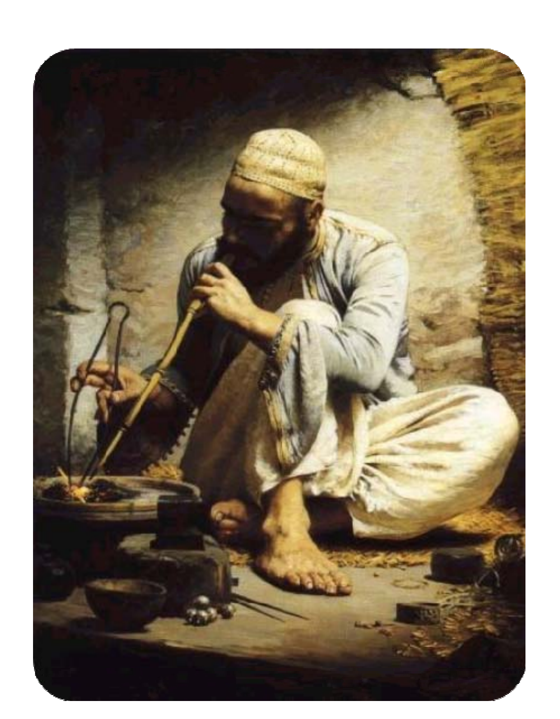
(٣١) **القرشيين**: بطن من قبيلة الأشاعر اليمنية، غالب سكانها من وادى رمع ولهم قرية تعرف باسمهم. انظر: الشرجي: **طبقات الخواص**، ص٢٣٣.

(٣٢) يحيى بن الحسين: **غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى**، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ج٢، ص٥١٦.

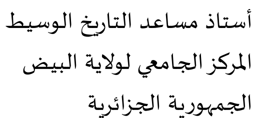
(٣٣) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص٩٢.
(٣٤) محمد عبد العال: **بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدها (٦٢٦- ٩٢٣هـ/١٢١٣-١٥١٧م)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص٢١٨.
(٣٥) عبد الله الحبشى: **معجم النساء اليمنيات**، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص٥٥.
(٣٦) وطيوط: **تاريخ المعلم وطيوط (في مناقب الصالحين من مشائخ سهام)**، نسخة مصورة عن الجامع الكبير، صنعاء، تحت رقم(١٧٣)، ق٤٣أ.
(٣٧) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص٦٩؛ أسامة حماد: **مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي: عصر دولتي بنى أيوب وبنى رسول**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص٤٧٧.
(٣٨) ابن حاتم : **السمط الغالى الثمن**، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣٩) **المحالب**: مدينة قديمة كانت قائمة في إقليم تهامة على ميزاب وادى مور. انظر: محمد بن أحمد الحجرى: **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، تحقيق إسماعيل بن على الأكوع، المجلد الثاني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م ، المجلد الثاني، ج٤، ص٦٨٩.
(٤٠) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص ٦٦.
(٤١) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص ٤٣٠- ٤٣١.
(٤٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٧.
(٤٣) المصدر نفسه والجزء، ص ٦.
(٤٤) **حيس**: مدينة قديمة تقع في جنوب زبيد، وتبعد عنها بمساحة تقدر بحوالي ٣٥كم، وصفت بأنها أقدم مدن تهامة على الإطلاق، وحظيت بالعناية والرعاية خاصة المآثر الدينية والعلمية، واشتهرت بصناعة الأواني الفخارية. انظر: المقحفى: **معجم البلدان اليمينة**، المجلد الأول، ج١، ص٥٤٦- ٥٤٧؛ الحجري: **مجموع بلدان اليمن**، المجلد الأول، ج٢، ص٣١٠.
(٤٥) ابن حاتم: **السمط الغالى الثمن**، ص ٢٨٥- ٢٨٦.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٧- ٢٥٨.
(٤٧) يحيى بن الحسين: **غاية الأماني**، ج٢، ص٥١٦.
(٤٨) الوصابى : **تاريخ وصاب المسمى "الاعتبار في التواريخ والآثار"**، تحقيق عبد الله بن محمد الحبشى، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م، ص١٢٥.
(٤٩) ابن المجاور: **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتاريخ المستبصر**، اعتنى به وصححه ووضع هوامشه أوسكر لو فغرين، دار التنوير، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص١٢٦.
(٥٠) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص٧٨.
(٥١) ابن المجاور: **تاريخ المستبصر**، ص١٣٧.
(٥٢) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ج٨، ص٢٧٣.
(٥٣) ابن المجاور: **تاريخ المستبصر**،ج٢، ص ١٩١-١٩٢؛ ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماه "رحلة ابن بطوطة"**، تحقيق على المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة،١٩٨٥م، ج١، ص ٢٦٨.
(٥٤) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص١٠٣- ١٠٤.
(٥٥) ابن المجاور: **تاريخ المستبصر**، ص١٣٩.
(٥٦) الخزرجى: **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص ٥٠-٥١.
(٥٧) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص٢٠٠-٢٠١.
(٥٨) الجندى: **السلوك**، ج١، ص ٤٧٠.
(٥٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٥٢- ٢٥٣.
(٦٠) المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٦.
(٦١) ابن الدبيع: **الفضل المزيد**، ص١٠٠.
(٦٢) الوصابى: **تاريخ وصاب**، ص٢٠٢.
(٦٣) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص٢٩٤.
(٦٤) المصدر نفسه والجزء، ص٢٥٢- ٢٥٣.
(٦٥) الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص١١٩.
(٦٦) عبد الله الحبشى: **دراسات في التراث اليمنى، كتاب الكلمة**، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٩٧م، ص٧٥؛ **معجم النساء اليمنيات**، ص١٥٢.
(٦٧) ابن الدبيع: **الفضل المزيد**، ص ١٠٦.
(٦٨) الوصابى: **تاريخ وصاب**، ص٣١٧.
(٦٩) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص٥٨٢،١٣٠،١١١؛ الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص٥٠؛ الأكوع: **المدارس الإسلامية في اليمن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، ص ٨٥.
(٧٠) الخزرجي: المصدر السابق، ج٢، ص ص٢٣، ١٧٢.
(٧١) ابن الدبيع: **الفضل المزيد**، ص١٠٨، ١١١، السنيدي: **المدارس وأثرها على الحياة العلمية**، ص١٤٥.
(٧٢) الأكوع: **المدارس الإسلامية**، ص٦٥-٦٦.
(٧٣) المرجع نفسه، ص١٦٨-١٦٩.
(٧٤) الخزرجي: المصدر السابق، ج١، ص٩٨.
(٧٥) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص٢٥٣.
(٧٦) الأكوع: **المدارس الإسلامية**، ص٢٣٨- ٢٣٩؛ وللمزيد عن المشاركة في إنشاء وتعمير المدارس. انظر: ابن الدبيع: **الفضل المزيد**، ص٩٩- ١٠٨؛ الخزرجي: **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص٣٤٠- ٣٤١؛ ج٢، ص١١٩، ١٧٤- ١٧٥، السنيدي: **المدارس وأثرها على الحياة العلمية**، ص ١٧٠، ١٧٥.
(٧٧) الجندي: **السلوك**، ج٢، ص٦١.
(٧٨) الصابي: **تاريخ وصاب**، ص٢١٢.
(٧٩) زباره: **أئمة اليمن**، ص٢٥٨- ٢٥٩؛ عبد الله الحبشي: **دراسات في التراث اليمني**، ص٧٥.
(٨٠) أسامة حماد: **مظاهر الحضارة الإسلامية**، ص٤٧٩.
(٨١) وطيوط: **تاريخ المعلم وطيوط**، ق٦١أ.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





الحرف والحرفيون
في مدينة تلمسان الزيانية



لخضر العربي

أستاذ مساعد التاريخ الوسيط
المركز الجامعي لولاية البيض
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

لخضر العربي، الحرف والحرفيون في مدينة تلمسان الزيانية.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٨٠ – ٩٢ .

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

إنّ أغلب الدراسات التي أنجزت حول تاريخ الدولة الزيانية أو تاريخ مدينة تلمسان، خاصةً تلك المتعلقة منها بالفترة المتأخرة من العصر الوسيط، كان اهتمام الباحثين فيها منصبًا على الجانب السياسي والفكري، ومع ذلك من باب الإنصاف القول بأنّ بعض تلك الدراسات سلّطت الضوء على بعض جوانب النشاط الاقتصادي الذي شهدته المدينة خلال فترة الوجود الزياني. وسنحاول من خلال هذه الدراسة المتواضعة البحث في واقع الحرف والحرفيين، والتّعرف على طبيعتها، وتعليمها، وتنظيمها، وتوزيعها، وأصناف الممارسين لها.

مُقَدِّمَةٌ

إنّ الحِرَف من الأعمال الإنسانية العريقة، ارتبط ظهورها بظهور الإنسان وحاجته إلى البحث عن الطرق الموجبة لتحصيل القوت والوسائل التي يمكن استعمالها في ذلك، وظلّت الحرف تتطوّر وتتوسع بسبب تفكير الإنسان في الاتخاذ المسكن وصنع اللباس. ولاشك أنّ درجة الحضارة التي عرفتها المجتمعات الإنسانية عبر مسارها الطّويل والحافل، تكشف إلى يومنا هذا عن ذلك التّطور والتّنوع في أساليب وطرق وفنون العمل الحرفي. وقد شكّلت الحرفة آليةً اقتصادية في غاية الأهمية، ساهمت في تقديم أشكال متنوعة من الخدمات للمجتمع في مجال المعاش، والتجارة، والبناء، والتّحويل، والرّعاية الطّبّية؛ كما كان لها دور بارز في بناء الثّروة والاقتصاد.

أولاً: الحِرف في تلمسان

وفي الدولة العبد الوادية، عرفت الحاضرة الزيانية (تلمسان) إقبالاً وتنافسًا على تعلّم الحرف المختلفة من طرف السكان الذين كانوا يعجبون بها ويحبون تعلمها وتعليمها ويكرهون القصور فيها، لكونها تتوفر على كل الإمكانيات الّتي تسمح بذلك، كالأرض الفلاحية الخصبة، وتوفر المناجم المعدنية، والأسواق، وشبكة المواصلات التجارية، واليد الصناعية الفنيّة. ومن دون أيّ شك كانت مهمّة تعليم الحِرف من اختصاص أصحاب الورشات أو المعلّمين الّذين كانوا يعملون على تكوين الحرفيين وتعليمهم آليات الصّنعة؛ حيث يلتحق التلميذ المبتدئ عندما يقبله المعلم بالورشة، ويبقى تحت التمرين مدّة معينة تمكنه من إجادة الحرفة وإتقانها وتحمّل مشاق التدريب؛ وخلال فترة التّمرّن كان التلميذ يتقاضى أجرًا شهريًا حسب درجة حذقه ومهارته؛ إلى أن يبلغ مبلغ الصانع الحاذق فيستقلّ بحرفته في ورشة جديدة، أو يعمل أجيرًا في ورشة معلّمه. ويؤكد ابن مريم هذه النظرة عندما يذكر أنَّ أحمد ابن محمد بن زكري (ت. ٨٩٩هـ)، قد أدخلته أمه في طِرَازٍ عند معلمٍ ليتعلم الحياكة وبقي عنده حتى تعلم النّسيج وكانت أجرته نصف دينار في الشهر. (ابن مريم، م. ١٩٨٦: ٣٨ - ٣٩).

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



ولقد كان في تلمسان العديد من الورشات المؤهلة لذلك، كورشة الخياطة الّتي كانت لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الخياط (عاصر يغمراسن بن زيان) (ابن خلدون، ي. ١٩٨٠: ج ١، ١١٨) بحي القباقبين، ومعامل حياكة الصوف بدرب شاكر الّتي كانت ملكًا لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٨-١٨٩). وكان أرباب هذه الورشات لا يستغنون في أعمالهم عن العمّال الأجراء داخل ورشاتهم لإنجاز طلبات النّاس الكثيرة الّتي لا يمكن لصاحب الورشة أن ينجزها بمفرده، لذا يضطر- في كثير من الأحيان- إلى استئجار مَنْ يعلم حذقه بالصّنعة لمساعدته، وكان أبوزيد ابن النجار، يملك معامل لحياكة الصوف الرفيعّ، الذي اشتهرت به مدينة تلمسان، وانفردت به معامل أبي زيد ومنازله بدرب شاكر، كان أغلب دور هذا الدرب ومنازله ملكًا له ومركزًا لعماله وخدامه، كما كان مقرًا لسكناهم (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٩). وبالتّالي يظهر لنا أنّ عدد العمّال المستأجرين في معامل أبي زيد كان لا بأس به، حيث أنّ مساكنهم غشت مساحة كبيرة من الدّرب، كما نستفيد مما سبق أنه كان يتكلف بإقامتهم في الدّرب الذي خصصه لهم.

ولم تكن ممارسة الحرف حكرًا على الرّجال، فقد كانت أغلب النّسوة في المجتمع الزياني تمارسن نشاطات حرفية مختلفة ومتنوعة، كالغزل والنسيج، وحلج القطن، وصناعة الأواني الفخارية، والصباغة، وصناعة الأطباق والقفاف وغيرها، رغبة منهنّ في مساعدة أزواجهنّ، وتلبية حاجيات المنزل؛ فكانت مؤمنة التلمسانية (مستوطنة فاس ودفينة تلمسان) من النساء الزاهدات العابدات تسدّ نفقات عامها من غزل يدها. (ابن قنفذ، ق. ١٩٦٥: ٨٠).

ومن خلال كتب التّراجم والمناقب، يتضح لنا أن طائفة كبيرة من متصوفة مدينة تلمسان امتهنوا حرفًا متعددة، كان بعضها بسيطًا جدًا في بعض الأحيان، حتى عائداتها كانت زهيدة وانصبت في معظمها على منحى تحقيق ما يكفي العيش ويغني عن التّرف والتّلذّذ، وهو مالا يتنافى مع حياة الزهد والتّقشف الّتي اختار المتصوّفة أن يعيشوها. فأحمد بن الحسن الغماري التلمساني (ت. ٨٧٤ هـ)، احترف الحطابة "فكان يخرج للجبال والأراضي القريبة من تلمسان،... ويجعل حزمة من الحطب على ظهره ويأتي بها لسوق الحطب، ويبيعها هناك"، (ابن صعد، ت. ٢٠٠٤: ٢٠٢) كما كان يشتغل بنسج الدّوم ويجعل منه حزمًا يسارع النّاس لشرائه. وكان أبو العباس ابن القطان (كان معاصرًا لابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة٧٨١ هـ) تسبب بالخياطة ثم بالتجارة، فكان يخرج من تلمسان إلى فاس، وسبتة، وبجاية برسم التجارة، ويعود إلى بلده بالمال الكثير. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٦١). كما كان أبو محمد عبد السّلام التّونسي، يتعيش من حرث يده. وهو ما يبين لنا أنّ المتصوّفة كانوا يولون للعمل اهتمامًا واحترامًا بالغين، كونه رمزًا للتّواضع والتّذلّل، (بوداود، ع. ٢٠٠٣: ٧٥) وفي ذلك إظهار لقيمة اجتماعية هامة، فضلاً عن مساهمتهم في تقديم خدمات مختلفة لأبناء مجتمعهم. (بوداود، ع. ٢٠٠٣: ٧٥).

ولا غرو فإنّ تصنيف الحرف في المجتمع الزياني، قد ارتبط بمفاهيم اقتصادية ترجع النسبة فيها إلى المهنة، ففي كتب المناقب والتّراجم نجد أسماء مختلفة لتلك المفاهيم مثل: الدّبّاغ، الحدّاد، النّجار، الخضّار، الفحّام، الحجّام، البنّاء، الجلاّب، وكلها تدل على ممارسات حرفية زاولها أصحاب تلك التّراجم خاصةً في تراجم القرن السابع وما بعده، وإلى جانبها نجد النسبة إلى القبيلة أو الأصل أو المدينة التّي استوطنها.

ثانيًا: صناع تلمسان وأوصافهم

كانت الحرف في مدينة تلمسان مختلفة ومتنوعة، ففي مساحتها المحدودة والمحاطة بالأسوار تجمع عددٌ كبيٌر من الصّنّاع والعاملين في القطاع من مختلف الأجناس والملل، متجاورين في الدكاكين، ومتّصلين بعضهم ببعض في معاملاتهم اليومية؛ وعرف صنّاع تلمسان بنشاطهم ومهارتهم كما اشتهروا بإتقان منتوجاتهم، (محمود، ب. ١٩٨٢: ٣٤) ووصفهم الوزّان: "... بأنهم أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التّمتع بالحياة"؛ كما ذكر أن لباسهم أنيق يشبه ثوب التّجار، "إلاّ أنّهم يرتدون لباسًا قصيرًا، والقليل منهم يتعمّم ويكتفي بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم وينتعلون نعالاً تعلوا حتى نصف الساق". (ليون، إ. ١٩٨٣:ج٢، ٢). وبالرغم من أنّ هذا الرّحالة قد زار تلمسان ووقف على العديد من حوانيت الصّنّاع، ورغم وصفه لبعض القضايا المتعلقة بالصناع كوضعهم الاجتماعي ولباسهم، إلاّ أنه فيما نعتقد أهمل ما هو أهم بالنّسبة إلينا، ألا وهو ما كان يصنع هؤلاء الحرفيون؟ وما هي الصناعات الرائجة آنذاك؟ حتى أنه لم يصف لنا حتى بعض الصناعات المعروفة كالنّسيج والحياكة، وعدد الصّنّاع العاملين فضلاً عن دكاكينهم، بخلاف ما فعل مع مدن أخرى كفاس مثلاً.

رغم أنّ مدينة تلمسان شهدت على عهد الزيانيين نموًا واتساعًا، وتطورًا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية مصداقًا لما ذكره ابن خلدون: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتّسع، والصّروح بها بالآجر والقرميد تعالى وتشاد، إلى أن نزلها آل زيان، واتخذوها دار ملكهم، وكرسيًا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المونقة، والمنازل الحافلة، وأغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل النّاس إليها من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ٧، ١٦١-١٦٢). لكن ما ذكره ابن الحاج النميري حول وصف مصانع تلمسان قد يزيل عنا ذلك اللبس رغم بساطة النص حيث يقول: «ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان، ...، قد أحكمت فيها أنواع الصنائع» (ابن الحاج، ن. ١٩٩٠، ٤٨٨).

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وتعدى نمو المدينة إلى خارج أسوارها، فنشأت لها أرباض بحكم تطورها العمراني، ومن تلك الأرباض أو الأحياء الجديدة، ربض العباد إلى الشّرق منها، وربض سيدي الحلوي إلى الشّمال الشّرقي وغيرها من الأرباض. ولا شك أنّ هذا التّوسع العمراني له دلالته الاجتماعية والاقتصادية، من حيث ارتفاع الكثافة السكانية في المدينة، وكثرة الدّور والمنازل، وبالتّالي تطور الاقتصاد والصّناعة، بسبب تعدّد الأسواق والحرف المفضي إلى تعدّد سبل الاسترزاق. وهنا يظهر لنا مدى تأثير العمران في الصّنائع لذلك قالت العامة في البلاد: "إذا تناقض عمرانها إنّها قد ذهب رزقها". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٦٨١).

ثالثا: موقف الدولة الزيانية تجاه الحرفيين

ولمّا كان لا بدّ للدولة من الصنائع المختلفة والمتعددة، إمّا في مجال البناء، والتّشييد، والتّجارة، أو في مجال إعداد العدّة الحربية من أجل مواجهة الخطر الخارجي. فالمعلومات الّتي بحوزتنا، تشير إلى أنّ موقف الدولة تجاه الصنّاع والحرفيين كان مشجعًا حيث يذكر يحيى ابن خلدون إحدى تلك المواقف الّتي أظهرت معالمها دار الصنعة السعيدة، الّتي كانت تموج بالحرفيين على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم، وتميزوا بإحكام الصنائع، حتى كانت تعرض أعمالهم في كل يوم بين يدي السلطان، ثم تخزّن كلها بالحجر المعدّة لذاك، ويدفع للعاملين أجورهم بالعدل هكذا أبدًا. (ابن خلدون، ي. ٢٠٠٧: ج ٢، ٣٢٣-٣٢٤).

ومن خلال هذا الموقف تتضح لنا عدة ملاحظات:

- أنّ السلاطين الزيانيين - وبخاصة أبو حمود موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ / ١٣٥٩-١٣٨٩م)- استطاعوا أن يجهّزوا ورشة كبيرة تقوم على إمداد الجيش الزّياني بمختلف أنواع السّلاح الحربي.
- أصناف الحرفيين العاملين في دار الصنعة:

الحرفي	عمله	الحرفي	عمله
الدَّرَّاق:	صانع الدُّرق الجلدية، التُّروس.	السرَّاج:	صانع سروج الخيل وغيرها.
الرَّمَّاح:	صانع الرّماح.	اللّجَّام:	صانع ألجمة الخيل والإبل وغيرهما.
الدَّرَّاع:	صانع الدُّروع المختلفة.	الخَبَّاء:	صانع الأخبية أي خِيَمُ الصُّوف.
الو شاء:	نقش الأثواب بالألوان.	النّجّار:	صانع المجانيق، والأقواس، والأبراج.
الحدّاد:	صانع الأسلحة الحديدية وبعض اللّوازم الأُخرى.	الصَّائغ:	يعمل على سبك المعادن، وصناعة الحليّ.
الدَّبَّاج:	عمله نقش المصنوعات وتزيينها.	_	_

- أصول الحرفيين العاملين بالورشة، إذْ أنهم كانوا من أجناس مختلفة من النّصارى والروم الأسرى، على اختلاف دياناتهم ولغاتهم.
- مستوى الصّنعة حيث أنّهم كانوا على درجة عالية من الدّقّة والحذق.
- رعاية الخليفة، حيث أنّه كان يعاين ما تنتجه أيديهم من أسلحة يوميًا.
- أنَّ دار الصّنعة كانت تتوفر على خزائن معدة خصيصا لتخزين ما يصنع إلى ساعة الحاجة إليها.
- وأن الفئات العاملة بدار الصّنعة، كانت تدفع لها أجور بحسب ما تصنع، وبالتّالي طريقة التّعامل مع هؤلاء الأسرى كانت مبنية على التسامح وتبادل المنافع.

كذلك من بين مظاهر تشجيع الدولة للصناعة والحرفيين، مساندة المبدعين منهم وتكريمهم مثال ذلك ابن الفحام (كان حيًا سنة ٧٥٨ هـ)، (التّنسي، م.٢٠٠٧: ١٦٢-١٦٣؛ المقري، ت. ١٩٧٨: ج١: ٢٤٦-٢٤٧) مخترع خزانة المنكانة، وهي عبارة عن ساعة معدة بطريقة عجيبة بتماثيل مختلفة، حيث أنَّ ملوك المغرب جعلوا لهذا المخترع عطاءً سنويًا قدره ألف دينارٍ ذهبًا. (ابن خلدون، ي. ١٩٨٠: ج ١، ١١٩). وسعى بنو زيان من عهد يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٢م) إلى تحقيق الأمن والاستقرار، ولو لفترات قصيرة، فقد خاضوا لأجل ذلك العديد من الحروب والمعارك شرقًا وغربًا، وتمكنوا من فرض الأمن في البلاد خاصة في العاصمة (تلمسان) في كثير من الأوقات، ومع هذا الأمن تحركت عجلة الحضارة لاسيما ما تعلق بمجال الحرف، فقد ظهرت صنائع جديدة صاحبت التّطور الجديد للمدينة، ومع تجدّد التّدخّل الأجنبي (الحفصي والمريني)، كانت الدولة دائمًا في حاجة ماسّة إلى صنّاع ماهرين من أجل ترميم وبناء ما تخرّب بفعل الحصار والحروب.

رابعًا: الضرائب على الصناع والحرفيين

وفرضت السلطة الزّيانية الضّرائب على الصنّاع والحرفيين سواء القارّين أو المتنقلين، الّذين كانوا يدفعون المغارم عادةً عند أبواب المدينة، حتى الفلاحين في تلمسان كانوا يدفعون رسومًا على محاصيلهم، وهو ما عَبر عنه ابن الخطيب بقوله: "ولا فلاحة، إلاّ لمَنْ أقام رسم الفلاحة". (ابن الخطيب، ل. دون تاريخ: ١٨٤) وتضمن رسم أراضي ملاتة (سهل بين وهران وتلمسان)، سنة ثمان وخمسين وسبعمائة في الزّوج الواحد منها إلى أربعمائة مُدٍّ كبير، وهو ستون برشالة، زنتها ثلاثة عشر رطلاً، من البرّ، سوى الشّعير والباقلاء". (ابن خلدون، ي. ١٩٨٠: ج ١، ٩٠). وكان الحرفيون التجار يدفعون كذلك الضرائب عند دخولهم أسواق العاصمة، فهذا أبو العباس أحمد بن عمران البجائي اليانوي قدم تلمسان تاجرًا، فنزل عند أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام(ت ٧٤٣هـ)، فكان مغرمه ومغرم من جاء معه مائتي دينار ذهبًا، فعرّف به أبو زيد السلطان أبا تاشفين عبد

ISSN: 2090 – 0449

الرحمن الأول (حكم: ٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٣٦م) فرفع عنه كلفة المغرم، ووهبه مائتي دينار زيادة على ذلك. (التّنسي، م. ٢٠٠٧: ١٥٢).

وفي غياب المصادر والوثائق، حول النّظام الضّريبي الزّياني، لا نعلم الشّيء الكثير عن الموضوع، وأمام هذا الأمر الواقع، نأمل معرفة ذلك من المصادر الّتي قد تكتشف مستقبلاً. وعلى الرغم من ذلك؛ فإنّ الإدارة الزيانية قامت بتحصيل الضّرائب عن طريق الجباية عبر كل مناطق المملكة الزيانية، لكننا لا نعرف قدر هذه الضرائب؛ أما عن كيفية تحصيلها فنعتقد أنّ الزيانيين قد حافظوا على نفس النّظام الضريبي الذي كان سائدًا زمن دولة الموحدين. (دهينة، ع. ل. ١٩٨٤: ٤٨٧). والضرائب على الحرف كانت تقرر حسب دخل الصّنّاع، ويرجع تقديرها وتحصيلها لأمين كل صنعة من الصنائع في المدينة؛ ويقوم هذا الأمين برفعها إلى المحتسب أو إلى صاحب الأشغال في المدينة الذي يحتفظ بإحصاء شامل لكل الصناعات وأربابها وعمالها. (عزالدين، ع. م. ٢٠٠٣: ٢١٠، ٢١١).

إذن نستطيع القول؛ أنّ المجتمع الزياني خاصة، قد اعتبر الحرف من أهم الطرق الموجبة لجلب القوت وتحصيل الرّزق، لذلك مارستها الكثير من الفئات الاجتماعية، وتأثرت هذه الحرف بدرجة العمران الحضري والبدوي، والملفت للانتباه أنّ هذه الحرف ما تزال العديد منها صامدة في زماننا هذا، رغم أنّ أصولها ترجع إلى عصور خلت، كما أنّها شهدت تطورات وتحسينات تدريجية مع مرور الأزمنة والعصور، محافظة في كل ذلك على جوهرها.

خامسًا: تنظيم الحرف في تلمسان (الطوائف والمجال)

ويبدو أنّ مدينة تلمسان عَرفت نوعًا من التّضامن والتّعاون بين أصحاب كل حرفة كغيرها من المدن الإسلامية في العصر الوسيط، وهو ما أصطلح عليه بنظام النّقابات، (بورويبة، ر. موسى، ل. ١٩٨٤: ٤٩٠) وأرباب الصّنائع، وأصحاب المهن، والاتحادات المهنية، (يوسف، أ. ١٩٨٣: ١٢١-١٣٢) وهي تعابير توحي في مجملها بطبيعة الولاء الذي كان يكنه الحرفي أو الصانع وحتّى المتعلّم إلى أهل حرفته. ومن خلال المصادر هناك الكثير من الدلائل القوية التي تشير إلى وجود نظام الطوائف الحرفية أو الجماعات الحرفية، فقد ذكر التّنسي في معرض حديثه عن أحداث سنة ٨١٤ هـ/ ١٤١١م أنّ: "جماعة الرَّحوية" (التّنسي، م. ٢٠٠٧: ٢١٤) وهم عمال الأرحاء الذين يقومون بطحن الحبوب لاستخراج مادة الدقيق منها، تولت هذه الجماعة الحرفية إدخال السلطان عبد الواحد أبي مالك (حكم ٨١٤هـ/١٤١١م-٨٢٧هـ/١٤٢٤م) إلى تلمسان ليلاً بعد أن أبرم عقد الأمان مع الرؤساء والرعية، ولا نجد لهذه الجماعة ذكرًا إلا في هذا المصدر، رغم دورها الكبير وتدخلها حتى في إيصال هذا السلطان إلى سدة الحكم، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على النفوذ الاجتماعي والسياسي لهذه الطائفة الحرفية.

وذكر عبد الكريم المغيلي أنّ سيدي إبراهيم المصمودي (٨٠٤/٨٠٥هـ) :"كان يجلس عند رجل من العطّارين في حانوته" (المغيلي، ع. ك. ١٩٦٨: ٣٤)؛ كما ذكر ابن مرزوق الخطيب أنّ درب سيدي شاكر في تلمسان كان من أهم الدروب المتخصصة في حياكة الملابس الصوفية، وكانت معامل هذا الدرب كلها ملكا لأبي زيد عبد الرحمن ابن النجار، فيها عدد كبير من المعلمين والمتعلمين أو التلاميذ، والخدم، والصناع الأجراء، والحذّاق، وكان أبو زيد هذا في نفس الوقت أمينًا على هذه المعامل والورشات بهذا الدرب (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٨-١٨٩). بالإضافة إلى العديد من الإشارات الأخرى التي سنتناولها في طيات هذا السياق بالدراسة والبحث والتحليل. وبالتالي هذه العبارات أو المفاهيم (جماعة الرحوية، العطارين،...) توحي إلى أصحاب الحرفة الواحدة، كما يظهر من خلالها الولاء الذي يكنه الحرفي لجماعته؛ حيث يتجمع عدد كثير من الصناع أو العمال من مختلف الأجناس، يتقاسمون المجال أو متجاورين في المكان الواحد، متصلين بعضهم ببعض يوميًا في نطاق السوق التي يشغلونها، تجمعهم روابط مختلفة اجتماعية، واقتصادية، وفكرية يؤطرها ويسوسها الدين.

ولمّا كان هذا الوعي بالجماعة، تجمعت كل طائفة في نطاق خاص بها، وتسمَّت بنوع الصّنعة أو الحرفة الّتي تزاولها، كما كان يضم نظام الطّوائف أيضًا من يمارسون أعمالاً أخرى أمثال: السّماسرة، والدّلالين، وسائقي الحمير، والحمالين وغيرهم. (لويس، م. ١٩٢٠: ٤٧٣). وهناك جماعات حرفية أخرى كان يجمعها هذا النّظام، كأصحاب المدابغ، والمصابغ ومصانع الكبريت، وغير ذلك من الحرف الّتي لم تكن تتركز في الأسواق، وإنّما خارج أسوار المدينة لعلة الروائح المؤذية المنبعثة منها، (بروڤنسال، ل. ١٩٩٠: ٦٦) وهناك الكثير من الحجج تشير إلى وجود طوائف حرفية أخرى لمَنْ لا يملكون محلات أو دكاكين، وإنّما كان عملهم متمركزًا في فضاءات مختلفة كالنّقاشين، والسبّاكين والسّقّائين، وبائعي العصير، والقابلات. (يوسف، أ. ١٩٨٣: ١٢١).

لذا نجد أنَّ الأسواق في تلمسان كانت مقسمة بين هذه الطوائف المختلفة مثل: العشّابين العطّارين، والخرّازين، والخياطين، والنسّاجين، والحاكة، والقبابين، والإسكافيين، والحدادين والصّفارين، والخراطين، والكتبيين (الوراقين)، والفخّارين، وأشار الوزّان إلى أنّها كانت موزعة على مختلف الأحياء والسّاحات والأزقة. (ليون، إ. ١٩٨٣:ج٢، ١٩). وكان لكل حرفة شيخ أو رئيس أطلق عليه اسم "الأمين"، (Dhina, A. 1984: 345) يعيّن على رأس كل طائفة عن طريق الاختيار أو الانتخاب، بحضور المحتسب، وبالتّعاون مع أصحاب الحرف، ويكون ممثلاً للحرفة (الدّوري، ع. ١٩٨٧: ٦٨). ويبدو أنه أصبح لكل حرفة أصولها وأعرافها، حتّى كانت هذه الأعراف مقبولة لدى المحتسب والقاضي في فض النّزاعات المهنية، لخبرة الأمناء والصّنّاع بخبايا الحرف والصّنّائع وتجربتهم الطّويلة في معرفة أساليب الحرفيين، وعدم تبصّر القضاة والمحتسبين بها.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولعلّ من واجبات الأمين: النّظر في شؤون الطائفة، والسّهر على مراقبة الصّنّاع، ومدى احترامهم لقواعد الحرفة، ومعاقبة كل مَنْ يخالف أصولها؛ فعلى سبيل المثال إذا أنتج النّسّاج قطعة قماش تخالف مقاييس الطول والعرض، أو غشّ في مادة النّسيج، وخرج عن المتعارف عليه في ذلك، يقوم الأمين بمصادرتها وتمزيقها، (المجليدي، أ. دون تاريخ: ٥٦) ويعلقها في قارعة السّوق حتّى تكون عبرة لمن تحاكيه نفسه بذلك. كما يساعد الجباه على تحصيل الضرائب؛ وكان وسيطًا ومخاطبًا رسميًا لفض الخصومات بين أهل الحرف والزبائن أو مع أجهزة الدولة، بالإضافة إلى كونه مسؤولاً عن تبليغ مشاكل الحرفة والحرفيين إلى الأطراف المسؤولة في الدولة. (الحسن مغار، م. ٢٠٠٨/٢٠٠٩: ١٦٣).

وقد حاولنا البحث في كتب التّراجم والمناقب لعلنا نجد بعض الأسماء الّتي شغلت منصب الأمين هذا في مدينة تلمسان، وبعد عناء طويل من التّنقيب والبحث، توج عملنا بوجود شخصين عرفا بهذه المهنة، أوّلهما سمي بالأمين، والثّاني عرف بالرئيس، وهما في مجالين مختلفين: **الأوّل**؛ هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار، كان يقيم عمل الحاكة من الصّوف الرّقيق (الرفيع)، الذي كانت تلمسان معروفة ومخصوصة به، واختص به هو كذلك كانت له مواضع وتربيعات بدرب شاكر، وله عمال وخدم كثيرون، وكان تجار البلد يقصدون معامله من أجل التجّهز من منسوجاته، وحتّى تجار البلدان المجاورة؛ بل إنّ ملوك إفريقية والمغرب كانوا يفضّلون ما كان يُعْمَلُ في تلمسان من رفيع الصوف، وإنّما بلغت هذه السّمعة بفضل جهود أبي زيد ابن النّجار. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٨).

ومن الدّلائل على أنّ أبا زيد هذا كان أمينًا على معامل الصّوف وحاكتها في تلمسان، رواية أبي العباس ابن القطان (عاصر ابن مرزوق الخطيب ت. ٧٨١ ه) التّالية يقول: "أنّ المستنصر (أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء يحيى ابن عبد الواحد ابن أبي حفص، حكم من سنة ٦٤٧ ه إلى أن توفي ليلة آخر عشر لذي الحجة سنة ٦٧٥ ه). والأمير أبو حفص (هو أبو حفص عمر ابن أبي زكرياء يحيى، بويع يوم ٢٥ ربيع الثاني ٦٨٣ ه، توفي يوم ٢٤ ذي الحجة ٦٩٤ ه) بعث لصاحب تلمسان هدية تشتمل على ثياب رفيعة، قال: ووصل فيها إحرام، ثُمَانِيُ العمل، عليه مكتوب: "بعثه الأمين فلان، أمين تونس، للأمين أبي زيد عبد الرحمان بن النّجار". قال: فنظر الإحرام، فوجده في أكمل عمل، لا يمكن أن يصنع أحسن منه، فقيل له: هذا قد قصد أن يريك غاية ما تنتهي إليه الإقامة من الكتان، ويقول لك: كيفَ يَفْضلُ هذا شيء؟ قال: فأخذه ووزنه، فوجد فيه نحوًا من خمسة أواقي ونصف، قال: فبعد زمان، جاء بإحرام كتب عليه: "من ابن النّجار للأمين فلان". فنظر فوجده يزيد طولاً وعرضًا نصف شبر، وينقص أوقية ونصف أوقية". (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٩). إذنْ فأبو زيد بن النّجار كان فعلا أمينًا؛ وأيُّ أمين هو؟ يتمتع بأحكام صنعة الصّوف في معامله، وكافة معامل تلمسان آنذاك كانت تحت أمانته، يتفقّدها، وصنّاعها، ونسيجها حتّى أصبحت لسلعه شهرة ضاهى بها معامل إفريقية والمغرب.

أمّا **الثّاني**؛ فهو موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي (كان حيًا سنة ٨٦٦ ه)، ذكره عبد الباسط في رحلته قائلاً: "لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطّب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه، انتهت إليه الرّياسة في الطّب في تلمسان، وهو مقرب مختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق في المملكة لعقله ورأيه". (مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري، ع. ١٧، ٢٠٠١: ١٥).

ومن خلال هذا القول تتضح لنا بعض الملاحظات:

- أن الطب كان يدرّس في تلمسان حتّى النّصف الثّاني من القرن التّاسع الهجري، وقد درس عبد الباسط بن خليل على مجموعة من الأطباء الّذين اشتهروا بتدريس الطّب خلال هذه الفترة، وعملوا على تكوين الطّلبة وتدريبهم على التّطبيب.
- أنّ المكانة الّتي وصل إليها أطباء تلمسان لاسيما موسى بن سمويل الطبيب أهم دليل على تقدم مهنة الطّب.
- والأمر الأهم من ذلك أنّ الأطباء أصبح لديهم طائفة خاصة بهم بدليل أنّ موسى بن سمويل انتهت إليه رئاسة الطّب والإشراف على الأطباء.

وبالتّالي أصبح لدينا اصطلاحان اثنان، اصطلاح الأمين الذي يشرف ممثله على الحرف المختلفة، واصطلاح الرئيس وهو خاص فقط بالطّبيب المجيد، الماهر، الحاذق، الّذي يتولى الإشراف على الأطباء، بعد أن ضرب بحظ وافر في وصف الأمراض وأنواع الأدوية اللاّزمة لها والصيدلية وتركيب الأدوية والأدهان. ولا شك أنّ اهتمام السّلطة قد ساهم في تنظيم أسواق الحرف والتجارات، والقيام على إصلاحها بتعيين المحتسبين والأمناء والعرفاء، وتوفير الأمن لها نهارًا وحراستها ليلاً. (بوتشيش، إ. ق، ٢٠٠٢: ١٠٠).

وفي هذا الشأن، كان لوظيفة الحسبة دور هام في تنظيم الصّنائع، وحماية الزبائن وتسهيل المعاملات، فكان المحتسب ملازمًا للأسواق ويقوم بجولات تفقديّة متكرّرة، يركب في كل وقت ويدور على السّوقة والباعة، ويبحث الدكاكين والطرقات، وحوله أعوانه، ومعهم المكاييل والموازين، والأرطال ويتفقّد الأطعمة، وما يغشونه. (ابن الإخوة، م. ١٩٣٧: ١١٩). وكان المحتسب إذا أراد أن يكشف على شيء يصطحب معه واحدًا من الأمناء الثّقات فيعتمد على قوله، فإن ثبت عنده شيء من الزّيف والغش، عزّر الفاعل حسب جرمه، وشهر بغشه أمام النّاس وفي الأسواق. (محمد، ع. ٢٠٠٦: ٦٩). ولم يكن دور المحتسب مقتصرًا على مراقبة الأسواق وحسب، بل كان في مرات عديدة يطوف على الأطباء والصيادلة والمؤدبين، والمدرسين، فيتفقد أحوالهم ويعاين محلاتهم، وكان يحضر معه مَنْ يوثق به من الأطباء والعلماء، ويختبرهم بحضرته، فإن علم أنّهم قد

امتلكوا القدر الكامل من المعرفة والدّراية الّتي تؤهلهم لممارسة مهنهم على أفضل وجه، خلّى سبيلهم وأعمالهم، وإلاّ عاقبهم بالضّرب أو السجن. (العقباني، م. 1967: 86).

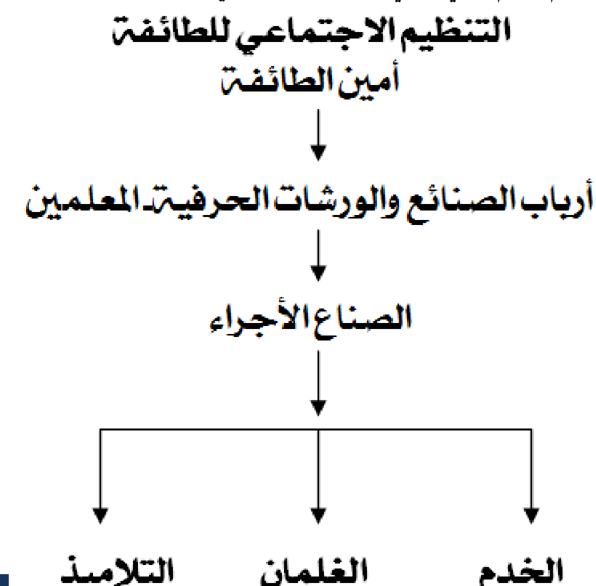
ولعلّ الدولة الزيانية كانت تدعم نظام الحسبة، من خلال بعض المقاييس والمكاييل السّلطانية الّتي من شأنها رفع النّزاعات وحلّ الخصومات بسهولة، وحتى يلتزم بها التّجّار في معاملاتهم. (Brosselard, ch. 1861: 14-30) فقد كان بسوق القيسارية (سوق البز) في تلمسان ذراع طولها ثمانية وأربعون سنتيمترًا فأمر السّلطان أبو تاشفين الأول، (حكم ٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٣٧م) سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (١٣٢٨م)، بإبدالها بأخرى تقصر عنها بسنتيمتر واحد (الطمار، م. ٢٠٠٧: ١٣٤) وحُفِرَ هذا المقياس أو الذّراع على لوحة رخامية وعلقت بالسّوق المذكورة، فأصبحت قبلة لباعة القماش ومشتريه للتأكد من صحة القياس فيما لو راودهم الشّك أو تنازعوا بشأنه. كما وضع هذا السلطان صاعًا - عرف بالتّاشفيني – يكون أساسًا لمكاييل السّوق، وعرف بعد ذلك باسم: "الوهراني"، أخذ به النّاس إلى عهد قاسم العقباني قاضي تلمسان المتوفى سنة ٨٥٤ هـ (العقباني، م. 1967: ١٠٥). وقد حاولنا من خلال كتب التّراجم والمناقب، البحث عن بعض الشّخصيات الّتي شغلت وظيفة الحسبة في أسواق تلمسان، إلاّ أنَّ أملنا أصطدم بجدار الخيبة، بسبب عدم وجود أخبار كافية حول المحتسبين، وانعدام أسماءهم حتّى في المصادر الّتي انفردت بالتّرجمة لأبناء تلمسان من علماء وقضاة ومتصوفة وغيرهم.

أمّا من حيث الإنتاج العلمي في موضوع الحسبة: فيعتبر محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني مصنّف كتاب: "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر" يعتبر الوحيد الّذي ألّف في هذا الميدان، خلال فترة القرن التاسع الهجري، إذ لم يصلنا غيره (موسى، ل. ٢٠٠٢: ٦٠) وفي طيّات الكتاب نجد عدة نوازل وقعت في حواضر بلاد المغرب، بعضها يتعلق بمدينة تلمسان، وكذلك إشارات رائعة رصدت بعض العادات المتبعة في بيع اللحم، والخبز وغيرها كما تضمن الكتاب بعض التّصرّفات غير اللاّئقة من بعض المحتسبين في ذلك العصر، وفي هذا المجال يبدي المؤلف أسفه العميق حول ما آلت إليه خطة الحسبة من تدهور، وما عرفته ذممُ المشتغلين بها من فساد. (موسى، ل. ٢٠٠٢: ٦١).

وبالرغم من مظاهر التنظيم والتّأطير -ذكرناها سابقًا- الّتي سعى السلاطين والقضاة والمحتسبون على إرسائها بين صفوف الرعية، إلاّ أنّ المجتمع الزياني عَرف العديد من المخالفات الشّرعية بين المتعاملين، بل حتّى من طرف المحتسبين أنفسهم؛ ومن بين هذه المخالفات الّتي أصبحت عادة كما أشار إلى ذلك العقباني: "وكذلك تقررت العادة ببلدنا تلمسان أنّ ما يبيعه الجزار من اللّحم يدخل في وزنه شيء من الكرش والمصران، على قدر شدة الثّمن وقلته، إلاّ أنّ ذلك لا ينضبط تساويه بين جميع النّاس على نسبة محفوظة من كل ثمن ومثمون، وإنّما يختلف بحسب اختلاف مَنْ يتقي بأسه من المستضعف الّذي لا ناصر له إلا الله"؛ (العقباني، م. 1967: ١١٤) ويضيف على وجه التّفصيل: "فالأول يحمل القليل من الكرش وقد لا يحمل شيئًا بحسب اختلاف درجاتهم والآخر يحمل الكثير من مصابته كرشًا ومصرانًا". (العقباني، م. 1967: ١١٤).

ثم يعلّق على فعل الجزارين هذا قائلاً: "... وما ذلك إلاّ من سوء دينهم وضعف يقينهم وأمنهم العقوبة بولاية مَنْ لا يتقي الله ولا يخافه عليهم، فيضيع حقوق المسلمين بما يناله، ينيلونه من رشوة سحت لا يسمن ولا يغني من جوع". (العقباني، م. 1967: ١١٤). كما اعتاد بعض الخبازين وأصحاب الأفران، أن لا يتركوا الخبز حتّى ينضج ويطيب للأكل بل كانوا يطرحونه عند أصحاب الحوانيت قبل أن يحين ذلك؛ (العقباني، م. 1967: ١١٨) وكان المحتسب عوضًا من أن يقوم بمصادرته ويمنع بيعه، ويؤدب الفرّان وصاحب الحانوت، كان يعرض عنهم، لأنّهم كانوا يؤدون له الرشاوى؛ (العقباني، م. 1967: ١١٨). ويرى العقباني أنّه من الواجب الاحتساب على الوالي عليهم قبلهم ويكون بالأدب المبرح. (العقباني، م. 1967: ١١٨).

ويبدو أنّ خطّة الحسبة قد شهدت تراجعًا وتدهورًا على عهد المؤلف (القرن التاسع الهجري) بسبب فساد ذمم المحتسبين وارتشائهم من بائعي اللّحم، وأصحاب الأفران والخبّازين، بعدما كانت من أوليات الشريعة ظاهرًا وباطنًا؛ (العقباني، م. 1967: ١١٤). ولم يكن هذا الوضع حبيس مدينة تلمسان، بل شهدت العديد من مدن المغرب الإسلامي – كتونس وفاس- ظواهر مماثلة. ونعتقد أنّ سبب هذه المحنة يرجع إلى الأوضاع الفوضوية الّتي كانت تعيشها دول المغرب الإسلامي عامة خلال القرون الثّلاثة الأخيرة من العصر الوسيط؛ والحروب فيما بين الدول من أجل التّوسع على مناطق جديدة، وبالتّالي الانشغال بهذا المجال وغيره، هيأ الجو المناسب لظهور بعض ضعاف الدّين مَنْ لا يرقبون إلاً ولا ذمّةً في أحد من المؤمنين، (العقباني، م. 1967: ١١٤). وخروجهم عن النّظام العام الذي يحمي حقوق المسلمين ويعاقب عليها.



ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

تتكون الطائفة من العناصر التالية:

الأمين: يُعين على رأس كل طائفة حرفية، من طرف المحتسب وأرباب الحرفة، ويكون ممثلاً للحرفة. ومهمته: (النظر في شؤون الطائفة. ومراقبة مدى احترام الصناع لقواعد الحرفة وأعرافها، ومعاقبة كل مَنْ يخالفها. وفض الخصومات بين أصحاب الحرف. ومساعدة الجباه في عملية تحصيل الضرائب. ومرافقة المحتسب في جولاته التفتيشية بالأسواق والورشات. وتبليغ مشاكل الحرفيين إلى الأطراف المسئولة في الدولة).

أرباب الصنائع/والمعلمين: وهم أصحاب الورشات: (يشرفون على إنجاز الأعمال وتوجهها. ويتابعون عمل الصناع الأجراء. كما يتولون مهمّة تعليم الصنعة للتلاميذ الجدد).

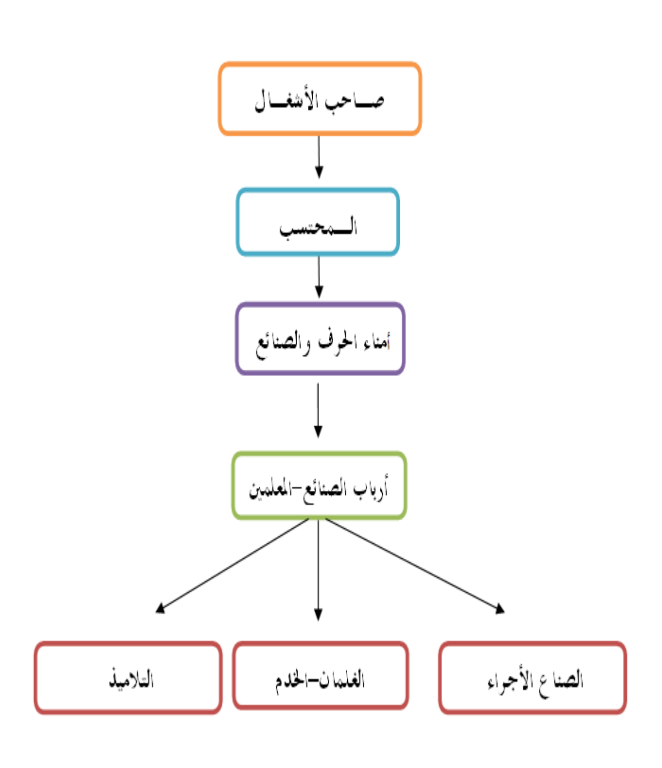
الصناع الأجراء: يستخدمهم بهم صاحب الورشة أو المعلم في إنجاز أعماله إذا كانت كثيرة، وهم أصحاب خبرة وحذق بالصنعة، ويدفع لهم أجرة لقاء ذلك.

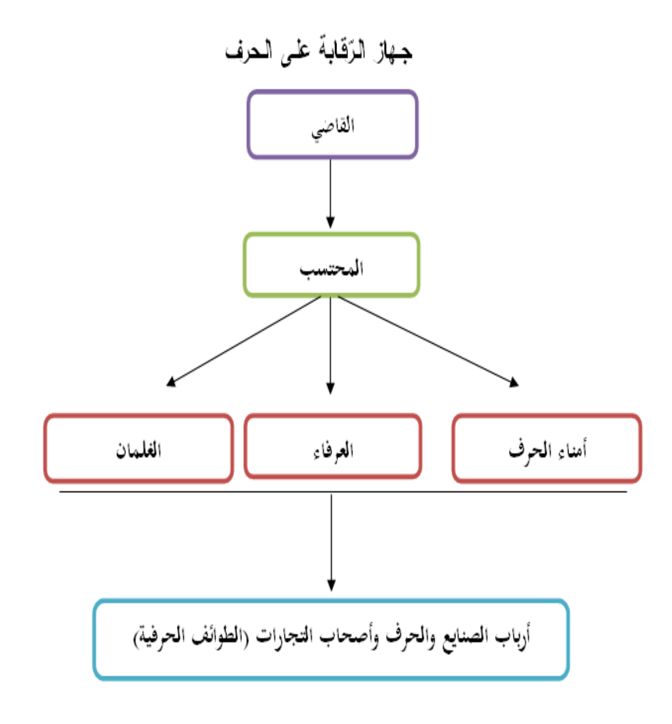
الخدم أو الغلمان: يستخدمهم المعلم أو رب الورشة لإيصال المصنوعات إلى منازل أصحابها بالأحياء. كما يرسلهم في حاجته، ويستجلب بهم سلعته، على مقابل يدفعه لهم.

التلاميذ: وهم الملتحقون الجدد بالورشة بغرض تعلم الصنعة، ويسهر المعلم على تدريبهم أصول الصنعة وطرقها وأدواتها، ويحثهم على إجادتها وإتقانها، ويتلقون أجرًا شهريًا على ذلك.

التنظيم الاقتصادي للحرف:

ويضم هذا الإطار أهم الأطراف المساهمة في التأطير الاقتصادي للحرف من حيث: إحصائها، وتعيين المشرفين عليها، وجمع الضرائب،...إلخ، وهم:





دور هذا الجهاز مراقبة الحرف والأعمال، وقمع الغش والمخالفات ويتكون من:

قاضي الجماعة: القاضي العام للبلد، يعين المحتسب، ويتدخل في حل القضايا التي قد يعجز المحتسب عن حلها أو أنها تتجاوز سلطته.

المحتسب: يعينه القاضي مهمته الرئيسية تتلخص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بـ: (مراقبة الأسواق والمعاملات التجارية. ومحاربة الغش ومعاقبة المخالفين. وتفقد الورشات، والمكاتب، .... وفك النزاعات. وتفقد المقاييس والمكاييل والأوزان).

الأمين: سبق الإشارة إلى دوره.

العرفاء: وهم من أهل الحرف وأعرفهم بها، يعينهم القاضي لمساعدة المحتسب، ويرافقونه في جولاته يختبر عن طريقهم أحوال الصناع وما يصنعون، فمثلاً يعرض عليهم لبسًا ما ليروا هل يوافق الأصول أم لا؟ وبرأيهم ذاك يحدد حكم المصنوع ووضع الصانع.

الغلمان: يعينهم المحتسب، ويختبر بهم أحوال الباعة والحرفيين، كأن يبعث أحدهم ليشتري لحمًا من الجزار، ثم يأتيه به فينظر المحتسب في نوع اللحم المباع، ثم يتأكد من وزنه، فإن ظهر غش الجزار عوقب بقدر جرمه وأذيته للناس.

أرباب الصنائع وأصحاب التجارات: وهم الطرف المُراقَبُ.

سادسًا: الورشات الحرفية وأصناف الحرفيين

وكانت النّشاطات الحرفية- في معظمها- تتمّ في الورشات الصّناعية الّتي كانت ملكيتها ترجع في بعض الأحيان لأسرة واحدة، كأسرة أولاد ابن حسين،(ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ٢٧٥) الّذين كانت لهم ورشة خاصة لخراطة الخشب بجانب الجامع الأعظم في تلمسان من جهة الغرب، وكان لهم عقب يحترفون بصناعة الخرط

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449

وشبهه، (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ٢٧٥). وأسرة أبي زيد عبد الرحمن ابن النجار صاحب معامل الحياكة بدرب شاكر، كذلك كانت هناك ورشة حرفية ومحلات تجارية بالمدينة مختصة في ترصيع ما يصنع فيها وهي للجدّ الخامس لأبي عبد الله محمد الرّصاع. (الفهرس، ١٩٦٧: "م").

وفي أحيان أخرى كانت ورشات بعض الحرف ملكًا لشخص واحد أو لعدة أشخاص فبالنسبة للحرفة الّتي تكون ملكية ورشتها لشخص واحد، كالخياط، والنّسّاج، والإسكافي، والحدّاد وغيرهم، فأبو العباس ابن القطان كانت له حانوت بسوق القيسارية في تلمسان، يشتغل فيها بالخياطة والتجارة؛ وفي الحالة الّتي تكون الورشة ملكًا لعدة أشخاص أو شركاء، كورشات الصباغة والدباغة، واستخراج المعادن، وبناء السفن، كونها تحتاج إلى أكثر من حرفي واحد، بل لعدة محترفين بسبب تداخل الحرف بعضها ببعض، ووقوع بعضها مكملة لأخرى، "إذ قد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٦٨٠). كما لا يمكن لأي صانع مهما كانت حرفته أن يمتلك زمام صنعة أخرى، ويعلّل ذلك ابن خلدون بقوله: "أَنَّ الملكات صفات للنفس وألوان، فلا تزدحم دفعةً". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٧٢١). فالخيّاط مثلاً إذا أتقن ملكة الخياطة وضبطها، واستقرت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٧٢٢). ونحن نعتقد أن رأي ابن خلدون معقول، لأن الواقع والتّجربة تثبت ذلك.

وتشير كتب النّوازل إلى وجود نوع آخر من الحرفيين إلى جانب الصّنّاع المتفردين بحرفهم عرفوا بالصّنّاع الأجراء، كانوا يعملون داخل الورشات الخاصة، أو كان يستعملهم كثير من الأعيان في أعمالهم وشغلهم. (الونشريسي، أ. ١٩٨١: ج٢: ٤٩٦). ويبدو أنّ الاتفاق حول أجرة العمل كان يتمّ مسبقًا بين الصانع ورب العمل، ورغم هذا إلاّ أنّ هذه الصّفقات كانت تتعثر في كثير من الأحيان بسبب الخلاف بين الطرفين. (الونشريسي، أ. ١٩٨١: ج ٣، ٢٢١/ ج ٩: ٨٠). ويضاف إلى هؤلاء الصّنّاع، العمّال الأجراء الّذين كانوا يعملون في نشاطات مختلفة كمساعدين في الحقول، أو في ورشات البناء، واستخراج المعادن، فكان الفلاّحون يستأجرون هؤلاء في مواسم الجني والحصاد، (الونشريسي، أ. ١٩٨١: ج٦: ٣٢٥) كموسم جمع الزّيتون وجمع الخضر، وحصد ودرس الحبوب والحرث، و البذر.

سابعًا: وراثة الحرفة

وكانت الحرفة تقليدًا راسخًا لدى العديد من العائلات التلمسانية الزيانية، تُتَوارثُ من جيل إلى آخر، حريصة أن تبقى ملكة الصّنعة وتقنياتها قائمة، حتّى قيل: "صَنْعَةُ وَلْدَكْ، وَلَوْ كَانَ حَشّاشْ" أو "صَنْعَةُ بُوكْ لا يَغَلْبُوكْ" (الزجّالي، أ. ي، د.ت: قسم ٢/ ١٥٨٢: ٣٥٩)، فكان الأب يحرص على تدريب أبنائه أصول الحرفة وأسرارها؛ وسنحاول أن نعالج هذه القضية عن طريق بعض الأسماء الحرفية الّتي حافظت على تداول الحرفة بين أبنائها لعدة أجيال، من خلال المصادر الّتي بين أيدينا.

ذكر ابن مرزوق الخطيب أنّ أبا علي حسين بن الجلاّب، كان من أرباب الأموال الطائلة في تلمسان، يتسبب بجلب الغنم من ضواحي البلد وبيبعها في أسواق تلمسان؛ ويقول أنّ هذه الحرفة كانت حرفة والده الّذي كان يجلب الغنم من جهة قوم صالحين وبيبعها. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٦٢). وكان أولاد ابن حسين انقرضت بيتهم بعد أن كان لهمْ عقبٌ يتحرفون بخرط الخشب وشبهه، بورشة كانت لهم بالجانب الغربي للجامع الأعظم. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ٢٧٥). إذن من خلال هذه العيّنات يتضح أنّ بعض الصّنّاع -إن لم نقل معظمهم- قد نقلوا تجربتهم ومهاراتهم الحرفية إلى أبنائهم، وعلّموها لهم، وهو الأمر الّذي حدث مع حسين بن الجلاّب الّذي كان تاجرًا يهتمُّ بجلب الغنم من الأماكن القريبة من تلمسان وبيبعها في أسواق المدينة الخاصة بالماشية، وهي مهنة أبيه من قبل، وبالتّالي ابن الجلاّب ورث عن أبيه حرفة جلب الغنم، وقد ساهم في الحفاظ على وجودها، وربما يكون قد ورّثها هو كذلك لبنيه. بينما أولاد ابن حسين كان أبناؤهم يشتغلون بالنّجارة وخرط الخشب -بالموضع المذكور- وهي حرفة آبائهم، لكنهم هلكوا ولم يبق منهم أحد، إلاّ أن هلاكهم ليس بالضرورة يعني هلاك حرفتهم فربما وجد من احترفها من أهل المدينة.

ثامنًا: التوزيع المجالي للحرف في تلمسان

وعرفت أسواق الصنائع والتّجارات في تلمسان عامة تنظيمًا على مستوى المواقع الّتي قسّم إليها السوق، حسب نوعية الحرف أو حسب البضائع المعروضة للبيع، فقد خُصِصَ لكل منها مكان معين للبيع من السّوق؛ ومن بين مظاهر تنظيم الأسواق أيضًا، وجود أسواق أو رحبات أو قيساريات متخصّصة في بيع البز(القماش)، وأخرى للأعشاب والعطور، وأخرى للغزل وبعضها للحبوب والخضر، وبعضها للأحصرة والبسط، وهكذا دواليك مع بقيّة الصّناعات والعروض. ورُوعي في توزيع الحرف وتنظيمها داخل المجال العمراني عدّة اعتبارات منها:

- يخضع التنظيم والتوزيع في كثير من الأحيان لتعاليم الدين السمحة، والأخلاق والآداب الاجتماعية.
- مراعاة مصلحة الناس العامة على المصلحة الخاصة للحرفيين.
- إبعاد بعض الحرف عن المجال العمراني والتي تشكل خطرًا كبيرًا على السكان، أو مضايقات يومية لهم: من جراء الضجيج، أو النار والرماد، أو الرائحة الكريهة، كالدباغة، والحدادة، وصناعة الفخار.
- وضع بعض الحرف في أماكن تساعدها على ممارسة نشاطها، بحيث تكون قريبة من الماء والساحات الواسعة. مثلاً: لما كانت الأرحاء تحتاج إلى المياه لإدارتها، وتجنبا للضجيج الناتج عن حركتها، والذي قد يؤذي الناس، جعلت هذه الأرحاء على ضفاف وادي الوريط، ونهر الصفصيف، وخارج باب كشوط من تلمسان.



خاتِمَةٌ

يمكننا الآن استخلاص نتيجة هامة وهي: أن مدينة تلمسان عرفت ظهور تنظيمات داخل الحرف، وعلى مستوى الورشات، والأسواق، فكان لكل حرفة أمين، أو رئيس، يعين على رأس كل طائفة، يختار من طرف أهل الطّائفة وبحضور القاضي والمحتسب، وكان المعلّم في الورشة يلقّن التّلاميذ أصول الصّنعة وأساليب الإبداع. وهذا ما يؤكد أقدمية التّنظيمات الحرفية في تلمسان وبلاد المغرب الأوسط، وأهميتها في تأطير العمل الحرفي من خلال الأدوار الّتي كانت تؤديها الأطراف المنظّمة؛ ويؤكد أيضًا أنّ المجتمع الزّياني خلال الفترة المدروسة كان مجتمعًا منظّمًا تنظيمًا محكمًا، وكان هذا التنظيم يتأثر في بعض الأحيان بالحروب والكوارث، بل إنّ هذه المؤثّرات كشفت عن العديد من العلاقات الاجتماعية الرّاقية، كالتّعاون والتّضامن زمن المسغبة والحروب، وحتّى مؤسسات الدّولة مثل البيمارستانات، والقصور، والمخازن شاركت في تقوية هذه العلاقات.

الملاحق

جدول رقم (١) أسماء الحرفيين وورشاتهم في مدينة تلمسان

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
الصباغة:	-	بربض العبّاد و قرب حمام الصبّاغين.	عدد كثير من الصبّاغين.	-الوزّان، **وصف افريقية**،ج٢،ص٢٤.
الجلابة:	أبو علي حسين بن الجلاّب.	سوق الدّواب في تلمسان.	كان يحترف بمهنة آبائه، يقوم بجلب الغنم ويبيعها بالسّوق المذكور.	-ابن مرزوق الخطيب، **المناقب المرزوقية**، ص١٦٢.
الحطابة وصناعة الفحم:	أبو العبّاس أحمد الغماري (ت٨٧٤ه).	تلمسان.	كان يحتطِبُ من الأراضي والجبال القريبة من المدينة، ويبيعه ما يجلبه بسوقها.	-ابن صعد التلمساني، **روضة النسرين** ، ص٢٠٢.
نسج الدوم وصناعة الأطباق:	أبو العبّاس أحمد الغماري (ت٨٧٤ه).	تلمسان.	كان يشتغل بنسج الدّوم.	- **نفسه**، ص١٩٥.
	حدُّوش بن التَّيْرَتْ العبد الوادي.	قيصرية تلمسان.	كان يبيع الأطباق والأدوات المصنوعة من الدّوم والحلفاء.	-ابن مريم، **المصدر السابق**، ص ٩٣.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
الحِيَاكَةُ:	أبو زيد عبد الرحمن بن النجار.	معامل الصّوف بدرب شاكر (تلمسان).	كان يحيكُ الصّوف الرّفيع، وفي نفس الوقت أمين على معامل الحياكة بالمدينة.	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص ١٨٨، ١٨٩.
	أحمد بن محمد بن زكري التلمساني المتوفي سنة ٨٩٩هـ	ورشة في تلمسان.	أدخلته فيها أمه ليتعلّم الحياكة و الطّرز.	-ابن مريم، **المصدر السابق**، ص ٣٨،٣٩.
الخياطة:	أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخيّاط .	بحانوته في حي القبّابين بتلمسان.	كان معاصرًا ليغمراسن بن زيان.	-**نفسه**،ص٥٧. -ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص ١٨٠، ١٨١.
السِّكافَةُ (إصلاح الأحذية):	علي بن المعلّم.	سوق الإسكافيين بتلمسان.	وهو والد الفقيه الكاتب صاحب الأشغال **منديل بن المعلم** بدولة يغمراسن بن زيان.	-ابن الأحمر، **الدولة الزيانية**،ص٦٢.
صناعة الخَرْطِ (الخراطةُ):	أولاد بن حسين .	في حانوت كانت لهم بالجانب الغربي من الجامع الأعظم، عند الباب الأوسط.	كانوا أئِمّة لهذا الجامع، ومن عدول البلد.	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص٢٧٥.
النِّجارة:	أبو العبّاس أحمد بن مرزوق(ت٧٤١هـ)	تلمسان.	كانت عنده أدوات النجارة، يصنع بها ما يحتاج إليه في داره.	-**نفسه**، ص٢٤٥.
النّسخ والوراقة	أبو عبد الله محمد بن الحدّاد الوادي آشي.	في خزائن بتلمسان	أحد الأدباء المهاجرين من الأندلس، نسخ في تلمسان نحو من مائة سفر.	-المقرّي ،**أزهار الرّياض في أخبار عياض**،ج١،ص٧١/ج٣ ،ص٣٠٥- ٣٠٨ .
التَّسْفيرُ (التّجليد):	أبو عبد الله محمّد بن يحي الباهلي البجائي المسفّر (ت٧٤٣هـ).	كان يقيم بتلمسان.	-	-ابن مريم، **المصدر السابق**، ص٢٢٧.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الحِرَفُ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
السَّكَاكَةُ (ضرب السِّكَّة):	أسرة بني الملاح القرطبية.	قصر المشور بتلمسان.	على عهد يغمراسن بن زيان، وولده عثمان، وفي دولة أبي حمو .	-ابن خلدون، **ديوان العبر**، المجلد ٧، ص ٢١٧. -ابن خلدون يحي، **المصدر السابق**، ج١، ص٢١٣.
البناء:	أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الدَّلاَيلي.	تلمسان.	بنى دار ابن مروة في حدود ٦٢٩هـ	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص١٤٩.
الجَصَاصَةُ:	محمد ابن مرزوق التلمساني (ت٧٨١هـ) وعمُّهُ أبو عبد الله محمد بن محمد ابن مرزوق (ت٧٣٣هـ).	تلمسان.	قاما بعمل زّخارف الجصّ في المسجد الجامع بالعباد	-ابن مرزوق الخطيب،**المسند الصحيح الحسن**،ص٤٦٣. -المناقب، **المصدر السابق**، ص١٨٨.
صناعة الصابون:	-	بذراع الصابون في تلمسان.	-	-ابن خلدون يحي، **المصدر السابق**، ج١، ص٢٠٩/ ج٢، ص ٣٠٦.
صناعة القرميد والآجر:	-	باب القرمادين و أقادير.	-	-محمد الطّمار، **تلمسان عبر العصور**، ص١٥.
الفخَّارُوالخَزَفُ:	-	باب العقبة، عين القويدس، أقادير، و وراء السور الشمالي للمدينة.	صناعة الأواني المختلفة.	-الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان**، ص٣٨.
الحجامةُ:	-	درب الحجّامين.	-	-حداد مباركة، تلمسان، ص ٣٢،٤١.
	أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الشّاطبي التّلمساني	قصر المشور.	كان طبيبًا لأبي تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ).	-ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص ٢٣٠.
التَّطْبِيْبُ (صناعة الطِّبُ):	علي بن فشوش التلمساني(ق ٩هـ)	لعلَّه ببيمارستان المدينة.	كان يدرّس الطّب للطلبة، ويعمل على تدريبهم أصول المهنة، وطريقة العمل في معالجة المريض، وكيفية اعداد الأدوية والأدهان.	**مشاهدات عبد الباسط بن خليل في بلاد المغرب من خلال مخطوط الرّوض الباسم**، عبد الباسط بن خليل، ص١٥.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
	موسى بن سمويل بن يهوذا الإسرائيلي كان حياً سنة ٨٦٦هـ	تلمسان.	كان من أطباء البلاط، مهر في صناعة الطّب وتدريسه، كما كان رئيسا للأطبّاء بالمدينة.	-**نفسه**.
طحن الحبوب:	جماعة الرحوية	على ضفاف وادي الوريط ونهر الصفصيف وخارج باب كشوط.	ذكر الباحث بروسلار أن عدد الأرحاء بتلمسان يقارب المائة.	- التنسي، **المصدر السابق**، ص ٢٤٥.
حرفة القباب:	/	حي القبابين بتلمسان	صانع القباقب وهي النعال الخشبية.	-ابن مرزوق، **المناقب**، **المصدر السابق**، ص ١٨٠.
حرفة القصارة:	/	في راس القصارين بتلمسان	تنظيف الثياب وتبييضها.	-ابن صعد التلمساني، **روضة النسرين** ، ص١٢٦، ١٢٧.
حرفة الغسالين:	/	قرب حمام الطبول بتلمسان	وهم على ما نعتقد المشتغلون بغسل الصوف.	- التنسي، **المصدر السابق**، الهامش رقم: ٤، ص ٢٥٥.
حرفة الخرز:	/	بالخرازين في تلمسان	وهم المشتغلون بخرز الجلد وصناعة الأحذية والسروج وغيرها.	- العقباني، **المصدر السابق**، ص ٦٧.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الإخوة، محمد.(١٩٣٧). **معالم القربة في أحكام الحسبة**. كيمبرج: مطبعة دار الفنون.
- ابن الزّيات التّادلي، يوسف.(٢٠١٠). **التّشوّف إلى رجال التّصوّف وأخبار أبي العبّاس السّبتي**. الدّار البيضاء: مطبعة النّجاح الجديدة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن.(١٩٧٩). **المقدّمة**. بيروت: دار الكتاب اللّبناني.
- ابن خلدون، عبد الرحمن.(١٩٧٩). **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت: دار الكتاب اللّبناني.
- ابن خلدون، يحي.(١٩٨٠). **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**. ج١. الجزائر: المكتبة الوطنية.
- ابن خلدون، يحي.(٢٠٠٧). **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**. ج٢. الجزائر: دار الأمل للدّراسات والنشر والتوزيع.
- ابن صعد التلمساني، محمد.(٢٠٠٤). **روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**. الجزائر: ANEP.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد. (١٩٦٥). **أنس الفقير وعزّ الحقير**. الرباط: مطبعة أكدال.
- ابن مرزوق التّلمساني، محمد.(٢٠٠٨). **المناقب المرزوقية**. الدار البيضاء: مطبعة النّجاح.
- ابن مريم التّلمساني، محمد.(١٩٨٦). **البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- أبيش، يوسف.(١٩٨٣). "**المؤسسات الاقتصادية**". ضمن كتاب: المدينة الإسلامية، اليونسكو.
- بوتشيش، إبراهيم القادري.(٢٠٠٢). **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**. بيروت: دار الطليعة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- بوداود، عبيد.(٢٠٠٣). **ظاهرة التصوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع (القرن ١٣- ١٥م)**. وهران: دار الغرب للنّشر والتّوزيع.
- بورويبة، رشيد. لقبال، موسى. وآخرون.(١٩٨٤). **الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني)**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بوعياد، محمود.(١٩٨٢). **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (١٥م)**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- پروفنسال، ليفي.(١٩٩٠). **الإسلام في المغرب والأندلس**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- التّنسي، محمد.(٢٠٠٧). **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان**. الجزائر: وزارة الثقافة.
- الحسن مغار، مولاي.(٢٠٠٨/٢٠٠٩). **الحرف والحرفيون في المغرب الأقصى خلال العصر المريني**. أطروحة دكتوراه. مكناس: جامعة مولاي إسماعيل.
- دهينة، عطاء الله. (١٩٨٤). "**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان**" ضمن كتاب **الجزائر في التاريخ**. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الدّوري، عبد العزيز.(١٩٨٧). **مقدّمة في التاريخ الاقتصادي العربي**. بيروت: دار الطّليعة للنّشر والتّوزيع.
- الرّصّاع، محمد.(١٩٦٧). **الفهرس**. تونس: المكتبة العتيقة.
- الزّجالي، عبيد الله. (دون تاريخ). **أمثال العوام في الأندلس**. ق٢. منشورات وزارة الدولة المكلّفة بالشؤون الثّقافية والتّعليم الأصلي.
- الطمّار، محمد.(٢٠٠٧). **تلمسان عبر العصور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد السّلام تدمري، عمر.(٢٠٠١). "**مشاهدات وأخبار عبد الباسط بن خليل الظّاهري في بلاد المغرب والأندلس**" من كتاب **الروض الباسم في حوادث العمر والتّراجم**. مجلة التاريخ العربي، العدد ١٧.
- عبد العزيز، محمد عادل.(٢٠٠٦). **الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية**. القاهرة: دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- العقباني، محمد.(١٩٦٧). **تُحفةُ النّاظِرِ وغنيةُ الذّاكر في حِفظِ الشّعائر وتَغيِير المناكِرِ**.
- عمر موسى، عزّالدّين. (٢٠٠٣). **النّشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- فيلالي، عبد العزيز.(٢٠٠٧) **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- لقبال، موسى.(٢٠٠٢). **الحياة اليومية لمجتمع المدينة الإسلامية من خلال نشأة وتطور نظام الحسبة المذهبية في المغرب العربي**. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- ماسينيون، لويس.(١٩٢٠). "**الطوائف الحرفية والمدنية الإسلامية**". المجلة الدولية للسوسيولوجيا، ص ٤٧٣ – ٤٨٩.
- المجليدي، أحمد.(دون تاريخ). **التّيسير في أحكام التّسعير**. الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.
- محمد عادل، عبد العزيز.(٢٠٠٦). **الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية**. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمود لعرج، عبد العزيز.(٢٠٠٦). **مدينة المنصورة في تلمسان: دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها**. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- المغيلي التلمساني، محمد.(١٩٦٨). **مصباح الأرواح في أصول الفلاح**. الجزائر: الشركة الوطنية الجزائرية.
- المقرّي التّلمساني، أحمد.(١٩٧٨). **أزهار الرّياض في أخبار عياض**. ج١. الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتّحدة.
- النميري، ابن الحاج.(١٩٩٠). **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الوزّان الفاسي، الحسن.(١٩٨٣). **وصف إفريقيا**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الونشريسي، أحمد.(١٩٨١). **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- Brosselard, CH. (1861). «*La coudée Royale de Tlemcen*». *Revue Africaine*, N25, P. P. 14-30.
- Damas: Bulletin d'Etudes Orientales Institut Français de Damas.
- Dhina, Atallah.(1984). *Les Etats de l'Occident Musulman aux XIII, XIV^e^ et XV^e^ siècles*. Alger: Office des Publications Universitaire.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





مواقف العلماء من غياب الوحدة السياسية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس (٤٢٢ - ٤٧٩هـ / ١٠٣٣- ١٠٨٦م)

طارق بن زاوي

أستاذ مساعد التاريخ الوسيط
جامعة المسيلة
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

طارق بن زاوي، مواقف العلماء من غياب الوحدة السياسية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس (٤٢٢هـ – ٤٧٩هـ / ١٠٣٣م – ١٠٨٦م).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ يونيو ٢٠١٣. ص ٩٣ – ٩٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

من العوامل الأساسية التي أدت إلى ضياع الأندلس الصراعات السياسية التي رافقت التواجد الإسلامي في هذه المنطقة منذ فتحها، ولعل المرحلة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بمرحلة ملوك الطوائف والتي جاءت مباشرةً بعد سقوط الدولة الأموية الأندلسية سنة (٤٢٢ هـ/ ١٠٣٣م) كانت السبب المباشر في انحسار النفوذ الإسلامي، ومن ثَمَّ بداية العد التنازلي الفعلي لاسترجاع النصارى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الأيبيرية مستغلين حالة الضعف والانقسام والاستعانة بالعدو الذي ميّز الجانب الإسلامي، ولكن الله سخّر لهذه الأمة فئة مهمة أبت أن تعيش بمعزل عمّا يحدث، إنها فئة العلماء الذين بذلوا جهودًا جبّارة من أجل إعادة الوحدة السياسية، ودفع الصائل (المعتدي) الذي بات يذيق المسلمين كل أنواع الذل ملحقًا بهم الهزيمة تلو الهزيمة، لقد كان للعلماء دور مهم في الحفاظ على الأندلس خاصةً بعد أن عملوا على إيصال صوتهم ونقل معاناة المسلمين إلى دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الذي لم يدّخر جهدًا في الجواز إلى العدوة العليا وإلحاق الهزيمة النكراء بالنصارى في معركة الزلاقة الخالدة (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م)، الأمر الذي أمّد في عمر التواجد الإسلامي في الأندلس لقرون أخرى.

مُقَدِّمَةُ

صنفان من الناس صلاحهما صلاح للأمة وفسادهما فساد للأمة، العلماء والأمراء، فإذا تحالفوا على الحق كان ذلك من أعظم الأمور التي تعود بالخير على الجميع، ولذلك نجد السلطة السياسية غالبًا ما كانت تحاول تبرير شرعيتها وأعمالها بفتاوى يصدرها العلماء، خاصةً أولئك الذين يكنّ لهم العامة احترامًا كبيرًا، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولعلّ أهمّها محنة الإمام أحمد بن حنبل وما جرى له أيام الفتنة المعروفة.

وإذ نتحدث عن مكانة العلماء ودورهم في الحياة السياسية، فإنّهم أدّوا دورًا هامًا في الأندلس في ذلك الزمن الذي ضعفت فيه ريح دولة الإسلام، والذي اصطلح المؤرخون على تسميته بعهد ملوك الطوائف، حيث لم يدّخر العلماء جهدًا في محاولة لمّ الشمل ورأب الصدع والتحذير من التفرق وتحريم موالاة النصارى، فما هي طبيعة هذه المجهودات التي بذلها العلماء في هذا الإطار؟ وكيف تعاملوا مع أحوال الأندلس المزرية ؟ وما هي نتائج مجهوداتهم؟

وقد حاولت في هذا الموضوع الإجابة عن هذه الأسئلة، مبتدأً بالكلام عن سقوط الدولة الأموية وانقسام الأندلس، ووقوع مدنها بين أيدي من حمل ألقاب الخلفاء، ثمّ معرّجًا على ذكر مواقف العلماء الأندلسيين خاصةً ممّا آلت إليه أحوال البلاد، فذكرت أولاً مَنْ أنكر الأوضاع السياسية السائدة، ثمّ أعقبت ذلك بالحديث عن دور العلماء في دعوة المرابطين من المغرب الأقصى لرفع راية

الجهاد والتوحيد، وأخيرًا نقلت بعض الآراء الشاذة التي ساندت ملوك الطوائف.

أولاً: سقوط الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف

لقد تمكن الأمويون من بسط نفوذهم على الأندلس، وظلّوا يجمعون بين السلطتين الزمنية والروحية، إلى أن جاء المنصور بن أبي عامر(١) وأبناؤه من بعده، فانتزعوا السلطة الزمنية في أيام الخليفة الأموي هشام المؤيّد(٢) واستبدّوا بالأمر، وكان هذا بداية لنهاية الخلافة الأموية في الأندلس، لا سيما بعد أن طمع عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر(٣) في الخلافة نفسها، حيث تقدّم إلى الخليفة وطلب منه أن يعهد إليه بولاية العهد، فوافق هشام وكتب عهدًا بذلك، مضمونه أنّ الخليفة لم يجد مَنْ هو أصلح لولاية العهد بعده من عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر.(٤)

ولقد هزّ هذا الحادث الدولة الأموية، وعزّ على المضريين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين، ذلك أنّ الأسرة العامرية يمنية الأصل، فانبعثت العصبية القبلية القديمة، وانتهز الأمويون غياب عبد الرحمان بن أبي عامر في الشمال، فخلعوا هشام وولّوا رجلاً من أحفاد الناصر،(٥) وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر،(٦) ولقبوه بـ "المهدي"، ولما بلغت هذه الأخبار عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر رجع من غزوته في الشمال، وكان كلّما اقترب من قرطبة انفضّ عنه جماعة من جيشه، حتى صار في قلّة، فاعترضه أحد خصومه فقبض عليه وقطع رأسه وحملها إلى المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر، وبموته انتهت دولة بني عامر سنة (٣٩٩هـ / ١٠٠٨م).(٧)

والمرحلة الموالية من العصر الأموي في الأندلس كانت مليئة بالفتن والاضطرابات، تصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة كالبربر والصقالبة،(٨) وأهل قرطبة، وفي سنة (٤٢٢هـ/١٠٣١م) سقطت الدولة الأموية بشكل نهائي بعد أن عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله،(٩) وتمّ إجلاء مَنْ بقي من الأمويين من قرطبة، ثمّ أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور(١٠) انتهاء الخلافة الأموية لعدم وجود من يستحقها، وصيرورة الأمر شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء، أو ما أسماه بـ الجماعة.(١١)

وقال المقري في وصف الأندلس في هذه المرحلة: "وانقطعت الدولة الأموية من الأرض، وقامت الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلّب بعضهم على بعض واستفحل أمرهم، وعظم شأنهم، ولاذوا بالخزي للطاغية، يظاهر عليهم ويبتزّهم ملكهم، وأقاموا في ذلك برهة من الزمان، حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني فخلعهم، وأخلى منهم الأرض."(١٢)

ومن أحسن ما قيل في وصف حال البلاد، أبيات للشاعر أبي الحسن بن رشيق القيرواني:

ومـمّـا يزهـدني فـي أرض أنـدلس
تلقيـب معتضـد فيـها ومعتمـد
ألقـاب مملكـة في غيـر موضـعها
كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد(١٣)

وعمّت هذه الإمارات والدويلات الطائفية الأندلس، عمل كل واحد منها على بسط نفوذه في أرض الأندلس، وانضوت تحتها ثلاثة أحزاب كبيرة:

- **أمّا الحزب الأول فيمثله أهل الأندلس وأهل البلاد الذين استقروا فيها منذ القديم**، بغض النظر عن أصلهم، ومن أهمّهم بنو عباد اللخميون، ومقرّهم إشبيلية، وبنو جهور في قرطبة، وبنو هود الجذاميون في سرقسطة، وبنو صمادح أو بنو تجيب في المرية، وبنو برزال في قرمونة، وبنو نوح في مورور، وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية وغيرهم.(١٤)

- **وأمّا الحزب الثاني فيمثله البربر حديثو العهد في الأندلس**، لاسيما الصناهجيين الذين استقرّوا بها أيام المنصور بن أبي عامر، ومن زعماء هذا الحزب بنو زيري في غرناطة، وبنو حمود في مالقة.(١٥)

- **والحزب الثالث يمثّله كبار الصقالبة** الذين استقرّوا في شرق الأندلس وكوّنوا الدويلات الصغيرة، وكانت تجمعها رابطة تحالف تسمى الدولة العامرية الصقلبية، لأنّ أصحابها كانوا من مماليك المنصور بن أبي عامر وأبناؤه، ومن أشهر هؤلاء مجاهد العامري الذي استقلّ بدانية، ثمّ استولى على جزر الباليار وغزا سردانيا وسواحل إيطاليا وسيطرت أساطيله على غربي بحر المتوسط.

ولا بدّ من الإشارة إلى الجهة المتربصة بديار الإسلام، وهي ممالك إسبانيا المسيحية التي أوضاعها على العكس تمامًا خاصةً من الناحيتين السياسية والعسكرية، وكان من أشهر ملوك النصارى آنذاك ملك قشتالة ألفونصو السادس،(١٦) أو الأدفونش كما تسميه المصادر العربية، ونجح هذا الملك في توحيد مملكتي قشتالة وليون، وبسط نفوذه على الممالك الشمالية الإسبانية، واحتل طليطلة قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥م)، وذلك بسبب خيانة حاكمها يحي القادر بن ذي النون،(١٧) الذي اتبّع سياسة ضعيفة عجّلت بسقوط المدينة، فكان هذا الحدث كارثة كبرى على الإسلام في الأندلس، إذ احتلّ العدو النصراني أراض شاسعة امتدّت جنوبًا حتى جبال قرطبة وأطلق الأسبان على هذه المنطقة المحتلة اسم قشتالة الجديدة.(١٨)

وبالعودة إلى أحوال الأندلس الاقتصادية، فإنّنا نجدها لا تختلف عن أحوالها السياسية، فاعتداءات ألفونصو السادس شكّلت ضغطًا اقتصاديًا رهيبًا على ملوك الطوائف، وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق فرض الضرائب السنوية التي كانت تسمى (Parias) بارياس،(١٩) وازدادت مقاديرها إلى درجة أن بعضهم عجز عن أدائها، وقد خلّف هذا الضغط واقعًا اجتماعيًا

مزريًا، فامتلأت خزائن ألفونصو السادس بموارد إضافية قدّرت بحوالي ٤٠ كغ من الذهب سنويًا، في حين نجد أنّ ملوك الطوائف زادهم هذا الأمر ذلاً على ذل، ولم يستطيعوا ضبط الأمور داخليًا وخارجيًا، كما انهارت قوة الإنتاج الرئيسية في الأندلس وهي الزراعة، ممّا يعني تصدّع البنية الاقتصادية برمّتها.[٢٠]

ثانيًا: مواقف العلماء من ملوك الطوائف

٢/ أ - المواقف المندّدة بملوك الطوائف:

إنّ الإسلام دين وحدة وجماعة، فقد جاء في ظرف كان فيه العرب منقسمون على أنفسهم، فلا شيء يجمع بينهم، ولم يكن لهم شأن يذكر بين الأمم، فجاء الإسلام فتحقّقت بفضله وحدة الجزيرة العربية، والتي كانت قبل ذلك ضربًا من الخيال، فكان هذا من أعظم الأحداث التي لن يقتصر تأثيرها على جزيرة العرب فحسب وإنّما على العالم بأسره. وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة تحثّ على الاجتماع وتنبذ الافتراق، ولا بأس أن نذكر بعضها، فقد قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}،[٢١] وقال تعالى أيضًا: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}،[٢٢] وقال أيضًا: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}.[٢٣]

أما الأحاديث النبوية الصحيحة، فهي كثيرة أيضًا، نذكر منها قوله عليه الصلاة والسلام: "إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإنّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملّة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة".[٢٤] وقال أيضًا: "أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنّه مَنْ يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ بدعة ضلالة".[٢٥]

وقد حثّ العلماء على وجوب التزام الجماعة، ونبذ الافتراق والشقاق، وطاعة أولي الأمر في غير معصية، وهذا معلوم من الدين بالضرورة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ مواقف العلماء في الأندلس لا يصعب معرفتها، لأنّ تحقيق الوحدة الإسلامية أمر يزيد الدين عزًا وغلبة، وحال هذه المنطقة كما رأيناه لا يرضاه أي مسلم فما بالك بالعلماء، وسأذكر كلامًا لبعض علماء ذلك العصر ممّا وقفت عليه حول مواقفهم من ملوك الطوائف، وفي مقدمتهم علاّمة الأندلس في القرن الخامس الهجري ابن حزم الظاهري،[٢٦] فإنّ له مقالة نفيسة في هؤلاء جاء فيها: "اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل المالك من أهل ملّتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركوها عمّا قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سببًا في انقراض أعمارهم وعونًا لأعدائهم عليهم، وعن حياضة ملّتهم التي بها عزّوا في عاجلتهم، وبها يرجون الفوز في آجلتهم، حتى استشرف لذلك أهل الذمة وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقّق أهل النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك، فضعف همّنا، لأنّهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء، والحمية للملة الغرّاء".[٢٧] وممّا قاله أيضًا:" اجتمع عندنا في الأندلس في صقع واحد أربعة خلفاء، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة في موضعه، وتلك فضيحة لم ير مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام، كلّهم يتسمّى بالخلافة وإمارة المؤمنين، وهم خلف الحصري في إشبيلية على أنّه هشام من بعد اثنتين وعشرين عامًا من موت هشام، فخطب له على منابر الأندلس، وسفكت الدماء من أجله، ومحمد بن القاسم خليفة في الجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة، وبببشتر إدريس بن يحي بن علي".[٢٨]

وهذا عالم آخر لا يقل مكانة عن ابن حزم، إنّه فقيه الأندلس ورئيس المالكية فيها سليمان بن خلف أبو الوليد الباجي،[٢٩] فمنذ أن عاد من رحلته المشرقية سعى جاهدًا إلى الإصلاح بين ملوك الطوائف، وكانوا يجلّونه في الظاهر ويستثقلونه في الباطن، ولم تكلّل مجهوداته بشيء يذكر، وعند اشتداد خطر النصارى ضاعف الباجي نشاطه، وطاف على هؤلاء الأمراء واحدًا واحدًا، ورغم عظم البلاء وإحاطته بالبلاد، فإنّ أحدا من هؤلاء لم يستجب له، ولذلك نجده في آخر حياته يتحوّل عن تفكيره، وبدل محاولة الإصلاح بين هؤلاء تبنّى كغيره من العلماء فكرة اللجوء إلى النجدة المرابطية،[٣٠] لكنّ القدر لم يمهله، فتوفي قبل أن يرى ما تقرّ به عينه في إعادة الوحدة إلى هذه المنطقة.

أما عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري[٣١] من إشبيلية، فله كلام حسن يصف فيه حال الأندلس قبل دخول المرابطين إليها فقال: "وكانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة عدة ثوار، فصعب أهلها عن مدافعتهم، وتلقبوا بألقاب الخلفاء، وضربوا النقود بأسمائهم وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه".[٣٢]

وهذا نص آخر من شاهد عيان لعالم جليل في بلاد المغرب والأندلس، إنّه حافظها العالم الجليل ابن عبد البر[٣٣] الذي عايش الأحداث عن كثب، فكتب قائلاً: "وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب على موضع ملكه واستعبد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولا للنصارى، يؤدّون إليهم أضعاف ما كانوا يأخذون منهم اليوم".[٣٤] وقد دفع بعض الفقهاء حياته ثمنًا لمواقفه الحازمة والصريحة تجاه ملوك الطوائف، ومن هؤلاء المحدّث أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني،[٣٥] الذي جسّد بحقّ نموذج الشجاعة والجرأة التي أبان عنها بعض العلماء في الأندلس تجاه حالة التمزّق التي تشهدها أرض المسلمين، وما نجم عن ذلك من خطر صليبي،[٣٦] وممّا حفظ عنه قبل وفاته أنّه بعث إلى أمير إشبيلية المعتمد بن عباد[٣٧] رسالة ملتهبة يحرضّه فيها على الجهاد، فأنشد هذه الأبيات:

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أيا أسفا للدين إذ ظلّ نهبة
بأعيننا و المسلمون شهود
أعيذكم أن تذهبوا فيمسكم
عقاب كما ذاق العقاب ثمود
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم
يؤم به أقصى البلاد وفود[٣٨]

وقد صوّر الفقيه ابن العسال[٣٩] حال السلمين في الأندلس بأنّها بائسة، يملأها القلق والرعب، إذ هم ضحية لتكالب أعدائهم النصارى وجبن حكامهم فأنشد:

ولقد رمانا المشركون ببأسهم *** لم تخط لكن شأنها الاصماء
باتت قلوب المسلمين برعبهم *** فحماتنا في حربهم جبناء[٤٠]

فلا شك في أنّ وصف حكام المسلمين في هذه الأوقات الصعبة بالجبن لأعظم دليل على نفور هذا الفقيه منهم وشدّة نكيره عليهم، كما يعتبر مثالاً لموقف العلماء الواضح تجاه هؤلاء الذين حملوا ألقاب الخلفاء، وقال أيضًا:

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدولا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيّات في سفط[٤١]

ويروي صدر البيت الثالث هكذا:

من جاور الشر لا يأمن بوائقه
كيف الحياة مع الحيّات في سفط[٤٢]

٢/ ب– دعوة العلماء للاستنجاد بالمرابطين:

بعد أن فشلت جهود العلماء في إقناع ملوك الطوائف بالوحدة، وبعد أن زاد انقسامهم واشتدّت العداوة بينهم وتعاظم الخطر الصليبي، لم يكن هناك من سبيل إلا طلب المساعدة من قوة مسلمة خارجية قادرة على مواجهة الفتن الداخلية والتصدّي للنصارى. ومن رحمة الله ولطفه بالمسلمين أن ظهرت في هذه المرحلة دولة المرابطين التي نشأت في بلاد المغرب الأقصى ورفعت لواء الجهاد، وتمكّنت من تحقيق انتصارات كبيرة، فشاع ذكرها وذاع صيتها، فكانت أملاً لأهل الأندلس، وكان لسقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م) عظيم الأثر في ترسيخ فكرة الاستنجاد بالمرابطين. وللأسف لم يكن سقوط هذه المدينة ليحرّك ملوك الطوائف، بل تهافت على ألفونسو السادس رسلهم مهنئّين ومباركين وواضعين أنفسهم وأموالهم في خدمته، وبلغ من تخاذلهم واستسلامهم وضعف حميّتهم أن أهدى إليه أحدهم هدّية قيّمة، فأعطاه بدلاً عنها قردًا فصار يفخر بذلك على جميع ملوك الطوائف، معتقدًا بأنّه حاز رضى الملك النصراني.[٤٣]

وبعد أن يئس المسلمون من هؤلاء الأمراء المتخاذلين، وأيقنوا أن لا خير يرجى منهم، عقدوا اجتماعًا في قرطبة حضره جمع من العلماء على رأسهم قاضيها عبيد الله بن محمد بن أدهم،[٤٤] فتشاور الجميع في حال الأندلس، وما وصلت إليه من ذلة وصغار، واقترح البعض الإستنجاد بعرب إفريقية الهلاليين، ولكن القاضي بن أدهم تخوف من وصولهم وتخريبهم البلاد كمل فعلوا بإفريقية،[٤٥] وفي مقابل ذلك اقترح أن يستنجدوا بالمرابطين فهم أقرب وأصلح، فطلب منه المجتمعون أن يكاتب يوسف بن تاشفين[٤٦] وأن يستدعيه وفوّضوه بالأمر.

لقد كان مؤتمر قرطبة الذي أشرف على عقده العلماء مؤتمرًا مصيريًا، أخذ على عاتقه مسؤولية إنقاذ الأندلس من الخطر الذي بات يتربص بها أكثر من أي وقت مضى، وتجسيدًا لما اتفق عليه تشكّل وفد من العلماء ضمّ كل من قاضي قرطبة أبو بكر بن أدهم وقاضي غرناطة ابن القليعي،[٤٧] وقاضي بطليوس ابن مفاذا،[٤٨] وحمل هذا الوفد رسالة إلى يوسف تصف حال الأندلس وتدعوه إلى الجواز إليها لإنقاذها من النصارى.[٤٩]

ومن أبرز علماء تلك المرحلة العصيبة الذين لم يتردّدوا في دعوة المرابطين للجهاد في الأندلس أبـو بكر الطرطوشي،[٥٠] ويتجلّى موقفه بوضوح في رسالة بعثها إلى يوسف بن تاشفين، فبعد أن ذكّره بالله وحثّه على تقواه في الرعيّة، ساردًا عليه أقوال الله تعالى وأقوال نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم، وسيرة الصالحين قال: "فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس، وعندك الكراع (الخيل والبعير والحمير) والسلاح ولامة الحرب، وجيوش المسلمين وحماة البيضة (البلاد) طائعون لك، وكذلك مَن بنواحيك، وأنت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والذراري، أفلا تأسيت بمن سافر إليها من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها وبثّوا فيها كلمة التوحيد، فإذا أردت الظفر بالعدو فعليك بالعدل في الرعية، فلأن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض، لقد كنّا نستنصر لك بجنود أهل السماء، حتى قدم إلينا الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله، فذكر من سيرتك من جهاد العدو وصبرك على مكافحته وإعزازك للدين وأهله والعلم وحملته، والله نسأل الذي يهب الجزيل من فضله أن يهبنا وإياك الشهادة في سبيله، ثمّ إليه سبحانه تعالى نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه والباطل باطلاً فتجتنبه، فصلاح الراعي بصلاح الرعيّة".[٥١]

وأورد ابن الأبار في التكملة في ترجمة الفقيه أبي عبد الله محمد بن حسين بن محمد بن عريب الأنصاري،[٥٢] أنّه تجوّل كثيرًا في بلاد الأندلس والعدوة (بلاد المغرب)، وقد أرجع البعض سبب ذلك أنه كان يسعى من وراء ذلك للإصلاح بين هؤلاء الملوك.[٥٣] وهذا الإمام أبو حامد الغزالي،[٥٤] لمّا علا ذكر الأمير يوسف بن تاشفين في بلاد الإسلام، ذُكر أنّ الغزالي فكّر في الانتقال إلى المغرب للعيش في كنف هذا الأمير العظيم، ونقل عنه قوله في أمراء الطوائف: "يجب على

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الأمير قتال هؤلاء المتمردة لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أوليائهم وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية".[٥٥]

وممّن ناصر المرابطين الفقيه أبو مطرف الشعبي،[٥٦] حيث كان من الساعين لاستقدامهم، والفقيه المحدث أبو القاسم الحسن بن عمر الهوزني،[٥٧] فقد ذكر المقري أنّه حرض يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد حتى أزال ملكه.[٥٨] ولم يكتف العلماء بدعوة المرابطين لجهاد النصارى فقط، بل كانوا أول من بذلوا أنفسهم في سبيل الله، فسقط بعضهم شهيدًا في سبيل الله، ومن هؤلاء الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي،[٥٩] الذي أبلى بلاءً حسنًا في معركة الزلاقة الخالدة، [٦٠] واستشهد فيها مقبلاً غير مدبر، وممّن استشهد أيضًا أبو رافع الفضل بن علي بن محمد بن حزم[٦١] ابن فقيه الأندلس ابن حزم، وكان من أهل العلم.

ومن الأمور المهمة التي ينبغي الإشارة إليها في الأندلس، مسألة فقهية تتعلق بالمفاضلة بين الحجّ والجهاد، وممّن أفتى في المسألة الفقيه أبو الوليد ابن رشد،[٦٢] فقد كتب إليه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين[٦٣] يسأله هل الحجّ أفضل أم الجهاد؟ ونص السؤال كما يلي: "بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، جوابك رضي الله عنك فيمن لم يحج من أهل الأندلس في وقتنا هذا، هل الحجّ أفضل أم الجهاد؟ راجعنا في ذلك بما تراه، موفقًا مأجورًا إن شاء الله". فأجاب رحمه الله تعالى: "تصفحت رحمنا الله وإياك سؤالك هذا، ووقفت عليه، وفرض الحجّ ساقط عن أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطًا في الوجوب، لأن الاستطاعة القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزمان، وإذا سقط فرض الحج لهذه العلّة صار نفلاً مكروهًا، لتقحم الغرر فيه، فبان بما ذكرناه أنّ الجهاد الذي لا تحصى فضائله في القرآن والسنن المتواترة والآثار أفضل، وأن ذلك أبين من أن يحتاج إلى السؤال عنه".[٦٤]

٢/ ج- المواقف المؤيّدة لملوك الطوائف:

لقد كان لوضع الأندلس المتأزم الذي يطبعه الانقسام والضعف الأثر الكبير في مواقف العلماء الرافض لملوك الطوائف أولاً، ثمّ الدعوة إلى الاستنجاد بالمرابطين ثانيًا، ويمكن القول أن شبه إجماع قد حصل حول هذا الأمر الأخير خاصة. لكن هناك بعض الفقهاء رأى عكس ذلك، وإن كان عددهم قليل وصوتهم غير مسموع، إلا أنّهم جهروا بمواقفهم المعارضة للمرابطين خاصة، ومن هؤلاء الفقيه أبي عبد الله محمد بن الفرج،[٦٥] وممّا يذكر عنه أنّه تعصّب كثيرًا للعبّاديين ضد المرابطين، ولما غلب على الأندلس المرابطون أسقطوه عن الفتوى إلى أن مات،[٦٦] وكان هذا الفقيه صاحب مكانة عالية، فهو كبير المفتين في قرطبة، غير أنّ معارضته لم تكن ذات جدوى، ذلك أنّ تيار الوحدة وطلب النجدة المرابطية أصبح تيارًا جارفًا لا يقاوم، وتبقى الأسباب التي دفعت هذا الفقيه إلى إصدار مثل هذه الفتوى الشاذة غير معروفة، وإن كان يتبادر إلى الذهن أنّ السبب الرئيس الذي دفعه إلى اتخاذ هذا الموقف هو الخوف من فقدانه منصبه إذا تمكّن المرابطون من حكم الأندلس.

وبعد معركة الزلاقة وعودة ابن تاشفين إلى المغرب لم يلبث أن عاد ملوك الطوائف إلى سابق عهدهم ووالوا النصارى من جديد، فكان هذا العمل بمثابة الانتحار السياسي، والذي اتخذّه العلماء حجة ودليلاً قويًا لإصدار فتوى تبيح لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين القضاء عليهم نهائيًا.

خاتمَةٌ

من خلال هذا الموضوع، يتضح جليًا أنّ العلماء كان لهم دور بارز في إنهاء وضع شاذ صنعه بعض الأمراء الذين ستبقى وصمة العار مرتبطة بهم على مرّ الدهور، فقد أذلّوا أنفسهم وأسهموا إلى حدّ كبير في ضياع الأندلس. وأخيرًا؛ أقول إن دور العلماء لا ينبغي أن يحصر في جانب واحد فقط، فهم أهل الحل والعقد الذين ينبغي عليهم قيادة الأمة وتوجيهها، وهم من البطانة التي ينبغي أن يتخذّها الحكام وأن يأخذوا بتوجيهاتها ونصائحها، وكلّ محاولة لتحجيم دورهم تعود بالضرر على الأمة بأكملها، وللأسف هذا ما حدث وما زال يحدث إلى الآن في كثير من مناطق العالم الإسلامي.

والسؤال الذي يطرح نفسه، أين نحن اليوم من ذلك الزمان ؟ لا شك أنّ الوضع السياسي متشابه بل أسوأ بكثير، فملوك الطوائف اليوم ليسوا في منطقة واحدة، وإنّما في كلّ العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، لكنّ الشيء الذي يختلف، أنّه في ذلك الوقت ظهر علماء أجلاّء أسهموا في إنقاذ الأمة، فتحقق ما تقرّ به عيون المؤمنين ويغيض قلوب الكافرين ولو إلى حين، أمّا اليوم فأين العلماء؟ ، فقد غابوا أو غيّبوا، والأمران سيان، لأنّ النتيجة واحدة، فبلاد المسلمين تنتهك حرماتها ولا رادّ لذلك، فإلى أن يظهر علماء أمثال أبو الوليد الباجي، والطرطوشي، وعمر بن الحسن الهوزني، وابن رميلة القرطبي، وأمراء أمثال يوسف بن تاشفين، نبقى نتجرّع ذلّ الهزائم والانكسارات والانقسامات إلى أن يشاء الله.

الهوامش:

(١) **المنصور بن أبي عامر**: محمد بن أبي عامر، أمير الأندلس في دولة هشام المؤيد، كان أصله فيما يقال من الجزيرة الخضراء، وله بها قدر وأبوّة، ورد شابًا على قرطبة، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميّز في ذلك، وكانت له همة يحدّث بها نفسه بإدراك معالي الأمور، ثم علت حاله وتعلق بوكالة صبح أم هشام المؤيد، وزاد في الترقّي معها إلى أن مات الحكم المستنصر، وكان هشام صغيرًا وخيف الاضطراب، فضمن لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها، واستمال العساكر، وجرت أحوال علت فيها قدمه حتى صار صاحب التدبير والمتغلّب على الأمور، وصحب هشام المؤيد وتلقّب بالمنصور، ودانت له الأندلس كلّها وأمنت به.

وكان محبًا للعلم مؤثرًا للأدب، وكان له مجلس في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام فيه بحضرته ما كان مقيمًا في قرطبة، لأنه كان ذا همّة عالية في الجهاد مواصلاً لغزو الروم، فقد غزًا أكثر من خمسين غزوة، وفتح فتوحًا كثيرة، ووصل إلى مواقع جمّة امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس بالغنائم والسبي، وكان كلما انصرف من قتال العدو يأمر بنفض غبار ثيابه التي حضر فيها معركة القتال، وأن يجمع ويحتفظ به، فلما حضرته منيّته أمر بما اجتمع إليه من ذلك أن ينثر على كفنه إذا وضع في قبره، توفي المنصور بن أبي عامر في طريق الغزو في أقصى الثغور في مدينة سالم سنة ٣٩٣ هـ (أحمد بن حيان بن أحمد بن عميرة الضبي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ج ١، ص ١٥٢).

(٢) **هشام المؤيد**: هشام بن الحكم بن عبد الرحمان الناصر، من خلفاء الدولة الأموية في الأندلس، بويع يوم وفاة أبيه سنة ٣٦٦هـ، قُتل سنة ٤٠٣هـ في قرطبة (خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، ج٨، ص٧٥).

(٣) عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر: يُلقب بشنجول، آخر العامريين، ولي الحجابة بعد وفاة أخيه المظفر عبد الملك سنة ٣٩٩هـ، تلقب بالناصر ثمّ المأمون، قُتل سنة ٤٠٠هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٣، ص٣٢٥).

(٤) أحمد مختار العبادي (دكتور)، **في التاريخ العباسي والأندلسي**، دار النهضة العربية، بيروت، ص٤٦٠.

(٥) **الناصر**: عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد، من أشهر حكام بني أمية في الأندلس، حكم من سنة ٣٠٠هـ إلى سنة ٣٥٠هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٣، ص٣٢٤).

(٦) محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر، ولد سنة ٣٦٦هـ، تلقب بالمهدي، قُتل سنة ٤٠٠هـ (نفسه، ج٧، ص١٣٢).

(٧) أحمد مختار العبادي (دكتور)، المرجع السابق، ص٤٦٤.

(٨) **الصقالبة**: كانوا في الأصل رقيقًا من بني الشعوب السلافية الذين بيعوا في الأندلس، ثمّ توسع الأندلسيون في استعمال هذا اللفظ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف مناطق أوروبا. (أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص٤٦٦).

(٩) **المعتد بالله**: هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمان الناصر، بويع بعد وفاة المستكفي سنة ٤١٨ هـ ، وهو آخر حكام بني أمية في الأندلس. (الزركلي، المرجع السابق، ج٨، ص ٧٧).

(١٠) **أبو الحزم بن جهور**: جهور بن محمد بن جهور، صاحب قرطبة، ولد سنة ٣٦٤هـ، ولي الوزارة أيام الدولة العامرية، أعلن نهاية الدولة الأموية نهائيًا سنة ٤٢٢هـ، لتبدأ مرحلة ملوك الطوائف، استقل بقرطبة ونظّم شؤونها فعمها الأمن والاستقرار، توفي سنة ٤٣٥هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٢، ص ١٤١).

(١١) أحمد مختار العبادي (دكتور)، المرجع السابق، ص٤٦٤.

(١٢) أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، شرح وضبط وتعليق: مريم قاسم الطويل، ويوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ج١، ص٤١٩.

(١٣) نفسه، ج١، ص٢٠٥.

(١٤) أحمد مختار العبادي (دكتور)، المرجع السابق، ص٤٦٥.

(١٥) أحمد مختار العبادي(دكتور)، المرجع السابق، ص٤٦٦.

(١٦) **ألفونسو السادس**: حكم بين سنتي ١٠٣٥م و١٠٦٥م، عاصر هذا الملك عهد ملوك الطوائف وبداية عهد المرابطين، استطاع أن يدفع حركة الاسترداد دفعًا قويًا، مستغلاً ضعف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم، وحقق ما عجز عنه أسلافه، إذ احتل طليطلة سنة ١٠٨٥م، وبالغ في حربه ضد المسلمين والاستهزاء بهم، ولقي هزيمة منكرة في الزلاقة سنة ١٠٨٦م. (انظر: محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس "دول الطوائف"**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٩٠، ص٣٨٩ و ما بعدها).

(١٧) **يحيى القادر بن ذي النون**: تولى حكم طليطلة بعد وفاة جده المأمون سنة٤٦٧ هـ، وكانت أولى سقطاته تخلّصه من وزير جده أبو بكر بن الحديدي، وفي نفس الفترة تعرضت أملاك القادر لغارات ابن هود صاحب سرقسطة، فالتجأ القادر إلى ألفونسو، وفي سنة ٤٧٢ هـ ثار أهل طليطلة على القادر واستنجد بألفونسو الذي أعاده إلى ملكه، وكان ألفونسو يسعى إلى إنهاك قوة طليطلة، فبدأ بشن الغارات عليها، وفي سنة ٤٨٧هـ زحف ألفونسو على المدينة بجيش كبير وحاصرها إلى أن استسلمت في محرم سنة ٤٧٨هـ (محمد محمود عبد الله بن بية، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، دار الأندلس الخضراء، جدّة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص١٣٦).

(١٨) أحمد مختار العبادي (دكتور)، المرجع السابق، ص٤٧١.

(١٩) محمد الأمين بلغيث، **الحياة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين**، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٦٥.

(٢٠) إبراهيم القادري بوتشيش (دكتور)، **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص١١٩.

(٢١) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).

(٢٢) سورة الأنفال، الآية (٤٦).

(٢٣) سورة الروم، الآيتان ٣١ / ٣٢.

(٢٤) انظر تخريج الحديث في: ابن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق وتعليق وتخريج: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الحادية عشر، ١٩٩٧، ج١، ص٣٤٠.

(٢٥) انظر تخريج الحديث في: ابن أبي العز، المصدر السابق، ج٢، ص٥٤٥.

(٢٦) **ابن حزم**: علي بن محمد، شاعر وفيلسوف ومؤرخ وفقيه وعالم بالأنساب، بعث مذهب الظاهرية من جديد، من كتبه المحلى، جمهرة أنساب العرب، طوق الحمامة، توفي سنة ٤٥٦هـ (المقري، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٩٢).

(٢٧) ابن حزم، **رسائل ابن حزم**، تحقيق: إحسان عباس (دكتور)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٧، ج٢، ص٤١.

(٢٨) أحمد مختار العبادي (دكتور)، المرجع السابق، ص٤٦٩.

(٢٩) **أبو الوليد الباجي**: سليمان بن خلف، أحد كبار أعلام الأندلس، من أهل قرطبة، ولد سنة ٤٠٣هـ، رحل إلى المشرق حيث طلب العلم، ثّم عاد إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عامًا، من أهم مؤلفاته، المنتقى في شرح الموطأ، شرح المدونة، توفي رحمه الله سنة ٤٧٤هـ (المقري، المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٣. الزركلي، المرجع السابق، ج٣، ص١٢٥).

(٣٠) عمر بن حمادي، **الفقهاء في عصر المرابطين**، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، تونس١٩٨٧، ص٤٩٣.

(٣١) **عبد الله بن العربي**: عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري الاشبيلي، والد الإمام أبو بكر بن العربي، رحل إلى المشرق مع ابنه، ولد سنة ٤٣٥هـ، وكان عالمًا ذا صيانة وجلالة، توفي رحمه الله سنة ٤٩٣هـ (ابن بشكوال، **الصلة**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، ج٢، ص ٤٣٨).

(٣٢) عصمت عبد اللطيف (دكتور)، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية**، دار الغرب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص١٧٧.

(٣٣) **ابن عبد البر**: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، حافظ المغرب، ولد سنة ٣٦٨هـ في قرطبة، له مؤلفات كثيرة أهمها التمهيد والاستذكار والاستيعاب، توفي سنة ٤٦٣هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٣، ص ٩٧٣. الزركلي، المرجع السابق، ج ، ص٢٤٠).

(٣٤) إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٣٥) **أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني**: فقيه اشبيلي، من أسرة علمية معروفة، قتله بنو العباد سنة ٤٦٠هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص٥٨٥. المقري، المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٧).

(٣٦) إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص١٢٣.

(٣٧) **المعتمد بن عباد**: محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، صاحب اشبيلية، ولد سنة ٤٣١هـ في باجة في الأندلس، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٦١هـ، اتصل بالمرابطين وشارك في معركة الزلاقة، خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤هـ وسجنه، توفي سنة ٤٨٨ هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٦، ص١٨١).

(٣٨) محمد محمود عبد الله بن بية، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص١٣٥.

(٣٩) **ابن العسال**: أبو أحمد عبد الله ابن فرج بن غزلون اليحصبي من طليطلة، زاهدها المشهور، توفي سنة ٤٨٧هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٤، ص٤٣٥. المقري، المصدر السابق،ج٤، ص ١٨٣).

(٤٠) محمد محمود بن بية، المرجع السابق، ص١٣٥.

(٤١) **السفط**: الوعاء، قال ابن منضور: السفط الذي يعبى فيه الطيب، وما أشبهه من أدوات النساء. (ابن منضور، **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٧، ص ٣١٥).

(٤٢) المقري، المصدر السابق، ج٦، ص١٢١.

(٤٣) محمد سهيل طقوش (دكتور)، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٤٧٠.

(٤٤) فقيه قرطبي توفي سنة ٤٨٦هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥٩).

(٤٥) عصام محمد شبارو، **الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود**، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ٢٣٩.

(٤٦) **يوسف بن تاشفين**: أشهر ملوك المرابطين، أسس مدينة مراكش، غزا الأندلس وانتصر في الزلاقة ٤٧٩هـ، وقضى على ملوك الطوائف، توفي سنة ٥٠٠هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٨، ص ٢٢٢).

(٤٧) **أبو جعفر أحمد بن خلف القليعي**: قاضي غرناطة، توفي سنة ٤٩٨هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص ١٢٤).

(٤٨) ذكره محمد بن بية تحت اسم ابن مفاذا. (**الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، ص١٤٢)، في حين ذكره عمر بن حمادي تحت اسم أبي إسحاق بن مقنا. (**الفقهاء في عصر المرابطين**، ص١١٢).

(٤٩) محمد محمود بن بية، المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٥٠) **أبو بكر الطرطوشي**: محمد بن الوليد بن خلف الفهري الطرطوشي، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة، ويقال له ابن أبي زندقة، ولد سنة ٤٥١هـ، كان إمامًا عاملاً، سكن مصر وتوفي في الإسكندرية سنة٥٢٠ هـ، له مؤلفات كثيرة منها الحوادث والبدع وسراج الملوك. (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٣، ص ٨٣٨ . المقري، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٠٠. الزركلي، المرجع السابق، ج٧، ص١٣٣).

(٥١) عصمت عبد اللطيف (دكتور)، المرجع السابق، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٥٢) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، مكتبة الخانجي مصر، ١٩٥٦، ج١، ص٤١١.

(٥٣) إبراهيم القادري بوتشيش (دكتور)، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٥٤) **أبو حامد الغزالي**: محمد بن مجمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف متصوف، ولد سنة ٤٥٠هـ في طوس في خراسان، من أشهر مصنفاته إحياء علوم الدين، توفي سنة ٥٠٥هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٧، ص٢٢).

(٥٥) أحمد مختار العبادي (دكتور)، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص ٤٨٢.

(٥٦) أبو مطرف عبد الرحمان الشعبي، فقيه مالقة الكبير، توفي سنة ٤٩٧هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠٧).

(٥٧) **أبو القاسم الحسن بن عمر الهوزني**: فقيه اشبيلي، ولد سنة٤٣٥ هـ، نكب بنو العباد أسرته توفي سنة ٥١٢هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٦).

(٥٨) المقري، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٠٨.

(٥٩) **أحمد بن رميلة القرطبي**: أحمد بن محمد بن فرح الأنصاري، عالم ورع، استشهد في الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م. (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص ١١٨).

(٦٠) **معركة الزلاقة**: لقد أثمرت جهود العلماء في الأندلس بإقناع ملوك الطوائف بالاستنجاد بالمرابطين، فجاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وكان المعتمد بن عباد أول من تلقاه، بعد أن وافق على تسليمه الجزيرة الخضراء، وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يحاصر سرقسطة فلما بلغه جواز ابن تاشفين رفع الحصار عنها وبدأ يحشد الجيوش ويستنجد بالنصارى، فوفد إليه كثير منهم، والتقى الجيشان المرابطي وقد انضمت إليه قوات المعتمد وبعض السرايا التي بعثها أمراء الطوائف مثل ابن صمادح وابن بلقين، والجيش المسيحي في الزلاقة قرب بطليوس، وكانت معركة عظيمة أبلى فيها الأندلسيون بقيادة المعتمد بلاءً حسنًا، وحسم يوسف بن تاشفين أمر المعركة لصالحه، إذ تمكن المسلمون من قتل كامل الجيش النصراني تقريبًا، وأصيب ألفونسو السادس إصابة بليغة، غير أنّه تمكن من الفرار في قلة من جنده، وقد أحيت هذه المعركة قلوب المسلمين في الأندلس وأسهمت إلى حد كبير في الإبقاء على ما تبقى من الأندلس في أيدي المسلمين لقرون أخرى، غير أنّ يوسف بن تاشفين لم يحض بالشهرة التي نالها صلاح الدين الأيوبي بتحريره بيت المقدس، وإنجاز بن تاشفين في أقصى ديار الإسلام الغربية لا يقل أهمية عن إنجازات صلاح الدين في المشرق. (أنظر: محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس** "ملوك الطوائف"، ص ٣٢٠ وما بعدها).

(٦١) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٧٨.

(٦٢) **أبو الوليد ابن رشد**: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي، فقيه الأندلس، نافذ في علوم الشريعة، تولى قضاء قرطبة ثم استعفي منه، توفي رحمه الله سنة ٥٢٠هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٣، ص ٨٣٩. الزركلي، المرجع السابق، ج٥، ص ٣٣).

(٦٣) **علي بن يوسف بن تاشفين**: أمير المرابطين، ولد سنة ٤٧٧هـ، حكم العدوتين، كان تقيًا صالحًا، توفي سنة ٥٣٧هـ (الزركلي، المرجع السابق، ج٥، ص ٣٣).

(٦٤) ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق: مختار بن طاهر التليلي (دكتور)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ج٢، ص ١٠٢٣.

(٦٥) **أبو عبد الله محمد بن فرج**: من فقهاء قرطبة، ويُعرف أيضًا بابن الطلاع، توفي سنة ٤٩٧هـ (ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٣، ص ٨٢٣).

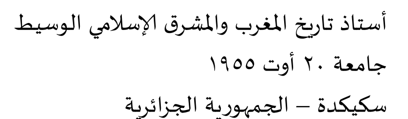
(٦٦) عمر بن حمادي، المرجع السابق، ص ١٢٥.



الزراعة في منطقة الأوراس في العصر الوسيط
من خلال كتب الرحلة والجغرافيا



محمد قويسم



أستاذ تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي الوسيط

جامعة ٢٠ أوت ١٩٥٥

سكيكدة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد قويسم، الزراعة في منطقة الأوراس في العصر الوسيط من خلال كتب الرحلة والجغرافيا.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٠٠ – ١٠٤.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

منطقة الأوراس ليست منطقة جبلية فقط، وليست منطقة مقاومة للغزاة فقط عبر التاريخ من الرومان، الوندال، البيزنطيين وأخيرًا الفرنسيين من خلال المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى (١٩٥٤- ١٩٦٢)، وسكانها الشاوية (الشواية في بادية الشام) لا يرتبطون بتربية الشياه فقط، ولكن منطقة زراعية ملاءمة للزراعة الجبلية، حيث توجد المياه النقية الصافية، وتربة السهول الداخلية الطمية الخصبة، وهذا ما تكشفه هذه الدراسة في إطار التاريخ الاقتصادي لمناطق المغرب الأوسط (الجزائر) في العصر الوسيط التي أهملت دراستها في السابق، حيث تم التركيز على التاريخ السياسي.

مُقَدِّمَةُ

الأوراس منطقة جغرافية جبلية واسعة تتخللها سهول داخلية في الجنوب القسنطيني في المغرب الأوسط (الجزائر)، وتمتد من حدود تونس شرقًا إلى جبال الحضنة (المسيلة) غربًا، ومن قسنطينة شمالاً إلى بسكرة جنوبًا، وهي منطقة جبلية وعرة تميزت بمميزات طبيعية انعكست على أوضاعها الاقتصادية، بمساحة قدرها ٣٦٠٠ مل مربع، تتخذ شكلاً رباعيًا، طولها من الشرق إلى الغرب نحو (٦٥) ميلاً، ومدن الأوراس هي: طبنة (بريكة)، نقاوس، حصن بادس، باتنة، أريس، مسكيانة، باغاية (خنشلة)، يبوس، لمبس وبلزمة، ذكره الإدريسي بقوله: "وجبل أوراس قطعة يقال إنها متصلة من جبل درن المغرب وهو كالأم منحي الأطراف وطوله نحو من اثنى عشر يومًا ومياهه كثيرة وعماراته متصلة..."(١)

ودراسة الحالة الاقتصادية في منطقة الأوراس خلال العصر الوسيط من خلال كتب الرحلة والجغرافيا يكون حسب مكونات القطاع الاقتصادي الزراعة ثم الصناعة ثم التجارة والمال،(٢) والقضية الثانية الفترة الزمنية خلال العصر الوسيط أي حوالي عشرة قرون من القرن ٠١ هـ إلى١٠ هـ الموافق لـ القرن ٠٥م إلى القرن١٦م.(٣) تتكون دراسة الزراعة من عدة عناصر بتحديد الإمكانات الزراعية الطبيعية والبشرية، ثم توضيح الإنتاج الزراعي: الأنواع والأماكن، وفي هذه الدراسة من خلال ما ذكره الجغرافيون والرحالة.

أولاً: الإمكانات

الإمكانات الطبيعية خمسة هي: الأراضي الزراعية، والمياه، والتضاريس، والمناخ، والتربة، حيث أن التضاريس والأراضي الزراعية لم تتغير كثيرًا منذ العصر الوسيط، فالمنطقة جبلية، تشكل خزانًا للمياه من الأمطار والثلوج، ويتمثل التغير في التربة والمناخ أساسًا، حيث كلما زاد الارتفاع زادت برودة المناخ وزادت الأمطار والثلوج، وتغيرت التربة حسب كثافة الغطاء النباتي، من حيث التضاريس توجد قرب المناطق الجبلية سهول داخلية واسعة وخصبة، حيث ذكر البكري عن مدينة بلزمة وأريافها "وتسير من

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هناك مادغوس إلى بلزمة لمزاتة حصن أولي وهو في بساط من الأرض كثير المزارع والقرى وفي قراه خصوص كثيرة".[٤]

وعن مدينة باغاي أو باغاية وباغايا، ذكر البكري أيضًا: "ومنه إلى مدينة باغاي وهي مدينة جليلة أولية ذات انهار وثمار ومزارع وعلى مقربة منها جبل أوراس المتصل بالسوس"،[٥] وأضاف "وهي في بساط من الأرض عريض كثير المياه وجبل الأوراس مطل عليه"،[٦] مما يعني وجود مساحات زراعية سهلية محيطة بجبال الاوراس أو تتخللها، وذكر الإدريسي الأراضي الصالحة للزراعة في طبنة.[٧]

وعن مدينة طبنة ذكر ياقوت الحموي: "وبها قصر وأرباض وليس بين القيروان وسجلماسة مدينة أكبر منها"،[٨] وقال عنها أبو الفدا: "وطبنة مدينة الزاب"،[٩] والبكري قال عنها أيضًا "ومن نقاوس إلى مدينة طبنة وهي مدينة كبيرة... وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة ..... وليس من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها".[١٠] والفحص أيضًا يعني السهل والأرض المستوية وهو دليل على وفرة الأراضي الصالحة للزراعة، وذكر حسن الوزان الفاسي وجود الأراضي الزراعية حول نقاوس.[١١]

وفيما يخص المناخ والمياه والتربة فهي عناصر مرتبطة ببعضها البعض طرديًا كلما زاد المناخ رطوبة زادت المياه وزادت التربة خصوبة (طمي)، لكن خصائص المناخ تتغير كل ثلاثين سنة تقريبًا، ومنه يمكن القول أن مناخ البحر الأبيض المتوسط شبه الرطب أو شبه الجاف مع تأثيرات جبلية كان في العصر الوسيط أكثر رطوبة، وبالتالي المياه أكثر وفرة، والتربة أكثر خصوبة في السهول الداخلية قرب طبنة، وتهودة، وبلزمة، وباغاية، ونقاوس، حيث ذكر البكري: "وتسير منها (بلزمة) إلى نقاوس وهي مدينة كثيرة الأنهار"،[١٢] وعن تهودة ذكر أيضًا " ...أرسلوا ماء النهر في الخندق المحيط لمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوهم وآبار كبيرة طيبة"،[١٣] وأضاف "ونهر ينصب في جوفيها من جبل الاوراس"،[١٤] وعن طبنة ذكر البكري: "ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب... وقرب المقبرة غذير يعرف بغدير فرغان ... وليس من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها و اسم نهرها بيطام وإذا حمل سقى جميع بساتينها وفحوصها ويقول أهلها بيطام بيت الطعام".[١٥]

وقال الإدريسي عن طبنة نفس الكلام "حسنة كثيرة المياه"،[١٦] وعن باغاية قال الإدريسي: "ولها واد يجري عليها من جهة القبلة وشربهم منه ولهم أيضًا شرب من آبار"،[١٧] وذكر ابن حوقل: "ولها ماء جار من أوديتهم من القبلة ومن شربهم مع آبارهم عذبة... وجبال أوراس منها على أميال وفيه المياه الغزيرة والمراعي الكثيرة والمارة الدائمة وطوله نحو أثنى عشر يومًا"،[١٨] مما يعني وفرة المياه في القرنين الخامس والسادس الهجريين الموافق للقرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وبقية القرون الأخرى في العصر الوسيط.

ومنه يتضح؛ أن الإمكانات الطبيعية الزراعية كانت متوفرة في منطقة الأوراس بشهادة الجغرافيين في كل قرون العصر الوسيط (١ - ١٠هـ/٧ - ١٦م) من خلال الإدريسي، والبكري، وابن حوقل، سواء داخل مدن منطقة الأوراس أو القرى والأرياف المحيطة بها.

أما الإمكانات البشرية فتتمثل في اليد العاملة، والخبرة، والوسائل والطرق الفلاحية، وهي أمور كانت متوفرة حسب تلك الفترة، اليد العاملة من خلال السكان الذين كانت تعج بهم مدن الأوراس الكبرى: تهودة، وطبنة، وبلزمة، ونقاوس، وباغاية، وقرى أو أرياف كل مدينة، وسكان المنطقة عرب، وبربر، وعجم، روم وفرس، والأفارقة.[١٩] حيث ذكر الإدريسي عن باغاية "... وكانت لها بواد وعمارات"،[٢٠] وقال البكري عن تهودة "وحواليها أزيد من عشرين قرية"،[٢١] وعن طبنة التي وصفها الجغرافيون بأنها أكبر مدينة في المنطقة الممتدة بين القيروان وسجلماسة ثالث مدينة،[٢٢] كل هذا يعني أن اليد العاملة متوفرة، الفلاحين باختلاف مستواهم المعرفي في الزراعة من حيث الوسائل والطرائق، فالسكان أدركوا وسائل تخزين المياه أحواض وخزانات وآبار.

قال البكري عن سكان تهودة: "أرسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوهم"،[٢٣] وفي طبنة نهر يشق غابتها وقد بني له صهريج كبير يقع فيه ويسقى منه جميع بساتينها وأرضها،[٢٤] وعرفوا ما يصلح للمناطق الجبلية من زراعة الأشجار المثمرة الجوز واللوز، وكذلك تنويع الإنتاج الزراعي حبوب وأشجار مثمرة وكتان ومواشي، كما عرفوا زراعة الشعير مرتين في العام في قلعة بادس،[٢٥] ومنه يمكن القول؛ وفرة اليد العاملة الزراعية التي كانت تملك الخبرة في زراعة منطقة الأوراس بما يلاءم التربة، والمناخ، والتضاريس الجبلية والسهلية.

ثانيًا: السياسة الزراعية

لم تكن الدولة أو السلطة الحاكمة لها سياسة واضحة في الزراعة في العصر الوسيط في بلاد المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، لأنه ولاية لدولة مشرقية أو مغربية، وإنما مقصد آثار كل حكم على الأوضاع الزراعية مثلاً في فترة الفتح الإسلامي كانت المنطقة خاضعة للاستدمار البيزنطي بعد إستدمار وندالي وروماني دام خمسة قرون من نهب الثروات،[٢٦] ولاشك حروب الفتح أثرت سلبًا على الأوضاع الاقتصادية والزراعة بالذات خاصةً منطقة الأوراس، حيث دارت الحرب بين الفاتحين العرب المسلمين والكاهنة.[٢٧]

وفي عصر الولاة كانت الأمور مستقرة، ولكن دون سلطة تنظم الاقتصاد. وفي عهد الاغالبة استمر الوضع كذلك مع زيادة في الضرائب. وفي عهد الفاطميين أدت سياستهم الاحتكارية والاستنزاف لدعم توجههم نحو الشرق إلى انتشار اقتصاد البادية في المغرب الأوسط عامة والأوراس خاصة في القرن الرابع الهجري، حيث ذكر ابن حوقل البوادي في بونة، وجزائر بني مزغنة، وشرشال، وباغاية، وبلزمة.[٢٨]

أما قيام دولة الحماديين في القرن الرابع، فقد أدى إلى تراجع اقتصاد البادية وظهور اقتصاد البستنة في المدن، حيث أن البكري

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لم يذكر البادية في أية مدينة من مدن المغرب الأوسط لأن القبائل الرحل تحولت إلى المدن وبالضبط ذكر البكري البساتين في اثنى عشر مدينة في المغرب الأوسط هي: طبنة، بونة، المسيلة، مستغانم، ندرومة، وتهودا،[٢٩] وفي عصر الموحدين والحفصيين ترسخ اقتصاد البادية بسبب سيطرة بني هلال الرعويين على الأراضي والصراعات السياسية بين دول المنطقة وكذلك الميورقيين والنورمانديين مما أدى إلى هجرة الفلاحين إلى المغرب الأقصى.[٣٠]

ثالثا: الإنتاج الزراعي

١/٣- الحبوب:

تمثلت أساسًا في الحنطة والشعير في طبنة كما ذكر ابن حوقل والإدريسي،[٣١] وأضاف ابن حوقل عن طبنة بقوله "وجميع الحبوب فيها غزيرة"،[٣٢] وعن تهودة قال البكري "وضروب البذر يجود بها"،[٣٣] لكن دون أن يسمي هذه البذور، وعن باغاية قال ابن حوقل: "وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير"،[٣٤] والإدريسي بنفس القول" وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير ويتصل بها وعلى أميال منها جبل أوراس".[٣٥]

٢/٣- الأشجار المثمرة:

هي الأشجار التي تنتج ثمار صالحة للاستهلاك برعاية من الإنسان وهذا تمييزًا لها عن الأشجار الغابية. ذكر البكري الأثمار في باغاية ونقاوس وذكروا لفظ البساتين أو أرباض للتعبير عن الأشجار المثمرة،[٣٦] وبالتدقيق هي كما يلي:

- أشجار الزيتون: في باغاية حيث قال البكري "أن الزيتون كان زائد وفائضًا عن حاجة الناس في مدينة باغاية".[٣٧]
- أشجار البرتقال والليمون: في نقاوس في القرن العاشر الهجري حسب مارمول كربخال.[٣٨]
- أشجار الجوز واللوز: في نقاوس وأضاف الإدريسي "كثرة أشجار الجوز بها"، وصاحب الاستبصار قال "أن الجوز زائد عن حاجة أهلها لكثرته".[٣٩]
- أشجار التين وتسمى في بعض المناطق منها الأوراس كرمة حيث أشاد حسن الوزان الفاسي بتين نقاوس.[٤٠]
- أشجار النخيل: في طبنة،[٤١] وتهودة حيث قال عنها البكري "وهي مدينة آهلة كثيرة الثمار والنخيل والزرع وباغاية أول بلاد النخيل".[٤٢]
- الكروم: هي أشجار العنب ذكر وجودها ابن حوقل في نقاوس في القرن الرابع الهجري، وذكرها الحسن بن محمد الوزان الفاسي في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي داخل نقاوس.[٤٣]

٣/٣- القطن والكتان:

ذكر وجوده ابن حوقل في طبنة وباغاية، وذكره الإدريسي في طبنة.[٤٤]

٤/٤- الثروة الحيوانية:

كانت جد متوفرة الأغنام (الشياه ومنه سمي السكان بالشاوية) في طبنة وباغاية والأبقار في طبنة وباغاي وبلزمة، كما ذكر ابن حوقل،[٤٥] في القرن الرابع الهجري وفي القرن الخامس الهجري أشار البكري إلى رخص أسعار اللحم وكثرة الألبان مما يؤكد وجود الماشية في باغاية،[٤٦] وكانت أهمية المواشي تكمن في توفير اللحوم، والألبان، والسمن، والمادة الأولية من الصوف، والجلود، وتوفير الطاقة المحركة لتسيير النواعير وتستخدم في النقل للبضائع، والأشخاص، وزادت المواشي مع بني هلال في القرن السادس لأنهم بدو رحل،[٤٧] وبالنسبة للخيل ذكر أن عقبة ابن نافع "رضي الله عنه" غنم منهم خيلاً لم يروا في مغازيهم أصلب منها ولا أسرع من نتاج جبل الأوراس.[٤٨]

خاتمةٌ

وفي النهاية يمكن القول؛ أن منطقة الأوراس بمدنها طبنة، وبلزمة، ونقاوس، وباغاية، وتهودة، ومئات القرى من حولها كانت مزدهرة اقتصاديًا بالإمكانات الزراعية من تربة، ومياه، ومناخ، ووفرة الفلاحين: عرب وبربر، وبالتالي تنوع المحاصيل الزراعية، ووفرة الماشي والأشجار المثمرة، وهذا ما وفر خامات زراعية لعدة صناعات أغفلت ذكرها معظم المصادر الجغرافية التي اعتمدت عليها، لكن الموقع الجغرافي على الطرق التجارية، وارتباط مدن الأوراس ببعضها جعل التجارة مزدهرة. ومنه ندرك أن التغيرات في الأمور الاقتصادية تكون في المناخ، وفي السياسات الاقتصادية حسب أنظمة الحكم، وحسب الأوضاع السياسية، فالاستقرار الأمني يؤدي إلى الإنتاج الاقتصادي، والحروب تؤدي إلى توقف الإنتاج، وتحطيم المنتج.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) الإدريسي: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، مقتبس من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٣، ص١٦٥؛ ابن الحاج النميري: **فيض العباب وفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة الزاب**، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٩٩٠، ص٨١، ٩٧؛ حليمي عبد القادر: **جغرافية الجزائر**، ط١، دمشق ١٩٦٦.

(٢) حول الموارد والقطاعات الاقتصادية، يُنظر: محمد صبحي عبد الحكيم: **دراسات في الجغرافيا العامة**، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠، ص١٩٧ وما بعدها.

(٣) حول مفهوم العصر الوسيط في الشرق وفي الغرب خاصة من غزو روما في القرن الخامس الميلادي إلى بداية النهضة وإصلاح الكنيسة في القرن الرابع عشر الميلادي، والنهضة الأدبية في القرن الخامس عشر الميلادي، يُنظر: نورمان كانتور: **التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية**، القسم الأول، ترجمة وتعليق قاسم عبده، ط٥، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة ١٩٩٧، ص٣٠-٣٤.

Bolton ,W,F, *The Middle Ages* , Penguin books, London, 1970, Pp.1-2.

(٤) البكري: **كتاب المسالك والممالك**، ج٢، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة قرطاج، تونس ١٩٩٢، ص ٧٤، ٧١٠.

Paul louis Cambuzat, l'*évolution des cités du Tell en Ifrikya du vii au xi siècle*, tome 1, office des publications universitaires, Alger, 1986, P. 201.

(٥) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص ٧١١ ؛ إسماعيل العربي: **المدن المغربية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر١٩٨٤، ص، ١٨٦ - ١٨٧.

Paul louis Cambuzat, Op.cit., P. 201.

(٦) البكري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧١١.

Paul louis Cambuzat, Op.cit., P. 201.

(٧) الإدريسي: المصدر السابق، ص٩٣، ١٠٩؛ روبار برنشفيك: **تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن١٥م**، ج٢، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٩٨٨، ص٢٢٦.

(٨) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٥، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت لبنان (د ت)، ص١٧٥؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٧.

(٩) أبو الفدا: **تقويم البلدان**، تصحيح رينو ديسلان، باريس ١٨٤٠، ص ٤٨.

(١٠) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص ٧١٢- ٧١٣؛ مرمول محمد الصالح: **السياسة الداخلية للخلافة في بلاد المغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٨٣، ص٢٥٤.

(١١) الوزان الفاسي: **وصف إفريقيا**، ج٢، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٩٨٣، ص ٥٣، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٦.

(١٢) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص٧١١ - ٧١٣.

(١٣) البكري: المصدر نفسه، ج٢، ص٧١١.

(١٤) البكري: المصدر نفسه، ج٢، ص ٧١١- ٧١٢.

(١٥) البكري: المصدر نفسه، ج٢، ص٧١١ – ٧١٣؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص ١٧٨-١٨٠.

(١٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٦٤- ١٦٥؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص ١٧٨- ١٨٠.

(١٧) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٦٤- ١٦٥؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٦.

(١٨) ابن حوقل: **صورة الأرض**، ط١، مطبعة بريل ليدن هولندا ١٩٣٨، ص ١٦٢- ١٦٤؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٨.

(١٩) اليعقوبي: **البلدان**، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٢، ص٤٧؛ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص٨١، ٩٧.

(٢٠)الإدريسي: المصدر السابق، ص١٦٤- ١٦٥؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٧.

(٢١) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص٧١١- ٧١٣.

(٢٢) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص١٧٥، ج١، ص١٨٥، ٤٢٢، ج٤، ص٢١، ٢٣٦.

(٢٣) البكري : المصدر السابق،ج٢، ص٧١١.

(٢٤) الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، القاهرة مصر،١٩٧٥، ص٩٥.

(٢٥) الحميري: المصدر نفسه، ص٣٨٠.

(٢٦) محمد البشير شنيتي: **الاحتلال الروماني لبلاد المغرب سياسة الرومنة ١٤٦ق م/٤٠م**، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر١٩٨٥، ص٤٥ وما بعدها؛ جودت عبد الكريم يوسف: **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (٩-١٠م)**، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر١٩٩٢، ص٩، ٢٩ وما بعدها؛ محمد العربي عقون: **المنطقة الأوراسية في القرن السادس الميلادي من خلال المصادر**، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، عدد١٢، جامعة باتنة جوان ٢٠٠٥، ص١٨٧.

(٢٧) ابن عبد الحكم: **فتوح مصر والمغرب**، حققه وقدم له علي محمد عمر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر ١٩٩٥، ص ٢٢٢ وما بعدها؛ موسى لقبال: **عقبة بن نافع أساس نظام الفهريين وتأصيل مجتمع إسلامي جديد في المغرب الإسلامي**، دار هومة الجزائر ٢٠٠٢، ص٥٦.

(٢٨) ابن حوقل: المصدر السابق ص٦٢ – ٦٤.

(٢٩) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص٧١١- ٧١٣.

(٣٠) مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية مصر ١٩٥٨، ص١٣١، ١٧٩.

(٣١) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥، جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص٣٩.

(٣٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٧١٢ - ٧١٣، إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٧٨-١٨٠؛ جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص٣٩.

(٣٣) البكري: المصدر السابق، ج ٢ ، ص٧١١.

(٣٤) ابن حوقل: المصدر السابق؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٦-١٨٨.

(٣٥) الإدريسي: المصدر السابق؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٧.

(٣٦) البكري: المصدر السابق، ج٢ ، ص٧١١ – ٧١٣؛ ابن حوقل: الصدر السابق، ص، ٦٢-٦٤؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٦٣-١٦٤؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق ج ٥، ص٦٨؛ أبو الفدا: المصدر السابق، ص٦٥؛ إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٨٠ ، ١٨٧.

(٣٧) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص٧١١ - ٧١٣.

(٣٨) مارمول كربخال: **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط ١٩٨٩، ج٢، ص٢٩٥، ٣٨٤، ج٣، ص٠٦، ١٣.

(٣٩) الإدريسي: المصدر السابق، ص١٦٢. مجهول: المصدر السابق، ص٧٢، ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦٢. روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٩ – ٢٣٠.

(٤٠) الإدريسي: المصدر السابق، ص٩٠، ١٠٥، ١٢٤، الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٣، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٩.

(٤١) الإدريسي: المصدر السابق، ص١٦٤.

(٤٢) البكري : المصدر السابق، ج٢، ص٧١١- ٧١٣.

(٤٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦٢ - ٦٤، الوزان الفاسي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٣، روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٨.

(٤٤) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦٣ -٦٤، الإدريسي: المصدر السابق، ص١٦٤-١٦٥؛ نجاة باشا: **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة**، منشورات الجامعة التونسية كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس، ١٩٧٦، ص٤٧؛ جمال أحمد طه: **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي**، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية مصر ٢٠٠٨، ص١٦٩.

(٤٥) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦٢ - ٦٤.

(٤٦) البكري: المصدر السابق، ج٢، ص٧١١ - ٧١٣.

(٤٧) نجاة باشا: المرجع السابق، ص٧٢.

(٤٨) الحميري: المصدر السابق، ص٣٨٧.

دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الاستيطان والتراث العمراني الكولونيالي في مراكز وادي الصفصاف في ولاية سكيكدة (الجزائر)

ليديا بوشامة

أستاذة مساعدة – قسم الجغرافيا
المدرسة العليا للأساتذة
قسنطينة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ليديا بوشامة، الاستيطان والتراث العمراني الكولونيالي في مراكز وادي الصفصاف في ولاية سكيكدة (الجزائر).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٠٥ – ١١٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

تتوسط منطقة وادي الصفصاف إقليم ولاية سكيكدة، (الجزائر) يشقها نهر صغير -هو الذي تحمل المنطقة اسمه- تغزر مياهه شتاءً وتقل صيفًا وكانت إدارة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي قد اعتبرتها منطقة نموذجية لتوطين الآلاف من جنسيات أوربية عديدة وزعت عليهم الأراضي وأقامت لهم قرى وزودتهم بكل الوسائل لإنجاح سياسة الاستيطان. في مقالنا هذا أردنا تقديم لمحة عن الاستيطان في هذه المنطقة وما نتج عنه من آثار أبرزها العمران ذي الطابع الكولونيالي الذي يمثل شكلاً معماريًا متميّزًا كان ينبغي العناية به، لأنه إضافة إلى قيمته التاريخية والحضارية يمكن أن يلعب دورًا في الجانب الاقتصادي "السياحي بالأساس" وتجاوز فكرة روّجت لها بعض الدوائر المنغلقة شعارها "محو آثار الاستعمار" التي ترتبت عنها أضرار كبيرة لحقت بذلك العمران الذي يمثل -فضلاً عن قيمته المعمارية- لوحة تاريخية مليئة بالعبر لو أحسنت الإدارة المعنية سياستها إزاء هذا التراث الهامّ.

مُقَدِّمَةٌ

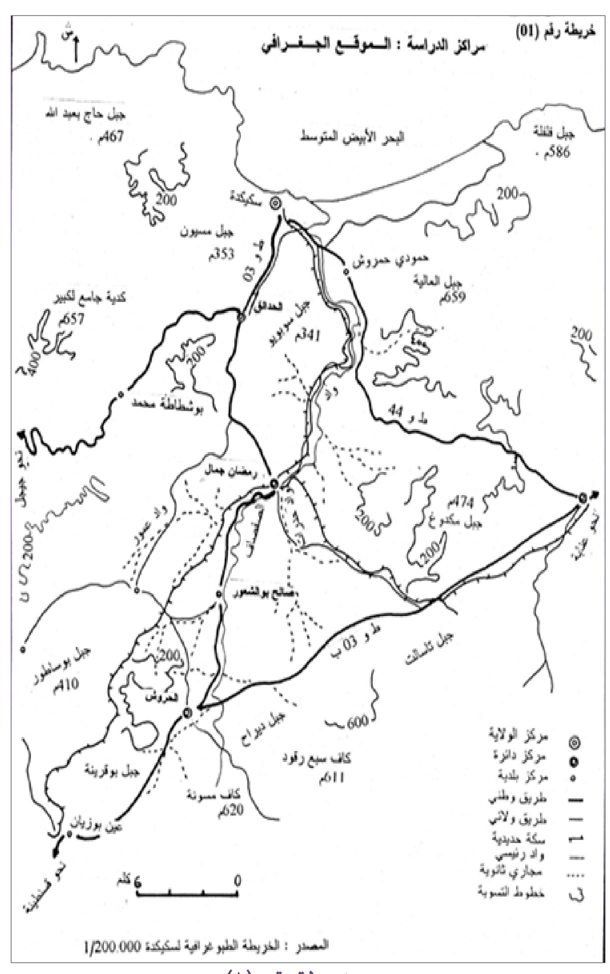
لقد ارتبط تاريخ منطقة سكيكدة بتاريخ أفريقيا الشمالية والحوض الغربي للبحر المتوسط ولذلك تعاقبت عليها عدة حضارات تركت كلّ منها بصماتها التاريخية ممثّلة في العديد من المعالم والآثار. ووادي الصفصاف الذي يمتد من جبال زردازة إلى البحر المتوسط من أهم المجالات الطبيعية المتميزة في شمال التل القسنطيني، وهو ممتد في شكل رواق طويل من الجنوب إلى الشمال على طول (٤٠) كم من بلدة الحروش إلى مدينة سكيكدة (انظر الخريطة رقم ١)، وكان مصدر انتقاء مجالي من طرف المستعمر الفرنسي الذي أحدث تغيرات على التنظيم العقاري مست الأراضي الخصبة المجاورة لضفافه، وكان تنظيم المجال البكر للوادي الذي كانت تغمره المستنقعات -ما قبل الفترة الكولونيالية- قد تمّ بنظرة جديدة مستوردة أحدثت تغييرًا جذريًا في المجال، طبعه تحول في خريطة استغلال الأرض على صعيد الجانب التنظيمي، التقني والهيكلي، من ذلك أنّه تم تكوين مجموعة من المحيطات الفلاحية المهيأة تتخللها شبكة من المراكز الفلاحية بموازاة الامتداد الطولي للطريق الروماني القديم على مسافات متقاربة كنموذج للتعمير في الريف(*) في فترة قصيرة جدًا ما بين (١٨٤٤ – ١٨٤٧) وكان ذلك يجمع بين الهدفين الأمني والاقتصادي.

تعتبر هذه المراكز رمزًا للنفوذ الأوربي، حيث شهدت استيطانًا بشريًا مكثفًا عن طريق استقدام أفواج بشرية من جنسيات أوربية عديدة من مناطق جغرافية مختلفة، وخاصة من منطقة نابولي الإيطالية ومن جزيرة مالطة، ولذلك كانت هذه المراكز ذات تصميم عمراني يعتمد شكل الأبنية المحصنة ذات الأصل الأوربي وهي أبنية تأخذ شكل رقعة الشطرنج، وتهيكل حول محور رئيسي هو الطريق الوطني أو الولائي الذي يعبر المركز الذي تتوسطه المرافق الرئيسية وهي على التوالي: دار البلدية، والكنيسة، والسوق، ثمّ المدرسة

وبعض المحلات. وينفرد مركز الحروش باعتباره مركزًا رئيسًا بتقديم خدمات ذات مستوى أرقى -للكولون طبعًا- وفيه مرافق إقليمية كالمحكمة، والسجن، ومستشفى الأمراض العقلية التي شيدت وفق الطابع المعماري الكولونيالي وهي نموذج للعمارة الكولونيالية في مراكز وادي الصفصاف.

ومع بروز ظاهرة النمو الديمغرافي التي عرفتها الجزائر عمومًا على أبواب نهاية العهد الاستعماري الموافقة لقيام الثورة التحريرية، سيعرف الوضع العمراني في تلك المراكز تدهورًا كبيرًا جرّاء سياسة الحشد التي قام بها المستعمر، حيث قام بتهجير الريفيين من مساكنهم الريفية وجمعهم في محتشدات أنجزت بسرعة وفي ظروف استثنائية في إطار ما يُعرف بمخطط قسنطينة (١٩٥٧) وهي مساكن تحاصر الأبنية القديمة، ومع ذلك فإن بقاياها الآن ذات قيمة تاريخية وتعتبر من تراث حرب التحرير.

يعالج هذا المقال الاستيطان الكولونيالي في إقليم سكيكدة والوضعية التي آل إليها التراث المعماري الذي خلّفه ذلك الاستيطان، وهذا في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية والعميقة التي عرفتها تلك المراكز التي أصبحت اليوم مدنًا تشهد تغيرات تدريجية في نسيجها الحضري يكاد لا يترك أيّ أثر لذلك النمط المعماري الكولونيالي.



خريطة رقم (١)

مراكز الدراسة (الموقع الجغرافي)

أولاً: الموقع (الإطار الطبيعي لمراكز الدراسة)

تقع مراكز الحروش، وصالح بوشعور، ورمضان جمال، والحدائق في تل الشمال القسنطيني وتحديدًا على الامتداد الطولي لوادي الصفصاف، هذا الشريط الذي يتوسط حوضًا تجميعيًا تقدر مساحته بـ ١٢٤,٦٨٠ هكتارًا.[١] يعتبر وادي الصفصاف ممرًا طبيعيًا منخفضًا، ومحورًا مركزيًا يفصل كتلة قبائل القل (Kabylie de Collo) في الغرب عن حوض عزابة في الشرق، وهو ممتد على طول ٤٠ كم من الحروش إلى سكيكدة[٢] في اتجاه جنوب شرق - شمال غرب في شكل رواق طويل مزدوج على مستوى منطقة الحدائق.[٣] ويمكن اعتباره أهم وأقرب منفذ يسمح بربط مرتفعات قسنطينة بسهل سكيكدة، وهو يمثل وحدة طبيعية متجانسة، ووسطًا سهليًا قليل الارتفاع يتميز بامتداد المساطب النهرية ذات الأهمية الاقتصادية والمجالية وسط تربة غنية ومتنوعة وأراضٍ ذات قيمة فلاحية عالية.

ثانيًا: الماضي التاريخي لمنطقة وادي الصفصاف (سكيكدة وظهيرها)

١/٢- فترات ما قبل الاحتلال الفرنسي:

تمتدّ هذه الفترات من بدايات التاريخ إلى نهاية الفترة العثمانية، أي أنها تشمل التاريخ القديم والوسيط إلى مشارف التاريخ الحديث، ولقد كانت هذه المنطقة المطلة على الخليج النوميدي المنفذ الرئيس للعاصمة النوميدية سيرتا ولكل المنطقة السيرتية، ولا ريب أنها كانت عامرة على الدوام، غير أنها لا تزال تفتقر إلى الأبحاث الأثرية للكشف عن آثار الفترة النوميدية على الخصوص لأن الأبحاث الأثرية خلال الفترة الكولونيالية ركّزت بصفة خاصّة على البحث في تاريخ وآثار الفترة الرومانية أكثر من غيرها.

الفترة الرومانية:

خلال هذه الفترة تطورت مدينة روسيكاد (Rusicade) ذات المنشأ الليبي– النوميدي وأصبحت مركزًا حضريًا وتجاريًا ذا أهمّية كبيرة، فلقد كانت إحدى المدن الأربع المكوّنة للكنفدرالية السيرتية.[٤] ولقد اهتم الرومان بمد الطرقات إليها على اعتبار أنها مركز إدارة الأنونة[٥] (Annonae) لتسهيل حركة التنقل إليها من ظهيرها، وفي عهد الإمبراطور هادريان (١١٨–١٣٧م) أنشئ الطريق الروماني الرابط بين روسيكاد وسيرتا مرورًا بوادي الصفصاف، ويعتبر هذا الأخير الظهير الزراعي لروسيكاد وتمّ استغلال هذا السهل الفيضي أحسن استغلال، حيث أنشئت مزارع على جانبي وادي الصفصاف تصلها قنوات للري،[٦] وشهدت المنطقة ازدهارًا كبيرًا تشهد عليه الآثار التي تدل على أنها كانت عامرة وتؤكد على الأقل وجود مزرعة كبرى (Domaine agricole) مكان مزرعة كروم العنب التي أنشئت أثناء الاحتلال الفرنسي، كما اكتشفت فسيفساء نادرة وآبار تعود إلى الفترة الرومانية في عين كسكاس، وعند بناء سد زردازة الذي يبعد عن الحروش بتسعة كيلومترات اكتشفت قبور عليها كتابات

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

رومانية واضحة، إضافة إلى كتابات مثيلة لها اكتشفت في منطقة السعيد بوصبع التي تبعد عن الحروش بأربعة كيلومترات.[٧]

الفترة الإسلامية:

لم تحظ منطقة سكيكدة في العصور الوسطى باهتمام كبير من طرف الحكام الذين تعاقبوا في مختلف الفترات، وظلت محاطة بالغموض، وكل ما لدينا عنها هو مجرد سطور في كتب بعض الرحالة العرب والأوربيين الذين زاروا المنطقة في فترات مختلفة كأبي عبيد البكري من جغرافيي العصر الوسيط وشارل فيرو (Charles FERAUD) من مؤرخي الفترة الكولونيالية. فالرحالة الحسن الوزان المعروف باسم ليون الأفريقي[٨] في كتابه وصف أفريقيا زار المنطقة وسلك في سيره من قسنطينة (سيرتا)، وسكيكدة (روسيكاد) طريقًا يشبهها بالطرق الإيطالية. ولا ريب أنها بقايا للطريق الرومانية القديمة وأشار إلى وجود نشاط تجاري في المنطقة، وأنّ منطقة وادي الصفصاف تتمركز بها قبائل عديدة سواء في المناطق السهلية أو على حوافي الأودية يجمع أفرادها بين الزراعة وتربية الحيوانات ولا يوجد أي دليل على وجود تجمعات قروية.[٩]

العهد العثماني:

إن منطقة فليبفيل (Philippeville) -وهو اسم سكيكدة في عهد الاستعمار الفرنسي- الغنية والمزدهرة على امتداد الوجود الروماني حسب وصف صولال،[١٠] لم تعد كذلك بالنسبة للأتراك فقد كانت كل المنطقة الممتدة من الحروش إلى سانت أنطوان (الحدائق) قبل الاحتلال الفرنسي تغمرها مستنقعات آسنة، محاطة بمراعٍ وأراضي بور مع قلة قليلة من بعض بساتين الفواكه، وزراعة قمح محدودة، وبعض أشجار الزيتون متوزعة خارج منخفض وادي الصفصاف، وقد أرجع ذلك إلى المظالم الاجتماعية المتمثلة في الضرائب الثقيلة التي فرضها باي قسنطينة على القبائل المحلية. وكان يقطن وادي الصفصاف العديد من القبائل، وكانت أغلبية المجال تابعة لقبيلة بني مهنّا وهي أهم قبيلة في إقليم سكيكدة والتي يعود أصلها إلى بجاية، حيث تنقسم إلى أربعة عشائر هي بني بونعيم، أولاد خزر، مسلاوي، وبني بشير، وقد قدر عدد أفرادها سنة ١٨٣٧ بـ (٣٠٠٠) شخص.[١١]

٢/٢- فترة الاحتلال الفرنسي:

نشأة مراكز وادي الصفصاف

عند سقوط قسنطينة في أيدي الجيوش الفرنسية سنة ١٨٣٧، توجَّب على قادة الاحتلال البحث لإيجاد منفذ على البحر في أقصر طريق يربطها به، حيث رأى الجنرال فالي (Vallé) أن السيطرة الفرنسية على إقليم قسنطينة غير مضمونة إلا بوجود طريق مؤمن وقريب يربط قسنطينة بأقرب ميناء على الساحل لتسهيل عملية التموين وتدعيم القوات الغازية، فاتخذ الطريق الروماني دون سابق معرفة معبرًا لضمان حركة النقل[١٢] عبر ممر وادي الصفصاف الذي أثار أنظار المعمرين إليه بحكم إستراتيجيته كرواق مفتوح ومؤهل طبيعيًا لأداء ذلك الدور، إضافة إلى انفتاحه على ميناء سكيكدة، وهو ما يوفّر لحركة الاستيطان الاستعماري وهي في بداياتها في المنطقة مجالاً بكرًا يمكن هيكلته عبر نظرة ذات أبعاد خاصة لإحداث تغيير جذري في المجال، يتبعها تحول في خريطة استغلال الأرض على صعيد الجانب التنظيمي والتقني والهيكلي، من ذلك أنّه تم تكوين مجموعة من المحيطات الفلاحية المهيأة والمزوّدة بشبكة من المراكز الفلاحية وهي الحروش (HARROUCHE)، وغاستون فيل (GASTON-VILLE) (صالح بوشعور)، وسان شارل (SAINT-CHARLES)، (رمضان جمال)، وسانت أنطوان (SAINT-ANTOINE) (الحدائق)، بموازاة الامتداد الطولي للطريق الروماني القديم على مسافات متقاربة كنموذج للتعمير في الريف في فترة قصيرة جدًا ما بين (١٨٤٤ - ١٨٤٧) لهدف أمني واقتصادي، وتعتبر هذه المراكز رمزًا للنفوذ الأوربي، حيث شهدت استيطانًا بشريًا مكثفًا عن طريق استقدام أفواج بشرية من جنسيات أوربية عديدة ومن مناطق جغرافية مختلفة،[١٣] وكان ذلك في البداية، ثم التحق بهم السكان الجزائريون تدريجيًا فيما بعد لحاجة الكولون إليهم للعمل كأجراء في الغالب.

مراكز وادي الصفصاف

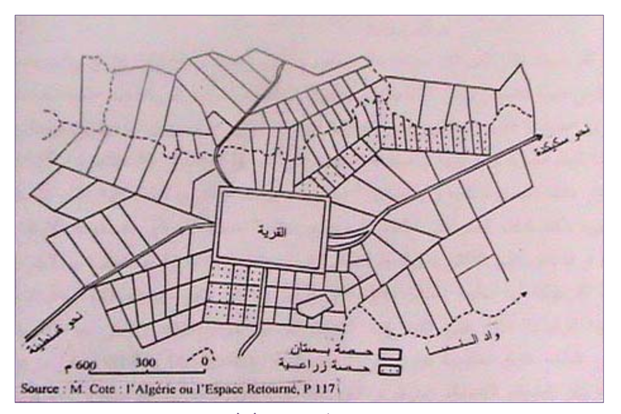
تطور عدد السكان خلال الفترة (١٨٥٤- ١٩٥٤)

المراكز / السنوات	الحروش	غاستون فيل (صالح بوشعور)	سان شارل (رمضان جمال)	سانت أنطوان (الحدائق)	المجموع
١٨٥٤[١٤]	٥٢٢	٤٢٣	٨٧	٨٦	١١١٨
١٨٩١[١٥]	٨٣٦	٢٨١	٢٥٥	١٠١٥	٢٣٨٧
١٩٣٢[١٦]	٢٠٧٧	١٤٢٠	٩٠٧	١٦٤٣	٦٠٤٧
١٩٥٤[١٧]	٥٦٣٤	٢٥٩٢	٢٦٤١	٣٧٤٣	١٤٦١٠

ثالثا: لمحة عن نشأة مراكز الاستيطان الفرنسي

١/٣- مركز الحروش:

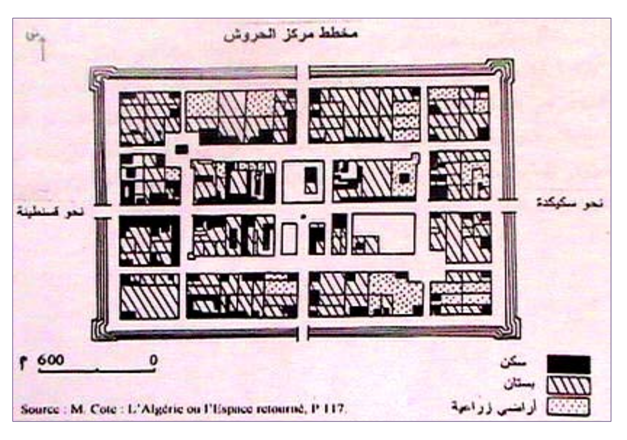
إن أول اسم للمكان الذي أقيم فيه هذا المركز هو مسلان الكبش، وكان عبارة عن مكان التقاء مختلف قبائل المنطقة لممارسة تجارة الأغنام، غير أن الاسم الحالي 'الحروش' يعود حسب رأي بعض كبار الشيوخ إلى وجود قبائل متعددة أي 'عروش' في المنطقة، ومنها حرِفَ الاسم إلى "الحروش"، غير أنّه يستفاد من البحث في عامّية المنطقة أن اسم "حرّوش" يُطلق على الأرض البور 'الحرشاء' وهو الأصوب كما نرى.



شكل رقم (١)
المحيط الفلاحي لمركز الحروش

في الخامس أكتوبر من العام ١٨٣٨ قام الجنرال فالي على رأس فيلق عسكري - يُقدر عدد أفراده بأربعة آلاف شخص سلك بهم الطريق الروماني القديم- بحملة انتهت باحتلال المنطقة فاختار المكان المسمى حرّوش لإقامة معسكره وهو المكان الذي سيتجول إلى أول 'مركز' استعماري بين قسنطينة وسكيكدة على بعد (٥٢ كلم) من الأولى و(٣٢ كلم) من الثانية، وقد أعلن رسميًا عن تأسيس قرية الحروش بموجب مرسوم مؤرخ في ٢٢ مارس ١٨٤٤ على مساحة تقدّر بـ ١٦٢١ هكتار. وقد ظلّ الوجود العسكري فيها قائمًا من (١٨٣٨ إلى ١٨٤٦) وأهمّ معْلمة لذلك الوجود هي الثكنة العسكرية بعمارتها المتميّزة، كما أقيمت أول عين عمومية عند ملتقى الطرق وسط القرية.[١٨]

وبمرسوم مؤرخ في ٢٢ أوت (أغسطس) ١٨٦١ أصبحت القرية مركز بلدية ذات صلاحيات كاملة[١٩] (Commune de pleines exercices) لتحظى بإمكانيات مادية وبشرية معتبرة لتهيئة المجال وتنظيمه، حيث كان كل معمر يتحصل على قطعة أرض معدّة للبناء ملحقة بحديقة في القرية إضافة إلى حصة زراعية تتراوح مساحتها من اثنين إلى عشرة هكتارات، وبحكم موقع القرية كنقطة عبور ملتقى الطرق القادمة من ثلاثة أقطاب هامة هي فليب فيل (سكيكدة)، وقسنطينة، وبون (عنابة)، إضافة إلى وجود سوق فلاحية هامة (تقام كلّ يوم جمعة)، فقد شهدت الحروش نزوحًا كبيرًا، فبعد أن كان عدد السكان بها سنة ١٨٤٩ لا يتجاوز (٢٥٢) نسمة وكلهم أوربيون،[٢٠] ارتفع ليصل (٥٦٣٤) نسمة سنة ١٩٥٤، أي أنّه تضاعف على امتداد قرن بنحو (٢٢) مرة، وتشكل نسبة الأهالي الجزائريين (٩٣,٦٢%)، وبلغت مساحة المركز (القرية + المحيط الفلاحي) ٢٣٨٧ هكتار. مما أهّله ليكون مركزًا إداريًا رئيسًا لإقليم يشمل عددًا من المراكز الأخرى المجاورة.



شكل رقم (٢)
مخطط مركز الحروش

٢/٣- مركز سانت أنطوان SAINT-ANTOINE (الحدائق):

لتهيئة وادي الزرامنة أنشئت سنة ١٨٤١ مزرعة في طرف الوادي بجوار طريق قسنطينة - فليب فيل، إضافة إلى بعض المنازل لسكنى مستوطنين لا يزيد عددهم على خمسة، وأطلق على ذلك الموقع اسم حي سانت أنطوان الذي سيكون نواة حقيقية لقرية المستقبل، هذا الإنشاء دون سابق تخطيط في منطقة تغلب عليها المستنقعات جعل السكان عرضة للمرض، لكن ذلك لم يقف حجر عثرة أمام المعمرين، بل إن خصوبة التربة جعلتهم يكدّون في تجفيف تلك المستنقعات للحصول على أراض جيّدة، فانضمّ إليهم معمّرون آخرون ليصل العدد الإجمالي سنة ١٨٤٣ إلى (٢٥) فردًا.

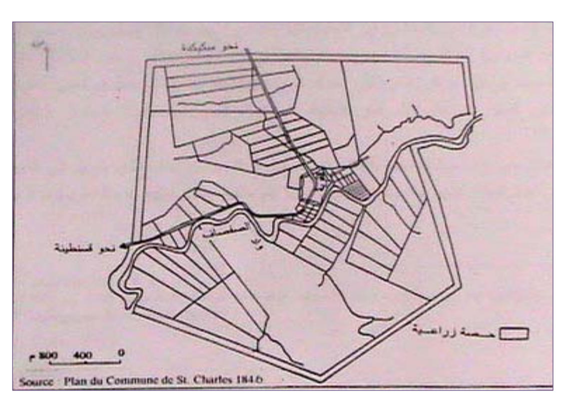
وانطلاقًا من مشروع تهيئة مدينة فليب - فيل المتضمن تعمير ١٠,٠٠٠ هكتار في حوضي الصفصاف، والزرامنة، تم خلق حزام من المراكز السكانية ذات الأهمية العسكرية، والفائدة الاقتصادية (الفلاحة)، وبذلك تمّ إنشاء ثلاث قرى في المنطقة الريفية المجاورة لفيليب فيل هي فالي في الناحية الشرقية للمدينة، وسانت أنطوان في الناحية الجنوبية لها، وأصبحت هذه الأخيرة مركزًا سكانيًا أعلن عنه رسميًا في ٢ أوت (أغسطس) ١٨٤٤ بمجال يقدّر بـ ٦٠٠ هكتار على بعد (٧ كلم) من مدينة فليب فيل، وفي سنة ١٨٥٤ أصبحت كل المساحة مستغلة في يد (٨٦) معمّر وقد ارتفع عدد السكان سنة ١٩٥٤ ليصل إلى (٤٤٣) نسمة في حين بلغت مساحة مجال المركز ١٩٤٠ هكتار، وقد أصبحت القرية مركز بلدية سنة ١٩٥٨ بضم جزء من سْطورة وجزء من دوار الزرامنة إليها.[٢١]

٣/٣- مركز سان شارل SAINT-CHARLES (رمضان جمال):

في نهاية ١٨٤٥ كان هناك مجال واسع وشاغر من كل تعمير يقدر بـ ٢٤٠٠٠ هكتار يقع بين ريف فليب فيل ومجال الحروش على طول (٢٤ كلم)، لذلك أعدّت دراسة من قِبل اللجنة الإدارية لمدينة

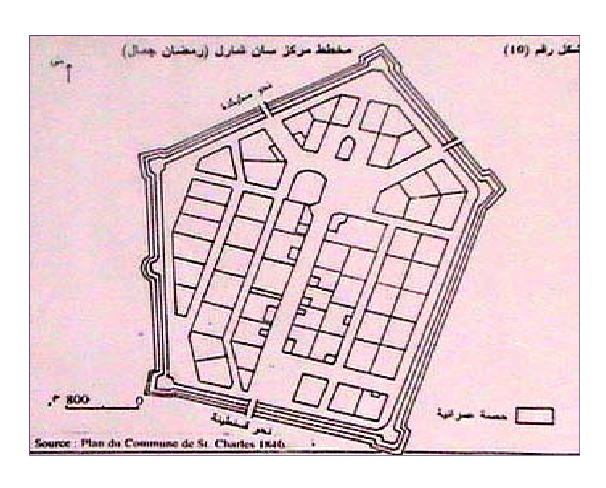
دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فليب فيل لإنشاء مركز كولونيالي في ذلك المجال، وقد تطلّب ذلك إصدار قرار نزع ملكية تقدّر بحوالي ٨٠٠ هكتار من القبائل المجاورة، وخاصةً قبيلة بني مهنا كخطوة أولى للاستيلاء على معظم المجال بحجة أن تلك القبائل لا تزرع إلا (٥/١) من المساحة، ولا يحق لها امتلاك مجال لا تستغله، وفي ٦ أبريل ١٨٤٧ أُعلن رسميًا عن إنشاء المركز الاستيطاني "سان شارل" في مكان كان يُدعى أومال (Aumale) لـ ٥٠ عائلة أوربية في مساحة قدرها (٩٠٠) هكتار على بعد (١٧ كلم) من فليب فيل.



شكل رقم (٣)

المحيط الفلاحي لمركز سان شارل (رمضان جمال)



شكل رقم (٤)

مخطط مركز سان شارل (رمضان جمال)

استمر تطوّر المركز الكولونيالي حيث ارتقى في ٢٢ أوت (أغسطس) ١٨٦١ ليصبح مركز بلدية ذات صلاحيات كاملة، وفي ١٠ ديسمبر وانطلاقًا من مرسوم إمبراطوري تم توسيع مجال البلدية إلى (٥٢٣٣) هكتار، وابتداءً من سنة ١٨٧٠ أصبح المركز يشكل محطة هامة للسكة الحديدية الرابطة بين المدن الثلاث (فليب فيل- بون - قسنطينة)، وبعد أن كان عدد السكان ٨٧ أوربيًا سنة ١٨٤٥، ارتفع ليصل سنة ١٩٥٤ إلى (٩٥٩) نسمة بنسبة (٨٦,٠٢) أهلي (Indigènes) بينما بلغت مساحة مجال المركز (١٢٧٩) هكتار.[٢٢]

٤/٣- صالح بو الشعور (GASTON-VILLE):

على بعد (٢٥كلم) من فليب فيل وعلى الطريق الرابط بينها وبين قسنطينة بالقرب من مشتى بؤر علي، تم التفكير في إنشاء قرية تتوسط المسافة الطويلة نوعًا ما بين سان شارل والحروش بغرض الحماية، وكذلك تكثيف الوسائل الضرورية للمزارع العديدة التي ستقام على وادي الصفصاف. ففي ٢٨ جوان (يونيو) قرر المجلس الإداري تنفيذ مشروع يتضمن توطين (٢٠٠٠٠) نسمة في وادي الصفصاف، ومن خلاله انتهى الأمر إلى إنشاء مركزين سكنيين جديدين هما روبير فيل (Robert ville) وقاستون فيل، هذا الاسم الأخير أعطي من قِبل الملك ذاته لأهمية المشروع الذي لم يترك لقبيلة بني مهنا إلا (٨٠٠) هكتار على الضفة اليمنى لوادي الصفصاف، وبذلك أُعلن رسميًا عن إنشاء المركز السكاني قاستون فيل في ١٦ نوفمبر ١٨٤٧ في مجال قدره (٥٣٥) هكتار لأربعين عائلة، وظل الوجود العسكري به حتى سنة ١٨٥١، وكان قد تحول إلى مستعمرة فلاحية في ١٨٤٨ ولترتفع مساحة المستعمرة الفلاحية بموجب مرسوم رئاسي في ١١ فيفري ١٨٥١ من (٥٣٥) هكتار إلى (١٨٧٠) هكتار، وبذلك ارتقت القرية إلى مركز بلدية ذات صلاحيات كاملة بموجب مرسوم صادر بتاريخ ٢٢ أغسطس (أوت) سنة ١٨٦١. وقد بلغ عدد سكان القرية خلال نفس السنة ٤٠١ أوربي، ثم ارتفع العدد ليصل إلى (٩٤٩) نسمة سنة ١٩٥٤ بنسبة (٩٥,٢٥) أهلي وبلغت مساحة مجال المركز (٢٩٣٦) هكتار.[٢٣]

لقد تم إنشاء كل هذه المراكز في ظرف قياسي، وعلى مسافات متقاربة على محور الطريق الوطني فيليب فيل – قسنطينة (الحروش- قاستون فيل على مسافة ٧كلم، قاستون فيل- سان شارل على مسافة ٨كلم، وسان شارل - سانت أنطوان على مسافة ١٠كلم) في نفس الفترة (١٨٤٤- ١٨٤٧)، ولنفس الرغبة، ولأسباب أمنية واقتصادية، ولصالح ذات الجماعة (العنصر الأوربي)، على نفس الموضع الاقتصادي، ضمن وحدة طبيعية متجانسة، وبنفس الشكل (قرية + محيط فلاحي).

رابعًا: التصميم العام للمراكز والمحيطات الفلاحية

لقد كانت رغبة المستعمر في إنشاء سلسلة القرى هذه بهدف استصلاح الأراضي الزراعية كمركز للحياة اليومية يتوفر على مرافق تقدم خدمة مشتركة (عمومية) كالكنيسة والمدرسة، واعتبر السكن كعنصر لتهيئة المجال له علاقة وطيدة مع الإنتاج الفلاحي، حيث أن اللجنة الإدارية المكلفة بعملية الإنجاز حرصت على أن يكون موضع القرية وسط الأراضي الزراعية لتضمن قرب القرية من مكان العمل، أي أن الموضع في الوسط لتحقيق التكامل بين السكن والحصص الفلاحية التي تحيط بها، حيث أن كل معمر يحظى بحصة عمرانية وحصة كبستان، إضافة إلى حصة أو حصتين من الأراضي الزراعية للاستغلال تتراوح مساحتها ما بين ٢ إلى ١٠ هكتار، مع امتياز مجاني ومضمون لمدة خمس سنوات،[٢٤] وهذا ما

يوضحه المخطط الجيومتري الذي على أساسه تم إعطاء الإطار العام لتلك المراكز والحصص الفلاحية التي تحيط بها.

كانت هذه المراكز ذات تصميم متين ومحصن معتمدًا على خطة القرى الاستيطانية ذات الأصل الأوربي التي تأخذ شكل شطرنج مقطع إلى قطع هندسية تحتلها المباني المحدودة الارتفاع بطابق أو طابقين على الأكثر من فئة (R+1) على نمط المباني الريفية الفرنسية ذات الأسقف القرميدية الحمراء والمبنية بالحجارة والآجر، ولها ساحة داخلية مفتوحة وتلحق بها في كثير من الحالات إسطبلات وتطل واجهتها الرئيسية على الشارع حيث تتهيكل المباني حول محور رئيسي هو الطريق الوطني.

تتوسط القرية المرافق الرئيسية مثل دار البلدية، والكنيسة، والسوق، والمدرسة، وبعض المحلات ومؤسسات خدمية تؤدي وظيفة خدمة العالم الريفي. أمّا الخدمات ذات المستوى الأرقى فتوجد في مركز الحروش باعتباره مركزًا رئيسًا للمقاطعة كالمحكمة، والسجن، والمستشفى العام، ومستشفى الأمراض العقلية، والمكتبة، وثلاث معاصر زيتون والتي تعد من أبرز آثار العمارة الكولونيالية في مراكز وادي الصفصاف، كما تكتسي الأسواق الأسبوعية في كل من الحروش ورمضان جمال بعدًا تاريخيًا منذ العهد الاستعماري الفرنسي، وتعتبر من الأسواق القديمة ذات النشاط التجاري المميّز.



صورة رقم (١): طمس للشكل العمراني الكولونيالي في الجهة اليمنى من حي ٢٠ أوت ١٩٥٥ بالنواة القديمة لبلدة الحروش cours d'Hippone سابقًا مع استغلال مساحة الإسطبلات والمخازن والبساتين في التوسع العمراني واستخدام الطابق السفلي في التجارة



صورة رقم (٢): بنايات قديمة تجاورها أخرى جديدة مبنية بالخرسانة المسلحة والطوب (شارع بوقموزة Boulevard de collo سابقًا) بمركز الحروش مما تسبب في عدم انسجام وتناسق التعمير

ومع بروز ظاهرة النمو السكاني التي عرفتها هذه المراكز على أبواب نهاية العهد الاستعماري الموافقة لقيام الثورة التحريرية، وما صاحب ذلك من سياسة التجميع والحشد التي قام بها المستعمر، تم بناء محتشدات وهي مساكن تحاصر الأبنية القديمة، أُنجزت في إطار مخطط قسنطينة سنة ١٩٥٧، ومع أنها أبنية متواضعة، إلا أنها تعدّ اليوم ذات قيمة تاريخية كبيرة، وتعتبر من تراث حرب التحرير، تمتاز بتقاسيمها الداخلية المتجانسة وشكلها البسيط، بُنيت جدرانها بالحجارة، أما الأسقف فهي من الخشب الذي يثبّت فوقه القرميد، وهي كلها متساوية الارتفاع (طابق أرضي) يتربع كل مبنى على مساحة (٨٠ م^{٢}) ويعاني البعض منها اليوم من حالة متدهورة نظرًا لقدمها.

لا يزال هذا النمط العمراني موجودًا إلى اليوم في مركز الحروش، وصالح بوشعور، بينما تعرضت المباني الموجودة في مركز رمضان جمال إلى عملية التهديم في سبتمبر سنة ٢٠٠٠، وتمّ ترحيل سكانها، وتم بناء سكن اجتماعي في مكانها، وذلك في الجهة الشمالية للمركز على يمين الطريق الوطني رقم (٣)، بينما ينعدم هذا النمط من المباني في مركز سانت أنطوان (الحدائق).

خامسًا: الوضعية الحالية للتراث العمراني الكولونيالي للمراكز (حالة مركز الحروش)

في ظل هذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية والعميقة التي شهدتها هذه المراكز الكولونيالية، وهي تحولات تتجلى في تغييرات تدريجية للنسيج الحضري، سنحاول أدناه تقديم صورة عامة عن المركز الكولونيالي في الحروش كمثال لما آل إليه الوضع في باقي مراكز منطقة وادي الصفصاف.



صورة رقم (٣): تدهور حالة المباني السكنية في الأنوية القديمة والكثير منها في طريق السقوط، وتحتاج إلى دعم مالي، وتقني، وتوعية، وتحسيس بأهمية التراث المعماري الكولونيالي

زحف المباني الحديثة:

وهي مبانٍ تعتمد الأسمنت والخرسانة دون مراعاة الجوانب الفنية والجمالية في شكل مناقض تمامًا لنمط العمران الكولونيالي، مما أدّى إلى تشويه المنظر العام بسبب عدم التناسق بين الأنماط المعمارية الجديدة والنمط العمراني الذي يميز العمارة الكولونيالية التي على بساطتها لا تخلو دائمًا من العناصر الفنية الجمالية. كان نمط السكن الفردي القديم قد عَرف عدة تدخلات تتسم بالفوضى

من طرف السكان غيرت من شكله الخارجي، حيث قامت بعض الأسر المالكة بتغيير نمط البناء إلى نمط معماري حديث مغاير للنمط الأصلي باستعمال مواد بناء جديدة كالإسمنت المسلح، مما زاد من تدهور حالة العمران الكولونيالي الذي يتوسط هذه المراكز، نتج عنه حالة ازدواج لنمطين متناقضين يفصل بينهما في الزمان أكثر من قرن، مع تخصيص الطوابق الأرضية للنشاط التجاري المكثف، مما أدى إلى ارتفاع درجة تركز وتراكم النشاطات التجارية بنواة المركز، وهي ظاهرة نلاحظها في كل المراكز وأحيانًا تلتصق بنايات قديمة بأخرى جديدة مبنية بمواد بناء حديثة بالخرسانة المسلحة في صورة غاية في البشاعة.


صورة رقم (٤): اندثار بعض المعالم و الآثار الكولونيالية كالعيون أول عين تم بناؤها من طرف الجيش الفرنسي سنة ١٨٤٦ بمركز الحروش


صورة رقم (٥): تم تهديمها سنة ١٩٧٦وتحولت إلى التفاف دوراني خاص بالسيارات.



صورة رقم (٦): مقر البريد والمواصلات بالحروش دخل حيز الخدمة في ٦ أبريل ١٩٥٢.


صورة رقم (٧): اليوم يشغل نفس الوظيفة وهو في حالة إنشائية متوسطة.

خاتِمَةٌ

يتطلب إنقاذ التراث، بمفهومه الواسع، إدماجه في إطار استراتيجية للتنمية المستدامة، وإذا ما أريد لهذا التراث أن يساهم في التنمية المحلية، على الجهات الوصية أن تعمل على الحد من تدهوره، وإعادة تأهيله وتثمينه لجعله أحد المؤهلات الأساسية لتنمية الأنشطة الاقتصادية (السياحة، الصناعة التقليدية، التجارة... الخ)، وكذلك لتعزيز الهوية الثقافية على أساس مرجعية مشتركة بين مختلف الفاعلين. وقد سمحت لنا هذه الدراسة الموجزة بالخروج بالتوصيات الآتية:

- ضرورة تثمين التراث المادي التاريخي للمنطقة.
- إعادة تأهيل واجهات البنايات بالأنوية القديمة تحت إشراف معماري.
- احترام التراث التاريخي عند انجاز عمليات التعمير (التوسعات العمرانية الجديدة).
- العمل على مساهمة سكان المنطقة في تنشيط الحياة المحلية وإشراكهم في إدارة وحماية تلك المنشآت.
- تكفل المصالح التقنية البلدية بإدارة ومتابعة ومراقبة أشغال الترميم التي تمول من طرف الدولة.

دورية إلكترونية ،مُحكّمة ،ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(*) هذه المراكز الاستيطانية التي أنشأها الاستعمار الفرنسي هي على التوالي: غاستون فيل (GASTON-VILLE)، وسان شارل (SAINT-CHARLES)، وسانت انطوان (SAINT-ANTOINE) التي استعادت أسماءها بعد الاستقلال لتكون على التوالي صالح بوشعور، رمضان جمال، الحدائق)، وأخيرًا الحروش (HARROUCHE) التي احتفظت باسمها الجزائري.

(1) *Wilaya* de Skikda, *Plan d'aménagement de la wilaya (PAW)*, ANAT, Alger, 1996, P. 113.

(2) *Cote* (Marc), *Un bel exemple de reconversion du vignoble*, le domaine'Boukhlouf Braiek 'Bassin de Skikda, institut des sciences de la terre 1983, P.3.

(3) *BOUKERZAZA* (H.), Décentralisation, *développement locale et aménagement du territoire en Algérie, le cas de la wilaya de Skikda*, thèse de 3ème cycle Univ. Paul Valery Montpellier 1985, p.17

(4) AGGOUN (L.), *les origines de la confédération cirtéenne, In revue des sciences humaines*, n° 30, université de Constantine, décembre 2008, pp. 57 -67 .

(٥) **الأنونة**: هي ضريبة عينية سنوية تدفعها مقاطعات الإمبراطورية الرومانية وكانت روسيكاد مقرًا للوالي المكلف بجمع هذه الضريبة (Praefectus annonae) أنظر:

http://fr.wikipedia.org/wiki/r%C3%A9fet_de_l'annonea vailable in 10 July 2013.

(٦) حمادة (صالح)، **مدينة سكيكدة: دراسة في جغرافية العمران**، رسالة ماجستير الجزء الأول، معهد علوم الأرض جامعة قسنطينة، ١٩٧٩، ص ٤٢.

(٧) صخري (رابح)، **دليل مدينة الحروش وضواحيها**، ١٩٩٧، ص ١٢.

(8) Léon l'africain, *description de l'Afrique poularde* 2T, paris 1952, p. 43.

(9) Salama (Pierre), *les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Imprimerie officielle du Gouvernement Général de l'Algérie, Alger, 1951, Pp. 99.

(10) Solal (E.): *Philippeville et sa région 1837-1870*, éd. la maison des livres-Alger-1957.

(11) *https://fr.wikipedia.org/wiki/B%C3%A9ni Imloul_(Ath_ Imloul)*, le 3.7.2013, a 4,40 h.

(12) Melia (Jean), *les bombardements de Bône et de Philippeville*, Berger-Levrault, éditeur Paris 1927, p. 72.

(13) Montezon,(A.); de. *La Vérité sur l'Algérie*, (Province de Constantine), Paris 1851, p. 9.

(14) SOLAL(E.), *Philippe ville et sa région 1837-1870*, éd. la maison des livres-Alger-1957.

(15) ARRUS (R), *l'eau en Algérie de l'impérialisme au développement (1830-1962)* OPU Alger; PUG Grenoble 1985.

(16) Répertoire statistique des communes de l'Algérie; mars 1932.

(17) R.G.P.H.1954.

(18) BOURAOUI (Ibtissem), *CROISSANCE DE PETITES VILLES ALGERIENNES. CAS D'EL HARROUCH*, MEMOIRE du magister Sous la direction de Pr. LAYEB Hafid, DEPARTEMENT D'ARCHITECTURE ET D'URBANISME, Université de Constantine 2007, pp. 122-125.

(19) Solal (E.): op-cit, p. 251.

(20) Wilaya de Skikda, *Plan d'occupation du sol de la commune d'Elhadaek*, POS, Wilaya de Skikda, 1997.

(21) *Bertrand* (L), *Histoire de Philippeville*, Imprimerie administrative et commerciale moderne, Philippeville 1903, pp. 9 - 12.

(22) EL-koti (A.), les français dans la vallée du safsaf *synthèse* mai 1995.

(23) Solal (E.), op-cit, p. 226.

(24) Cote (Marc), *l'Algérie ou l'espace retourné*, Flammarion paris, 1989, p.116.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية



الفن الإسلامي ودوره في التواصل الحضاري بين الشعوب
عمارة إيطاليا نموذجًا



د. أنـور محمود زنـاتي

أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية التربية – جامعة عين شمس
القاهرة – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أنور محمود زناتي، الفن الإسلامي ودوره في التواصل الحضاري بين الشعوب: عمارة إيطاليا نموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١١٣ – ١١٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

إن التقاء الحضارات معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية، وهو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه. وقد تمّ دائمًا وأبدًا وفق قاعدة "التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، وبين ما هو خصوصية حضارية"، وبقدر ما تعظم الحاجة إلى حوار جدي بين الثقافات والحضارات لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب، تقوم الضرورة القصوى لتهيئ الأجواء الملائمة للبحث عن آليات هذا اللقاء والتواصل. ومن المؤكد أن الحضارة الإسلامية (Islamic Civilization) كان لها دورها الفعال في التواصل بين الشعوب وهذا الدور لم ينقطع على مر الزمن، ولكنه في العصر الوسيط (Medieval) كان أكثر وأعرض وأعمق، وذلك بفضل ما توصلت إليه الحضارة الإسلامية من أسباب التقدم والرقي، وحتى العصر الحديث ما زالت هناك آثار لتلك الحضارة. ولعل أجلى ما تتضح عليه صورة ذلك الأثر هو "الفن الإسلامي" (Islamic Art). والفن بصفة عامة يلعب دورًا هامًا في صياغة عقلية الفرد والمجتمع، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مقولة: "الفن يهذب ثقافات المجتمع"، وهو الذي يصوغ عالمه وواقعه الحقيقي، والفن: "أساس تشكيل الأفكار، ودليل على النشاط الفكري للفرد والمجتمع". وفي هذه الدراسة سوف نتعرض لتأثير الفن الإسلامي العريق على الحضارات والشعوب، والتي تؤكد دور الفن الإسلامي في إيجاد تواصل وتمازج بين الحضارات، وهذا التواصل يؤدي إلى بناء علاقات حميمة وتفاعلات حضارية تقرّب بين الأطراف المختلفة.

مُقَدِّمَةُ

إن كل متأمل في الفن الإسلامي يعرف أنه أرسى معايير ذات صبغة مميزة، كان لها آثارها الواضحة على العالم أجمع. لقد كان انتشار الفنون الإسلامية من أروع ما وقع في تاريخ البشر. والفنون الإسلامية -ولا جدال- قد عمت أجزاء كبرى من العالم"، فبدت على غاية الكمال سلسة غاية السلاسة، غنية أي غنى. وقد تمكَّن الفن الإسلامي من بلورة شخصية متميزة ومتكاملة وذلك في فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز قرنًا من الزمن.

وما من فن إلا واقتبس من آثار الفنون السابقة، وما من فن إلا وتلقَّى مبادئ صناعته من فن سبقه. والفن الإسلامي لا يشذ عن هذه القاعدة، فقد تأثر بالفن البيزنطي (Byzantine Art) والفن الساساني، بدليل وجود بعض خصائص هذين الفنين في الآثار الإسلامية الأولى، وتأثر كذلك بالفن القبطي (Coptic Art) الذي اقتبس منه المسلمون بعض عناصره، ثم طوروها وأدخلوا عليها عناصر أخرى أصبحت فيما بعد من خصائص الفن الإسلامي. ولقد استطاع الفنان المسلم أن يصهر كل هذه العناصر والمؤثرات الفنية الخارجية، ليخلق شخصية ثرية ومتنوعة ومستقلة للفن الإسلامي، وبما يواءم متغيرات عصرهم ومتطلبات دينهم ودنياهم.

ويعتبر الفن عمومًا والمعماري منه خصوصًا، من أصدق أنباء التاريخ، وهو واحد من أهم علوم هندسة الروح والجسد وأكثرها

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

سموًا ورقيًا، ذلك لأنه قادر كموسوعة وقوة خازنة لخيال الأمم، على تحقيق التواصل والتفاعل الحضاري، والفن المعماري أقدر من غيره على التواصل مع الآخر، وقد لعب الفن المعماري الإسلامي دورًا كبيرًا في خلق حوار فني حضاري متميز، لأنه انطلق من هويته وحافظ على خصوصيته الثقافية فاستطاع من خلال جمالية إبداعه الفني تقديم الوجه الحقيقي لحضارته.

لقد وصل الإسلام إلى ثلاث مناطق تتبع إيطاليا حاليًا؛ المنطقة الأولى جزيرة صقلية وذلك في سنة (٢١٢هـ / ٨٢٧ م) عندما فتحها إبراهيم بن الأغلب، وقاد عملية الفتح أسد بن الفرات وكان للأغالبة[١] أسطول قوي في البحر المتوسط. أما المنطقة الثانية فكانت جزيرة سردينيا وفتحت سنة (١٩٤هـ / ٨٠٩ م)، وورث الفاطميون(The Fatimids)[٢] حكم سردينيا (Sardegna) عن الأغالبة في سنة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩ م) أي بعد أن حكمها الأغالبة مدة قرن تقريبًا، وبقيت سردينيا في أيدي الفاطميين قرنًا آخر حتى استولى عليها ملوك الطوائف المسلمون بالأندلس في سنة (٤٠٦هـ / ١٠١٥م) وحاول أن يستولى عليها مجاهد العامري، ولكنه فشل في استعادة الجزيرة، وذلك بسبب قوة الحلف المسيحي الذي سيطر على سردنيا (Sardegna)[٣] في سنة (٤٠٦ هـ/ ١٠١٥م).

وهكذا؛ دام الحكم الإسلامي لجزيرة سردينيا أكثر من قرنين، وانتشر الإسلام خلالها في الجزيرة، وفي نهاية الحكم الإسلامي لسردنيا حكمها أمراء مسلمون من أبنائها، ولكن التحالف المسيحي الذي تكون من دولة بيزا (Pisa) وجنوه (Genova) سيطر في النهاية على الجزيرة وعندئذ تغير وضع المسلمين، فمنذ الاستيلاء على سردينيا ظهر التحدي للمسلمين بالجزيرة، فكثرت الهجرات الإسلامية منها وشنت حرب الإبادة على المسلمين بسردينيا، وكان السبب الرئيس في إخلاء الجزيرة من المسلمين.

أما المنطقة الثالثة، فكانت شبه جزيرة إيطاليا والتي وصلها الإسلام، فقد توجه الأغالبة إلى هذه المنطقة بعد فتحهم جزيرة صقلية، فهاجم المسلمون مدينة برنديزى سنة (٢٢١هـ / ٨٣٦م) ثم استولوا على نابولي في السنة التالية لها، واستولوا على كابوه في سنة (٢٢٧هـ /٨٤١م)، وفتح المسلمون تارانتوا، ودخلت جيوش محمد الأول الأغلبي مدينة روما سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦ م) ووعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع الجزية.[٤]

كنيسة القديس مرقص

لقد أخذ الغرب عن العمارة الأندلسية أشكال المآذن المربعة التي أصبحت أبراجًا للكنائس، تجسدت على سبيل المثال في **برج ساحة القديس مرقص** (سان ماركو)[٥] في البندقية[٦] (صورة رقم ١)، وقد استخدمت في تلك الكنيسة العقود المدببة التي كانت قد أصبحت أهم مميزات العمارة العربية الإسلامية،[٧] وكذلك اقتبس الغرب القوس المدبب،[٨] حيث حلوا فيه مشكلة السقوف المفصصة والمتقاطعة التي تشكل إحدى واجهات **مسجد قُرْطُبَة** (Cordoba).



صورة رقم (١)

الفسيفساء في فناء كنيسة القديس مرقس

قبة "مونت سانت انجلو"

كما يمكن مشاهدة التأثير الإسلامي في الأقواس التي تصل جوانب قبة **"مونت سانت انجلو"**، (صورة رقم ٢) وفي قصر "روفولو" في رافيللو الذي بُني في القرن الحادي عشر، ومازال يدل بتفاصيله المعمارية على أصوله الإسلامية.



صورة رقم (٢)

قبة مونت سانت أنجلو

وكانت المنارة الاسلامية (Islamic Minaret) خصوصًا في طرازها المغربي لها تأثيرها في تصميم أبراج أجراس الكنائس الإيطالية.[٩]

قبة سبوليتو

وتعزى شهرة مدينة **"بيزا"** (Pisa) بمقاطعة توسكانيا إلى وجود أكثر المتنوعات المعمارية جمالاً في العالم فيها، ومنها برج **"قبة سبوليتو"**(Duomo Spoleto)[١٠] (صورة رقم ٣) التي تشبه إلى حد كبير مئذنة سنجر الجاولي في القاهرة،[١١] وكذلك **قبة ليكي** (Duomo di Lecce)[١٢] (صورة رقم ٤). كما أن قبة وقاعدة كاتدرائية **براتو دي ميراكولي** (sul prato dei Miracoli) (صورة رقم ٥) تؤكدان تأثير الفن الإسلامي.[١٣]

ISSN: 2090 – 0449

قصر الدوق

وقد تأثر مهندسو **قصر الدوق** (The doge's palace) (صورة رقم ٦) بالعمارة الإسلامية، وهذا القصر بدأ تشييده في أوائل القرن التاسع وأعيد بناؤه مرات عديدة وأساليبه المعمارية تذكرنا بأساليب العمارة الاسلامية،[١٤] وخصوصًا في عمل شرافات على شكل أسنان المنشار.[١٥]



صورة رقم (٦)

قصر الدوق

كما أثرت مآذن القاهرة إبان القرن الرابع عشر والخامس عشر في تصميم أبراج النواقيس في إيطاليا في آخر عصر النهضة، وهي التي نقل عنها المهندس الكبير السير **كريستوفر رن** (Christopher Wren)[١٦] ما صممه من الأبراج في **كاتدرائية سانت بول** (St Paul's Cathedral).[١٧]

أبراج النواقيس

كما تبدو في جنوب إيطاليا التأثيرات العربية. فضلاً عن أن أبراج النواقيس في إيطاليا في **عصر النهضة** (Renaissance Archttecture)[١٨] كانت مقتبسة من أسلوب المآذن المغربية. وفي **مدينة رفيليو** (Ravello) يبدو أن الأحواض في كنيسة القديس جوفاني ذات البرج (San Giovanni del Toro) (صورة رقم ٧) تأثرت بالتصميم **الفاطمي** (Fatimmid Style) أو **الأيوبي** (Ayubbid Style).



صورة رقم (٧)

San Giovanni del Toro



صورة رقم (٣)

قبة سبوليتو



صورة رقم (٤)

قبة ليكي Duomo di Lecce

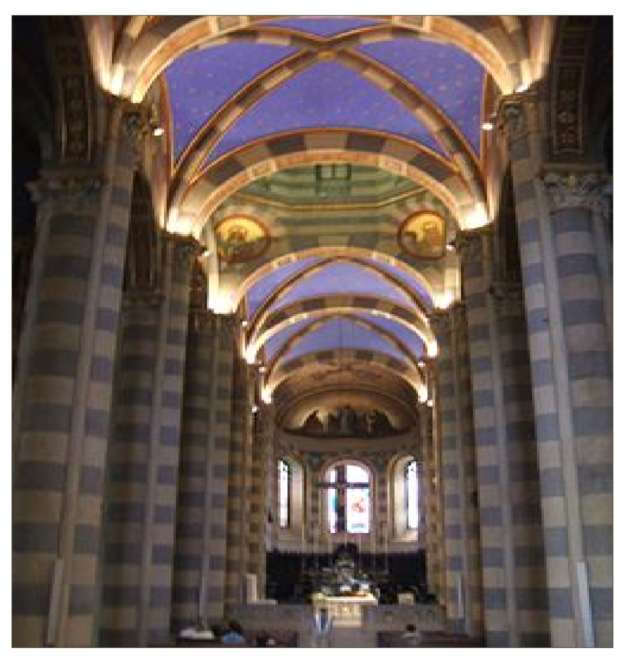


صورة رقم (٥)

كاتدرائية براتو دي ميراكولي

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وفي كازالي مونفيراتو (Duomo di Casale Monferrato)، شمال إيطاليا نجد أن الكاتدرائية في تلك المدينة (صورة رقم ٨) مبنية بأروقة تحتوى على أقواس مقتبسة أيضًا من قواعد وأصول فن المعمار الإسلامي، ويتضح ذلك بمقارنتها بالقبة المقامة فوق الباب الرئيس لجامع قُرْطُبَة الكبير، وكان هذا الجزء من الجامع قد بني في عهد الخليفة الحكم الثاني في النصف الثاني من القرن العاشر.[١٩]



صورة رقم (٨)
كاتدرائية مونفيراتو

الزخارف العربية

وانتشرت الزخارف العربية في مدن ايطاليا مثل **كنيسة القديس ميخائيل** (Saint Michael) في بافيا (Pavia) وكنيسة **القديس فرنسيس** في أسيسي (Assisi) وكنيسة القديس دومنيكو (Domenico) في بولونيا (Bologna).[٢٠]

وهناك كنيسة **سانتا ماريا دي انجلونا** (صورة رقم ٩) شُيدت الكنيسة على معبد مؤرخ بالقرن (١٠-١١م)، ويُظهر ثلاث مراحل في البناء تؤرخ بين النصف الأول من القرن الثاني عشر و الرابع عشر الميلادي، أما اللوحات الجدارية فتؤرخ بصفة عامة بأواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي.



صورة رقم (٩)
كنيسة سانتا ماريا دي انجلونا

كما أعجب الإيطاليون بظاهرة معمارية جميلة شاعت في القاهرة على عهد **المماليك**، ومن الطراز المملوكي، وهي تبادل طبقات أفقية من أحجار قاتمة اللون مع أخرى زاهية استخدموها في الواجهات المخططة في المباني الرخامية التي شيدت في بيزا وفلورنسا،[٢١] وجنوه (Genova)[٢٢] ومسينا (Messina)[٢٣] وفي غيرها من البلاد الإيطالية، ومثل هذه الأبنية المتعددة الألوان موجودة في إقليم الأوفرن (Auvergne)، ومقاطعة فيليه (Velay) بحوض اللوار الأعلى في غربي فرنسا، وفي كنيسة القديس بطرس بنورثمبتن.[٢٤]

خاتِمَةٌ

لقد أثبتت العمارة العربية والإسلامية حضورها المدهش والراقي، بين فنون العمارة للأمم الأخرى، وينبع هذا الإدهاش من خصوصية إسلامية مفعمة بالتفرد والجمال، حيث القباب والمنائر، والمقوسات والنقش على السطوح الحجرية وغيرها، بالإضافة إلى الفسيفساء (Mosaic)، وأنواع الزخرفة الجميلة (Ornament)، وغير ذلك من مؤشرات الجمال الرائعة التي غالبًا ما تكتسي بها العمارة الإسلامية عمومًا.

ويتضح مما سبق الدور الرائع للحضارة الإسلامية في إيجاد تواصل وحوار بين الثقافات والحضارات عن طريق تأثير الفنون الإسلامية في الفنون الأوربية، وأن الحضارة الأوربية الحديثة استندت إلى أسس الحضارة العربية الإسلامية، وكان هناك تلاق بين الشرق والغرب لا تنكره العين المجردة، ووثائق التاريخ والجغرافيا.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) **دولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦ هـ/٨٠٠-٩٠٩ م) Aghalibide epoch**: هم سلالة الأغالبة التي حكمت في أفريقية. كانت عاصمتها القيروان. أسسها إبراهيم الأول بن الأغلب عامل هارون الرشيد، راجع: زناتي، أنور محمود. "**قاموس المصطلحات التاريخية**". مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٧م، ص ٢٣.

(٢) **الفاطميون (٩٠٩-١١٧١ م) The Fatimids**: سلالة تنسب إلى علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة. أنشأوا دولة توالى عليها ١٤ خليفة. أسسها عبيد الله المهدي في تونس وبلغت أوج اتساعها في عهد المعز الذي أخضع شمال أفريقية وأرسل قائده جوهر الصقلي لاحتلال مصر ٩٦٩ م، فبنى القاهرة التي أصبحت عاصمة الدولة. راجع: زناتي، أنور محمود. "**قاموس المصطلحات التاريخية**"، مرجع سابق، ص.١٥٠.

(٣) **سردنيا Sardegna**: هي ثاني أكبر جزيرة في البحر الأبيض المتوسط (بعد صقلية وقبل قبرص). راجع: **الموسوعة الثقافية**/ إشراف سعيد، حسين، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢، ص ٥٤١.

(٤) راجع: لوبون، جوستاف. "**حضارة العرب**"، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة) ٢٠٠٠م، ص٣٠٢.

(٥) شيدت فيما بين عامي (١٠٤٢ – ١٠٨٥).

(٦) وقلدها أهل شمال أوروبا تمثل ذلك على سبيل المثال في برج بلدية ستوكهولم المبني عام ١٩٢٢م، راجع: ثويني، علي، **معجم عمارة الشعوب الاسلامية**، دار حوران للطباعة والنشر، ٢٠٠٦، ص ٤٣٨.

(٧) شافعي، فريد. "**العمارة العربية في مصر الإسلامية**". الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص١٣٦.

(٨) هونكة، سيجريد. "**شمس العرب تسطع على الغرب**"، بيروت، ١٩٦٩، ص٤٨١.

(٩) أحمد، عزيز، "**تاريخ صقلية الإسلامية**"، ترجمة: الطيبي، أمين توفيق. الدار العربية للكتاب، ص ١١٣.

(١٠) تم بناؤها سنة ١٣٩٧.

(١١) **الأمير علم الدين سنجر الجاولي**: كان مملوكًا لأحد أمراء الظاهر بيبرس، وانتقل بعد موت صاحبه إلى خدمة بيت قلاوون إلى أن وصل إلى مرتبة الأمراء في أيام الناصر محمد بن قلاوون. يقع هذا المسجد بشارع مراسينا وهو مبنى على ربوة صخرية يرتفع مدخله عن منسوب الطريق بحوالي ثلاثة أمتار. راجع: عبد الرازق، أحمد، "**العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتي نهاية العصر المملوكي**". ترجمة: سهيلة مصطفي محمود ، دار الفكر العربي، ٢٠٠٩م.

(١٢) (١٦٦١ – ١٦٨٢).

(١٣) راجع: انعيم، غازي، "**أثر فن العمارة الإسلامية على فنون العمارة الغربية**"، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٣٢ لسنة ٢٠١٠ م.

(١٤) بريجز، مارتن. "**فن العمارة**" ضمن مقالات كتاب "**تراث الإسلام**"، ج٢، ترجمة: حسن، زكي محمد، لجنة الجامعيين لنشر العلم، ١٩٨٣م، ص١٤٦. (هامش رقم: [١] للمعرب).

(١٥) **عاشور**، سعيد، "**حضارة الإسلام**"، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٨٧م، ص٢٩٥.

(١٦) **كريستوفر رن Christopher Wren** (١٦٣٢ – ١٧٢٣): معماري إنجليزي ، اتسمت أعماله بالفخامة والأناقة معًا. عُرف أيضًا في وقته عالمًا في الرياضة. وضع تخطيطًا جديدًا لمدينة لندن، بعد حريق ١٦٦٦، لكنه لم ينفذ. بنى نحو ٥٠ كنيسة في لندن بين (١٦٧٠- ١٧١١)، أعظمها كاتدرائية القديس بولس. من أعماله غير المباني الدينية مستشفى شلسيا، وأجزاء من مستشفى جرينتيش، وواجهة قصر هامتون كورت، وحي التامبل، وكلها في لندن.

(١٧) **بريجز**، مارتن، "**فن العمارة**" ضمن مقالات كتاب "**تراث الإسلام**"، مرجع سابق، ص١٥٢.

(١٨) **عمارة عصر النهضة Renaissance Archttecture** : هي العمارة في الفترة ما بين أوائل القرن الخامس عشر وأوائل القرن السابع عشر في مناطق مختلفة من أوروبا. توضح تلك العمارة الانتعاش الواعي وتطوير بعض العناصر القديمة **من** الفكر اليوناني والروماني والثقافة المادية. أسلوبيًا، تتبع عمارة النهضة العمارة القوطية وتخلفها العمارة الباروكية. تطورت بداية في فلورنسا عبر فيليبو برونليسكي باعتبارها أحد ابتكاراته، وسرعان ما تطورت العمارة وامتدت إلى مدن إيطالية أخرى. انتقلت الأساليب المعمارية إلى فرنسا وألمانيا وانجلترا وروسيا وأجزاء أخرى من أوروبا في تواريخ مختلفة وبدرجات متفاوتة من التأثير. راجع: البصري، سعد علي، "**الفن في عصر النهضة**"، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

(١٩) انعيم، **أثر فن العمارة الإسلامية**، مرجع سابق.

(٢٠) شافعي، فريد، "**العمارة العربية في مصر الإسلامية**"، مرجع سابق، ص٢٦٥.

(٢١) **فلورنسا**: **مدينة** في الجزء الشمالي من وسط إيطاليا، عاصمة مقاطعة فلورنسا وإقليم توسكانا. راجع: **الموسوعة الثقافية**، مرجع سابق، ص ٧٢٥.

(٢٢) **جنوا Genova**: حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة وقوية متعلقة بالثقافة البحرية ليس بمنطقة البحر المتوسط، تُعد إحدى الأقطاب الاقتصادية الإيطالية الرئيسية، وميناءها في الفرع التجاري، هو الأكبر بالبلاد، ومن بين **أكبرها** بالبحر الأبيض المتوسط. راجع: **الموسوعة الثقافية**، مرجع سابق، ص٣٦٢.

(٢٣) **مسينا Messina**: مدينة إيطالية في جزيرة صقلية، على شاطئ المضيق المعروف باسمها مضيق مسينة، وهي ثالث أكبرها مدن صقلية، وعاصمة مقاطعة مسينة، وهي ثالث أكبرها مدنها، **تعرف** بـ باب صقلية، وقد ضربها زلزالين مدمرين الأول سنة ١٧٨٣م، والثاني سنة ١٩٠٨م، فضلاً عن تعرضها لقصف الحلفاء سنة ١٩٤٣م، وفي كل مرة يعاد بناؤها. ميناءها أحد أكبر الموانئ في البحر المتوسط. راجع: **الموسوعة الثقافية**، مرجع سابق، ص ٩١٩.

(٢٤) **راجع**: انعيم، "**أثر فن العمارة الإسلامية**"، مرجع سابق.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية



إسهام علماء بجاية في الحركة العلمية في المغرب الإسلامي

خلال القرنين (٧ – ٨هـ/ ١٤ – ١٥م)



مَرْيَمَ هاشمي

أستاذة مساعدة تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط

جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان– الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مَرْيَمَ هاشمي، إسهام علماء بجاية في الحركة العلمية في المغرب الإسلامي خلال القرنين (٧ – ٨ هـ/ ١٤ – ١٥م).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص١١٨- ١٢٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخصْ

كانت بجاية دائمًا بلد علم وعلماء، وهذا حسب أبو عبد الله الشريف التلمساني عندما دخل المدينة، حيث ذكر بأنه وجد العلم ينبع من صدور رجالها كالماء ينبع من حيطانها. ورغم الاضطرابات السياسية التي حلت ببجاية فإنها لم تجعل أهلها يرغبون عن العلوم والمعارف، بل زادت تمسكهم بالعلم والعلماء وجعلتهم يلتفون حول الصلحاء والأولياء والعلماء. وقد اهتم العلماء في ذلك العصر في القرنين السابع والثامن الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بمختلف العلوم منها: النقلية والعقلية، مما صارت بجاية من أهم الحواضر العلمية بالمغرب الإسلامي يقصدها عدد كبير من العلماء والشعراء والأولياء. كل هذا ساهم في نبوغ وبروز عدد كثير من العلماء الذين كان لهم دور كبير في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية في مدينة بجاية. فمَنْ هم هؤلاء العلماء؟ وما هي أبرز إسهاماتهم في الحركة العلمية والفكرية ببجاية؟

مُقَدِّمَةٌ

إن المتصفح لتاريخ مدينة بجاية في العصر الوسيط يجدها أنها كانت من أزهى المدن ثقافيًا وحضاريًا، حيث نبغ بها علماء وفقهاء أجلاء، فأصبحت المدينة ملتقى لرجال العلم في المغرب والمشرق الإسلاميين. لكن قبل الحديث عن مدى إسهام علماء في الحركة العلمية ارتأيت أن أشير إلى لمحة تاريخية عن نشأة المدينة. فمدينة بجاية تقع في الشمال الشرقي من الجزائر بين خطي طول (٢، و٤٥) شرقًا، وعرض(٣٦، و٤٥) شمالاً، شُيدت المدينة على منحدر جبل قوراية الذي يرتفع عن سطح البحر بـ٦٠٠م، مما يسمح لها في التحكم في السهل القريب منها، حيث يصب نهر الصومام.[١]

كانت بجاية في العهد الرماني تسمى صالداي (saldae)، وفي عهد الحماديين حملت اسم الناصرية نسبة إلى مؤسها الناصر بن علناس سنة (٤٦٠ هـ/١٠٦٧م)،[٢] إلا أنه غلب عليه اسم الناصرية نسبة إلى قبيلة كانت تقطن بها إذ أنه ابتنى بها قصورًا منها: قصر اللؤلؤة ولقد تفنن في زخرفته حتى أنه استطاع أن يباهي بقصره أجمل قصور الدنيا، ولقد أبدع الشاعر ابن حمديس الصقلي[٣] في وصفه وهذا يدل على حسنه الباهر:

واعمر بقصر الملك ناديك الذي

أضحى بيته معمورا

قصر لو أنك قد كحلت بنوره

أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

واشتق من معنى الجنان نسيمه

فيكاد يحدث بالعظام نشورا[٤]

لكن في سنة٥٤٧هـ استولى عليها الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، واستمرت بجاية على ازدهارها الحضاري وهذا نتيجة لتشجيعه للعلم والعلماء، إذ أنه رفع الحظر عن طائفة الكتب التي كانت ممنوعة زمن المرابطين مثل: كتاب الإحياء للغزالي، كما عمل

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

على تشجيع حركة التأليف في مختلف العلوم وسمح لهم بقراءة مثل هذه المؤلفات على كراسي المساجد، وأصبح يطلق عليها لؤلؤة المغرب، وبعد انتقال بجاية إلى الدولة الحفصية احتفظت المدينة على رونقها ومكانتها العلمية، إذ أنها أصبحت تنافس حاضرة تونس عاصمة الدولة الحفصية،[٥] وعليه فبجاية كانت حاضرة لعدة ممالك متعاقبة.

عوامل ازدهار الحركة العلمية والفكرية في بجاية خلال هذه الفترة:

عناية ملوك وأمراء بني حفص للعلم والعلماء: ازدادت أهمية بجاية بعد انتقالها إلى الحكم الحفصي، حيث عني سلاطين بجاية وأمرائها عناية كبيرة بها، إذ أنهم وسعوا عمرانها وانتشر العلم بها حتى أصبحت تنافس حاضرة تونس. وقد كان لأمراء بني حفص الذين حكموا بجاية رعاية مستمرة للعلم وعلمائها ففي عهد السلطان الأمير أبي زكريا يحي الثاني (٦٧٥-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م) عرض على الشيخ أبو زكريا بن محجوبة القرشي السطيفي (ت. ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)[٦] مرتبًا من أعشار الديوان المقيد لأن الإطلاق أوسع من التقييد وهو في ديوان الحق فلا اجعله في ديوان الخلق."[٧] وفي عهد الأمير أبو عبد الله الحفصي (٧٥١-٧٦١هـ/١٣٥٠-١٣٦٠م) استقدم عبد الرحمن بن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) وعينه حاجبًا له على طلب منه، كما أُسندت إليه مهمة التدريس والخطابة بجامع الأعظم.[٨]

الهجرة الأندلسية: بدأت الهجرة الكبرى إلى المغرب الإسلامي خاصةً بعد سقوط مدن الأندلس في أيدي النصارى منها بلنسية سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، ومرسية، وجيان، واشبيلية سنة٦٤٦هـ، وقد استقر معظمهم ببجاية نظرًا لمكانتها العلمية والحضارية. وإضافة إلى تشجيع أمراء بجاية للمهاجرين الأندلسيين، فقد كان الأمير الحفصي أبو زكريا يحي الأول (٦٢٥-٦٤٧هـ/١١٢٨-١٢٤٩م) يرى أن التجاء العلماء الأندلسيين إلى حاضرته غنما هو تشريف واغناء لثروتها العلمية وسمعتها الأدبية. ومن بين المهاجرين الأندلسيين نذكر منهم: أبو عبد الله محمد بن الآبار الأندلسي (ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) الذين التحق كاتبًا في بلاط أبو عبد الله الحفصي، ولما توفي لقي نفس الرعاية من ولده المستنصر لكن خصومه دسوا في حقه فاشتد غضبه عليه وأمر بجلده وقتله.[٩] أبو العباس محمد بن خالد المالقي (ت. ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) من العارفين بالطب قدم إلى بجاية وجلس للإفتاء بها وأخذ عنه بعض علمائها.[١٠]

أبرز علماء بجاية

ونتيجة لهذه العوامل أضحت بجاية مركز إشعاع علمي يقصده عدد كبير من مختلف بلاد المغرب، حيث تخرج من مدارسها جيل من العلماء والذين كان لهم دور كبير في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية في المدينة ومن أبرز علماء بجاية نذكر منهم:

أبو الحسن الزّواوي (ت. ٦٢٨هـ/١٢٣١م): هو يحي بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي يكنّى زين الدّين، ولد سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) في بجاية، رحل إلى المشرق وهناك تصدّى للتّدريس في الجامع الأيّوبي لإقراء النّحو والأدب في الجامع العتيق ومن تصانيفه: الدّرة الألفيّة في علم العربيّة، وقد طبعت ألفيّة ابن معطي في مصر وشرحها الكثيرون، كتاب الفصول الخمسة في النّحو، شرح كتاب الجمل للزّجاجي، شرح أبيات سيبويه، نظم كتاب في العروض.[١١]

أبو القاسم محمّد بن أحمد الملقّب بابن أندارس البجائي (ت. ٦٧٤هـ/١٢٧٦م): هاجر إلى بجاية واستقرّبها في حدود (٦٥٠-٦٦٠هـ/ ١٢٥٣-١٢٦٣) واشتهر بمهنة الطبّ، ومن تلاميذه أحمد الغبريني صاحب كتاب عنوان الدّراية الّذي قال عنه: "وتبسّط للطبّ طبيبًا باحثًا جيّدًا وله معرفة بعلم العربيّة، وله شركة في أصول الدّين..." له رجز نظمّ فيه بعض الأدويّة توفي في تونس سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٦م).[١٢]

أبو الرّوح الزّواوي (ت. ٧٤٣هـ/١٣٤٢م): وهو عيسى بن مسعود بن منصور بن يحي المنكلّاتي الزّواوي يكنّى أبا الرّوح، ولد بزواوة سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) تفقّه ببجاية والإسكندرية، ثمّ رحل إلى قابس، ثمّ انتقل إلى القاهرة فدرّس بالأزهر، ولّي نيابة القضاء بدمشق والقاهرة، كما تولّى تدريس فقه المالكيّة وكانت له مشاركة في عدّة علوم كثيرة منها ما هي في علم الحديث: "إكمال الإكمال" الّذي شرح فيه صحيح مسلم في اثني عشر مجلّدًا وجمع فيه أقوال المازري والقاضي عيّاض والنّووي.[١٣]

محمّد بن يحي الباهلي البجائي أبو عبد الله (ت. ٧٤٣هـ/١٣٢١م): فقيه مشهور تولّى قضاء بجاية، دخل مدينة فاس ولقي بها أبو الحسن الصّغير صاحب التّقييد على المدوّنة له قصيدة سماها "نظم فرائد الجواهر في معجزات سيّد الأوائل والأواخر" مطلعها:

نَبَذَتْ فَغَابَتْ وَاخْتَفَتْ فَتَجَلَّتْ   فَشَاهَدْتُهَا حَالِي حُضُورِي وَغَيْبَتِي[١٤]

عمران المشذّالي (ت. ٧٤٥هـ/١٣٤٥م): هو عمران بن موسى المشذّالي البجائي يكنّى بأبي موسى، ولد سنة (٦٧٠هـ/١٢٧٢م)، نشأ في بجاية ودرس على يد ناصر الدّين المشذالي وصاهره في ابنته، وأخذ عن غيره من علماء بجاية، حيث نبغ في الحديث، الفقه، الأصلين، النّحو، المنطق، الجدل، والفرائض.[١٥] فرّ من حصار بجاية إلى الجزائر، ثمّ انتقل إلى تلمسان إذ استقبله أبو تاشفين الزّياني أحسن استقبال، وأُسند إليه التّدريس في مدرسته التّاشفينيّة، ودرّس بها مختلف العلوم، حيث أخذ عنه ثلّة من العلماء أبرزهم: أبو عبد اللّه السّلاوي، سعيد العقباني، أبو عبد اللّه الشّريف والمقّري...[١٦] لم يكن عمران معتنيًا بالتّأليف، وإنّما كان متفرّغًا للتّدريس والفتوى، وله يرجع الفضل في إدخال مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع إلى تلمسان، حيث نقله عن

أستاذه أبي علي ناصر الدّين المشذّالي الّذي أتى به إلى بجاية وقرّره على طلّابه توفّي رحمه اللّه في تلمسان سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٥م).[١٧]

أحمد بن إدريس البجائي: يكنّى أبو العبّاس، فقيه مالكي كان من كبار العلماء ببجاية في وقته، وقد أطلق عليه فارس السّجّاد وهذا لكثرة صلاته. أخذ عنه العلم جماعة من العلماء أبرزهم أحمد بن زاغو، محمّد بن بلقاسم المشذّالي، وعبد الرّحمن الوغليسي. وقد ذكر ابن فرحون أنّه توفي بعد السّتين وسبعمائة (٧٦٠هـ/١٣٥٩م). ومن أبرز تآليفه: "شرح على ابن الحاجب". كما كان له تعليق على البيوع من مختصر ابن الحاجب.[١٨]

منصور الزّواوي (ت. بعد٧٧٠هـ/١٣٦٩م): هو منصور بن علي بن عبد اللّه الزّواوي يكنّى بأبي علي، ولد في بجاية سنة (٧١٠هـ/١٣١١م) وبها نشأ وأخذ العلم عن والده ومنصور المشذالي وابن المسفر، ثمّ انتقل إلى تلمسان ودرس بها على يد عبد المهيمن الحضرمي وأبي إسحاق بن أبي يحي الشّريف السّبتي، وأبي العبّاس بن يربوع.[١٩] ثمّ رحل إلى الأندلس سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م). وذكر ابن الخطيب أنّه أُستقبل استقبالاً حسنًا بها وفضّل الاستقرار في غرناطة مدرّسًا في مدرستها، وقد ألقى بها دروسًا في الفقه والتّفسير. كما باشر بهما الإفتاء لكنّه وجد مطابقة كادت أن تؤدّي إلى مهلكه فاضطرّ إلى مغادرة الأندلس سنة (٧٥٦هـ/١٣٦٥م)،[٢٠] ونزل في تلمسان واستقرّ يدرّس بها سنوات طويلة مختلف العلوم النّقليّة والعقليّة، إذ كان له إطّلاع في الأصول والمنطق والكلام، ومن أبرز تلاميذه نذكر منهم: إبراهيم الشّاطبي، محمّد بن أبي قاسم بن محمّد بن عبد الصّمد المشذّالي، يحي بن خلدون، لسان الدّين بن الخطيب، والمقرّي. ولقد أثنى على معارفه العالم الجليل قاسم القسنطيني قائلاً: "فقيه بجاية وخطيبها ومفتيها وصالحها ومحققّها وكان علّامته محقّقا نظارًا مقدامًا على أهل عصره في الفقه وغيره".[٢١]

عبد الرّحمن الوغليسي (ت.٧٨٦هـ/١٣٨١م): وهو عبد الرّحمن بن أحمد الوغليسي نسبة إلى وغليس الواقعة جنوب بجاية، ويكنّى أبو زيد، فقيه وعالم كان أصوليًّا ومفسّرًا. تلقّى تعليمه في بجاية على يد علماء أجلاّء منهم: أحمد بن إدريس البجائي، وأحمد بن عيسى بن سلامة، الّذي اشتغل خطيبًا في الجامع الكبير في بجاية، وكان يلتفّ حوله الطّلبة والعلماء من كلّ حدب وصوب. كما ألّف هذا الأخير العديد من الكتب منها: "المقدّمة الوغليسيّة"،[٢٢] وهي عبارة عن أحكام فقهيّة تعدّ بمثابة وثيقة تاريخيّة هامّة لمعرفة أوضاع العصر، وهو موجود في المكتبة الوطنيّة بالحامّة تحت رقم (٥٩٠).

إبراهيم بن فائد الزّواوي (ت.٨٥٧هـ/١٤٥٣م): وهو إبراهيم بن فائد بن موسى بن هلال الزّواوي، ولد في بجاية سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م)، حفظ القرآن الكريم تفقّه على العالم علي بن عثمان المنقلاتي، ثمّ رحل إلى تونس ودرس على الأُبّي والقلشاني والزّعبي والغَرياني. تصدّى للإقراء والتّدريس وكان من ضمن من درس عليهم ابن مرزوق الخطيب، ألّف عدّة كتب منها: كتاب في تفسير القرآن الكريم، كما كان له شرح على مختصر خليل في ثمان مجلدات سماه "تسهيل السبيل لمقتطف أزهار روض خليل" وشرحا آخر في مجلدين سماه "فيض النيل".[٢٣]

أبو الفضل المشذّالي (ت. ٨٦٥هـ/١٤٦١م): هو محمّد بن محمّد بن أبي القاسم المشذّالي يكنّى بأبي الفضل، ولد في بجاية (سنة٨٢١ أو٨٢٢هـ/١٤١٨-١٤١٩م)،[٢٤] وبها أخذ عن علمائها منهم والده وأبو عبد اللّه بن أبي رفاع وموسى بن إبراهيم الحسناوي...، ثمّ رحل إلى تلمسان سنة (٨٤٠هـ/١٤٣٨م) ودرس بها على يد ثلّة من العلماء منهم "ابن مرزوق الحفيد" التّفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والمنطق، والجدل، والفلسفة، والطّب، والهندسة، ثمّ أبو القاسم بن سعيد العقباني أخذ عنه الفقه وأصول الدّين، كما درس عن أبي الفضل بن الإمام التّفسير والحديث والطّب والهندسة. أمّا أبو العبّاس بن أحمد بن زاغو فأخذ عنه أصول الفقه والمعاني والبيان ودرس عليه مختصر ابن الحاجب، كما تتلمذ على أبو عبد اللّه بن النّجار القياس، وأخذ عن أبي يعقوب بن إسماعيل الحساب والفرائض، وأبو الحسن علي بن قاسم الحساب والطّبيب ابن فشوش الطّبّ.[٢٥] وقد استمرّت دراسته في تلمسان أربع سنوات بعدها عاد إلى بجاية حيث انتصب للتّدريس بها، ثمّ ارتحل إلى تونس فأقام بها مدّة بعدها انتقل إلى المشرق فحجّ سنة (٨٤٩هـ/١٤٤٥م)، بعدها توجّه إلى مصر ودرّس في جامع الأزهر عدّة فنون فبهر به الطّلبة، وكانت طريقته في التّدريس كما صوّرها السّخاوي كما يلي: "وهي أن يقرأ القارئ بين يديه ورقة أو أكثر، ثمّ يسرد ما تتضمّنه في تصوير المسائل ويستوفي كلام أهل المذهب إن كان فقهًا. وكلام الشّارحين إن كان غير ذلك، ثمّ يتبع ذلك بأبحاث تتعلّق بتلك المسائل، كلّ ذلك في أسلوب غريب ونمط عجيب بعبارة جزلة وطلاقة كأنّها السّيل...". ومن أبرز مؤلّفاته: "شرح على جمل الخونجي".[٢٦]

توفي أبو الفضل سنة٨٦٥هـ/١٤٦١م، ومن أبرز تلاميذه أحمد أبو عصيدة البجائي، حيث كتب هذا الأخير رسالة إلى أستاذه معبّرًا له عن شوقه وكتبها في "رسالة الغريب إلى الحبيب"، ومنها هذه الأبيات:

هَذِي مُرَاسَلَةِ العَبدِ الفَقِيرِ إلَى
كهْفِ الأَنَامِ وَفَخْرِ الوَقْتِ والسَّلَفِ
أَتَتْه تَنْشُر مَا قَدْ حَازَ مِنْ شِيَمِ
وَمِنْ جَلَالٍ وَمِن عزٍ وَمِنْ شَرَفِ
وَأنْ تَذْكُرَ أَيَّامًا بِهِ سَلَفَتْ
لِلَّهِ ما كَانَ أَحْلَاهَا لِمُعْتَرِفٍ[٢٧]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



أبو القاسم المشذّالي (ت. ٨٦٦هـ/١٤٦٠م): وهو محمّد بن أبي القاسم بن محمّد بن عبد الصّمد المشذّالي بفتح الميم وشدّ الذّال يعدّ من حفّاظ المذهب المالكي، أخذ عنه عن أبي القاسم المشذّالي صاحب عبد الرّحمن الوغليسي، الّذي قال عنه تلميذه المجاري: "وممّن قرأت عليه ببجاية الشّيخ الكبير النّظّار أبو القاسم المشذّالي....."، كما كان يضرب به المثل حيث يقال: "أتريد أن تكون مثل أبي عبد المشذّالي"، ومن آثاره: "تكملة حاشية الوانوغي على البراذعي".[٢٨]

سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي (ت.٨٧٧هـ/١٤٨٢م): يُكنّى بأبي الرّبيع، من فقهاء المالكيّة، برز في علم الأصول والحساب والمنطق والفرائض، أُكره على قضاء الجماعة في بجاية، فأقام به أكثر من سنتين، ثمّ أعرض عنه ولازم التّدريس. أخذ العلم عن عمّه أبو الحسن علي بن إبراهيم، ومحمّد بن بلقاسم المشذّالي وقد نعته الشّيخ زروق: "بالشّيخ الفقيه الإمام الصّدر العالم" وقال إنّه: "من صدور الإسلام في وقته علمًا وديانة". له تصانيف في الحساب والفرائض والمنطق.[٢٩]

خاتِمَةُ

من خلال ما سبق نستنتج؛ أن بجاية قد أسّست على أنقاض المدينة الرّومانيّة صالداي، وعلى يد النّاصر بن علناس الحمّادي (سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م)، وسميّت بـ "النّاصريّة"، لكن سرعان ما تلاشى هذا الاسم واتّخذت المدينة اسمها الحالي نسبة إلى قبيلة كانت تقطن بها، وفي عهد المنصور بن النّاصر استقلّ ببجاية عاصمة للدّولة الحمّاديّة، وضاهت بذلك عواصم ومدن المغرب وحتّى المشرق اقتصادًا وعلمًا. أمّا في العهد الحفصي عَرفت بجاية عدّة أحداث سياسيّة، حيث تعرّضت المدينة لتوسّعات من طرف الزّيانيين والّتي كلّلت محاولاتهم بالفشل ثمّ المرينين. وقد تميّز البجاويون بعنايتهم للثّقافة والعلم ورعايتهم للآداب والفنون وتقديرهم لأصحابها، حيث أغدق السّلاطين والأمراء عليهم بالمنح والعطايا وأدمجوهم في مجالسهم العلميّة، مما ساهم علماء بجاية في نشر المذهب المالكي في المنطقة.

الهَوامِشُ:

(١) إسماعيل العربي، **دولة بني حمّاد ملوك القلعة وبجاية**، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر١٩٨٠، ص ١٨٣.

(٢) **النّاصر بن علناس بن حمّاد (ت. ٤٨١هـ/١٠٨٨م):** خامس ملوك الدّولة الحماديّة، دامت فترة حكمه نحو ٢٧ سنة. يُنظر: ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج س كولان، ليفي بروفنسال،ج١، ط٣، دار الثّقافة، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٠١، عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر**، ط٢، مؤسسة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر، بيروت ١٩٨٠، ص٢٢٨.

(٣) هو أبو محمّد عبد الجبّار بن أبي بكر ابن حمديس الأزدي الصّقلي، ولد في سرقوسة سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٤م)، غادر بلاده والتحق ببلاط ابن عباد سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) ومدحه في الكثير من شعره، ولمّا نكب ابن عباد و نفي إلى أغمات لم يستطع ابن حمديس البقاء في الأندلس ولحق بالمعتمد في منفاه في المغرب ولازمه حتّى أدركته منيّته، ثمّ توجّه إلى المغرب منتقلاً بين بونة وبجاية. وأقام ابن حمديس في بلاط المنصور الحمّادي إلى أن توفي في بجاية سنة (٥٢٧هـ/١١٣٣م). يُنظر: إسماعيل بن العربي، **"عبد الجبّار بن حمديس الصقلي شاعر بني حمّاد"**، مجلّة الأصالة، العدد١٩، السّنة الرّابعة، الجزائر١٩٧٤، ص٣١٧ - ٣٢٦.

(٤) رشيد مصطفاوي، **"بجاية في عهد الحمّاديين"**، مجلة الأصالة، العدد الأوّل، السّنة الأولى، الجزائر١٩٧٤، ص٨٦.

(٥) ناصر الدّين سعيدوني، **"التّجربة الأندلسيّة في الجزائر: مدرسة بجاية ومكانتها في الحياة الثّقافيّة في المغرب الأوسط ٦-٧هـ/١٢-١٣م"**، السّجل العلمي لندوة الأندلس، القسم الثّالث، ط١، مكتبة الملك عبد العزيز العامّة، الرّياض١٩٩٦، ص٨٣.

(٦) يحي بن زكريا بن محجوبة القرشي يكنّى بأبي زكريا وهو الفقيه الوليّ الصّالح كان من المتعبّدين الزّهاد، رحل إلى المشرق وأخذ العلم عن علمائها له تأليف في شرح أسماء اللّه الحسنى كما له تقاييد في التّصوّف، توفي في بجاية في ذي القعدة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م). يُنظر: الغبريني، **عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية**، تحقيق بونار رابح، الطبعة الثّانيّة، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر١٩٨١، ص١١٩-١٢٠.

(٧) الغبريني، المصدر السّابق، ص١٢٠.

(٨) عبد الرّحمن بن خلدون، **التّعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا**، تعليق محمّد بن تاويت الطّنجي، الطّباعة الشّعبيّة للجيش، الجزائر٢٠٠٧، ص٩٧ - ٩٨.

(٩) عبد اللّه عنان، **"مدرسة بجاية الأندلسيّة وأثرها في إحياء العلوم في المغرب الأوسط"**، مجلّة الأصالة، العدد١٣، السّنة الثّالثة، الجزائر١٩٧٤، ص١٩٤- ١٩٥.

(١٠) المرجع نفسه، ص١٩٤.

(١١) يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة**، ج١، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت٢٠٠٤، ص٢٤٧ – ٢٤٨؛ عبد القادر بوعرفة الهلالي، **أعلام الفكر والتّصوّف في الجزائر ما قبل الميلاد إلى القرن السّادس عشر ميلادي**، ج١، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، الجزائر٢٠٠٤، ص٤٥.

(١٢) الغبريني، المصدر السّابق، ص١٠١؛ يحي بوعزيز، **"مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربيّة الإسلاميّة وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوربا"**، مجلّة الحضارة الإسلاميّة، يصدرها المعهد الوطني للتّعليم العالي للحضارة الإسلاميّة، وهران١٩٩٣، ص١٤.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

(١٣) ابن فرحون المالكي، **الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النّورج٢، ط٢، مكتبة دار التّراث، القاهرة ٢٠٠٥، ص٥٧ – ٥٨؛ محمّد الصّغير بن لعلام، "**أعلام من منطقة زواوة**"، مجلّة الدّراسات الإسلاميّة، العدد١٠، الجزائر٢٠٠٦، ص١٢٣.

(١٤) ابن القنفذ، **الوفيات**، تحقيق عادل نويهض ،مؤسّسة الوطنيّة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة، بيروت١٩٨٢، ص٣٤٩؛ التّنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، هامش على ديباج ابن فرحون**، الطبعة الأولى، مطبعة الفحّامين، القاهرة ١٣٥١هـ، ص٢٤٠؛ إبراهيم بلحسن، **العلاقات الثّقافيّة بين المغربين الأوسط والأدنى من القرن ٧ إلى ٩هـ/ ١٣-١٥م**، رسالة ماجستير، قسم الثّقافة الشّعبيّة، جامعة تلمسان ٢٠٠٥، ص١٥.

(١٥) التّنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٢١٥.

(١٦) عبد الحميد حاجيات، أبو حمّو موسى، ص٤٥؛ لخضر عبدلي، **الحياة الثّقافيّة**، المرجع السّابق، ص١٦٥.

(١٧) عبد الرّحمن بن خلدون، **المقدّمة**، ص٤٦٠.

(١٨) ابن فرحون، المصدر السّابق، ج١، ص٢٣٢ – ٢٣٣؛ التّنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص٧١.

(١٩) التّنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة مَنْ ليس في الدّيباج**، ج٢، ط١، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة ٢٠٠٤، ص٢٥٧.

(٢٠) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق عنان عبد اللّه، ج٣، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٤٧، ص٢٢٥.

(٢١) مختار حساني، **موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائريّة**، ج٤، دار الحكمة، الجزائر٢٠٠٧، ص٢١٩.

(٢٢) التّنبكتي، **كفاية المحتاج**، ج١، ص١٨٩-١٩٠؛ محمّد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السّلف**، ج١، مؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الجزائر١٩٩١، ص٢٧٧ - ٢٧٩؛ الطّاهر بونابي، "**أبو زيد عبد الرّحمن الوغليسي ت.٧٨٦هـ/١٣٨٤**"، حولية المؤرخ، العدد٥، الجزائر٢٠٠٥، ص١٠١ - ١١٦.

(٢٣) التنبكتي، **كفاية المحتاج**، ج١، ص١٠١؛ يحي، **أعلام الفكر**، ج١، ص٢٩٦؛ محمّد الحفناوي، المرجع السّابق، ج١، ص٢٤٧-٢٤٨؛ عادل نويهض، المرجع السّابق، ص١٦٠.

(٢٤) التّنبكتي، **كفاية المحتاج**، ج١، ص١٨٢ - ١٨٣.

(٢٥) شمس الدّين محمّد بن عبد الكريم السّخاوي، **الضّوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع**، ج٥، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت)، ص١٨٠ - ١٨١.

(٢٦) السّخاوي، المصدر السّابق، ج٥، ص١٨٣؛ مختار حساني، **موسوعة المدن**، ص٢٢١.

(٢٧) أحمد أبو عصيدة البجائي، **رسالة الغريب إلى الحبيب**، تعريف وتعليق سعد اللّه أبو القاسم، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت١٩٩٣، ص٤٢.

(٢٨) المجاري، **برنامج المجاري**، تحقيق أبو الأجفان محمّد، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢، ص١٣٧ - ١٣٨، التنبكتي، **نيل الابتهاج**،ص ٣١٩.

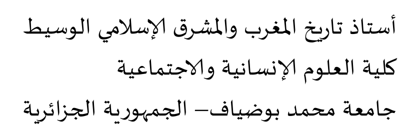
(٢٩) التّنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص١٢١؛ عادل نويهض، المرجع السّابق، ص٣٥.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449





تراجم أبرز علماء مدينــة قلعــة بني حمــاد



عبد الغني حروز

أستاذ تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي الوسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد بوضياف– الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الغني حروز، تراجم أبرز علماء مدينة قلعة بني حماد.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٢٣ – ١٢٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يُعزي الازدهار الثقافي والحضاري الذي عرفته الدولة الحمادية (٣٩٧هـ/١٠٠٧م) إلى الجهود الأولى التي قام بها علماء مدينة قلعة بني حماد في المغرب الأوسط نذكر منهم: علي بن معصوم القلعي، وإبراهيم بن حماد أبو إسحاق القلعي، وأحمد بن محمد بن أحمد المسيلي، وعلي بن أبي بكر القلعي... وغيرهم. وتسلط صفحات المقال الضوء على تراجم هؤلاء العلماء الذين أسهموا أيما إسهام في النهضة الفكرية التي عرفتها مدينة القلعة خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي وما بعده، إلى جانب علماء آخرين وفدوا عليها من بيئات مختلفة، بالإضافة إلى مجهودات العلماء القلعيين، حيث شجع موقع المدينة الجغرافي وظروفها على تلاقح الأفكار وثرائها. كما نشير إلى أن مدينة القلعة ظلت خزانًا للعلماء والفقهاء، رغم تراجع دورها السياسي فيما بعد، ولقد تحكم هؤلاء العلماء الذين أشرنا إليهم في علوم عصرهم، وساهموا في بثها بين أجيال من الطلبة والمتعلمين، أثروا باجتهاداتهم من خلال مؤلفاتهم. ولم يكن هؤلاء العلماء بمعزل عن مجتمعهم، بل ساهموا في تطويره وخدمته، ومن خلال الوظائف التي شغلوها، والمهام التي أوكلت لهم.

مُقَدِّمَةٌ

سجلت المصادر التاريخية تراجم مجموعة من العلماء، تبحروا في مختلف العلوم منهم مَنْ ولد في القلعة[١] وتلقى علومه بها، ومنهم مَنْ قصدها من أجل التحصيل العلمي وانتهى به المطاف إلى الاستقرار، ومنهم مَنْ نشأ بها ودرس فيها ورحل إلى مناطق أخرى، إما نشرًا للعلم أو لتلقي المزيد من العلم، أو هربًا من بطش الغزاة الهلاليين مثل ما حدث لغيرها من مراكز الحضارية في الشرق، فقرب أمراء بني حماد هؤلاء العلماء وقلدوهم مناصب رفيعة تتلاءم ومكانتهم العلمية.[٢]

أبرز علماء قلعة بني حماد

علي بن معصوم القلعي:

يُعرف بأبي ذر ولد في قلعة بني حماد سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) نشأ وتعلم بها، ثم رحل إلى بلاد المشرق واستوطن العراق وتفقه على يد الفرنج الخريني،[٣] ثم انتقل إلى خراسان،[٤] وكان إمامًا فاضلاً من كبار فقهاء الشافعية عالمًا بالمذهب، وبحرًا في الحساب، توفي في سفراين[٥] شهر شعبان سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)، أو (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). وذكر له المستشرق الشهير روزنفلد (Rosenfeld)، وماتيفيا فسكايا كتاب بعنوان "حاشية على درة التاج"، وهو عبارة عن مخطوط موجود في طهران، وذلك الجزء الخاص بالعلماء الذين تجهل فترات حياتهم من كتابه الهام علماء الرياضيات والفلك في القرون الوسطى وأعمالهم من القرن الثامن إلى القرن السابع عشر الميلاديين.[٦]

إبراهيم بن حماد أبو إسحاق القلعي:

وهو فقيه مالكي من أهل القلعة بني حماد، وقد ورد ذكره في كتاب التكملة لابن الأبار عاش في القرن السادس هجري الثاني عشر الميلادي.

أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي:

نشأ في المسيلة،(٧) حيث تلقى تعليمه الأولي، ثم سافر إلى تونس ودرس بها عن ابن عرفة، وأبي عيسى الغبريني. كانت له اهتمامات كثيرة بالعلوم النقلية كالفقه والتفسير.(٨)

علي بن أبي بكر القلعي:

هو محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي أبو عبد الله، لا يعرف تاريخ ميلاده، لكنه توفي سنة (٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، أو سنة ١٢٦٦م، وهو فقيه مالكي عالم بالفرائض، والحساب علمًا وعملاً سبق فيه الأوائل، نشأ في مدينة قلعة بني حماد واشتغل في بجاية، حيث أقام إلى أن توفي، له طريقة في الفرائض ملخصة في كتاب "نهاية القرب"، ولعله يُنسب إليه لأن البعض يقول أنه لم يترك آثار مكتوبة. وقد ذكر الغبريني أنه كان له علم بالحساب سبق فيه الأوائل لو لقيه الحصار ابن وهيب وغيرهما ما أمكنهم إلا الأخذ عنه والاستماع منه، ولم يكن في بجاية في وقته أحد يريد قراءة هذا العلم إلا قرأه عليه، وكان يقصد من البلاد لقراءة هذا العلم عليه، حيث كان له مجلس يقرأ عليه فيه التهذيب، وكان أحد العدول المرضيين، وكان من موثقي الوقت.(٩)

حسن بن علي بن محمد المسيلي أبو علي:

يعود أصله إلى مدينة المسيلة، رحل إلى مدينة بجاية وتوفي بها سنة (٥٨٠هـ/١١٨٥م)، كان فقيهًا مالكيًا، حافظًا ومتكلمًا، تولى القضاء في بجاية إلى أن دخلها بنو غانية سنة ٥٨١هـ واحتلوها وأكرهوه على مبايعتهم، فرفض واعتزل القضاء، واهتم بالتدريس في مساجدها. ترك مؤلفات كثيرة ذكرها الغبريني وعلق عليها منها: "التذكرة في أصول الدين"، "النبراس في الرد على منكر القياس"، و"التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات"، وهو كتاب اتبع فيه منهج أبي حامد الغزالي في كتابه الإحياء في طريق عرض القضايا وتحليلها حتى لُقب بأبي حامد الصغير، وقد قال فيه الغبريني: "وكلامه فيه أحسن من كلام أبي حامد وأسلم، ودل كلامه فيه على إحاطته بعلم المعقول والمنقول، وعلم الظاهر والباطن، ومَنْ تأمل كلامه أدرك ذلك بالعلم اليقين، ولم يفتقر فيه إلى تبيين، وهو كثير الوجود بين أيدي الناس، وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وإيثارهم له".(١٠)

وكان أبو علي حسن من أهل النسك والدين، حيث كان يأتي إلى الجامع الأعظم في الثلث الأخير من الليل للتهجد. ويذكر الغبريني: "أن الفقيه أبا علي المسيلي، عرض له في ولايته مرض اقتضى أن يستنيب مَنْ ينوب عنه في الأحكام الشرعية، فاستناب حفيده، وكان له نبل فتحاكمت عنده يومًا امرأتان ادعت إحداهما على الأخرى إنها اعارتها حليًا، وإنها لم تعده إليها، وأجابتها الأخرى بالإنكار، فشدد على المنكرة وأوهمها حتى اعترفت، وأعادت الحلي إليها. وكان من سيرته إذا انفصل عن مجلس الحكم يدخل لجده أبي علي، ويعرض عليه ما يليق عرضه من المسائل، فدخل عليه فرحًا، وعرض عليه هذه المسألة فاشتد نكير الفقيه رحمه الله وجعل يعتب نفسه وقال له: إنما قال النبي (ﷺ) "البينة على المدعي واليمين على مَنْ أنكر".(١١)

محمد القلعي:

هو محمد بن الحسين بن علي بن أبي علي القلعي، لا يُعرف تاريخ ولادته لكنه توفي سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)، له مؤلف بعنوان "إيضاح الغوامض في علم الفرائض"، كما ذكره الخزرجي بأنه أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي القلعي وأنه فقيهًا عالمًا كبيرًا عاملاً له مصنفات كثيرة مشهورة أنتفع بها الناس منها:

- قواعد المهذب: ذكره الأسنوي له في الاحترزات المهذب ومشهور مستعذب.
- إيضاح الغوامض في علم الفرائض: وهو مجلدات جيدات جمع فيه بين مذهب الشافعي وغيره، وأورد فيه طرفًا من الجبر والمقابلة والوصايا.
- احتراز المذهب.
- لطائف الأنوار في فضل الصحابة الأبرار.
- كنز الحافظ في غرائب الألفاظ: يعني ألفاظ المهذب.
- تهذيب الرياسة في ترتيب السياسة.
- أحكام القضاة.(١٢)

يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل المعروف بالنحوي المتوفي سنة (٥١٣هـ):

ابن النحوي، توزري الأصل، عكف على طلب العلم في صغره في افريقية حتى نبغ فيه. قال ابن الآبار عنه: "إنه أخذ صحيح البخاري عن اللخمي، ويحكى أنه لما لقيه طالب علم سأله: ما جاء بك؟ فقال له: جئت لأنسخ تأليف "التبصرة" فقال له: إنما تريد أن تحملني في كفك إلى المغرب، أو كلامًا هذا معناه"، وقد أشار بذلك إلى أن عمله كله في هذا الكتاب، وأخذ أيضًا عنده أعلام ذلك العصر كالمازري صاحب الصيت البعيد، وأبي زكريا الشقراطسي، وعبد الجليل الربعي، وكان أبو الفضل بن النحوي عارفًا بأصول الدين والفقه وأحد أعلام القرآن العاملين بحلاله وحرامه، ويميل إلى النظر والاجتهاد، وقد ترك تأليف حسنة. أخذ عنه جماعة من علماء ذلك العصر، أشهرهم: أبو عمران موسى ابن حماد الصنهاجي الذي كان معجبًا به كثيرًا حتى قال عنه: "إنه في بلادنا بمنزلة الغزالي في العلم والعمل".

وقد امتاز ابن النحوي عن كثير من معاصريه بالأسفار الكثيرة التي قام بها في أنحاء المغرب، وعاصر الدولة الحمادية بالقلعة

وبجاية،[١٣] والزيرية بالمهدية،[١٤] والمرابطية في مراكش، ودخل سلجماسة وأقرأ بها الأصلين: أصول الدين وأصول الفقه، فتضايق منه أحد رؤساء البلد، وهو ابن بسام، فقال: هذا يريد أن يدخل علينا علومًا لا نعرفها، يعني بذلك أبحاث العقائد على طريقة الغزالي، فأمر بإخراجه من المسجد، فقال له أبو الفضل: أمتَّ العلم أماتك الله هنا، فجلس في اليوم الثاني لعقد نكاح سحرًا، فقتله جماعة من صنهاجة. ثم أنتقل إلى فاس وانتصب بها للإقراء والتعليم فضايقه قاضيها ابن دبوس، فدعا عليه، فأصابته أكلة في رأسه فوصلت إلى حلقه فمات منها، وفي صبيحة يوم وفاته خرج أبو الفضل من فاس وجاء ولد ابن دبوس لتوديعه، فقال له الشيخ: "أرجع لتحضر جنازة والدك"، فرجع فوجده ميتًا، وكان خروج الشيخ من فاس حوالي سنة ٤٩٤هـ.[١٥]

كان أبو الفضل متأثرًا كثيرًا بالغزالي في أبحاثه في العقائد والتصوُّف وغيرهما، ولذلك كان ينتصر له ويبث كتبه أينما حل، ولما أفتى فقهاء الأندلس كابن حمدين ومَنْ شايعه من علماء المغرب بإحراق الأحياء للغزالي وأحرق في صحن مراكش وغيرها.[١٦] ووصل كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧هـ) وفيه تحليف الناس بمغلظ الإيمان، أن ليس عندهم كتاب الأحياء انتصر الشيخ للغزالي وأحيائه، وكتب إلى السلطان برأيه، وأفتى بعدم لزوم تلك الإيمان، ونسخ الأحياء ثلاثين جزءًا، يقوم كل يوم في رمضان بنسخ جزء منها وهو يقول: (وَدَدْتُ أَنَّي لَمْ أَنْظُرْ فِي عُمْرِي سِوَاهُ)، وهكذا كان موقفه من الأحياء نصرًا كبيرًا له ولمبادئ الغزالي عامة.

عاد أبو الفضل بعد أسفاره في المغرب إلى قلعة بني حماد، وأخذ نفسه فيها بالتقشف ولبس الصوف، وقصّر جبتّه حتى كانت لا تزيد عن ركبتيه. ومرّ يومًا بالفقيه أبي عبد الله بن عصمة المفتي فلم يسلّم عليه لانشغال خاطره، فعظم عليه ذلك، فلما رجع ناداه محقرًا: "يا يوسف، فجاءه ثم قال له: يا توزري، سفرت وجهك، ورققت ساقيك وسرت تمرّ ولا تسلّم"؛ فأعتذر له فلم يقبل عذره وأغلظ له، فقال له أبو الفضل: "غفر الله لك يا فقيه، يا أبا محمد"، ثم انصرف مغضبًا عنه. ولما استقر به المقام في قلعة بني حماد، أخذ في التدريس والإقراء، وأفاد أهلها كثيرًا، وتخرج على يديه جماعة من أعلام القرن السادس في هذه الفترة التي استقر بها في القلعة، فمنهم القاضي أبو عمران موسى الصنهاجي السابق الذكر، ومنهم أبو عبد الله محمد الرمامي الفقيه رئيس الإفتاء بفاس، ومنهم الفقيهان أبو بكر بن مخلوف بن خلف الله، ومحمد ابن مخلوف بن خلف الله وغيرهم.

لقد ضرب أبو الفضل المثل في تقواه وزهده، فكان شديد الخوف من الله، دائم الاستحضار لجلاله، كثير الورع، لا يقبل من أحد شيئًا إنما يأكل ما يأتيه من توزر، وقد كان لتشدده في تعبده وزهده يقول:

أَصْبَحْتُ فِيمَنْ لَهُمْ دِينٌ بلاَ أَدبٍ
ومَنْ لَهُ أَدَبٌ عَارٍ مِنَ الدِّينِ
أَصْبَحْتُ فِيهِمْ غَرِيبَ الشَّكْلِ مُنْفَرِدًا
كَبَيْتِ حسَّانَ فِي دِيوَانِ سَحْنُون

ويعني ببيت حسان قوله:

وهان على سراة بني لؤيٍّ
حريقٌ بالبُوَيرَةِ مستطيرُ[١٧]

ومن أدعيته الإنشادية التي كان يقرأها ليدفع بها كربًا أو شِدّة قوله:

لبستُ ثوب الرجاء والناس قد رقدوا وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجِدُ

وقلت يا سيدي يا منتهى أملي
يا مَن عليه بكشف الضرّ اعتمد
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها
مالي على حَملها صبرٌ ولا جَلَد
وقد مددتُ يدي للضرِّ مشتكيًا
إليك يا خيرَ مَن مُدّة إليه يَد

أجاد ابن النحوي قرض الشعر، كما أجاد علوم الدين والفقه والكلام وغيرها، وقد برع في نوع منه وقلّده فيه مَنْ أتى بعده وهو شعر التوسُّلات والابتهالات. وأشهر القصائد التي وصلتنا عنه قصيدة جيمية دُعيت بالمنفرجة، من انفراج الأزمة، وقد نالت من معاصريه وممَنْ أتى بعدهم عناية كبيرة، كما نالته قصيدة شيخه الشقراطسي التي دُعيت بالشقراطسية. وعاش ابن النحوي درسًا متعبِّدًا بقلعة بني حماد أكثر من ثلاث عشر سنة، كانت عاملاً قويًا على ازدهار الدراسات الفقهية والكلامية على عهد الموحدين، وتوفي كما يقول أبو العباس النقاوسي في القلعة سنة ٥١٣هـ وقبره بها مشهور.[١٨] وينتهي أبو الفضل المعروف بابن النحوي إلى الفكر الجديد الذي سينفتح، ويرجع ذلك إلى صوفيته لمبدأ الغزالي، وسوف يثأر له في المستقبل، فضريحه يقام على القلعة التي خربت عن آخرها.[١٩]

محمد بن محمد بن أبي بكر المصور القلعي أبو عبد الله:

فقيه مالكي من أهل قلعة بني حماد، أخد عن مشيخة بلاده ثم انتقل إلى بجاية واستوطنها إلى أن توفي نحو (٦٦٥هـ/١٢٧٠م).

المعافري:

هو أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري، أبو العباس، نشأ في قلعة بني حماد ودرس فيها عن أبيه في نهاية القرن السادس الهجري، وعلى يد الأستاذين أبو الحسن علي بن محمد بن عثمان التميمي، وأبو الحسن علي بن الشكر بن عمر القلعي، وأخذ أيضًا عن الخطيب المقري النحوي أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد المعروف بابن عفراء، والفقيه الفاضل الزاهد أبي عبد الله

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

محمد بن المعطي المعروف بابن الرماح وغيرهم. اهتم بالفقه وعلم القراءات، وعلوم اللغة، ثم انتقل إلى بجاية واستوطنها، فأخذ العلم فيها عن أبي زكرياء الزواوي، حيث ولي الخطابة بجامع القصبة، وأقرأ بها واشتهر بحسن التلاوة حتى إذا كانت ليلة السابع والعشرون من رمضان امتلأ المسجد بالمصلين لسماعه، ومكث بها إلى أن وافته المنية بها، له مختصر كتاب التسيير في القراءات السبع لأبي عمرو وعثمان ابن سعيد الداني.[٢٠]

ابن رشيق القيرواني:

هو الحسن بن رشيق أبو علي الشهير بالقيرواني، لُقب بهذا الاسم لطول مكوثه في القيروان، ولد في المسيلة سنة (٣٨٥هـ/٩٩٥م)، اهتم بالأدب والتاريخ فدرسها عن علماء بلده ثم رحل على القيروان، حيث لازم كبار علمائها وأخذ عنهم العلم، مدح أميرها المعز فقربه إليه وجعله كاتبًا فذاع صيته في القيروان إلى أن غزا الهلاليون افريقية، فلجأ إلى صقلية وأقام بها إلى أن توفي سنة (٤٦٣هـ/١٠٧١م). وقد خلف مجموعة من الكتب منها:

- العمدة في صناعة الشعر ونقده.
- أنموذج الزمان في شعراء القيروان.
- قراضة الذهب في نقد أشعار العرب.
- ميزان العمل في تاريخ الدول.
- تاريخ القيروان.

وكلها كتب جمع فيها بين التاريخ والآداب.

الأصم:

هو محمد بن عبد الله بن زكريا أبو عبد الله القلعي الشهير بالأصم، شاعر من أهل قلعة بني حماد، ورد ذكره في بعض المصادر التاريخية، وأثنت على شعره، سافر إلى بلاد المشرق وانتهى به المطاف في مدينتي الإسكندرية والقاهرة، ومكث بهما مدة زمنية غير أنه لم ينل المكانة التي ينشدها لدرجة بلغت به عجزه عن تحصيل قوت يومه، فقفل راجعًا وفي طريقه مر بقوم يدعون بني الأشقر من بلاد طرابلس الغرب فامتدحهم بقصيدة جميلة فأحسنوا إليه وأجزلوا له العطاء، ثم سكتت المصادر عن ذكره بعد ذلك.[٢١]

خاتِمَةٌ

وخلاصة القول؛ أن قلعة بني حماد تمكنت من أن تتبوأ مكانة كبيرة، حيث أصبحت تضاهي بها عواصم الفكر والثقافة مشرقًا ومغربًا، بحيث صارت مركزًا علميًا هامًا آنذاك، بفضل جهود هؤلاء العلماء الذين اعتلوا منابر المساجد والكتاتيب والزوايا والمكتبات، هذه المراكز ودور العلم غذت العقول، وأنتجت العلوم، وأثمرت عددًا لا بأس به من العلماء القلعيين. وقد صاحب تمركز العلماء في القلعة إنتاج علمي وفير من خلال ما خلفه وأنتجه علماؤها، أو العلماء الذين وفدوا إليها واستقروا بها، من علوم نقلية وعقلية سابقوا ونافسوا بها غيرهم من علماء المغرب والمشرق. وقد اشتهر وعُرفَ في القلعة جمع كبير من العلماء، والأدباء، والشعراء، والرياضيين، كان لهم الفضل في رقي الحضارة الحمادية في القلعة أولاً، ثم في بجاية ثانيًا بعد انتقال العاصمة إليها.

الهَوامِشُ:

(١) بُنيت قلعة بني حماد أو قلعة أبي الطويل في سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) على منحدر وعر، على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على مسافة (٣٦ كلم) من المسيلة. حاليًا تقع قلعة بني حماد شمال شرق مدينة المسيلة. انظر: أحمد أبو عبد الرزاق: **الأدب في عصر دولة بني حماد**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩م، ص٦٦.

(٢) **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ٩٥ - ٩٦.

(٣) ذكره الحنبلي هكذا، لكن الأصح بن عبد الله أبو الروح، أنظر: الأسنوي: **طبقات الشافعية**، ج١، كمال يوسف الحوت مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٨٧م، ص ٤٣٤.

(٤) **خراسان**: منطقة واسعة تشمل على كور عظام وأعمال جسام، يحدها شرقًا سجستان وبلد الهند، انظر: ابن حوقل أبي القاسم النصيبي: **كتاب صورة الأرض**، ليدن، هولندا ١٩٣٩م، ص ٢٢٦ – ٢٥٨.

(٥) **سفراين**: هي مدينة كبيرة فيها أسواق ومياه جارية في أخر عمل نيسابور من خراسان، وبينهما خمس مراحل وقيل إثنان وثلاثون فرسخًا أي حوالي (١٣٠كلم)، وهي مشهورة بكثرة العلماء المنسوبين إليها، راجع: عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص٢٩١.

(٦) محمد قويسم: **علماء الرياضيات في مدينة قلعة بني حماد**، الملتقى الدولي، مدينة قلعة بني حماد ١٠٠٠ سنة من التأسيس، أيام ٩، ١٠، ١١ أبريل، قسم التاريخ - جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٣.

(٧) وهي من مدن المغرب الأوسط، يرجع تأسيسها إلى أوائل القرن العاشر الميلادي، وبالضبط (٣١٥هـ/٩٢٧م)، انظر: **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط**، ص ٧٤ – ٧٥.

(٨) نفسه، ص٩٦.

(٩) محمد قويسم: **علماء الرياضيات في مدينة قلعة بني حماد**، ص ٣ - ٤.

(١٠) **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط**، ص٩٦.

(١١) أبو العباس أحمد الغبريني: **عنوان الدراية في مَنْ عُرفَ من العلماء في المائة السابعة لبجاية**، تحقيق رابح بونار، ط١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر١٩٨١م، ص ٦٦، ٧٠.

(١٢) محمد قويسم: **علماء الرياضيات في مدينة قلعة بني حماد**، ص ٤ - ٥.

(١٣) **بجاية**: تقع على ساحل البحر المتوسط، وهي من أهم مدن المغرب الأوسط، يقول الإدريسي: "مدينة بجاية في وقتنا هذا هي مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد"، وكانت عاصمة لدولة بني حماد الصنهاجية، واشتهرت بنشاطها الاقتصادي، فيذكر الإدريسي أن أهلها مياسير تجار وبها الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، كما أن لها بوادي ومزارع تتوفر فيها المحاصيل الزراعية والفاكهة؛ أنظر: أبو عبد الله الشريف الإدريسي: **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٦، ص ٩٦؛ كمال السيد أبو مصطفى: **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، ١٩٩٩، ص٢٥.

(١٤) **المهدية**: (٣٠٣/٣٠٨هـ) مدينة جليلة بناها عبيد الله بشبه جزيرة جمة بين سوسة وصفاقس، ولما أتم بنائها أطلق عليها اسم المهدية، ونقل إليها حكومته سنة ٣٠٨هـ، واتخذها عاصمةً لدولته، وقد وصفها الأديب التيجاني في رحلته بالقرن السابع الهجري فقال: "المهدية مدينة جليل قدرها، شهير في قواعد الإسلام ذكرها، وهي من بناء عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين. رابح بونار: **المغرب العربي تاريخه وثقافته**، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٣٠.

(١٥) رابح بونار: المرجع السابق، ص١٨٦.

(١٦) نفسه، ص١٨٦.

(١٧) رابح بونار: المرجع السابق، ص١٨٦، ١٨٧.

(١٨) نفسه، ص ١٨٧، ١٨٨.

(١٩) جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٢٢٠.

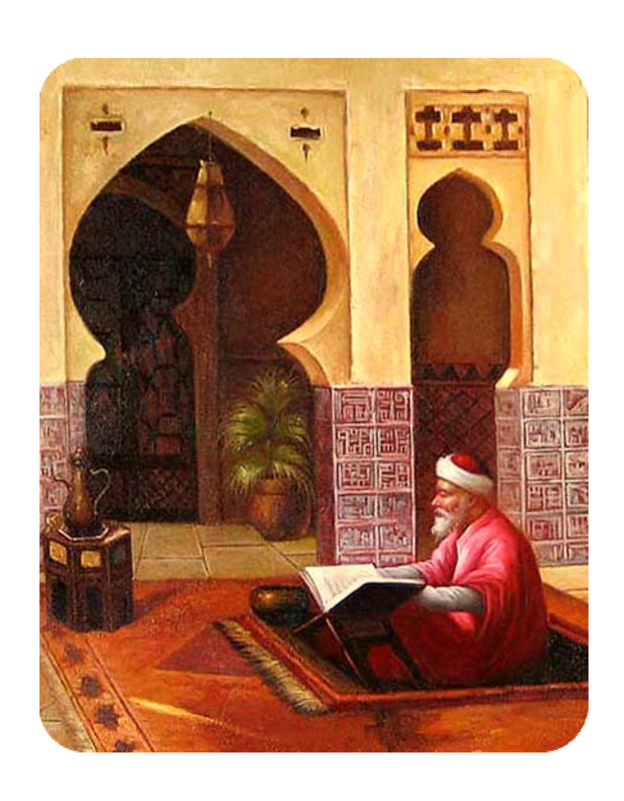
(٢٠) **الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط**، ص٩٧.

(٢١) المرجع نفسه، ص٩٧.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449





الكافيجي
مؤرخ أهمله التأريخ

يسري عبد الغني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية الإسلامية
خبير التراث الثقافي
القاهرة – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يسري عبد الغني عبد الله، الكافيجي: مؤرخ أهمله التأريخ.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٢٨ – ١٣٣.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

قبل أن تلقي هذه المقالة بعض الأضواء الكاشفة على شخصية العلامة الموسوعي الكافيجي، ذلك الرجل الذي أهمله التاريخ، تحاول المقالة أن تحلل الأسباب التي أدت إلى زيادة الزخم التاريخي أو فلنقل الكتابة التاريخية في القرن الثالث الهجري حيث أصبح علم التأريخ علمًا مستقلاً له أصوله واتجاهاته. الكافيجي الذي ولد ٧٨٨ هـ وتوفى ٨٧٩ هـ (تقريبًا) مؤرخ لم يأخذ حظه من الدرس والتمحيص والتحليل لدى من تصدى ويتصدى لعلم التأريخ، فالرجل كان له دوره البارز والواضح في صياغة المنهج التأريخي، رغم كل ما قد يوجه إليه من نقد. عرف الباحث بالرجل، ومكان مولده، واستعان بعدد من المؤرخين ليعرفونا به، مثل: الزركلي والسيوطي والسخاوي، ثم تحدثنا ملقين الضوء التحليلي قدر الإمكان على كتابه المهم (المختصر في علم التأريخ) الذي قام روزنشال بترجمته والتعليق عليه. وعقد الباحث مقارنة بين منهج الكافيجي، ومنهج غيره من المؤرخين الذين عاصروه أو الذين جاءوا من بعده أو قبله، وبالذات العلامة ابن خلدون، مؤكدًا على أن أفكار الكافيجي مازالت قابلة للتداول، وقد كان لها أكبر الأثر على كتابات العديد من المؤرخين ومناهجهم ونخص منهم بالذكر السخاوي مؤرخ القرن التاسع الهجري.

مُقَدِّمَةُ

مع أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وعندما ازدادت التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية، وبخاصةً دواوين: الإنشاء والجند والخراج والبريد، أمكن للمشتغلين بعلم التأريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات قيمة، لذلك يلاحظ القارئ والدارس أن كتابات تواريخ القرن الثالث الهجري احتوت على: عهود رسمية، ومراسلات سياسية، وإحصاءات للمواليد والوفيات، ومعلومات وافية عن كبار رجال الدولة من: الوزراء، والقادة، وعمال الولايات، نضيف إلى ذلك ما شاهده ذلك العصر من حراك علمي كبير تمثل في نشاط حركة الترجمة عن اللغات: الفارسية، والسريانية، واليونانية، واللاتينية، وغيرها من اللغات.

كما أن سهولة الانتقال في أرجاء الدولة الإسلامية دفعت الكثير من أهل العلم وطلابه، والمؤرخين، والأدباء، إلى الرحلة في طلب العلوم والمعارف، وكذلك طلب الرواية، ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها، لهذا كانت مصادر التاريخ عند العرب في القرن الثالث الهجري أربعة هي:

أ . كتب السيرة والأخبار.

ب . السجلات الرسمية للدولة.

ج . المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية.

د . المشاهدة والمشافهة.

وعندما كثرت المادة التاريخية - كما أسلفنا- اتجه الكثير من العلماء وثقات الفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه، ومن ثَمَّ أخذ التأريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم الحضارة العربية الإسلامية، بل وأعظمها شأنًا وفقًا لما أجمع عليه أهل الرأي والفكر والنظر، وارتفع شأن المؤرخين بين علماء الثقافة العربية والإسلامية في كافة أنحاء المعمورة.(١) ومنذ القرن الثالث الهجري عندما أصبح علم التأريخ علمًا مستقلاً له أصوله وقواعده، وجدنا اتجاهات معينة لكتب التأريخ،(٢) وبدأنا نطالع مؤلفات لأعلام تعد من مصادر وأمهات كتب التاريخ:

- كتاب: فتوح مصر والمغرب/ لعبد الرحمن بن الحكم، (ت. سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١م).
- كتاب: القضاة/ للكندي (أبو عمر)، (ت. سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م).
- كتاب: تاريخ بغداد وأعلامها/ للخطيب البغدادي، (ت. سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م).
- كتاب: تاريخ دمشق/ لابن عساكر، المتوفى سنة ٥٧١ هـ
- كتاب: البيان المغرب في أخبار المغرب/ لابن عذارى، (ت. في القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي).
- كتاب: تجارب الأمم/ لابن مسكويه، (ت. ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م).
- كتاب: الكامل في التاريخ/ لابن الأثير، (ت. ٦٢٠ هـ/ ١٠٢٣٣م).
- كتاب: المختصر في أخبار البشر (يقع في ٤ أجزاء)/ لأبي الفداء، (ت. ٧٣٢ هـ/ ١٢٣١م).
- كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر/ للمسعودي، (ت. سنة ٣٤٦ هـ/ ٩٥٦م).
- كتاب: جامع التواريخ/ لرشيد الدين فضل الله الهمذاني، (ت. سنة ٧١٨ هـ/١٣١٨م).
- كتاب: المقدمة / لابن خلدون، (ت. سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م).
- كتاب: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وكتاب: عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، وكتاب: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، وكتاب: السلوك لمعرفة دولة الملوك/ للمقريزي، (ت. سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م).
- كتاب: أنباء الغمر في أبناء العمر/ لابن حجر العسقلاني، (ت. سنة ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م).
- كتاب: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان/ لأحمد العيني، (ت. سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م).
- كتاب: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وكتاب: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور/ لأبي المحاسن بن تغري بردي، (ت. سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م).
- كتاب: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان/ لابن الصيرفي، (ت. سنة ٩٠٠ هـ/ ٢٤٤٩ م).
- كتاب: التبر المسبوك في ذيل السلوك، وكتاب: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ/ للسخاوي، (ت. سنة ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧م).
- كتاب: بدائع الزهور في وقائع الدهور/ لأحمد بن إياس، (عاش ومات في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي).

وغير ذلك من أمهات الكتب التاريخية التي غدت غذاءً لا مناص منه لأهل التأريخ والفكر والأدب، وهذه القائمة التي ذكرناها من الأعمال والأعلام، والتي قد تصل بنا إلى القرن الخامس عشر الهجري، تخلو. بكل أسف من مؤرخ على درجة كبيرة من الأهمية، مؤرخ أهمله التأريخ !!، إنه الكافيجي!!

ولا نكون على درجة من المبالغة إذا زعمنا أن الكافيجي مؤرخ لم يأخذ حظه من الدرس والتحليل لدى مَنْ يتصدى للتأريخ، ويكتب في التاريخ، فالرجل له دور كبير وبارز، رغم ما قد نلمحه من سلب أو إيجاب في منهج التأريخ الخاص به، فإنه يستحق البحث والدرس والتمحيص.(٣)

الكافيجي

يُعلل الزركلي سبب تسميته بـ "الكافيجي" لكثرة اشتغاله بالكافية في علم النحو، أي أن الرجل وهب جل حياته لشرح ودرس وتدريس الكافية في النحو. اسمه بالكامل: محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي، أصله من منطقة تسمى (كوك جاكي) في الأناضول التركية، ولد الرجل على حد روايته في سنة ٧٨٨ هـ، وتوفي سنة ٨٧٩ هـ ، أي أنه توفى وعمره يناهز الـ ٩١ عامًا، وقد يكون في روايته عن تاريخ مولده بعض المبالغة. يعود الزركلي ليرجع تاريخ مولده إلى سنة ٧٨٨ هـ، ووفاته إلى سنة ٨٧٩هـ،(٤) أي أنه يردد نفس كلام الكافيجي، بينما يقول لنا جلال الدين السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) أن الكافيجي ولد قبل سنة ٨٠٠ هـ وتوفي سنة ٨٧٩ هـ، بينما يقول صاحب (الفوائد البهية): أن وفاة الكافيجي كانت سنة ٨٧٣ هـ

أما السخاوي، فهو يردد في كتابه (الضوء اللامع)، ما يظهر لنا من طريقة حديثه أن الرجل كان يعمل معلمًا شعبيًا على حد تعبير (فرانز روز نشال)، وهذا ما يؤكده لنا كل من ذكر الكافيجي ضمن تراجم رجال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وهناك قصيدة كتبها الشهاب المنصوري في رثاء الكافيجي، والمعروفة لنا باسم (الجيمية) ليتأكد لنا دور الرجل كمعلم شعبي، بالإضافة إلى كونه مؤلفًا وباحثًا.

الجدير بالذكر: أن للكافيجي **عدة مؤلفات** يتواجد معظمها كمخطوطات في دار الكتب المصرية، غير أن معظمها قصير (رسائل) أو ناقص، ولم ينشر منها حتى الآن شيء يذكر، إلا أن أشهرها على الإطلاق كتاب: (المختصر في علم التأريخ)، وهنا لا ننسى الجهد المشكور الذي قام به العلامة/ فرانز روز نشال، في كتابه المهم المعنون بـ (علم التاريخ عند المسلمين)، والذي ترجم فيه كتاب الكافيجي أو فلنقل الجزء الأكبر منه، ترجمه إلى اللغة الإنجليزية، رغم أن (فرانز) ألماني الجنسية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن كتاب (فرانز) قام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور/ صالح أحمد العلي

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(عراقي الجنسية)، وراجعه الأستاذ/ محمد توفيق حسين (عراقي الجنسية)، وصدر سنة ١٩٦٣م.[٥]

ونعرف من مخطوطة كتاب (المختصر للكافيجي) أنه كُتب حوالي سنة ٨٦٧ هـ، وبالرغم من حداثة تاريخه نسبيًا، فإنه يُعد من أقدم الرسائل الإسلامية المعروفة لدى الباحثين عن التاريخ كعلم وكنظرية، في تاريخنا العربي والإسلامي. وقد يقول قائل إننا من الممكن أن نجد عن هذا الموضوع بعض الرسائل أو الكتيبات أقدم تاريخًا من مختصر الكافيجي، ونحن نحترم وجهة نظر القائل في ذلك، ولكنها - أي هذه الرسائل والكتيبات- لم تخرج للنور حتى وقتنا هذا، وإن كنا نشك أساسًا في وجود رسائل أو مؤلفات تعالج التأريخ كعلم أو كنظرية.

وعلى الفور يعترض معترض على كلامنا، ويسأل في دهشة واستنكار: وأين ابن خلدون وجهده المعروف في مقدمته الخالدة ؟! الحق يقال: أن ابن خلدون في مقدمته اعتبر في عرف العلماء وأهل الدرس التاريخي كاتبًا لكتاب مستقل، بمعنى: أن مقدمة ابن خلدون تعد كتابًا مستقلاً في حياة ابن خلدون، والذي أطلق على موضوع الكتاب الأول منها علمًا مستقلاً، ومع هذا فقد أريد بالمقدمة الخلدونية أن تكون مقدمة لتأريخ عظيم، وكانت تبحث في التاريخ كتاريخ وكفلسفة، ولا تبحث في كتابة التاريخ إلا بصورة غير مباشرة، نقول ذلك ونحن نجل ونبجل ونحترم كل جهود العلامة عبد الرحمن بن خلدون.

مما لا شك فيه؛ أن ابن خلدون كان صاحب فكر عقلاني نقّاذ ومعرفة موسوعية متفردة في عهد برز فيه الانحطاط الفكري في العالم الإسلامي، وقل فيه المبدعون، وكثر الاجترار والتقليد في أدبيات المعاصرين. لذا فإن آراء معظم معاصريه وبعض الذين تتلمذوا على يديهم كانت ناقدة ورافضة لآرائه وأفكاره التجديدية، ويكمن مبعث هذا الرفض والإعراض في أن إفهام بعض هؤلاء قد عجزت عن إدراك عظمة المقدمة، فانتقضوها وانتقضوا صاحبها معها، ولم يستفيدوا منها فائدة تذكر.[٦]

ويرجع بعض الباحثين هذا الإعراض الفكري إلى طبيعة **إسهامات ابن خلدون** التي وصفت بالنزعة العقلانية والعلمية المتطرفة التي تكاد تخلو من التعابير والمصطلحات العربية الإسلامية، ولا تضع العلم في الإطار القرآني المعروف في ذلك العصر. ونذكر من جملة هؤلاء الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي يعتبر مقدمة ابن خلدون بمثابة ترف فكري، لا تمتاز بغير البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية، وأن محاسنها قليلة، غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يري حسنًا ما ليس بحسن.[٧]

ويبدو أن هذا الرأي كان يمثل رأي السواد الأعظم من مؤرخي ذلك العصر، فمثلاً نجد أن محي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (٧٨٨ - ٨٧٩هـ) رفيقنا في هذه السطور وصاحب "المختصر في علم التاريخ" لم يشر إشارة واضحة إلى أدبيات ابن خلدون، التي بموجبها أطلق مؤرخو القرن التاسع عشر الميلادي على ابن خلدون لقب "مؤسس علم التاريخ". ففي المختصر اكتفى الكافيجي بالحديث عن الخصائص العامة لعلم التاريخ، وتوضيح أغراضه وأهدافه وفوائده، ثم إظهار علاقته بالعلوم الشرعية الأخرى. ثم عرف علم التاريخ بأنه "علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته". ولبلوغ هذه الغاية اشترط أن تكون أهلية الراوي والمؤلف قائمة على "العقل والضبط والإسلام والعدالة". ومن هذه الزاوية يمكننا القول؛ بأن الكافيجي قد رجع بمنهج البحث التاريخي الذي اختطه ابن خلدون خطوة إلى الوراء، لأنه حصر آليات تقويم المصادر التاريخية في منهج الجرح والتعديل الذي يعوّل على الجوانب الخلقية المرتبطة بالإسناد الخبري دون الوقوف بدرجة معقولة عند الدلالات التاريخية التي تسهم في صياغة الحدث التاريخي وشكلياته.

وعلى ضوء هذه المعايير الخلقية في توثيق **الوقائع التاريخية**، حصر الكافيجي حركة المؤرخ من ناحية ثبوت الخبر التاريخي في خمسة وجوه: فالوجه الأول أعلاها مقامًا وهو وجه "الحضور والعيان" الذي يكون المؤرخ فيه شاهدًا على الوقائع التاريخية. وفي أدبيات الفيلسوف الألماني هيجل يطلق على هذا الوجه مصطلح "التاريخ الأصلي"، بحجة أن المؤرخ يروي فيه الأحداث بلسان حال العصر الذي تشكلت فيه وعقلية المؤرخ الذي عاصرها.

والوجه الثاني هو "اعتبار العلم واليقين" المرتبط بدرجة التثبت من صدق الخبر التاريخي بالنسبة للمؤرخ الذي لم يكن معاصرًا للحدث التاريخي على وجه "الحضور والعيان". ويقوم الوجه الثالث على مفهوم "غلبة الظن" وذلك في حالة تعذر الحصول على الخبر المتواتر أو المشهور ثم الاعتماد على الخبر الوارد على رواية الآحاد. ونلحظ أيضًا أن الكافيجي يقر مبدأ "ترجيح أحد الروايات المتعارضة" كوجه رابع، لأنه يعتقد أن هذا المبدأ يفتح باب البحث للوصول إلى أكثر الروايات ثقة. والوجه الخامس والأخير هو الوجه الذي يطلق عليه الكافيجي "اعتبار وجه غير الوجوه الأربعة السابقة"، وفي هذا المقام نجده يفضل السكوت عن الإفصاح بالخبر المشكوك فيه متعللاً بقول الرسول (ﷺ) "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك".[٨]

فهذه القواعد الخمس -التي أشرنا إليها- كما يرى صاحب المختصر يجب أن يعمل بها في ضبط الحوادث التاريخية المرتبطة بفعل الإنسان، وتقاس عليها الحوادث التابعة لها والناتجة عرضًا بفعل الحيوان، والنبات، والمعدن، و"سائر أنواع الكائنات من أرضيات وسماويات وما عداهما". وهذه الوجوه الخمسة تمثل القواعد الأساسية التي تستند إليها "أصول علم التاريخ" عند الكافيجي باعتبارها المنهج الذي يتم عن طريقه التمييز بين الأخبار والوقوف على مدى صحتها.

وإذا نظرنا إجمالاً إلى **منهج البحث التاريخي** عند الكافيجي وجدناه اقصر قامةً من المنهج الذي أخطته ابن خلدون متجاوزًا به أدبيات علم الحديث. وتجاهل صاحب المختصر لإسهامات ابن

خلدون يدفعنا إلى القول بأن الكافيجي كان من جملة المعارضين لأفكاره التجديدية.(٩)

أما كتاب شمس الدين السخاوي "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ" فقد جاء بتفصيلات وافية لمفردات مختصر الكافيجي، وقدم عرضًا موضوعيًا للتطور الذي أحرزته الكتابات التاريخية ومناهج البحث التاريخي في التراث الإسلامي. ومن خلال استعراضه لأنماط الكتابات التاريخية استطاع السخاوي أن يبين طبيعة العلاقة الجدلية المتبادلة بين نمو المعرفة التاريخية وتطور مناهج البحث التاريخي، ويقدم في نفس الوقت مرافعة أدبية رائعة ضد الذين أرادوا النّيل من علم التاريخ وتحقير المؤرخين. وفي هذه المرافعة استطاع أن يؤكد ما ذكره ابن خلدون والكافيجي بأن علم التاريخ "فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، وأن موضوعه "الإنسان والزمان، ومسائله وأحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان"، وأن يوثق لإسهامات بعض المؤرخين من أمثال الطبري والمسعودي والبيروني، ويشيد بدورهم الرائد في تراكم المعرفة التاريخية وتطوير أنماط الكتابة وتثقيف منهج البحث التاريخي الذي تجلّت معالمه في أدبيات ابن خلدون ومن ساروا على نهجه.

لقد حاول الكافيجي في العصر الذي عاشه (عصر الموسوعات والمؤلفات الضخمة) أن يكتب مختصره كي يظهر في المقام الأول اهتمامه لمعالجة نظرية للتأريخ دون غيرها من الأمور، وعليه يمكن القول ولأول وهلة: إن رجلنا لم يحالفه التوفيق إلى حد كبير فالنصف الثاني من الصفحات العشرين من المخطوطة والمحفوظة بقسم المخطوطات في دار الكتب المصرية مليء بالقصص، التي تحتاج إلى فحص وتمحيص، وهذه القصص يهدف منها الكافيجي كمؤرخ أن يوضح لنا أمورًا نظرية بحتة، وهو في هذا مثله مثل معظم مؤرخي هذه الحقبة، وفي الواقع أن معظم هذه الروايات القصصية مجرد أمور خيالية أو عادية، مجرد حكايات بعضها متداول لدينا وبعضها مبالغ فيه بشكل لا يتفق مع العقل والمنطق، أو حتى مع ما قرأناه في الكتب السماوية المطهرة مثل حديثه عن الأنبياء والرسل والملائكة (عليهم سلام الله).

حكايات الكافيجي تنتهي إلى آخر كتابه حيث يعطينا بعض المعلومات التاريخية، وإذا كان النصف الثاني من المختصر مليئًا بمادة مستهلكة أو لا قيمة لها من وجهة نظر التمحيص العلمي، فإن القسم الأول من الكتاب يعوض لنا تمامًا نقائص القسم الثاني.

كتاب (**المختصر في علم التأريخ**) أو (مختصر علم التأريخ)، هو أشهر كتب الكافيجي الجديرة بالاعتبار وذلك لأصالة طريقته، وجودة كتابته، وهو يتبع النظام المألوف في التعريف العلمي يرجع به إلى الفلسفة الأرسطو طاليسية، ولعله يذكرنا على الفور بكتب المقريزي (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، والمعروف لنا باسم (خطط المقريزي)، التي يبدأ صفحاتها هو الآخر بثمان مسائل أرسطو طاليسية، ولعلنا نكون على صواب إذا قلنا أن مصدر الإلهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث الفقهي في الدراسات الإسلامية، تلك الطريقة التي إذا نميناها وطورناها في عصرنا الراهن لبعدنا كل البعد عما نحن فيه من تخلف وجهل وخرافة وخزعبلات.

نقول: لقد أجاب الكافيجي في مختصره عن بعض المسائل المتعلقة بعلم التأريخ من حيث: خصائصه، وأغراضه، وأهدافه، وفوائده، غير أنه كرس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة (تأريخ) العربية، وعن مركز علم التأريخ في العلوم والدراسات العربية والإسلامية. ولم يكن الكافيجي مؤرخًا محترفًا بمعنى الكلمة التي نعرفها في أيامنا هذه، ولا يبدو أنه كان مهتمًا بمسألة الاحترافية هذه، فهو لا ينشد اهتمامًا بحتًا بهذا العلم، ولكن ذلك لا يقلل البتة من محاولته التنظيرية في هذا الميدان.

والواقع أن للكافيجي كتاب آخر، ذكره بعض رجال الاستشراق، وهذا الكتاب يبدو أنه قد اهتم فيه بالمشاكل التاريخية البحتة، ونعني به كتاب (**النصر القاهر والفتح الظاهر**)، ولم أتمكن . بكل أسف . وبعد بحث مرهق من العثور على مخطوطة هذا الكتاب في خزائن دار الكتب المصرية، أو في مكتبة الأزهر الشريف، أو مكتبة معهد المخطوطات العربية. لقد كان صاحبنا يعتبر في زمانه ريحانة معرفة، ثقة في العلوم العقلية، وإن كان ذلك لا ينفي امتلاكه عمقًا معرفيًا في العلوم الدينية، وعلى رأسها علوم القرآن الكريم، والأحاديث النبوية المطهرة، والفقه.. وغيرها، ولعل معارفه العقلية كانت شغله الشاغل الذي حرص على إظهاره، والاعتراف به، وإفادة الناس بها.

ولابد من الاعتراف العلمي الصريح في هذا المجال أن أفكار الكافيجي عن علم التاريخ كما نستشفها من مختصره، كان لها الأثر الأكبر على **كتابات السخاوي** (المؤرخ المشاكس)، صاحب (التبر المسبوك في ذيل السلوك)، و(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)، فلولا كتاب (المختصر في علم التأريخ) للكافيجي، لما كان بالإمكان ظهور كتاب (الإعلان بالتوبيخ) للسخاوي، فإن المسائل التاريخية، وطريقة عرضها في كلا الكتابين متفقة تمامًا، ولا يوجد مبرر لأي محاولة افتراضية تدعي وجود مصدر مشترك لهما، غير أنه قد يكون من الخطأ ذم السخاوي لعدم تقديره المناسب لكتاب الكافيجي وجهده العلمي المتميز، فالسخاوي (حزب معارضة دائم) لكل شيء ولأي شيء، لسابقيه ولمعاصريه، ويمكن القول بحيدة وعقلانية في هذا الصدد: أن السخاوي كان يحاول أن يملك زمام نفسه، يحاول أن يعطي حلولاً جديدة للمسائل التي أثارها غيره، سواء أكان الكافيجي أم سواه.

كان السخاوي واضحًا في عرض مسائله كلها، بينما كان عرض الكافيجي شديد الإيجاز، ونظرة عابرة على عناوين مؤلفات الرجلين تؤكد لنا ما ذكرناه، ولا ننكر أن السخاوي -رغم ثرثرته الكثيرة- قد ملأ فراغًا كبيرًا لنواحي علم التاريخ في العلوم الإسلامية، وعليه فإن هذا الرجل يستحق منا دراسة مطولة لو كان في العمر بقية، رغم أنني قد كتبت عنه دراستين من قبل في كتابي: معجم المؤرخين

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ١٩٩١م، و مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ٢٠٠٠م.

ويبدو أن شيخنا الكافيجي، كان سيء الحظ، فإبداعه العلمي لم توازه موهبة أو ملكة أدبية مواتية في فن التعبير الأدبي، فكل ما يقوله من ملاحظات تبدو وكأنها رؤوس أقلام (على حد تعبير الأخوة في العراق الشقيق)، محاضرات القيت على مجموعة من طلاب الفقه، مع ملاحظة أن الاصطلاحات الفنية التي كانت شائعة في عصر الكافيجي الموسوعي، هي اصطلاحات فقهية بحتة.

وإذا حاولنا استشفاف المعنى المضبوط لنص (المختصر في علم التاريخ)، يبقى في بعض الأحيان غامضًا بالنسبة لنا، وهذا يرجع -في رؤيتنا الخاصة- إلى أن الرجل عالم، ولا ضرر ولا ضرار أن تخون العالم قدرات التعبير الواضح عن نفسه، غير أن أفكاره تبدو هي الأخرى غامضة !!، ولعل علة ذلك أن هذه الأفكار لم تأخذ حظها من النضج والاستواء في ذهن عالم موسوعي مثل الكافيجي.

أعود بك إلى مخطوطة (**المختصر في علم التأريخ**)، وهي مرجعنا في الحديث عن علم التأريخ في فكر الكافيجي، حيث أجدها قد كتبت بعد ثمانية أيام فقط لا غير من تاريخ انتهاء مؤلفها من كتابتها في سنة ٨٦٧ هـ، ويبدو أن أجدادنا (رحمة الله عليهم أجمعين) كانوا لا يعانون من أزمة نشر، أو من غلاء دائم في خامات الطباعة، كما هو الحال في أيامنا الصعبة هذه.[١٠]

ونقلب في مخطوطة الكافيجي لنعثر على اسم ناسخ المختصر، إنه تلميذه البار علي بن داود الجوهري المؤرخ، الذي ولد سنة ٨١٩ هـ، وتوفي سنة ٩٠٠ هـ، وحدثنا عنه ابن إياس في الجزء الثاني من كتابه المشهور (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، كما حدثنا عنه العلامة كارل بروكلمان في تاريخه، إلا أنه –وكالمعتاد– نجد السخاوي يجعل من هذا الرجل شخصية رديئة جدًا، دون أدنى مناسبة !! ؟؟

في مكتبة معهد المخطوطات العربية في القاهرة، نجد صورة فوتوغرافية لكتاب (المختصر) للكافيجي، وهي طبق الأصل لصورتين متواجدتين في مكتبة (آيا صوفيا) التركية، هذه المخطوطة نسخت في يوم الخميس الموافق ٢٣ من شهر شعبان لسنة..؟، لم أتمكن من قراءة السنة أو بقية الكتابة، ولعلها تكون نفس السنة التي تم فيها تأليف المختصر، غير أن يوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٨٦٧ هـ يوافق ١٣ من شهر مايو سنة ١٤٦٣م يصادف يوم جمعة !! ؟؟

كما نلاحظ؛ أن النسخة المخطوطة التي كتبها الجوهري كتبها لاستعماله الخاص، وهذا يتضح من خطها الرديء جدًا، والذي يصعب قراءته. أما النسختان المتواجدتان في تركيا فكاتبهما تلميذ آخر للكافيجي، يدعى "يحيى بن محمد الدمسيسي"، والذي ولد سنة ٨٢٣ هـ، وكان هو الآخر مثل علي بن داود الجوهري مؤرخًا وتلميذًا ودودًا للكافيجي، والشيء المثير للدهشة أن الدمسيسي ظل على علاقة وطيدة وقوية بالسخاوي، بعكس الجوهري، وعندما كتب السخاوي كتابه (الضوء اللامع) وبالتحديد الجزء الأول، كان الدمسيسي حيًا يرزق، فحظى بقسط وافر من مديح السخاوي، وعلى غير العادة السخاوية المعروفة!! ويتضح من نسخة الدمسيسي أنها نسخت أو كتبت للنشر (للبيع)، ولذلك كتبت بخط واضح، خط جيد ومقروء، والكتابة الرديئة في نسخة الجواهري لا تعني جودة النص، فالنص مفكك ومكتظ بالأخطاء الإملائية واللغوية والأسلوبية، عكس نسخة الدمسيسي.

والجدير بالذكر هنا؛ أن نؤكد على أن حديثنا عن الكافيجي هذا لا يغني عن دراسة عميقة لهذا الرجل، دراسة علمية تظهر دوره الموسوعي، وإضافاته المفيدة في العلوم العقلية والنقلية.

السيوطي يتكلم عن محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي، ومحيي الدين، أبو عبد الله الكافيجي، ويمتدح أستاذيته في كتابه (حسن المحاضرة)، ذاكرًا أنه لازمه لمدة ١٤ عامًا، وتلقى العلم في حلقته واصفًا إياه بالمحقق، وعلامة الدنيا، أو علامة الوقت، وأستاذ الدنيا في المعقولات، وأنه توفى سنة ٨٧٩ هـ.

لقد تلقى الكافيجي علومه على يد البرهان حيدرة، والشمس بن العتري، وغيرهم من جهابذة العلم في تلك الفترة التي عاشها وتقدم في فنون المعقول، حتى صار إمام الدنيا، وصاحب التصانيف العديدة. وجميع أعمال الكافيجي (ما عدا القليل جدًا) مازالت مخطوطة، لم ترى النور حتى الآن، وها نحن نقدمها لأهل الدرس والتحقيق، لعلها تجد مَنْ يتناولها، ويعرف بها الأجيال المتعطشة لمعرفة تراث الأجداد الجاد المفيد. وإليك بعض عناوين **مؤلفات الكافيجي**:

(١) مختصر في علم التأريخ.
(٢) أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة.
(٣) منازل الأرواح.
(٤) معراج الطبقات.
(٥) قرار الوجد في شرح الحمد.
(٦) نزهة المغرب (في علم النحو).
(٧) التيسير في قواعد التفسير.
(٨) حل الأشكال (في علم الهندسة).
(٩) الإحكام في معرفة الإيمان والأحكام.
(١٠) الإلماع بإفادة (لو) الامتناع.
(١١) جواب في تفسير: {والنجم إذا هوى ..}.
(١٢) مختصر في علم الإرشاد.
(١٣) شرح كتاب ابن هشام في النحو.

خاتِمَةٌ

كانت وفاة الكافيجي ليلة الجمعة، الموافق الرابع من جمادى الأولى، سنة ٨٧٩ هـ، أي بعد عامين فقط من سقوط الأندلس، وقد رثاه الشاعر المشهور على أيامه "الشهاب المنصور"، بأبيات مطلعها:

بكت على الشيخ محيي الدين كافيجي
عيوننا بدموع من دم المهج
كان أسارير هذا الدهر من درر
تزهي فبدل ذاك الدر بالسح.

رحم الله الكافيجي وجزاه خيرًا عما قدم للعلم والمعرفة

الهَوامِشُ:

(١) سيد الناصري وحسين ربيع، **دراسات في علم التاريخ ومناهجه**، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٢٥ – ١٣٤. (باختصار من عندنا)

(٢) علي أدهم، **تأريخ التاريخ**، سلسلة كتابك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٢ – ١٥.

(٣) يسري عبد الغني عبد الله، **مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٦١ وما بعدها.

(٤) الزركلي، **موسوعة الأعلام**، مادة: الكافيجي، حرف الكاف، طبعة بيروتية، ١٩٩٠.

(٥) فرانز روز نشال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح العلي، مراجعة: محمد توفيق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٦٣، الجزء الخاص بكتاب الكافيجي: المختصر في علم التاريخ.

(٦) سالم أحمد محل، **المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب**، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٦٠، قطر، الفصل الثاني، نشأة التدوين التاريخي والمنظور الحضاري.

(٧) أحمد إبراهيم أبو شوك، **علم التاريخ: إشكالات المنهجية ومشروعية الأسلمة**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، العدد رقم ٢٤، ص ٤ .٧.

(٨) يسري عبد الغني عبد الله، **الكافيجي مؤرخًا**، مقالة نشرت في مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، عدد رجب، ١٤٠٥ هـ، ص ٦١ – ٦٥.

(٩) ناظم مهنا، **التاريخ والرواية التاريخية**، صحيفة تشرين السورية، عددها الصادر في ١٨ مارس ٢٠١٢ .

(١٠) وبالطبع أنا لا أتحدث عن النشر عن طريق الإنترنت الذي يسمح لكل مَنْ هب ودب على وجه البسيطة أن يقول أي شيء وكل شيء، دون أي ضابط أو رابط، أو مراعاة لأصول وقواعد النشر العلمي المحترم، اللهم إلا بعض الاستثناءات النادرة جدًا مثل مجلتنا الجادة المتميزة التي تكرمت بنشر هذه السطور (دورية كان التاريخية).

الفتح العثماني لمصر ١٥١٧م
وبداية الحرب العالمية للقرن السادس عشر

ترجمة وتعليق



أحمد سالم سالم علي

مفتش آثار إسلامية

المجلس الأعلى للآثار

الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

Andrew C. Hess

The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth-Century World War, International Journal of Middle East Studies, Vol. 4, No. 1 (Jan., 1973), pp. 55 - 76.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أندرو هس، الفتح العثماني لمصر ١٥١٧م وبداية الحرب العالمية للقرن السادس عشر/ ترجمة وتعليق: أحمد سالم سالم علي.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٣٤ – ١٤٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

إن التغيرات الكبرى في العلاقات بين القوى العظمى خلال القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر تدلل مرة أخرى على أهمية تلك الأرض التي شهدت كل العصور، ألا وهي مصر.[١] إن الدارسين للاكتشافات البحرية الغربية أدركوا أهمية موقع مصر في الخطط الإمبريالية للبرتغال أثناء توسعها في المحيط الهندي بعد سنة ١٤٨٨م. ولكن عندما حاولت البرتغال السيطرة على تجارة البحر الأحمر والخليج الفارسي، أحضرت التاريخ المصري بقوة داخل محيط الاهتمام العلمي الأوروبي، ولم يكن الفتح المتزامن للإمبراطورية المملوكية من قبل العثمانيين سنة ١٥١٧م، ليؤثر على كتابة تاريخ العالم الغربي. لم يدفع الاستيلاء على سوريا ومصر وبلاد العرب العثمانيين فقط إلى موقع القيادة داخل المجتمع الإسلامي الكبير، ولكنه أيضًا أعطى الموارد الكافية لنظام استانبول لتحقيق مشروع قوتها في الشمال حتى الوصول إلى أبواب فيينا وفي الغرب حتى مضيق جبل طارق. ولنا أن نتساءل هل لمسافة هذا الفتح أن تلعب دورًا أكثر نشاطًا في تاريخ أوروبا أكثر من أي وقت مضى؟ من الواضح أن الجواب على هذا السؤال ينطوي على عقد المقارنة بين تاريخ الإمبريالية الأوروبية والشرق الأوسط خلال عصر النهضة. إلا أن اتخاذ الخطوات اللازمة لكسر التقسيمات التاريخية المصطنعة يمنع عقد هذه المقارنة، فليس هناك من شك في أن انتصار سليم الشرس على الإمبراطورية المملوكية كان حدثًا كبيرًا في تاريخ كل من أوروبا والشرق الأوسط.[٢]

(١) ترجع أهمية هذا المقال إلى تناوله الفتح العثماني للشام ومصر، وأهميته على الصعيد العالمي من منظور شامل لا يقف عند الحدود الشرق أوسطية، ولم يقف كاتبه عند الملابسات التي أحاطت بالفتح، كما فعل الكثيرون، وإنما تناول الكثير من الأحداث العالمية التي ربما قادت إلى هذا الفتح، أو ترتبت عليه في وقت لاحق. أما عن كاتب هذا المقال فهو أندرو هس Andrew C. Hess، أستاذ الدبلوماسية، والذي عمل مدرساً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بعد حصوله على الدكتوراه في التاريخ ودراسات الشرق الأوسط من جامعة هارفارد Harvard عام ١٩٦٦م، ثم عمل أستاذاً مساعداً في التاريخ بجامعة تيمبل Temple بين عامي ١٩٦٧ – ١٩٧٨م، ثم شغل مناصب تنفيذية بشركة البترول العربية الأمريكية في الظهران بالسعودية بين عامي ١٩٧٨ – ١٩٨٤م، ومنذ عام ١٩٨٤م عمل أستاذاً للدبلوماسية ومديراً لبرنامج غرب آسيا والحضارة الإسلامية في كلية فليتشر Fletcher School. انظر نص المقال:

Andrew C. Hess, *The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth-Century World War*, International Journal of Middle East Studies, Vol. 4, No. 1 (Jan., 1973), pp. 55-76.

(٢) الكتاب الغربيون الذين أدركوا أهمية الفتح العثماني لمصر:

Fernand Braudel, *La Mediterranee et le monde mediterraneena l'e'poqued e Philippe II*, 2nd ed. (2 vols., Paris, 1966), vol. ii, pp. 16-18; and Vitorino de Magalhaes Godinho, *'A viragem mundial de 1517-1524 eo o imperio portugues'*, in Ensaios Sobre Historia de Portugal (2 vols., Lisbon, 1968), vol. II, pp. 141-53. The arguments contained herein owe much to the scholarly exchange that took place at the University of Washington conference on 'Islam in the Later Middle Ages', 19 - 21 June I970.

إن الطريقة التي اقترب بها الباحثون الأوروبيون من التاريخ العثماني قد أثرت بشكل كبير على الصورة الموروثة التي تَظهر في الدراسات المتعلقة بآسيا وأوروبا، خلال التوسع المتزامن لكل من الدول الأوروبية والدولة العثمانية في عصر النهضة. وبالنسبة للكثير من المؤلفين الغربيين، كان مطلع القرن السادس عشر هو الفترة التي نَقلت فيها رحلات المحيطات مركز النشاط السياسي في العالم من السهوب الأوراسية إلى شواطئ المحيط الأطلسي.(٣) بناءً على هذا التوجه، سعى الكتاب الغربيون إلى توضيح تفرد وأهمية الملاحة الأيبيرية عن طريق المقارنة بين الإنجازات واسعة النطاق للرحلات الأوروبية والخمول الواضح للمجتمع الآسيوي. وبالتالي، لماذا أصبح فشل المجتمعات الآسيوية في الرد على التغيير الحادث في العلاقات المتبادلة بين العالم الغربي والشرق بعد سنة ١٥٠٠م، موضوعًا قياسيًا أدى إلى دراسات خاصة حول كيفية عدم تطوير المجتمعات الآسيوية لمؤسسات مماثلة لتلك التي في الغرب بدلاً من منح المجتمعات الشرقية ترابطها.(٤) وفي نفس الوقت، أُنتجت مؤلفات هائلة للكتاب الغربيين عن تأثير استكشاف المحيطات على جميع أنحاء العالم. رغم ذلك، انخفض بشكل طبيعي وزن هذا الجهد للتجربة متعددة الثقافات على الجانب الأوروبي، وبالتالي صرف الانتباه بعيدًا عن التاريخ الداخلي لأوراسيا.(٥)

عن غير قصد، عزز عمل المستشرقين بتاريخ الشرق الأوسط في الفترة المبكرة من التاريخ الحديث، الطريقة التي تصور بها المؤرخون التاريخ العثماني. فقد كانت فترة التاريخ العثماني هي الأقل تقدمًا من بين عصور التاريخ الإسلامي. ونتيجة لذلك فإن الحجج التي لا ترتكز على قاعدة واسعة من المصادر التركية فيما يتعلق بالطابع المتخلف للتاريخ العثماني خلال عصر النهضة تثير القليل من الاستجابة.(٦) وفي الآونة الأخيرة فقط، بدأ العثمانيون في إنتاج قدر كبير من دراسات التاريخ الحديث، إلا أن ذلك حدث على نطاق واسع في القرن التاسع عشر. وعلاوة على ذلك، إذا قمنا بعقد المقارنة بين عمل الكتاب الغربيين الذين قادتهم مخاوفهم للتعليق على تاريخ الشرق الأوسط خلال عصر النهضة، وبين دراسات المستشرقين لنفس تلك الفترة، نجد أنه نادرًا ما يتعامل هذان الفريقان من الباحثين مع مشاكل أو مسائل مماثلة، هذا فضلاً عن أنهما لا يتحدثان إلى نفس الجماهير. ونتيجة كل هذا هو أن صورة آسيا غير الفعالة في القرن السادس عشر، وبالتالي الدولة العثمانية، هيمنت على جزء كبير من المؤلفات التاريخية في العالم.

عندما نعقد المقارنة بين التاريخ العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وبين العرض الحالي لتاريخ الشرق الأوسط عشية الرحلات الأوروبية للمحيطات، لا نجد فقط دولة آسيوية نشطة جدًا في الواقع، ولكن نجد أيضًا صعود الغرب المتزامن مع صعود دولة إسلامية أثرت على أوروبا وتأثرت هي الأخرى بالثقافة الغربية إلى حد كبير. ولبيان الصدام بين وجهة النظر الأوروبية للتاريخ السلبي لآسيا، وبين حقيقة التأثير الإسلامي التركي على الغرب، يجب طرح سؤالاً حول درجة وتوزيع القوة الإمبريالية بين الدول المحيطة بالبحر المتوسط خلال عصر استكشاف المحيطات. منذ ذلك الحين، في مطلع القرن السادس عشر، يكون التاريخ العثماني الغير مدروس نسبيًا حكمًا على قوة هذه الإمبراطورية فيما يتعلق بالدول الإسلامية والأوروبية على السواء، والذي يقطع شوطًا طويلاً نحو رسم صورة أكثر صحة لتاريخ القرن السادس عشر. بمجرد تطبيق المعلومات الجديدة بناءً هذا التوجه لعصر الاكتشافات، لا يظهر لنا انتقال السيطرة على العالم إلى شواطئ المحيط الأطلسي، ولكن عن طريق الدول المطلة على البحر المتوسط، والتي تكشف عن حركتين إمبرياليتين عظيمتين، واحدة أوروبية والأخرى تركو إسلامية، يتم التأكيد مرة أخرى على أهمية دور مصر في تاريخ العالم.

يشير عدد الحروب التي وقعت داخل حدودها أو بالقرب منها، إلى أن مصر كانت دومًا هدفًا للسيطرة الإمبريالية من قبل آخرين، بسبب موقعها الجيوستراتيجي (geostrategic) وقدرتها على الإنتاج في فترة ما قبل العصر الحديث، هذا فضلاً عن فائض الحبوب الكبير من الحقول الغنية ذات القيمة الكبيرة على طول النيل. من ناحية أخرى سهلت الموانع الطبيعية والقدرة على تعبئة الجيوش الكبيرة الدفاع عن مصر، وسمحت من وقت لآخر بتكوين إمبراطورية مصرية، كما حدث في القرن الثالث عشر عندما أنشأ العبيد من الأتراك الدولة المملوكية. ولكن في القرن الخامس عشر

---

(٣) أفضل تعبير عن وجهة النظر هذه في:

Arnold J. Toynbee, *Civilization on Trial* (New York, 1948), pp. 62-96

(٤) دراسة ردة الفعل الآسيوية على ثورة المحيطات من وجهة النظر الغربية تم تغطيتها في مجموعة المقالات التالية التي نشرت تحت رئاسة تحرير Leften Stavrianos:

The Muslim World on the Eve of Europe's Expansion, ed. John J. Saunders (Englewood Cliffs, New Jersey, 1966); *European Expansion and the Counter- Example of Asia, 1300-1600*, ed. Joseph R. Levenson (Englewood Cliffs, New Jersey, 1967); and *Asia on the Eve of Europe's Expansion*, ed. Donald F. Lach (Englewood Cliffs, New Jersey, 1965). The technological conservatism of Asians during the Age of Discoveries is the special concern of Carlo M. Cipolla, Guns, Sails, and Empires (New York, 1965).

(٥) يصل هذا الاتجاه إلى ذروته، حيث يحدد العالم الإسلامي خارج آسيا عن طريق:

Donald F. Lach, *Asia in the Making of Europe* (vol. I in two books to date, Chicago, 1965), vol. I/2, xv.

(٦) على سبيل المثال:

John J. Saunders, '*The Problems of Islamic Decadence*', Journal of World History, vol. VII/3 (1963), pp. 701-20; and Claude Cahen, '*Quelques mots sur le declin commercial du monde musulman a la fin du Moyen Age*', in Studies in *the Economic History of the Middle East*, ed. M. A. Cook (London, 1970), pp. 31 - 6.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

حدثت تغييرات كبيرة في تركيبة سلطة الدولة خارج منطقة الهلال الخصيب بالتوازي مع انخفاض القوة الاقتصادية وتماسك سياسة الطبقة الحاكمة المملوكية، لتمهيد الطريق لهجوم جديد على مصر.

مدت رحلات مينج (Ming)[٧] البحرية إلى بحر العرب في بداية القرن الخامس عشر، التأثير الصيني إلى حدود الإمبراطورية المملوكية. وقد عرض الكُتَّاب تفسيرات متنوعة لسبب هذه الرحلات منها: تعطيل طرق القوافل الأوروبية الآسيوية بواسطة تيمور والحملات الصينية، ووصول المصالح التجارية لمكان السلطة في البلاط الصيني أثناء الفترة المبكرة لحكم مينج، ومحاولة المسئولين لدى مينج وضع الحدود البعيدة داخل إطار النظام الصيني العالمي، والجمع بين ما سبق وغير ذلك من الدوافع المجهولة. أيًا كان السبب، أرسل الصينيون أساطيلاً كبيرة إلى البحار غربي الهند بين عامي ١٤٠٥م و١٤٣٩م. وأيضًا لأسباب غير معروفة، لم يؤد ظهور السفن الصينية تحت قيادة الأدميرال تشنج هو (Cheng Ho) أمام المراكز التجارية الغنية في الخليج الفارسي واليمن، إلى اجتذاب المماليك للدخول في حرب بحرية مع الصينيين. وفي وقت لاحق، عندما تراجع محيط النظام السينوسنترى العالمي (Sinocentric World Order)[٨] لسلالة مينج سنة ١٤٣٣م، واصل المسلمون تطوير تجارتهم المربحة مع الهند والتي اعتمدت عليها الدولة المملوكية في العائدات الضريبية أكثر فأكثر. ولأن الانسحاب الصيني لم يحفز على منافسة جديدة بين الدول الكبرى الأخرى في مناطق المحيط الهندي، كان هناك حافز كافي لدى المماليك للتوسع في المناطق الجنوبية غير المناسبة لثقافة الفروسية لمجتمعهم العسكري. ونتيجة لذلك ظلت الحدود الجنوبية للمحيط الهندي هادئة من الناحية السياسية، منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى مطلع القرن السادس عشر عندما وصل البرتغاليون مسلحين فجأة إلى تلك الحدود الجنوبية.[٩]

إن حقبة الحرب الطويلة على الحدود الشمالية الشرقية للدولة المملوكية كانت قد عملت لعدة قرون على الوصول بالإمبراطوريات القوية في آسيا الوسطى إلى الاقتراب من نهايتها في منتصف القرن الخامس عشر. فبعد وفاة تيمور سنة ١٤٠٥م، بدأت الإمبراطورية التي أنشأها في الانقسام إلى وحدات سياسية متأقلمة إلى حد كبير مع سياسة السهوب. وبحلول منتصف القرن الخامس عشر تم تأسيس مجموعة من السلطنات الصغيرة استنادًا على العناصر التركمانية، والتي انفصلت عن وسط آسيا وقلب الأراضي الإيرانية التي كانت موحدة فيما سبق. في حين مَنَع عدم استقرار السياسة البدوية، تشكيل إمبراطورية سهوب رئيسية جديدة، وقد أصابت التكنولوجيا الحربية هي الأخرى القواعد العسكرية للدول التي حافظت على الطابع التركو- مغولى. فقبل خمسين عامًا من الحملة الكارثية للحاكم التيمورى أبي سعيد بن تيمور سنة ١٤٦٨م، حشد العثمانيون المعدات الحربية الحديثة قبالة أسوار القسطنطينية. لقد بشرت كل من المدافع والأسلحة النارية والأساطيل جنبًا إلى جنب مع كل التقنيات الحضارية القائمة لقيادة ودعم وحدات عسكرية معقدة، بنهاية فترة طويلة من استخدام الأسهم في الرماية، ونقل القيادة العسكرية في الشرق من وسط آسيا إلى المنطقة الأوراسية لشرق البحر المتوسط. لم يقم فقط استخدام هذه الأسلحة النارية على نطاق واسع بتحويل التوازن التكنولوجي ضد رماة السهام، إلا أن الأدوات الحديثة الخاصة بالحروب خلقت متطلبات مالية جديدة للسياسة الإمبريالية. وفي القرون القادمة، سيكون التنظيم المنهج واستخراج الضرائب من كافة المصادر، على قدر عنصر قوة الإمبراطورية، كما يمكن أن تفعل الأسلحة النارية. هنا أيضًا لم تكن السياسة الحاكمة لدول السهوب بآسيا الوسطى - التي تقوم على اقتصاد الرعي - لتتنافس مع البيروقراطية الناشئة للإمبراطورية الواقعة في الشمال الغربي، في عصر أصبحت فيه السيطرة على مناطق زراعية كبيرة فضلاً عن التجارة البحرية عوامل حاسمة.[١٠]

---

(٧) هي أسرة مينج التي حكمت الصين فيما بين عامي ١٣٦٨ – ١٦٤٤م تحت اسم (إمبراطورية مينج العظمى) والتي كانت آخر الأسر الحاكمة من قومية الهان الصينية، وكانت قد حلت محل سلالة يوان المغولية الحاكمة، وصلت إلى ذروة قوتها أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر، حيث امتدت الإمبراطورية إلى كوريا الشمالية ومنغوليا وأقاليم تركستان ووصلت أساطيلها إلى المحيط الهندي وبحر العرب غربًا. (المترجم)

(٨) هو مصلح يشير إلى قومية الهان الصينية التي تمثل حوالي ٩٢% من الشعب الصيني، وتنتشر كأغلبية في بلدان أخرى في الشرق الأقصى مثل تايوان وسنغافورة، وفي مرحلة ما قبل العصور الحديثة كانت قومية الهان تَعتبر الصين هي الحضارة الوحيدة في العالم، وما عداها من الشعوب والدول الأخرى هم من البرابرة ولكن بدرجات مختلفة. (المترجم)

(٩) تم تغطية السياسة المملوكية في البحر الأحمر أثناء رحلات مينج في المحيط الهندي بواسطة:

L'tgypte sous le regne de Barsbay 825-841/1422-1438 (Damas, I96I), pp. 197-237.

وعن وجهة النظر الصينية للعلاقات الدولية انظر:

The Chinese World Order, ed. John King Fairbank (Cambridge, Massachusetts, I968), passim.

(١٠) تلخيص الأحداث التي وقعت في فارس في القرن الخامس عشر في:

Vladimir F. Minorsky, '*La Perse au XVe siecle*', in Iranica (Tehran, I964), pp. 317-26

عن الجيش والتاريخ الإداري لأسرة الآق قيونلو والعثمانيين قارن:

V. Minorsky, *Persia in A.D. I478-1490*, in Royal Asiatic Society Monographs, vol. xxvi (London, 1957), pp. 20-4, 36-4I, 63, 88, i i6, with Mehmed Nesri, Kitab-z Cihan-Numa (2 vols., Ankara, 1949 57), vol. II, p. 819; Ibn Kemal, Tevarih-i-Al-i Osman. VII Defter, photo. reproduction in vol. I, transcription and criticism in vol. II by Serafettin Turan (hereafter all references to vol. ii, cited as Ibn Kemal) (Ankara, 1954-7), vol. II, pp. 316-I9, 338-9; R. M. Savory, '*The Struggle for Supremacy in Persia after the Death of Timur*', Der Islam, vol. XL (I964), pp. 35-65; and Paul Wittek, '*De la defaite d'Ankara a la prise de Constantinople*', Revue des etudes islamiques, vol. I2 (1938), pp. I-34.

في حين أن حدود الدولتين التركمانيتين لشرقي الأناضول وغربي فارس، قره قيونلو وآق قيونلو، لم تشكل خطرًا كبيرًا حتى ذلك الوقت على الدولة المملوكية،[11] كانت قوى ما وراء التوسع الأوروبي قد جلبت بالفعل شكلاً جديدًا من الصراع بين الدولة المملوكية والعالم المسيحي. فمنذ العصور القديمة كان حكام وادي النيل بصفة عامة يعتبرون إمبريالية الدول المركزية تهدف إلى غزو واحتلال الأراضي المصرية، إلا أن المجتمعات الأوروبية الناهضة التي ظهرت في شرق البحر المتوسط أواخر العصور الوسطى لم تتطور على النهج الإمبريالي الكبير، بل توسعت بوصفها وحدات تنافسية في إطار الثقافة العامة للعالم المسيحي الشرقي. وخلال عصر النهضة كان نظام تجزئة العالم الغربي قد منع من جهة الشكل الموحد للنوايا الإمبريالية المسيحية فيما يخص الفتوحات العظمى، ومن جهة أخرى شجع التطور الدقيق للأنشطة التجارية.

استغلت المدن الإيطالية تراجع الدور البيزنطي فضلاً عن الفوضى التي شهدها العالم الإسلامي خلال فترة الحروب الصليبية، لدفع الحدود الأوروبية الغربية إلى بلاد الشام. لكن أثبتت حدود هذه الدول بحلول نهاية الحروب الصليبية أنهم لا يوجهون طاقاتهم في المقام الأول نحو تعزيز أي من أيدلوجيات النظام الإمبريالي، أو نحو إدماج أراضى واسعة جديدة. فبسبب صغر حجم أراضيها والمصالح التجارية لطبقتها الحاكمة والنطاق الجغرافي لأنشطتها الاقتصادية، قامت الأنظمة التنافسية الإيطالية الحاكمة، بإنشاء إمبراطوريات استعمارية محدودة على طول شواطئ البحرين المتوسط والأسود. فلم يكن ارتكاز قوتهم على أراض ذات جيوش كبيرة وإنما على المرونة السياسية والتكنولوجيا البحرية الفائقة والنجاح التجاري، لقد أرسى الأمراء المشتغلون بالتجارة مراكز تجارية محصنة على نقاط استراتيجية على طول طرق المواصلات الرئيسية في بلاد الشام، وذلك لاستغلال التجارة الرائجة على نحو متزايد بين أوروبا والشرق. على سبيل المثال، عندما استعادت أوروبا القوة الاقتصادية في القرن الخامس عشر، قامت البندقية – أكبر موزع أوروبي للتوابل الشرقية – بتقديم شكل جديد للعلاقات بين العالم المسيحي والدولة المملوكية، ليس عن طريق الاستيلاء على دلتا النيل، وإنما عن طريق الاستيلاء على عملية سك النقود المصرية.[12]

وعلى الرغم من أن البندقية قد بدت في منتصف القرن الخامس عشر فائزة في المنافسة التي غالبًا ما كانت عنيفة بين الدول الغربية للهيمنة على تجارة بلاد الشام، ظهر تحدي آخر من قبل منافس مسيحي آخر في منطقة غير متوقعة تمامًا. فقبل القرن الخامس عشر بفترة طويلة تسببت عملية الاسترداد (Reconquest) لشبه الجزيرة الأيبيرية، في المجئ بالشعب البرتغالي الصغير على مقربة من مضيق جبل طارق، حيث قاموا بعبور الانقسام الجغرافي بين أوروبا وشمال أفريقيا سنة ١٤١٥م، ثم استولى البرتغاليون على ميناء سبتة الإستراتيجي الشمال أفريقي، وبدأوا في توسعاتهم المحيطية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومثل الكثير من الدول الإيطالية وَجَد اللوستانيون (Lusitanians)[13] حجمهم وموقعهم الاقتصادي، والبنية الاجتماعية والسياسية التي تفضل شكل محدود من النشاط الإمبراطوري على طول سواحل الشمال الأفريقي. وبمجرد أن قرر ملوك البرتغال البحث عن المصالح التجارية بدلاً من غزو المغرب، أصبح المركب الشراعي هو السلاح الرئيس للإمبريالية البرتغالية، لنقل الذهب ومنتجات أفريقيا السوداء عن طريق البحر شمالاً إلى لشبونة. وفي سنة ١٤٤٣م، قبل عشر سنوات من فتح القسطنطينية، أنشأ البرتغاليون من سكان الحدود مركزًا تجاريًا محصنًا على جزيرة أرجين (Arguin)[14] التي أداروا من خلالها أنشطتهم بغرب أفريقيا. وقد جذبت تجارة شمال غرب أفريقيا التجارة بعيدًا عن طرق القوافل التي جرت عبر الشرق إلى مصر، حيث جمعت أسرة أفيس الحاكمة (Avis dynasty)[15] موارد كافية من هذه المحطة للتشجيع على اكتشاف أكثر طموحًا.[16]

كان من بين أبرز أهداف مَنْ قاموا بتوجيه الاستكشاف البرتغالي في أفريقيا هدفين، أولاً أن تحل البرتغال محل البندقية بصفتها الموزع الرئيس للمنتجات الآسيوية، ثانيًا أن تنضم إلى مسيحي الشرق في الهجوم على العالم الإسلامي من الخلف.[17] لهذين السببين تبنت البرتغال مباشرة شكل من أشكال الاعتداء على الإمبراطورية المملوكية. ويظهر تقدير البرتغاليين لموقع مصر

---

(١١) عن مشاكل الحدود في الجزء المبكر من القرن الخامس عشر، انظر:
Ahmad Darrag, *L'Egypte*, pp. 5-7, 162, 381, 391- 9.
أما عن الصراع بين العثمانيين والمماليك على النفوذ في بلاط الآق قيونلو بعد سنة ١٤٥٣م انظر:
Abi Bakr-i Tihrani, *Kitdb-i Diyarbakriyye*, ed. Necati Lugal and Faruk Sumer (2 vols., Ankara, I962-4) vol. H, pp.553 – 4.
وعن هزيمة العثمانيين للآق قيونلو سنة ١٤٧٣م:
Ibn Kemal, pp. 353 – 8.

(12) A. S. Ehrenkreutz, '*Contributions to the Knowledge of the Fiscal Administration of Egypt in the Middle Ages*', BSOAS, vol. XVI/3 (I954), PP. 502-I4.

(١٣) شعب هندو - أوروبى كان يعيش في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية قبل أن تصبح مقاطعة رومانية، ويعتبر الأساس العرقي لشعب البرتغال، والمقصود هنا البرتغاليون. (المترجم)

(١٤) هي جزيرة ذات موقع استراتيجي بغرب أفريقيا قبالة ساحل موريتانيا الحالي، مساحتها حوالي ١٢كم مربع. (المترجم)

(١٥) هي الأسرة التي حكمت البرتغال فيما بين عامي ١٣٨٣ – ١٥٨٠م. (المترجم)

(١٦) عن التوسعات البرتغالية في القرن الخامس عشر انظر:
C. R. Boxer, *The Portuguese seaborne Empire 1415-1825* (New York, I969), pp.1-38
وعن الجانب الاقتصادي للنشاط البرتغالي في أفريقيا انظر:
Vitorino Magalhaes-Godinho, *L'Economie de l'empire portugais aux XVe et XVIe siecles* (Paris, I969), pp. 33-4, et passim

(17) Ibid. pp. I7-3I, 290-310, 550-5, 783.

الإستراتيجي في خططهم الإمبريالية عن طريق خط سير العميلين اللذين أرسلهما الملك دوم جوا الثاني (Dom Joao II) إلى الشرق سنة ١٤٨٧م، حيث تظاهر كل من بيرو دا كولفيلا (Pero da Colvilha) وألفونسو دا بايفا (Afonso da Paiva)- وكلاهما يتحدثان العربية – أنهما يتاجران في العسل، فغادرا رودس إلى الإسكندرية، وسافرا من القاهرة إلى الجنوب، ثم وصلا إلى عدن، حيث افترقا ليعملان كل على حدة على دراسة العمليات التجارية والظروف السياسية في الهند وشرق أفريقيا. ليس من الواضح ما إذا كانت تقاريرهما عن النشاط التجاري وطرقه الدولية، أو عن العلاقات السياسية لدولة الحبشة المسيحية والدول الإسلامية الأخرى مع المماليك قد أثرت على السياسة البرتغالية.[١٨] إلا أنه عندما دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح، كانوا على علم جيد بالشبكات التجارية والتنافس فيما بين الدول في الشرق. وبسرعة حاول قادتهم منع التجارة البحرية بين الهند ومصر، وتشكيل تحالف يضم الدولة الصفوية والحبشة ضد النظام المصري. هكذا أكدت الإجراءات الخارجية للدول الأجنبية مرة أخرى على مكانة موقع مصر في تاريخ العالم.

إن تقدم الحدود المسيحية بشكل عام في أيبيريا لبعض الوقت عمل على تحفيز الطموحات المتوسطية لدول إسبانيا. فقبل عملية الاسترداد سنة ١٤٩٢م، أرسلت أراجون(Aragonese) القراصنة الكتالونيين(Catalan) إلى سواحل سوريا ومصر. وخلال نفس الفترة قرر الأيبيريون إنشاء تحالف مع دولة الحبشة المسيحية.[١٩] ولم يضف إلى زخم هذا التقدم الإسباني إلا الإتحاد اللاحق بين كل من قشتالة وأراجون،[٢٠] إلى جانب الهزيمة النهائية للمسلمين في أيبيريا خلال سنة ١٤٩٢م. وقد أدى عبور مضيق جبل طارق في مطلع القرن السادس عشر إلى دفع خطوط الجهة الإسبانية على طول السواحل الإسلامية للشمال الأفريقي نحو مصر، حيث بلغت طرابلس في شهر يوليو سنة ١٥١٠م. لكن الحرب مع فرنسا سنة ١٥١١م، وموت فرديناند (Ferdinand) سنة ١٥١٦م، وصعوبات تولى حاكم الهابسبورج (Hapsburg) شارل الخامس (Charles V)، حوَّل انتباه اسبانيا ناحية الشمال، وأوقف مؤقتاً الحملة ضد الإسلام أثناء الفتح العثماني لمصر. في الوقت نفسه حوَّل الغزو الأوروبي لأمريكا أنظار ساكني الحدود الإسبانية عن الحدود الإسلامية في الشمال الأفريقي، عندما بدأ الغزاة في احتلال المكسيك سنة ١٥١٩م. وعلى الرغم من أن هذه الأحداث قد تضعف تحرك القوات شرقاً فيما وراء الحدود المسيحية في البحر المتوسط، إلا أن شارل الخامس أراد أن يجمع ضمن إرثه كتلة بشرية وموارد مادية كبيرة، أراد تنظيمها وفقًا للتقاليد العالمية للإمبراطورية الرومانية المسيحية في الماضي. على هذا النحو سرعان ما أصبحت إمبراطورية هابسبورج أقوى خصوم العالم الإسلامي. ولكن قبل أن يجمع الإمبراطور المسيحي قواته الإمبريالية على جهات كل من صقلية وليبيا، قام الجيش العثماني بفتح مصر سنة ١٥١٧م، واضطر شارل الخامس في التعامل مع توسع الإمبراطورية الإسلامية التركية، التي انتشر رجال حدودها البحرية تحت قيادة الإخوة برباروسا في غرب البحر المتوسط.[٢١]

وجاء سقوط الدولة المملوكية كنتيجة لتغيرات كبيرة في القوة الإمبريالية داخل وحول منطقة الشرق الأوسط، والتي أيدت حملة واعية من جانب السلاطين العثمانيين لحكم المجتمع الإسلامي السني. وعلى الرغم من أن طبيعة هذا التحول في العلاقات الدولية معقد للغاية، إلا أن تاريخ التحركات الحدودية للعثمانيين منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م إلى الهزيمة النهائية للجيش المملوكي في ١٥١٧م، تُقدم وسيلة لرسم تيار الأحداث التي أدت إلى فتح مصر، فضلاً عن العلاقات الجديدة بين الإمبراطورية الإسلامية التركية والدول الأوروبية بعد الهيمنة العثمانية على كل من سوريا ومصر.

إن توسع أتراك الشمال إلى الجنوب من استانبول، يتضمن تاريخ العلاقات بين الدول الإسلامية داخل وحول الأناضول، فضلاً عن تطوير البحرية العثمانية. وهما الموضوعان الأقل معرفة عن نمو القوة البحرية التركو إسلامية. منذ بداية فتوحات الأناضول في فترة ما قبل العثمانيين، أظهر الأتراك استعدادهم للقتال في البحر، والاستفادة من المهارات البحرية لسكان الأناضول التي سبق تنظيمها من قبل الإمبراطورية البيزنطية، فقد قام المجاهدون من محاربي الحدود بغارات بحرية على الأراضي المسيحية من الشواطئ الغربية للأناضول في نهاية القرن الحادي عشر. وعندما هيمن العثمانيون على المناطق الساحلية للأناضول في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أدمجوا بالفعل مجتمعات متطورة من القراصنة في إطار دولتهم التركو إسلامية الممتدة، هذا فضلاً عن تجربتهم البحرية بشرق البحر المتوسط التي أصبحت الأساس الذي شيد العثمانيون من خلاله قوتهم البحرية.[٢٢]

---

(18) Boxer, *The Portuguese*, pp. 33-8; and H. V. Livermore, *A New History of Portugal* (Cambridge, I966), pp. 122-31.

(19) Ahmad Darrag, *L'Egypte*, pp. 2I0-1I, 331-9.

(٢٠) حدث ذلك عندما تزوجت إيزابيلا أخت ملك قشتالة هنري الرابع بابن عمها الأمير فرديناند ابن الملك خوان الثاني ملك أراجون عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، حيث أعلنت إيزابيلا عن نفسها ملكة على قشتالة وليون بعد موت أخيها عام ١٤٧٤م، وتولى فرديناند عرش أراجون بعد موت أبيه عام ١٤٧٩م، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان في ظل عرش واحد. (المترجم)

(٢١) صورة عامة للتوسعات الإسبانية نجدها في:

J. H. Elliott, *Imperial Spain 1469-1716* (New York, I963), pp. 128-60

ونجد وصفًا لمقاومة التوسع العثماني في تاريخ خير الدين بربارسا:

Sander Rang and J. F. Denis, *Fondationd de la regime d'Alger, histoire des Berberousse* (2 vols., Paris, 1837), vol. I, pp. 21-283.

(٢٢) للإطلاع على موجز لتاريخ البحرية التركية أثناء فتح مصر انظر:

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



ليس هناك أدنى شك في أن فتح استانبول يمثل نقطة تحول رئيسية في التاريخ العسكري للشرق الأوسط، فبينما أثبت حصار استانبول امتلاك العثمانيين مؤسسات عسكرية جديدة وأعداد كبيرة من الأسلحة النارية، أشار فتح وتوطيد الحكم بالمدينة أيضًا إلى أن السلاطين العثمانيين سوف يطلقون جيوشهم من تلك المدينة الإمبريالية التي كان لها تاريخ من التوسع في منطقة البحر المتوسط. وبالرغم من أن وصف تأسيس العاصمة العثمانية في استانبول كان هو الظاهر في معظم الروايات، إلا أنها كانت تصف في نفس الوقت الأسطول العثماني الجديد والكبير.[٢٣] ففي سنة ١٤٥٣م قرر العثمانيون -من بين جملة أمور أخرى- أن تكون لهم قوة بحرية. وهذا القرار على وجه الخصوص سيكون له الكثير مما يقوله عن المكان الذي يمكن أن يشن منه العثمانيون الحرب. ففي الماضي منحت الخيل إمكانية التنقل للجيوش التركومغولية من السهوب الأوراسية، أما هنا فنجد أسرة أوربان(urban)[٢٤] إضافة للجنود المشاة ومدفعية الحصار الثقيلة وغير ذلك، إضافة إلى سفن البحر المتوسط التي ستكون وسيلة رئيسية يمكن للعثمانيين من خلالها إنجاح عملياتهم عبر المسافات الطويلة.[٢٥] لذلك فإن إنشاء الجيش العثماني يتضمن عناصر هامة ستعمل على استخدام الضغط المضاد للسهوب في اتجاه العمل الإمبريالي.

في المسافة القصيرة الفاصلة بين البحر المتوسط والبحر الأسود، حيث تتقارب الطرق التجارية بين أوروبا وآسيا، قادت استانبول مركزًا جغرافيًا غاية في الأهمية من أجل تطوير القوة البحرية كعنصر من عناصر قوة الدولة. وبالتالي جلب الفاتح بعد وقت قصير البحّارة إلى استانبول من المناطق الساحلية التي كانت تعد مصدر المواهب البحرية للإمبراطورية البيزنطية. وبالمثل تم توطين التجار الذين اعتادوا على البحر في المدينة التي أعيد بناؤها، وتم منح إعفاءات من الضرائب من أجل تشجيع التجارة. وعلى الفور أمر السلطان ببناء الترسانات وسفن الحرب بعد أن جمع موارد إمبراطوريته إضافة إلى التجارب البحرية لرجال الحدود والصناع المسلمين.[٢٦] وبالتالي أصبحت عملية إنشاء بحرية قوية ومكلفة بمثابة مؤسسة داخلية كبيرة تجذب العثمانيين نحو البحر.

أين أراد محمد الفاتح تطبيق تلك القوة البحرية ؟ بالتأكيد كانت الجغرافيا والمكان المحتمل، وكذلك الفرص الاقتصادية والسياسية، كل ذلك كان يشير إلى الأسطول في البحر المتوسط. على الرغم من أن السبب الرئيس للتوجه نحو الغرب في القرن الخامس عشر هو أن تاريخ البحرية التي مورست على العثمانيين امتدت جذوره إلى القوى البحرية المتفوقة للجمهوريات الإيطالية، والتي كانت البندقية هي الأقوى من بينها. لم يقم البنادقة فقط بتوسيع نطاق النفوذ المسيحي حتى وصل إلى الشواطئ الإسلامية بشرق المتوسط، وإنما قاموا أيضًا بالتأثير الخارجي على اقتصاد الشام عن طريق مراكزهم التجارية الشرقية. وعلى عكس مؤسسة البندقية في الشرق، وجه محمد الفاتح التوسع العثماني على طول الخطوط الداخلية نحو البحر، وذلك من أجل توجيه عائدات الضرائب من بلاد الشام إلى استانبول، وبالتالي عمل تضارب المصالح الاقتصادية بين العثمانيين والبنادقة على إيجاد أسباب أخرى للحرب بين هاتين الدولتين المختلفتين تمام الاختلاف.[٢٧]

في النزاعات البحرية التي تلت (١٤٦٣- ١٤٧٩م)، تقدم العثمانيون بثبات ضد البنادقة حتى قبل نهاية عهد الفاتح سنة ١٤٨١م، فقد حولوا البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية، وشنوا هجوماً بحرياً مزدوجاً على البؤر الاستيطانية المسيحية الهامة في النظام التجاري للمنطقة الشامية. وقد قام مسيح باشا سنة ١٤٨٠م بتعقب طريق التجارة والحج من الأناضول إلى مصر، وقام بشن هجوم برمائي على جزيرة رودس (Rhodes)، وبعد ذلك بعام حط كديك أحمد باشا بقوة استطلاعية في جنوب شرق إيطاليا آخذاً مدينة أوترانتو (Otranto). ولكن كيف ظل هذين الاشتباكين اللذين يمثلان المصالح الاستعمارية غامضين إلى حد ما، ذلك لأن كلا الحملتين فشلتا بعد تولى بايزيد الثاني السلطة سنة ١٤٨١م. ووفقًا لحكم المؤرخ ابن كمال الذي قام بحفظ خطط الفاتح الإمبريالية عشية وفاته، جعل محمد الفاتح الحدود المملوكية في سوريا هدفه الرئيس.[٢٨]

Andrew C. Hess, '*The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries*, 1453-1525', The American Historical Review, vol. Lxxv/7 (Dec. 1970), pp. 1870-1919.

(٢٣) عن أعداد الأسطول العثماني انظر:

Ibn Kemal, pp. 42-3; 'Asikpasazade, 'Asikpasazade Tarihi (Die Altosmanische Chronik des 'Aszkpasazade), ed. Friedrich Giese (Leipzig, 1929), p. 132; and Kritovoulos, *History of Mehmed the Conqueror*, trans. Charles T. Riggs (Princeton, New Jersey, 1954), p. 37. Italian and Greek figures are given by Steven Runciman, *The Fall of Constantinople*, 1453 (Cambridge, 1965), pp. 215; 76, n. 1.

(٢٤) هو صانع مدافع مجرى، ساهم في تصميم وصنع المدافع التي دكت حصون القسطنطينية أثناء الفتح. (المترجم)

(٢٥) عن الاستخدام الإمبريالي للأسطول العثماني انظر:

Ibn Kemal, pp. 220-1, 285, 383-5, 470-3, 500, 507-8

(26) Kritovoulos, pp. 37, 83,93, 140-1, 148-9, 184-5; 'Asikpasazade, pp. 133, 148; Ibn Kemal, pp. 96-8, 101; Philip P. Argenti, *The Occupation of Chios by the Genoese and their Administration of the Island*, pp. 1346-566 (3 vols., London, 1958), vol. 1, p. 219; and Avedis K. Sanjian, *Colophons of Armenian Manuscripts, 1301-1480* (Cambridge, Mass., 1969), pp. 245, 284, 326.

(27) Compare Freddy Thiriet, *La Romanie venitienne au Moyen Age* (Paris, 1959), pp. 4-45; Ibn Kemal, pp. 105-6, 117, 165, 176, 180, 219-20, 287, 291, 309, 384, 388, 500; and Kritovoulos, pp. 15-16, 24, 96, 107-8, 138, 163.

(28) Ibn Kemal, pp. 500-7, 528, 542, 544.

كان بايزيد الثاني -خليفة محمد الفاتح- بالتأكيد واحدًا من السلاطين العثمانيين الأوائل غير المفهومين، فعلى الرغم من أنه قد اشتهر بعدم ولعه بالحرب لعدم توسعته لحدود الإمبراطورية، إلا أنه لم يكسر ذلك النمط القوى للقيادة العسكرية التي ميزت قرون من النمو العثماني. فبدلاً من الانتصارات العظيمة على الأرض، قام هذا السلطان بالإشراف على تطور لا مثيل له في القوة البحرية من حيث الحجم والكلفة، وهو مشروع كان له عواقب وخيمة على كل من أوروبا والإمبراطورية المملوكية.

كان الأهم على المدى الطويل، هو دفاع بايزيد ومساعديه عن الدولة أمام التحديات الأساسية التي تتعلق ببنية الإمبراطورية. فقد حدث بين سنة ١٤٨١م ووفاته سنة ١٤٩٥م، أن اقترح جم[٢٩] شقيق السلطان تقسيم الإمبراطورية، حيث استندت ثورته على جماعات تأثرت تأثرًا كبيرًا بالنظام القبلي، وقام بطلب المساعدة سواءً من الإمبراطورية المملوكية سنة ١٤٨١م، أو رجال الحدود المسيحيين بجزيرة رودس سنة ١٤٨٢م. وردًا على هذه المخاطر المتعددة والتي تفاقمت بسجن جم بالعالم المسيحي بعد سنة ١٤٨٢م، واصل السلطان سياسته الخارجية السلمية وسياسة التوطيد بالداخل. قادت المفاوضات السرية مع الخاطفين المسيحيين لجم فيما بين هروبه إلى رودس سنة ١٤٨٢م وبين وفاته ١٤٩٥م بتحييد التهديد الغربي، في حين أدى نجاح حملة البحر الأسود سنة ١٤٨٤م إلى تقوية السيطرة العثمانية على الحدود الشمالية. وداخلياً، استغل السلطان فترة من عدم النشاط الخارجي النسبي، لإعادة تنظيم الهيكل المالي للإمبراطورية، ولتطبيق زيادة الإيرادات الناتجة عن عدم الحرب.

على الطرف الجنوبي من النطاق العثماني، تقابلت جيوش بايزيد والمماليك في سلسلة من الحروب غير الحاسمة بين سنة ١٤٨١م وسنة١٤٩١م، حافظت على شكل الحدود الجنوبية وأنذرت بصراع من أجل السيادة على العالم السني.[٣٠] من هذه المعارك هناك حدثين داخليين يستحقان الاهتمام لتعلقهما بالمستقبل، أولاً يمكن قياس مدى حسم الاشتباكات الحدودية عن طريق بقاء دولة تركمانية عازلة على الحدود هي (ذو القدر).[٣١] ثانياً رفض البندقية التي كانت تسيطر على جزيرة قبرص، طلب العثمانيين استخدام ميناء فاماجوستا (Famagusta) بالجزيرة من أجل تزويد قواتهم عن طريق البحر، حيث قامت بإرسال أسطول خاص إلى قبرص.[٣٢]

إذا كانت هذه الأوضاع قد أثبتت مدى سرعة القوة العثمانية في السيطرة جنوبي الأناضول، فإن عدم الراحة الذي كان متجذرًا في ثقافة التركمان والفرس، قد أنذر بصعود جديد خطر يمس نظام الحدود لجبال طوروس. فأثناء الفترة الفاصلة التي تلت سقوط إمبراطورية تيمور، ظهرت الأسرة الصفوية كزعيمة لدولة فارس القوية، التي من شأنها أن تتغلب على عدم استقرار الأنظمة العشائرية الحاكمة، ومن ثَمَّ تحكم أجزاء من بلاد فارس والأناضول. إن التأكيد على مكانتهم الدينية بنسبهم للشيخ صفي الدين، وعداوة التركمان للقوة المركزية للدولة العثمانية، والمعتقدات الدينية المهرطقة للأتراك، والتمايز الثقافي للفرس، قد اجتمعوا في مطلع القرن السادس عشر مع أول حاكم للدولة الصفوية الشاه إسماعيل، وشكلوا قوة كبيرة من الفرسان من أفراد قبائل التركمان (قزلباش). لم يقم الشاه فقط بإنشاء جيش كبير من القبائل، لكنه قام أيضًا بتأسيس حركة دينية اكتملت عن طريق الدعايا والعملاء السريين، بالتوازي مع مؤسسته العسكرية وامتداد نفوذه إلى عمق الأناضول وسوريا.[٣٣] وقد تناسب ظهور الصفويين مع التقسيمات الكلاسيكية لحركة الحدود الإسلامية التي تهدف إلى تكوين دولة كبيرة، وكان على العثمانيين الرد أو المخاطرة بالسماح لقوة هذه المحاولة الثالثة بتنظيم التركمان وتحويل سكان الحدود الأناضولية ضد الإمبراطورية العثمانية.[٣٤]

---

(٢٩) عن سيرة جم انظر:

Halil Inalcik, 'Djem ', *The Encyclopaedia of Islam*, New Edition (hereafter EI2) (2 vols. to date, Leiden, I960-), vol. II, pp. 529 - 31.

(٣٠) عن الحرب العثمانية المملوكية انظر:

Selahattin Tansel, *Sultan II Bayezit'in Siyasi Hayati* (Istanbul, 1966), pp. 93-116,

(31) J. H. Mordtmann and Mukrimin H. Yinanc, *'Dulkadirlilar', in Islam Ansiklopedisi* (10 vols. to date, Istanbul, 1950-), vol. III, pp. 654-62.

(32) Tansel, Bayezit, p. 178.

(33) Minorsky, Persia, pp. 61-8; Hasan-i Rummlu, Ahsanut-Tawdrikh (A Chronicle of the Early Safawis), trans. C. N. Seddon (Baroda, I934), pp. 18, 26-7, 57-71; R. M. Savory, *'The Consolidation of Safawid Power in Persia'*, Der Islam, no. 41 (October, I965), pp. 71- 94; and Hanna Sohrweide, 'Der Siege der Safaviden in Persien und seine Ruckwirkungen auf die Schiiten Anatoliens im 16. Jahrhundert', Der Islam, no. 41 (October, I965), pp. 131-7, for the Kizilbas centers in Anatolia. The Ottoman response is treated in Tansel, Bayezit, pp. 245-64; Selahattin Tansel, Yavuz Sultan Selim (Ankara, 1969), pp. 31-100; M. S. Tekindag, 'Yeni Kaynak ve vesikalarin isiginda Yavuz Sultan Selim'in Iran Seferi', Tarih Dergisi, vol. xvii (I968), pp. 49-78; and at the propaganda level Elke Eberhard, Osmanische Polemik gegen die Safawiden im 16. Jahrhundert nach arabischen Handschriften (Freiburg im Breisgau, 1970), pp. 159, et passim.

(٣٤) ليس الغرض هنا مناقشة أن العثمانيين كانوا في مرحلة دفاعية من تاريخهم. عن العلاقة بين الأيدلوجيات وتاريخ الحدود انظر: ابن خلدون، المقدمة.

Franz Rosenthal, 2nd ed. (3 vols., Princeton, New Jersey, 1967), vol. I, pp. 3 3-36

قبيل نهاية عهد بايزيد، تفاقم نزاع الحدود فجأة في الجنوب والغرب. ففي نهاية سنة ١٥٠٧م أغارت الجيوش الصفوية على جنوب الأناضول مرورًا بدولة جبال طوروس العازلة، ذي القدر. وخلال سنة ١٥٠٩م وكجزء من صراع الأسرة الحاكمة لخلافة بايزيد الثاني، هرب الأمير العثماني قرقود إلى مصر حيث السلطان المملوكي قونصوه الغوري، الذي استقبله بمنتهى الحفاوة.[٣٥] وفي سنة ١٥١١م اندلعت ثورة أشعلها عملاء الصفوية فيما بين التركمان، انتشرت بسرعة وسط الأناضول حتى استطاع العثمانيون قتل قائدها، شاه كولو. إلى جانب هذه الأحداث اندلعت في العام نفسه معركة على السلطة بين السلطان وابنه سليم ازدادت خلال السنوات الأخيرة من عهد بايزيد. وفي سنة ١٥١٢م قررت القوى السياسية استئناف حملات كبيرة هزمت بايزيد ورفعت إلى السلطة سلطانًا محاربًا آخر هو السلطان سليم.[٣٦]

على الرغم من أن العدوان الصفوي سيثير قريبًا هجومًا مضادًا من الشمال، إلا أن السلاطين العثمانيين اتخذوا خطوات في مناطق أخرى منفصلة عن مشاكل الحدود الأناضولية الفارسية، التي من شأنها أن تشجع أيضًا على الامتداد جنوبًا من نفوذهم. لقد تمت دراسة التوسع العثماني طوال سنوات احتجاز جم من قبل الأوروبيين، فقد استخدم بايزيد الثاني موارد دولته لبناء أكبر قوة بحرية في البحر المتوسط. وكان السلطان على علم بأن أسطوله بعيداً كل البعد عن أسطول البندقية من حيث مستوى العاملين على متنه، وذهب في حل هذه المشكلة إلى اللجوء إلى قادة البحر من ذوى الخبرة. هكذا قام بتعيين القراصنة المسلمين المخضرمين من أمثال كمال ريس برواتب في المناصب البحرية، هكذا استرعى العثمانيون مرة أخرى المواهب البحرية بشواطئ وجزر شرقي البحر المتوسط لزيادة القوة البحرية لمؤسستهم العسكرية. وخلال الوقت الذي دخل فيه رجال جدد إلى الأسطول، بدأ سفراء البندقية في ملء مراسلاتهم بتقارير عن الجهد غير العادي للعثمانيين في بناء سفن جديدة. وتشير قوائم السفن المتاحة للحملات الحربية العثمانية سنة ١٤٩٨م إلى أكثر من مائتي سفينة. وأخيرًا قام الحرفيون التابعون للبحرية العثمانية بتجربة تصاميم جديدة مكلفة، حيث قاموا بإنتاج بعض السفن التي كانت هائلة وفقاً لمعايير البحر المتوسط.[٣٧]

(35) Ibn Iyas, *Journal d'un bourgeois du Caire*, trans. Gaston Wiet (2 vols., Paris, 1955- 60), vol. I, pp. 148-9.
(36) Hasan-i Rumlu, Ahsan, pp. 57-64.
(37) Hess, *'The Ottoman Seaborne Empire'*, pp. 1904-6. The development of Ottoman sea-power makes an impact on histories from Venice to Persia. Marino Sanuto, I Diarii, ed. Nicolo Barozzi et al. (58 vols., Venice, 1879-1903), vol. I, cols. 398-9, 323; vol. II, cols. 568-70; vol. III, cols. 1348-9; and Hasan-i Rumlu, Ahsan, pp. I6-I7.

وفى مايو ١٤٩٩م انتصر أسطول عثماني مكون من مائتي وخمسين سفينة وذلك للمرة الأول على البحرية البندقية في معركة مفتوحة. وبعد أربع سنوات لاحقة انتصر العثمانيون في منافسة أساطيلهم البحرية للبنادقة، الذين وافقوا على الشروط العثمانية التي تعطى الغلبة الإستراتيجية للأتراك في شرق البحر المتوسط، وذلك من أجل الحفاظ على مزاياهم التجارية في بلاد الشام.[٣٨]

نادرًا ما كان يحظى مثل هذا التغيير الهام في أوضاع البحرية في البحر المتوسط بالقليل من الملاحظة. ففي سنة ١٥٠٢م غيَّر العثمانيون قرونًا من تاريخ البحرية في البحر المتوسط. لم يعد الإيطاليون يحكمون البحر من الداخل، ووفقًا للمؤرخ البرتغالي جوديهو (Godinho)، لا يمكن لأي دولة مسيحية منافسة البحرية العثمانية بعد سنة ١٥٠٠م.[٣٩] إن تحول ميزان القوى البحرية من الجانب المسيحي إلى الجانب المسلم قد ترك الآن دول أوروبا الغربية التي تحد البحر المتوسط، مع المهمة الصعبة المتمثلة في تشكيل الدور المسيحي بين الحكومات التي فترت روحها الصليبية بانقضاء العصور الوسطى، عندما أصبح الدفاع أمام هجوم البحرية العثمانية لازمًا.

تزامن الانتصار البحري للعثمانيين وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي في مطلع القرن السادس عشر، حيث انكمشت الإمبراطورية المملوكية بين القوتين البحريتين الأقوى. وردًا على الهجوم البرتغالي على الشبكة التجارية بين الهند ومصر، فضلاً عن ظهور السفن المسيحية في البحر الأحمر بالقرب من مدن الإسلام المقدسة، أرسل المماليك على الفور أسطولاً تحت قيادة حسين الكردي لطرد البرتغاليين من المحيط الهندي.[٤٠] وبعد الانتصار الأوّلى في شاول (Chaul) على الساحل الغربي للهند سنة ١٥٠٨م، خسر اللواء المملوكي أسطوله في اشتباك مع البرتغاليين في ديو (Diu) سنة ١٥٠٩م.[٤١] ولنقص البحارة المدربين والمواد اللازمة لسلاح البحرية الجديد، سارعت مصر بطلب المساعدات البحرية من خارج منطقة الهلال الخصيب. وعندما اقترب سفراء المماليك من الدوق بطلب

(٣٨) ولبيان كيف أن انتصارات بايزيد البحرية سمحت لسليم بمعاقبة الفرس وفتح كل من سوريا ومصر انظر:
Haji Khalfah, *The History of the Maritime Wars of the Turks*, trans. James Mitchell (London, I83I), pp. 19-24
للحصول على مراجع إضافية عن المصادر الأوروبية والعثمانية:
Sidney Nettleton Fisher, *The Foreign Relations of Turkey 1481-1512* (Urbana, III., 1948), pp. 54-89; and Tansel, Bayezit, pp. 176-225.
(39) Godinho, 'viragem', pp. 143- 4.
(٤٠) لهذا الجزء من تاريخ البحرية بجنوب الجزيرة العربية انظر:
Robert B. Sergeant, *The Portuguese off the South Arabian Coast* (Oxford, 1963), pp. 41-51; L. 0. Schuman, *Political History of the Yemen at the Beginning of the Sixteenth Century* (Amsterdam, 1961), p. 9.
(41) Damiao de Gois, *Crdnica do Felicissimo Rei D. Manuel* (4 vols., Coimbra, I949-54), vol. II, pp. 85-91, 132-7, chronicles the two battles.

المساعدة البحرية، قام الدوق بتحويلها رسميًا إلى مناشدة إسلامية، بدعوى ضرورة الحفاظ على علاقات طيبة مع البابا. ولكن في نفس الوقت نصح البنادقة المماليك بتقديم التماس للعثمانيين من أجل الحصول على المساعدة البحرية اللازمة.[٤٢] تشهد السنوات الأخيرة من حكم بايزيد الثاني تحسنًا مفاجئًا في العلاقات العثمانية المملوكية، ليس فقط لأن كلا الإمبراطوريتين اعتبرا صعود الصفويين -الذين اعتنقوا العقيدة المهرطقة- تهديدًا لحدودهما المشتركة بجبال طوروس، ولكن أيضًا لأن النظام المصري بدأ الآن في تلقى كميات كبيرة من الإمدادات والمعدات العسكرية البحرية من الأراضي العثمانية. وفي مصر نقلت قوافل الجمال بسرعة الأمر البحري ومواد البناء من موانئ البحر المتوسط إلى السويس، حيث أمر السلطان المملوكي بإعداد أسطول جديد. ومع ذلك فإن الاعتماد على العثمانيين ذهب إلى ما هو أبعد من لوازم البناء، فقد قام بايزيد الثاني أيضًا بإمدادهم بقادة بحريين وألفي رجل للأسلحة النارية. وفي سنة ١٥١٠م أمر سلمان ريس بقيادة الأسطول المملوكي بالبحر الأحمر.[٤٣] فقد حان الوقت للنظام المصري الاعتماد على الخارج في منطقة أخرى.

اعترف المماليك بأن العدوان الإمبريالي يلي عادة التغيرات في القوة العسكرية. وقد ترك ابن إياس شهادة صريحة لمخاوف المماليك بشأن هذه المسألة. وخلال ١٥١٥م، عام انتصار العثمانيين على الصفويين في جالديران، أمر السلطان المملوكي قانصوه الغوري بإقامة تحصينات ساحلية جديدة ضد أي هجوم بحري من الشمال، وذلك عندما سمع شائعات بأن العثمانيين قد شيدوا أسطولاً من أربعمائة سفينة.[٤٤]

على الرغم من أن الحملات على الأرض قادت إلى فتح مصركما هو معروف، يجدر النظر إلى إجراءات سليم وجيشه لنرى كيف أن القرارت الإمبريالية والأعمال العسكرية على الأرض والنشاطات البحرية العثمانية قد كثفت الضغط على الإمبراطورية المملوكية. لم تكن أكبر الأخطار التي هددت الدولة العثمانية بعد تولى سليم سنة ١٥١٢م آتية من الأراضي الأوروبية، وإنما من الصفويين في فارس.[٤٥] وبغرض تأمين السيطرة على السلطنة، اعتمد سليم العمل ضد الصفويين، حيث قام بغارة استفزازية مثل الشاه إسماعيل الذي أغار على الأناضول سنة ١٥٠٧م. وأصدر سليم الأوامر بإعداد قوائم من المتعاطفين مع الصفوية داخل الأراضي العثمانية. هكذا كان القضاء على أنصار القزلباش – بعض القوائم تخبر عن ٤٠ ألف ضحية – ضربة مباشرة لهيبة الشاه إسماعيل بين التركمان، ومن ثم قادت إلى منافسة عسكرية لا مفر منها بين الدولتين. وأخيرًا، فإن العثمانيين أيضًا قد فرضوا من خلال استخدام جيشهم وقواتهم البحرية، حصارًا اقتصاديًا على المنتجات التي تمر عبر الطرق التجارية في بلاد فارس.[٤٦]

عندما التقى الجيشان العثماني والصفوى في أذربيجان بالقرب من سهل جالديران، كان الانتصار العثماني الذي أعقب ذلك يرجع إلى حد كبير للتفوق التكنولوجي في الأسلحة النارية للتشكيلات العسكرية العثمانية. ومع ذلك لم يسفر فتح فارس عن انتصار العثمانيين. وبرغم التنظيم العسكري والمعدات التي منحت التقدم للعثمانيين في جالديران، إلا أن متطلبات التموين للجنود المشاة ومعداتهم الثقيلة التي أسفرت عن صعوبة التنقل في عمق بلاد فارس، كانت في صالح رماة الصفويين. ولقد ظهرت محاولات من جانب الصفويين فيما بعد فترة الحروب العثمانية الصفوية في القرن السادس عشر من خلال استخدام تكتيكات السهوب الكلاسيكية، للإمساك بخصومهم وتوسيع نطاق تواجدهم في المناطق التي وجدها الإنكشارية خالية، حينما حاول العثمانيون زيادة نطاق عملياتهم في بلاد فارس من خلال استخدام سلاح البحرية.[٤٧]

بغض النظر عن ميزان التسلح العسكري والتنظيم، فإن حملة سليم إلى فارس كانت تعد أيضاً نتيجة سياسية لمواصلة عزل النظام المملوكي، عن طريق إبعاد الصفويين عن إمكانية اختبار الانحراف جنوب الحدود العثمانية. وعلى الرغم من توثيق المؤرخين العثمانيين لحملة أخرى تعد طبيعية ضد الصفويين المهرطقين بدلاً من المماليك السنة، أشارت سياسة الحدود إلى اتجاه مختلف تماماً. بعد معركة جالديران سنة ١٥١٤م أرسل السلطان، المؤرخ إدريس البدليسى -الذي ربما كان من أصل كردى- إلى المناطق المفتتحة حديثًا في شرق البلاد، حيث تم تعيينه في مهمة تنظيم الأكراد ضد الصفويين.[٤٨] وقد سبق هذا المنعطف لرجال القبائل الحدودية أمام الخارج، الهجوم العثماني على دولة ذي القدر العازلة سنة

(42) Godinho, L'Economie, pp. 7I3 - 64.
(43) Hess, '*The Ottoman Seaborne Empire*', pp. 1909-14.
(44) Ibn Iyas, Journal, vol. II, pp. 435, 440-6.
(45) Sa'd al-Din, *Tac-ut Tevarih* (2 vols., Istanbul, 1862-3), vol. II, pp. 241-2.

(46) Savory, '*The Consolidation*', pp. 82-94; Tansel, Selim, pp. 31-72.
(47)Ahmet Feridun Bey, *Munsa'at-us Salatin* (Istanbul, I858), vol. II, p. 401; and Sa'd al-Din, Tac, vol. II, p. 259, describe the Janissary revolts. On the problems of the Persian frontier see Bekir Kutukoglu, Osmanli-Iran Siyasi Munasebetleri (Istanbul, I962), pp. 36, 144-6; Halil Inalcik, 'Osmanli-Rus Rekabetinin Mensei ve Don-Volga Kanali Tesebbusu (1569)', Belleten, vol. XII/46 (April, 1948), pp. 349-97; and Ibrahim Pecevi, Tarih-I Pecevi (2 vols., Istanbul, 1866), vol. II, pp. 36-7.
(٤٨) يتضح الدور الحاسم لإدريس البدليسى على الحدود الشرقية في:
Sa'd al-Din, Tac, vol. II, pp. 321-3. For his Ak Koyunlu background see Sharaf Khan al-Bidlisi, Sharaf Nameh, ed. Muhammad 'Abbasi (Tehran, I333/1914-15), p. 448.
عن سقوط ماردين ودورها في الغزو العثماني للأراضي المملوكية انظر:
Nejat Goyunc, XVI Yuzyilda Mardin Sancagi (Istanbul, I969), pp. I5-34.

١٥١٥م، وقد حدث ذلك تقريبًا في الوقت الذي سجل فيه ابن إياس المخاوف المملوكية من القوة البحرية العثمانية. وفي يونيو ١٥١٥م، أكمل العثمانيون مسيرتهم ضد الدويلات القبلية التي تفصل سوريا ومصر عن الدولة العثمانية. هكذا تغيرت الأوضاع الحدودية في منطقة جبال طوروس ضد النظام المصري، حيث قام العثمانيون بهزيمة وقتل حاكم ذي القدر، علاء الدولة، ونصّبوا مرشحهم على بك، حاكمًا على البستان سنة ١٥١٥م.(٤٩)

تمركزت قوات سليم البحرية في شرق البحر المتوسط لحماية العمق فضلاً عن دعم قواته الاستطلاعية، ومن ثم شرع في صيف ١٥١٦م في فتح الإمبراطورية المملوكية، التي كانت في مرتبة أدنى من حيث التكنولوجيا العسكرية الحديثة، والعزلة السياسية الخارجية، والانقسامات الداخلية، وعدم المقدرة الدفاعية من حيث المواد ورجال البحرية، هكذا خضعت الإمبراطورية المملوكية للعثمانيين في الشهور الأولى من سنة ١٥١٧م.(٥٠)

واصطدامًا بخصومهم كما تفعل الموجة، فضل العثمانيون مصر على آسيا الوسطى. وعلى الرغم من نصيحة، عليّ أكبر هيتاي بفتح الصين، لم يقم سليم بإرسال حملة عبر السهوب بعد فتحه لمصر، لكنه عاد لمهمة تطوير البحرية العثمانية قبل وفاته سنة ١٥٢٠م. وبمساعدة الاكتشافات المحيطية عمل تاريخ أوراسيا الغربية على تحويل مركز التاريخ الإمبريالي بعيدًا عن سهوب آسيا الوسطى.

مع ذلك لم يكن الفتح العثماني لمصر، ناتجًا فقط عن تغير مستوى التكنولوجيا العسكرية، أو من عدم التوازن في العلاقات الإمبريالية، أو نتيجة للأحداث العارضة. حيث أن مصادر التاريخ العثماني تحتوي على الكثير من الأدلة على أسباب طويلة الأمد للحرب مع المماليك. وبصفة عامة فإن مبررات الهجوم العثماني على دولة أخرى سنية تتلخص في ظلمها السياسي. فقد قامت الأسرة الحاكمة المصرية على سبيل المثال، بدعم أعداء العثمانيين في جنوب الأناضول، وساعدت الأسر المعارضة الحاكمة لدول الشمال، وتحالفت مع الكفار ضد المجاهدين في سبيل الله. وقد هددت التوغلات العسكرية المتكررة للمماليك في الأناضول على طول الحدود الجنوبية، فضلاً عن تدخلهم في الشئون السياسية لدولة ذي القدر الحدودية، سلامة استانبول محور الإمبراطورية. علاوة على ذلك، رفض المماليك الاعتراف بارتفاع مركز إمبراطورية الشمال في العالم التركو إسلامي بعد فتح استانبول. نفس الشكل من الصراع ظهر أيضًا في المنازعات المتعلقة بإخفاق المماليك في تهنئة محمد الفاتح بالاستيلاء على طرابيزون (Trabzon) سنة ١٤٦١م، فضلاً عن مصاعب بين الإمبراطوريتين تتعلق بمساعدات العثمانيين للحجاج، ومشاكل تشتمل على العلاقات الدبلوماسية العثمانية مع الدول الإسلامية في الهند، وأخيرًا بسبب الحرب التي تصاعدت تدريجيًا من قبل العثمانيين وموقف دولتهم فيما يتصل بالمماليك. كل هذه الأمور في النصوص العثمانية تعكس الصراع مع المماليك من أجل التفوق داخل المجتمع السياسي المسلم بعد فتح العثمانيين لاستانبول سنة ١٤٥٣م.(٥١)

مع ذلك فإن نقاط الخلاف تلك، تعد المفاتيح الوحيدة لفهم الأهمية الكبيرة لنمو العثمانيين الهائل داخل العالم الإسلامي عقب فوزهم في جالديران سنة ١٥١٤م.

وعلى الصعيد الإمبريالي، وضع العثمانيون في تقديرهم الحاجة إلى شرعية سياسية جديدة من شأنها أن تعطي لهم السلطة الكافية لحكم دولة مسلمة كبيرة ومعقدة. وقد أثبتت الحروب المستمرة ضد الجماعات التركمانية وغيرها من الدول الإسلامية، أن مكانة الفتوحات الحدودية لم تعد قادرة على ضمان الاستقرار السياسي للدولة العثمانية. وبحلول القرن السادس عشر قادت ديناميكية التوسعات العثمانية إلى صراعات كثيرة مع الأسر الحاكمة الإسلامية الأخرى، مما يجعلنا نتساءل، إلى أي من ألوان الطيف السياسي الإسلامي انتمى العثمانيون. ولتتناسب قوتهم الجديدة مع مبدأ تنظيمي جديد، سعى ورثة عثمان إلى مركز أكثر عالمية داخل العالم الإسلامي، يفوق مسيرتهم كمحاربين. فكان تورطهم في حرب الألقاب ومسألة ما إذا كان سليم قد اتخذ لقب خليفة بعد فتحه لمصر، قرارًا اتخذه العثمانيون لتولى القيادة السياسية للمجتمع الإسلامي بأكمله. ومنذ أن قامت الوحدة السياسية العثمانية بالاعتماد على المشاعر التاريخية المتجذرة بين المسلمين من أجل وحدة المجتمع الإسلامي، سعى أتراك الشمال إلى الاعتماد على رمز تلك الوحدة

(49) Tansel, Selim, pp. 101-7.

(٥٠) عن كل ما يتعلق بالتكنولوجيا العسكرية انظر:

Ibid. p. 193; and David Ayalon, Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom (London, 1956)

وعن الاقتراح الآسيوي انظر:

Seyfi Celebi, *L'Ouvrage de Seyfi Celebi, trans. Joseph Matuz* (Paris, 1968), pp. 19-25.

وعن خطط سليم بعد فتح مصر انظر:

Hess, *The Ottoman Seaborne Empire'*, p. 1911.

(٥١) تلخيص للعداء المملوكي العثماني حتى تولى سليم عام ١٥١٢م في:

Tansel, Bayezit, pp. 93-100

وثائق تصاعد العداء المملوكي للعثمانيين في:

Ibn Iyas, *Histoire de Mamlouks Circassiens 872-906*, trans. Gaston Wiet (2 vols., Cairo, I945), vol. II, pp. 201-I I, 234-5, 240-8, 265, 28o, 302-3, 357.

إبراز استخدام مصر من قبل السياسيين العثمانيين في:

I. H. Uzuncarsili, '*Memluk Sultanlari yanina iltica etmis olan Osmanli Hanedanina mensup Sehzadeler*', Belletin, vol. xvii/68 (Oct. I953), pp. 519-35.

معلومات عن العلاقات العثمانية مع الهند كسبب لحدة التوتر في:

Gelibfltili Mustafa 'All, '*Kiinh-ul ahbar*', Istanbul Univ. Library TY 5959, Iv, fo. 140a.

حول أسباب العداء العثماني المملوكي المتعلق بمسألة الألقاب الإمبريالية:

'Asikpasazade, pp. 200-34,

ولتحليل هذه المسألة انظر:

Halil Inalcik, 'Padisah', IA, ix, pp. 49I-5

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية

العالمية: حماية الأماكن المقدسة، والدفاع عن الحج، ودعم مؤسسة الخلافة أيًا كان شكلها.[٥٢]

في مجتمع كان العنصر الأيديولوجي هو المكون الأسمى، أصبح ارتقاء السلطان العثماني لمركز من يحمى الإسلام السني تعزيزًا هائلاً للدولة العثمانية. وخلال السنوات التالية ستعمل الهيئة الدينية السنية على نشر احترام الدولة العثمانية في كل ركن من أركان العالم الإسلامي. بينما ستعمل هيئة العلماء على دعم السلطة العثمانية، لأن السلطان يعمل على حماية مؤسسات المجتمع، لذلك كان قادة الإسلام السني أيضًا يدينون حركات التمرد ضد نظام استانبول، منذ أن أصبحت الثورة داخل الإطار الإسلامي والطائفية الدينية يعملان معًا. إن السيطرة على الأراضي المأهولة بالمسلمين السنة ثم الانخراط الناجح في الحرب المقدسة في سبيل وضع المجتمع العثماني، أصبحا داخل الإطار أكثر من أي وقت مضى وتحت التأثير المستقر للثقافة الإسلامية التي تم إحياؤها دون منازع. وفي هذا المجال كان نقل العلماء من القاهرة إلى استانبول بعد فتح مصر يرمز إلى الشكل الديني والاجتماعي النهائي للدولة العثمانية التي أصبح أغلبية سكانها من المسلمين. وأخيرًا أدى حكم الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود إلى زيادة السيطرة العثمانية على المجتمعات المشمولة بالحماية، التي قام السلاطين بالفعل بتنظيمها داخل الأطر الإدارية المقتبسة من الإمبراطوريات السابقة في الشرق الأوسط.[٥٣]

إذا كان التوسع الإمبريالي من السهولة بمكان عن طريق التقدم في المناطق التي يكون فيها التنظيم الاجتماعي للأقاليم الجديدة مشابهًا بشكل معقول لبنية الفتوحات، وحيث يمكن التغلب على مشاكل الحكم، يكون بعد ذلك فقط التوحيد العثماني للأراضي العربية مماثلاً لذلك النمو. بعد قرون من خبرة الأسر الحاكمة التركو إسلامية في الحكم، خضع الهلال الخصيب في ذلك الوقت لسيطرة طبقة حاكمة تركو إسلامية أخرى، لم يكن هدفها هو زعزعة التنظيم الاجتماعي الإسلامي للأراضي العربية، ولكن من أجل تنظيم الشعوب الخاضعة تحت مؤسسات الإدارة العثمانية الأكثر فاعلية. وبالتالي فإن الاستيلاء على المجال المملوكي لم يقدم بنية اجتماعية معادية للمجتمع الإسلامي الحضري، بل إن أثر التدخل العثماني أسفر عن درجة أكبر من الاستقرار الطائفي، كما طبقت الدولة العثمانية الممارسات الإدارية الموروثة عن الأسر الحاكمة الإسلامية السابقة وعن الإمبراطورية البيزنطية على منطقة العالم الإسلامي التي تراجعت بها الخبرة الاجتماعية. وقد أكد المؤرخون العثمانيون على هذا التطور الخاص بالإمبراطورية من خلال إطلاق لقب المشرع (القانوني) على سليمان، وهو السلطان الذي خلف سليم سنة ١٥٢٠م.[٥٤]

ولأن عملية دراسة التاريخ الاقتصادي العثماني تعد في مراحلها الأولى، يكون من الصعب قياس النتائج المترتبة على الانتصار العثماني. فمع إرساء الحكم العثماني في مصر، وقعت آخر الطرق التجارية الرئيسية الواقعة ببلاد الشام في أيدي العثمانيين، مما أتاح لهم فرصة إضافية لفرض ضريبة على التجارة التي تمر عبر موانئ الهلال الخصيب. مع ذلك قدم الفتح إضافة ضخمة للاقتصاد الداخلي للإمبراطورية بنفس قدر أهمية الأساس الزراعي الذي تعتمد عليه. فبمجرد استقرار المسئولين العثمانيين وتسجيل الأراضي السورية والمصرية، سجلت الأرقام التي تم دراستها زيادة في الإنتاج الزراعي، وبالتالي زيادة في العائد الضريبي، الذي يجب أن يكون شاملاً جميع الأراضي القديمة للإمبراطورية المملوكية.[٥٥] وبنفس

---

(٥٢) عن أهمية الأماكن المقدسة انظر:

Cutb ed-Din, *Geschichte der Stadt Mekka und ihres Tempels*, ed. Ferdinand Wustenfeld in Die Chroniken der Stadt Mekka (4 vols., Leipzig, I858-61), vol. III, p. 278; and Ibn Iyas, Journal, vol. I, pp. 356-7, 371-4, 401-2.

دراسة مشكلة لقب الخلافة في:

Tansel, Selim, pp. 210-I7

عن الوحدة السياسية في المجتمع الإسلامي انظر:

H. A. R. Gibb, '*The Heritage of Islam in the Modern World (I)*', International Journal of Middle East Studies, vol. I/I (January 1970), pp. 3-17.

عن انعكاسات السياسة الدينية لسليم في جميع أنحاء العالم:

Halil Inalclk, '*Les peuples de l'Europe du sud-est et leur ro1e dans l'histoire: l'empire ottoman*', in Editions de l'Academie Bulgare des Sciences, vol. iii (Sofia, I969), pp. 88-94.

(٥٣) مثالاً لموقف رجال الدين نحو وصول العثمانيين في:

Henri Laoust, *Les Gouverneurs de Damas (Damas, I952)*, pp. I37, I43-7, I54-9.

وعن إجراءات سليم في القدس بشأن غير المسلمين انظر:

Tansel, Selim, pp. 159-60.

وعن مركز مصر في التاريخ الاجتماعي لأوروبا العثمانية انظر:

Stanford J. Shaw, '*The Ottoman View of the Balkans*', in The Balkans in Transition, ed. C. and B. Jelavich (Berkeley, California, I963), p. 67.

(٥٤) كما هو الحال في مناطق أخرى كثيرة، يعد التاريخ الاجتماعي للدولة العثمانية مجرد بداية، مع ذلك بالنسبة للأهداف الداخلية للدولة العثمانية في مصر انظر: قانون نامه مصر (١٥٢٤م) في:

Omer Lutfi Barkan, *Osmanli Imparatorlugunda Zirai Ekonominin Hukuki ve Mali Esaslari* (one vol. to date, Istanbul, 1945-), vol. I, pp. 360-8.

وقد تم تناول المسألة الهامة المتمثلة في التنظيم النقابي في:

Gabriel Baer, *'The Administrative, Economic and Social Functions of Turkish Guilds*', International Journal of Middle East Studies, vol. I/i (Jan. 1970), pp. 49-50.

(٥٥) تم استخدام الأرقام البندقية والوثائق المالية العثمانية من قبل:

Godinho, ' viragem ', pp. I41-4,

وقد دعمت استنتاجات جودنهو دراستين للمصادر العثمانية للأراضي المفتتحة:

Stanford J. Shaw, *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt* (Princeton, New Jersey, 1962), pp. 283-312; and Goyunc, Mardin, pp. 125- 40.

دورية إلكترونية. مُحكَمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الدرجة من الأهمية من الناحية الاقتصادية، كان بإمكان العثمانيين أن يدمجوا بسهولة الموارد الإضافية الزراعية والتجارية الخاصة بالجنوب في الاقتصاد الإمبريالي، من خلال سيطرتهم على شرق البحر المتوسط.(٥٦) ففي عصر بيروقراطية المدن والجيوش النظامية وعمليات الحصار، عملت المساهمة الاقتصادية الكبيرة التي ترتبت على هزيمة الدولة المملوكية على تدعيم التوسعات العسكرية العثمانية خلال ما تبقى من القرن السادس عشر.

كان الالتقاء الإمبريالي في مصر، والذي بدأ في القرن الخامس عشر، قد بدأ يأخذ مجراه في الربع الأول من القرن السادس عشر، تاركًا الإمبراطوريات الغربية لا الشرقية مسئولة عن هذه المنطقة الإستراتيجية. فقد سيطرت الإمبراطورية المركزية التركو إسلامية والتي مقرها استانبول على الهلال الخصيب. مزيدًا من النمو الإمبريالي يعتمد الآن على نوايا الطبقة الحاكمة العثمانية وعلى نوع العلاقات القائمة بين الدولة العثمانية الموسعة حديثًا وبين منافسيها القريبين.

إذا كانت نتائج المنافسة المصرية هي تمركز العلاقات السياسية داخل المناطق الغربية للعالم الإسلامي والتي كانت في صالح العثمانيين، فإن تاريخ السياسة الداخلية في أوروبا تحرك في الاتجاه المعاكس. ففي الربع الأول من القرن السادس عشر تضمنت خريطة العالم المسيحي الغربي مجموعة مذهلة من الدول التنافسية التي تمتلك أشكالاً مختلفة من الحكم. وعلى الرغم من أن التطور اللاحق للدول القومية الأوروبية من شأنه أن ينتج تنظيمات سياسية أكثر قوة من الإمبراطورية العثمانية، إلا أن الصراع داخل وفيما بين الدول الأوروبية المتطورة في القرن السادس عشر أدى إلى تضاؤل قدرتها على المنافسة مع العثمانيين. فعلى سبيل المثال، حدث العداء بين هابسبورج وفالويس(Valois) بمساعدة مباشرة من الجهة العثمانية في البلقان وشمال أفريقيا. وفي حين حكم سليمان المشرع كتلة موحدة من الأراضي الإسلامية على طول الحدود المسيحية من طرابلس إلى نهر الدانوب، أمر شارل الخامس(Charles V) – الرائد في مجال الحرب ضد الإسلام – بالهجوم على حاكم فرنسا، الذي عندما هُزم من قبل الجيش الهابسبورجي سنة ١٥٢٥م، أنشأ تحالف مع العثمانيين وشجع السلطان على الهجوم على الجزء الشرقي من إمبراطورية هابسبورج.(٥٧) وبالمثل وجد العثمانيون أنه من السهل كسر التحالف الإسباني البندقي المبني على أساس خوف البندقية من هابسبورج، فضلاً عن المصلحة الإيطالية في تجارة الشرق.(٥٨) وبالضبط كما قامت الدول الأوروبية باستغلال الانقسامات داخل الإمبراطورية العثمانية في القرن الخامس عشر، شهد مطلع القرن السادس عشر الأتراك وهم يقلبون السياسة الدولية فضلاً عن المنافع الإمبريالية الكبرى لصالح أنفسهم.(٥٩)

كان من الممكن أن توفر الخلفية المسيحية المشتركة للأوروبيين أساسًا للوحدة الغربية في مواجهة توسع الإمبراطورية العثمانية. إلا أن تاريخ القرن الخامس عشر قد شهد تراجعاً لمؤسسة واحدة هي البابوية، والتي كانت تعد الأكثر تمثيلاً للتماسك الديني الأوروبي. علاوة على ذلك، واجهت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية مستقبل غير مستقر، حيث عمل المتمردون دينيًا في الشمال على تقويض المركز العالمي للبابوية من داخل العالم المسيحي. بالتالي أدى فتح مصر إلى وقوع المجتمع الإسلامي الكلاسيكي بثقله تحت السيطرة العثمانية، وخلال نفس العام قام مارتن لوثر بتعليق أطروحاته الخمسة والتسعين على باب كنيسة ويتنبرج (Wittenberg). وحين تحركت أوروبا نحو حرب دينية داخلية واسعة النطاق تنطوي على مجموعة كبيرة من الأشكال الثقافية الجديدة، لم يشهد العالم الإسلامي أي تطور مماثل. لقد تم القضاء على أي تعبير عن الطائفية في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر، وظلت تقتصر على المناطق التي سادت بها الثقافة الفارسية، أو تراجعت إلى مناطق بعيدة عن نطاق الأراضي السنية. لم يكن التشيع بين المسلمين الترك جزءًا من أي تغيير اقتصادي واسع النطاق في المناطق الحضرية، إلا أنه وجد معتنقيه بين الطبقات الدنيا فضلاً عن القرويين والفئات الاجتماعية المتأثرة بالنظام القبلي. لقد أدى اتفاق ديني عام بين النخبة الإسلامية في المناطق الحضرية وبين السلالات العسكرية التركية الحاكمة إلى تكرار التوسع الموحد للإسلام أمام الكفار، وتحول ما كان يحدث شمال حدود الحرب إلى حرب دينية في جميع أنحاء العالم تحت التوجيه العثماني، في الوقت الذي انقسم فيه

وقد عكست أيضًا مصادر غير إسلامية تحسن في الشئون الاقتصادية بعد فتح مصر:

Bernard Lewis, '*A Jewish Source on Damascus just after the Ottoman Conquest*', BSOAS, vol. x/I (I939-42), pp. 179 - 84.

(56) Shaw, Financial, pp. 272-9, 283, 305-7, 3I3-15, 332-5.

هناك الكثير من الوثائق عن أهمية الطريق البحري من استانبول إلى مصر:

Matrakci Nasuh, '*Dastan-i Sultan Suleyman*', TKS R. I286, fos. 54b-55b; Selaniki Mustafa Efendi, Tdrih-i Selaniki (Istanbul, I864), p. 100; and Lutfi Gucer, Osmanli Imparatorlugunda Hububat Meselesi ve Hububattan alinan Vergiler (Istanbul, I964), pp. 32-6.

(٥٧) عن العلاقة بين فتح مصر وتطوير البحرية العثمانية واستغلال التنافس بين هابسبورج وفالويس والانتصار على المجريين سنة ١٥٢٦م انظر:

Kemal Pachazadeh, *Histoire de la Campagne de Mohacz, trans. M. Pavet de Courteille* (Paris, I859), pp. 7-I9, 24-6.

(58) Braudel, *La Mediterranee*, vol. II, pp. 377-82, 415-17.

(٥٩) على الرغم من ذلك أكد المؤرخون الأوروبيون على محدودية التوسعات العثمانية:

H. G. Koenigsberger and G. L. Mosse, *Europe in the Sixteenth Century* (New York, 1968), pp. 174- 96.

ISSN: 2090 – 0449

الحكام الأوروبيون والفئات الحضرية على أنفسهم حول القضايا الدينية الرئيسية.[٦٠]

بينما عمل العثمانيون على ترسيخ الاستقرار الاجتماعي المطلوب من قبل المجتمع المسلم، عملوا في الوقت ذاته على ضمان تدفق الكفاءات إلى المستويات العليا لهيكل الإمبراطورية عن طريق تعبئة رجال الحدود، كما حصل السلاطين على ولاء المجتمعات غير المسلمة والشعوب الواقعة على الحدود. ومن خلال نظام الملة[٦١] قَبِل أهل الكتاب -ولو على مضض- الهيمنة السياسية للإمبراطورية الإسلامية في مقابل الحماية العثمانية. وكما نمت الوحدة الاجتماعية في الشرق الأوسط في ظل قانون جعل السلاطين المسلمين يتعاونون مع القادة الدينيين غير المسلمين، دفعت أوروبا إلى الأمام حركة واسعة زعزعت نطاقاتها الوسطى وهامش نظامها الاجتماعي. إن تأثير هذه الاختلافات على تاريخ الحدود العثمانية الأوروبية هي ذات محورين، أولهما، وجد السلاطين العثمانيين أنه من السهل تحويل طاقات إمبراطوريتهم إلى الخارج خلال القرن السادس عشر، عندما كانت الدول الأوروبية في نفس تلك الفترة لا يمكنها الاعتماد على الحروب الصليبية لحل التناقضات العميقة المتولدة من الحركات الاجتماعية الجديدة. لذا فإن زعماء أوروبا واجهوا صعوبات كبيرة للحفاظ على سياسات إمبريالية متناغمة، لأن السلطات الحاكمة قد وجدت -كما هو الحال بالنسبة للهابسبورج النمساوية- أنه من المستحيل الحصول على فئات اجتماعية متنازعة تتفق في القضايا الرئيسية ماعدا في الظروف غير الطبيعية. ثانيًا، كان العثمانيون قادرين على إدماج سكان الحدود وغير المسلمين القاطنين على الحدود في البلقان، من الألبان والبوجوميل (Bogomils) والمسيحيين الأرثوذكس، بينما عملت الدول المسيحية على امتداد البحر المتوسط على طرد اليهود والمسلمين والمسيحيين المبتدعة. إن العديد من أولئك الذين تم استبعادهم من مجتمع الغرب الأوروبي ساعدوا العثمانيين عندما قاموا فقط بإظهار كيف استفادت أسرة حاكمة تركو إسلامية من الجانب السلبي للحركات الاجتماعية الغربية.[٦٢]

مرة أخرى في المجال الاقتصادي، لا نعرف إلا القليل جدًا عن العائد النسبي للتوسع الإمبريالي لدول البحر المتوسط في النصف الأول من القرن السادس عشر. فكلا الخصمين الرئيسيين في الحرب العالمية للقرن السادس عشر -هابسبورج والعثمانيين- أضافا أرضًا واسعة لإمبراطوريتهما في الوقت الذي شهد فيه تاريخ الحدود اختلافًا واسعًا. وعما إذا كانت قد زادت تلك الإضافات بشكل كبير من القوة المالية لكلا الإمبراطوريتين أم لا، توقف ذلك على الدرجة التي تم بها دمج الأراضي الجديدة اقتصاديًا في إطار كل دولة. فبالنسبة لإسبانيا، التي استمرت مشاكلها الاقتصادية خلال القرن السادس عشر، لعب عائد استغلال العالم الجديد دورًا صغيرًا جدًا في سياسات شارل الخامس، حيث بلغ في المتوسط من مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف دوكة سنويًا حتى سنة ١٥٥٠م، أما عن التحويلات المالية السنوية إلى استانبول من السيطرة العثمانية على الأراضي المملوكية سنة ١٥٢٥م، وفقًا للمؤرخ البندق سانوتو (Sanuto)، بدأت بحوالي أربعمائة ألف دوكة وارتفعت بشكل كبير كما أثبت ستانفورد شو (Stanford J. Shaw) في دراسته للإدارة العثمانية في مصر. وعلاوة على ذلك، كان غزو وتنظيم العالم الجديد له تأثير الطرد المركزي في التاريخ الاقتصادي للبحر المتوسط، واستنزاف اسبانيا للموارد الأيبيرية من خلال إنشاء حدود أخرى بعيدة وغير محمية. ومن ناحية أخرى لم يتعامل العثمانيون في سوريا ومصر مع مسافات كبيرة مماثلة، أو مع مشكل تنظيمية مثل التي واجهت الأسبان في العالم الجديد، بل إنهم ورثوا بنية تحتية اقتصادية قائمة بالفعل سرعان ما قاموا باستغلالها.[٦٣] وبالمثل بلغت أهمية

(٦٠) كمثال على كيفية محاولة العثمانيين الاستفادة من الصعوبات الدينية الأوروبية انظر:

Andrew C. Hess, '*The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain*', The American Historical Review, vol. LXXIV/I (Oct. 1968), pp. I-25; for Eastern Europe consult S. A. Fischer-Galati, *Ottoman Imperialism and German Protestantism, 1521- I555* (Cambridge, Mass., 1959), pp. 38-56.

وعن كيفية اتساع نطاق الحرب على أسس دينية بين العثمانيين والأيبيريين حتى جنوب شرق آسيا انظر:

C. R. Boxer, '*Portuguese and Spanish Projects for the Conquest of Southeast Asia 1580-1600*', Journal of Asian History, vol. III /2 (1969), pp. 118 - 36.

(٦١) تم وصف استخدام هذا المصطلح في التاريخ العثماني عن طريق:

H. A. R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West*: volume I, Islamic Society in the Eighteenth Century (vol. I in 2 parts to date, 1950-7), vol. 1/2, pp. 207-61.

(٦٢) عن استيعاب المسيحيين الأرثوذكس انظر:

Franz Babinger, *Mahomet II, le conquerant et son temps* (1432-1481) (Paris, 1954), pp. 130-1.

مناقشة الحالة الألبانية في:

Halil Inalclk, '*Arnawutlulk*', EI2,vol. I, pp. 65I-8

عن الفتح العثماني وضم البوسنة والهرسك انظر:

Branislav Djurdjev, '*Bosna*', EI2, vol. I, pp. I261-75

عن الأسبان المسلمون وتأثيرهم على السياسة في البحر المتوسط انظر:

Hess, '*Moriscos*', pp. 1-25

عن نشاط لاجئي أيبيريا من اليهود المؤثرين انظر:

P. Grunebaum-Ballin, *Joseph Naci duc de Naxos* (Paris, I968)

(٦٣) فيما يتصل بالوضع المالي للمغامرات الإمبريالية الإسبانية انظر:

E. J. Hamilton, *American Treasure and the Price Revolution in Spain, 1501-1650* (Cambridge, Mass., I934), pp. 32-4, provides the economic data; Elliot, Imperial Spain, pp. I79-204, 281- 316.

عن العواقب الاقتصادية المترتبة على حرب السياسة الإسبانية على الحدود الشمالية في البحر المتوسط انظر:

Geoffrey Parker,' *Spain, Her Enemies and the Netherlands, I559-I648* ', Past and Present, no. 49 (Nov., 1970), pp. 72-95.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الاقتصاد العثماني من خلال العلاقات بين الإمبراطورية والولايات التجارية للبندقية والبرتغال. ولم يقتصر الأمر على طول الرحلة وتكلفتها من لشبونة إلى الهند، ولكن أيضًا لم يكن في استطاعة البرتغال نقل أنواع أو كميات كافية من البضائع في سفنهم يمكن أن تحل محل الشحنات الإسلامية التي تم تبادلها في الهند مقابل المنتجات الشرقية. تدريجيًا أدت تكاليف المنافسة العسكرية مع العثمانيين فضلاً عن حجم المشاكل الاقتصادية إلى حث البرتغال على فتح مفاوضات سلام مع العثمانيين سنة ١٥٦٣م. وفي الوقت نفسه أبدت البندقية استعدادها للتعامل مع الإمبراطورية العثمانية لزيادة تجارة التوابل بالبحر المتوسط في أعقاب السيطرة على مصر في الربع الأول من القرن السادس عشر.[٦٤] وخلاصة القول؛ أسفر العائد الاقتصادي للتوسع العثماني سنة ١٥١٧م عن عوائد مالية مباشرة عملت على تمويل المزيد من الحملات العسكرية. ومن جهة أخرى نتج عن نمو الإمبراطورية الإسبانية في أوائل القرن السادس عشر عائدات فورية قليلة، وعلى المدى الطويل شجعت الظروف الاقتصادية اسبانيا على الانسحاب من الحرب ضد الترك. وفى الوقت نفسه أجبرت المصالح الاقتصادية على أطراف الإمبراطورية المملوكية المنحلة كل من البنادقة والبرتغاليين على التصالح مع دولة الترك الكبرى.

بصفة عامة، لم يكن تضاعف الدولة العثمانية سنة ١٥١٧م سببًا لبداية الحرب العالمية للقرن السادس عشر فقط، ولكنه أيضًا تسبب في الإخلال بتوازن القوى في المنطقة الأفروأوروبية لصالح استانبول وليس المحيط الأطلسي. وقد تبين ذلك من خلال الحدود أكثر من أى تقارير للسفراء. هكذا زَينت واحدة تلو الأخرى من تلك الحملات العسكرية الناجحة، المخطوطات العثمانية بصور حيوية حتى نهاية القرن السادس عشر.[٦٥] وبالنسبة للمنافس الرئيس للعثمانيين، النظام المسيحي القديم للبحر المتوسط، خلد إلجريكو (El Greco) التحديات الداخلية والخارجية لتلك الهوية في بورتريه رسمه للكاردينال دون فرناندو نيفيو دى جيفارا (Don Fernando Nifio de Guevara)، المحقق الإسباني.[٦٦] وإلى الشمال والشرق أثارت جميع التوترات التي يعانى منها المجتمع الأوروبي صيحة الحرب الشهيرة من قبل رجل لا يقف فقط على حدود الصراع العثماني النمساوي، لكنه يقف أيضًا على حدود حقبة جديدة لحقوق الإنسان. فبعد أثنى عشر عامًا من فتح مصر، في عام الحصار العثماني لفيينا، وضع مارتن لوثر نشيده البرتستانتى الشهير "حصن العزيز هو إلهنا" (A Mighty Fortress is Our God)[٦٧]، والذي استخدمه كرمز دفاعي يعكس بدقة موقف التقسيم الذي هدد أوروبا من قبل الإمبراطورية العثمانية التي وصلت إلى ذروة نضجها.

على الجانب العثماني انظر:

Shaw, Financial, pp. 283-5, and Sanuto, vol. XLI, cols. 534-5.

(٦٤) عن كيفية وصول الأنشطة الاقتصادية العثمانية إلى إندونيسيا انظر:

Godinho, L'Economie, pp. 573-4, 630-1, 7I3-834; and V. J. Parry, '*The Economy of Expanding Europe in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*', in The Cambridge Economic History of Europe (4 vols. to date, London, I966-), vol. iv, pp. I55-200. C. R. Boxer, '*A Note on Portuguese Reactions to the Revival of the Red Sea Spice Trade and the Rise of Acheh, 1540 - I600*', JSEAH, vol. x/3 (Dec. I969), pp. 415-28.

(65) Richard Ettinghausen, *Turkish Miniatures* (New York, I965), pp. 5-24.

(66) Gianfrancesco Morosini, '*Venetian Ambassador's Report on Spain, I581*', in Pursuit of Power, ed. James C. Davis (New York, 1970), p. 73.

(٦٧) عن انعكاسات الخطر التركي في أوائل القرن السادس عشر انظر:

German hymns see Sydney H. Moore, '*The Turkish Menace in the Sixteenth Century*', The Modern Language Review, vol. XL (1945), pp. 30-6.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الندوة الدولية الرابعة



تاريخ الطباعة والنشر بلغات وبلدان الشرق الأوسط

٢٧ – ٢٩ سبتمبر ٢٠١١
مركز المخطوطات – مكتبة الإسكندرية



علي عفيفي علي غازي
صحفي وأكاديمي مصري

عُقدت الندوة الدولية الرابعة لمركز مخطوطات مكتبة الإسكندرية تحت عنوان "**تاريخ الطباعة والنشر بلغات وبلدان الشرق الأوسط**" بمبنى مركز المؤتمرات التابع للمكتبة في الإسكندرية، عروس البحر الأبيض المتوسط، في الفترة من السابع والعشرين إلى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠١١، برعاية الأستاذ **الدكتور إسماعيل سراج الدين** مدير مكتبة الإسكندرية، ورئاسة الأستاذ **الدكتور يوسف زيدان** مدير مركز المخطوطات. شارك في الندوة باحثون من معظم دول الشرق الأوسط، وجاءت الندوة استمرارًا للندوات الدولية الثلاث السابقة التي عُقدت في متحف جوتنبرج في ميتز سنة ٢٠٠٢، وفي مكتبة فرنسا الوطنية في باريس سنة ٢٠٠٥، وفي جامعة ليبزغ في ألمانيا سنة ٢٠٠٨، وتضمنت أبحاث جديدة مبتكرة، تناولت جذور الطباعة، وتاريخ تطورها بلغات بلدان الشرق الأوسط في المجالات المختلفة: العلمية والفكرية والأدبية والفنية. توزعت أعمال المؤتمر في مدار ثلاثة أيام على ست عشرة جلسات والجلسة الافتتاحية والجلسة الختامية التي تضمنت توصيات الندوة.

افتتح الدكتور **إسماعيل سراج الدين** مدير المكتبة، **وأرمين ملكونيان** سفير جمهورية أرمينيا لدى مصر، والدكتور **جيفري روبر** الخبير في مجال الببليوجرافيا الإسلامية ومؤسس سلسلة الندوات الدولية للطباعة والنشر، أعمال الندوة بالترحيب بالضيوف والباحثين المشاركين في الندوة الدولية الرابعة لمركز المخطوطات، كخطوة جديدة على الدرب الذي انتهجته مكتبة الإسكندرية، درب استكشاف الماضي، وفهم الحاضر، واستشراف المستقبل، ثم افتتح معرضي "المطبوعات الأرمينية القديمة"، و"الخطوط العربية الرقمية".

الطباعة الأرمنية

وبدأت أعمال الندوة، حيث قدم الأستاذ الدكتور **محمد رفعت الإمام** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب، جامعة دمنهور، بحثًا عن "**الطباعة الأرمنية في مصر الحديثة: مواكبة الحداثة ودعامة الهوية**" أكد فيه أنه بالرغم من صغر عدد الجالية الأرمنية في مصر الحديثة قياسًا إلي الجاليات الأخرى، فإنها قامت بدور ملحوظ في التاريخ المصري الحديث في جميع المناحي بدءًا من الاقتصاد والإدارة، ومرورًا بالسياسة وانتهاءً بالثقافة والفنون. مشيرًا إلي أن الأرمن كانوا من "أدوات" و"قنوات" التحديث في مصر؛ إذ تميزوا بالعمل في بعض المجالات غير المألوفة في الفضاء المصري مثل تصليح الساعات والزنكوغراف وصناعة الفراء. ومن هذا القبيل أيضًا، أسهم الأرمن المصريون في المنظومة الطباعية المصرية عمومًا، وكل ما هو وثيق الصلة بالعملية الطباعية. أكثر من هذا، أوجد الأرمن المصريون "المطبعة الأرمنية" التي قامت بدور مهم في الحفاظ على هويتهم ولغتهم وأبجديتهم. وفي هذا الخصوص، أسس الأرمن أكثر من ٤٠ مطبعة بالقاهرة والإسكندرية، تفاوتت في حجمها وتقنياتها وشهرتها واستمراريتها. وتعتبر مطبعة "أراراد" أقدم مطابع الأرمن في القاهرة (١٨٩٦)، بينما كانت مطبعة "نازاريتيان" أقدم مطبعة أرمينية في الإسكندرية (١٨٩٩).

دورية الكترونية، مُحكَّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ويُلاحظ أن معظم هذه المطابع قد حملت أسماء أرمينية، تمحور نشاطها الطباعي حول طباعة الصحف الأرمنية، وجميع المطبوعات باللغات المختلفة لاسيما بالأرمينية. وتُعد "الطباعة الفنية" (فوتوليتو أوفست) من الأنشطة الطباعية المهمة التي مارسها الأرمن. وفي هذا المنحي، تأتي مطبعة "روز ماتوسيان" كأهم وأكبر وأشهر مؤسسات الطباعة الفنية ليس على المستوى الأرمني فحسب، بل وعلى المستوى المصري. وأسهم الأرمن بدور ملموس في مفردات الأسرة الطباعية لاسيما صناعة الأحبار والصمغ والزنكوغراف والتجليد وغيرها. ولهذا حاول الباحث توضيح مدى الإسهام التقني للأرمن في المنظومة الطباعية المصرية عمومًا و"الأرمنية" خصوصًا، ومدى الإسهام الثقافي والاجتماعي للطباعة الأرمنية لاسيما في قضية الهوية، وما هو المردود السياسي للمنتج الطباعي الأرمني؟.

الليثوغراف الشعبي

وشارك الدكتور **مصطفى الرزاز** بكلية التربية الفنية، جامعة حلون ببحث عن "**الأرمن المصريون وطباعة الليثوغراف الشعبي**"، فأوضح أن الأرمن حينما نزحوا إلى مصر هربًا من الأتراك كان من بينهم أصحاب مهارة حرفية متمرسون على الطباعة الليثوغرافية فشاعت في الأسواق الشعبية مطبوعات رسمها فنانون شعبيون مصريون على الحجر وطبعوها بمعاونة الطباعيين الأرمن، وكانت تلك اللوحات تطبع على ورق رخيص بألوان أساسية قوية متراكمة بفعل تحريك القالب الحجري كل مرة، وبذلك أصبحت نوعًا شعبيًا حديثًا للطباعة الليثوغرافية المصورة التي تعبر عن سير الفروسية والأولياء والبُراق الشريف مع كتابة وزخارف بيئية مصرية، أيضًا طبعوا لوحات أخرى كتابية خالصة ذات إطارات زخرفيه وأشكال رمزية كالكف والهلال والنجوم والأشرطة وأحجبة عليها رموز وجداول سحرية وأدعية دينية، وكانت هذه المطابع موجودة في أحياء حارة الحلبية بالأزهر وشارع محمد علي في باب الخلق.

كذلك قدم **علي ثابت صبري**، بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ورقة بحثية عن "**دور الطباعة في تفعيل القضية الأرمنية في الدولة العثمانية**". فأوضح أن الطباعة تُعد عاملاً محوريًا في التواصل الثقافي والحضاري بين الأمم، لأنه يقوم على أساسها نقل الثقافات والحضارات من شعب إلي آخر، ومنذ أن قام الألماني "جوتنبرج" باختراع آلة الطباعة التي تُعد الأداة الأولي لنشر الثقافة، أيقن الأرمن ضرورة تلك الآلة وأنهم بواسطتها يمكنهم نقل ذخائر من الإرث الثقافي والحضاري الأوربي القديم والحديث إلي أمتهم، وكذا من خلال تلك الآلة يستطيعون محاربة ذوبانهم في خضم الفسيفساء من شعوب الدولة العثمانية. تمثلت البادرة الجنينية لميلاد الطباعة الأرمنية في المحاولة الناجحة للأرمني "هاكوب ميجابارد" سنة ١٥١٢، بطبع خمسة كتب أرمينية دفعة واحدة في مطبعة "زوان أندريا" في فينسيا بإيطاليا، وتتابعت المحاولات إلي أن قام الأرمن في سنة ١٥٦٧ بإنشاء أول مطبعة في الدولة العثمانية واستخدموها في طباعة كتبهم وآثارهم، كذلك في سنة ١٧٧١ جلب الأرمن عدة مطابع وأنشئوا معملاً للورق وأخذوا بطبع كتبهم الحديثة والقديمة، ولم يكد القرن التاسع عشر ينتصف إلا وكان للأرمن مطبعتان في الأستانة، وذلك سنة ١٨٤٥. ونظرًا للارتباط الوثيق بين الطباعة والصحافة، قد مثلت النهضة الأرمنية في هذا المجال دفعة قوية للصحافة الأرمنية في الدولة العثمانية في الفترة من (١٨٦٢-١٨٧٨)، حيث ارتفع عدد الصحف الأرمنية حتى وصل إلي (٨٨) مجلة وجريدة يومية وشهرية في الأستانة وأزمير وباقي الولايات الأرمنية.

وأثرى هذا النشاط الكبير للطباعة الأرمنية المجال التعليمي للأرمن، ففي سنة ١٨٤٥ وجدت في الأستانة ١٠ مدارس أرمنية، وفي سنة ١٨٥٩ ارتفع العدد إلي ٤٢ مدرسة ضمت ٥٥٠٠ طالبًا أرمنيًا، وأُنشئت (١٥) مكتبة عامة أيضًا. وعلى خط متواز تمخض عن تلك الحركة الثقافية والتعليمية التي أحدثتها الطباعة الأرمنية جيل أرمني واعيًا ومثقفًا، أخذ يتدرج في منظومة الدولة العثمانية إداريًا وسياسيًا، حتى أصبح الأرمن عنصرًا مميزًا داخل الدولة. ومع عوامل الضعف التي هزت الكيان العثماني، وخصوصًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وظهور الحركات القومية في البلقان وحصول بعضها على الحكم الذاتي، شعر الأرمن بأنهم ليسوا أقل من تلك الشعوب التي سعت وراء استقلالها، ومن ثَمَّ فإن الجيل الذي أفرزته الحركة الثقافية الواسعة التي تمخضت عن نهضة الطباعة الأرمنية، حمل لواء المطالبة باستقلال الأرمن، وعادت الطباعة الأرمنية لتلعب نفس الدور الذي لعبته في قيام النهضة الثقافية، فظهرت الصحف الثورية من أمثال "الهنشاك" أو الجرس، لتهيئة الشعب الأرمني للمطالبة بالاستقلال وكذلك لعرض القضية الأرمنية على الدول الأوربية، وبهذا فقد أسهمت الطباعة الأرمنية في تربية جيل أرمني مثقف، ثم بعد ذلك في بث الروح الثورية فيه ليطالب باستقلاله.

المردود الثقافي للطباعة

وكان بحث **آلاء فهيم أحمد** بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، عن "**المردود الثقافي للطباعة الأرمينية في استانبول (١٨٣٩-١٨٧٨)**"، فأوضحت أن النهضة الثقافية الأرمنية في الدولة العثمانية ترتبط بازدهار فن الطباعة خاصةً في القرن التاسع عشر. فمنذ اختراع آلة الطباعة على يد الألماني "جوتنبرج"، أدرك الأرمن مدى الأهمية التي جاء بها هذا الاختراع المتواضع. فما لبثوا أن عملوا على إدخال هذه الآلة إلى الدولة العثمانية خاصةً مدينة استانبول حاضرة الخلافة آنذاك. لقد كان للطباعة الأرمنية في استانبول دور قوى على النهضة الفكرية الأرمنية خاصةً منذ بداية عصر التنظيمات ١٨٣٩ وحتى مؤتمر برلين وبداية المسألة الأرمينية ١٨٧٨، فقد ساعد الأرمن على ازدهار دور العثمانيين في الصحافة والترجمة وبعض الفنون الأدبية، وذلك في استانبول وغيرها من المدن العثمانية. فمنذ سنة ١٨٤٥ كان للأرمن مطبعتان في استانبول وثلاث مطابع في أزمير، ثم ما لبث أن تضاعف عدد هذه المطابع مما

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ساعد على صدور العديد من الصحف، والمجلات، والدوريات اليومية والشهرية التي كان يصدرها الأرمن في استانبول وأزمير وغيرها من الولايات الأرمينية. هذا إلى جانب الدور الذي لعبته الطباعة الأرمينية في الترجمة، فلقد قامت مؤسسة "داديان إخوان" الأرمنية للطباعة بترجمة العديد من المجلدات والكتب إلى اللغة الأرمينية وطبعها في آلاف النسخ، كما ترجمت التراجيديات الكلاسيكية الأرمنية وتم أداؤها على أول مسرح أسس في استانبول، وكان تحت إدارة "مكرتيش بيشيكتاشليان" (١٨٢٨-١٨٦٨). هكذا كان للطباعة الأرمنية تأثير ومردود قوى على الجانب الثقافي الأرمني وازدهار اليقظة الفكرية والأدبية للأرمن في هذه الفترة.

الطباعة والمجتمع

أما الأستاذ الدكتور **خالد عزب** مدير إدارة الإعلام، بمكتبة الإسكندرية، فقد قدم بحثًا عن "**الطباعة والمجتمع في مصر: التغييرات والتحولات**"، فأكد على أن التغيرات والتحولات السياسية والاجتماعية هي مرآة أي مجتمع إنساني طوال التاريخ، تلك التغييرات والتحولات هي التي تعطي مفردات مستقبله والواقع الذي يعيش فيه، ولاشك أن طبيعة المجتمع المصري بالظروف التاريخية التي مر بها في تاريخه الحديث والمعاصر تجعل دراسته وفق منهج أو إطار محدد أمر صعب للغاية، لكن تحديد واحدًا من الصور الحضارية ومحاولة قراءة تاريخ مصر من خلالها تعطي وبجلاء شديد سمات العصر وصفاته، فكان ارتباط ظهور الطباعة بحملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ والذي حمل معه ثلاث مطابع مجهزة بحروف عربية ويونانية وفرنسية، وكان الهدف الأساس لهذه المطابع هو طباعة المنشورات والأوامر، وكانت تقوم بعملها في عرض البحر حتى سنة ١٨٠١. وقد أدرك بونابرت منذ اللحظة التي قرر فيها احتلال مصر أن الدعاية هي السلاح الماضي الذي يكسب به قلوب المصريين، لكن فشل الحملة الفرنسية وجلاءها كان نهاية الموضوع برمته، وبعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر في سنة ١٨٠١، استطاع محمد علي أن يصعد إلى سدة الحكم، وبدأ يفكر في بناء بلد قوي سواء من الناحية السياسة، أو العسكرية، أو الاقتصادية، فبدأ بإنشاء المؤسسات على النمط الأوروبي الحديث، ومن بين المشروعات التي احتاج إليها في مسيرته التنموية، كانت إنشاء مطبعة تنشر كل ما يراه مناسبًا لاستقرار دولته، حيث بدأ محمد علي يفكر في إدخال الطباعة إلى مصر منذ سنة ١٨١٥، وأسس ما عرفت بعد ذلك بـ "المطبعة الأميرية"، ثم مطبعة بولاق، وبنفس تفكير نابليون خطط محمد علي لتكون المطبعة واحدة من أدوات تأكيد سيطرته، فكانت المطبعة في المرحلتين شاهدة على التغيرات والتحولات في المجتمع المصري، وكان لها دور في صياغة التغييرات والتحولات في مصر.

الطباعة والتواصل الحضاري

وشارك الدكتور **توفيق توفيق** من جامعة مازندار، في الجمهورية اليمنية، بمشاركة **علي بن رباع**، بورقة بحثية عن "**الطباعة ودورها في التواصل الحضاري والثقافي العربي الفارسي**"، فأوضح أن الطباعة لا تزال فن من فنون التواصل الحضاري والثقافي والإنساني بين القوميات والأقليات والأمم الأخرى، ولقد سطر التاريخ بدايات حضارات الأمم وثقافتها فيما بينها ونسج في مؤلفاته القصص، والروايات، والمعارك، والحروب، وسير العلماء، والفقهاء، والأدباء، وانتقلت عن طريق علمائهم ومفكريهم ووجدت لها موطنًا لم يكن موجودًا من قبل، فما تم اكتسابه بين الأمم والدول وما أشارت إليه كتب السير والآثار واللغة والأدب يبين أن للطباعة مجال لا يستهان به في نقل حضارات وثقافات لم تكن موجودة عند غيرها. وعلى هذا سلط الباحثان الضوء على مكانة الطباعة في التاريخ ودوره في تعزيز التواصل الحضاري والثقافي بين الدول مع الإشارة إلى إسهاماته في توثيق التواصل العربي الفارسي.

وقدمت الدكتورة **حنان عبد الفتاح مطاوع** بحثًا عن "**أشكال وتقنيات الطباعة التراثية في ضوء قطعتين من النسيج المملوكي المطبوع**"، فأكدت على أن الطباعة تعد وسيلة من الوسائل الفنية المستخدمة في زخرفة المنسوجات برسومات ملونة تتم بطريقتين هما: الطباعة بالقوالب الخشبية، والطباعة بالمواد العازلة. والطباعة تعد نوعًا من أنواع الصباغة غير أن القماش لا يتخذ لون واحد يغمره محلول الصبغة بل تتم الطباعة بنقل عجائنها إلى سطح النسيج أو القماش. وفن زخرفة المنسوجات الإسلامية المطبوعة يعد تطورًا لما كان عليه هذا الفن في مصر منذ العصر الفرعوني، وحتى العصر القبطي. أما في العصر الإسلامي فقد قل استعمال الطباعة في زخرفة النسيج لظهور طرق جديدة نافست هذه الطريقة التي عادت للظهور بشكل واضح في العصر المملوكي لتلاءم استخدام النسيج القطني الذي انتشر في هذا العصر، وقد وصلتنا قطعتين محفوظتين في متحف الآثار بكلية الآداب جامعة الإسكندرية لم يسبق نشرهما ينتميان إلى العصر المملوكي مصنوعتان من القطن، الأولى مطبوعة بزخارف هندسية ونباتية تشبه قطع النسيج القطني المطبوع الذي انتشر في العصر المملوكي، والثانية مطبوعة بزخارف نباتية متعددة الألوان متأثرة إلى حد كبير بالمنسوجات القطنية المطبوعة في الهند، التي اشتهرت منذ زمن بعيد بملابسها القطنية المزخرفة بالزهور المطبوعة بطريقة القالب، ومن المرجح أن هاتان القطعتان من صناعة مدينة الإسكندرية والتي ذاع صيتها في مجال الصناعات النسجية القطنية منذ العصر الأيوبي وطوال العصر المملوكي، حيث تحولت إليها معظم أنوال النسيج من مدن الدلتا نتيجة للتخريب الذي لحق بمعظم تلك المدن خلال الحملات الصليبية.

الطباعة عن أصل مخطوط

أما **محمد حسن** من مركز الخطوط في مكتبة الإسكندرية، فقد شارك ببحث عن "**دراسة لفلسفات النصوص المطبوعة عن أصل مخطوط في مصر في القرن التاسع عشر**"، فأوضح أن الكتاب المطبوع يلعب مع سلفه المخطوط واحدًا من أهم روافد المعرفة

الإنسانية الحديثة، وكان لظهور الطباعة في مصر أبلغ الأثر في شكل وطريقة إخراج الكتاب، والاستعانة بحروف الصف اليدوي وحروف الطباعة المختلفة الأشكال والطرق، لكن جانبًا هامًا في التأريخ لعملية الطباعة والإخراج الفني فيها لم يدرس بشكل موسع، وهو طباعة بعض الكتب بخط اليد على الرغم من توفر الحروف الطباعية وتعدد أشكالها في تلك الفترة. ثم طرح سؤال عن طبيعة وماهية الموضوعات وارتباطها بخط اليد؟ وهل لها درجة قداسة معينة تجعلها تكتب بهذه الطريقة (كالقرآن الكريم مثلاً)، وهل اصطبغت تلك الصفة من القداسة على بعض المؤلفات الدينية الأخرى (ككتب المتصوفة مثلاً)، أم إنها ارتبطت بواقع فني غير متطور لا يفي بمتطلبات إخراج الكتاب المطبوع (كالكتب الهندسية مثلاً)، أم هي ارتباط وجداني ونوع من أنواع النوستالجيا (Nostalgia) لما هو قديم؟ لذلك تتعدد أوجه التفكير في الموضوع، وتتعدد مناهج البحث فيه بين منهج إحصائي وفني ووصفي، إلى جانب المنهج التاريخي الذي يغلف كل ما سبق من مناهج بحثية، لذلك يتمحور البحث على المقارابات المنهجية والمتبعة ومحاولة الربط بينها لإظهار واحد من أهم صور فن الخط العربي من جانب، والطباعة المعاصرة من جانب آخر، وفق العناصر التالية: مفهوم الكتاب المخطوط والمطبوع، ومناهج البحث فيه، المواضيع المعرفية للكتاب المخطوط والمطبوع، صور الإخراج الفني للكتاب المخطوط والمطبوع، إحصاء للكتاب المخطوط والمطبوع في مصر في القرن التاسع عشر، وإضاءات على صورة من صور الاهتمام بالتراث الثقافي في مصر.

رؤية العوام للطباعة

وشارك الدكتور **عوض الشرقاوي** في كلية الآداب، جامعة طنطا، ببحث عن "**رؤية عوام المصريين للطباعة إبان الحملة الفرنسية**"، فأوضح أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بمثابة صدمة حضارية، اصطدم فيها المجتمع المصري بتوهج حضاري ساطع، وقد كانت الطباعة أهم ما اصطدم به المصريون، فمن المعروف أن ظهور فن الطباعة بمعناه الحديث في مصر قد تم في عهد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١)، حين أدرك بونابرت منذ اللحظة التي قرر فيها احتلال مصر أن الدعاية هي السلاح الماضي الذي يكسب به قلوب المصريين، فكان عليه أن يعد العدة لحملة من الدعاية يوطد أركانها بمطبعة يحملها معه لتساعده فيما يرمي إليه. وكانت المطبعة الرسمية التي أحضرتها الحملة معها إلى مصر تنقسم إلي قسمين: المطبعة الشرقية، والمطبعة الفرنسية، وكانت تتكون من ثلاث مطابع باللغة الفرنسية، واثنين باللغة العربية، وواحدة باللغة اليونانية، وكان يشرف على هذه المطابع "مارسيل"، ثم كانت هناك مطبعة خصوصية صاحبها هو "مارك أوريل"، وقد أنتجت مطبعة "مارسيل" في الإسكندرية قانون العقوبات العسكرية، وكتاب حروف الهجاء العربية والتركية والفارسية، وكتاب تمارين للقراءة العربية مستخرجة من القرآن الكريم؛ وذلك لمساعدة أولئك الذين يريدون معرفة هذه اللغة، ونظرًا لأهمية ذلك الموضوع فقد ناقش الباحث مدى تأثير تلك الصدمة على المجتمع المصري، ولكن من زاوية مختلفة؛ هي رؤية عوام المصريين لذلك الاختراع العجيب، وكيف نظروا إليه؟ وما مدى تأثير ذلك الاختراع عليهم؟ وهل نجح فيما رمى إليه نابليون؟ وما الصورة الذهنية التي رسمها عوام مصر عن ذلك الاختراع العجيب "من وجهة نظرهم"؟ وكيف تم تقييم الطباعة شعبيًّا في مصر إبان الحملة الفرنسية؟.

الطباعة والتاريخ الاجتماعي

وشارك الدكتور **نادر سراج** الأستاذ بجامعة لبنان ببيروت، ببحث عن "**النصوص المطبوعة حينما تحفظ التاريخ الاجتماعي: دليل بيروت لعام ١٩١٠ نموذجًا**"، فأوضح أن "دليل بيروت وتقويم الإقبال لسنة ١٣٢٧ هجرية"، هو أول دليل مفصل صدر في بيروت عن "مطبعة جريدة الإقبال" في العام ١٩١٠م، لم يكن هذا الدليل الأول من نوعه، إذ سبق لأمين خوري أن أصدر كتاب الجامعة أو "دليل بيروت" عن المطبعة الأدبية سنة ١٨٨٩، وفي سنة ١٩٠٨، أصدر كل من أمين عبد العال، وعبده عبد النور "دليل سوريا ومصر التجاري" الذي تضمن فصلاً من ٢٥ صفحة عن بيروت باسم "دليل بيروت". أما تقويم الإقبال فهو ثمرة جهود عبد الباسط أفندي الأنسي، صاحب جريدة "الإقبال" (أسسها والده سليم الأنسي سنة ١٣٠٨هـ) والمكتبة الأنسية، وهو الأول من نوعه الذي يرصد تطور عمران بيروت واتساع تجارتها على سنن الارتقاء العام، ويضم في دفتيه تقويمًا لسنة ١٣٢٧ هجرية، ودليلاً مفصلاً للأماكن والأشخاص والمهن والحرف والمناسبات، وقد واتت المؤلف فكرة إعداده في أوائل عهد الدستور وإعلان القانون الأساسي سنة ١٩٠٨. أما مقاصده فتمثلت في "تسهيل ربط الوسائل والأشغال وتقريب المواصلات مع البلاد النائية حتى يقف كل وطني على أحوال بلده وأسماء مواطنيه، بمعنى أنه رغب في وضع مختلف المعطيات التي جمعها وصنفها بتصرف أبناء بلده تعميمًا للفائدة، وبغية تيسير سبل التواصل فيما بينهم، أما المقاصد الأخرى فهي في اعتماده "شمسًا للغريب يستضيء بها في ظلام الغربة وتكفيه مئونة السؤال، وبالاختصار فهي دليل يدل كل إنسان على مرامه ومراده"، وسلط الباحث الضوء على أهمية إصدار هذا الدليل المبتكر في مطلع القرن العشرين في ظل إمكانيات طباعيه محدودة.

الطباعة الحاسوبية

وشارك **نهاد تيسير ندم** مطور برامج من الجمهورية العربية السورية عن "**الخطوط الحاسوبية العربية بداياتها وتطورها**" فغطى في محاضرته طريقة تصميم الخطوط الحاسوبية العربية، وعوائق تصميم خط عربي حاسوبي مع الالتزام بقواعد الخط العربي، والحل لمشكلة تصميم خط عربي حاسوبي يلتزم بقواعد الخط العربي، ومشروع "تصميم" خطوط حاسوبية، ومشاريع أخرى

مستقبلية للكتابة بالخط العربي الأصيل حاسوبيًا وتعليم الخط العربي للأطفال.

كذلك شارك الدكتور **أحمد منصور** من مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية، عن "**دور مركز الخطوط في نشر الخطوط الحاسوبية القرآنية: خط مصحف مطبعة بولاق نموذجًا**"، فأشار إلى أن مركز الخطوط نجح بالتعاون مع مركز تحقيق نصوص المصحف الشريف في رقمنه خط مصحف مطبعة بولاق، ليكون بذلك أول خطوط المصاحف التراثية المرقمنة، ويجيء هذا المشروع المشترك في إطار برنامج عمل مركز الخطوط بالاهتمام بالعلاقة بين الخط العربي والتقنيات الحديثة، كذلك فإن رقمنة خط مصحف مطبعة بولاق يأتي في سياق متصل مع جهود مكتبة الإسكندرية في الحفاظ على تراث تاريخ الطباعة في مصر من خلال إنشاء معرض دائم لمطبعة بولاق داخل المكتبة، حيث يستطيع الزائر التعرف على كل تفاصيل نشأة وتاريخ الطباعة في مصر. مشيرًا إلى أن الخط الحاسوبي هو ذلك الخط أو البنط المستخدم في محررات معالجة النصوص للطباعة على شاشة الحاسوب، ويبنى الخط الرقمي على ترميز أو تشفير دولي يعرف باليونيكود العالمي، هذا التشفير يخصص رقمًا فريدًا لكل حرف أو رمز له دلالة معينة، بغض النظر عن منصة التشغيل، أو البرنامج، أو اللغة المستخدمة، أما الخط القرآني فهو خط المصحف الشريف، له خصائصه التي لا يكتب إلا بها، حيث توجد كلمات في رسم المصحف الشريف خرجت من هذا الأصل على نحو مطرد متكرر، وغير مطرد، كحذف ألف الجموع السالمة، وقاعدة المهز، لذا فإن المصحف الشريف كتب على رسم خاص لأداء دور منوط بهذا الرسم. وتعد مطبعة بولاق البداية الحقيقية لتاريخ الطباعة في مصر، إذ أحدثت تغييرًا فكريًا واجتماعيًا، فعن طريقها بدأت حركة إحياء الكتب القديمة وطبعها، وكانت الكتب المطبوعة فيها ذات طبيعة خاصة، فهناك أنواع تلائم روح محمد علي باشا، وفكرته في إحياء مصر، وهي على ثلاثة أنواع: كتب حربية خاصة بالجيش، وكتب مدرسية خاصة بتعليم المدارس، ثم كتب الثقافة الإسلامية ككتب الدين وكتب الآداب، وقد ظل طبع القرآن محرمًا بمقتضى فتاوى العلماء إلى تاريخ متأخر من عهد محمد علي بناء على حجج واهية كمنافاة مواد الطبع للطهارة، وكعدم جواز ضغط آيات الله بالآلات الحديدية، وكاحتمال وقوع خطأ في طبع القرآن.

وقد كانت هذه المعارضة من طبيعة الأشياء، فقد كان فن الطباعة جديدًا في مصر، ولم يكن هؤلاء العلماء قد عرفوا ماهيته بالضبط، واستمر الوضع على ذلك حتى سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، عندما قامت المطبعة البهية بالقاهرة لصاحبها "محمد أبو زيد" بطبع المصحف الذي راجعه الشيخ المحقق "رضوان بن محمد" الشهير "بالمخللاتي" صاحب كتاب "إرشاد الراء والكاتبين إلى معرفة رسم الكتاب المبين"، والتزم فيه بخصائص الرسم العثماني، فكتب مصحف بخط الشيخ محمد علي خلف الحسيني، على قواعد الرسم العثماني، وضبط على ما يوافق رواية حفص عن عاصم، على حسب ما ورد في كتاب "الطراز على ضبط الخراز"، للتنسي، مع إبدال علامات الأندلسيين والمغاربة بعلامات الخليل بن أحمد وتلاميذه من المشارقة، وظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٤٣٢هـ/ ١٩٢٣م، فتلقاها العالم الإسلامي بالرضا والقبول، ويعد مصحف الملك فؤاد أول مصحف مطبوع في العالم الإسلامي لرواية حفص عن عاصم المنتشرة في بقاع العالم، وقد سبقتها محاولات عدة قامت من قبل المستشرقين فطبع المصحف الشريف في إيطاليا وألمانيا، لكن لكثرة الأخطاء الواردة في تلك المحاولات لم تستمر، وقد وضع الخطاط المصري محمد جعفر بك أصول هذا الخط للمطابع ليتم سبكه عبر المسابك الرصاصية واستخدمها في طبعة المصحف الشريف، وكان القائمون على تصحيحه وتدقيقه هم: محمد خلف الحسيني، شيخ المقارئ المصرية فيما بعد، وحفني ناصف، المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية، ومصطفى عناني، المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية، وأحمد الإسكندري، ونصر العادلي، رئيس المصححين بالمطبعة الأميرية، تحت إشراف مشيخة الأزهر، وتمت مراجعته في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧هـ، وتم جمعه وترتيبه في المطبعة الأميرية وطبع في مصلحة المساحة سنة ١٣٤٢هـ، وكانت هذه هي الطبعة الأولى.

الطباعة والخط العربي

وشارك الخطاط **تاج السر حسن** مصمم جرافيك وباحث في تقنية الطباعة وتصميم الحرف الطباعي العربي من جمهورية السودان، بالمشاركة مع **المأمون أحمد محي الدين** عن "**آفاق جديدة لحروف الطباعة العربية: بعث التراث الجمالي للخط العربي في تصميم الحروف**"، فأوضح أن الأبجدية العربية نظام كتابي راقٍ ذو طبيعة خاصة. ولكونه يمثل نظامًا مفتوحًا ومرنًا، فقد تحقّقت من خلاله الجمالية الخطية المميّزة التي عُرف بها فن الخط العربي، كما قد أوفت أساليب هذا الخط وطرائقه العديدة بالاحتياجات التوثيقية للمعارف العربية والإسلامية. وعند دخول الحرف العربي مراحل تجهيزه حروفًا طباعيه، لم يكن ممكنًا في بدايات الطباعة وتطورها اللاحق إلى منتصف القرن العشرين، غير الاختصار من أشكاله المتعددة بدواعي الاقتصاد والسرعة والإنتاجية، ونتيجة لهذه الشروط انحصر تصميم الحرف الطباعي في اتجاه واحد هو "الحرف المختصر". وهذا الاختصار أنتج بالمقابل تناقضًا جماليًا واضحًا بين الحرف الطباعي وبين أصوله في الخط، مساهمًا في عزوف المبدعين من الخطاطين العرب عن العمل في تصميم حروف الطباعة. ومن ناحية أخرى، نجد أن إغفال الضبط اللغوي في الطباعة العربية -أيضًا بدواعي الاقتصاد والسرعة والإنتاجية- قد أثر سلبًا في إكساب القارئ العربي القدرات اللغوية، وأنتج واقعًا يمثل خطرًا على اللغة العربية على المدى البعيد.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الطباعة الرقمية

وشارك **يسري حسن** فنان خط عربي ومصمم، ببحث بعنوان "**التصميم وخطوط الطباعة الرقمية**"، فأوضح أن شكل حروف الطباعة في أي تصميم قد يحدث فرقًا كبيرًا في الرسالة التي يحملها التصميم إلى المتلقي، وقد يكون وقع هذه الحروف من الناحية النفسية قويًا على المشاهد، فيؤثر سلبًا أو إيجابًا على ردود الفعل لدى المشاهدين، والعالم العربي اليوم في أشد الحاجة إلى تبني وإنتاج تكوينات خطية جديدة تسهم في رسالة النهضة التي يجب أن يحملها منتج ولغات الآخرين.

الطباعة الحجرية

وشارك الأستاذ الدكتور **عبد العزيز صلاح سالم** بكلية الآثار، جامعة القاهرة، ببحث عن "**الخطوط التراثية والحروف السرية في الفنون الإسلامية في المغرب الأقصى قبل عصر المطبعة الحجرية**"، فأكد على أن المغرب الأقصى على الرغم من أنه لم يعرف الطباعة إلا في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي (١٢٧٦-١٢٩٠هـ/ ١٨٥٩-١٨٧٣م)، إلا أن المصادر التاريخية تؤكد أن المغاربة كانوا على علم بفنون الطباعة قبل هذا العصر، كما أن الشواهد الأثرية تثبت أن العمارة والفنون الإسلامية المغربية حفظت لنا العديد من الخطوط التراثية والحروف السرية التي تشهد على تعدد أساليب الخط والكتابة وتطورها وتنوع أساليب تنفيذها وموادها سواء من الأحجار، والجص، والرخام، أو من الزليج، والمعادن، والأخشاب، والنسيج، والورق وغيرها، حيث بالغ المغاربة في تهذيبها وتنقيحها مع حرصهم على جودة الخط وإيضاح الضبط، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في انتقال القراءة من الكتابات المخطوطة إلى دخول المطبعة الحجرية في المغرب الأقصى.

ولذا تكْمن أهمية دراسة تطور الخطوط التراثية والحروف السرية في الفنون الإسلامية في المغرب الأقصى قبل عصر المطبعة الحجرية، للتأكيد على مرجعية الخطوط والحروف وتطورها، واستمرارها، وتتبع مظاهر تطورها على العمائر والفنون الإسلامية في المغرب الأقصى. ولهذا تتبع الباحث تطور الخطوط التراثية والحروف السرية على العمائر الإسلامية، وطريقة إعداد موادها للطباعة عليها، وتحليل ما تتضمنه من نقوش ورموز وزخارف متنوعة، وتفسير ما تحمله من ألقاب، وأسماء للملوك، وللصناع، وتقسيمها إلى طرز فنية وفقا لتسلسلها الزمني، ووصفها وصفًا علميًا دقيقًا. كما تناول تطور الخطوط التراثية التسجيلية الدينية المنقوشة على التحف الأثرية، وتنوع طرق تنفيذها باختلاف مواد صناعتها متتبعًا تطور الخطوط التراثية على المنابر الخشبية المغربية خلال القرون الستة الأولى للهجرة، والخطوط التراثية المطبوعة على خزائن الكتب، حيث دأب الحجاج المغاربة على العودة من سفرهم محملين بالكتب المطبوعة في مصر في شتى العلوم والفنون، كما أوضحت تنوع الخطوط التراثية على الثريات المعدنية والأختام والطوابع السلطانية والعلامات الأميرية، وتنوع أساليب الخط والكتابة على تلك المواد، وتفسير ما تتضمنه من كتابات تسجيلية أو دعائية تسهم بشكل كبير في معالجة العديد من الحوادث التاريخية والقضايا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المغرب الأقصى عبر العصور الإسلامية.

أبعاد وانعكاسات الطباعة

وشاركت الأستاذة الدكتورة **لطيفة الكندوز** الباحثة في جامعة الملك محمد الخامس، في الرباط، وعضو الجمعية المغربية للبحث التاريخي، وعضو اللجنة المغربية للتاريخ البحري، ببحث عن "**الأبعاد والانعكاسات السياسية والثقافية والاجتماعية للمطبعة بالمغرب**"، فأشارت إلى أن دور المطبعة في المغرب لم يقتصر على الجانب التقني الصرف، المتمثل في نشر الكتب وتوثيقها والحفاظ عليها فقط، بل كانت لها بالإضافة إلى ذلك عدة أدوار فعالة ومختلفة، وأبعاد وانعكاسات كثيرة، شملت عدة مستويات منها السياسية والاجتماعية والثقافية. ولقد ساهمت الطباعة بدور كبير في التنمية الثقافية بالمغرب، حيث تمكنت المطبوعات من تنشيط الحركة التعليمية وتطويرها، فغيرت من النهج التعليمي التقليدي، ووسعت من دائرة التعليم، وطورت برامجه ومناهجه، وساعدت على تكوين المدرسة المغربية العصرية، مما ساهم في توسيع المدارك الثقافية وانفتاحها على تيارات فكرية جديدة. كما فتحت الطباعة آفاق التواصل الثقافي والحضاري بين المغرب والخارج، فبواسطتها وصلت أصداء الدعوة الإصلاحية من الشرق، مما كان له انعكاسات على الكتابات المغربية لاسيما في تناولها لقضية إصلاحات التعليم والمجتمع المغربي. وعن طريق الكتب والجرائد التي كانت تستورد من الشرق، خصوصًا منها الكتب المصرية واللبنانية، وكذا بواسطة أعضاء البعثات التي درست في جامعات: مصر وسوريا ولبنان وفرنسا، اطلع المغاربة على النهضة العربية، وعلى الكفاح ضد المستعمر بالدول الإسلامية، مما كان له الأثر الكبير في نقل المعارف وتبادل الأفكار الإصلاحية بين المغرب والمشرق.

الطباعة في الجزائر

وشارك الدكتور **وهيبة بن حدو** الأستاذ بجامعة أبو بكر بلقيد، تلمسان، الجزائر، ببحث موضوعه "**نشأة الطباعة في الجزائر**"، فأوضح أن آلة الطباعة قد ظهرت في العالم في منتصف القرن الخامس عشر على يد الألماني "يهانز جوتنبرج" سنة ١٤٣٦م، ثم انتشرت في العالم كله حتى جاء دور الحروف العربية في الطباعة، وكان **أول كتاب مطبوع باللغة العربية هو كتاب الأدعية السبعة**. وانتشرت الطباعة في العالم العربي إلى أن وصلت إلى الجزائر. وأول مطبعة عربية جزائرية ساهمت وأدت دورًا كبيرًا في طبع التراث العربي الإسلامي ونشره هي المطبعة الثعالبية. سميت بهذا الاسم نسبة إلى العلامة عبد الرحمن الثعالبية، وقد أسسها سنة ١٢١٤هـ/١٨٩٥م السيد "رودوسي قدور بن مراد التركي" وهو تركي الأصل. وقد ساهمت هذه المطبعة في نشر التراث المشرقي. فطبعت على سبيل المثال سنة ١٩٠٣م كتاب "متن خليل في الفقه". أما

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بالنسبة للكتب التي طبعت بالمطبعة الثعالبية والخاصة بالجزائريين نذكر منها: "إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن" لمحمد بن علي السنوسي طبع سنة ١٩١٤م. وجدير بالذكر؛ أن مطابع أخرى ظهرت بعد المطبعة الثعالبية كمطبعة النجاح سنة ١٩١٩م لصاحبها "عبد الحفيظ بن الهاشمي" وغيرها كثير.

نقشخانة استانبول

وشارك الأستاذ الدكتور **جمال محمود حجر** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ببحث متميز عن "**نقشخانة إستانبول وصناعة الكتاب، قراءة التاريخ الثقافي على ضوء رواية اسمي أحمر**"، فأوضح أن اسمي أحمر، رواية تاريخية تتناول الصراع الثقافي داخل نقشخانة استانبول حول أسلوب إعداد كتاب للسلطان العثماني. نالت الرواية شهرة عالمية نظرًا لقدرة المؤلف على الوصول إلى الحقائق التاريخية وصياغتها في شكل رواية، تقع فيما يزيد على (٦٠٠) صفحة. كاتب الرواية هو الروائي التركي أورهان باموق، واحد من أشهر كتاب الروايات التاريخية في العالم، ترجمت رواياته إلى حوالي ١٩ لغة. وتبحث الدراسة في تاريخ لقاء نموذجين لحضارتين مختلفتين في الجوهر؛ هما الحضارة الشرقية، والحضارة الغربية، عبر إستانبول خلال المائة عام الأولى التي أعقبت فتح القسطنطينية 1453م، من خلال فنون الرسم والتذهيب والخط، وجميعها يدخل في إعداد الكتب السلطانية. في هذا الوقت كانت حضارة الشرق ممثلة في مدرسة هرات، وحضارة الغرب ممثلة في مدرسة البندقية، وبين المدرستين تقف إستانبول جغرافيًا وثقافيًا. فكيف استطاعت نقشخانة إستانبول أن تتعامل مع معضلة الصراع الثقافي حول إعداد كتاب طلب السلطان العثماني إعداده، هذا هو جوهر موضوع البحث. مشيرًا إلى أن يوحنا جوتنبرج اخترع وسيلة الطباعة سنة ١٤٣٦ وأن محمد الفاتح فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ أي بعد أقل من ٢٠ عامًا، وأن الطباعة الحديثة دخلت الدولة العثمانية بعد ١٠٠ سنة من فتح القسطنطينية، أي في سنة ١٥٥١. وفيما بين هذه التواريخ تدور الدراسة لتكشف عن مرحلة من أهم مراحل التحول التاريخي في المجال الثقافي من الطباعة التقليدية إلى الطباعة الحديثة.

الطباعة العثمانية

وشارك الدكتور **جمال الوكيل** بكلية الآداب، جامعة طنطا عن "**تحريم الطباعة في الدولة العثمانية بين النظرية والتطبيق**". فأكد أنه بعد أكثر من خمسة وثلاثون عامًا من تدشين جوتنبرج لاختراعه المدهش أثير ذلك الأمر في بلاط السلطان العثماني بايزيد الثاني ثامن سلاطين بنى عثمان وذلك بغرض استيراد ذلك الاختراع "الطباعة" من أوربا، ورغم أن هذا الاختراع كان صاحب رونق وبهاء ودورًا كبيرًا في تقدم أوربا إلا أن فقهاء الدولة العثمانية وقفوا لذلك الوليد بالمرصاد، واعتبروا أن مسألة وجوده كبيرة من الكبائر لا تغتفر، وآمنوا أن صراعهم مع ذلك الوليد هو صراع وجود لدرجة أنهم أصدروا فتوى بتكفير مَنْ يقوم باستخدامها بل وتطور الأمر للحكم بالإعدام على من يستخدم ذلك الاختراع، وكانت حيثياتهم في ذلك الموقف المتعنت أنهم خافوا من تحريف القرآن ورأوا في الطباعة أنها مفسدة سوف تفتح الباب على مصراعيه لانتشار الموبقات والكبائر مثل طباعة الرسوم وتغيير حروف القرآن الكريم، فضلاً عن بعد اجتماعي واقتصادي مفاده أن القضاء على الكتابة بالخط العربي سوف يحرم فئات كثيرة من مصدر رزقها، حيث كان حرفة مجزية يرتزق منها الفقهاء، والقضاة، وكبار موظفي الدواوين في بلاط الخلافة، ويحصلون من ورائها على الحظوة والمال والسلطان وعلو الشأن.

الطباعة والتواصل الحضاري

وشارك الدكتور **عبد الحميد صبحي ناصف** في كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ببحث متميز عن "**دائرة المعارف العثمانية ودورها في التواصل الحضاري والثقافي**"، فتناول بالدراسة تاريخ مؤسسة ثقافية عريقة، هي مطبعة ومكتبة من أهم المكتبات التي ما زالت قائمة بدورها في الشرق الأقصى، وتخدم مسلمي الهند والعالم، وكافة المهتمين والناطقين بلغة الضاد مبينًا الأسباب والملابسات التاريخية والدينية والثقافية التي دعت مؤسسها إلى إنشائها في هذا الجزء من العالم الشرقي، وكذلك الصعوبات التي واجهت نشأتها واستمراريتها مع عرض لدورها في تواصل المهتمين والمثقفين في العالم الإسلامي، اعتمادًا على مطبوعاتها النادرة ومدى استفادة الباحثين من نتاج تلك المطبعة.

وشارك الدكتور **محمد المغربي** مساعد رئيس تحرير صحيفة الأهرام، ببحث عن "**الخط العربي وعلاقته بتكنولوجيا إنتاج الصحف**"، فأكد على أن دخول الخط العربي مجال الصحافة قد ارتبط بتطور الإخراج الصحفي، ففي المرحلة الأولى للإخراج كانت الصفحات مقسمة إلى أربعة أعمدة، عرض كل عمود حوالي ٥ سم، وكانت الموضوعات تجمع يدويًا عن طريق تكوين الكلمات ثم الجمل، وبعد ذلك السطور، كل هذا كان يدويًا، وكان هناك حجم واحد من الحروف العربية، وكان العنوان بنفس عرض وحجم حروف الخبر، وكانت الأخبار تصف من العمود الأول بالصفحة الأولى حتى العمود الأخير من الصفحة الأخيرة، تحت بعضها بدون تبويب وبدون إبراز خبر على الآخر بالترتيب داخل العمود. بعد ذلك حدثت متغيرات: فقد تطورت ماكينات جمع الحروف (أسود وأبيض) وظهرت أحجام مختلفة وبنط لجميع الحروف مثل بنط ٩، وبنط ١٢، وبنط ١٨، واستخدموا العنوان من الحروف الأكبر، وتطورت النظرة إلى دور الصحافة في المجتمع للتعبير عن القضايا خاصةً السياسية والاقتصادية، وبدأت الصحافة تهتم بقضايا دون أخرى وظهر التبويب، وهو فن تصنيف الموضوعات حسب مضمونها وأهميتها، وبذلك تطور الإخراج الصحفي ليعبر عن السياسيات التحريرية في جذب قطاعات من القراء: العمال، التجار، السياسيين، فتطورت عناصر الإخراج الصحفي: المتن، اللون، الحجم، الصور، العنوان.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الطباعة في الشام

وشارك الدكتور **مهدي الزوبي** من معهد الملكة رانيا للسياحة والتراث، في المملكة الأردنية الهاشمية، ببحث عن "**تطور الطباعة في بلاد الشام**"، تناول فيه التطور التاريخي والتوسع الجغرافي للطباعة في منطقة بلاد الشام منذ نشأتها في لبنان في سنة ١٦١٠م مع تأسيس المطبعة المارونية، مرورًا بمطابع سوريا التي عَرفت الطباعة مع تأسيس مطبعة حلب سنة ١٧٠٦م، ومن ثَمَّ مطابع فلسطين والأردن التي عَرفت الطباعة منذ سنة ١٨٣٠. كما تطرق إلى تبيان دور الطباعة في النهضة الأدبية في بلاد الشام والمنطقة العربية، ومساهمة ظهور الطباعة في خفض تكلفة صناعة الكتب، وبالتالي سهلت من انتشاره ووصوله إلى جميع الطبقات بعد أن كان مقتصرًا على طبقة الأغنياء بسبب ارتفاع سعره. ثم اختتم بدور المتاحف في منطقة بلاد الشام في حفظ وتوثيق تاريخ تطور الطباعة في المنطقة.

وشاركت الدكتورة **سوسن الفاخري**، من المملكة الأردنية الهاشمية، ببحثه عن "**تطور المطابع في القدس ودورها في ترسيخ التواصل الحضاري ١٨٣٠-١٩٠٠**"، فذكرت أن أول مطبعة عربية صنعت في براشوفا في رومانيا سنة ١٧٠٠؛ وشغلت لأول مرة في البلاد العربية في مدينة حلب سنة ١٧٠٦، وكانت مقتصرة تمامًا على الكتب الدينية. وكانت فلسطين مأثرة ولادة الطباعة الثانية في الديار الشامية؛ وذلك بعد أن كانت قد توقفت في تلك الديار بدءًا من سنة ١٧٨٩ على أثر وفاة السيد نيقولا زبادة الجبيلي المشهور باسم "أبو عسكر"، وإغلاق مطبعته المعروفة باسم "مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس" الكائنة في بيروت بسبب ذلك؛ برغم أنها كانت حينذاك المطبعة الوحيدة في الديار الشامية. ظل الوضع قائمًا هكذا في الديار الشامية حتى سنة ١٨٣٠ حيث تأسست أول مطبعة في القدس؛ وكانت مطبعة يهودية يملكها نسيم باق، وقد عُرفت باسمه. وقد اقتصرت بواكير أعمالها الطباعية على طباعة الكتب التاريخية، ومن ثم بدأت المطابع بالازدياد، فقد أنشأت بمبادرات من المسؤولين في الكنائس والأديرة المسيحية. وأنشأت المطابع العبرية باهتمامات من الفعاليات اليهودية لأغراض دينية، بحيث أسهمت بشكل رئيس في ترسيخ الطباعة في فلسطين، وبتطوير الكتاب العربي. ومع أن تلك المبادرات والاهتمامات قد أعطت المطابع ألواناً طائفية أو هوية دينية، فإنها قد شجعت على أن يقوم بجانبها وبمنافستها مطابع ذات صفة ملكية شخصية. فتتبع هذه المطابع وتطورها من خلال المصادر التاريخية، مؤكدًا على الدور الريادي الذي لعبته مطابع القدس في التطور والتواصل الحضاري في الحقبة الزمنية (١٨٣٠ – ١٩٠٠) ومناقشة الدوافع والأسباب لقيام مثل هذه المطابع.

وشارك الدكتور **محمد هشام النعسان** الأستاذ بمعهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، الجمهورية العربية السورية عن "**أشكال وتقنيات الطباعة التراثية في حلب الشهباء في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين**"، فقال كانت الطباعة وما تزال تعاصر الأزمان المتعاقبة ويتكئ عليها بناة الحضارات ليستعينوا بها في طباعة تاريخهم على جبهة الريح وبين أحضان التراث. إن السؤال الذي يتبادر للذهن هو: ما هو السر وراء اتجاه الحلبي إلى الاهتمام بالطباعة التي وصلت إلى درجة متقدمة من الإتقان والأهمية؟ لقد عرفت حلب فن الطباعة منذ فجر العصر الحديث، وكانت أول مدينة سورية تمارس هذا الفن، وأول مدينة في الشرق تعرف الطباعة بالحروف العربية. لقد وصلت الطباعة إليها عن طريق رجال الدين، وهو الطريق الذي سلكته إلى أقطار الشرق عمومًا. وقيل: "السوريون أسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية، وأسبق المدن إلى هذا الفضل حلب". ويذكر المؤرخ عيسى إسكندر المعلوف: "أن للحلبيين اليد الطولى في صناعة الطباعة، فالثابت منذ القديم أن لهم يدًا بيضاء في فن الطباعة وإنشاء المطابع، ولهم خدمات في مضمار العلم والأدب". فقصة حلب مع أشكال وتقنيات الطباعة إذن قصة قديمة، وتعود إلى أواخر القرن السابع عشر. فتناول أشكال وتقنيات الطباعة التراثية من خلال دراسة تطور الطباعة في مدينة حلب العريقة، محققًا بعض التقانات والأنظمة وأنواع الحروف وأوائل المطبوعات، موضحًا أهمية هذه التقنيات التراثية في مختلف نواحي الحياة العلمية والأدبية في حلب.

الأقليات والطباعة

وشارك **عبد الوهاب شاكر**، من مكتبة الإسكندرية، ببحث عن "**الجاليات والأقليات ودورهم في حركة الطباعة والنشر في مصر: الشوام في القرن التاسع عشر نموذجًا**" فذكر أن المطبعة دخلت إلى مصر مع الحملة الفرنسية حينما جلب نابليون بونابرت مطبعة صغيرة لطبع منشوراته وأوامره باللغة العربية، وفي عهد محمد علي باشا أنشئت مطبعة بولاق سنة ١٨٢١، وعهد بإدارتها لنقولا مسابكي وهو من الشوام المقيمين في مصر آنذاك، حيث استمر في إدارة المطبعة حتى وفاته سنة ١٨٣٠. وظلت الطباعة في مصر مقتصرة على الطابع الرسمي حتى سنة ١٨٥٩، حينما ظهرت أول مطبعة أهلية أسسها أحد المهاجرين الشوام ويدعى مصطفى الحلبي، أطلق عليها اسم المطبعة الميمنية، وقد عنيت هذه المطبعة بطبع الموسوعات والكتب التراثية والأدبية والدينية ذات الأجزاء المتعددة. ويظهر دور المهاجرين الشوام في ميدان الطباعة ونشر الكتب التي أسهمت في زيادة الوعي والمعرفة بشكل واضح من خلال المطابع التي أسسوها تعبيرًا عن حاجاتهم إلى طبع صحفهم ومجلاتهم، وامتدت خدماتها فيما بعد لتعمل على نشر الكتب والمؤلفات على غرار المطبعة الميمنية، وقد عكس ذلك بتأثيره الإيجابي الذي تمثل في تنشيط الحركة الأدبية والفكرية، وسرعة عمله إصدار وانتشار المؤلفات والكتب، وتعريف القراء على أمهات المؤلفات العربية من أدبية، وعلمية، وتاريخية، وسياسية، ودينية وغيره، وساهم الشوام كذلك في تطوير أساليب الطبع والإخراج لامتلاكهم الخبرات والمعارف التقنية التي جلبوها إلى مصر من بلادهم. وحاول الباحث رصد وتتبع الدور الذي لعبه المهاجرون الشوام في خدمة حركة الطباعة والنشر

دورية إلكترونية، مُحكَّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من خلال استعراضه لإسهامات المهاجرين الشوام في هذا المجال في مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الطباعة وسيط اتصال

وشارك الدكتور **متولي محمد علي عصب** من كلية الفنون الجميلة، جامعة المنيا، بموضوع عن "**دور الطباعة كوسيط اتصال حضاري وثقافي في ظل العولمة**" فتناول دور الطباعة في التواصل الحضاري والثقافي للمجتمع، وذلك بإلقاء الضوء على ماهية الطباعة وأنواعها وأساليبها وطرق تنفيذها ووسائطها المتعددة، التي خطت خطوات واسعة من التطور والتقدم، والتي من خلالها بسطت نفوذها في كافة نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. إلا أن السؤال الذي يظل مطروحًا للمناقشة... لماذا ينبغي للمعنيين بدور الطباعة، خاصةً في ظل العولمة، أن يلوذوا بفنونها وطرق أدائها وتقنياتها ووسائطها المتعددة مفضلين هذا الشكل من أشكال الاتصال؟ وما هو ذلك الدور الذي تلعبه الطباعة باعتبارها إحدى وسائل الاتصال الجماهيري المتطورة بشكل دائم؟ وما هي الطبيعة الأساسية ذات الأولوية التي يتضمنها الشكل الطباعي الذي ساهم بدوره في التوحد الحضاري والثقافي للعالم دون المساس بالهوية القومية لكل مجتمع؟.

وشارك الدكتور **صلاح مصيلحي** من جامعة البحرين عن "**دور الطباعة في التواصل الحضاري والثقافي: الطباعة بوصفها جسرًا بين الحداثة والتراث**"، فأشار إلى أن للكتاب العربي قصة طويلة شغلت الناس، وتاريخ حافل ملأ الدنيا منذ نزوله من السماء وانتشاره في آفاق الأرض؛ لتتعلم منه شعوب كثيرة ما لم يكونوا يعلمون، ولما اتصلت الحضارة الإسلامية بغيرها من الحضارات التي أوشكت على الأفول استفادت من علومها، ونقلت كتبها إلى لغتها ثم درستها وزادت عليها جديدًا مبتكرًا.. وفي ضوء ذلك يحاول الباحث أن يبين كيف كان ظهور الطباعة نقطة تحول بين عهدين: عهد جمود العالم الإسلامي، ثم عهد يقظته، فقد كانت حياتنا الثقافية وسبل تخاطبنا شيئًا آخر غير الذي عرفناه بعد أن حمل نابليون مطبعته إلى مصر، فقد عجلت بحركة التقدم ونشرت الثقافة، والتي تعني إعادة كتابة التراث الإسلامي بصورته الحقيقية وخصائصه الأساسية التي لا تحتمل الخلاف حولها، عن طريق الفحص والتدقيق والاستكشاف، لتعود الحياة إلى التراث ليستقر في عقول الناس وصدورهم، فتتحول الكتب والمراجع إلى غذاء روحي وفكري ويومي يعيشه الناس، ويتواصلون من خلاله، في عملية بناء جسور بين الماضي والحاضر، وتمتد إلى المستقبل الذي بدأت ملامحه تضيع منا، وقد أسهمت الطباعة في تعريف العالم بعطاء الثقافة والفكر العربي على مدى العصور.

وشارك الدكتور **مجدي فارح** أستاذ مساعد في الحضارة وتاريخ الأفكار في المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي ببئر الباي، جامعة تونس، عن "**دور الطباعة في التواصل الحضاري والثقافي بين تونس وبلدان المشرق العربي في الفترة الحديثة**"، فأشار إلى أنّ الطباعة باعتبارها جسرًا للتواصل بين الثقافات المختلفة والحضارات المتمايزة من الآليات التي اعتمدتها المجتمعات في التعريف بآدابها وفلسفتها وتقاليدها وثقافتها. لذلك عدّت الطباعة من أهمّ الوسائل المستغلة في خلق التلاقح الحضاري بين الأمم والشعوب من خلال منطق الأخذ والعطاء والاقتباس والإبداع لكلّ المظاهر الفكرية والمعرفية. ومن ثمّ عدّت الطباعة رديفة المثاقفة (Acculturation)، لأنّ كلتاهما بحث وسعي نحو ارتياد آفاق مغايرة لأشكال الثقافات المختلفة، وأسئلة الوجود المتعددة في ظلّ التعايش الحضاري والتنوع الثقافي. فبحث في دور الطباعة في الاتصال الثقافي بين بلدان الشرق (في المشرق والمغرب) من خلال الاشتغال على ما اصطلحنا على تسميته بالتثاقف الداخلي والتأثر المتبادل بين مختلف التجارب التحديثية التي عرفتها بلدان الشرق خلال القرن التاسع عشر. فخلافًا للدراسات الاستشراقية التي اعتبرت فكر النهضة العربية مدين فقط للثورة الفرنسية ومبادئ التنوير في إشارة إلى ما اصطلح على تسميته بـ "الصدمة الحضارية"، دخلت الحداثة إلى البلاد التونسية عبر قناتين متداخلتين ومتزامنتين: القناة الأوروبية وخاصةً منها الفرنسية (التجار، والمدرسون، والدبلوماسيون، والرحالة) والقناة الشرقية (تأثير تجربة محمد علي باشا، (١٨٠٥ – ١٨٤٩)، التحديثية في مصر ونشاط بعض النخب المشرقية بتونس مثل أحمد فارس الشدياق، ومنصور كريتلي، ورشيد الدحداح، وحمزة فتح الله)، وقد تدعم هذا النشاط بعد تطور الطباعة. وقد مثّل الاهتمام بحركة الطباعة والنشر في تونس ركنًا أساسيًا من أركان البرامج التحديثية التي شملت تعصير التعليم، وإصلاح أجهزة الدولة وتعليم اللغات الأجنبية، وإرسال البعثات الطلابية للتعلم في أوروبا. فقد تمّ تأسيس المطبعة الرسمية سنة ١٨٦٠، وأنشئت "الرائد التونسي"، كما سمح دخول الطباعة بنشر عدّة كتب ومجلات.

الطباعة في الشرق الأفريقي

وشارك الدكتور **سلطان بن مبارك الشيباني** باحث في مشروع المكتبة الإلكترونية بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان، ببحث عن "**الطِّبَاعَة العَرَبِيَّة فِي الشَّرْقِ الإِفْرِيقِيّ**" فأكد على أن الشرقُ الإفريقي لم يكن بِمَنْأَىً عن تطوُّرات العصر، قبل مئةٍ وخَمْسِين سنةً من الآن، حين تأسست سلطنةُ زنجبار العربية، وتعاقبَ حُكَّامُها على مسايرة ركب الحضارة ومنافسة حواضر العالم العربي والإسلامي. وتُعَدُّ «المطبعة السلطانية في زِنْجِبَار» من أقدم المطابع في الشرق الإفريقي؛ إن لم تكن الأولى على الإطلاق. أنشأها السلطان بَرْغَش بن سعيد بن سلطان (١٢٨٧- ١٣٠٥هـ/ ١٨٧٠-١٨٨٧م) في زنجبار سنة (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م)، واستمرت تحت إشراف الحكومات المتعاقبة حتى أتى عليها الانقلاب الشيوعي الاستعماري سنة (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) فدمّرها. فقد كانت المطبعة إحدى ثمرات سياحة السلطان برغش في الأقطار العربية والأوروبية سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م)، فقد رأى ما عليه المطابع في مصر والشام فعزم

على إدخالها إلى بلاده فابتاع سنة (١٢٩٧هـ/١٨٨٠م)، مطبعة مجهزة بكل اللوازم من مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت، واستقدم لها عمالاً لبنانيين من عمالهم لأجل إدارتها وتشغيلها وتدريب الموظفين على استعمالها، وأشرف بنفسه على مباشرة الطبع فيها، وكلف عددًا من العلماء العمانيين المعنيين بالتراث بعملية الإشراف على الطباعة، ومراجعة الكتب وتصحيحها، أبرزهم الشيخ يحيى بن خلفان بن أبي نبهان الخروصي (ت. ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) والشيخ سيف بن ناصر بن سليمان الخروصي (ت. ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م) والشيخ أبو مسلم ناصر بن سالم البهلاني الرواحي (ت. ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م).

وصدر عن المطبعة السلطانية في زنجبار عدة كتب، وكانت المطبوعات توقف من قبل السلاطين على طلبة العلم، ويمنع بيعها وتداولها في الأسواق، وتتصدر وثيقة الوقف كل كتاب، يكتبها أحد العلماء المشرفين على الطبع، وتصحح وتعتمد من قبل السلطان، ثم توزع نسخ الكتاب على المكتبات والمساجد ودور العلم والقائمين عليها، ويشمل نطاق التوزيع دول الشرق الأفريقي، وتقلص دور المطبعة ابتداءً من عهد السلطان علي بن حمود بن محمد (١٩٠٢-١٩١١)، واستخدمت في إصدار الأوراق الرسمية للدولة كالمراسيم، والقرارات، وأوسمة الشرف، وسجلات القضاء، والعهود الدولية، وعقود المعاملات، والمراسلات الديوانية. وعلى هذا تعد المطبعة السلطانية في زنجبار إحدى مكونات النهضة الثقافية بها، وتوضح الوثائق المحفوظة بأرشيف زنجبار شدة الطلب على مطبوعاتها، وأعقبها تأسيس أكثر من عشر مطابع أهليه في شرق أفريقيا شجعت عددًا من رواد الثقافة على إصدار صحف ومجلات متنوعة باللغة العربية والسواحيلية والإنجليزية.

الطباعة والثقافة

وشارك الدكتور **الريح حمد النيل الليث** الأستاذ في كلية تنمية المجتمع، جامعة النيلين، في الخرطوم، جمهورية السودان، عن **"إسهام الكتاب المطبوع في نشر ثقافة التواصل الحضاري بين الشعوب: السودان ومصر نموذجًا"**، فأوضح أن الناس، ولقرون من ماضيهم القديم، ظلوا يسجلون ما يجري لهم بطرق وأدوات بدائية مستوحاة من البيئة أفلحوا في حفظها أحيانًا، وقست الطبيعة عليها أحايين أخرى، فذهب كثير من ذلك الماضي ولم يطلع عليه أحد، فاندثرت كثير من أخبار القوم ودفنت معهم. ودفنت معهم أية فرص للتواصل والتعارف فيما بينهم، فظلت كل مجموعة بشرية تعيش في جزيرة معزولة عن باقي الجزر. فظل العالم تبعًا لذلك مقطع الأوصال لا يجمع بينه جامع. حتى إذا ما ظهرت بواكير الطباعة قبل ألف عام ونيف أصبح التواصل بين من تقطعت بهم السبل ممكنًا والالتقاء بين سكان الجزر المعزولة متاحًا بعد أن كان مستحيلاً. فلم يعد التعرف إلى الماضي من المستحيلات ولم يعد التعرف على تاريخ الأمم من خوارق العادات لما نجح الصيني "بي شنغ" في تطوير أول حروف متحركة لم يستفد العالم منها كثيرًا لكثرة حروف الهجاء الصينية. ولم يمض كثير وقت حتى شهدت الطباعة ثورة حقيقية في مد جسور التواصل وحبال الاتصال بين الشرق والغرب عندما طور الألماني "جوتنبرج" الطباعة بالحروف المعدنية المتحركة بمعدل ثلاثمائة نسخة في اليوم.

وعلى إثر هذا أصبح التسابق الإنساني نحو استحداث أنماط أكثر حداثة وتطورًا حقًا مشروعًا لكل مبتكر، فتم اختراع المطبعة البخارية التي تقوم بضغط الورق على الحروف المصفوفة، فأصبح التواصل الثقافي بين الشعوب أكثر سهولة ويسرًا عما كان عليه، فازدادت الرغبة للتعرف على الآخر، وازدادت بصورة ملحوظة مع اكتشاف المطبعة الدوارة التي ازدادت معها دورة التواصل الإنساني واتسعت دائرتها، فأصبحت هناك فرصًا واسعة للتعرف على ثقافات الشعوب الأخرى، وعاداتها، وتقاليدها، وموروثاتها عبر المادة الورقية المكتوبة، فازداد شغف الناس بالقراءة، وازداد ولعهم بمعرفة الأخبار، وتتبع الحوادث، والاهتمام بها، خاصةً بعد براءة اختراع مطبعة المونوتيب، والطباعة بالحفر الضوئي، والتصوير الليثوغرافي، وتوج كل ذلك الجهد البشري في مجال طباعة الكتاب الناقل النوعي للمعرفة الإنسانية بطباعة الأوفست التي عُدت فتحًا مهمًا فتح قنوات ونوافذ وشرع أبواب للتواصل الحضاري بين مختلف شعوب العالم في قاراته المختلفة، فازدادت قيمة الكتاب وازداد الاهتمام به، وأصبح اقتنائه والعناية به من الحاجيات الأساسية لبني الإنسان، الذي وجد فيه سميرًا وأنيسًا فصار الكتاب بحق خير جليس في الزمان. فظهرت أنواع من الكتب والمكتبات في شتى ضروب العلم والمعرفة فنمت عادة القراءة وشاعت وراجت ثقافة الآخر، وانغرست في المجتمع عادة القراءة، فأصبح الكتاب بحق هو الذي يورث المعرفة من جيل لجيل، فلم يعد العالم ذلك الكون الشاسع الغريب، حيث قرب الكتاب المسافات وسهل تعدد وتنوع الثقافات، فأصبح التعرف من خلاله على الآخر سهلاً ميسورًا، واختتم بإبراز أهم النتائج التي ترتبت على ظهور الطباعة والكتاب المطبوع ودوره في نشر ثقافة التواصل بين الشعوب.

الطباعة الإسلامية

وشاركت الأستاذة الدكتورة **سحر عبد العزيز سالم** رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة الإسكندرية، بورقة بحثية متميزة بعنوان **"أضواء على صناعة الوراقة الإسلامية ما بين بلاد الرافدين ومصر في القرن السابع الهجري"**. فأشارت إلى أن المصريين استخدموا منذ أقدم العصور لفائف البردي لتدوين تراثهم، في حين استخدم العراقيون القدامى ألواحًا طينية في الكتابة والتدوين. أما اليونان فدونوا على الألواح كتاباتهم، ثم استخدم البطالمة البرديات خاصةً بعد تأثرهم بالحضارة المصرية القديمة. وقد احتوت مكتبة الإسكندرية آنذاك على الآلاف المؤلفة من اللفائف البردية، وفي العصر البيزنطي دونت الكتب في مصر على الرق إلى جانب استمرار استخدام البردي في تدوين الأفكار الإنسانية. وحفظ الرسول (ﷺ) الآيات القرآنية الكريمة في أعقاب نزولها على صورتين، وقد تمثلت الصورة الأولى في حفظها في صدور الصحابة والمسلمين الأوائل الذين

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

عُرفوا تاريخيًّا بحفاظ القرآن، أما الصورة الثانية فكانت من خلال أمر الرسول (ﷺ) بتدوين الآيات الكريمة على بعض المواد التي كانت مستخدمة في الكتابة في الجزيرة العربية آنذاك كـ "عسب النخيل"، وعظام الحيوانات، وقد حفظت هذه المواد التي تحمل آيات القرآن الكريم في دار السيدة حفصة ابنة عمر بن الخطاب. وعندما أمر الخليفة الراشد أبو بكر الصديق بجمع القرآن الكريم بشهادة الشهود وطبقًا لترتيب نزول الآيات المقدسة على رسول الله (ﷺ)، فقد أعاد أبو بكر بذلك تدوين آيات القرآن الكريم التي كان الرسول قد حفظها بالصورتين السابقتين، بين لوحين في أعقاب استشهاد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة، ولكن هذه المرة على مادة واحدة وهي رق الحيوان، وكانت مرتبة طبقًا لتوال نزولها على النبي. وعُرف هذا القرآن بالمصحف، ثم قام الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان بإعادة تدوين المصاحف بلهجة قريش في فترة خلافته (٢٤-٧٥)، وكانت أيضًا المصاحف العثمانية مدونة على الرق.

وقد ازدهرت حركة التأليف والكتابة الإسلامية والنسخ ازدهارًا كبيرًا خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) بدفع وإمداد من ظهور صناعة جديدة ساهمت في إنماء نشر الفكر الإسلامي وهي صناعة الورق، التي ظهرت في بغداد بدءًا من عصر هارون الرشيد، وترتب على هذه الصناعة ظهور طبقة جديدة في المجتمع الإسلامي هي طبقة الوراقين، التي أصبحت تمارس صناعة الوراقة التي عرفها ابن خلدون بأنها تشتمل على عملية الانتساخ أو النسخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتابية والدواوين، وعلى هذا النحو فقد اتسعت كلمة وراقة فأصبحت تطلق في بغداد على مَنْ يصنع الورق أو يبيعه، أو يقوم بالاستنساخ وأصبح "الوراق" هو مَنْ يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها من الكتب، أو يبيع الورق. وكانت بغداد في بدايات القرن الثالث الهجري من أهم مراكز صناعة الورق من الألياف، والقطن، والعنب، والخرق البالية، واشتهر الورق العراقي ولاسيما البغدادي منه الذي كان من أجود أنواع الورق وأكبره سعة، وكان مخصصًا لكتابة المصاحف ولا يستعمل فيما عدا ذلك سوى في مكاتبة كبار الملوك، كما عرف الورق الشامي ولكنه كان دون البغدادي في الجودة على حد ما ذكره القلقشندي، وكان من بين أنواع الورق الشامي ما يُعرف بالحموي. ولا يعني أن الورق قد بدأ ظهوره في أواخر القرن الثاني للهجرة أن استخدام البرديات في الكتابة خاصةً في مصر الإسلامية قد توقف آنذاك، فقد استمر استخدام هذه المادة في التدوين في مصر فترة طويلة، غير أن رياح التغيير والتطوير قد بدأت تهب فحل الورق وحلت الحرفة المترتبة على ظهوره وهي الوراقة محل صناعة البردي في مصر بمرور الأيام. وعلى هذا يتبين أن مهنة الوراقة في العصر الإسلامي كانت تعادل مهنة الطباعة والنشر في العصر الحديث؛ وعلى هذا النحو فقد قسمت الباحثة هذا البحث إلى ثلاثة محاور رئيسية وهي: تطور مهنة الوراقة، وفن الخط، وأشهر الخطاطين والكتاب في بلاد الرافدين منذ القرن الثالث الهجري، والوراقة ومدارس الخط في مصر منذ القرن السابع الهجري، وأشهر الكتاب والخطاطين والوراقين في مصر في القرن السابع.

الطباعة والأيدلوجيا

وشارك **محمد فياض** من كلية الآداب، جامعة طنطا عن **"الطباعة والأيدلوجيا: الأيدلوجية الدينية أنموذجا"**. فأشار إلى أن الطباعة أن لم تكن على مدى تاريخها بريئة من الأيدلوجيا، فعلى مدى تاريخ الأفكار التي مثلت الحقب التاريخية لازما بديمومة واستمرارية نشر تلك الأفكار نسخًا أو طباعة، وتأتى الأيدلوجية في قمة خصوصيتها حينما ترتدي رداء الدين، وفى الحقيقة فإن الأيدلوجيا الدينية وجدت في الطباعة عصاها السحرية التي استطاعت أن تأسر من خلالها عقولاً كثيرة فقد ارتبط الاثنين بعضهما البعض برباط مقدس، فمنذ أن دشن جوتنبرج اختراعه المعجزة كان الولد الأول من رحم مطبعته هو الكتاب المقدس، ويبدو أن ذلك الوليد لم يكن صدفة بل كان تدشينًا لظاهرة استمرت على مدى التاريخ بشكل لافت، لذا فقد ولج الباحث إلى هذه القضية في محاولة منه لحلها ومناقشة إشكالاتها بصور بانورامية للوقوف على القضية بشكل عام، وذلك من خلال محاور عدة قد تكون كفيلة للوقوف على العلاقة بين الطباعة والأيدلوجيا، وكيف استطاعت الأيدلوجيا الدينية ذات العقل الترادفي توظيف الأوراق والأحبار، والماكينات لنشر ثقافاتها وأجنداتها فحولتها من عناصر مادية جامدة إلى حصان جامح واجهت به وبكل شراسة أيدلوجيات أخرى منافسة لها. فتناول الطباعة وتوظيفها في التنافس الإسلامي المسيحي، والطباعة وتوظيفها في التنافس المسيحي المسيحي، والصهيونية والطباعة، والفكر الشيعي والطباعة، والإخوان المسلمين والطباعة، والجماعات السلفية والطباعة، والجماعات الدينية المتشددة والطباعة. وعلى الرغم من اختلاف أبجديات تلك المحاور، وأدبياتها، ومسرحها الجغرافي، ونطاقها الزمني، إلا أنها تتفق في كونها جماعات أصحاب مشاريع أيدلوجية حاولت على مدى تاريخها نشر تلك الأفكار، وأيضًا مدى تأثير الطباعة المؤدلجة على إيمان الشعوب وفكرها وثقافتها، هل كانت مُعينًا لها؟ أم ضببت الصورة أمامها؟ أم كانت حصان طروادة الذي أقحم عليها الكثير والكثير من الأفكار الدخيلة المنتخبة.

الطباعة والحروب

وشارك الدكتور **أحمد جلال بسيوني** مدرس التاريخ الحديث والمعاصر في كلية الآداب جامعة دمنهور، عن **"أثر الكلمة المطبوعة في اشتعال أوار الحرب الباردة"**، فأشار إلى أن أهم النتائج التي ترتبت على انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت ما عُرف باسم "الحرب الباردة The Cold War"، وهي الحرب التي تناوب فيها المعسكران: الغربي بزعامة الولايات المتحدة، والشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي الصراع للسيطرة على مقدرات العالم وشعوبه بصورة جديدة جدًا في التاريخ، تجنب كلا الفريقين فيها "الحرب الساخنة"؛ لأنه في حالة اندلاعها فستكون كفيلة بتدمير العالم، ولذا فقد استبدل

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المعسكران الكبيران تلك "الحرب الساخنة" بـ"الحرب الباردة"، التي أخذت فيها الكلمة المطبوعة دورًا بارزًا في الجانب الإعلامي. وكان المعسكران الكبيران متفقين ضمنًا على أنَّ التراشق بالكلمات أفضل بكثير من التراشق بالصواريخ النووية، فبعد أن كانت دعايات الكلمات المطبوعة سببًا في نشوب الحرب الساخنة في الماضي، أصبحت هي المبرر لهذا الإنفاق المهول على التسلح في كلا المعسكرين بدعوى الخوف من الآخر. ومن هنا فقد حاول كلا الطرفين التفنن والإبداع في توظيف الخطب، أو المقالات، أو التقارير لخدمة الأهداف السياسية والإستراتيجية، وبالتالي كان أحد الأشخاص من هذا الجانب أو ذاك يلقي بخطبة، أو يكتب مقالاً، سرعان ما تتلقفه الصحف وتنشره، ثم تقوم عليها الدراسات والأبحاث والندوات والمؤتمرات لتحليله، فيرد عليه الجانب المقابل بالمثل، فباتت هذه الكلمات إحدى أهم الأسباب التي اندلعت بسببها ما بات يُعرف بـ "الحرب الباردة".

وشارك الدكتور **وليد فليفل**، من كلية الآداب جامعة طنطا، ببحث عن "**مطبوعات حرب أكتوبر في مصر وإسرائيل**"، فأوضح أنه إذا كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد لقنت العدو الإسرائيلي والعالم أجمع أن العدوان وسلب الأرض لا يدوم، فإن المطبوعات التي تناولت الحرب أولاً بأول وساعة بساعة، قد كشفت للعالم عن مدى المصداقية التي تمتعت بها طباعة الصحف القومية بدون مبالغة ولا تضليل، على عكس الصحف الإسرائيلية التي بالغت وكذبت على الرأي العام الإسرائيلي والعالمي بشأن ما يدور على الجبهات في كل من مصر وسوريا، ولا نجانب الصدق إذا قلنا أن إسرائيل قد وقعت في نفس الفخ الذي وقعت فيه الصحافة المصرية في حرب يونيه ١٩٦٧م. ويبدو أن المهزوم دائمًا ما يلجأ إلى الكذب على شعبه حتى لا ينهار فجأة، ورويدًا رويدًا يكشف له الحقيقة المرة، وهذا هو ما حدث بالنسبة لكذب الصحف الإسرائيلية على مواطنيها. والحقيقة أن البحث يتناول المطبوعات المصرية والإسرائيلية، وكيفية تناول الفريقين وقائع حرب أكتوبر، ودور الأخبار المطبوعة في نقل حقائق المعارك على جبهتي القتال، ممهورة بتحليل العسكريين وخططهم وإمكانية نجاحها من عدمه، ومردود ذلك على نفسية الجبهة الداخلية في كلا البلدين المتحاربين.

الطباعة الفنية

وشارك الدكتور **مصطفى الرزاز** الأستاذ في كلية التربية الفنية جامعة حلوان، عن "**الطباعة الفنية اليدوية في مصر: دراسة تاريخية**"، فأكد على أن كل مَنْ كتبوا عن تاريخ الطباعة الفنية في مصر قد أشاروا إلى أن بدايتها الفعلية جاءت مع الثلث الأول من القرن العشرين، باستثناء القوالب الخشبية البارزة التي استخدمها المصريون منذ العصر الفاطمي، والتي تحتوي على زخارف تكرارية هندسية ونباتية وحيوانية استخدمت في طباعة المنسوجات. ويشيرون بكل ثقة إلى أن فنون الطباعة على الورق قد تأخرت في مصر ما يقارب الخمسة قرون، حيث يؤرخ لبداية الطباعة الفنية في أوروبا فيما بين منتصف القرن الثاني عشر متمثلة في طباعة أوراق اللعب والصور الدينية. غير أن الباحث "ستيتشفيتش" قد أفاد في مصنفه عن تاريخ الكتاب بما يخالف ذلك التصور الشائع عن تاريخ الطباعة على الورق وطباعة الكتب في مصر، إذ يقرر أن الكتب الأولى المطبوعة بالقوالب الخشبية التي ظهرت في أوروبا قد ظهرت في الوقت الذي توقف فيه إنتاجها في مصر، ويتضح من بحوثه أن مصر عرفت طباعة الكتب بالقوالب الخشبية في وقت مقارب جدًا لطباعة أول كتاب معروف للصيني "وانج شيه" سنة ٩٦٨م، وهو كتاب دورة البوذية (Diamond Sutra)، ففي اكتشاف يرجع إلى نهاية القرن التاسع عشر تم العثور في آثار مدينة قريبة من الفيوم في مصر على خبيئة تضم حوالي خمسين كتابًا، وكذلك تم العثور سنة ١٨٩٤ على عدة أوراق مطبوعة عبارة عن أحجبة طبعت بالقوالب الخشبية في الفترة من (٩٠٠ إلى ١٣٥٠م)، وهي ضمن مجموعة الأرشيدوق في المكتبة الوطنية في فيينا. كما أن متحف الفن الإسلامي في القاهرة يقتني مجموعة من الأوراق المطبوعة ترجع إلى ما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين، عُثر عليها في الفسطاط والبهنسا والقصير، وهي وثائق دالة على أن المصريين قد عرفوا ومارسوا فن الحفر البارز على الخشب قبل أن يستخدمه الأوروبيون بأربعة قرون ونصف القرن، حيث بدأت هذه التقنية في أوروبا فيما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

الطباعة في تونس

وشارك الدكتور **إبراهيم جدلة** مدير المعهد العالي للدراسات التطبيقية والإنسانية في جامعة تونس، عن "**حياة نابليون: أوّل كتاب تونسي طبع بباريس سنة ١٨٥٦**"، فأشار إلى أحمد باي (حكم من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٥) كان مبهورًا بشخصيّة نابليون، وكان يعتقد أنّ إصلاح الأوضاع الإسلامية يمرّ حتما عبر الإصلاح العسكري. وعندما تولّى الحكم بادر بتأسيس مدرسة عسكريّة، وطلب من أوّل مدير لها أن يؤلّف كتابًا عن سيرة نابليون، وبحكم عدم وجود مطبعة بالبلاد التّونسيّة، تمّ طبع هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٥٦. فتناولت مداخلة الباحث محتوى هذا الكتاب والظروف التّي حامت حول طباعته، ودور القنصل الفرنسي بتونس آنذاك لإنجاز ذلك.

الطباعة في السعودية

وشارك الدكتور **سامي صالح عبد المالك**، باحث عمارة وفنون إسلامية ومستشار بمشروع توثيق تراث وعمارة الشامية في مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، عن "**الطِباعة والمَطابع في بلاد الحَرَمين الشريفين خلال مائة عام (١٣٠٠-١٤٠٠هـ/١٨٨١-١٩٨٠م) تاريخها وآثارها**" فأشار إلى أنه من المعروف أن عاصمة الدولة العثمانية "الآستانة" هي أول بلد شرقي يعرف المطابع الحديثة في سنة (٩٥٨هـ/١٥٥١م) من عهد السلطان سليمان القانوني، كما ظهرت الطباعة لأول مرة في شبه الجزيرة العربية في عهدهم ببلاد اليمن في مدينة صنعاء سنة (١٢٩٧هـ/١٨٧٩م)، إذ قامت الدولة العثمانية بإنشاء مطبعة عُرِفت باسم مطبعة صنعاء، ومطبعة

الولاية، ومطبعة ولاية اليمن، وهي مطبعة يدوية. وأُنشئت أول مطبعة ببلاد الحَرَمين الشريفين في مكة المكرمة سنة (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) على يد والي الحجاز العثماني الوزير عثمان نوري باشا، وهي تُعتبر ثاني مطبعة في شبه الجزيرة العربية بعد مطبعة صنعاء، وهي مطبعة يدوية صغيرة، ولم تكن في مستوى مطابع مصر، وسُميت هذه المطبعة باسم المطبعة الميرية، ومطبعة الولاية، ومطبعة ولاية الحجاز، وكانت موضع عناية الدولة العثمانية فزودتها بآلة طباعة متوسطة، وبعدها بسنوات أحضرت آلة طباعة حجرية، وطُبعت فيها عدة كُتب باللغات العربية والتركية والجاوية، ثم آلت المطبعة إلى حكومة الحجاز الهاشمية، وعندما ضُمت الحجاز للملك عبد العزيز آل سعود تم الاهتمام بهذه المطبعة، وأصبح اسمها مطبعة أُم القُرى، وقد طُبع في هذه المطبعة العديد من كُتب التراث الدينية والتاريخية، وصحيفة ولاية الحجاز، وصحيفة أم القرى الجريدة الرسمية للدولة.

طباعة المسكوكات الإسلامية

وشارك الأستاذ الدكتور **عاطف منصور محمد رمضان** عميد كلية الآثار في جامعة الفيوم، ببحث عن **"دراسة في تطور رسوم المسكوكات الإسلامية في المطبوعات الأوروبية منذ القرن السادس عشر وحتى العصر الحديث"**، فأشار إلى أن اهتمام المستشرقين بعلم النميات الإسلامية قد بدأ منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي تقريبًا، وبدأ هؤلاء المستشرقون في جمع هذه المسكوكات واقتنائها على المستوى الأهلي والملكي والحكومي، واهتم الباحثون بنشر هذه المجموعات ودراستها، واعتمد منهج البحث في ذلك الوقت على نشر هذه المجموعات وتصنيفها وفقًا لتسلسل الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ووفقًا للتسلسل التاريخي للحكام في كل أسرة، وذلك في ضوء مكان وتاريخ سك هذه المسكوكات. وكان هؤلاء الباحثون يرغبون في أن تتضمن مؤلفاتهم نماذج من هذه المسكوكات التي قاموا بدراستها ولم يكن التصوير الفوتوغرافي قد اخترع في تلك الأثناء، فلجأ هؤلاء الباحثون إلى عمل رسوم توضيحية لنماذج من هذه النقود، بما عليها من نقوش عربية وزخارف مختلفة، ورسوم آدمية أو حيوانية أو غيرها، وفي بعض الأحيان لم تكن هذه الرسومات دقيقة ومعبرة عن حقيقة قطعة المسكوكات، وكان ذلك بسبب عدم الإلمام الجيد للباحث باللغة العربية وقواعدها، أو عدم الكفاءة الفنية في نقل النقوش من على هذه المسكوكات، وكان استخدام هذه الرسوم التوضيحية ذلك لأول مرة في القرن السابع عشر في سنة ١٦٤٥م. وقد استمر استخدام هذه الرسوم التوضيحية في هذه المؤلفات منذ ذلك الحين، ومن أهمها مؤلفات سيموني السمعاني (١٧٨٧-١٧٨٨)، وأدلر (١٧٨٢، ١٧٩٤)، وهالنبرج (١٨٠٠)، وكاستيلوني (١٨١٩)، وفراين (١٨١٦)، وتورنبرج (١٨٤٨)، وتبزنهوزن (١٨٧٣). ثم ظهر التصوير الفوتوغرافي في القرن التاسع عشر، وهو الأمر الذي أفاد منه الباحثون في مجال المسكوكات فبدأت مؤلفاتهم تشتمل على صور فوتوغرافية لبعض المسكوكات، وكان استخدام التصوير الفوتوغرافي لأول مرة في المسكوكات في بحث لتيزنهوزن سنة ١٨٧٠.

وقد تطور استخدام التصوير الفوتوغرافي، حيث استخدمت الصور الملونة في مؤلفات المسكوكات، وكان له أهمية كبيرة في توضيح المعدن الذي ضربت منه النقود مثل الذهب، والفضة، والبرونز، وصارت بعض المؤلفات تشتمل على صورة لكل قطعة تناولها المؤلف، وذلك قبل أن يتراجع الباحثون في المسكوكات إلى استخدام الصورة غير الملونة من جديد نظرًا لأنها تعطي جودة أعلى في إظهار نقوش السكة وزخارفها، وكان ذلك بصفة خاصة في منهج النشر الجديد الذي سارت عليه المؤسسات العالمية مثل متحف الأشموليان في أكسفورد، وجامعة توبنجن في ألمانيا، وجامعة ينا في ألمانيا، والذي عُرف باسم (Sylloge)، حيث يشتمل على تصنيف النقود وفقًا لدار السك، ثم تسلسل الحكام التاريخي، ويشتمل على صور لكل قطع النقود، مع قراءة بسيطة ومعلومات قليلة عنها، ولهذا عرض الباحث للتطور الذي شهدته صور المسكوكات من خلال المؤلفات الأوربية، وبيان مناهج البحث والنشر في هذا الميدان من خلال التعامل مع صور هذه المسكوكات.

الليثوغرافيا والخط العربي

وشارك الدكتور **أيمن عبد الله حسن** من مركز الكويت للفنون الإسلامية، بموضوع **"الليثوغرافيا وفن الخط العربي"** فذكر أن الطباعة في العالم الإسلامي قوبلت بالرفض على المستوى الرسمي والشعبي مما عرقل مسيرة التطور بشكل كبير، وعلى الرغم من أن الكثير من الباحثين يرجعون الأمر إلى السبب السياسي فإن أسباب أخرى تقف وراء هذا الرفض لم تحصل على القدر الكافي من الاهتمام، ولقد وقفت تلك الأسباب مجتمعة في وجه المطبعة الأولى قرابة أربعة قرون من الزمن قبل أن تبدأ في العمل بشكل مقبول في هذا الجزء من العالم. في المقابل، نجد أن الطباعة الحجرية "الليثوغرافيا"، التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر قوبلت بالترحيب في العالم الإسلامي ولم تستغرق أكثر من أربعة عقود لتدخل الأراضي الإسلامية، وهي مدة قصيرة إذا أخذنا بالحسبان إيقاع ذلك العصر. يسلط البحث في القسم الأول الضوء على تاريخ الطباعة بشكل عام وعلى الأسباب التي أدت إلى تأخر وصولها إلى العالم الإسلامي، كما يتناول هذا القسم أيضًا موضوع الليثوغرافيا وأهم الميزات التي اتسمت بها فسهلت قبولها مقارنة بما جرى في شأن المطابع الأولى. أما القسم الثاني من البحث فيتناول الدور الذي لعبته الطباعة الحجرية في نشر فن الخط العربي، لاسيما وهي تتيح إمكانية طباعة الرسوم والصور وليس الحروف فحسب، بالإضافة إلى عرض لبعض نماذج الخطوط التي أصدرتها المطابع الحجرية في العالم الإسلامي علاوة على الإمكانيات التي تتيحها الليثوغرافيا للفنانين المعاصرين الذين يستلهمون من غنى الحرف العربي وتراثه موضوعًا لأعمالهم.

وشارك **بدر محمود عرابي** من مصر ببحث بعنوان "**مشاكل حوسبة النص القرآني ورؤى الحل**". يعد هذا البحث بمثابة طرح للمشكلات التي ظهرت نتيجة كتابة القرآن الكريم إلكترونيًا، ومحاولة للوصول إلى حلول ناجعة نحافظ بها على سلامة النص القرآني. وقد عمدت في البحث إلى التطرق إلى أنواع مختلفة من المشكلات التي صادفتني بحكم عملي في مجال تقنية المعلومات، وفي تجهيز المصاحف الإلكترونية تحديدًا. فمن هذه المشكلات ما يتصل بطبيعة النص القرآني نفسه، والتي لها خصوصية تجعله مختلفًا عن النص الإملائي؛ حيث تأتي مميزات النص القرآني متمثلة في طريقة كتابته؛ إذ إن "الأصل في المكتوب أن يوافق المنطوق تمامًا من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تغيير، ولكن المصاحف العثمانية أهملت هذه القاعدة فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفًا لأداء النطق". كما أضفى دخول علامات الضبط على النص القرآني مزيدًا من التميز، حدا به شكلاً متفردًا لا مثال له في الكتابات اللغوية الأخرى.

الطباعة الرقمية

وشارك الدكتور **سعد الدين عبد الحميد محمد** مدرس التصميم بكلية العلوم التطبيقية في سلطنة عمان، عن "**النكوص عن جماليات الكتابة العربية في تصميم الخطوط الطباعية الرقمية**"، كان الارتقاء بالتجويد الكتابي للنص العربي همًا انشغل به المسلمون منذ فجر الإسلام. وظل الناسخون والخطاطون يطورون ويضيفون تحت بصر الجماعة التي رفدتهم بنقدها واستحسانها، وأرسيت قيم جمالية ومعايير إيضاحية محددة لرسم الحروف وإخراج المخطوطات، وتشهد بذلك كثير من النماذج الراقية التي خلفوها. إلا أنه، وبعد انتشار تقنية الطباعة، وبدلاً من الإفادة من هذا الإرث في التعرف على خصائص ضبط وتجويد الكتابة العربية والعمل على حسن توظيفها في التقنية الحديثة، أو السعي للتوفيق بينهما، توجهت المساعي إلى تغيير أسس الكتابة العربية ذات الإرث الكبير والمجرب، وإخضاعها لتقنية أوجدت أصلاً للتطبيق على كتابة لغات غيرها، وتختلف أساليها عنها. فتم التخلي عن كثير من قيم التراث الخطي الوظيفية والجمالية. واستسهل بدلاً عنها الرجوع إلى أسلوب الكتابة البدائي البسيط لصف الحروف العربية أفقيًا، والذي كان سائدًا في القرن الهجري الأول، على ما به من عيوب ونقائص كان قد تم تجاوزها إبان عصر نهضة العلوم الإسلامية وفنونها في القرن الرابع الهجري وما تلاه. وكان نتاج ذلك أن أغلب نماذج الخطوط الطباعية العربية اليوم تعاني ضعفًا جماليًا ووظيفيًا بائنًا، كما تمثل مظهرًا متدنيًا، أمام حروف الطباعة لكثير من اللغات. في ما يعد تراجعًا بائنًا مقابل الرقي الذي مثله الخط العربي.

وقد تبين للباحث، من خلال دراسة مقارنة لعينات لكتابات بالخطوط الطباعية، بأصول لكتابات بالخطوط اليدوية التقليدية، أن كثير من التفاصيل والسمات المعيارية في نظام الكتابة الخطية العربية، اللازمة لصحة تصميم أشكال بعض الحروف، بما يقربها من أشكالها المعروفة والمتآلف عليها، أو بما يحقق فيها معايير الوضوح والمقروئية والجمال لم يتم تبنها. إذ لم يستصحب المشتغلون بتصميم وتطوير هذه الخطوط الطباعية العربية إلا بعض القيم الظاهرية في أشكال الكتابة الخطية في تصاميمهم، لتتوافق مع التقنيات المستحدثة لكتابة وطباعة النصوص. وأهملوا جل تلك النظم التي كان يمكن أن توفر للكتابة بالخطوط العربية الطباعية قدرًا أكبر من عنصري الوضوح والجمال. وكان نتاج ذلك تعدد الأخطاء التصميمية وتفاوتها، بل وتكرارها وازدياد عددها وتنوعها في تصاميم مستحدثة ومستنسخة من هذه الخطوط الطباعية، في ما يشي بأن أمر تصميم وتطوير خطوط الطباعة العربية الرقمية على أهميته وخطره، وقف على مدى معرفة كل مصمم بما يفعل، وأنه لا توجد قيم ومعايير ضابطة يُستند إليها لضمان حسن التصميم، وحسن أدائه لوظيفته.

طباعة العملة الورقية

وشارك الأستاذ الدكتور **محمود سعيد عمران** أستاذ تاريخ وحضارة أوروبا في العصور الوسطى من كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، بموضوع عن "**طباعة العملة الورقية عند المغول**"، فقد بدأ التوسع المغولي في قلب العالم الإسلامي منذ سنة ١٢١٩م، وأعقبه السيطرة على دولة الكرج وأرمينيا ودولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والقوقاز ثم روسيا والتقدم غربًا حتى السواحل الغربية لبلاد اليونان، وأعقب ذلك التقدم إلى بغداد وأراضي الخلافة العباسية في العراق، ثم أراضي الدولة الأيوبية في بلاد الشام، حتى إذا ما وصلنا إلى سنة ١٢٦٠م، كان المغول يسيطرون على جانب كبير من بلاد العالم مع اختلاف اللغة والتقاليد. ومع هذا الاتساع وتعدد طرق التجارة إلى داخل الإمبراطورية المغولية تطلب الأمر إصدار عملة ورقية إلى جانب العملة المعدنية للتعامل بها تجاريًا، لذلك قام المغول بتقليد العملة الصينية وقاموا بصناعة وطبع عملات ورقية، كما وضعوا القوانين الصارمة لإعداد العملة وتقطيعها إلى أحجام مختلفة شبه مربعة ووضع قيمها والأشكال والرسوم المطلوبة عليها. ووضعت القوانين الصارمة كذلك لعقاب من يزور هذه العملة. وكانت أعطيات الجند تصرف بهذه العملة الورقية التي تعد على نفس قيمة العملات الذهبية والفضية.

وشاركت الأستاذة الدكتورة **ماجدة النويعمي** الأستاذ في كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ببحث عن "**الطبعة العربية الأولى "الإلياذة" هوميروس ودورها في التواصل الثقافي**"، في سنة ١٩٠٤ أصدرت مطبعة الهلال في مصر أول طبعة عربية للملحمة "الإلياذة" للشاعر اليوناني هوميروس، ونظرًا لما حظيت به هذه الملحمة في تاريخ الفكر الإنساني من مكانة متميزة، كان للطبعة الأولى لمطبعة الهلال أهميتها البالغة في العالم العربي. حملت هذه الطبعة البيانات التالية: إلياذة هوميروس: معربة نظمًا وعليها شرح تاريخي أدبي، وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره، وآداب اليونان والعرب،

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ومذيلة بمعجم عام وفهارس بقلم سليمان البستاني، طبع بمطبعة الهلال في مصر سنة ١٩٠٤. تتناول هذه الورقة ثلاث نقاط: (١) كيف مثلت هذه الطبعة خطوة على طريق التواصل الثقافي بين العرب واليونان. (٢) الاستقبال العربي لصدور هذه الطبعة. (٣) أثر هذه الطبعة على استقبال "الإلياذة" في مصر بعد مرور مائة عام على صدورها.

وشارك الدكتور **أحمد السعيدي** الأستاذ بأكاديمية التربية والتكوين بأكادير بالمملكة المغربية ببحث عن "**أسلوب إخراج المطبوعات وأحجامها وأشكالها وزخرفتها**" ولجت المطبعة الحجرية المغرب سنة ١٨٦٤ على يد أحد القضاة الذي اقتناها من مصر ورافقه طبّيع (مطبعجي) يدعى محمدًا القياني (أو القباني)، ليقوم بتشغيلها وفق عقد بينهما. لا يسعى هذا البحث إلى تكرير البحث في تاريخ هذه المطبعة، لأن دراسات جادة سبقت إليه، بل هاجسها دراسة أسلوب إخراج المطبوعات الحجرية الذي ازورَّ (انحرف) عنه الباحثون، ويعدّ في حكم المهمل، الشكل : الحجم: تفاوت حجم المطبوعات، المقياس، المسطرة.. وسنهتبل بأضرُبٍ ثلاثة: سنركز على الآتي: - الخط: النوع واللون، توظيف الخط المغربي اليدوي، توظيف الخطاطين في خدمة المطبعة. - التصميم والإخراج والترقيم.. - الورق: الورق المستورد (الكاغد الزخرفة: سنركز على دراسة: - الأيقونة: الرومي) من أوربا خاصةً، نوع الورق وشكله.. توظيف الصورة والرسم (جداول، أشكال هندسية..) - الزخرفة: الترنجة، الديباجة.. تصميم البحث: توطئة: - دواعي البحث - الفضاء النصي من عصر المخطوط إلى عصر المطبوع - التحليل: أسلوب إخراج المطبوعات الشكل: سنركز على الحجم: تفاوت حجم المطبوعات، المقياس، المسطرة.. الحجرية الآتي: - الخط: النوع واللون، توظيف الخط المغربي اليدوي، توظيف الخطاطين في خدمة المطبعة، نوعية القلم هل هو الفاسي أو غيره؟ - التصميم والإخراج والترقيم = علامات الترقيم التقليدية + التعقيبة (ترقيم الورقات). - الورق: الورق المستورد (الكاغد الزخرفة: سنركز على دراسة: - الأيقونة: الرومي) من أوربا خاصةً، نوع الورق وشكله.. توظيف الصورة والرسم (جداول، أشكال هندسية..) - الزخرفة: الترنجة، الديباجة.

الطباعة والتراث

وشارك الدكتور **كمال عناني** من مصر عن "**أشكال وتقنيات الطباعة التراثية في ضوء قطعتين من النسيج المملوكي المطبوع لم يسبق نشرها**" تعد الطباعة وسيلة من الوسائل الفنية المستخدمة في زخرفة المنسوجات برسومات ملونة تتم بعدة طرق أهمها طريقتين هما: الطباعة بالقوالب الخشبية، والطباعة بالمواد العازلة . والجدير بالذكر؛ أن الطباعة تعد نوعًا من أنواع الصباغة، غير أن القماش لا يتخذ لون واحد يغمره محلول الصبغة، بل تتم الطباعة بنقل عجائنها إلى سطح النسيج أو القماش. وفن زخرفة المنسوجات الإسلامية المطبوعة يعد تطورًا لما كان علية هذا الفن في مصر منذ العصر الفرعوني وحتى العصر القبطي. أما في العصر الإسلامي، فقد قل استعمال الطباعة في زخرفة النسيج لظهور طرق جديدة نافست هذه الطريقة التي عادت للظهور بشكل واضح في العصر المملوكي لتلاءم استخدام النسيج القطني الذي انتشر في هذا العصر. وقد وصلنا قطعتين محفوظتين في متحف الآثار في كلية الآداب جامعة الإسكندرية لم يسبق نشرهما ينتميان إلى العصر المملوكي مصنوعتان من القطن؛ الأولى مطبوعة بزخارف هندسية ونباتية تشبه قطع النسيج القطني المطبوع الذي أنتشر في العصر المملوكي، والثانية مطبوعة بزخارف نباتية متعددة الألوان متأثرة إلى حد كبير بالمنسوجات القطنية المطبوعة في الهند التي اشتهرت منذ زمن بعيد بملابسها القطنية المزخرفة بالزهور المطبوعة بطريقة القالب. ومن المرجح؛ أن هاتان القطعتان من صناعة مدينة الإسكندرية والتي ذاع صيتها في مجال الصناعات النسجية القطنية منذ العصر الأيوبي وطوال العصر المملوكي، حيث تحولت إليها معظم أنوال النسيج من مدن الدلتا نتيجة للتخريب الذي لحق بمعظم تلك المدن خلال الحملات الصليبية.

وتحدث الدكتور **ماجد جاهين**، الأستاذ في كلية الفنون الجميلة جامعة الإسكندرية، عن "**منهجية اختيار الألوان في التصميم**"، في محاولة للإجابة على عدد من الأسئلة التي طرحها، وسعى في ورقته للإجابة عنها متمثلة في: اختيار اللون: هل هو ذوق الفرد، أم ثقافة مجتمع، أم تأثير البيئة المحيطة؟ فأوضح أن إدراك اللون ثابت عند كافة الأفراد صحيحي الإبصار، فالأحمر والأخضر والأزرق، وأي لون هو ذاته بين كافة شعوب الأرض، مهما اختلفت ثقافتهم وبيئتهم، وهذا يجعل من اللون لغة عالمية بعد الرسم. كما أن الإنسان خلق وبداخله حب الجمال للألوان، فنجد كافة البشر تسعى في مسكنها وملبسها، وحتى في مأكلها أن تصنع تناغمًا لونيًا يعبر عن طبيعة كل فرد وذاتيته الخاصة، والفرد ما هو إلا جزء من المجتمع الذي كون ثقافة خاصة به، اكتسبها من تأثير البيئة المحيطة من حوله، فاللون هو واحد من أسس الحياة التي سيظل الإنسان يبحث فيها من كافة النواحي الفيزيائية والسيكولوجية والفسيولوجية. لكن ما الذي يجعل الفنان يتميز عن سائر البشر في قدرته على اختيار ومزج المجموعات اللونية؟ هل اللون له قواعد وأسس ثابتة لا يمكن الخروج عنها، أم إنه ذوق وحس داخلي؟ وإذا كان اللون تم قولبته في نظريات وأسس فلماذا لا تطبق ويصبح الجميع فنانين؟ وإذا كان ذوقًا وحسًا داخليًا، فما وسائل تنميته وصقله داخل الفرد؟.

هذا هو الغرض من البحث المطروح، وهو معرفة منهجية اختيار الألوان، لنصل لقدر من الإدراك في فهم طبيعة اللون والتعامل معه في كافة المجالات المرئية عامة، وفي مجال التصميم خاصة، فكثيرًا ما نجد تصميمات أتقن صانعها خطوطها الخارجية بدقة متناهية، ولكن عند مزجه للألوان لملء فراغات خطوطه تنهار كافة الجماليات التي أبدعها، وذلك لأنه يفقد ما يُعرف بمنهجية اختيار الألوان. وترجع أهمية اللون في التصميم لكونه لغة إضافية يخاطب المرسل بها المتلقي لتوصيل فكرته بكل خطواتها، من حيث جذب الانتباه،

وخلق جو وجداني وانفعالي ملائم عند المشاهد، وخاصة أن للألوان ارتباطًا بمعان ومشاعر سيكولوجية. والألوان في النهاية هي البناء الطبيعي للعالم ولكافة الأشكال التي نراها بأعيننا، والتي نكتسب منها الخبرة الجمالية في ما هو قابل للقياس وما هو غير قابل له، وما بين الملموس وغير الملموس، وهذا هو المبدأ الشكلي الذي يجب أن نلاحظ به تطور الكون ذاته.

الطباعة التراثية

وشارك الدكتور **محمود مراد محمد عبد اللطيف** الأستاذ في كلية الفنون الجميلة جامعة المنيا، عن "**تقنيات الحفر والطباعة التراثية**". فتناول في الجزء الأول من البحث نبذة عن تاريخ فنون الحفر والطباعة ذات الأداء اليدوي، بداية من ظهور الأختام الحجرية التي كانت تستخدم منذ القرون الأولى قبل الميلاد، والأختام الصينية ثم مرورًا بتاريخ الطباعة والحفر والبارز منذ القرن الخامس عشر، ثم اختراع أله الطباعة وحتى القرن العشرين مع ذكر لأهم فناني الحفر البارز خلال تلك الفترة. ثم تناول البحث تاريخ الحفر الجاف سواء الخطي بالأزميل، أو الحفر الجاف بالإبرة، ثم الحفر التنقيطي، مع ذكر لأهم الفنانين، وبعض الأعمال التوضيحية، ثم يتحدث البحث عن تاريخ الحفر والطباعة بالطريقة السوداء، ثم طريقة الطباعة من القالب الحجري الليثوجراف، ثم طباعة النسخة الوحيدة المونوتيب، وذلك منذ نشأة كل طريقة وحتى نهاية القرن العشرين، مع ذكر أهم الفنانين ونماذج الأعمال، وتناول في الجزء الثاني من البحث شرحًا تفصيليًا لكل تقنية على حدة، من حيث أساليب الأداء والأدوات المستخدمة في عمليات التنفيذ، ثم كيفية إصلاح الأخطاء، وسمات الخط المطبوع الناتج من كل أسلوب، ثم أثر الأداء اليدوي في كل أسلوب من أساليب الأداء على الطبعة الفنية، وذلك من خلال الأساليب التي تم ذكرها، مع إدراج صور للأدوات المستخدمة وطريقة الأداء لكل تقنية.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية





تأملات في تاريخ الرومان: أسباب النهوض والانحطاط

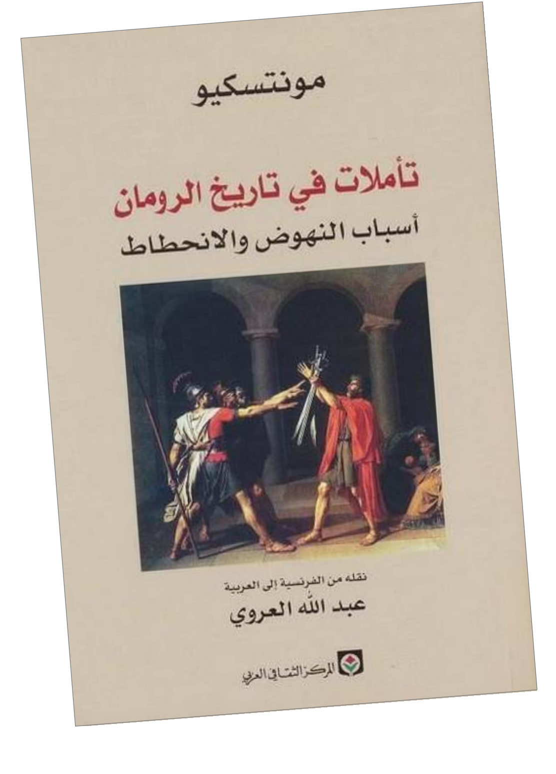
المؤلف: مونتسكيو

تعريب: عبد الله العروي

الناشر: المركز الثقافي العربي.

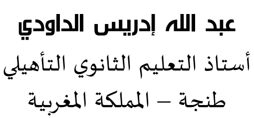
الدار البيضاء

عدد الصفحات: ٢٦٧





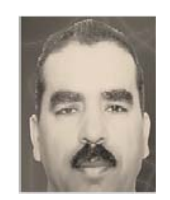
عرض



عبد الله إدريس الداودي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

طنجة – المملكة المغربية



مقدمة

صدر عن دار النشر "المركز الثقافي العربي" في الدار البيضاء كتاب جديد من (٢٦٧) صفحة من القطع المتوسط تحت عنوان "تأملات في تاريخ الرومان: أسباب النهوض والانحطاط"، للمفكر الفرنسي "مونتسكيو" نقله إلى العربية المفكر المغربي الكبير عبد الله العروي، عن النص الأصلي باللغة الفرنسية، والصادر سنة ١٧٤٨.

على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن أن الكتاب موجه إلى فئة من المختصين في التاريخ الروماني القديم فحسب، بل إنه كتاب فكري بحمولات تاريخية، يجيب عن أسئلة حديثة، تشكل مضمون الانشغال اليومي للفاعل السياسي والثقافي العربي اليوم، إنه تشريح عميق وتحليل هادئ للواقع العربي المعاصر عبر تقنية الكتابة بالمثال والرمز، يجد فيه القارئ النبيه ثلاث أزمنة متداخلة هي: زمن الرومان، وزمن مونتسكيو، وزمن العروي، كما هو ظاهر و مضمر في كل الكتاب، بين متن، وهوامش، وفي ظرفية إخراجه في هذا الوقت بالذات.

ويمكن الإشارة إلى: أن لهذا الكتاب علاقة ما بالإصدارين الأخيرين للعروي، "السنة والإصلاح"، و"من ديوان السياسة"، الأول حوار داخلي يروم من خلاله العروي ترتيب أفكاره عن مسألة العقيدة والتدين وهو في عقده السابع، والثاني كان فيه العروي مباشرًا إلى أبعد الحدود عندما انتقى من ديوان السياسة بعض الإشكاليات الكبرى المؤسسة للحقل السياسي العربي وفصل فيها القول، شارحًا ومدققًا ومقترحًا لحلول كثيرة، ولعل هذا المشترك يظهر في كون العروي يشكل بكل صدق ذلك المثقف العضوي المشتغل بالتاريخ والمهموم بقضايا مجاله المحلي (المغرب) أو الإقليمي (الوطن العربي).

إننا أمام كتاب انتقاه العروي بكل عناية ليقدمه للقارئ العربي، وله في ذلك حكمة بليغة إن لم نقل عدة حكم دقيقة، فهو عندما كان يوجه طلبته من المؤرخين إلى الابتعاد عن كتابة تاريخ المغرب بالطريقة التقليدية، كان يعرف جيدًا لما في منهج المقارنة مع الغير من أهمية علمية، وهو اليوم يبرهن لهم عمليًا، من خلال كتاب وكاتب يعتبر من المنابع الأولى للفكر السياسي والدستوري في أوربا في القرن الثامن عشر.

الكتاب: تقديم المترجم

المؤلف: في البداية قدم العروي حياة المؤلف واكتفى بالتوقف عند النقاط التي تساعد على هم المنحى الفكري وأسلوب مونتسكيو في الكتابة، فأشار إلى أن مونتسكيو عاش مرحلة انتقالية: نهاية حكم لويس الرابع عشر التي اتسمت بالتزمت والاضطهاد الديني والانتكاسات السياسية والعسكرية. تلقى مونتسكيو تعليمًا علمانيًا، اقترن بفتاة بروتستانتية في وسط كاثوليكي... وبذلك شكل مونتسكيو نموذج عقلية القرن الثامن عشر الواسعة الاطلاع، المتحررة الفكر، والمتنوعة التجربة... وشكلت مؤلفاته أقوى دفاع عن الحرية في وجه الاستبداد.

لتأملات: أهمية التأملات عند مونتسكيو لا تتجلى في دقة المعلومات بل في عمق التحليل، والقدرة على استخلاص العبر، خاصةً وأن هذه التأملات شكلت جزءًا من مشروع أوسع، تجسد لاحقًا في كتاب "روح القوانين".

المقارنة: التجارب التي عاشها المؤلف والمؤهلات التي يتوفر عليها، وقدرته على جمع المتناقضات، توفر له قدرة خارقة على المقابلة، والموازنة، ومعاكسة الموروث التي تجلت بشكل في كتابه الأول "الرسائل الفارسية".

المراجع: اعتمد المؤلف مراجع متنوعة أتاحت له التوسع في المقارنة بين النظامين الغربي (الجمهوري) والشرقي (الملكي).

مونسكيو وأقرانه: يقارن العروي بين مونتسكيو وأقرانه مكتفيًا بنموذجي ميكيافيلي وابن خلدون، يركز الأول على كيفية تأسيس

دورية الكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الدول كي تدوم وتستمر، ويقارن بين النظامين الجمهوري والأميري، بينما يركز الثاني على استخلاص العبر معتمدًا على طرق النظر والتمحيص ومقارنًا بين البداوة والتحضر، ممهدًا بذلك للسوسيولوجيا كعلم مساعد على قراءة التاريخ. **وتساءل المترجم:** ماذا لو أتاحت الأقدار لابن خلدون ما أتاحته لمونتيسكيو على مستوى المراجع؟

الجبرية والحرية: يذهب مونتيسكيو إلى أن أسباب نهوض روما هي نفسها التي أدت إلى الخلل والانحطاط ثم الانهيار، فكل دولة بالمعنى الواسع تنمو لأسباب موضوعية، ثم تنحط وتنهار لنفس الأسباب التي لم تعد توافق الظروف التي عملت هي على استثنائها. فالانهيار يرتبط عند مونتيسكيو بأعمال البشر الخارجة عن إرادتهم، فسقوط الجمهورية الرومانية لو لم يتم على يد يوليوس قيصر لتم على يد زعيم آخر. ويقارن العروي حتمية مونتسكيو بجبرية ميكيافيلي وابن خلدون ليعتبر أن إصلاح الدولة يصبح مستحيلاً عندما تظهر عليها ملامح الانحطاط، فالقدر مجسد في الذات وليس طارئًا، وميكيافيلي بدوره يعتبر أن الإجراء (الإصلاح) يؤخر الانهيار ولا يمنعه، وابن خلدون يجعل للدولة عمر لا تتجاوزه.

الفصل الأول:

أولويات روما وحروبها

كانت روما، في بداية أمرها عبارة عن مجموعة من الملاجئ، لربط الحيوانات، مخازن لحفظ الغلال ومساكن حقيرة متباعدة، سكانها يمضون وقتهم بين الحقل، والميدان، والتخاطب، والتشاور، بدأت عظمتها مع عهد الملوك فقامت قوتها على: الشدة والاستماتة في القتال، واقتباس أساليب ووسائل العدو إذا كانت أنجع من أساليبهم، واعتبار الاتفاقات مرتبطة بشخص ولا تلزمهم مع مَنْ يأتي بعده، وفي شأن علاقة الحاكم بالمحكوم فإن: الرئيس عند تأسيس الدولة يكون هو الذي يشكل المؤسسة وفي ما بعد، المؤسسة هي التي تشكل الرئيس. فالشعب المغلوب يستعيد حريته بمجرد موت مَنْ تغلب عليه، ويتحمل ثقل الضرائب ويصبر على مضاعفتها، إلا أنه عندما يهان (اغتصاب الفتاة من طرف ابن الحاكم) فإنه يرتقب ما هو أسوأ في المستقبل. فالشعب الأبي، الشجاع، المقدام، المطوق وراء الأسوار، يصبح بين اختبارين، إما الثورة والتحرر أو الخضوع والاستسلام، وحكم التاريخ كحكم المجتمع كلاهما خاضع لتقلبات الدهر، فالخزي لحاكم اضطهد حزبًا أو حاول استئصال خرافة وأوهام (الدين . الكنيسة).

الفصل الثاني:

الرومان وفن الحرب

بعد وصفه لقوة الجندي الروماني وتدريبه المسترسل وصرامة قادته، قارن مونتسكيو بينه وبين جندي عصره الذي اعتبره ينتمي لحثالة الشعب، قد يفر من الخدمة العسكرية، ولا يحارب باطمئنان في حين أن الرومان يشعرون بأنهم ولدوا ليسودوا.

الفصل الثالث:

السر في توسع روما

عمل الرومان عند تأسيس الدولة على توزيع الأرض بالتساوي لوحدة شعب قوي ومجتمع في غاية التماسك والانتظام، فمصلحة كل محارب أن يدافع عن وطنه بكل ما أوتي من قوة. أما في مجتمع مونتسكيو فالملكية في يد قلة تعيش حياة البذخ والرخاء، فالمساواة في الملكية العقارية هي سبب بروز روما وخروجها من وضعها الحقير.

الفصل الرابع:

(الغال – فيهروس- مفاضلة بين روما وقرطاجة- حروب هنيبل)

١- أمة الغال رغم أنها كانت تتطلع للمجد وتستخف بالموت، إلا أنها كانت تتوفر على سلاح رديء غير قادر على مواجهة أسلحة الرومان.

٢- تعلم الرومان من حروبهم ضد فيهروس ملك ايبيريا حرب الخنادق وانتقاء المعسكرات وحروب الفيلة.

٣- كانت قرطاجة سباقة إلى الرفاهية والميوعية والانحلال، فالمناصب تباع وتشتري ولا يخدم الفرد العموم إلا مقابل مكافأة من الدولة، فإهمال الصالح العام يضر بالجمهورية ويقربها من الانحلال أكثر مما يضر بدولة الطاغية. وبالمقابل كانت حظوظ الناس في روما متساوية وحياة التقشف هي الغالبة، وفي حالة الحرب تتوحد مصالح الجميع.

٤- صمدت روما رغم توالي هزائمها ضد هنيبعل ولم تجنح للاستسلام، رغم أنها على حافة الهاوية، فعندما تنكسر أمة لا تضرها الخسائر بقدر ما تضرها أثر الهزيمة المعنوية.

الفصل الخامس:

بعد هزيمة قرطاج

فرض السلم على قرطاج، من سيد يأمر، لا من عدو يفاوض، وأجبرت على إعطاء رهائن، وتسليم مراكبها وفيلتها، وحرم عليها أن تحارب دون موافقة الرومان، الذين عززوا قوة عدوها مسينيسا. عندما تقوم حرب بين شعبين عظيمين يخطئ من يظن أن السلامة في لزوم الحياد، لم يكد الرومان ينتهون من قهر قرطاج حتى أعلنوا الحرب على الدنيا بكاملها بغية استعبادها. أما في سوريا ومصر فإن أمراءهما كانوا على رأس رعيتين متميزتين من أبناء الفاتحين ومن بقايا الشعوب المغلوبة، فمملكة سوريا غلب عليها البذخ والتبرج والميوعة، وامتد من القصر إلى الشعب والجيش عندما قرر حاكمها مواجهة الرومان لم يتصرف بما تفرضه الحكمة، وأخطأ عندما ظن أن الرومان سيتركونه وشأنه. أما مصر التي كانت تملك كل المؤهلات لتكون قوة عظمى، إلا ما اتصف به حكامها من قسوة وجبن وبلادة، وجري وراء أخس الشهوات، فمقتتهم الرعية، واحتقرتهم، إلى أن أشرف سلطانهم على الانهيار في عدة مناسبات، لولا حماية الرومان لهم، فالسلطة في مصر مهددة باستمرار لا أمان لأمرائها في الداخل ولا نفوذ لهم في الخارج.

الفصل السادس:

السياسة التي اعتمدها الرومان لاستعباد سائر الشعوب

انتصب الرومان قضاة لمحاكمة الشعوب، ضمانًا لوفاء مَنْ يخشونه قليلاً ويأملون منه الكثير، وإضعاف مَنْ يخشونه كثيرًا ويأملون منه القليل، يستخدمون الحليف لقتال العدو، ثم ينقلبون عليه ويدمرونه، كلما واجهوا عدة أعداء صالحوا الأضعف الذي يسعد بإمهاله وإرجاء ساعة هلاكه. كان الرومان يلحقون بأعدائهم أضرارًا تفوق كل تصور، كانوا يختارون دائمًا متى وكيف ومَنْ يحاربون، يخاطبون الآخر بلهجة الآمر، لم يبرموا يومًا صلحًا ليدوم، يفرضون شروطًا تؤدي إلى دمار الدولة التي تقبلها. إذا هادنوا أميرًا أخذوا أحد أبناءه أو إخوته رهينة عندهم، إذا ثار أمير أو شعب على سلطانه الشرعي منحوا للثائر لقب حليف الشعب الروماني ومنحوه

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



الحصانة على أن الحليف يعني في الحقيقة الخضوع والانقياد لروما. وإذا وافقوا أن تظل مدينة ما حرة قسموا أهلها إلى حزبين أحدهما متشبث بتقاليد البلد والآخر مقتنع بما تقرره روما، فتظل المدينة حرة بالاسم فيرسلون مبعوثًا يرغم الحزبين على المصالحة. وكلما طرأ نزاع في دولة سارع الرومان لإعلان موقفهم على الفور ونصبوا أنفسهم أوصياء بصفتهم حماة الأرض كلها، إلى حد أن سائر الشعوب والملوك أصبحوا رعايا روما. فما خدم روما هو الهيبة التي زرعتها في قلوب الناس، هيبة أفحمت الملوك وجعلت منهم أغبياء، يتحاشون حتى التحديق في عيون الرومان.

الفصل السابع:

صمود ميثريدات في وجه الرومان

ميثريدات هو أحد ملوك القوقاز تمكن من إرهاق روما باستغلال خصومها السياسيين والعسكريين المطرودين و تقنياتها الحربية.

الفصل الثامن:

الانقسامات التي مزقت دائمًا روما

في الوقت الذي كانت روما تستعبد الشعوب، كانت تشكو من حرب داخلية خفية، فقد استأثرت الأرستقراطية (الأشراف) بجميع المناصب السياسية، فتأججت نقمة الشعب، الذي أصبح يحب الحرية، حبًا غير محدود، و هو لا يملك منها شيئًا. فأخذ يختار الحكام من صفوفه، ويقاسم الأشراف المناصب، فتحول الحكم فيها تدريجيًا من أرستقراطي إلى جمهوري. أسعد جمهورية هي التي تختار زعماءها دون اعتبار النسب، إذ الشعب لا يغار من سلطة يقلدها مَنْ يشاء ويسحبها منه متى شاء، فغضب الشعب أدى إلى استمرار القلاقل وأخذ يهاجم الخاصة ويحاكم المصرين على معاكسته. فالحكومة الحرة هي الحكومة التي يكتب لها البقاء إذا ضمنت دستورها آليات تقويم ذاتي.

الفصل التاسع:

عاملان سببا انهيار روما

لما توسعت روما إلى ما وراء الأراضي الإيطالية، ومنحت حقوق المواطنة الرومانية، تشكلت فيها نزعة إلى الحرية وكراهية الطغيان، فتفرقت شعوبها إلى شيع ولم تعد تكون وحدة عضوية (لا يخضعون لنفس الحاكم، لا يعيشون داخل نفس الأسوار، لا يتقربون لنفس الآلهة...)، قوانين روما باتت عاجزة عن إدارة شؤون الجمهورية فالقوانين التي ساعدت دولة صغيرة على أن تنمو لا تلبث أن تتحول إلى قيود عندما تكبر، لأن تلك القوانين كانت تستهدف عظمة الشعب لا حسن إدارته.

الفصل العاشر:

عن فساد أخلاق الرومان

العقيدة الدينية تحمي الأخلاق وهي عند الرومان لا تنفصل عن الحمية الوطنية، وعندما نمت الدولة نمت معها ثروة الأفراد، ومن ملك ثروة ملوكية لا يتصرف تلقائيًا كمواطن صالح، فظهرت خيانة العهد وشهادة الزور... ومن فسدت أخلاقه وهو غني يزداد فسادًا عندما يصبح فقيرًا، قال المؤرخ الروماني سالوست "تشكل جيل عاجز عن أن يملك وناقم على مَنْ يملك".

الفصل الحادي عشر:

سولا بومبيوس وقيصر

نصب الشعب رجالاً تزايدت مهماتهم واتسعت فاستأثروا بأهم القضايا والسلطة. **سولا**: أطلق العنان للجيش، فأوهن روح الانضباط وعود الجنود على النهب، وتكرم عليهم بعقارات المواطنين، وابتدع نفي الخصوم، وقتل مَنْ تجاوز حدود منفاه، وبذلك انعدم الوفاء للجمهورية، وفي هذه الظروف تنازل سولا عن سلطة الديكتاتور واكتفى بالعيش تحت سلطة القوانين التي سنها. **بومبيوس**: ألغى قوانين سولا وسعى أن يكون ديكتاتورًا عبر رضى الشعب الذي لا يتردد في تكليفه بأمور الحرب والسلم، غير أن هوى الشعب لا يستقر على حال، ارتكب بومبيوس ثلاث أخطاء قاتلة: اعتمد الرشوة في الانتخابات. واعتمد على الغوغاء في التشويش على الولاة. وتحالف مع قيصر وكاراكوس. **قيصر**: حاول دفع الرومان إلى تتويجه، فبدأ بجس النبض بأن أوعز لأحد أعوانه بوضع تاج على رأسه خلال حفل ولم يهلل الحضور فتظاهر بعدم الرضى، ثم أعاد الكرة، وتحملوه كطاغية، ثم سرعان ما تآمر عليه مناصروه عندما شاركوا الناس الشعور بالضيم وقتلوه.

الفصل الثاني عشر:

روما بعد اغتيال قيصر

أُغتيل الطاغية، ولم تعد الحرية إلى روما، لأن المتآمرين لم يخططوا للنتائج فاجتمع مجلس الشيوخ، ليهادن أتباع قيصر بالمصادقة على قراراته قبل اغتياله، وليعفو عن المتآمرين. وسرعان ما انطلق الصراع بين الطرفين وخسر المتآمرون المعركة، وبادروا بالانتحار، وهي وسيلة مستشريه بين الرومان للأسباب التالية: انتشار الفلسفة الرواقية الداعية إلى الانتحار - استرقاق المغلوب وعرضه في موكب الغالب خلال حفل النصر - تحترم جنازة المنتحر وتنفذ وصيته - أنفة خاصة بالرومان - جنوح طبيعي إلى تشخيص دور بطولي - يُسْر التنفيذ.

الفصل الثالث عشر:

أوغوست

تعمد أصحاب الأطماع في ظل الحكم الجمهوري، بث الفوضى، وأنقذوا كل مَنْ تطاول على السلطة العمومية من العقاب، وأبطلوا كل قرار يحد من فساد الأخلاق وألغوا كل هيئة تضمن الأمن والاستقرار وعمموا الرشوة وشوشوا على الانتخابات، وبذلك انهارت سلطة الشعب كليةً، وكانوا يهدفون إلى تنفير الشعب من صلاحياته وضخموا مساوئ النظام حتى يقتنع العموم بضرورة الاحتماء بهم وتفويض الأمر لهم، لكن عندما استقل أوغوست بالحكم عمل على إعادة النظام ليعترف الجميع بمحاسن الاستبداد علمًا أنه كان يخشى تمرد العسكر لا مؤامرات المواطنين، واضعًا دائمًا بين عينيه مأساة قيصر. احتاط كثيرًا فلم يقبل لقب ديكتاتور، وأعلن احترامه الدائم للجمهورية، إلا أنه اهتدى إلى حكم مزيج وملتبس أرستقراطي، مدني، ملكي وعسكري.

الفصل الرابع عشر:

تيبار(يوس)

تمسك تيبار بقانون الحرمة وهو قانون يعاقب بمقتضاه كل مَنْ مس، بشكل أو بآخر، هيبة الشعب الروماني، فهو يعاقب على الأفعال والأقوال والإشارات وحتى الهواجس. واستعان تيبار بقضاة

دورية إلكترونية، مُحكَّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449





على أتم الاستعداد لإدانة كل مَنْ يتهمهم الأمير، وسايره الشيوخ ورضوا بالدناءة والطاعة العمياء، وتحولوا إلى مخبرين عن زملائهم.

الفصل الخامس عشر:

القياصرة من كايوس كاليغولا إلى أنطونين(وس)

بادر كاليغولا إلى إلغاء كل قرارات تيبار، فالأمراء الأشرار يبدؤون بما انتهى إليه الأخيار، بمرورهم من سلطة القانون إلى حكم الهوى، فالطغيان الذي اتسم به سلوك القياصرة يعود إلى طبع متأصل في الرومان، الشراسة غالبة على أخلاقهم إذ خلت الحياة الاجتماعية من الشفقة.

الفصل السادس عشر:

حالة الإمبراطورية من أنطونين إلى بروس

انتشرت في المجتمع الروماني نحلة الرواقيين، فظهر في روما أفضل قياصرتها حكمة وشجاعة وفضيلة، وسرعان ما توج وحوش في صورة بشر، فتقاتل على منصب الإمبراطور عدة أمراء وعمت الفوضى، فتوغل البرابرة في جميع أقاليم الإمبراطورية، ولولا صد سكان روما هجوم البرابر، وهلاك أسطول القوط غرقًا وجوعًا، وتدخل أمير تدمر العربي، حليف الرومان، لطرد الفرس، لانهارت الإمبراطورية كليًا في تاريخ مبكر.

الفصل السابع عشر:

تغير نظام الدولة

عمل الأباطرة على تفادي خيانة العسكر بتناقص ثروات الأفراد ومضاعفة الحرس الإمبراطوري، فظهر فساد من نوع جديد، عكف الأباطرة على الملذات وقبعوا عاطلين تحت رحمة الخدم والأعوان. سرعان ما وجه قسطنطين ضربتين قاضيتين للإمبراطورية: نقل قاعدتها إلى الشرق، إجلاء الكتائب المرابطة على ضفاف الأنهار الكبرى مما سهل اكتساح البرابرة للإمبراطورية.

الفصل الثامن عشر:

اعتناق الرومان مبادئ جديدة

هادن أباطرة روما جيرانهم بالمال عن جبن أو ضعف، إلا أن السلم لا يشترى ويباع بثمن، فالأسلم لأي أمير أن يخاطر بالحرب، وسيحترمه عدوه، مهما قلت فرص النجاح عوض أن يساوم على السلم. احتكر الرومان صناعة الحرب ومنعوها عن الآخرين، وكانت لهم مبادئ بواسطتها قهروا شعوب الأرض، ثم أهملوها فيما بينهم ورسخوها عند غيرهم، وهذه التحولات الجديدة هي التي هدت صرح عظمتهم.

الفصل التاسع عشر:

عظمة أتيلا أسباب توطين البرابرة

انحلت الإمبراطورية الرومانية مع انتشار الديانة المسيحية فتبادل النصارى والوثنيون تهم مسؤولية هذا الانحطاط. اتبع أتيلا نهج قومه القائم على استعباد الشعوب، وبعد وفاته تمكن كل شعب مهما صغر قدره النيل من الرومان، فالإمبراطورية انهارت إثر سلسلة من الغزوات المتتالية، فإن حصل أن معركة واحدة حطمت دولة، فلا شك أن هناك سببًا أعمق عجل بهلاك الدولة. القسم الغربي من الامبراطورية انهار بفعل: اندفاع البرابرة بعد اجتيازهم نهر الدانوب غربًا عندما واجهتم مقاومة محكمة في الشرق، ورفض رومان الشرق مساعدة إخوانهم الغربيين بأسطولهم البحري.

الفصل العشرون:

يوستنيان فتوحاته وحكومته

تعددت النحل الدينية وظلت حية بين القوميات بعد الغزو الروماني، إلا أن يوستنيان وصل به التعصب إلى أن قضى على جميع النحل بحد السيف، وحرم اعتناقها بموجب القانون، فثار ضده أنصارها.

الفصل الواحد والعشرون:

اضطراب حال امبراطورية الشرق

كان الفرس أحسن حظًا من الروم محصنين من جهة الشمال ضد هجمات الهون بجبال الطوروس، ومن جهة الشرق بالبحر، فعدوهم الحقيقي هو الروم، فأعطوا أهمية قصوى لصناعة الحرب التي أهملها الروم، فتفوقهم العسكري جعلهم يفاوضون الروم باستعلاء.

الفصل الثاني والعشرون:

ضعف الإمبراطورية الشرقية

انطلقت الدعوة المحمدية وتمكن أنصارها من اجتياح سوريا وفلسطين ومصر وإفريقيا وبلاد فارس، ليس عامل الحماسة هو الذي يفسر هذه السرعة، بل هناك عوامل أخرى تمثلت أساسًا في أن العرب اعتبروا دائمًا من أجود رماة الأرض، جند الرومان أكبر عدد منهم في حربهم ضد البرابرة الجرمان. فرضت الكنيسة اليونانية الجهل المطبق على أفراد المجتمع، فتمادى الرهبان في استغلال تقوى العامة واحتكروا منابر السلطة، وبذلك زعزعوا دعائم المجتمع الذي ادعوا أنهم اعتزلوه.

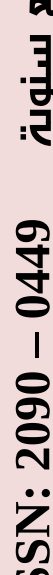
الفصل الثالث والعشرون:

لماذا تأخر وكيف تم انهيار الإمبراطورية الشرقية

دامت دولة الروم الشرقية عدة قرون بعد انهيار شقيقتها الغربية، بسبب انشغال العرب عنها بتنازعهم على الخلافة، ودخولهم حروب طويلة مع الفرس، واكتشاف البيزنطيين سلاح النار الإغريقية الحارقة، واحتكار معظم تجارة المعمور بفضل السيطرة التامة على البحر.

خلاصة

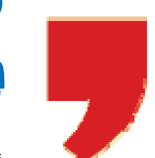
تمكن العروي بإخراجه الجديد لكتاب مونتسكيو من اقحامنا في صلب النقاش الدائر حاليًا في كل الوطن العربي، نقاش يرتبط بالسياسة والدستور والدولة والحكم والمشروعية، معتمدًا في ذلك على فراسته كفيلسوف تاريخ وعالم مسكون بقضايا أمته، وما يؤلمها، فأدرك أن الوقت قد حان ليعرب لها كتابًا مليء بالاستنتاجات والعبر التاريخية الصالحة لكل العصور، والتي لا يدركها إلا أولي الأبصار، من حجم مونتسكيو أحد فلاسفة أنوار أوربا خلال القرن الثامن عشر الميلادي. والأكيد أن العروي انتقى كتابه هذا قبيل اندلاع أولى ثورات الربيع العربي، ومن هذا المنطلق يمكننا أن نقول أن "العروي" أراد بهذا الكتاب وفي هذا الزمان أن يكتب عن واقعنا العربي بالمماثلة، فأبدع، وتمكن من جعلنا نقرأ واقعنا من خلال تجارب شعوب أخرى، لمَنْ أراد أن يعتبر.



دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449







الخدمات والتسهيلات التجارية في الموانئ الأندلسية في عصري الإمارة والخلافة

أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد: خليل خلف حسين الجبوري

إشراف: أ. د. ناطق صالح مطلوب

كلية الآداب – قسم التاريخ

جامعة الموصل – العراق ٢٠١٢



عرض

د. خليل خلف الجبوري

مدرس تاريخ المغرب والأندلس

كلية الآداب – جامعة تكريت

محافظة صلاح الدين – جمهورية العراق

مقدمة

ظهرت العديد من الدراسات التاريخية المتخصصة بتاريخ بلاد الأندلس سواء في الجانب السياسي أم الحضاري، فعالجت تلك الدراسات التاريخية أغلب تاريخ بلاد الأندلس، ولم يبق للدارسين إلا النزر اليسير والذي لا يمكن الوقوف عليه إلا من خلال الغور في أعماق تلك الدراسات للخروج بأفكار لم تتوسع فيها تلك الدراسات، لتكون انطلاقة وإضافة جديدة نحو فهم أعمق للواقع الأندلسي وربما تنطلق من بعض تلك الأفكار لدراسات أكثر دقة. فكانت هذه الدراسة موقوفة على الخدمات والتسهيلات التي قدمت في الموانئ الأندلسية والتي كان لها الدور الكبير في استيعاب الحركة التجارية آنذاك. فمعروف أن الموانئ تعد من الأماكن التي أدت دورًا أساسيًا في الحركة التجارية والمعاشية للبلدان لاسيما تلك المطلة على البحار والمحيطات بعد أن علمنا أنَّ (٨٠%) من التجارة الأندلسية كانت مع بلاد حوض البحر (الشامي) الأبيض المتوسط آنذاك،[1] ولأن الحركة التجارية كانت تجري عبر الموانئ؛ فإن ذلك ما كان لينجح ويثمر بالصورة المشرقة، لولا توفر مجموعة خدمات وتسهيلات تضافرت لخدمة هذا الجانب الحيوي من جوانب الاقتصاد.

ولهذا السبب كان اختيارنا لموضوع "**الخدمات والتسهيلات التجارية في الموانئ الأندلسية في عصري الامارة والخلافة**" لمعرفة ماهية ونوع تلك الخدمات والتسهيلات التجارية. وتحديد مدة الدراسة بعصري الإمارة والخلافة له مدلولات زمانية ومكانية، فالعصر الأول شهد بزوغ الدولة المستقلة في بلاد الأندلس، والعصر الثاني كان مكملاً لذلك النظام السياسي من خلال تشكيل نظام سياسي جديد (عصر الخلافة) عمل على ظهور الاستقرار السياسي، فضلاً عن استقطاب كل المعارف والعلوم، فأصبحت البلاد ملاذًا لكافة فئات المجتمع ومن كل البلدان، فلا غرابة بعد ذلك من ظهور النشاط الكبير في تلك الحقبة التاريخية دون غيرها من الحقب الأخرى.

فصول الدراسة

وتطلبت الضرورة الموضوعية تقسيم الدراسة إلى خمسة فصول مسبوقة بتمهيد تطرق إلى التعريف بالميناء، ثم التعرف على الموانئ التي كانت تتعامل مع بلاد الأندلس، لاسيما موانئ بلاد المغرب العربي، ومعرفتها كانت ضرورية للبحث حتى نطلع على الجهة المقابلة لموانئ بلاد الأندلس وكيفيتها. فاطلعنا على أهم موانئ بلاد المغرب العربي والتي قسمناها إلى موانئ مطلة على المحيط الأطلسي، وموانئ مطلة على البحر الأبيض المتوسط، والتي كان لوجودها بلا شك أثر إيجابي على النشاط الاقتصادي في بلاد الأندلس، وحاولنا إبراز نوع الخدمات التي وجدت في تلك الموانئ.

أما **الفصل الأول** فقد تناول الطبيعة الجغرافية لتلك البلاد من مناخ مميز بتنوعه وذلك جاء بسبب الموقع الجغرافي الذي جعل بلاد الأندلس تحت تأثير عدة مناخات منها مناخ البحر الأبيض المتوسط والذي حاولنا أن نوضح تأثير المناخ على بلاد الأندلس بشكل عام من حيث تأثيره على الزراعة وتأثيره على التجارة ، ثم تناولنا التضاريس الأرضية وطبيعة تلك التضاريس وتنوعها من جبال كبيرة كانت سمة لتلك البلاد كجبال البرتات الواقعة في الشمال، وجبال الشارات وجبل تاج العروس وغيرها. كما كان للأودية حصة من تلك الدراسة بسبب كثرتها في تلك البلاد والتي أثر وجودها على وجود الأنهار الكبيرة في بلاد الأندلس فضلاً عن كونها أماكنَ طبيعية لخزن المياه لمدة طويلة، وشبكة مجانية للنقل خدمت التجارة بإيصالها إلى الموانئ. وتطرقنا إلى السهول في بلاد الأندلس وأهميتها، فضلاً عن وضع خارطة تبين مناطق السهول، ووضحت أن سهول بلاد الأندلس أكثر ما توزعت قرب السواحل وهذا ما أدى إلى ظهور الموانئ التي اشتهرت بها البلاد. وأما الأنهار فكانت شرايين الحياة في هذه البلاد، ومن الأنهار ما يصب في المحيط الأطلسي، ومنها ما يصب في البحر الأبيض المتوسط، فكان بعضها صالحًا لنقل البضائع من مكان إلى آخر.

(1) Goitein. S. D, A Mediterranean Society An Abridgment in one Volume, Revised and Edited by : Jacob Lassner , University of California press, London : 1999 , p.21 - 22 .

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449





أما **الفصل الثاني**، فقد عالج الواقع السياسي لبلاد الأندلس من خلال تقسيمه إلى قسمين؛ الأول عصر الإمارة وما واجههُ الأمراء الأمويون من تحديات داخلية وخارجية، وأردنا من ذلك أن نوضح أن مجموع الخدمات والتسهيلات التجارية التي قدمت في الموانئ الأندلسية لم تكن بمعزل عن اهتمام الدولة ورعايتها، بل إن الدولة بكافة عصورها قد عملت كل ما تستطيع من أجل ذلك وأولها ظهور الاستقرار السياسي المتمثل بالانتقال السلمي للسلطة. والقسم الثاني هو عصر الخلافة ففيه وضحنا بشكل مختصر تلك الأحداث إلى جرت في بلاد الأندلس خلال تلك المدة، وكيف أن ذلك العصر كان مكملاً لعمل عصر الإمارة، كما عمل على ترسيخ روح المواطنة في البلاد، ونهض بها إلى مصاف الدول الراقية آنذاك بحيث أصبحت قبلة العلماء والتجار. وعلى الرغم من ظهور بعض المشاكل السياسية التي أدت الى سقوط دولة بني أمية، إلا أنها ظلت إلى أخر يوم تناضل من أجل المحافظة على كل المكاسب التي تحققت، حتى الإمارات المحلية البسيطة التي ظهرت في بعض الموانئ نلاحظ أنها حافظت على تقديم كل الدعم لبقاء الميناء على ما هو عليه من خدمات وتسهيلات.

وتضمن **الفصل الثالث** النشاط الاقتصادي في بلاد الأندلس، وقام على ثلاثة أركان هي الزراعة، والصناعة، والتجارة. ففي الجانب الزراعي حاولنا الوصول إلى صورة توضح أن العرب المسلمين في بلاد الأندلس كانت لهم دراية كافية بكل جوانب الزراعة من حراثة إلى سقي إلى طبيعة الأرض إلى تسميد وغير ذلك. واستثمروا كل الموارد الزراعية وغير الزراعية في الجانب الصناعي فظهرت المصانع النسيجية، وظهرت الصناعات الحديدية، والغذائية، والخشبية، والتي كان لها الدور الايجابي في توفير الخدمات والتسهيلات التجارية، فضلاً عن الجانب التجاري الذي تميزت به بلاد الأندلس من خلال مجموع الصادرات والواردات إليها، والتي كان لها الدور الكبير في الحاجة إلى وجود مجموعة من الخدمات والتسهيلات التجارية لإنجاح التقدم الصناعي الكبير الذي ظهر في بلاد الأندلس. كما حاولنا إظهار أشهر الطرق التجارية الداخلية منها والخارجية لاسيما تلك المرتبطة بالموانئ.

أما **الفصل الرابع**، فقد عرض وبالتفصيل الخدمات وطبيعة تلك الخدمات وسياسة الدولة التي كانت تقوم على الاحتفاظ بملكية أراضي الموانئ إذ قامت الدولة الأندلسية آنذاك بوضع يدها على كل أراضي الموانئ وعدم السماح لأي كان من التملك فيها، لأنها أراضي عامة وتملكها من قبل فرد معين يؤثر على النشاط التجاري فيها. كما قدمت بلاد الأندلس مجموعة من الخدمات التجارية الأخرى منها توفير العمالة التي تساعد في نقل البضائع وغير ذلك من الأعمال التجارية، فضلاً عن توفير السفن والمراكب وإصلاحها، وتوفير الفنادق والخانات التي تسهم في استقرار التجار وحفظ بضائعهم، وتوفير المياه اللازمة لهم من خلال توفير خدمة السقاية، فضلاً عن توفير المخازن لخزن البضائع التي تحتاج إلى خزن لمدة طويلة، إلى جانب توفير القيساريات، والحمامات، ووسائل النقل، والاهتمام بالطرق والمسالك، وتوفير وسائل الترفيه من متنزهات وملاهي، وتوفير بعض البضائع النادرة التي لا يستطيع التاجر الحصول عليها بسهولة، وتأمين الطرق التجارية الداخلية منها والخارجية، وبناء القناطر والمنائر، وحاولنا خلال ذلك من رسم صورة واضحة لمجموع الخدمات التجارية في الموانئ الأندلسية من خلال ما حصلنا عليه من معلومات من المصادر والمراجع التاريخية.

وعرض **الفصل الخامس** التسهيلات التجارية في الموانئ الأندلسية، والتي كان أشهرها حرية التنقل التي ساعدت وبشكل كبير على تسهيل تنقل التجار القادمين من خارج بلاد الأندلس، فضلاً عن تسهيل نقل الأخشاب من خلال الأنهار بالطريقة المسماة بالتعويم. وعلى الرغم من أن نقل الأخشاب كان يؤثر سلبًا على الأرحية المنصوبة على الأنهار، إلا أن الدولة كانت تسمح بهذه الطريقة، لأنها تسهل على التجار كثيرًا، كما سهلت الحركة البريدية في الموانئ الأندلسية إيمانًا منها بأنها تؤثر إيجابًا في الحركة التجارية من خلال إيصال الأخبار التجارية إلى البلدان الأخرى عبر التجار عن الواقع التجاري، ولأجل احتواء ما هو موجود من حركة تجارية وتسهيل نشاطها عمدت الدولة الأندلسية إلى إنشاء ولاية السوق المختصة بمراقبة كل ما يجري في الاسواق من نشاط في هذا المجال. فضلاً عن ذلك فقد عرض بالحديث عن دار السكة التي تعد من التسهيلات التجارية التي اهتمت بها الدولة الأندلسية، فضلاً عن تسهيلات مالية والعمل بالصكوك والصيرفة والسفتجة والحوالة كما ضمنت الدولة الأندلسية حقوق التجار كأحد وسائل التسهيل التجاري الى جانب البيع بالآجل الذي عرفه السوق ولم يكن للدولة أي جانب سلبي على ظهوره، لاسيما مع التجار من البلدان الاخرى، كما رفعت الدولة في بعض الاوقات بعض الضرائب وسهلت وجود بعض المهن (كالصيرفة) على الرغم من تحذير كتب الحسبة منها إلى أنها لم تمنع بشكل قاطع لأنها كانت تسهل على التجار الحصول على البضائع.

تحليل المصادر والمراجع

تنوعت وتعددت المصادر والمراجع التي تم الارتكاز عليها في بناء هذه الدراسة، اذ اشتملت على مجموعة من المصادر الاولية والمراجع العربية والمعربة والأجنبية، فضلاً عن الدراسات والبحوث والأطاريح العربية والأجنبية والدوريات والمقالات الالكترونية:

اعتمدت الدراسة على مجموعة قيمة من المصادر، ومن المعروف أن التصدي لمثل هذه الدراسات يحتاج إلى الكثير من الجهد والدقة لاقتناص النصوص التي جاءت مبثوثة بين ثنايا المصادر المختلفة التاريخية والفقهية والأدبية وغيرها، فضلاً عن كون الدراسة تتطلب قدرًا من الاجتهاد والترجيح لتوظيف المعلومة في مكانها من السياق. لأن أغلب المصادر لا تتحدد تاريخيًا ولا مكانًا بعينه عند الحديث عن بعض مفاصل الموضوع. واشهر تلك المصادر:





(١) كتب التاريخ

كتاب ابن القوطية[٢] (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) **"تاريخ افتتاح الأندلس"** وفر معلومات مفيدة عن سنوات القحط التي أصابت الأندلس وتأثيرها على الاوضاع الاقتصادية بصورة عامة، وتعد اشاراته عن ظهور النورمان ومهاجمتها لسواحل الأندلس الغربية، وما تبع ذلك من الاهتمام بصناعة السفن في اشبيلية والتأكيد على حماية السواحل الأندلسية ووضع نقاط الحراسة والمراقبة، من الاشارات المهمة التي سبق بها الآخرين من المؤرخين.

وزودنا تاريخ أبي مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي المعروف بـ ابن حيان (ت.٤٦٩هـ/١٠٧٦م) والمعروف كتابه بـ **"المقتبس"** بأجزائه المحققة، بالمعلومات القيمة التي أفادت الدراسة فكان أولها كتاب **"المقتبس في تأريخ رجال الأندلس"**[٣] (القسم الثالث)، الذي اعتنى بنشره: ملشور.م . انطونية إذ أفادت الدراسة في معرفة سنوات القحط التي ضربت بلاد الأندلس خلال تلك المدة. ثم كتاب **"المقتبس من أنباء أهل الأندلس"**[٤]، تحقيق: محمود علي مكي. وهذا الجزء أفادنا كثيرًا في معرفة سنوات القحط في بلاد الأندلس سنوات البحث، كما بين لنا الأخطار الخارجية التي تعرضت لها بلاد الأندلس آنذاك، ودور الأمراء في اهتمامهم بالصناعات، وفي معرفة بعض المهن كالخياطين والنجارين، ومعرفة أسعار الجواري، ووسائل النقل آنذاك، ودور الأمراء في حفظ أمن السواحل من الأخطار الخارجية. ولـ **"المقتبس"** (الجزء الخامس)[٥]، الذي اعتنى بنشره: ب. شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع: ف . كورنيطي و م. صبح وغيرهما، وهو يتناول معظم عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر أهمية كبيرة في الدراسات الأندلسية، ففضلاً عن معرفة سنوات القحط، فقد زودنا بمعلومات عن دور الدولة في صناعة المراكب والسفن وأنواعها، وتوفير الدولة للقيساريات، ودورها في تأمين الطرق الداخلية والسواحل، واهتمام الدولة بالسكة. وكان للجزء الآخر المعروف بـ **"المقتبس في أخبار بلد الأندلس"**[٦]، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي الذي يتناول تاريخ عهد الخليفة الحكم المستنصر فقد أفاد الدراسة بمجموعة من النصوص أهمها مهنة الجزار، وكيف أن دولة الأندلس كانت حريصة على تقديم أفضل الخدمات لمريديها، فضلاً عن معرفة بعض الأمور المتعلقة بصناعة السفن والمراكب كحاجتها إلى الزفت الذي كان يستخدم في صناعة المراكب والسفن.

ولم يكن كتاب ابن الأثير[٧] (ت.٦٣٠هـ/١٢٣٢م) المعروف بـ **"الكامل في التاريخ"** بأقل أهمية من كتب أهل المغرب والأندلس؛ لما احتواه من معلومات اعتمدت الدقة فهو وضَّح لنا دور الخليفة الناصر في صناعة السفن والمراكب، ودور الأمراء في الاهتمام بالسقاية وتوفير مياه الشرب في المدن الأندلسية لاسيما الموانئ، ودور الأمير عبد الرحمن الحكم (١٨٠- ٢٠٦هـ/٧٩٦ - ٨٢٢م) بالاهتمام بالطرق التجارية واقامة المتنزهات ودور الدولة الأندلسية في صد جميع التمردات الداخلية والاخطار الخارجية.

أما كتاب أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد[٨] (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) المعروف بـ **"المغرب في حلى المغرب"** فله أهمية كبيرة لأنه أفاد الدراسة، فقد أعطى تصورًا عن الموانئ كميناء لقنت، كما زودنا بمعلومات جيدة عن الجزر الأندلسية ميورقة ومنورقة واليابسة، كما أفاد الدراسة في معرفة الواقع السياسي لبلاد الأندلس خلال تلك المدة، كما رسم الواقع الاقتصادي للبلاد ولاسيما الجانب الزراعي فهو يحدد مناطق زراعة القطن والتين وأماكن تواجد العنبر والزعفران، كما يقدم لنا حالة الصناعات النسيجية في بلاد الأندلس وأماكن دباغة الجلود وصناعة الزجاج، ويزودنا بمعلومات قيمة عن تجارة الجواري والخصيان، وإشارة واضحة عن وجود الفنادق في بلاد الأندلس، ودور الدولة في توفير بعض الخدمات التجارية كالمتنزهات والملاهي.

وكتاب **"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"** لـ احمد بن محمد التلمساني المقَّري[٩] (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)، وهو كتاب مشهور ودائمًا ما ينقل صراحة عن المؤرخين السابقين له مثل الرازي، فمن خلاله نستطيع أن نستنبط ما احتوته تلك الكتب التي اعتمد عليها ولاسيما تلك المفقودة. فهو يزودنا بمعلومات عن بلاد الأندلس من حيث الموقع الجغرافي والطبيعة الجغرافية وتأثيرهما على المناخ، فضلاً عن تحديد أماكن وجود المحاصيل الزراعية والفواكه في بلاد الأندلس، واهتمام الأمراء والخلفاء بالصناعات الحريرية والنسيجية، وأهم الصادرات والواردات الأندلسية، كما يزودنا بالأرقام عن عدد الحمامات والفنادق هنالك، فضلاً عن تزويدنا بمعلومات عن خدمة

---

(٢) ابن القوطية، ابو بكر محمد بن عمر القرطبي، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تح: أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧.

(٣) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي، **المقتبس في تأريخ رجال الأندلس** (القسم الثالث)، اعتنى بنشره: ملشور م. انطونية، مطبعة بولس كتنر الكتبي، باريس، ١٩٣٧.

(٤) ابن حيان، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.

(٥) ابن حيان، **المقتبس** (الجزء الخامس)، اعتنى بنشره: ب. شالميتا مع: ف . كورنيطي و م .صبح وغيرهما، المعهد الاسباني العربي للثقافة – كلية الآداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩.

(٦) ابن حيان، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

(٧) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٧.

(٨) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، **المُغْرب في حلى المَغْرِب**، ط٢، تح: شوقي ضيف، دار المعارف مصر، د.ن.

(٩) المقَّري، أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449





النقل التجاري ومقدار الأجرة التي تدفع لذلك، وعدد الحوانيت، ويزودنا بإشارات مهمة عن السكة والصيرفة.

(٢) كتب الجغرافية والبلدان:

كتاب أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه[١٠] (ت. في حدود ٢٨٠هـ/٨٩٣م) المشهور بـ "**المسالك والممالك**"، الذي استفدت منه في معرفة الطرق التجارية التي كانت تربط بين المدن الأندلسية والموانئ لاسيما الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الرازانية. ثم كتاب "**صفة الأندلس**" لأحمد بن محمد بن موسى الرازي[١١] (ت٣٤٤هـ/٩٥٥م). ويعد هذا المصدر من المصادر المهمة في دراسة الواقع الاقتصادي لبلاد الأندلس، والنسخة الأصلية لهذا الكتاب مفقودة، لكن وجود نسخة منه مترجمة إلى اللغة البرتغالية ساعد المستشرق ليفي بروفنسال من ترجمته إلى اللغة الفرنسية ونشره في مجلة الأندلس في مدريد؛ ويصف طبيعة أرض الأندلس التي ساعدت على ازدهار الزراعة بفضل وفرة المياه وخصوبة الأرض، كما يتعرض إلى ذكر أهم ما عُرفت به الأندلس من الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية، ووفرة ونشاط الأسماك إلى غير ذلك من الجوانب الاقتصادية الأخرى، وقد وصلت الكثير من نصوص هذا الكتاب أيضًا في كتب المتأخرين مثل كتاب الروض المعطار للحميري وكتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقَّري.

ويعد كتاب ابن حوقل[١٢] (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) الموسوم بـ "**صورة الارض**" من المصادر التي أثْرَت الدراسة بالكثير من المعلومات عن تجارة العبيد وطريق (الرازانية العالمي) وذكر أهم الموانئ الأندلسية والمدن التي أسهمت مساهمة كبيرة في الحياة الاقتصادية، وأهم الصادرات والواردات التي كانت تخرج منها أو تدخل إليها، وعرض بشيء من التفصيل الخدمات التي كانت تقدمها الموانئ الأندلسية من توفير الراحة من فنادق وخانات، فضلاً عن الخدمات الأخرى التي تقدم للتجار، ولم يغفل ابن حوقل حتى عن الضرائب التي كانت تجبى من التجار والفوائد التي كانت تجنيها الدولة من ذلك، وأما الطرق التجارية فقد كان لها نصيب من كتابه فقد أشار إلى أهم الطرق التجارية التي كانت تربط الموانئ الأندلسية بعضها مع البعض الآخر من ناحية، والطرق التجارية السالكة مع موانئ المغرب وأوروبا من ناحية أخرى.

(١٠) ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩.

(١١) الرازي، أحمد بن محمد بن موسى، **صفة الأندلس**، نشرها بالفرنسية: ليفي بروفنسال، مجلة الأندلس، مدريد، ١٩٥٣م، ع١٨، ج١. تحت عنوان:
La Description de L'Espagne, Ahmad al- Razi, Al-andalus, Revesta les estudias Arabes de medrid Granada, XVIII, 1953 .

(١٢) ابن حوقل، محمد بن علي النصيبي، **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، د.ن.

وكان لابن حزم[١٣] (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م) وكتابه "**فضائل الأندلس وأهلها**"، أهمية كبيرة؛ فقد أفاد الدراسة في معرفة دور بلاد الأندلس في الحركة التجارية العالمية، ومن خلال هذه المعلومة يتمكن أي باحث في رسم فكرة كاملة عن واقع التجارة في بلاد الأندلس خلال عصري الإمارة والخلافة.

وكان لكتاب أحمد بن عمر بن انس العذري[١٤] (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) المعروف بـ"**نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**"، و"**البستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك**"، أهمية كبيرة في تزويد الدراسة بمعلومات جيدة لاسيما حركة المراكب والسفن من بلاد الأندلس إلى بلاد المغرب العربي، وعن ميناء المرية وتاريخ تأسيسه، فضلاً عن معلومات جيدة عن أغلب موانئ الأندلس، وعن التمردات والأخطار الخارجية المشهورة آنذاك، فضلاً عن أشهر المحاصيل التي تزرع في بلاد الأندلس كالرز والقطن والزيتون وقصب السكر، واهتمامها بالصناعات النسيجية، كما زودنا بأشهر الطرق التجارية.

وافاد كتاب "**المسالك والممالك**" لـ عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري[١٥] (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) الدراسة كثيرًا، فهو حدد لنا تعريفًا خاصًا بالميناء، كما زودنا بمعلومات جيدة عن الموانئ الأندلسية والمغربية وعن بلاد الأندلس وجغرافيتها، وأشهر صادراتها ووارداتها. و"**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**" لـ محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المشهور بالشريف الادريسي[١٦] (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م)، يحتوي هذا الكتاب في ثناياه على الكثير من المعلومات الاقتصادية المتعلقة ببلاد الأندلس لاسيما الموانئ الأندلسية المشهورة، فضلاً عن احتوائه على معلومات تتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة، كذلك تزويدنا بمعلومات عن الواقع السياسي وأخرى قيمة عن الحمامات والحوانيت والقناطر.

وكان لكتاب محمد بن أيوب بن غالب[١٧] (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) وهو قطعة من كتاب (**فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**) أهمية علمية كبيرة، إذ زودنا بمعلومات عن مناطق زراعة القمح، والقطن،

(١٣) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، **فضائل الأندلس وأهلها**، نشر وتقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨.

(١٤) العذري، أحمد بن عمر بن انس، **نصوص عن الأندلس** من كتاب **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، والبستان في **غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك**، تح: عبد العزيز الاهواني، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٥.

(١٥) البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، **المسالك والممالك**، تح: جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

(١٦) الشريف الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤.

(١٧) ابن غالب، محمد بن أيوب، **نص أندلسي جديد** قطعة من كتاب (**فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**)، تح: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٥، مج١، ج١.





والكتان، والزيتون، والصنوبر، والعنب، وقصب السكر، والجوز، واللوز، والزعفران، والعنبر، وأماكن وجود الصناعات الحديدية، وصناعة الأطعمة، والصناعات النسيجية، فضلاً عن معرفة الطرق التجارية التي تربط المدن الأندلسية بالموانئ.

أما كتاب أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد[١٨] (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) المعروف بـ "**الجغرافيا**" فيعد من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة وأفادت منها في معرفة موانئ المغرب العربي وأهم الخدمات التي قدمت فيها، فضلاً عن معرفة الطبيعة الجغرافية لبلاد الأندلس ولاسيما الجبال والأنهار، وأعطى تصورًا عن الواقع الزراعي مثل: زراعة الحبوب، والواقع الصناعي مثل: صناعة النسيج وصناعة الأخشاب، كما عرض الكتاب ما قدمته الدولة من خدمات أخرى مثل المنائر.

إن الباحث في تاريخ الأندلس لا يمكن له الاستغناء عن كتاب "**الروض المعطار في خبر الأقطار**"،[١٩] وكتاب "**صفة جزيرة الأندلس**"[٢٠] – وهو ما يخص بلاد الأندلس فصله وحققه ليفي بروفنسال – لـ محمد بن عبد المنعم الحميري (عاش في القرن ٩هـ/١٥م) وهو من المؤلفات المهمة في معرفة المدن والمواقع الأندلسية، فضلاً عن تحديد المسافات بين المدن والمواقع المختلفة، وقد قدم معلومات مفيدة عن موانئ الأندلس، وموقعها وأهميتها الاقتصادية خلال العصور المختلفة التي عاشتها الأندلس.

(٣) كتب الحسبة:

من أهم كتب الحسبة كتاب "**أحكام السوق**" لأبي زكريا يحيى بن عمر[٢١] (ت٢٨٩هـ/٩٠٢م) الذي زودنا بمعلومات عن والي السوق، أو ما يُعرف بالمحتسب ودوره في مراقبة السوق، ومعرفة النقود المزيفة. ويعد كتاب "**ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**" من أهم الكتب التي أفادت الدراسة، فرسالة محمد بن احمد التجيبي بن عبدون[٢٢] (ت: في النصف الاول من ق٦هـ/١٢م) زودتنا بمعلومات عن الموانئ والمراسي ودور الدولة في مراقبتها ومنع امتلاك الأراضي فيها. فضلاً عن مراقبة أهل المهن والصناعات.

ورسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف[٢٣] (ت في النصف الثاني من ق٦هـ/١٢م) زودت الدراسة بمعلومات عن المهن ومراقبتها لمنع الغش ما يضمن تطمين التجار بمحاربة الغشاشين. أما الكتاب المعروف "**في آداب الحسبة**"، ومؤلفه محمد بن أبي محمد الأندلسي السقطي[٢٤] (ت٦٣١هـ/١٢٣٤م) فمن خلاله عرفنا بعض المهن التي لها علاقة بمجموع الخدمات التجارية التي ظهرت في موانئ الأندلس ولاسيما النشارون الذين يقطعون الأشجار.

وكان لكتب النوازل والأحكام أهمية كبيرة في كتابة وتدوين الدراسة، فقد اعتمدت على عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي[٢٥] (ت٤٩٧هـ/١١٠٣م) وكتابه "**الأحكام**" فقد زودنا بإشارات عن وجود الفنادق التخصصية في بلاد الأندلس، وإشارات قيمة عن وجود دواب الكري والأجرة في بلاد الأندلس، فضلاً عن إشارة وجود الاهراء الكبيرة هنالك والتي كانت بمثابة (مخازن كبيرة للحبوب)، وكانت من أهم الخدمات التجارية آنذاك، فضلاً عن ضرورة ضمان حقوق التجار. وكذلك كتاب الونشريسي لـ أحمد بن يحيى[٢٦] (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م) المعروف بـ "**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب**" الذي أفاد الدراسة بمعلومات مهمة لاسيما في مجال التسهيلات المالية (الحوالة والصيرفة) فضلاً عن الفنادق.

خاتمة

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، ولعل أبرزها ما يلي:

- تميزت بلاد الأندلس بطبيعة جغرافية ومناخ أتاح لها تنوعًا في التضاريس والمناخ ساعد على تنوع الموارد الاقتصادية، فاستثمر العرب المسلمون ذلك التنوع وبنوا اقتصادًا مميزًا للدولة.
- إن طبيعة موقع بلاد الأندلس وكونها شبه جزيرة محاطة بالمياه من ثلاث جهات، دفعت القائمين على أمرها قبل الإسلام وبعده على إنشاء الكثير من الموانئ والمراسي البحرية في نواحي المشرق من البلاد وغربها، وقد تنوعت الخدمات التي قدمتها هذه المنشآت بين العسكرية والمدنية والتجارية.

(١٨) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، **الجغرافيا**، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠.

(١٩) الحميري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط٢، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.

(٢٠) الحميري، **صفة جزيرة الأندلس** منتخبة من كتاب **الروض المعطار في خبر الاقطار**، ط٢، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.

(٢١) ابن عمر، أبو زكريا يحيى، **أحكام السوق**، تح: محمود علي مكي، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد الرابع، ع١-٢، ١٩٥٦.

(٢٢) ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي، **رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة**، نشرت ضمن كتاب **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تح: إ. ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥.

(٢٣) ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله، **رسالة أحمد عبد الله بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحتسب**، نُشرت ضمن كتاب **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تح: إ. ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥.

(٢٤) السقطي، محمد بن أبي محمد الأندلسي، **في آداب الحسبة**، اعتناء: ج. س. كولان و إ. ليفي برفنسال، مكتبة ارنست ليرو، باريس، ١٩٣١.

(٢٥) المالقي، عبد الرحمن بن قاسم الشعبي، **الأحكام**، تقديم وتحقيق: الصادق الحلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢.

(٢٦) الونشريسي، أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية. ISSN: 2090 – 0449





- وفرت الأندلس خلال عصري الإمارة والخلافة الظروف كافة التي تساعد على نمو النشاط الاقتصادي، من خلال القضاء على كل التمردات الداخلية ومواجهة الأخطار الخارجية، وتأمين طرق المواصلات.
- إن وجود نشاط اقتصادي مع وجود معابر (موانئ) محددة لاستثمار ذلك النشاط حتم ذلك على إيجاد مجموعة من الخدمات والتسهيلات التجارية في تلك الموانئ.
- ظهور العديد من الخدمات التجارية في تلك الموانئ لاحتواء ذلك النشاط التجاري الكبير، مثل توفير الفنادق والحمامات والمخازن وبناء السفن وتصليحها وبناء القناطر وترميم الطرق.
- اهتمت الدولة الأندلسية بالموانئ بشكل كبير، بحيث أنها أناطت ذلك إلى موظفين إداريين لمتابعة الموانئ يتمثلون بوالي السوق وأتباعه.
- حاولت الدولة الأندلسية تقديم الخدمات كافة للتجار والوافدين على الموانئ من ضمنها المتنزهات والملاهي.
- أثبتت الدراسة أن الأندلسيين استخدموا نوعًا معينًا من مواد من التخزين لم تكن معروفة لدى غيرهم، سمتها وثائق الجنيزا بـ (ALUM).
- قدمت الدولة الأندلسية كافة التسهيلات التجارية لضمان نشاط الحركة التجارية في البلاد والموانئ خاصة، فسكت النقود وسهلت عمل الصيارفة.
- ربطت الدراسة ربطًا عفويًا بين الاستقرار السياسي واستتباب الأمن، وبين الازدهار الاقتصادي، وأظهرت بما لا يقبل الشك بأن قمة الازدهار الاقتصادي كان في عصور القوة والاستقرار السياسي والعلو على الممالك الاسبانية الشمالية، وأن المفاصل الأساسية من الاقتصاد، والزراعة، والصناعة، والتجارة، وتأمين الطرق وحمايتها من اللصوص، فضلاً عن حماية التجار الوافدين من الخارج وتسهيل جهات الانتقال من مكان إلى آخر برًا أو بحرًا، ما كانت لتزدهر وتزهو إلا في مثل هذه البيئة الاقتصادية الملائمة. وبذلك أصبحت الأندلس من أغنى دول العصور الوسطى في عصر الخلافة خاصة، وكانت عملتها من دنانير ودراهم من أمثل العملات قيمة لدى التجار.

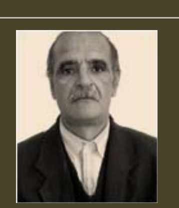
ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

Islamic propaganda in the era of Bani Umayya

الملف

الدعــــايـــة الإسلاميـــة

في عهد بني أمية



د. علي سلطاني العاتري

أستاذ الإعلام السياسي

كلية الحقوق والعلوم السياسية

جامعة تبسة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

علي سلطاني العاتري، الدعاية الإسلامية في عهد بني أمية.- دورية كان التاريخيــة.- العــدد الواحــد والعشــرون؛ ســبتمبر ٢٠١٣. ص ١٧٤ – ١٩٥.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصٌ

من الصعب التنظير للدعاية الإسلامية من وجهة النظر الإسلامية، ولكن يمكن العثور على نماذج عملية للممارسات الدعائية في التاريخ الإسلامي الدعاية الإسلامية، وقد اخترت الدعاية في العهد الأموي كنموذج تطبيقي للدعاية في التاريخ الإسلامي، وتختلف وجهة نظر الباحثين وتتباين عند تحديدهم لمفهوم الدعاية بناء على تصوراتهم وآرائهم وبيئاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وطريقة ممارستهم للدعاية. وانطلاقًا من التصور الإسلامي، ونظرة الإسلام للإنسان وعلاقته بالكون، وعلاقة كل من الإنسان والكون بالخالق سبحانه وتعالى. وما يترتب على تلك النظرة من رؤية متميزة لكل القضايا والإشكالية هنا أن تعريف الدعاية ارتبط من حيث النشأة والتطور والاستخدام بأحكام قيمية وأخلاقية غير متفق عليها، ومعرضة للاستخدام الجيد والرديء على حد سواء حسب نوايا وأهداف رجل الدعاية، الذي يظهر في كثير من الأحيان في صورة مَنْ يدعي أنه رجل إعلام أو رجل دعوة، وهذا الطرح ينسجم تمامًا مع المعنى اللغوي لكلمة الدعاية واستعمال المسلمين لها كما ورد على لسان النبي (ﷺ) في رسائل إلى الملوك "أدعوك بدعاية الإسلام".

مُقَدِّمَةٌ

إن الدلالات السلبية التي ارتبطت بالدعاية على أساس أنها عملية تقوم على الكذب والتلاعب بعواطف الجمهور، هذه الدلالات أدت إلى مزيد من الارتباك بين الباحثين وقد أخفقت بحوث الاتصال والإعلام من وجهة نظر إسلامية في الخروج من هذه النظرة السلبية التي رسمها الغرب للدعاية، لأننا إذا قبلنا بمفهوم للدعاية ينص على أنها الجهود المنظمة والمقصودة بهدف تشكيل المدركات والتلاعب بالمعارف والسلوك لصالح أهداف يسعى إلي تحقيقها رجل الدعاية. إذا قبلنا هذا المفهوم فإننا سنجد انه يتضمن محاولة التأثير وتغيير الآراء والاتجاهات والسلوك وهي أمور تدخل ضمن المفاهيم الغربية للدعاية قد يكون من الصعب التنظير للدعاية الإسلامية من وجهة النظر الإسلامية. ولكن يمكن العثور على نماذج عملية للممارسات الدعائية في التاريخ الإسلامي الدعاية الإسلامية. وقد اخترت الدعاية في العهد الأموي كنموذج تطبيقي للدعاية في التاريخ الإسلامي.

وتختلف وجهة نظر الباحثين وتتباين عند تحديدهم لمفهوم الدعاية بناء على تصوراتهم وآرائهم وبيئاتهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وطريقة ممارستهم للدعاية. وانطلاقًا من التصور الإسلامي، ونظرة الإسلام للإنسان وعلاقته بالكون، وعلاقة كل من الإنسان والكون بالخالق سبحانه وتعالى. وما يترتب على تلك النظرة من رؤية متميزة لكل القضايا. والإشكالية هنا أن تعريف الدعاية ارتبط من حيث النشأة والتطور والاستخدام بأحكام قيمية وأخلاقية غير متفق عليها، ومعرضة للاستخدام الجيد والرديء على حد سواء حسب نوايا وأهداف رجل الدعاية، الذي يظهر في كثير من الأحيان في صورة مَنْ يدعي أنه رجل إعلام أو رجل دعوة، وهذا الطرح ينسجم تمامًا مع المعنى اللغوي لكلمة الدعاية واستعمال المسلمين لها كما ورد على لسان النبي (ﷺ) في رسائل إلى الملوك "أدعوك بدعاية الإسلام".[١]

ومن المنظور التاريخي درج المؤرخون المسلمون في مؤلفاتهم منذ الخلافة الأموية على استعمال لفظ السياسة للتعبير على الممارسات الدعائية التي كانت تستهدف الإقناع بمذهب، أو اتجاه سياسي، أو تغيير قناعات الناس بمذهب ما ونقلهم إلى المذهب المراد، بواسطة التأثير في عواطف الجماهير وعقولهم، بسبب الصراع الذي نشب بين المسلمين حول موضوع الخلافة والأحقية بها. وهذا تمييزًا للنشاط السياسي عن النشاط الدعوي، ونستنتج ذلك من قول المسعودي "وبلغ من إحكام معاوية للسياسة وإتقانه لها واجتذاب قلوب خواصه وعوامه"،[٢] فقد عبر المسعودي رحمه الله عن اجتذاب معاوية (رضي الله عنه) لقلوب الأتباع وإتقانه لفن الاستمالة بلفظ السياسة.

وقد ارتبطت الدعاية السياسية في التاريخ الإسلامي بظهور المطامح السياسية منذ الفتنة الكبرى التي أعقبت مقتل عثمان (رضي الله عنه)، ورغم ارتباط الدعاية السياسية في التاريخ الإسلامي بالمصالح والرغبات الخاصة، إلا أن المتتبع لتاريخ تلك الحقبة يلمس أثر الإسلام واضحًا في نفوس المسلمين، ويبدو الإيمان واضحًا كشعور وإحساس يملأ كيان الفرد ويدفعه إلى التحمس للفكر الإسلامي والتعلق به والإخلاص له والتضحية من أجله. وقبل الحديث عن الدعاية في عهد بني أمية لا بد من الإشارة إلى أن بعض الروايات التاريخية التي أوردناها في هذا البحث قد تكون محل اعتراض من قبل البعض وقد تروق البعض الآخر، وحتى لا يسارع الكل إلى اتهامنا بأي تهمة أورد الملاحظات التالية:

- أولاً: نحن نبحث موضوع الدعاية، وفي مجال الدعاية قد نتساهل في إيراد أي رواية تاريخية تؤيد الموقف الذي نحن بصدد الحديث عنه، دون تحقيق، لأن التحقيق في الروايات التاريخية ومقارنتها ببعضها البعض من مهام المؤرخ.
- ثانيًا: ليس كل ما لا نعرفه غير موجود ولا يمكن لأي كان نفي أي خبر بحجة عدم علمه به، لأن لا أحد يملك الصواب المطلق.
- ثالثًا: حاولت قدر الإمكان استبعاد الأخبار الغريبة والتي انفرد بنقلها مؤرخ أو مؤرخين.
- رابعًا: حرصت على توثيق الروايات التاريخية التي قد تكون مثار جدل من مصادرها الأصلية وباستعمال أكثر من مصدر، بل قد ألجأ إلى المصدر والمصدر المعارض، وعليه فقد رجعت إلى المصادر الشيعية في بعض القضايا.
- خامسًا: قد لا أكون مقتنعًا بكل ما نقلت من الأخبار التاريخية، لأنني لست بصدد إقرار حقيقة ما أو نفيها، وإنما بصدد نقل الروايات التي تناسب الغرض الذي أتحدث عنه. كما أنني لم

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أتصيد هذه الروايات التاريخية بعينها إلا بقدر ما يخدم موضوع البحث.

إن حاجة خلفاء بني أمية وحاجة خصومهم إلى أن يكون لهم أتباع واستمالة الأنصار من جهة، والرد على ادعاءات الطرف الآخر من جهة ثانية، جعلهم يلجئون إلى ممارسة فنون الدعاية. وسنتناول الدعاية في عصر بني أمية والأسس التي بُنيت عليها وأساليبها وفلسفتها من خلال المباحث التالية: (أسس الدعاية في العصر الأموي - وسائل الدعاية في العصر الأموي - أساليب الدعاية في العصر الأموي).

المبحث الأول: أسس الدعاية في عهد بني أمية

تنبثق فلسفة الدعاية في الغالب من النظرية السياسية والاتصالية، فلكل مجتمع نوع من الاتصال يناسب ظروفه ويتماشى مع أفكاره، ومن خلال دراستنا لتاريخ الدولة الأموية يمكن أن نميز بين نوعين من النشاط الإعلامي؛[٣] النوع الأول: ارتبط بمصلحة القائمين على النشاط السياسي الذين روجوا لأفكارهم ومذاهبهم قصد التأثير في اتجاهات الناس وآرائهم وسلوكياتهم لتأخذ الوجه المراد من قِبل الداعين، وهذا ما يمكن أن نعبر عنه اليوم بالدعاية، وقد تجسد هذا النشاط في النزاع السياسي خلال العصر الأموي بين تلك الفرق التي بنى كل منها فهمًا معينًا للسياسة في الإسلام، وراحت تروج له وتسعى إلى تثبيته في الواقع العملي. أما النوع الثاني: ارتبط بالمصلحة العامة للأمة، وبقيم المجتمع، ومبادئه، وهو ما سُمي بالدعوة، أو يمكن أن نسميه اليوم بالإعلام. وإذا كان النوع الأول مقصورًا على فئة معينة مخصوصة قائمة بالحكم، أو بعض الأنصار والمؤيدين للسلطة الحاكمة، فإن النشاط الدعوي أو الإعلامي كان مهمة الجميع لأنه مرتبط بالإسلام في مفهومه العام.

وانطلاقًا مما سبق نستخلص الأسس التي استندت عليها الدعاية في العصر الأموي في المطلبين التاليين: (الأساس النفسي - الأساس الفكري).

المطلب الأول: الأساس النفسي

يرى أصحاب نظرية التحليل النفسي أن السلوك الصادر عن الأفراد امتداد لمجموعة من العقد النفسية ومشاعر النقص التي ترتبط بالنشأة الأولى، مما يجعل الفرد أكثر تقبلاً لعملية التلاعب والتأثير وأكثر قابلية للإيحاء.[٤] وإذا أمعنا النظر في تاريخ الخلافة الأموية نجد أن بني أمية وخصومهم استغلوا هذا العامل في استمالة الجماهير وتجنيدها لخدمة أهداف مشاريعهم السياسية ويتبين ذلك في النقاط التالية:

أولاً: عمد الأمويون إلى استغلال الكوامن النفسية لصرف قطاع من المسلمين عن التفكير في موضوع الخلافة، واتبعوا سياسة الإغراء بإغداق الأموال، وتوفير جو الراحة والدعة لشغل قطاعًا كبيرًا من المسلمين وإلهائه، ومن ثَمَّ إبعاده عن ممارسة السياسة، وقد ساعدهم في ذلك ميل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار إلى اعتزال السياسة.

ثانيًا: الاعتماد على الجانب النفسي في إثارة العصبية القبلية التي قضى عليها الإسلام، وقد تفنن الأمويون وخصومهم في استغلال العصبية القبلية.

ثالثًا: وجد عبد الله بن الزبير (رضي الله عنه) في سخط قطاع من المسلمين على بني أمية، لأنهم قتلوا الحسين وآل بيته واستباحتهم مكة المكرمة والمدينة، وخروجهم عن نظام الحكم الإسلامي سندًا عاطفيًا كبيرًا لدعايته ضد بني أمية، كما وظف سخط الحجازين بسبب انتقال الحكم من المدينة إلى الشام، واستفاد أيضًا من رغبة القرشيين في إبقاء الحكم في قريش.

رابعًا: لا يخفى أثر الأساس النفسي في دعاية العباسيين لاجتذاب الناقمين على بني أمية والساخطين عليهم لتدعيم موقفهم، فاذكوا روح السخط والكراهية لدى شعوب خراسان، بما ينشرونه من أخبار سيئة عنهم، مستفيدين من الخلاف العقدي بين شيعية خراسان والعراق وسنة الأمويين. كما استغلوا العصبية، فقد عَرف أبو مسلم الخراساني قائد ثورة العباسيين بما أوتي من مهارة وفطنة سياسية كيف يستثمر الانقسام الذي ساد بلاد خراسان، فبذر بذور الشقاق بين جنود بني أمية، مستغلاً روح اليأس والقنوط السائد وسط أبناء هذه المناطق بدعوته إلى المساواة والعدل والرضا من آل البيت.

خامسًا: أدرك رجال الدعاية في العصر الأموي أهمية العاطفة الدينية في تحريك الجماهير، ومن ثَمَّ لم يتركوا مدخلاً من مداخل العاطفة الدينية إلا سلكوه. فقد وضعوا الأحاديث النبوية، وفسروا الآيات القرآنية وفقًا لأغراضها، وحتى الأتقياء والصالحين تمت استثارتهم بطرق موضوعية عزفًا على وتر حبهم للخير والحق والعدل ودفعهم دفعًا لاتخاذ مواقف معينة. كما فسرت الأحاديث المختلقة واستثمرت لإثارة العاطفة الدينية. فقد استغل ابن الزبير حادثة مقتل الحسين لإثارة عاطفة المسلمين الدينية والتشنيع على يزيد بن معاوية. وتعد العاطفة الدينية مرتكز أساسي لدى كل الأحزاب السياسية آنذاك، ومحورًا لكل الصراعات والثورات التي نُسبت خلال ذلك العصر. وسيتبين لاحقًا أن الأساليب والوسائل المستخدمة في دعاية العصر الأموي تستند إلى العاطفة الدينية بالأساس.

تاريخ الدعاية للعصر الأموي منذ مقتل عثمان (رضي الله عنه) وبداية الفتنة الكبرى يؤكد أن المدخل النفسي كان من أهم المداخل الأساسية للدعاية في تلك الحقبة. فقد أدرك معاوية طبيعة التحولات التي طرأت على مكونات المجتمع الإسلامي، وأن هذه التحولات صارت تتطلب نظامًا إسلاميًا جديدًا مختلفًا عن حكم الخلافة الراشدة، وقد ساعده هذا الفهم على كسب الأنصار

بوسائل لم تكن معروفة من قبل؛ كمنح العطايا والهبات، وتقليد المناصب وبث الشائعات، مستغلاً طبيعة البادية ووضع أسس استثمارها لصالح دولته. وهي السياسة التي سارت عليها دولة بني أمية من حيث اهتمامها بإثارة العصبيات، وشغل قادة الرأي بمتع الدنيا، كان ذلك بحكم فهم معاوية (رضي الله عنه) للطبيعة النفسية لأبناء عصره الذين رغبوا في الحياة الدنيا ومباهجها، وعلى نفس النهج سار خلفاؤه من حيث الاستفادة من المكونات النفسية للجماهير، وهو نفس الأساس الذي بنى عليه العباسيون دعايتهم فقد استغلوا التكوين النفسي للموالي وطبيعة الظروف التي يمرون بها في التمكين لدعوتهم كما استغلوا ميلهم للعلويين في رفع شعار الرضا من آل البيت.

ويبين عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) تغير أحوال الأمة، واختلافها عن العهود السابقة حين استعجله ابنه في إصلاح أحوال المسلمين، فيقول: "يا بني إني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله قد فني عليه الكبير وكبر عليه الصغير وفصح عليه الأعجمي وهاجر عليه الأعرابي حتى حسبوه دينا لا يرون الحقّ غيره".[٥] ومن خلال هذه المقولة لعمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يتضح مدى التحول الاجتماعي الذي أشرنا إليه من قبل، ومدى الانحراف الذي أصاب الأمة واحتاج عُمر لمعالجته مزيدًا من الوقت والجهد.

ومن النماذج التي ركزت فيها الدعاية على الجانب العاطفي النفسي ما دار بين، معاوية وعبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما). قال معاوية لابن الزبير تنازعني على هذا الأمر كأنك أحق به مني. قال ابن الزبير: "لم لا أكون أحق به منك يا معاوية، وقد اتبع أبي رسول الله (ﷺ) على الإيمان، واتبع الناس أباك على الكفر". فأجابه معاوية: "غلطت يا ابن الزبير، بعث الله ابن عمي نبيًا فدعا أباك فأجابه فما أنت إلا تابع لي ضالاً أنت أم مهديًا".[٦]

المطلب الثاني: الأساس الفكري

الدعاية أحد مستويات التعامل النفسي بين الحاكم والمحكوم، ولما كان مجتمع عهد بني أمية يعتبر الدين أحد ركائزه الأساسية فإن الدعاية الموجهة إليه لم تتخل عن تلك الصبغة وخاصةً في مقوماتها التي بُنيت عليها وأُصّلت على أساسها الرؤية الفلسفية للنظام الاجتماعي السائد. ولهذا اصطبغت الأحزاب السياسية في العصر الأموي بالصبغة الدينية، وكان لكل منها أصوله الفكرية التي اعتمدت في مقوماتها على التصورات الدينية. فأساس الأحزاب السياسية فرق دينية تصارعت انطلاقًا من فهمها لنظرية الخلافة. كما كان مفهوم الدعاية عندها مرادفًا للدعوة، لأن الدعوة نشر للدين وإقامة لدولة تحمي وتدعم الدين، والدعاية تدعيم لسلطة قائمة أو سعي للوصول إليها بناءً على تصور معين، ولذلك ارتبطت الدعاية في العصر الأموي بسياسة الدين لأن السياسة جزء من الدين ولم يكن عندهم فصل بينهما، كما ارتبطت الدعاية بالتعليم واستندت إلى مدارس ثقافية وتيارات فكرية تدعم تحركاتها.

وقد تبلورت مدارس فكرية وأحزاب سياسية ذات أبعاد دينية، وسياسية، وثقافية، وإعلامية، وصار لكل مدرسة منظرون سياسيون، وتأكدت عاطفة الولاء للأتباع بدل الولاء لله ودينه، وارتبط الإيمان بالفكر السياسي، وتعمقت جذوره واقتتل الناس حوله، كل حزب كان يرى أنه صاحب حق وسواه على الباطل، وبرز الجدال كعامل آخر في الدعاية مما أعطى للصراع سمة عقلية. ويتضح أن الدعاية في العصر الأموي ارتكزت على عاملي العاطفة والعقل ومزجت بينهما مع إفراط أو تفريط في جانب من الجوانب، فقد غالت طوائف في استخدام العاطفة كالشيعة مثلاً، وبالغ المعتزلة في استخدام العقل. وسنشير إلى الأصول الفكرية لأهم التيارات السياسية التي عرفتها تلك الفترة:

أولاً: الحزب الأموي

استند بني أمية إلى أن خليفة أمويًا قتل مظلومًا وهو عثمان (رضي الله عنه)، وأهل بيته هم أولياء دمه يمثلهم معاوية وأن الأمويين أصلح للحكم وأقوم الناس بأعبائه وتؤيدهم الكثرة، وأصحاب مجد قديم، وأن نتيجة التحكيم كانت في صالحهم، ثم زعموا أنهم وارثوا النبي (ﷺ) فصاروا بذلك أحق الناس بهذا الملك، وأن خلفاء بني أمية خلفاء الله ورسوله لخلقه فطاعتهم واجبة.[٧] وتتضح معالم نظرية الحزب الأموي السياسية في قول زياد بن أمية في خطبته البتراء في البصرة: أيها الناس: "إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم زادة، نسسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف قيمًا ولينا".[٨]

ثانيًا: حزب الشيعة

بدأت بذور هذا الحزب حين سخط الناس عن عثمان وبدا البعض يبحث عن خليفة جديد، وكان علي بن أبي طالب المرشح لخلافة عثمان والتف حوله بعض الأنصار سموا فيما بعد باسم الشيعة، فلما قتل عثمان أسرع إليه أنصاره وبايعوه. وتتلخص نظرية الشيعة في أن علي بن أبي طالب وأبناؤه من بعده هم الخلفاء الحقيقيون وأصحابها الشرعيون، ولا حق فيها لغير العلويين، وأن الأمويين اغتصبوها منهم وينبغي أن ترد عليهم، وأن الخلافة ليست مفوضة للأمة بل تنتقل بالوصية في علي (رضي الله عنه) وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً بالنص، ويذكرون أن الرسول (ﷺ) أوصى بالخلافة من بعده لعلي بن أبي طالب يوم غدير.[٩]

ثالثًا: حزب الخوارج

الخوارج في الاصطلاح الشرعي يطلق على كل من خرج على طاعة الإمام الحق الذي أوجب الشرع طاعته وحرم الخروج عليه. وأطلق هذا الاسم على الذين خرجوا على أمير المؤمنين على (رضي الله عنه) بسبب التحكيم.[١٠] ويبني الخوارج نظريتهم السياسية على أن الخلافة ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش، بل تترك لجميع المسلمين لأنها حق الله يتولاها خيرهم ورعًا وتقوى ونفعًا وكفاية، سواء كان هاشميًا قرشيًا أم غير قرشي، أم أعجميًا فهم دعاةً لنظام

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



جمهوري لا تورث فيه الخلافة، بل يتم الوصول إليها بطرق ديمقراطية بواسطة الانتخاب، وعدوا الأمويين مغتصبين للخلافة ينبغي مجاهدتهم ومجاهدة مَنْ ارتضى حكمهم ورفضوا التحكيم لأنه عدول من تحكيم الله إلى تحكيم الناس.[١١] وقد اتسم الخوارج بالتضحية وبذل أنفسهم في سبيل تحقيق مبدأهم وفكرتهم، وفنيت عصبيتهم القبلية والجنسية في عقيدتهم المذهبية.[١٢]

رابعًا: حزب الزبيريين

يُنسب هذا التيار إلى عبد الله بن الزبير، ظهر هذا الحزب بعد تولي يزيد الخلافة، وعقب موت الحسين (رضي الله عنه) اعتصم عبد الله في مكة ودعا لنفسه بالخلافة، وقد خضعت له الحجاز والعراق وخراسان واليمن واستمر إلى أن تمكن الحجاج من محاصرته في مكة وقتله سنة ٧٣هـ[١٣] بنى الزبيريون نظريتهم السياسية على أساس أن الخلافة ينبغي أن تكون في قريش، وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين يختاره المسلمون بالشورى، وأن تكون حاضرة الخلافة الحجاز كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين. لذلك اعتصم بمكة وطرد الأمويين من المدينة وسمى نفسه العائذ.[١٤]

خامسًا: حزب الموالي

"الموالي" كلمة تطلق على كل مَنْ دخل الإسلام من غير العرب، وسمي العجم موالي لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب. وظهر هذا الحزب نتيجة موقف الدولة الأموية المتعصب للعرب وتقديمهم على غيرهم في الوظائف العامة، مما أدى إلى نقمة الموالي على العرب عامة وعلى بني أمية خاصة.[١٥] ونتيجة لبغضهم وتذمرهم من بني أمية نجدهم يشاركون في كل الثورات التي قامت ضد الأمويين، فظاهر قسما منهم العلويين وقسم آخر ساند الخوارج، وساهموا في تقويض أركان دولة بني أمية ورفعوا العباسيين إلى الحكم، وبذلك بدأ الفرس صفحة جديدة في علاقاتهم مع العرب.[١٦]

وخلاصة القول: أن هذه الاتجاهات السياسية المتناحرة، من أجل الوصول إلى الحكم أو البقاء فيه مارست حملات دعائية شعواء لم تنضبط في حالات كثيرة بضوابط الشرع الإسلامي، بل استخدمت التحريف والتزييف والاختلاق، والإشاعات المغرضة مبررة لنفسها أنها في ساحات القتال.

المبحث الثاني: وسائل الدعاية في العصر الأموي

تستخدم الدعاية كل الوسائل المتاحة للوصول إلى الجماهير المستهدف للتأثير فيه وتختلف الوسائل الدعائية تبعًا للأهداف المرسومة، والمضمون الدعائي، والخطة الدعائية ومهارة وقدرة القائمين على شؤون الدعاية، ولهذا تختلف الدعاية من حيث الوسائل المستخدمة من عصر إلى آخر، إلا أنها كلها تهدف إلى مقارعة الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة، والوصول بالمضمون الدعائي إلى أبعد مدى يمكن الوصول إليه وفقًا للإمكانات المتاحة. وبظهور الأحزاب المتصارعة وتبلور اتجاهاتها الفكرية، راح كل منها يسعى لجلب الأنصار والمؤيدين مستعملاً كل الوسائل الممكنة للتأثير على الجماهير وتغيير اتجاهاتهم. ويمكن تقسيم الوسائل الدعائية التي استخدمتها التيارات المتصارعة في العهد الأموي إلى نوعين وسائل أولية ووسائل مساعدة. ونتناولها في المطلبين التاليين: (الوسائل الأولية - الوسائل الثانوية).

المطلب الأول: الوسائل الأولية

استخدمت الدعاية في العصر الأموي مجموعة من الوسائل الدعائية التي تتناسب وعصرها

أولاً: الخطابة

الخُطْبَةُ: لغة؛ هي بضم الخاء، وهي ما يُقال على المنبر، يُقال: خَطَبَ على المنبر خُطْبَة - بضم الخاء- وخَطَابة، وأما خِطْبَة - بكسر الخاء- فهي طلب نكاح المرأة. وهي مشتقة من المخاطبة، وقيل: من الخطب، وهو الأمر العظيم؛ لأنهم كانوا لا يجعلونها إلا عنده. قال في تهذيب اللغة: "والخطبة مصدر الخطيب، وهو يخطب المرأة ويخطِبُها خِطبة وخِطِّيبى... قلت: والذي قال الليث أن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخُطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر، والعرب تقول: فلانٌ خِطْبُ فلانة، إذا كان يخطبها".[١٧]

وقال في القاموس: "... وخَطَبَ الخاطب على المِنْبَر خَطابة بالفتح، وخُطبة بالضم، وذلك الكلام خُطبة أيضًا، أو هي الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه، ورجل خَطِيبٌ حسن الخُطبة بالضم".[١٨] وقال في المصباح: "خَاطَبَه مُخَاطَبَة وخِطَابا، وهو الكلام بين متكلم وسامع، ومنه اشتقاق الخُطبَة -بضم الخاء وكسرها -باختلاف معنيين، فيُقال في الموعظة: خَطَبَ القوم وعليهم من باب قتل، خُطبة -بالضم -، وهي فُعلة بمعنى مفعولة... وجمعها خُطب، وهو خطيب القوم إذا كان هو المتكلم عنهم، وخَطَبَ المرأة إلى القوم إذا طلب أن يتزوج منهم، واختطبها، والاسم الخِطْبة - بالكسر.[١٩]

أما اصطلاحًا: عرَّفها بعضهم بأنها: الكلام المؤلف المُتضمِّن وعظًا وإبلاغًا.[٢٠] ولكن في هذا التعريف إجمال دون تفصيل. وأوضح منه تعريف من قال: إنها قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة، من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم.[٢١] وعرَّف بعض المعاصرين الخطابة: بأنها فنّ من فنون الكلام، يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معًا.[٢٢]

والخطابة صفة راسخة في نفس المتكلم يقدر بها على التصرف في نفوس السامعين وحملهم على ما يُراد منهم بترغيبهم وإقناعهم. فالخطابة مردها التأثير في نفس السامع مخاطبة وجدانه وإثارة إحساسه للأمر الذي يُراد منه ليذعن للحكم إذعانًا ويسلم به تسليمًا.[٢٣] وعليه فإن غاية الخطابة الكبرى في تحويل الأفكار الذهنية الجامدة إلى عواطف يشتغل بها السامع، ويتصرف بتأثيرها تصرفًا فيما لا قبل له به فيما يكون في حالة اليقين العادي. فالأفكار التي تقطن الذهن مهما سمت وشرفت تبقى دون تأثير على سلوك الإنسان إذا لم تنتقل من فكرة يعيها في ذهنه بلامبالاة إلى

شعور يحول الفكرة الجامدة إلى عمل حاسم. وبهذا فالخطابة في جوهرها أسلوب يعمد إلى بث حالة نفسية أو يقين وجداني حاسم لا يتمكن المرء أن يتحرر منه بل يندفع بتأثيره وقدم على أعمال فائقة تبلغ في أحيانًا كثيرة ما يسميه الناس بطولة.[٢٤]

وتعدّ الخطابة أداة الدعاية للدولة الأموية وخصومها على السواء، وبازدهار الخطب السياسية الدعائية فقد عَرف العصر الأموي ما يمكن تسميته بالمناظرات الخطابية، حيث كانت الخطبة تحل محل السلاح في موضع لا مجال فيه لاستعمال هذا الأخير، وحينئذ يتم التحارب بالخطب بديلاً عن السلاح. وقد اشتهر الحجاج بن يوسف الثقفي بالشدة مع الفصاحة، وخطبه كثيرة، منها خطبته حين قدم الكوفة فأتاها ملثمًا، وصعد المنبر، وحسر اللثام عن وجهه وأنشد: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا .... متى أضع العمامة تعرفوني صليب العود من سفلى نزار........ كنصل السيف وضاح الجبين، ثم بدأ يقول "إني والله لأري أبصارًا طامحة وأعناقًا متطاولة، ورؤوسًا قد أينعت وحان وقت قطافها وإني صاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى".[٢٥] ويلاحظ أن الحجاج اعتمد أسلوب الترهيب في دعايته ولم يعمد إلى الإقناع الهادئ كوسيلة، بل أثار أمامهم الصور المرعبة معتمدًا على الخيال والعاطفة.

وفي خطبة للإمام علي (كرم الله وجهه)؛ بعد أن أغار الأمويون على الأنبار قال مخاطبًا اتباعه: "ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهارًا، وسرًا وإعلانًا وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان. فيا عجبًا عجبًا والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم فقبحًا لكم وترحًا حين صرتم غرضًا يُرمى يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَوْن ولا تَغْزون، ويُعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حَمارَّةُ القيْظ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صَبارَّةُ القُرِّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارًا من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر يا أشباه الرجال، ولا رجال الأطفال عقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله جرت ندمًا وأعقبت سدمًا... قاتلكم الله. لقد ملأتم قلبي قيْحًا، وشحنتم صدري غيظًا وجرعتموني نُغب التَّهام أنفاسًا، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا رأي لِمَنْ لا يطاع.[٢٦]

ونلاحظ أن الإمام علي (كرم الله وجهه) لم يصرفه الأداء الفني عن العناية بالواقع النفسي للمدعوين، ورغم النقمة عليهم إلا أنه توسل إليهم بما يثير عواطفهم المكبوتة، وحاول استنهاض هممهم.

ومن أحسن خطب الخوارج في هذا المقام خطبة أبي حمزة الشاري لما قدم المدينة قال: "قليلة عقولهم قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة، قاتلهم الله أفلا يؤفكون فأي هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون أم بأي مذاهبهم تقتدون وقد بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة ويحكم يأهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله وآلة المذكورون في الخير إلا شبابًا أحداثًا. أما والله إني لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباب، والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهر، باعوا أنفسًا تموت غدًا بأنفس لا تموت أبدًا، قد نظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقًا إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباهم ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام، وكثرة الصيام، مستقلون لذلك في جنب الله موفون بعهد الله منجزون لوعد الله، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت ورماحهم وقد أشرعت وسيوفهم وقد انتضيت وبرفت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة، ولقوا شبا الأسنة وشائك السهام وظبات السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشاب منهم قدمًا حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وعفر جبينه بالثرى، وانحطت عليه طير السماء وتمرقته سباع الأرض، فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعًا وساجدًا، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد، ثم بكى وقال آه آه على فراق الإخوان رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحهم الجنان".[٢٧]

ومن هنا يمكن القول: بأن الخطبة كانت أهم عنصر دعائي في العصر الأموي للخليفة أو الوالي أو الثائر على السواء، بحيث يمكن التأريخ للعصر وتفسيره من خلال الكم الهائل من الخطب التي قيلت فيه وقامت بالدعاية لقائل الخطبة وأتباعه، ونتج عن طغيان الهدف الدعائي على الخطبة، أن تحولت الخطبة الدينية خطبة الجمعة إلى خطبة سياسية. وبعد زوال الدولة الأموية لم ينته تحويل خطب الجمعة إلى غرض سياسي، بل أصبح من شعائر الاعتراف بالحاكم هو الدعاء له في خطبة الجمعة، ولا زال ذلك ساريًا حتى الآن في بعض الدول الاسلامية.

ثانيًا: الشعر

يعتبر الشعر من وسائل الإعلام الأولى التي عرفها العرب، وكانت أداتهم الوحيدة في التعبير عن رأي القبيلة، وإذاعة أخبارها ومآثرها، وكان بمثابة الجريدة اليومية التي تتضمن أخر الأخبار والتحليلات السياسية، ومهمته الحفاظ على سمعة القبيلة. وكانت معلقات الشعراء العرب التي تعلق على الكعبة بمثابة الإعلان والإشهار الذين

عُرفا اليوم، لأن العرب كانوا يعلنون ويشهرون ويمارسون الدعاية السياسية من خلال تلك المعلقات التي سبقت ظهور الإعلان والإشهار والدعاية بآلاف السنين. ولهذا نجد القرآن الكريم يأتي بلغة العرب ويتحداهم في فصاحتهم التي كانوا يتفاخرون بها ويرد على ادعاءاتهم ودعاياتهم بأوضح بلاغ وأفصح بيان.[٢٨]

وخلال العهد الأموي، اقترن الشعر بالسياسة بعد مقتل الخليفة عثمان (رضي الله عنه) وما تلا ذلك من فتن وحروب وصراعات على السلطة، كان الشعر من أبرز وسائل الدعاية لدى كل فريق من الفرق. وكان بني أمية أقدر الاتجاهات السياسية استمالة للشعراء بحكم وجودهم في السلطة، فكان كثير من الشعراء يناصرون الأمويين حبًا في أعطياتهم أكثر من ولائهم لهم. أما شعراء بني هاشم وشعراء الخوارج، فقد كانوا أخلص لمذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية منزهين عن الطمع والمال والسلطان، ولذلك اتسم شعرهم بالإخلاص والصدق.[٢٩] ورغم قسوة بعض الحكام الأمويين وتعقبهم للثوار والداعين إلى الثورة، فقد جهر كثير من الشعراء بما يجيش في نفوسهم من سخط وتحريض، ذلك أن اغلب شعراء المعارضة ثائرون محاربون فهم لا يخشون جريرة المقال، لأن الذي يشهر سيفه ليس أهون عليه من أن يشهر لسانه، وأن جهر بعض الشعراء ممَنْ ليسوا في منعة من الحكام بعض ما اختلج في نفوسهم من تنديد وهجاء يقابلون بحلم الحكام لإطفاء ما بهم من موجدة لعل ذلك يردهم عن البغض والحقد.[٣٠]

وكان معاوية (رضي الله عنه) أول من استن سياسة العفو عن المخالفين وتبعه من جاء بعده، فقد كان كثير الحلم على الشعراء حيث لا ينتظر حلم لأنه أخذ سياسة استنها من قوله: "أنا لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو كانت بيني وبين الناس شعرة لما تقطعت، فإن شدوها أرخيتها، وإن أرخوها شددتها".[٣١]

ثالثًا: الوفود والبعثات

عمل الأمويون على كسب الأنصار والأشياع عن طريق نظام الوفود الذي استحدثه معاوية (رضي الله عنه) أسوة بالوفود التي جاءت إلى الرسول (ﷺ) مبايعة إياه، وكان معاوية يطلب من عماله بالأمصار إرسال تلك الوفود جماعات وفرادى إلى عاصمة الخلافة، بل كان يتوجه هو أحيانًا بنفسه إلى تلك الجماعات. وقد كثرت الوفادة على الخلفاء في ذلك العصر، إما لرفع شكوى، أو للمدح، أو لإعلان النصر والتأييد، وقد يدعو الخليفة بعض الوفود إليه ليعقد حبل مودتهم أو يعاتبهم على بادرة منهم. وعادةً ما كان الوافدون من كبار المتكلمين المجيدين، إذا تكلموا ألقوا كلامهم في لسان مبين، وقول حكيم، وإذا اعترض عليهم سددوا وأتوا بأحسن الخطاب، قال ابن عبد ربه في الوفادة: "إنها مقامات فضل ومشاهدة حفل، يتخير لها الكلام، وتستعذب الألفاظ، وتستجزل المعاني"... ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم، وزعيمهم الذي عن قوسه ينزعون وعن رأيه يصيرون.[٣٢]

ونظام الوفود والبعثات من أشكال الاجتماعات التي تستعملا الدعاية السياسية لتحقيق التقارب والتجاوب بين رجل الدعاية والجمهور، وإذا تحقق التجاوب وضمن رجل الدعاية مستمعيه يتحول الأنصار من مجال الدعاية إلى مجال الاستهواء، ويزيد من ذلك مكان الاجتماع، وكان في الغالب قصر الخلافة، حيث يحاط الوفد بكافة ألوان الكرم والضيافة. كما يلعب الجو المحيط بالخليفة ونبرات صوته ومظهره وتلويحاته وإشاراته دورًا في نفوس السامعين، مما يجعلهم لا يخرجون من عنده إلا وقد غدوا أكثر تأييدًا للخليفة واقتناعًا بوجهة نظره.

أما البعثات، فهي الصورة المقابلة لأسلوب الوفود وهم أفراد يرسل بهم الخليفة أو الداعية إلى مَنْ يريد تبليغهم رسالته. وقد اعتمد النبي (ﷺ) - كما مر معنا- هذا الأسلوب في رسائله التي أرسل بها إلى الملوك والأمراء داعيًا إياهم إلى الإسلام، وكانت هذه الحركة من أعظم ما عرف التاريخ، وهي أشبه ما تكون بالزيارات الرسمية مع الفارق طبعًا.[٣٣] وقد برع الشيعة في استخدام أسلوب البعثات لنشر دعوتهم، خاصةً في منطقة خراسان التي ازداد تذمر الناس فيها وسخطهم من الدولة الأموية. وقد أعد أئمة الشيعة الدعاة وأرسلوهم على شكل بعثات إلى جميع الأمصار الاسلامية يحثون الناس على اعتناق المذهب الشيعي.[٣٤] واستطاعوا من خلال هذه البعثات أن يجلبوا إليهم كثيرًا من المعتدلين الذين سارعوا بالانضمام إلى الدعوة العباسية، وكانوا جنودًا في جيش العباسيين الذي أسقط الخلافة الأموية.

رابعًا: المناقشات والمناظرات

مكتسبات الإنسان الفكرية والثقافية هي في الغالب ثمرة نقاش وحوار، فكل إنسان ينتمي إلى مجموعة يناقش معهم القضايا العامة، ونشأ الرأي العام ابتداءً من الجماعة المحيطة بالفرد من أصدقائه ومعارفه. والدعاية بمحاولتها التأثير بالرأي العام تتدخل بمجالات النقاش والموضوعات المثارة. وتعمل على التأثير على الآخرين ودفعهم إلى اتخاذ وجهة معينة، ولهذا تعتبر المناقشات من أقدم الطرق وأكثرها شيوعًا في تقدم الآراء والتعبير عنها وشيوعها بين الناس. ومحادثات الناس ونقاشاتهم صور وأشكال، فقد تكون بالصدفة، وقد تكون محادثات منظمة. وقد تتناول هذه المحادثات أعراض الناس وقد يتحول ذلك إلى حملة همس منظمة إلى معظم أفراد المجتمع، وتعتمد تلك الحملات على الشائعات التي يشيعها المغرضون، ويطرأ عليها أثناء تداولها وتنقلها كثير من التحريف والتضخيم والمبالغة عن قصد أو عن غير قصد. ومهما كان موضوع الحديث فقد يتصل بالناحية الشخصية ويعبر عن الرأي الشخصي ويستميل الأشخاص، وقد يؤثر كل إنسان في محدثيه ويتأثر بهم.[٣٥]

ونظرًا لنمو العقل العربي وازدهاره في العهد الأموي نتيجة الصراع الفكري والسياسي والعقائدي بين الأحزاب السياسية وحرصها على استمالة الأنصار والمؤيدين من جهة، ومناخ حرية الرأي السائد من جهة ثانية. فبرزت وغدت الحوارات والمناظرات

كأشكال للاتصال صورًا شائعة بكثرة إلى درجة أن الفقهاء، والأدباء، والشعراء، والدعاة، والساسة كانوا يتناظرون في الأسواق والطرقات، واجتهد كل خصم في البحث عن أدلة تدعم وجهة نظره، والتنقيب عن أدلة خصمه لدحضها، مما أعطى مجالاً واسعًا ومناخًا ملائمًا لترعرع الدعاية.

وقد برع الخوارج في هذا الفن بشكل خاص. فجادلوا الإمام علي كرم الله وجهه وابن عباس (رضي الله عنهم). وروى أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة حتى قال: عبد الملك "كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأنا أولى بالجهاد منهم... ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة وقرر في قلبي من الحق".[٣٦] وهذا واحد من عامتهم فما بالك بزعمائهم ويشيد المبرد في كتابه الكامل بقدرتهم على الجدال واستظهار الأدلة والبراهين.[٣٧] إلا أن مغالاتهم في الجدل أدى إلى انقسامهم إلى فرق عديدة كالازارقة، والنجدية، والصفرية، والإباضية، وقد شكا زيد بن جندب من هذا الاختلاف فقال:

قل للمحلين قد قرت عيونكم
لفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناسا على دين ففرقنا
طول الجدال وخلط الجد باللعب
ما كان أغنى رجالاً ضل سعيهم
عن الجدل وأعناهم عن الخطب
إني لأهونكم في الأرض مضطربًا
ما لي سوى فرسي والرمح والنشب[٣٨]

وواجه الأمويون هذه المناقشات بنفس السلاح، فعمر بن عبد العزيز لما ثار الخوارج في عهده لجأ إلى مقارعتهم بالحجة، وقد نجح في إقناع الرسل الذين أرسلهم زعيم الخوارج إليه، ولكن المنية عاجلته ولم يجن ثمار ما تم.[٣٩] وكان الشيعة كالخوارج ينافحون عن عقيدتهم واختلفوا وتجادلوا فيما بينهم، وجادلوا أصحاب الفرق الأخرى، ومن أشهر مجادليهم زيد بن علي بن الحسن مؤسس مذهب الزيدية وقد قرر الكميت[٤٠] بأشعاره الملقبة بالهاشميات نظرية هذا المذهب. وعند قراءة شعره يخيل إليك أنك تقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين

خامسًا: القصص

تعد القصص من الوسائل الإعلامية الهامة في حياة الشعوب منذ القديم لأنها تساهم بتأثيرها الوجداني على الإقناع، ولذلك استخدمت للإرشاد والهداية كما هو الحال في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وفي العهد الأموي ظهر القصص السياسي كوسيلة دعائية بارزة، فكانت القصة تروى مناجل مناصرة جهة أو إضعاف الجهة المنافسة، وصار لكل مذهب قصاصه الذين يروجون لعقيدته وأفكاره ونظرياته في الخلافة. وقد أصبحت وظيفة القاص وظيفة رسمية في الدولة. وفي سنة ٧٠هـ ولي قضاء مصر عبد الرحمان بن حجيرة وكان له إلى جانب القضاء القصص، ويذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان عزل أبا إدريس الخولاني عن القصص وأقره على القضاء فقال: "عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي".[٤١]

وكان القصص يُلقى في المساجد، وفي ميادين القتال، ويتولاه رجال أُعدوا له واختصوا به، ومكانتهم كبيرة في الدولة لأنهم يقومون مقام الوزراء. وقد استخدمت المعارضة أيضًا سلاح القصص للدفاع عن أفكارها واستمالة الأنصار، مع تفوق للأمويين بحكم قدرتهم على اجتذاب القصاص بالأموال والهبات.[٤٢] ويتضح دو القصة في الدعاية آنذاك ويمكن تشبيها بالصحافة الحزبية في الوقت الحاضر من حيث الأهمية والوظيفة السياسية التي تضطلع بها.

سادسًا: الكتاب

الكتاب وسيلة هامة للتثقيف وتحصيل المعرفة، وأداة مهمة لتكوين أراء المثقفين، والتأثير عليهم باعتبارها الطبقة الرائدة في الرأي العام. ونال هيرودوت لقب "أبو التاريخ" بما كتبه من تاريخ غذى الحضارة الإنسانية، إلا أنه وصف بالصحافي المأجور للدولة الأثينية. ومعنى ذلك أن هيرودوت آمن بما كان سائدًا في عصره من أفكار، وناصرها، ولو لم يكن ذلك دعاية منه للسلطة.[٤٣]

والتاريخ الإسلامي زاخر بالمؤلفات التاريخية والأدبية التي تستشف منها الدعاية بوجهيها التأييد لجهة والإساءة لأخرى، فكتب الحديث مليئة بالأحاديث الموضوعة عمدًا، منها ما يخدم الأمويين، ومنها ما يؤيد العلويين، ومنها ما يناصر الشعوبية، بالإضافة إلى ذلك ألفت كتب للدعاية ككتب الكهانة والتنبؤات والملاحم.

وكما كانت الكتب التاريخية خاصةً سلاحًا لبني أمية فقد استخدمت ضدهم، فقد تحامل عليهم المؤرخون في العصر العباسي نتيجة تعصب العباسيين، والفرس، والموالي، ومحاولة منهم لطمس معالم هذا العصر. والسبب في ذلك أن أغلب الذين أرخوا للعهد الأموي هو تأخر التدوين التاريخي إلى أواخر العصر الأموي، وجل مصادر العهد الأموي مصادر عباسية كتبها مؤلفوها وهم متأثرون بنفوذ العباسيين ودعايتهم وأفكارهم، كما أن جزءًا كبيرًا من آثار الأمويين طمست وشوهت محاولة من العباسيين للقضاء على حضارتهم وتشويه صورتهم لدى الخاصة والأمة.[٤٤]

ويلحق بالكتب المكتبات التي كانت تستغل للترويج لأفكار معينة إضافة إلى مهمتها الأساسية بتوفير العلم لمرتاديها، وكان خلفاء بني أمية يحتفظون بمكتبات في قصورهم. اخرج ابن سعد عن عبد الرزاق قال سمعت معمرًا قال: "كُنا نرى أنا قد أكثرنا على الزهري حتى قُتل الوليد فإذا الدفاتر قد حُملت على الدواب من خزائنه من علم الزهري".[٤٥] ومن الخلفاء الذين أُثر عنهم إنشاء مكتبات خاصة للدعاية المأمون، فقد أنشأ بيت الحكمة للدعاية لأفكار المعتزلة، كما فعل نفس الشيء الحاكم بأمر الله الفاطمي للدعاية للمذهب الفاطمي الإسماعيلي.

سابعًا: المؤسسات التعليمية

تعمل المؤسسات التعليمية على نشر العلم كمهمة أساسية، إلا أنها قد تلعب دورًا دعائيًا للتأثير على الأفراد وتكوين اتجاهاتهم من خلال ما تبثه من أفكار وأراء قصد الإقناع، وقد مر بنا من قبل أن التعليم مهما كان موضوعيًا فلابد أن يعبر عن عقيدة الأمة وتوجهاتها الكبرى، فالتعليم يبني الشخصية المتكاملة، وبنقل ميراثًا اجتماعيًا وتقليديًا وثقافيًا ليس للأفراد دخل فيه. والدول الشمولية لا تفرق بين التعليم والدعاية، وترى ضرورة تسخير التعليم للدعاية للنظام القائم، ومن هذا المنطلق يصبح المعلم رجل دعاية، ويعلم الفرد كيف يفكر ودخل في ذهنه أفكارًا وأراء محددة سلفًا وجاهزة.[٤٦]

ويذكر التاريخ أن الفاطميين أول مَنْ أسسوا معاهد رسمية للتأهيل المذهبي للدعاية للمذهب الفاطمي، وقد تركزت هذه المؤسسات في القصر الفاطمي، والمساجد، ودار الحكمة.[٤٧] وفي العهد الأموي لم يكن هناك مؤسسات تعليمية رسمية بالمعنى المتعارف عليه الآن، بل كان هناك أدباء مفكرون علماء يمارسون شؤون التعليم في المساجد الكبرى، وانتعشت المذاهب السياسية التي أشرنا إليها آنفًا وانعكست تأثيراتها على العلماء والإتباع باعتبار أن كلا منهم كان تابعًا لتيار معين، فأنتجوا تراثًا يعكس الحالة السياسية لتلك الحقبة، فمدرسة الحديث تأثر رواتها بالسياسة إلى درجة أن الأحاديث التي كانت تنتقص من بني أمية تروى خارج الشام على عكس الأحاديث التي كانت تمجد أو تعنى بشؤون بني أمية فكانت تروى داخل الشام.[٤٨]

كما استُغل التفسير لأغراض سياسية، ولم يسلم الفقه من تبرير لبعض السياسات والرفض لأخرى، بل تدخلت السياسة حتى في المذاهب الفقهية، وكان الخليفة يحمل الأمة على مذهب معين.[٤٩] كما مزجت الاتجاهات الأخرى أفكارها السياسية بالتعاليم الدينية مما أوجد جوًا من المناظرات والمجادلات في شتى فروع المعرفة، مما يعد ثراءً معرفيًا وعلميًا كبيرًا. ومع أن المسجد كان كمجلس للعلماء ومدرسة للمتعلمين يتلقون فيه اللغة العربية وأصول الدين، إلا أنه أيضًا كان بمثابة منتدى فكري سياسي للسياسيين الذين يتداولون الأفكار السياسية، باعتبار أن السياسة يوم ذاك كانت جزءًا من الدين ولم تكن شيئًا خارجًا عنه. ويمكن القول: أن التعليم والدعاية اختلطا ببعضهما البعض نتيجة لارتباط الدين بالسياسة، وكان العلماء تحركهم الرغبة الخالصة في الاجتهاد وإيجاد الحلول الملائمة للنوازل الطارئة.

المطلب الثاني: الوسائل الثانوية

بالإضافة إلى هذه الوسائل الأساسية التي ذكرنا أهمها، فقد كانت هناك وسائل أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ونذكر منها:

أولاً: الرسائل

من أهم الوسائل الدعائية في عهد بنو أمية حيث كانت وسيلة إعلامية تصل الخليفة بعماله في أقاليمهم، وبجنوده في الميدان، كما كانت حلقة وصل بين الخليفة ورعيته، لذلك كان صاحب ديوان الرسائل يحتل مكانة مرموقة بين سائر الدواوين الأخرى.[٥٠] ويبين ما للرسائل من دور إعلامي بارز آنذاك في ظل انعدام الوسائل الأخرى كالجريدة أو الصحيفة اليوم. كما استخدمت الرعية الرسالة وسيلة لبث شكواها وشرح معاناتها للخليفة مما تعانيه من ظلم بعض الولاة. فقد رُوي أن الحجاج قابل الصحابي الجليل انس بن مالك (رضي الله عنه) واسمعه تهديدًا ووعيدًا. فأرسل برسالة شكاه فيها إلى الخليفة عبد الملك بن مروان. جاء فيها: "ولم أكن له منك ومنه أهلاً فخذ لي على يديه وأعني، فإني امتن عليك بخدمتي لرسول الله(ﷺ) وصحبتي إياه والسلام عليك ورحمة الله". فرد عليه الخليفة أما بعد: "فقد قرأت كتابك، وفهمت ما كتبت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك، ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد إلى مثلها فاكتب إلى بذلك".

كما استخدمت الرسائل كوسيلة اتصال بالخصوم والمعارضة للتعبير عن وجهات نظرهم أو للرد عليهم أو محاولة التأثير عيهم وتغير آرائهم، ومن الأمثلة على ذلك رسالة معاوية (رضي الله عنه) إلى عبيد الله بن عباس يغريه بالانضمام إليه، بعد أن تمكن من صد هجمات جيش معاوية، فلما كان الليل أرسل معاوية رسالة مع رسول يدعوه فيها إلى الانضمام إليه ويعده ويمنيه، ونجحت خطة معاوية وانظم عبيد الله بن عباس إلى معاوية في الحال وترك قيادة جيشه، وهذا نص الرسالة: "إن الحسن قد راسلني في الصلح ... وهو مسلم الأمر إلى... فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعًا، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن جئتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم عجل لك في هذا النصف، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر.[٥١]

ثانيًا: الطراز

وهو عبارة عن كتابة زخرفية على القماش تم اتسعت وصارت تستعمل الكتابة على الورق،[٥٢] ثم صارت تطلق على المصنع الذي تصنع فيه هذه المنسوجات.[٥٣] ويعد الطراز من الوسائل الدعائية الهامة في العهد الأموي، فقد استخدمه خلفاء بني أمية لتأكيد سيادتهم وسيطرتهم على مقاليد الأمور. ومن المعروف أنه من أبهة الملك، وفخامة السلطان، ومذاهب الدول، كما يذكر ابن خلدون أن ترسم أسماء الملوك أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسيم، وذلك قصد التنويه بلباسها من السلطان فمن دونه. أو التنويه بمَنْ يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته.[٥٤]

وكان الطراز أحد شارات الخلافة الثلاث، والتي كان لها دور خطير من الناحية السياسية والاقتصادية والدينية: (الخطبة، والسكة، والطراز). وكان الخلفاء لا يقلدون أعمال دور الطراز إلا للثقات من وزرائهم ومواليهم، إذ كان في يدهم خلع الخليفة بمجرد حذف اسمه من شريط الطراز ووضع اسم آخر بدلاً منه.[٥٥] ويتضح مما حظيت به الطراز من مكانة قيمتها في الدعائية السياسية لما لها

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

من القدرة على الانتشار بين قطاعات واسعة من الجماهير داخل الدولة وخارجها، وأينما وصلت تحمل في طياتها اسم الخليفة وتؤكد سيادته، وخاصةً في أماكن المعارضة.

ثالثًا: السكة

هي الختم على النقود بطالع من حديد نقش فيه اسم الخليفة أو السلطان، وهي إحدى شارات الخلافة، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية. فمنذ مقتل عثمان (رضي الله عنه) ظهرت نماذج من النقود على يد المطالبين بالسلطة والثائرين كلٌّ يسعى إلى تأكيد سلطته، وأبرز مثال على ذلك النقود التي ضربها عبد الله بن الزبير في يزد سنة ٦١هـ ونُقش على دائرتها عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين.(٥٦)

وبعد استقرار الأوضاع ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة الاسلامية، ورغبةً من الملك في إعادة حق ضرب النقود إلى الخلافة في شخص الخليفة كمظهر من مظاهر السلطان والمركزية،(٥٧) وإرضاءً للشعور الديني والسياسي للشعوب العربية والإسلامية(٥٨) والتي كان أكثر معاملاتهم بالنقود البيزنطية.(٥٩) ولعدم ضبط معيار النقود المستخدمة وظهور تزييفها، وردًا على الإمبراطور الروماني الذي أرسل يهدد بنقش سب النبي (ﷺ) على النقود كرد فعل على تعريب الطراز، انشأ عبد الملك بن مروان دارًا لضرب النقود، وأمر بسحب العملة من جميع أنحاء الدولة، وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة وذلك سنة ٧٧هـ.(٦٠)

وبذلك صار الدينار الإسلامي ذا مسحة عربية بعيدًا عن التأثيرات البيزنطية المسيحية، وكانت توجد على الدينار صورة رجل واقف يحمل بيده سفيًا،(٦١) ومن الجانب الدعائي فالصورة تمثل الإمامة عند المسلمين والسيف رمز للجهاد، واللحية دلالة على الالتزام بتعاليم الإسلام. وكانت هذه هي العملة الوحيدة التي سُمح بتداولها وسحبت كل ما عداها من العملات، فقد مثلت مظهرًا من مظاهر سيادة الدولة في عهد عبد الملك بن مروان، وفي تداولها وانتشارها دعاية للدولة الأموية في يد كل مَنْ يحملها سواء انتسب إلى الأمويين، أو المعارضة، أو الرومان.

رابعًا: الرموز

حتى يجسد المرء الخبرة الإنسانية المعقدة في شيء محسوس، يمكن أن يتذكره بسهولة إذا لجأ إلى الرموز التي ما هي إلا تبسيط للحقائق المجردة. وللرموز علاقة وثيقة بالاتجاهات المرغوبة أو غير المرغوبة، بل هي إحدى مكوناتها، كما أن استخدامها غالبًا ما يثير استجابات عاطفية قوية لدى الجمهور. أي أن القوالب المصبوبة التي نكونها لأنفسنا تزودنا باتجاهات عملية دائمة تدفعنا لاتخاذ إجراءات معينة بالنسبة للأفكار والأشياء والناس.(٦٢) ومن أهم ما يميز الثقافات عن بعضها البعض الاستخدام المجازي للرموز الاجتماعية

وتتعدد أشكال الرموز، فالمنشئات والمنجزات الحضارية تحمل في طياتها نوعًا من الإشادة بمستوى التقدم الحضاري والعلمي الذي جسده، كما أن مشاهدة الأزياء والمناظر يمكن من إحالتها إلى عصور أو أجناس مختلفة.(٦٣) ويدخل ضمن الرموز الدعائية الشعارات والشارات، كالصليب، والمنجل، والمطرقة، والهلال، أو الرمز المجسد للتحية، وكذا الرموز الموسيقية، كالسلام الوطني.(٦٤) وتكمن أهمية الرموز في أنها تصل إلى الغاية القصوى لقدرتها على تكثيف المذاهب والنظم السياسية، وتبسيطها بشكل يساعد على سهولة إدراكها وفهمها، كما أنها تشترك جميعها في أنها تثير جوًا من القوة لا غنى عنه للدعاية وتعطي انطباعًا بالتواجد المستمر يشد أزر المتعاطفين، ويضعف من معنوية الخصوم.(٦٥)

واستخدام الرموز الدعائية في العهد الأموي بدأ على يد معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) عندما عرض قميص عثمان (رضي الله عنه) في مسجد دمشق ملطخًا بدمه، وعرض أصابع زوجته وقد قطعت وهي تحاول أن ترد المعتدين عن زوجها، وذلك إمعانًا منه في إثارة الناس، وتأكيدًا لدعوته للمطالبة بدم عثمان، وتبريرًا لخروجه على الإمام علي كرم الله وجهه.(٦٦)

وفي موقعة صفين وعندما كاد الإمام علي أن ينتصر رفع جند معاوية المصاحف ونادى مناديهم الله الله في العرب الله الله في الإسلام كتاب الله بيننا وبينكم، فانخدع بعض الكبار من أصحاب علي ودعوه إلى الرضا بما يعرض أهل الشام فأبى وبين لهم أنهم كائدون لا مخلصون. وأنهم قد تحايلوا لما أيقنوا الهزيمة لأنهم ليسوا أصحاب دين ولا قران. وبهذا الاستخدام المتقن لهذه الحيلة وجعل القران كرمز نجح معاوية (رضي الله عنه) في تجنب الهزيمة وإيقاع الفرقة بين أتباع علي (رضي الله عنه)، الذين عادوا وكثير منهم قد تحلل من بيعته، ساخطون على التحكيم -مختلفون فيما بينهم- يرددون لا حكم إلا الله، ولذلك قال علي (رضي الله عنه): "لما سمعهم كلمة عادلة يراد بها جور، إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة برة أو فاجرة".(٦٧)

ومن الرموز التي استخدمت في العصر الأموي الخاتم والعصا، فقد كانتا شارتا الملك وكان الخليفة يخرج عادةً لصلاة الجمعة مرتديًا ثيابًا بيضاء وعمامة مرصعة بالجواهر، ويلقي الخطبة وبيده الخاتم والعصا باعتبارهما شارتا الملك.(٦٨) ولم ينس الأمويون أهمية المنشئات الحضارية في الدعاية، فقد بالغوا في الإنفاق على بناء المساجد، كما فعل عبد الملك عندما بنى مسجد دمشق، وإظهار عظمة الإسلام بمضاهاة الأبنية البيزنطية في القدس، وتفننه في بناء قبة الصخرة.(٦٩)

وقد استغلت المعارضة أيضًا الرموز في دعايتها فعبد الله بن الزبير، ما أن أعلن نفسه خليفة حتى سارع إلى حمل الدرة مشيرًا بذلك إلى تأسيه بالخليفة العادل عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، كما استغل قدسية مكة المكرمة والمسجد الحرام وأطلق على نفسه لقب العائذ كرمز دعائي يستند إلى العاطفة الدينية لاستقطاب الأنصار واستمالتهم، ولا يقل قوة عن رمز الهاشميين الدعوة لرضا من آل محمد.(٧٠) واستخدم العباسيون الرموز للدعاية ففي أول

اجتماع لهم استخدموا المشاعل لاستدعاء الناس من أعالي البلاد، وحضرت جموع غفيرة متشحة بالسواد دلالة على خزنها على زعمائها الذين سقطوا في الميدان أو قتلوا غيلة.[٧١]

خامسًا: المسجد

يُعد المسجد من أحس الوسائل الدعائية في التاريخ الإسلامي. وقد اِستُغل أحسن استغلال سواء من طرف الأمويين أو خصومهم، وبرزت وظيفته الدعائية من الدور السياسي الذي اضطلع به المسجد في حياة المسلمين، حيث كان مقر الحكومة وإدارة شؤون الدولة.[٧٢] وكان الخليفة يلقي بعد بيعته من فوق منبره خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان سياسي للحكم، وكان المسجد مكان إذاعة أخبار الدولة الهامة والمتعلقة بالمصالح العامة.

وقد أولى الأمويون عناية خاصة بالمساجد، فقد اهتم معاوية (رضي الله عنه) ببناء المساجد في السواحل وتوسيع ما كان قد بُني من قبل منذ أن كان واليًا على الشام في عهد عثمان (رضي الله عنه).[٧٣] وخلال العهد الأموي، صار للمسجد مدلول سياسي، وعُرف المسجد الجامع الذي يؤم فيه الخليفة المصلين أو مَنْ ينوب عنه، وصار مسجد السلطة الرسمي، ومن ثَمَّ وجد به المنبر لإلقاء الخطبة بخلاف المساجد الأخرى. وبذلك دخل المسجد نطاق الصراع السياسي بالدعاء للخليفة في خطبة الجمعة. وكان أول مَنْ دعا على المنبر للخليفة عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مسجد البصرة قائلاً: "اللهم انصر عليًا على الحق" وتبعه الناس بعد ذلك في الدعاء للخلفاء على المنابر.[٧٤]

وقد بالغ بعض الأمويين في زخرفة المساجد، كما فعل عبد الملك بن مروان في المسجد الأموي بدمشق، حتى اتُهم من معارضيه بالتبذير. وقد روى المؤرخون أن وفدًا من الروم زار مسجد دمشق، ولما مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة، رفعوا رؤوسهم إلى المسجد، وقد نكس رئيس الوفد رأسه واصفر وجهه فسأله من معه فقال: "إنا معشر أهل روما... تقول: "إن بقاء العرب قليل... فلما رأيت ما بنو علمت أن لهم مدة لابد أن يبلغوها".[٧٥] وهذه الحادثة تؤكد مكانة المسجد كأداة دعائية مؤثرة، وتعكس ما للعمران من تأثير دعائي دعوي جعلت الروم يدركون أن صورة العربي البدوي الجلف قد ولت وأنهم يصارعون أمة متحضرة بلغت شأنًا كبيرًا في ميدان العمران.

ومن الأمثلة التي تبين بوضوح مدى استغلال المسجد كوسيلة دعائية بارزة في عهد بني أمية اهتمام عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة، واستنادًا إلى رواية اليعقوبي أن سبب بناء قبة الصخرة كان محاولة من عبد الملك بن مروان لإبقاء أهل الشام في بلادهم، لأن عبد الله بن الزبير كان يأخذ منهم البيعة إذا حجوا إلى بيت الله الحرام، مستغلاً الموسم للنيل من الأمويين. وعندما ضجر الناس وقالوا... تمنعنا من الحج إلى بيت الله الحرام وهو فرض؟ روج عبد الملك بن مروان حديثًا للنبي (ﷺ) على لسان ابن شهاب الزهري مفاده "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد... المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس".[٧٦]... وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام.

وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله (ﷺ) وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم مقام الكعبة.[٧٧] إلا أن بعض المؤرخين يشككون في صحة هذه الرواية بحكم الانتماء الشيعي لليعقوبي وبغضه للأمويين. وقد أكد هذا السبب المؤرخ المقدسي المتوفى سنة ٩٨٥م حينما وضحه أثناء مناقشته مع عمه (البناء) بخصوص العمارة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وولده الوليد، حيث يقول في ذلك ما نصه على لسان عمه: "ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة (القيامة) وهيئتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى".[٧٨] وأيًا كان السبب صرف الحجاج عن الكعبة أو مضاهاة البيزنطيين في أبنيتهم، فإننا نلحظ الجانب الدعائي في هذا العمل المعماري الفذ.

سادسًا: اللواء

لغة: قال ابن منظور في مادة "لوى" أن اللواء والعلم والجمع ألوية وألويات، جمع الجمع قال جمع النواصي ألوياتها، وفي الحديث لواء الحمد بيدي يوم القيامة. اللواء الراية لا يمسكها إلا صاحب الجيش،[٧٩] والألوية كما عرفها الرازي في مختار الصحاح هي: "المطارد وهي دون الأعلام والبنود".[٨٠] وفي الحديث لكل غادر لواء يوم القيامة، أي العلامة يشهر بها في الناس لأن موضوع اللواء شهرة مكان الرئيس. أما "ابن سيده" فقد ذكر بأن الغاية: الراية وقد غييت غاية، عملتها، وأغييتها، نصبتها، والعلم الراية والجمع أعلام، وكذلك العقاب وهي أنثى وقيل هي العلم الضخم،[٨١] إلى أن الأعلام هي الرايات التي خلف وفوق السلطان.[٨٢]

ويحدثنا أبو حيان عن اللواء في قصة الهجرة ولعله أول لواء يرفع في الإسلام، يقول: "لما هاجر رسول الله (ﷺ) ولحق به بريدة بعد أن أسلم قال النبي (ﷺ) لا يدخل المدينة إلا ومعه لواء قال فجعل بريدة عمامته ثم شترها في رمح، ثم مشى بين يديه، ثم دخل المدينة لواء".[٨٣] وظل اللواء ملازمًا لحروب المسلمين مقترنًا في نفوسهم بالجهاد، روى أحمد والترمذي عن ابن عباس (رضي الله عنه) كانت راية رسول الله (ﷺ) سوداء ولواؤه أيضًا. وكان الخلفاء يعقدون الألوية للعمال إذا ولوهم الأمصار وخاصةً في بداية العصر الإسلامي، حيث كان العامل يجمع إلى اختصاصه قيادة الجيش.[٨٤]

وللعلم دلالة سياسية وإعلامية كبيرة، فبقدر المساحة التي يرفرف عليها علم الدولة بقدر ما يكون اتساعها ونفوذها، كما أن كثرة الرايات في بلد واحد دلالة على الانقسام والتمزق. وقد حدث هذا للدولة الأموية في بداية عهد عبد الملك بن مروان. ففي سنة ٦٨هـ أتت عرفات أربعة ألوية: ابن الحنفية في أصحابه في لواء، وابن الزبير في لواء، ونجدة الحروري في لواء، وبني أمية في لواء،[٨٥] مما دل على عدم خضوع الأمة لسلطان واحد. أما استخدام الألوية كوسيلة من وسائل الدعاية في العهد الأموي، فقد برع في ذلك

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الخوارج والعباسيين الذين جمعوا بين الألوية السوداء التي كانت رمزًا لهم وأسلوب النبوءات لإثارة عواطف الجماهير ضد دولة بني أمية.

ويرجع أسباب اشتهار الألوية السوداء في التاريخ الإسلامي إلى: (الحداد على الشهداء الذين ذهبوا ضحية النظام الأموي، والتشبه بلواء رسول الله (ﷺ). وقد اتفقت جميع المصادر على أنه كان أسودًا، مما يعطي انطباعًا بأن هناك علاقة بين الألوية السوداء ومحاربة الضلالة، ويعني أيضًا اتفاق الخوارج والعباسيين على مواجهة الاستبداد الأموي.[٨٦] ويرى الطبري أن السر الحقيقي في اتخاذ اللواء الأسود يرجع إلى بيت من شعر للكميت جاء في قصيدة وجهها إلى الحارث بن سريج قال فيه: (ألا فارفعوا الرايات سودًا... على أهل الضلالة والتعدي). وعندما دخلت الحركة العباسية مرحلة المقاومة المسلحة أخذت الرايات السود التي أطلق عليها السحاب والظل تنتقل من مَصر إلى مَصر.[٨٧] ومما يؤكد تأثير الرايات السوداء وما تعلق بها من نبوءات على نفوس الجماهير، ما ذكره ابن العمراني: أنه في يوم الزاب لما التقى عبد الله بن علي ومروان بن محمد، نظر مروان إلى الرايات التي سيسلمونها إلى عيسى بن مريم.[٨٨] ونلاحظ؛ أن المسلمين بطوائفهم المختلفة قد سبقوا هتلر في استخدام الألوية والرايات والأعلام كوسائل دعائية للتأثير على الجماهير بإثارة عواطفهم وتهيجها وخاصةً في ساحات القتال، وقد يكون هتلر استوحى فكرة الأعلام والرايات من التاريخ الإسلامي.

المبحث الثالث: أساليب الدعاية في العهد الأموي

ترتبط الأساليب الدعائية بالأهداف المتوخاة فكل هدف لابد له من أسلوب يناسبه لتحقيقه. وإذا كان هدف الأمويين المحافظة على السلطة من خلال كسب أنصار جدد، والإشادة بالإنجازات الأموية، وتدعيم الثقة بهم، ونشر الثقافة والمعرفة، فإن هدف المعارضة هو الوصول إلى السلطة ومن ثَمَّ الإطاحة بالأمويين، ولتحقيق هذه الأهداف المتباينة بين المعارضة والسلطة، استخدم كل فريق الأساليب الدعائية المتاحة خلال ذلك العصر، وتفننوا في ابتكار العديد من الأساليب التي تمنحهم فضل السبق في ممارسة الدعاية. ويمكن الإشارة إلى أهم أساليب الدعاية في العهد الأموي من خلال تقسيمها إلى قسمين: ونتناولها في المطلبن التاليين: (الأساليب الرئيسة - الأساليب الثانوية).

المطلب الأول: الأساليب الرئيسة

إن دراسة تاريخ العصر الأموي يكشف عن كم هائل من الأساليب الدعائية تتركز في معظمها على النفوذ إلى العقل الباطن والتأثير اللاوعي على اهتمامات المتلقي ورغباته، ثم توجيهها وفق مصالح النخبة. ويمكن تلخيص أكثر الأساليب الدعائية شيوعًا لدعاية العهد الأموي فيما يلي:

أولاً: إحياء العصبية

التعصب اتجاه نفسي انفعالي أو حكم مسبق تجاه جماعة، أو شخص، أو موضوع دون الاستناد إلى منطق أو معرفة كافية أو حقيقة علمية.[٨٩] ويجعل التعصب الإنسان لا يرى الأشياء إلا بمنظاره، ولذلك يشوه إدراك الفرد أو الجماعة. بهذا يعتبر التعصب مشكلة حيوية في التفاعل الاجتماعي وحاجزًا يصد كل فكر جديد ويعزل أصحابه عن الجماعات الأخرى ويبعدهم عنها.[٩٠] والسمة البارزة التي اتسمت بها الدعاية في العصر الأموي هي خلق مناخ يؤدي إلى العصبية، ثم محاولة استثمار تلك العصبية لتحقيق أهداف سياسية. مع أن الإسلام هذب هذه العصبية وجعل نصيب القبيلة من الولاء أن ينتمي إليها أبنها في النسب وأن يتعاون مع أفرادها لتحقيق العدالة ونشر الخير بين أبناء الأمة.[٩١]

وإذا كان الإسلام قد عدل هذه العصبية دون إلغائها، فإن الدعاية الأموية أثارتها من جديد، وأعطتها أبعادًا وأشكالاً جديدة اعتقادًا منها بأهمية الدور الذي تؤديه في المحافظة على سلطانها وتفودها. ويعتبر شعر النقائض من أبرز الوسائل الدعائية التي استخدمها الأمويون لإذكاء روح العصبية القبلية لصرف الناس عن التفكير في السياسة والحكم.[٩٢] وبلغ من خطورة العصبية القبلية وآثارها أن ترتب عليها الوليد بن يزيد. وبروي المؤرخون أن أحد عمال الخليفة الوليد بن يزيد قتل خالد القسري، وكان من اليمنية والوليد من المضرية. وكانت العصبية بين القبيلتين على أشدها. فلما علم الوليد بمقتل خالد سر وتيقظت في نفسه العصبية المضرية وأظهر التشفي والشماتة. وقال شعرًا:

شددنا ملكنا ببني نزار ... وقومنا منهم من كان مالاً

وهذا خالد اضحى قتيلاً ... إلا منعوه أن كانوا رجالاً

ولكن المذلة ضعضعتهم ... فلم يجدوا لذلتهم مقالاً

وحركت هذه الأبيات سواكن اليمانيين واتجهوا في جموع إلى المضريين واقتتلوا قتالاً عنيفًا، حاقت فيه الهزيمة بالمضريين وتحصن الوليد بقصره ولكنهم تسلقوا إليه وقتلوه.[٩٣] وأدى تعصب الأمويين للعرب إلى معاداة الشعوب الاسلامية غير العربية لهم، مما مهد لظهور الحركة الشعوبية كتيار مواجه للعرب. تبلور بسبب سوء معاملة الأمويين لغير العرب من المسلمين، مما أذكى روح السخط والشعور بالإحباط لديهم. فأصبحوا وقودًا لعدة ثورات على الأمويين، فقاتلوا مع الخوارج واشتركوا في فتنة ابن الأشعث كما ثاروا مع يزيد بن المهلب للقضاء على الأمويين، وأخيرًا انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة.[٩٤]

ثانيًا: أسلوب التقديس والتبخيس

في ظل الصراع وفي أجواء النزاع تلجأ كل فئة إلى أسلوب التقديس لزعمائها وقادة الفكر فيها ورجالها والتبخيس لمعارضيها، لأن الرفع من منزلة القادة والزعماء هو حط من شأن المعارضين، وكذا الحط من قيمة المعارضين هو رفع من شأن الأتباع. قال حازم

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

القرطاجي: "مثول الحسن إزاء القبيح، والقبيح إزاءَ الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليًا عن الآخر؛ لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده، فلذلك كان موقع المتقابلات من النفس عجيبًا". وقد قيل قديمًا والحسن يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء.(٩٥)

وفي خضم الصراع يجتهد كل طرف في نعت أصحابه وأتباعه بأحسن النعوت، ومخالفيه ومعارضيه بأشنع وأقبح النعوت، كما قال ابن قيم الجوزية: "وأهل كل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح وأشنع ما يقدرون عليه من الألفاظ. ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ. كما قيل:

تقول هذا جنى النحل تمدحه

وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحًا وذمًا وما جاوزت وصفهما

والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى فجرده من لباس العبارة، وجرِّد قلبك عن النفرة والميل، ثم اعط النظر حقه، ناظرًا بعين الإنصاف. ولا تكن ممَنْ ينظر في مقالة أصحابه فيحسن الظن بهم ومقالة مخالفيه فيسيء الظن بهم، فإن الناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ.(٩٦) وتلجأ الدعاية إلى الإعلاء من شأن القادة والزعماء، وأنهم أقدر من غيرهم على التفكير البناء وسياسة الناس، وأعرفهم بمصالح العباد، وأن على الآخرين الانصياع والطاعة. وتكرار التأكيد على علو المنزلة ورفعة المكانة كقاعدة عامة ينبثق من شك لم يتبينوه تبينًا تامًا في أن الآخرين في الواقع أفضل تأهيلاً وخاصةً في نفس تلك المجالات التي يريدون تأكيد الزعم بالتفوق فيها.(٩٧) وسنتناول طرفي هذا الأسلوب في النقطتين التاليتين:

١- تضخيم القادة والزعماء:

وتضخيم الزعماء واضح في العهد الأموي ومن أشكال هذا العمل الدعائي تلفيق الأحاديث في فضل بني أمية والأقوال المأثورة والشعر. من ذلك ما قاله الشعبي في عبد الملك بن مروان. ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثًا إلا زادني فيه ولا شعرًا إلا زادني فيه ومن ذلك قول جرير في الوليد:

إن الوليد هو الإمام المصطفى

بالنصر فاز لواؤه والمغنم

ورث الأعنة والأسنة وانتمى

واستعارت الدعاية الأموية فكرة الشيعة عن المهدي المنتظر وألصقتها بخلفاء بني أمية، يقول جرير في هشام بن عبد الملك:

إلى المهدي تفزع أن فزعنا

وتستسقى بغرته الغماما

وحبل الله تعصمكم قواه

فلا تخش لعروته انفصاما

رضينا بالخليفة حيث كنا

له تبعا وكان لنا إماما(٩٨)

ومما استعملته الدعاية الأموية لتضخيم زعمائها التركيز على بعض الأحاديث والنبوات التي وردت في معاوية وأضافوا إليها بعض الإضافات التي تخدم أغراضهم الدعائية، فقد وردت أحاديث كثيرة في فضل معاوية، من ذلك أن النبي (ﷺ) قال لمعاوية: "اللهم اجعله هاديًا مهديًا وأهد به".(٩٩) ومنها قوله أيضًا: "اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب".(١٠٠) وقال معاوية ما زلت اطمع في الخلافة منذ قال رسول الله (ﷺ) "يا معاوية اذا ملكت فاحسن".(١٠١)

أما النبوات، فمنها ما رواه كعب الأحبار "لن يملك هذه الأمة ما ملك معاوية"،(١٠٢) قال الذهبي: توفي كعب قبل أن يستحلف معاوية (رضي الله عنه) وصدق كعب فيما نقله. فإن معاوية بقي خليفة عشرين سنة لا ينازعه أحد الأمر بخلاف غيره ممَنْ جاء بعده، فإنه كان لهم مخالف وخرج عن أمرهم بعض الممالك.(١٠٣)

وقامت الأحزاب الأخرى بدعاية مشابهة، فالشيعة طغى عليها طابع التفخيم والتعظيم والمبالغة في الاحترام لـ آل البيت إلى حد التجاوز الذي يتنافى وروح الإسلام ومبادئه، ومن ذلك قول عبد الله بن سبأ لأمير المؤمنين علي أنت الإله حقًا فاحرق من أتباعه خلقًا كثيرًا، أما هو فقد استشار فيه عبد الله بن عباس فأشار عليه بعدم إحراقه مخافة توسع الفتنة وانتشارها. كما بالغ بعض فرقهم في حب آل البيت إلى درجة أنهم اعتبروا أن الحكمة التي أفاضها الله على رسوله (ﷺ) لم تزل بموته وإنما ورثها عنه أعقابه. ولذلك عزوا إليهم علمًا لدنيا واعتقدوا بعصمتهم.(١٠٤) ولعل قراءة متأنية لدواوين شعراء الشيعة تكشف عن استعمال الشيعة على الخصوص لأسلوب التعظيم والتفخيم. بل أن الواقع الذي نعيشه لخير دليل على ما نقول.

أما الخوارج، فقد تركزت دعايتهم على أعضاء حزبهم عامة دون أفراد بعينهم، وكانوا يعظمونهم بطاعتهم لله وتقواهم وكثرة الصلاة والتعبد قال الطرماح:

لله در الشراة أنهم

إذا الكرى مال بالطلا ارقوا

يرجعون بالحنين آونة

في بيوإن معلامة رفيع بالمسلمقوا

خوفًا تبيت القلوب واجفة

نكاد عنها الصدور تنغلق(١٠٥)

وهكذا؛ يتضح مدى حرص الدعاية في العهد الأموي على رسم صورة الزعماء والقادة في نفوس الجماهير بكيفية تضفي على هؤلاء الزعماء الخشية والرهبة في نفوس الأتباع سالكة إلى ذلك كل

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



المسالك الاتصالية مستغلة كل القنوات الإعلامية المتاحة في ذلك العصر.

٢- تجريح الخصوم:

وبقدر ما تحرص الدعاية على إعلاء شان أصحابها تعمل على تجريح الخصوم والمعارضين ونعتهم بأقبح النعوت، ومن ثَمَّ لجات الدعاية في العهد الأموي إلى الانتقاص من الخصوم، وخاصةً الشخصيات القيادية التي ارتبطت بها التيارات السياسية والفكرية آنذاك للحد من تأثيرها على الأتباع. وأسلوب التجريح من الأساليب الدعائية المغرضة التي لا تلجأ إليها الدعاية إلا إذا غلب عليها الطابع العاطفي، ويحركها الحقد والبغض ضد من تتناولهم الدعاية.

وقد استخدمت الاتجاهات المتصارعة في العهد الأموي هذا الأسلوب على نطاق واسع. فالأمويون ما أن استتب لهم الأمر حتى اصدروا أمرًا بسب علي (رضي الله عنه) على منابر الأمصار، ولم يتوقفوا عن ذلك إلا بعد مجيء عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه)[١٠٦] الذي جعل بدلاً منها قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).[١٠٧] ولا شك أن هذا الانتقاص المبالغ فيه من الإمام علي (كرم الله وجهه) لم يزد إلا تأجيجًا لأتباعه للرد ذلك بأساليب أبشع واقذر، فقد عقد الشيعة من جهتهم الاجتماعات لسب معاوية (رضي الله عنه) كما حصل مع حجر بن عدي وأصحابه الذين قبض عليهم زياد بن أبيه، وأرسل بهم إلى معاوية (رضي الله عنه) فقتل حجرا وسبعة من أصحابه، وعفى عن مجموعة أخرى بعد أن تبرأوا من الإمام علي (كرم الله وجهه).[١٠٨]

كما وجهت الدعاية الأموية سهامها للأنصار واتهمتهم بأنهم كاليهود، أهل زرع وفلاحة، وليسوا أهل مجد ولا مكارم، وأنهم جبناء،[١٠٩] يقول الأخطل شاعرهم في ذلك:

لعن الإله من اليهود عصابة
بالجزع بين صليصل وصرار
قوم إذا هدر العصير رايتهم
حمرا عيونهم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها
وخذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم
أولاد كل مقبح أكار
ذهبت قريش بالمكارم كلها
واللؤم تحت عمائم الأنصار

وقد استخدم الأمويون أسلوب تجاهل الخصم، يروي صاحب الأغاني أن هشام عبد الملك كان يطوف بالبيت فأراد أن يستلم الحجر فلم يستطع فنصب له منبر جلس عليه، وبينما هو كذلك أقبل "علي بن الحسين" فطاف فتنحى له الناس هيبة إجلالاً، فغاظ ذلك هشام فقال رجل من أهل الشام مَنْ هذا الذي أكرمه الناس وعظموه؟ فقال هشام لا أعرفه لئلا يعظم في نفوس أهل الشام. فقال الفرزدق وكان حاضرًا:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا النقي التقي الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم[١١٠]

وقد استخدم المعارضون أسلوب التجريح في دعايتهم المضادة لبني أمية، ووجدوا في حياة البذخ والترف التي عاشها بعض خلفاء بني أمية مادة دسمة لدعايتهم، فاتهموهم بالفسوق والمجون وعدم الحرص على مصالح المسلمين وايقاظ الفتن. قال شاعرهم:

قل لبني أمية حيث حلوا
وإن خفت المهند والقطيعا
ألا أف لدهر كانت فيه
هدانا طائعا لكم مطيعا
أجاع الله من أشبعتموه
واشبع من بجوركم أجيعا
ولعن فذ امته جهارا
إذا ساس البرية والخليعا[١١١]

ومما روى المسعودي، أن ابن الزبير امتنع عن بيعة يزيد وكان يسميه السكير وأخرج عامله عن مكة، وكتب إلى أهل المدينة ينتقصه ويذكر فسوقه ويدعوهم إلى مناصرته على حربه وإخراج عامله عنهم.[١١٢] ومن ذلك أيضًا؛ أن عبد الملك أسمته دعاية المعارضة بأبي ليلى كناية على عجزه على القيام بالأمر، وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز. وفيه قال الشاعر:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها
والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا[١١٣]

وفي إشارة إلى بخل عبد الملك بن مروان سمته الدعاية المضادة بـ "رشح الحجر" وهي نفس الصفة التي نعت بها هو ابن الزبير.[١١٤]

ومن خلال هذه النماذج التاريخية وغيرها كثير في كتب التاريخ، يتبين لنا مدى توسع الدعاية في هذا العصر في استخدام هذا الأسلوب، ولم تتورع في سبيل تحقيق أهدافها عن الصاق ابشع التهم بالخصوم، غير مبالية بما ينجم عنها من أثار مدمرة، وغير مراعية لأحكام الشرع وآداب الإسلام.

ثالثًا: أسلوب ادعاء الإجماع

تعمل الدعاية على استخدام الغريزة الاجتماعية لدى الإنسان، فأغلب الناس ينفرون من العزلة الاجتماعية والفكرية، وتخشى

فقدان حب ومساندة الآخرين، لهذا يميل الإنسان للسير خلف القطيع أو تقليد الآخرين، فإذا تحدث رجل الدعاية كممثل للجمهور معتبرًا نفسه واحدًا منهم زاد تأثيره عليهم.(١١٥) وتعمل الدعاية على تعزيز الإجماع القائم أو خلق هذا الإجماع، وتستخدم لذلك وسائل كثيرة كالمظاهرات، والاستقبالات، والمواكب الاستعراضية، والاجتماعات الكبيرة، والأعلام والرايات، والسفارات والزي الموحد، وكل ذلك لإثارة مشاعر الإجماع وإشاعة جو القوة في الجماهير. وتعتبر القدوة أفضل الوسائل لإشاعة الإجماع وإيجاده، فليس هناك أعظم من قوة هالة صاحب الرسالة، وإيمان الرجل الغيور، ومكانة البطل. وعلى مر التاريخ كان أغلبية الذين يدينون بمذهب يعود الفضل في انقيادهم إلى القدوة الحسنة أو بمعنى آخر عدوى المثل الحي، فبفضل الاتصال والجذب الشخصي تنتشر المعتقدات السياسية الكبرى.(١١٦)

وقد استغلت الدعاية خلال العهد الأموي هذا الأسلوب، ونجحت في استخدامه، بل ابتكرت أشكالاً تساعد على تحقيق الاستفادة منه، ومن ذلك نظام الوفود الذي أشرنا إليه سابقًا. كما استحدث معاوية (رضي الله عنه) ما سُمي بنظام أهل الجماعة، وقد استثمره في أخذ البيعة لنفسه، وقد استمده من اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة لعد وفاة الرسول (ﷺ). وكان الغرض من ذلك إضفاء الشرعية على بني أمية حتى يتسنى لهم الاستلاء على الخلافة والإبقاء عليها في أهل بيته. وحرص معاوية (رضي الله عنه) على إشاعة الشعور بالإجماع لدى المسلمين حتى سمى العام الذي تنازل له فه الحسن بن علي (رضي الله عنه) عن الخلافة بعام الجماعة، كما اطلق عبدالملك نفس التسمية على السنة التي اجتمعت له السيطرة على الدولة الإسلامية كافة وهي سنة ٧٧هـ.(١١٧)

وقدساهم شعراء الدعاية في تدعيم اجتماع كلمة المسلمين على بني أمية والطاعة والولاء لهم وقد قال عدي بن الرقاع في الوليد:

والمستمر به أمر الجميع فما

يغتره بعد توكيد له غررا

كما أعلن شعراء المعارضة ولائهم لقادتهم قال السيد الحميري:

ثم الولاء الذي أرجو النجاة به

يوم القيامة للهادي أبي الحسن(١١٨)

ويعتبر الأمويون أكثر فهمًا من الأحزاب الأخرى لأسلوب ادعاء الإجماع ووظفوه أحسن توظيف لإضفاء الشرعية على حكمهم. وإدراكًا لأهمية النخبة في إشاعة هذا الإجماع بين الناس بحكم مالهم من تأثير عليهم، لذلك لم يقصروا في سبيل استخدامه وإن تطلب الأمر اللجوء إلى القوة في بعض الأحيان للإيحاء بالإجماع كما حصل في أخذ البيعة ليزيد.

رابعًا: أسلوب الأعمال الرمزية

يلعب العمل الرمزي مهما قل حجمه وتضاءل مردوده تأثيرًا لا يقل، وقد يفوق تأثير الكلمات في الإقناع، وخاصةً في الأوقات التي يكون فيها العمل أبلغ من الكلام. وتاريخ الدعاية يكشف أنه لا يمكن الفصل في العمل الدعائي بين الكلمة والفعل فهما وجهان لعملة واحدة، والاقتصار على أحدهما دون الآخر يضعف الدعاية ويفشلها.

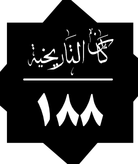
وقد شهد العهد الأموي صورًا من الدعاية العملية الرمزية، وقد استخدمتها جميع الاتجاهات المتصارعة. فعبد الله بن الزبير ورغبة منه في اجتذاب الحجازيين لم يجد أفضل من بناء الكعبة كعمل دعائي رمزي يتقرب به إلى قلوب الناس ويستميلهم إليه. ولذلك سعى الأمويون إلى محو كل أثر له على الكعبة. وما الإنجازات العديدة التي انجزها الأمويون كتعريب الدواوين والنقود والطراز وبناء المساجد والمنشئات العامة والحرص على استمرار الفتوحات، إلا أعمال دعائية رمزية تعكس قوة الدولة وهيبتها في الداخل والخارج، من وجهة نظر الدعاية. كما أن تلك الإنجازات محل نقد وانتقاص من طرف المعارضة للتقليل من شأنها وشأن القائمين بها من وجهة نظر الدعاية المضادة.

ومن الأعمال الرمزية ذات الدلالة الدعائية على قوة الدولة الأموية وسلطانها في أمام خصومها ف الداخل وأعدائها في الخارج نظام الصوائف والشواتي وهو عبارة عن غزوتين دائمتين سنويًا إلى بلاد الروم صيفا وشتاء وكان هدفهما الحفاظ على الأراضي التي فتحها المسلمون، وتشتيت جهود الروم واستنزاف قواهم ،والاستيلاء على أراض جديدة.(١١٩) ونظام الصوائف والشواتي لا يعدوان يكون دعاية لإرهاب الأعداء في الخارج والخصوم في الداخل والتأكيد على قوة الدولة وقدرتها على مواجهتهم متى أرادت.

خامسًا: أسلوب فرق تسد

إن التماسك الاجتماعي والترابط الشعبي للجهة المعارضة يشكل مشكلة جوهرية للدعاية، ومن ثَمَّ يحرص القائمون على الدعاية على عدم مواجهة الخصوم أو الأعداء مجتمعين. فتعمل على إيجاد ثغرات يمكن أن تتسلل من خلالها إلى الجهة المعادية، وتستخدم في ذلك وسائل عديدة كالدس والوقيعة بين أفراد الجماعة الواحدة، والإشاعات وتحويل الانتباه والاستمالة بالترغيب والترهيب، لتصل في نهاية المطاف إلى زعزعة التماسك الاجتماعي للجهة المستهدَفة، وقد يتم ذلك من خلال المخبرين الدبن تبثهم وسط الجهات المستهدَفة، وبذلك تتحول الجماعات إلى فئات متصارعة فيما بينها. كما حدث أثناء الفتنة الكبرى وما أعقبها من أحداث وانقسامات في المجتمع الإسلامي كانت شرارتها الأولى من تدبير عبد الله بن سبأ، الذي استثمر الأحداث لتفتيت وحدة المسلمين وتمزيق شملهم كم تبين ذلك كتب التاريخ.(١٢٠)

ولما وصل الأمر إلى بني أمية بالغوا في إذكاء العصبيات والقبليات وساهموا في ظهور الحركة الشعوبية لتحويل المجتمع الإسلامي إلى جماعات متناحرة تنشغل بخلافاتها عن المطالبة بالخلافة، وتاريخ الفترة الأموية حافل بالأمثلة الدالة على ذلك. دخل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) على معاوية (رضي الله عنه) وكان في حضرته عبد



الله بن الزبير فرحب معاوية بالحسين وأجلسه معه على سريره، ثم أشار له على ابن الزبير وقال: ترى هذا القاعد؟ أنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف. فقال ابن الزبير لمعاوية. قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله (ﷺ). ولكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك.(١٢١)

وقد سبق ابن الزبير معاوية في أسلوب الوقيعة حيث كان يرى في عهد على (رضي الله عنه) أحقيته في الخلافة ولتحقيق غرضه أوقع بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما)، وعرف على بذلك فخاطب أباه الزبير (رضي الله عنه) في شانه وقال: "لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا".(١٢٢) وفعل ذلك مروان بن الحكم لما سار إلى طلحة والزبير قبيل معركة صفين، وقال لهما على إيكما أسلم بالإمارة وأذن بالصلاة فأرسلت عائشة (رضي الله عنها) رسولاً يقول له فليصل بالناس ابن أختي: تريد عبد الله بن الزبير.(١٢٣)

كما أشعل المغيرة بن شعبة والي العراق الفتنة بين الشيعة والخوارج لمنح فرصة لمعاوية (رضي الله عنه) هدنة يستغلها في تثبيت ملكه. وقد ابطل زياد العادة العربية القديمة أن تؤلف كل قبيلة وحدة عسكرية خاصة بها، وجعل جند البصرة أقسام أربعة يضم كل قسم قبائل متفرقة ثم ولى على قسم قائدًا مواليًا لبني أمية.(١٢٤)

ولا يخفى علينا ما لهذا الأسلوب الدعائي من تأثير في تمزيق الصف، وتشتيت الجماعة، وتفريق الأحباب، وتنفير الأصحاب، ولذلك ركز عليه أعداؤنا قديمًا وحديثًا، وما التفرقة الطائفية، والعرقية، والدينية، والقبلية، والإسلام المعتدل، والمتشدد، والمتساهل، إلا صور وأشكال من هذا الأسلوب الخطير في ميدان الدعاية.

سادسًا: الأسلوب السري

في كثير من الأحيان يعجز رجل الدعاية عن الإفصاح عن رسالته الدعائية بسبب الخوف من السلطة أو الجمهور المستقبل للرسالة لإعلامية، خاصةً إذا تعارض مضمون الدعاية مع قيمه وأفكاره، فيعتمد رجل الدعاية على أسلوب السرية لنشر أفكار معينة أو تحقيق أهداف يصعب تحقيقها مباشرة. ويعرف "ملي" الدعاية بأنها: "ترويج مستتر أو خفي لرسائل تخفى على الجمهور المستهدف مصدرها وأفكارها والأساليب التي تستخدمها والمضمون الذي تروج له والنتائج المترتبة عليها. ويصبح السلوك أو النشاط دعاية إذا تم إخفاء عامل أو عاملين من هذه العوامل الخمسة.(١٢٥) وتختار الدعاية بين الأسلوبين العلني والسري. فالدعاية المكشوفة تستخدم حينما تساعد على تعلم الاتجاه الجديد أو عندما يكون الإخفاء غير ممكن لأسباب عملية. أما الدعاية السرية فيلجأ إليها عند الرغبة في إقناع الجمهور بالكذب والافتراءات المزيفة على أنها حقيقة.

وفي التاريخ الإسلامي تمثل أسلوب العملاء السريين في الحركات السرية التي استهدفت التأثير على عقول الناس قصد تحويل معتقداتهم إلى معتقدات جديدة. ففي مبادئ الازادمردية،(١٢٦) وهم شيعة نجد مخططًا ثوريًا يستهدف هدم وسحق جميع مبادئ الإسلام عن طريق تزييف الأحاديث ونشر مبادئ الإلحاد والإباحية بين العامة. واستعمل عبدالله بن ميمون القداح مذهب الثنوية.(١٢٧) أما دعاته فكانوا يظهرون في أثواب مختلفة ويحدثون كل طبقة باللغة التي تروقها، وأخذوا يسيطرون على الجميع بأعمال الشعوذة ويثيرون شغف الناس بالألغاز والأحاجي، ويتسترون أمام المؤمنين بقناع الزهد والفضيلة. وقد أدت هذه الوسائل التي كانت تهدف إلى السيطرة على أذهان الناس إلى أنهم استغلوا أسوأ استغلال في تحقيق غاية لا يعلمها سوى قليل من الدعاة.

ظهرت الحركة الإسماعيلية وأثرت على عقول البشر بطريقة الحشاشين،(١٢٨) وقد حشدت البسطاء والدهماء من العامة باسم الدين لتحقيق أعراض سياسية. واتخذت الاغتيال المنظم أسلوبًا في محاربة خصومها، ومنظم هذه الحركة وواضع برنامجها هو الحسن بن علي المعروف بالصباح.(١٢٩) ومن الأمثلة التي تجسد الأسلوب السري في الدعاية في العهد الأموي أسلوب العباسيين بعد مقتل الحسين، والذي يرجع إليه الفضل في قيام الدولة العباسية. ومن حسن ساستهم أنهم لم يكشفوا أهدافهم وادعوا أنهم يريدون القضاء على الدولة الأموية ولم يظهر منهم ما يشعر أنهم يطلبون الخلافة لأنفسهم. فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل كانت تؤخذ لشخص معين من آل البيت رمز إليه بالرضا من آل محمد.(١٣٠)

وقد بزغت هذه الدعوة في الكوفة ثم انتقلت إلى خراسان، حيث الوالي من الفرس الذين آثارهم تعصب الدولة الأموية للعرب وكرهها للموالي، فتواصوا فيما بينهم على قلب نظام الحكم العربي. وكان أكثر الموالي من الشيعة الذين عرفوا بحب آل البيت. وكانوا وهم يدعون للرضا من آل البيت يعتقدون أنهم أبناء علي. وأما العباسيون فيعنون بآل البيت أبناء العباس عم النبي (ﷺ). وبقي كل فريق يضمر في نفسه ما يعنيه. وسارت الدعوة في طريقها السري حتى نهاية المطاف، وعندها أظهر العباسيون أنهم كانوا يعنون أنفسهم بآل البيت.(١٣١)

وهكذا؛ استطاعت الدعاية العباسية عن طريق إخفاء خطتها وعدم الإفصاح عن غايتها الحقيقية الاستفادة من جهد الدعاة السريين الذين كان لهم الدور الأكبر في إقامة دولة بني العباس وإسقاط دولة بني أمية.

المطلب الثاني: الأساليب الثانوية

بالإضافة إلى الأساليب الأساسية السالفة الذكر، فقد لجأت الاتجاهات السياسية المتصارعة في العهد الأموي إلى أساليب ثانوية أو عوامل مساعدة على تنفيذ سياساتها الدعائية، ويمكن إبراز هذه الأساليب الثانوية فيما يلي:

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



أولاً: أسلوب جس النبض

قد يحتاج رجل الدعاية إلى معرفة موقف الجمهور من موضوع ما ومدى تجاوبه قبل الإقدام عليه، فيعمد إلى نشر أفكار حول الموضوع ويتربص فترة كافية لحدوث الاستجابة، ثم يستطلع اتجاهات الرأي العام وعلى ضوئها يتخذ القرار. وتبرز أهمية هذا الأسلوب في اللحظات الحرجة، والأوقات الصعبة وعندما تريد القيادة إحداث تغيرات جوهرية في النظام الاجتماعي. ولذلك يندر استخدام هذا الأسلوب في العهد الأموي. وسنورد مثالين يعكسان فهم وتطبيق هذا الأسلوب.

المثال الأول: يتصل بولاية العهد ليزيد بن معاوية وهي فكرة كنت غريبة على المسلمين لأنها تعني التحول من عن الخلافة إلى الملك. ولذلك بذل معاوية (رضي الله عنه) جهدًا كبيرًا على مدى سنوات عدة يمهد لهذه الفكرة، واستخدم أساليب عديدة لذلك منها أسلوب جس النبض للوقوف على اتجاهات الزعماء والقادة وكيف سيكون رد فعلهم؟ حتى يعد العدة لذلك. فبدأ بالكوفة، حيث تعهد له عامله "المغيرة بن شعبة" بتهيئة الأذهان لذلك وتحبيبهم في هذا الأمر. أما زياد عامله في البصرة فنصحه أن يتريث في هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة في يزيد، وقال يزيد صاحب تهاون مع ما قد أولع به من الصيد. فقبل معاوية رأي زياد.[١٣٢] ولتغيير وجهة نظر الناس إلى يزيد، عَمد معاوية إلى تأميره على الجيش الذي جهز لفتح القسطنطينية، وإذا كان المسلمون لم يفتحوا القسطنطينية لمتانة أسوارها، فإن معاوية حقق هدفه حيت أتاحت المعركة احتكاك يزيد بكبار الصحابة الذين شاركوا في تلك المعركة، والتعرف عليهم عن قرب ومعرفة خصومه ومناوئيه.[١٣٣]

ومن خلال هذه الأحداث؛ يتضح لنا أسلوب معاوية (رضي الله عنه) في معالجة مشكلة ولاية العهد، وكيف كانت ردود أفعاله في كل مرحلة متوقفة على نتائج سبر أراء قادة الرأي العام، مستعملاً أسلوب جس النبض الذي كان مولعًا به، ولذلك لم يفاجئ المسلمين بهذا التحول الكبير وتدرج معهم حتى استقامت له الأمور باستثناء قلة قليلة أبت الرضوخ، فسلك معهم أسلوب القوة والحيلة، وتركهم للزمن الذي كان كفيلاً بمعالجة أمرهم.

أما **المثال الثاني**: الذي يجسد أسلوب جس النبض فخاص بالحسن بن علي (رضي الله عنهما). وقد استخدم هذا الأسلوب الدعائي للوقوف على اتجاهات شيعة العراق نحوه، لما أرسلوا اليه يستقدمونه ليبايعوه. وكتبوا إليه نحو (١٥٠) صحيفة. لكن الحسن تريث حتى يستوثق لنفسه، لذلك أرسل إليهم مسلم بن عقيل لاستطلاع رأي الناس وليعجل إليه الأمر. فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها يومئذ النعمان بن بشير الأنصاري، فأقبلت الشيعة تختلف إليه، فأرسل إلى الحسن، فعزله يزيد، وولى مكانه عبيد الله بن زياد على الكوفة، فمال إلى العنف وتعقب مسلم وقتله، وكان الحسين قد خرج من مكة بأهله،[١٣٤] وتوالت الأحداث كما هو معروف في كتب التاريخ.

والمهم من هذا أن الحسن بن علي (رضي الله عنهما) لم يستجب لرسائل الشيعة مباشرةً، وإنما استوثق لنفسه أولاً، فارسل يستطلع الأمر على الأرض ويتأكد من تأييدهم الفعلي له، وعلى ضوء ذلك اتخذ قرار الخروج من مكة ومحاربة يزيد، ولكن تلك الرغبة الشيعية لم تلبث أن تغيرت بمجرد تولي عبيد الله بن زياد الكوفة وانتهاجه سياسة العنف، وانصرفوا عن تأييد الحسين وكان لسان حالهم ما قاله الفرزدق للحسين لما التقى به في الطريق ناجيًا من عبيد الله بن زياد: "أَمَّا الْقُلُوبُ فَمَعَكَ، وَأَمَّا السُّيُوفُ فَمَعَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَالنَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قال أَرَاكَ إِلَّا صَدَقْتَ، النَّاسُ عَبِيدُ الْمَالِ، وَالدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا لِلِابْتِلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُون".[١٣٥]

ثانيًا: أسلوب إثارة الكراهية والسخط

تعتمد الدعاية على الاتجاهات الناقمة والانقسامات السائدة داخل المجتمع في إثارة روح الكراهية، ومشاعر السخط كأساس لتهيئة مناخ ملائم لانتشار الشائعات وتقبلها. وقد لجا الأمويون إلى هذ الأسلوب منذ البداية، فقد أوغر معاوية (رضي الله عنه) صدور جنده على الإمام علي "كرم الله وجهه" بادعاء إيواء علي لقتلة عثمان (رضي الله عنه)، كما أنه بعرضه قميص عثمان ملوثًا بالدماء ولأصابع زوجته المقطوعة على الناس بمسجد دمشق، ساعد على إذكاء مشاعر الكراهية لعلي وجنوده.[١٣٦] وساعد على إذكاء روح الكراهية ضد الأمويين انصراف بعض خلفائهم إلى حياة الترف والبذخ. فقد اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو،[١٣٧] وكان صاحب طرب، وجوارح، وكلاب، وفهود، ومنادمة على الشراب. أما يزيد بن عبد الملك، فقد كان صاحب لهو، وقد شغف بحبابة واشتهر بذكرها، وقال عند موتها: "فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد".[١٣٨] كما اشتهر ابنه الوليد باللهو. وكانت هذه التصرفات وغيرها مادة دسمة للدعاية لإثارة مشاعر الكراهية والسخط والعداء ضدهم.

والمتصفح لتاريخ الدولة السياسية يلحظ المقدرة الكبيرة لدى دعاة بني العباس الذين كانوا يستترون بزي التجار منعًا لإثارة الانتباه، مستفيدين من كل العناصر المستاءة من بني أمية ونجحوا في الاستفادة من الأحداث المختلفة والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إثارة مشاعر العداء للأمويين، ولم يترددوا في الاستفادة من فكرة معارضة أو أي فئة قادرة على إثارة الاضطراب ضد بني أمية قصد تفتيت القوى المحيطة بالحكم الأموي وإيجاد الأرضية المناسبة لإقامة دولتهم.

ثالثًا: أسلوب طرق الأبواب

وتعمل الدعاية كما يقول "غوبلز" على طرح الفكرة في كل مكان.[١٣٩] والدعاية لا حدود لها في أشكالها وقابليتها على التكيف وتبادل آثارها، فهي وسيلة لتحقيق هدف ما، والهدف هو قيادة

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الناس إلى الأفكار التي ترغب في أن يعتنقوها، وحتى تنجح الدعاية لابد أن يعرف رجل الدعاية ماذا يريد؟ أي لابد أن يكون هدف الدعاية واضحًا، وأن يوضع نصب عيني رجل الدعاية، ثم عليه أن يبحث عن المناهج والوسائل المناسبة التي سيستخدمها.(١٤٠) وحتى تصل الدعاية إلى هدفها وهو التأثير في الناس لابد أن تسلك كل السبل، وتستغل كل الوسائل التي تجعل أفكارها في متناول عقل، وسمع، وبصر الجماهير المستهدفة في أي مكان.

ورغم محدودية الوسائل في العهد الأموي مقارنةً بالعصر الحالي، إلا أنها استفادت من أسلوب الدعاية من الباب إلى الباب، فقد استطاعت الاتجاهات السياسية آنذاك أن تحول المجتمع بأكمله إلى دائرة نقاش وجدل وحوار حول المسائل المطروحة بفضل الوسائل الدعائية المتعددة التي جندها الأمويون وخصومهم لخدمة دعايتهم، كما بينا آنفًا في مبحث وسائل الدعاية في العهد الأموي.

رابعًا: أسلوب التفريد

من الأساليب التي تساعد على نجاح الدعاية أسلوب التفريد، ومعناه تفريد القيادة والخصم والهدف. **فتفريد القيادة**: معناه تحديد جهة واحدة هي التي تقوم بتوجيه الدعاية والتنسيق لها ورسم خططها وسياستها وضمان استمراريتها. **وتفريد الخصم**: معناه تحديد عدو واحد توجه إليه كل جوانب النقص، وكل مشاعر الكراهية والاستنكار. هذا العدو يجب أن يكون واضحًا ملموسًا حتى يركز عليه الجمهور مشاعر العداء والكراهية بشكل طبيعي. أما **تفريد الهدف**: فمعناه تحديد الهدف الأولى بالرعاية الذي تتوجه إليه كافة وسائل الدعاية وأفكارها وأساليبها المختلفة لتحقيقه، ولا شك أن التركيز على هدف واحد وأفكار محددة تخدم هذا الهدف يوفر الفرصة للتأثير على الأفراد. ويجعل الدعاية عالقة بالأذهان والنفوس زمنًا طويلاً.(١٤١)

وقد انتهج معاوية (رضي الله عنه) هذا الأسلوب، فمنذ بداية الصراع مع علي "كرم الله وجهه" كان هدف الخلافة واضحًا بل أن هذا الهدف كان في ذهنه ويعمل له منذ كان واليًا لعُمر وعثمان (رضي الله عنهما)، كما وجه خصومته وعداوته في نزاعه إلى الإمام علي، وحاول بكل الوسائل اختراق جبهته واستمالة أنصاره. وبعد وصوله إلى الخلافة حدد هدفه في كيفية جعلها وراثية. ومن الذين سلكوا دربه، عبد الملك بن مروان، فقد كان لا يفرغ جهده إلا لعدو واحد، ولذلك عندما احتدم القتال بين ابن الزبير وبين الشيعة والخوارج تركهم ولم يتعرض لهم، وذلك لإضعاف عبد الله بن الزبير الذي لم يكد يفرغ من قتال المختار حتى خرج إليه بعد أن هادن إمبراطور الروم، حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير ليغير على بلاد الشام، وقبل الدخول في حرب مع ابن الزبير أنهى عصيان عمرو بن سعيد.

خامسًا: الشعارات

الشعارات من الأساليب الدعائية التي تحدث تأثيرات آنية، وهي أداة أساسية في المجالات الدينية والسياسية منذ أقدم العصور.

وقد ارتبطت الشعارات بالحركات الشعبية والجماهيرية. والشعارات المتعلقة بالاتجاهات السياسية كشعار الحرية والمساواة والأخوة ذات أثر بالغ في التغيير السياسي والاجتماعي أو في محاولة التغيير.(١٤٢)

وقد استغلت الشعارات منذ بداية الصراع السياسي على الخلافة. ومن اهم تلك الشعارات (لا حكم الا الله) وقد ظهر هذا الشعار نتيجة رفض الخوارج للتحكيم بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما). ومن شعارات الثورة العباسية قبل وصولها إلى الحكم (المساواة بين الشعوب) (الدعوة للرضا من ال البيت) (الإصلاح السياسي والإداري). أما بعد وصولهم إلى الحكم فقد أعلنوا أنهم جاءوا للعمل بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ)، ولبسوا بردة رسول الله التي أهملها بني أمية، واهتموا بالفقهاء، وحاربوا الحركات المتطرفة كالروواندية،(١٤٣) التي اعتقدت لإمامتهم وعملت من أجل انتصارهم، كما واجهوا العلويين والخوارج والشخصيات القبلية، وغيرهم ممَنْ عاضدهم من أجل التخلص من الأمويين.

سادسًا: الشائعات

الشائعة فكرة خاصة يعمل رجل الدعاية على أن يعلم بها الناس، كما يعمل على أن ينقلها كل شخص إلى الآخرين حتى تشيع بين الجماهير جميعها.(١٤٤) وهي من أهم أساليب الدعاية. وتعد من الأسلحة الناجحة في أوقات الحروب والأزمات لإثارتها لعواطف الناس وتركها لأثر عميق في النفوس في الوقت الذي تستولي على الناس مشاعر الرعب والخوف.(١٤٥)

وقد استخدم معاوية الشائعات في حربه ضد الإمام علي "كرم الله وجهه" وركز على شخصه وحاول الانتقاص منه، ومما أشاعه عنه أنه رجل ذو دعابة، وأنه قليل الدهاء، ولا علاقة له بالحرب وفنون القتال، ولا يصلح للخلافة ولا علم له بالرجال ولا بأخلاق الرعية.(١٤٦) كما استخدمها في حروبه ضد آل البيت. من ذلك ما روجه عن انهزام جيوش الحسن أمام جند الشام، ومما أدى بأهل العراق إلى التخلي عن الحسن. مما حدا بالحسن إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية حقنا لدماء المسلمين.(١٤٧) روى الحاكم عن جبير بن نفير قال: قلت للحسن إن الناس يقولون إنك تريد الخلافة، فقال: "قد كانت جماجم العرب في يدي تحارب من حاربت ويسالمون من سالمت فتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء أمة محمد".(١٤٨)

ومن الشائعات التي روجتها المعارضة قصد الإساءة الى عبد الملك بن مروان، قال ابن أبي عائشة: افضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان وكان المصحف في حجره فأطبقه وقال: "هذا اخر العهد بك".(١٤٩) وكان لهذه الشائعات وقع كبير في نفوس الرعية إلى درجة أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية نتيجة ما أشيع عنه من المجون واللهو. أورد الواقدي بإسناد أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل قال: "والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء. إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة".(١٥٠)

ومن الشائعات ذات المغزى ما روى صاحب الأنباء، وفحواها أن عبيد الله بن زياد لما أرسل رأس الحسين بن علي (رضي الله عنهما) إلى يزيد وكان نازلاً بأنطاكية، فلما كان الرسول في الطريق وأجنه الليل عدل إلى دير فيه رهبان فبات فيه. وفي منتصف الليل قام بعض الرهبان لشأنه فرأى عمودًا من نور متصلاً من تلك المخلاة ولبن السماء، فتقدم إلى المخلاة وفتشها فوجد الرأس فيها فقال لا شك أن هذا رأس المقتول بكربلاء فمضى وأخبر بقية الرهبان. ولما حضروا ورأوا تلك الصورة أسلموا كلهم على الرأس وحولوا الدير إلى مسجد وكان عددهم سبعمائة راهب.(١٥١)

خاتِمَةٌ

إن الكثير من أبناء أمتنا الإسلامية والعربية مازال يتخوف من لفظ الدعاية وينفر منها، نتيجة الاستعمالات السيئة والسلبية لهذه المفردة من قبل الغرب، مع أن اللفظ أصيل في لغة العرب. فكلمة الدعاية من "دعا، يدعو، دعوة، ودعاية، نحو شكا يشكو شكاية"،(١٥٢) بمعنى: الاستمالة، والترغيب، والتحبيب، والحثّ، ونشر القيم والمبادئ، ولا يوحي هذا المعنى بأي مفهوم سلبي، إلا أن الاستعمال الاصطلاحي للكلمة استدعى فهمًا سيئًا، وموقفًا سلبيًا من المفردة، ورغم أن الدعاية قد تكون صادقة وخيرة وبناءة كدعاية الرسل عليهم الصلاة والسلام، إلا أن المتلقي اليوم لا يثق بها وينظر إليها باعتبارها قرينة للكذب، وأداة للسيطرة والتفريق والتشتيت، وأسلوب للتأثير على المعنويات، ووسيلة خطرة من وسائل الحرب النفسية.

ومن خلال الاستعراض التاريخي للعهد الأموي وخاصةً في ظل الصراع السياسي للأمويين مع خصومهم السياسيين، وجدنا أن المسلمين مارسوا الدعاية بأساليبها التي عرفت بها في العصر الحديث، بوسائل تتناسب وعصرهم وبيئتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية. وإذا كان المسلمون لم يطلقوا على تلك الممارسات لفظ الدعاية فهي لا تعدو أن تكون ممارسات دعائية، سواء من جهة الحزب الحاكم لتقوية مركزه في السلطة وإضعاف خصومه، أو من جهة الأحزاب المعارضة للإطاحة بالحزب الحاكم (الأمويين) والاستلاء على السلطة، وقد استعملت في ذلك كل فنون الدعاية الحديثة، وإن اختلفت وسائلهم عن وسائل العصر الحديث نظرًا للتفاوت التكنولوجي والعلمي.

ولا شك أن الدارس للتاريخ الإسلامي بمنظور إعلامي يدرك أن الدولة العباسية مثلاً قامت على أنقاض الدولة الأموية بعد أن مارست كل أساليب الدعاية مستغلة كل الوسائل المتاحة آنذاك. وقد برزت من خلال هذه الدراسة الأسس الفكرية والنفسية للدعاية في العهد الأموي، كما عرجت على أهم الأساليب الدعائية التي استخدمت خلال ذلك العهد، مختتمًا الدراسة بأهم الوسائل التي وظفها المتصارعون لتحقيق أهدافهم ومآربهم المشروعة وغير المشروعة.

الهَوامِشُ:

(١) أخرجه البخاري: في **كتاب الجهاد**، ومسلم: في **كتاب الجهاد والسير**.

(٢) المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي: **مروج الذهب**، المطبعة البهية المصرية، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ١٣٤٦هـ، ج٢/، ص٧٢.

(٣) محمد منير حجاب: **نظريات الإعلام الإسلامي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٥٣.

(٤) حامد عبد السلام زهران: **علم النفس الاجتماعي**، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٧٤.

(٥) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم، **سيرة عُمر بن عبد العزيز**، تحقيق أحمد عبيد، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢/ ١٩٥٦م، ص ٣٧.

(٦) أحمد الحوفي: **أدب السياسة في العصر الأموي**، دار العلم للملاين بيروت، بدون تاريخ، ص٣٧٠.

(٧) المسعودي: مرجع سابق، ص٢٢٩ – ٢٣٠.

(٨) الطبري أبي جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق عبد السلام هارون، المعارف، القاهرة، ط٣/ ١٩٦٩م، ج٣/ ص١٢٨.

(٩) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج٣/ ص٢٤٩.

(١٠) محمد بن المنذر الأنصاري: **منار الهدى**، مطالع المدينة، ١٤٠٥ هـ، ص١١٤-١١٥.

(١١) أحمد الحوفي: **أدب السياسة في العصر الأموي**، دار العلم للملاين بيروت، بدون تاريخ، ص١١-١٣.

(١٢) محمد عبد القادر أحمد: **دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٣٥.

(١٣) ابن عبد ربه أبي عمر أحمد بن محمد بن حبيب: **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ج٢/ ص١٣٥

(١٤) محمد عبد القادر أحمد: مرجع سابق، ص٤٤

(١٥) المرجع نفسه، ص٤٥

(١٦) محمد ماهر حمادة: **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعهد الأموي (٤٠ - ١٣٢)**، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٤م، ص٣٢.

(١٧) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: **تهذيب اللغة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت،٢٠٠١م، مادة "خطب" ج ٧/٢٤٦.

(١٨) مجد الدين الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، دار مكتبة النشر- الجزائر- ط١-سنة ١٩٦٨ مادة "خطب" ج١/٦٥.

(١٩) الفيومي: **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، تحقيق: إبراهيم السامرائي، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٣، مادة "خطب" ١/ج١٧٣.

(٢٠) أبي زكريا يحيى بن شرف النووي: **تحرير ألفاظ التنبيه**، أو المسى بـ **"لغة الفقهاء"**، تحقيق وتعليق: الشيخ عبد الغني الدقر، نشر دار القلم بدمشق سنة ١٤٠٨هـ، ص. ٨٤ - ٨٥.

(٢١) علي بن محمد بن علي الجرجاني: **التعريفات**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ص٩٩.

(٢٢) مصلح سيد بيومي: **الخطابة في الإسلام**، دار القلم، الكويت،١٩٨١، ص ١١.

(٢٣) محمد أبو زهرة: **الخطابة، أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٩٨٠/٢م، ص١٩.

(٢٤) عباس الحسيني: **علم النفس العسكري**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م، ص٦٢-٦٣، بتصرف.

(٢٥) ابن عبد ربه: مصدر سابق، ج٢/ ص٤١.

(٢٦) ابن أبي الحديد المعتزلي: **نهج البلاغة**، مكتبة الالفين، الكويت، ١٩٨٦م، ص٨٨ - ٩١.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



(٢٧) أحمد زكي صفوت: **جمهرة العرب في عصور العربية الزاهرة**، دار القلم للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، ج ٢/ ص٤٦٢، وانظر: أبي الفرج الأصفهاني: **الأغاني**، تحقيق طه حسين، إبراهيم الابياري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ج٢ / ص ١٠٥.

(٢٨) عبد الطيف حمزة: **الإعلام والدعاية**، مرجع سابق، ص٧٨.

(٢٩) محمد عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص٣٧.

(٣٠) أحمد الحوفي: مرجع سابق، ص٢٨٢.

(٣١) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، مصدر سابق، ج٢/ ص١٢٦.

(٣٢) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، مرجع سابق، ج١/ ص١٥.

(٣٣) عبد اللطيف حمزة: **الإعلام والدعاية**، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ٨٥ - ٨٦.

(٣٤) فان فلوتن: **السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمة حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، دار النهضة المصرية القاهرة، ١٩٦٥م، ص٧٩- ٨٠.

(٣٥) حسنين عبد القادر: **الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢/ ١٩٦٢م، ص٨٨ – ٩٠.

(٣٦) المبرد أبي العباس محمد بن يزيد: **الكامل في الأدب**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٣/ ص١٧٠.

(٣٧) المبرد: **الكامل في الأدب**، نفس المصدر، ج٣/ ص٢٢٠.

(٣٨) الجاحظ أبي عثمان بن بحر: **البيان والتبين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٧/، ١٩٩٨م، ج١/ ص٤٢. وكذا، ابن أبي الحديد المعتزلي: **شرح نهج البلاغة**، **دار** الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٤/ ص٢٠٥.

(٣٩) حسن إبراهيم حسن: **النظم الاسلامية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٤/ ١٩٧٠م، ص٣٢٩.

(٤٠) انظر: أحمد بن إبراهيم القيسي: **شرح هاشميات الكميت**، **تفسير أبي رياش**، تحقيق: داود سلوم نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، ط ١٩٨٦/٢م.

(٤١) أبو عبد الله الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٦م، ج١/ ص٥٦.

(٤٢) عبد اللطيف حمزة: **الإعلام والدعاية**، مرجع سابق، ص٧٨.

(٤٣) عبد القادر أحمد، مرجع سابق، ص٣٥.

(٤٤) محمد منير حجاب: **الدعاية السياسية وتطبيقاتها قديمًا وحديثًا**، دار الفجر للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ص٢٣٠.

(٤٥) الذهبي: **تذكرة الحفاظ**، مرجع سابق، ص١١٢.

(٤٦) حسنين عبد القادر: **الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢/ ١٩٦٢م، ص٨٢ – ٨٤.

(٤٧) عبد اللطيف حمزة: **الإعلام له تاريخه ومذاهبه**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٦١ – ٦٣.

(٤٨) خليل داود الزور: **الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني الهجرة**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧١م، ص٧١.

(٤٩) المرجع نفسه، ص٨٢.

(٥٠) إبراهيم إمام: **أصول الإعلام الإسلامي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١١٣- ١١٤.

(٥١) أبو الفرج الأصفهاني: **الأغاني**، تحقيق: طه حسين، إبراهيم الابياري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ج٢ / ص ٦٥.

(٥٢) أحمد رمضان أحمد: **الخلافة في الحضارة الإسلامية**، دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٣م، ص٢٦٣.

(٥٣) نجدة خماش: **الإدارة في العصر الأموي**، دار القلم، دمشق، ١٩٨٠م، ص٢٨٥.

(٥٤) عبد الرحمان ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني،١٩٨١م، ص٤٧١ – ٤٧٢.

(٥٥) أحمد رمضان أحمد، مرجع سابق، ص٢٦٣.

(٥٦) المرجع نفسه، ص٢٦٠.

(٥٧) حسان علي حلاق: **تعريب الدواوين في العصر الأموي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨م، ص٤٢.

(٥٨) حسن إبراهيم حسن: **النظم الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٤٩.

(٥٩) أحمد رمضان أحمد: مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٦٠) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص٤٤٩.

(٦١) يرى عبد الرحمن فهمي أنها صورة عبد الملك بن مروان، ويرى أرنولد ويؤيده زكي محمد حسن أنها رمز لخليفة المسلمين. انظر: عبد الرحمان فهمي محمد: **موسوعة النقود العربية، (فجر السكة العربية)**، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٤٦.

(٦٢) أحمد بدر: **الرأي العام**، ص١٤٠.

(٦٣) عبد الحلم محمود السيد: **علم النفس الاجتماعي والإعلام**، ترجمة: محمود برهوم ونقولا ناصر، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٩٣م، ص٤٥٤.

(٦٤) جان ماري دومناك: مرجع سابق، ص٧٨.

(٦٥) عبد الحليم السيد: مرجع سابق، ص٥٤.

(٦٦) انظر: ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر: **تاريخ ابن الوردي**، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م، ج١/ ص١٤٧.

(٦٧) الطبري: مصدر سابق، ج٦/ ص٣٥ – ٣٦.

(٦٨) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الجيل للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م، ج١/ ص٥٣٦ – ٥٣٧.

(٦٩) السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ الدولة العربية**، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٧١م، ص ٧٠٢-٧٠٣.

(٧٠) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مرجع سابق، ص٢٤٥.

(٧١) سيد أمير علي: **مختصر تاريخ العرب**، ترجمة: عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨١م، ص١٧٠.

(٧٢) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مرجع سابق، ص٥٢٣.

(٧٣) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: **فتوح البلدان**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٦هـ، ص١٣٧- ١٣٨.

(٧٤) المسعودي: مرجع سابق، ص١٦٧.

(٧٥) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مرجع سابق، ص٥٢٧.

(٧٦) رواه البخاري، ومسلم، انظر: "**صحيح البخاري**"، ج(٢)، ص ٧٦، و"**صحيح مسلم**"، ج ٤، ص ٤٦.

(٧٧) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ج٢/ ص٢٦١.

(٧٨) أبي المعالم المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسي: **فضائل بيت المقدس**، ١٩٦٠، ص١٥٩.

(٧٩) ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٥٦ ص، ج262/5، - 270.

(٨٠) الرازي: **مختار الصحاح**، دار الحداثة، بيروت، لبنان ١٩٨٢، ص ٤٨٢.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



(٨١) ابن سيدة: **المخصص**، المكتب التجاري للطباعة، التوزيع والنشر بيروت، بدون تاريخ، ج١/ ص٤٤.

(٨٢) القلقشندي: **صحيح الأعشى**، الطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٥، ج٣/ص ٤٦٩ -٤٧٠.

(٨٣) علي بن برهان الدين الحلبي: **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، دار المعرفة -بيروت – ١٤٠٠هـ، ج٢/ص٢١٥

(٨٤) أحمد رمضان علي: مرجع سابق، ص ٢٧٩- ٢٨٠.

(٨٥) محمد الخضر حسين: **محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميَّة**، دار المعرفة، ط٤، ج٢/ ص١٦٤.

(٨٦) فان فلوتن: مرجع سابق، ص١٢٥- ١٢٦.

(٨٧) سيد أمير علي: مرجع سابق، ص١٧٠.

(٨٨) محمد بن محمد العمراني: **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، تحقيق قاسم السامرائي، دار العلم للملايين، الرياض، ط٢/ ١٩٨٢م، ص٥٦.

(٨٩) منير حجاب: **الدعاية السياسية وتطبيقاتها قديمًا وحديثًا**، دار الفجر للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ص٢٥٠.

(٩٠) مختار حمزة: **أسس علم النفس الاجتماعي**، دار المنار، جدة ١٩٧٩م، ص٢٢٨.

(٩١) محمد السيد الوكيل: **عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها**، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٢هـ، ص١٥٩.

(٩٢) محمد عبد القادر حاتم: **الإعلام والدعاية، نظريات وتجارب**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٧٢.

(٩٣) سعدي أبو حبيب: **مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية**، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٣٨- ١٣٩.

(٩٤) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص٣٤٢.

(٩٥) أبو حازم القرطاجي: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: منيف موسى، دار الفكر، بيروت،١٩٩١م، ص١٤.

(٩٦) محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية: **مفتاح دار السعادة**، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار ابن عفان، ١٩٩٦م، ص١٤٤- ١٤٦.

(97)Daniel Katz with Robert L. Kahn: *The Social Psychology of Organizations*, 1978. Pp. 258 - 259.

(٩٨) محمد عبد القادر أحمد: مرجع سابق، ص١٠٣- ١٠٥.

(٩٩) أخرجه أحمد في **المسند** ج٤/ ص٢١٦. **صحيح سنن الترمذي** ج٣/ ص٢٣٦. وصححه الألباني في **سلسلة الاحاديث. الصحيحة والضعيفة**، المكتب الإسلامي للنشر والتوزيع.١٩٨٥م ج ٤ / ص٦١٥. وقال بعد أن ذكر طرقه: رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، فكان حقه أن يصحح.. وقال: وبالجملة فالحديث صحيح وهذه الطرق تزيده قوة على قوة، وزاد الإمام أبو بكر محمد بن الحسين، الآجري: في كتابه **الشريعة**، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ج٥/ ص ٢٤٣٦- ٢٤٣٧ لفظة: ولا تعذبه.

(١٠٠) أخرجه أحمد في **المسند**، ج٤، ص١٠١. وصححه بشواهده الألباني في **السلسلة الصحيحة** ٣٢٢٧ . قال الذهبي في **سير أعلام النبلاء**: في مسند أحمد جملة من الاحاديث الضعيفة مما يسوغ نقلها ولا يجب الاحتجاج، أبو عبد الله الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م. وانظر: أحمد بن حنبل: **فضائل الصحابة**، دار الكتب العلمية للنشر، لبنان ٢٠٠٨م، ج٢/ ص٩١٣.

(١٠١) أخرجه عبد الله بن محمد بن أبي شيبة في **المصنف**، تحقيق: محمد عوامة، دار القيلة، ٢٠٠٦م، رقم الحديث٣٠٧١٥. وانظر: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في **المعجم الكبير**، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٤م، ج٥، ص٦٨٧.

(١٠٢) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط١/ ١٩٥٢م، ص١٩٤-١٩٥.

(١٠٣) أبو عبد الله الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م. وانظر: أحمد بن حنبل: **فضائل الصحابة**، دار الكتب العلمية للنشر، لبنان، ج٣/ ص٣٢٤.

(١٠٤) فان فلوتن، مرجع سابق، ص٧٧.

(١٠٥) انظر: أحمد الحوفي: مرجع سابق، ص٢٠٨ – ٢١٥.

(١٠٦) محمد الخضري: **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية**، دار المعرفة، ط١٩٩٨/٤م، ج٣، ص٢٢٢.

(١٠٧) سورة النحل، الآية (٩٠).

(١٠٨) الطبري: مرجع سابق، ج٦/ ص١٥٠.

(١٠٩) أحمد الحوفي، مرجع سابق، ص١٥٣.

(١١٠) الأصفهاني: **الأغاني**، مرجع سابق، ج١٩، ص٤٠.

(١١١) أحمد الحوفي: مرجع سابق، ص٢٠١.

(١١٢) المسعودي أبي الحسن علي: **التنبيه والإشراف**، دار تحقيق التراث، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٦٤.

(١١٣) المرجع نفسه، ص٢٧١.

(١١٤) محمد الخضري: مرجع سابق، ص٢٠٢.

(١١٥) جيهان رشتى: **الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية**، دار الفكر العربي، ١٩٨٥م، ص٦٣.

(١١٦) جان ماري دوميناك: **الدعاية السياسية**، ترجمة: صلاح مخيمر وميخائيل عبدة رزق، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٠٩- ١١٠.

(١١٧) أحمد رمضان أحمد، مرجع سابق، ص ١٥٦- ١٥٧.

(١١٨) انظر: **الأغاني**، مرجع سابق، ص٢٩٤. وكذا، أحمد الحوفي، مرجع سابق، ص٨٩.

(١١٩) عمر فروخ: **تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٢٩- ١٣٠.

(١٢٠) انظر: محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ٥/ ص٩٦ - ٩٨. وكذا: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: **أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٩٦م، ص٤٣ - ٤٦. وكذا عمر فروخ: **تاريخ الإسلام**، مرجع سابق، ص١١٨- ١١٩. وكذا: حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الفجر للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ج١/ ص٣٦٢. الشيخ محمد الخضري: مرجع سابق، ص٣٥- ٤٠.

(١٢١) محمد حسن شراب: **المدينة في العصر الأموي**، مكتبة دار التراث، ١٩٨٤م، ص١١٥.

(١٢٢) علي بن محمد ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج٣/ ص٢٠٢.

(١٢٣) المرجع نفسه، ج٤/ ص٨٨.

(١٢٤) عمر فروخ: **تاريخ صدر الإسلام**، مرجع سابق، ص١٢٧- ١٢٨.

(١٢٥) حسنين عبد القادر، مرجع سابق، ص١٣٨- ١٣٩.

(١٢٦) **الازادمردية**: (فرقة شعوبية تدعى الرجال الأحرار) المبغوضون لآل النبي (ﷺ) وأصحابه، ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام: انظر، الجاحظ: **البخلاء**، مطبعة دار الكتب، ١٩٣٦م،ج١/ ص١١٤.

(١٢٧) هم الذين يقولون بأصلين للوجود، مُختلفين تمام الاختلاف، كل منهما له وجود مستقل في ذاته، وبدون هذين الأصلين لا يمكن فهم طبيعة الكون، الذي تتصارع فيه القوى المتضاربة، التي ينتهي بعضها إلى أحد المبدأين، وينتهي سائرها إلى المبدأ الآخر، مما يعنى أن حقيقة الوجود تنطوي على

انقسام داخلي وتقابل ضروري دائم بين أصلين، لكل منهما قوانينه وأطواره الزمنية الخاصة به.

(١٢٨) ويحدد التهانوي طبيعة هذا المصطلح ومجالات استعماله فيذكر أن لفظ "الحشوية بسكون الشين وفتحها، وهم قوم تمسكوا بالظواهر فذهبوا إلى التجسيم وغيره، وهم من الفرق الضالة. قال السبكي في "شرح أصول ابن الحاجب الحوشية طائفة ضلوا عن سواء السبيل يجرون آيات الله على ظاهرها ويعتقدون أنه المراد، سموا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري فوجدهم يتكلمون كلاما، فقال: ردوا هؤلاء إلى حشاء الحلقة، فنسبوا إلى حشاء، فهم حشوية بفتح الشين. وقيل: سموا بذلك لأن منهم المجسمة، أو هم. والجسم حشو. فعلى هذا القياس فالحشوية طائفة لا يرون البحث في آيات الصفات التي يتعذر إجراؤها على ظاهرها، بل يؤمنون بما أراده الله مع جزمهم بأن الظاهر غير مراد، ويفوضون التأويل إلى الله. وعلى هذا بإطلاق الحوشية عليهم غير مستحسن لأنه مذهب السلف". انظر: التهانوي: **كشاف اصطلاحات الفنون**، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ج١/ ص٣٩٦.

(١٢٩) إبراهيم إمام: **الإعلام والاتصال بالجماهير**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط١٩٧٥/٢م، ص٣٢٢.

(١٣٠) انظر: **الطبري**، مرجع سابق، ص٣٥٨، وكذا **أنساب الأشراف**، مرجع سابق، ص ٦٣، وأبي الفرج الأصفهاني: **الأغاني**، مرجع سابق، ج ١١/ ص ٧٤، وأبي الفرج الأصفهاني: **مقاتل الطالبيين**، دار ابن حزم، بيروت ١٩٩٧، ص ١٦٧، وكذا: ابن كثير: **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، ٢٠٠م، ج ١٠، ص ٢٥، ٢٦، وص ٣.

(١٣١) محمد الطيب النجار: **الدولة الأموية في الشرق**، دار الاعتصام القاهرة، ط٣/ ١٩٧٧م، ص٢٤٣.

(١٣٢) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص٢٨١.

(١٣٣) محمد الخضري حسن: مرجع سابق، ج٢/ ص١١٤.

(١٣٤) عمر فروخ: **تاريخ صدر الإسلام**، مرجع سابق، ص١٣٢- ١٣٣.

(١٣٥) الشيخ محمد باقر المجلسي: **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ، ص١٩٥.

(١٣٦) حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص٣٦٧.

(١٣٧) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ج٢/ ص٩٤.

(١٣٨) عبد الرحمان بن الجوزي: **ذم الهوى**، مصطفى عبد الواحد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، ج١/ ص٦٥٩.

(١٣٩) جان دوميناك: مرجع سابق، ص٦٦.

(١٤٠) حسنين عبد القادر: مرجع سابق، ص٢٣٩.

(١٤١) محمد منير حجاب: **الدعاية السياسية وتطبيقاتها قديمًا وحديثًا**، مرجع سابق، ص٢٨٦.

(١٤٢) أحمد بدر: **الرأي العام طبيعته وتكوينه وقياسه ودوره في السياسة العامة**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٧٦.

(١٤٣) **الروائدية**: هم أتباع أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرواندي، كان من أئمة المعتزلة ثم فارقهم وهاجمهم مذهبهم وصار ملحدًا زنديقًا. توفي في سنة 298. ويقولون بالخلافة لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، بوصية أبي هاشم إليه. وهذا قول الروائدية. والروائدية متفرعة عن العباسية، لكنهم غلوا في القول فيهم، ولذا فإنّ العباسيين قد نبذوهم من بعد أن كانوا من أنصارهم. وكذلك نبذ العباسيون خاصة أنصارهم، وهم الشيعة الغلاة الروائدية الذين كانوا منتشرين في فارس بنوع خاص. انظر: الرازي، فخر الدين محمد، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، ضبط وتقديم محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، لبنان،1986 م. وكذا: الرازي، الشيخ أحمد بن حمدان، **كتاب الزينة**، ج 3/ ملحق بكتاب **الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية**، تحقيق : د . عبد الله سلوم السامرائي، ط. دار واسط، بغداد . العراق، بدون تاريخ. وكذا: الدينوري، ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، تحقيق علي شيرى، منشورات الشريف الرضا، قم . ايران، 1413هـ.

(١٤٤) مختار حمزة: **أسس علم النفس الاجتماعي**، دار المنار، جدة، ١٩٧٩م، ص٢٥٨.

(١٤٥) جمال السيد: **أضواء على الحرب النفسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ١٧٩.

(١٤٦) عبد اللطيف حمزة: **الإعلام في صدر الإسلام**، مرجع سابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(١٤٧) حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص٢٧٨.

(١٤٨) جلال الدين السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٩م، ص١٩٢.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص٢١٧.

(١٥٠) محمد بن سعد: **الطبقات الكبرى**، تحقيق: علي محمد عمر، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م، ج٥/ ص٦٦.

(١٥١) ابن العمراني محمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد، **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت ١٩٧٠م، ص٥٤.

(١٥٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أشرف على طبعه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت. ص٣٨.



The Formation
Of The Historical Center
Of Mecca

Dr. BADI` AL-ABED



Consultant Architect
President Of The Jordanian Society For The History Of Science
Amman – Jordan

***Citation*:**
Badi Al-Abed, "*The Formation Of The Historical Center Of Mecca*".- Historical Kan Periodical.- Issue (21); Sep 2013. Pp. 196 – 201.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
Historical Kan Periodical : Digital Future for Historical Studies

Abstract

This paper is devoted to study the formation of the historical center of the city of Mecca from its beginning to its formative stage that, in my view, took place by the extension of the Abbasid Khalifa al-Mahdy, where its architectural identity was formed and marked its order in space. This paper will focus upon the purpose of choosing the site of the city, the conditions of living, the process of formation of the historical center and its urban context. It will argue that the holy shrine (al-Ka`ba الكعبة) and al-Masjid al-Haram, were and still are the major elements that governed the development of the historical center and the urban planning of the city of Mecca. Furthermore this paper will prove that the historical center of Mecca was reduced in those two elements.

This paper will also demonstrate that key architectural concepts and notions - like: centrality, architectural identity, order in space and public participation were coined within the formation process. So much so this paper will disclose the techniques of conservation and preservation that were coined, too, in the said process like: replacement of material, demolishing and reconstructing, protection and credibility.

In so doing an attempt will be made to explore the role of the holy Quran in setting out the site of the historical center and documenting the process of building al-Ka`ba. And the contribution of al-Azraqiy in his book *Akhbar Mecca* and other related sources, in recording and documenting the construction and reconstruction of al-Ka`ba. And the extensions of al-Masjid al-Haram, in order to explore and highlight the architectural key concepts and techniques of conservation and preservation.

Introduction

This paper is devoted to study the formation of the historical center of Mecca, from its beginning to its formative stage, that in my view took place by the extension of the Abbasid Khalifa al-Mahdy الخليفة العباسي المهدي (169-170 AH – 785-786 AD), where its architectural identity was formed and marked its order in space. This paper will focus upon the purpose of choosing the site of the city, the process of formation of its historical center.

It will argue that al-Ka'ba الكعبة (the holy shrine) and al-masjid al-haram المسجد الحرام were,

still are, and will be the two major elements that governed the development of the urban planning of the city of Mecca. Furthermore this paper will prove that the historical center of Mecca was reduced in those two elements.

This paper will also demonstrates that key architectural concepts and notions like centrality, architectural identity, order in space and public participation were coined within the formation process. It will disclose the techniques of conservation and preservation that were coined in the said process.

In so doing an attempt will be made to explore the contribution of the Arab historian al-Azraqi الأزرقي in his book *Akhbar Mecca* and other related sources that recorded and documented the the construction and reconstruction of al-Ka`ba and the extensions of al-masjid al-haram.

The city of Mecca

Mecca is the first holy city and the second and permanent qibla قبلة (shrine) in Islam. It was found by the will of God as place for worshiping. The site[1] of the city was chosen by God. The progeny of Abraham was the first settlers[2] in the city, in spite of the fact that the site of Mecca was not fit for urban life where no water [3] and plantation.

Al-Ka'ba was the first building[4] built in Mecca that marked its order in space and formed its urban setting. It constituted the focal point in the city. Houses and markets spread informally around it until the fifth century AD when its governor, namely, Qusay Ibn Kilab[5] قصي بن كلاب preplanned the city, where he divided it to *riba'* رباع (single *rub'*=a residential district) and gave each tribe of Quraish قريش (the tribe settle in Mecca) one rub'ربع ; and built *dar an-nadwa*[6] دار الندوة (the city hall or the assembly hall of Mecca).

Al-Azraqi indicated that houses of Mecca were built circular[7] in plan cylindrical in form in order to be distinguished from al-ka'ba. This rule was breached by a citizen of Quraish who built his house square in plan and cubic in form, Quraish was worried about the consequences of breaching the rule of the formal type of the architectural fabric of Mecca, which according to al-Azraqi, was not allowed or permitted for any of its building from overlooking[8] al-Ka'ba. Therefore one may argue that planning of Mecca was governed by laws and rules from the fifth century AD. This planning was refined and continued in Islam as I shall be highlighting in the following discussion that will be devoted only to the historical center.

The historical center

Al-Azraqi indicated different stories[9] about building al-Ka'ba and many attempts about the formation of the open area around it that known in Islam as al-masjed al-haram المسجد الحرام. Ever since al-Ka'ba was built, it constituted together with the area surrounded it the historical center of Mecca; and the ritual focal point of the Islamic world or as called in Arabic language *qibla* القبلة (shrine).

Al-Azraqi indicated that al-masjid al-haram was in its very beginning "just an open area around al-Ka'ba, surrounded by houses from all sides"[10]. It was not defined by territorial means of its own, except the doors that were found among the adjacent houses to al-Ka'ba. In other words, al-masjid al-haram was not an independent building on its own, that had its own urban setting and order in space, that gained in a later stage; in spite of the fact that al-Ka'ba constituted its center with its sacredness and remarkable cubic formal identity that differ from all buildings in Mecca as I indicated earlier.

However, the merging of al-Ka'ba with the area around it that formed al-masjid al-haram and constituted the core of the historical center of Mecca extended over a long formative process and many attempts as I indicated earlier.

Each attempt represented a new addition to the area of the core of the historical center and played a rule in forming its architectural identity, emphasizing its urban setting and strengthening its order in space.

The first in the chain was made by Omer Ibn Al-khattab [11] عمر بن الخطاب where he enlarged the area of al-masjid al-haram by buying the houses adjacent to it, demolished them, added their area to al-masjid and built a wall around it. This wall marked the first territorial means of al-masjid al-haram, that set out and defined its beginning as the historical center of the city of Mecca.

The second and third additions [12] were similar to the first one, but the third that made by Ibn Al-Zubyer ابن الزبير was defined by very well-known urban elements of Mecca, like *dar an-nadwa*. What so unique in this addition was

ISSN: 2090 – 0449

not just its regular form and neatness but because Ibn Al-Zubyer[13] made portion roof for al-masjid al-haram. It was from the roof that its architecture began to mark its order in space and emphasized its identity as historical center. It was enriched, enhanced and strengthened by the fourth and fifth additions[14] that were made by Abed al-Malik Ibn Marwan عبد الملك بن مروان and his son al-Walid الوليد. Where they enlarged the area of al-masjid and increased its height. Al-Walid completed the roof and brought al-masjid, as a focal point (in the architectural fabric of the city of Mecca), to its full representation as the core of the historical center of Mecca.

Al-Mansur[15] المنصور in the sixth addition doubled the area and elevated the representation to the core of the historical center by building a minaret and constructing a trench under the entrance of al-masjid to prevent flood from entering it.

Two other additions[16] were made by al-Mahdi (AH 158-169/ AD 775-785) in the first of them *al-qadi* القاضي (judge), who was in charge for those additions, extended the eastern part of al-masjid to *al-mas'a* street شارع المسعى. By this extension *al-qadi* brought the addition in the eastern side to an end until our time (AH 14 – AD 2007) where a new one is taking place as I shall explain later. Furthermore, this addition this particular side brought the core to the historical center to a well-defined order in space that resulted from a final urban setting with well-marked territorial means. And ended the addition in the three other sides to well defined urban elements, like the minaret and some markets.

The latter addition of al-Mahdi[17] المهدي was due to the unorganized form of the first one which left al-Ka'ba outside the center of the compass round area of al-masjid. He ordered *al-muhandisun* المهندسون (single *muhandis* مهندس = engineer) to demolish the southern wall of the new addition and reconstructed it deeper south in order to recentering al-Ka'ba in the middle of the compass round (*at-tawaf* ساحة الطواف) area, in spite of the high cost of this work that resulted from rehabilitation environment in the south side by transferring the flow of the valley and avoiding the flow of the annual floods. He also constructed a new minaret.

By the addition of al-Mahdi (figure–1) that ended in the year (AH 170/ AD 786), according to Al-Azraqi, al-masjid al-haram, the historical center of Mecca, developed from a limited open space around al-Ka'ba defined negatively by other architectural territorial means (the houses of Mecca) to a well-defined architecture that had its own territorial means, marked its urban setting and drew its order in space.

This process of formation continued until our mean time, and seems likely to keep on. Many additions were made after al-Mahdi, particularly during the Mamluk المماليك and Ottoman العثمانيون eras. But the most remarkable additions were made and are still making by the Saudi Kingdom. All these additions, as shown in (figure-2) and (plates-1,2,3,4,5,6), brought al-masjid al-haram to its contemporary urban setting and order in space, and strengthening it, as the historical center of Mecca. Currently new additions are taking place in all sides of al-masjid al-haram. It is interesting to note that those additions and extinctions made *al-mas'a* street inside al-masjid al-haram instead of being its eastern border, as shown in (figure-2) and (plate-1,3,6). The point at issue here is that those additions, particularly the one east *al-mas'a* prove that additions of al-masjid al-haram had has no limit; and prove that al-masjid al-haram is the dominant building in the center of the city, that reforming it in the course of time-according to its function and requirements as *a qibla* قبلة (shrine) for all Muslims to be the historical center in itself and not just the core element in it.

My conclusion is based on the great number of houses, markets and roads that were demolished to meet the need for each addition. This in turn prove that al-masjid al-haram as the historical center of Mecca is the major element in the planning of Mecca, that shaped and is still shaping its urban structure and govern its future growth.

Furthermore, it might be right to say that the historical center of Mecca is partly govern the urban structure of all Islamic cities and communities. Because mosques in these cities must be oriented towards the historical center of Mecca as shown in (figure-3).

Finally it's interesting to note that the growth and the formation process of the historical center of Mecca propagated and revealed principles and key concepts[18] in Islamic architectural discourse like: function, centrality, territorial means, order in space,

ISSN: 2090 – 0449
Historical Kan Periodical

identity, public participation, environmental control, neatness aesthetic and many others.

Most important in the formation process is its rule in coining principles of conservation and preservation(19) like: *tarmeim* ترميم (conservation), *'idhafa* إضافة (addition=to add new construction to an existed one), *tajdeid* تجديد (to make the old new), *kal` wa-tabdeil or 'izala wa-'i`ada* قلع وتبديل أو إزالة وإعادة (taking out or demolishing and replacing either by the same material or by new one), *raq`* رقع (to replace deteriorated elements with new ones) *hadm wa-'i`adat bina'* هدم وإعادة بناء demolishing and reconstructing. And many others where there is no place to enumerate them in this paper. But strictly speaking architectural discourse and urban planning in general and *al hifadh al-mi`mari* الحفاظ المعماري (architectural conservation and preservation) in particular were originated in Islamic architecture; and the formation process of the historical center of Mecca played a remarkable rule in coining them.

Conclusion recommendations

In the course of discussions I traced the formation process of the historical center of Mecca that brought it to a marked identity and clear order in space. And I referred to other additions that continued until our mean time that enhanced and enriched its identity and strengthened its order in space.

My conclusion is that the growth of the historical center in the past and present was subject to Islamic ritual requirements (function) and not as a response to modernization needs as in other Islamic cities. In fact modernization was implemented and instrumented to serve the cause of function of the historical center and not to ignore or overcome it. And here is the uniqueness of the historical center of Mecca of being the central element that govern its planning in the past; and will keep governing it in the future. Hopefully this unique case will instrumented in all Islamic cities.

Furthermore I indicated the rule of the formation process in coining principles and key concepts in Islamic architectural discourse, conservation and preservation that were resulted from those additions that brought the historical center to its contemporary urban setting and order in space.

I recommend strongly, the need for, widening the area of the compass round (*at-tawaf* ساحة الطواف) by eliminating the Ottoman extension. And increase number of openings all around al-masjid al-haram.

ملخص

تشكل المركز التاريخي لمكة المكرمة

هذا البحث مكرس لدراسة المركز التاريخي لمدينة مكة، منذ بداية تحديد موقع الكعبة وحتى مرحلة تشكله وتكوينه. التي تمت في رأيي بتوسعة الخليفة العباسي المهدي، حيث حددت هذه التوسعة موقع المركز في الفضاء البصري للمدينة، وبداية شخصيته البصرية. وسيظهر البحث سبب اختيار موقع المدينة، وظروف المعيشة بها، وطريقة تشكل المركز التاريخي للمدينة ومحيطه الحضري. وسيبرهن البحث أن الكعبة والمسجد الحرام هما العاملان الرئيسيان اللذان يحكمان تطور المركز التاريخي والتخطيط العمراني لمكة. وأن المركز التاريخي تمحور في الكعبة والمسجد الحرام. وسيبين البحث أن مفاهيم أساسية - مثل: المركزية، والهوية المعمارية، والشخصية البصرية، والمشاركة الشعبية، وتقانات الترميم - انبثقت من مراحل تشكل المركز التاريخي لمكة. ولتحقيق ذلك سيعرض البحث لدور القرآن الكريم في تحديد موقع المركز التاريخي وبناء الكعبة؛ وكذلك لدور الأزرقي في كتابه، أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، وللمصادر التاريخية الأخرى، التي وثقت بناء الكعبة وتقانات الترميم التي صاحبت مراحل تشكل بنائها وترميمها.

Appendix

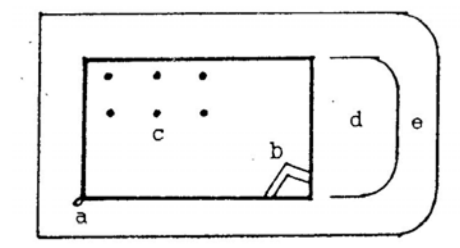


Figure - 1

(The historical center of Mecca)
Plan of al-ka'ba and the additions around it until the year (AH 170 /AD 786)
(a) al-hajar al-aswad
(b) stair
(c) pillars
(d) al-hijr
(e) al-haram

Note: this drawing is copied as illustrated by al-azraqi

ISSN: 2090 – 0449

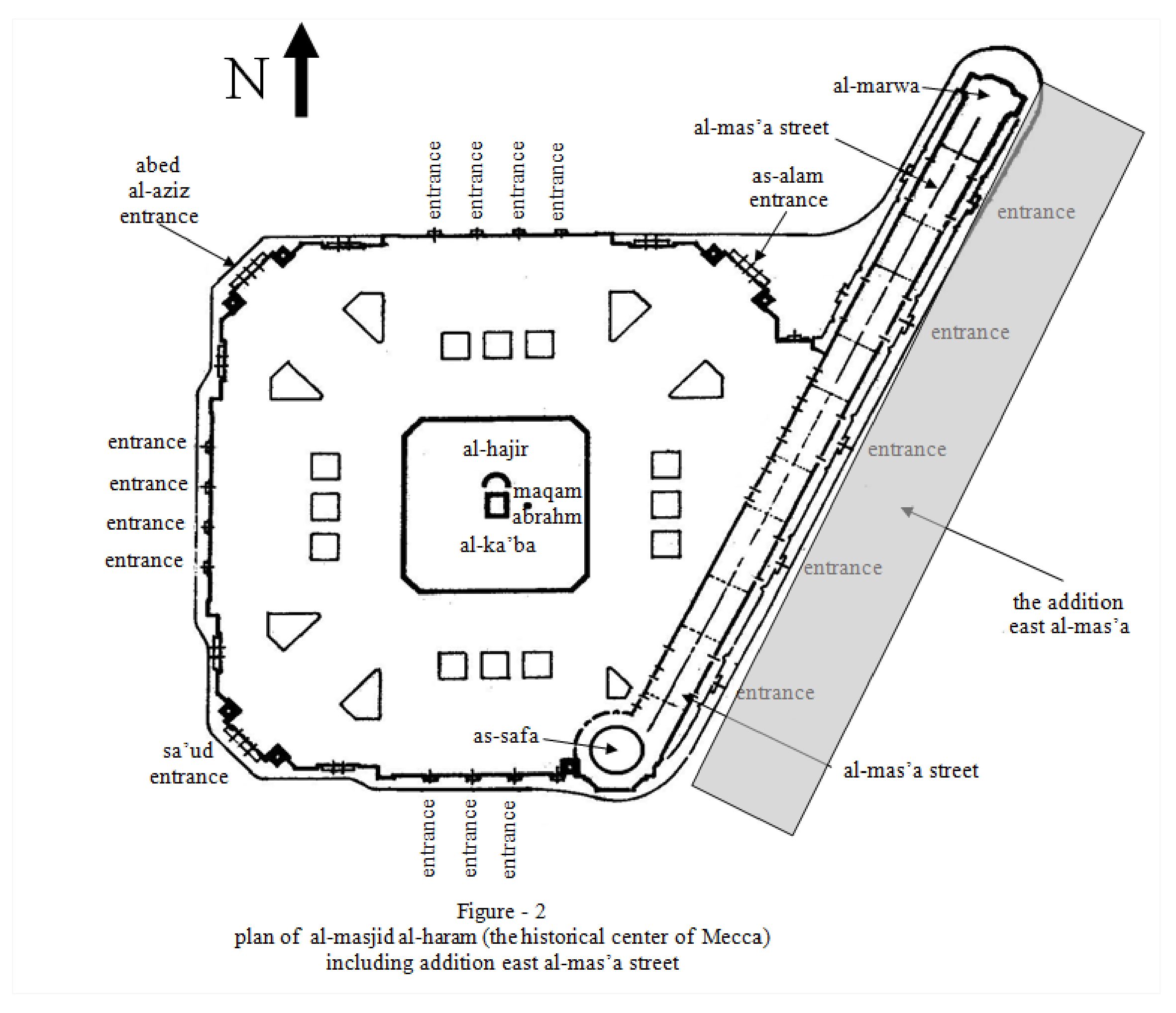


Figure - 2
plan of al-masjid al-haram (the historical center of Mecca)
including addition east al-mas'a street

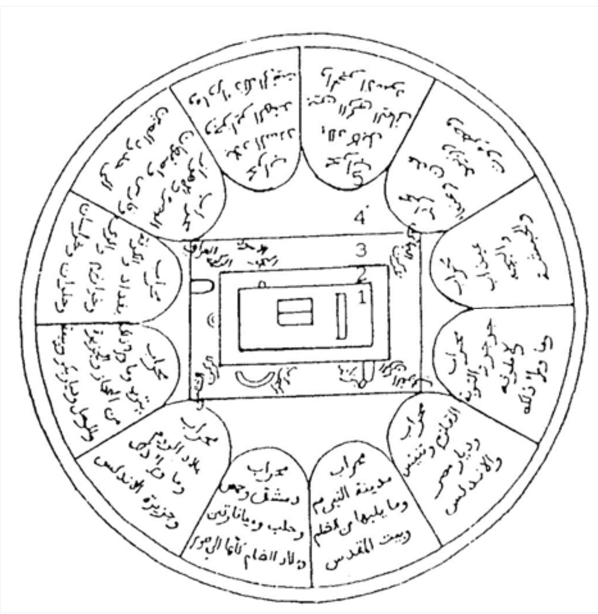


Figure - 3
(The historical center of Mecca)
The focal point of the Islamic world
(1) al-Ka'ba
(2) al-masjid al-haram
(3) City of Mecca
(4) Haram of Mecca
(5)The world
Note: the drawing is copied as illustrated by al-qazwini



plate – 1
The historical center (AH 1297 / AD 1880)

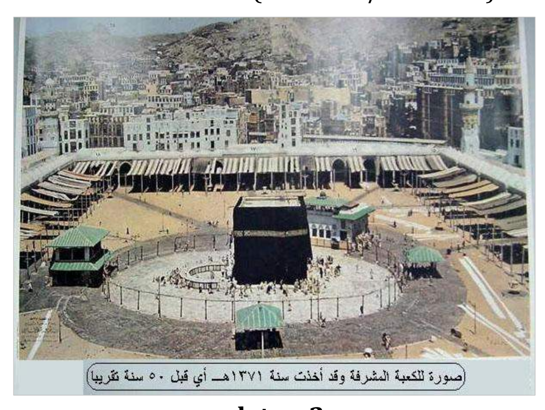


plate – 2
The historical center (AH 1371 / AD 1928)

ISSN: 2090 – 0449
Historical Kan Periodical





plate – 3
The historical center (AH 1428 / AD 2007)



plate – 4
The historical center
The addition east al-mas'a street
(AH 1428 / AD 2007)

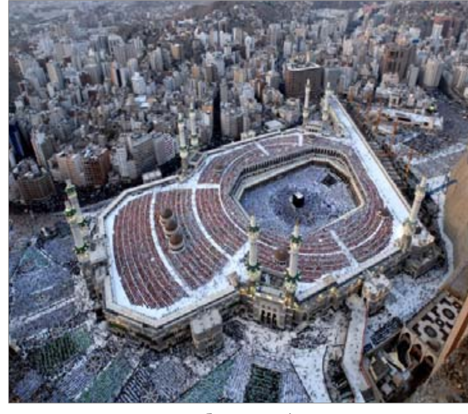


Plate – 5
The additions of King Fahad in the west of Al-haram & the addition east al-Mas'a street

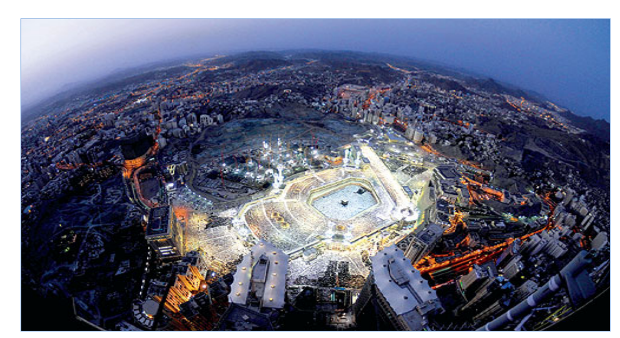


Plate -6
The current additions in the Yards surrounding al-haram

Notes:

(1) see: *Al-Qurān al-kariem.* Sūra: 22, verse 26/ Sūra: 2, verses 127, 125.

(2) see: *Ibid*, Sūra: 14, verse 37.

(3) see: Ibid Sūra: 3, veres 96.

(4) see: Al-Azraqi, Abu al-Walid الأزرقي (died AH 250/AD 864) *Akhbar Mecca Wa-māja' bihā min al-Athār* أخبار مكة وما جاء بها من الآثار , annontated by Rusdhi Malhas, dar al-Andulus, 2 vols., Beirut, (AD 1983). See: vol. 1/ 33-76.: At-Atabri الطبري (AH 224 – 310/ AD 839-932) *Jāmi al-Bayan fi Tafsir al-Qūran* جامع البيان في تفسير القرآن , annotated by Mohamad Abu al-Fadul, dar Al-Marif, 11 vols., cairo (AD 1971), see: vol., 1/423-430, vol., 4/6-8. :Shiāb al-din al-Hamawi شهاب الدين الحموي (AH 11 century, AD 17 century) *Thufat al-Akyas fi Tafsir Qulih T'ālā Aen Awal Bait Wudā lil-Nās* تحفة الأكياس في تفسير قوله أن أول بيت وضع للناس, manuscript, al-maktaba az-Zahiriyya, No. 44, Damascus, pp.: 1, 4 - 5.

(5) *See* : Al-Azraqi (former reference), vol. 2/233 – 265. Al-Hamawi, Y. ياقوت الحموي (died AH 636/AD 1229) *Mu'jam al-Buldan*, dar sadir, 5 vols., Beirut (AD 1997). See: vol. 5/186 – 187.

(6) *See*: Al-Azraqi (former reference), vol. 1/103 – 116. :Al-Hamawi, y. (former reference), vol. 5/186.

(7) *See*: Al-Azraqi (former reference), vol. 1/280 – 281. :Al-Abed, B. (1992), *Aspects of Arabic Islamic Architectural Discourse*, delft Technical University Press, Delft, Netherlands, pp.: 107.

(8) *Ibid*.: Al-Azraqi, vol. 1/280-281. Al-Abed, pp.:107.

(9) *Ibid*.: Al-Azraqi, vol. 2/266 – 302. :Al-Abed, B., pp.: 90 – 120.

(10) See: Al-Azraqi, vol. 2/68. :Al-abed, B. pp.: 121. :Al-Qazwini, Z. زكريا القزويني (AH 660-682/ AD 1080-1170), Athar Al-Bilad wa-Akhabar Al-Ib'ad آثار البلاد وأخبار العبلد, dar sadir, Beirut, no history of publication,pp.: 114 - 121.

(11) See: Al-Azraqi (former reference), vol. 2/69. :Az-Zarkashi الزركشي (AH 745 – 794 / AD 1344 – 1492) Iālam as –sajed bi – Áhkam al-masajid إعلام الساجد بأحكام المساجد annotated by Abū al-Wafā al-Marāghi, Higher council of Islamic Affairs, Cairo, (AD 1982), pp.: 57.

(12) See: Al-Azraqi (former reference), vol. 2/69. : Al-Abed, (former references), pp.: 122.

(13) See: Az-Zarkashi, (former reference) pp.: 57.

(14) See: Al-Azraqi, (former reference), vol. 2/71. See: Al-Abed, (former reference), pp.: 123-124.

(15) Ibid., Al-Azraqi, (former reference), vol. 2/74. : Al-Abed, (former reference), pp.: 125.

(16) Ibid., Al-Azraqi, (former reference), vol. 2/74-76. :Al-Abed, (former reference), pp.: 125.

(17) : Ibid., Al-Azraqi, (former reference), vol. 2/76-81. : Al-Abed, (former reference), pp.: 126-131

(18) See: Al-Azraqi (former reference), vol. 1/34 – 309/ vol. 2/68-74. :Al-Azarkashi (former referenece), pp.: 48-57, 337. : Al-Abed (former reference), pp.: 86-135.

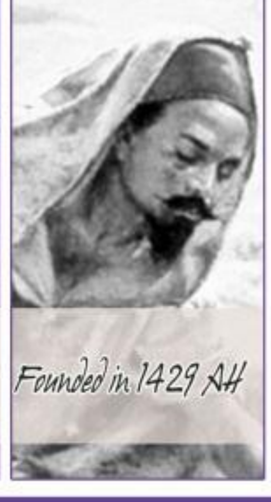
(19) See: Al-Azraqi (former reference), vol. 1/203-214. : Al –Abed (former references), pp.: 86-135.

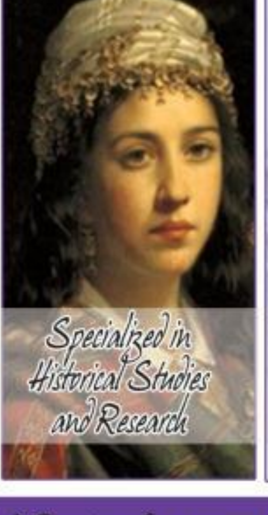
ISSN: 2090 – 0449













ISSN: 2090 – 0449

Sixth Year - Issue (21) September 2013 | Shawwal 1434

Kan historique périodique

www.kanhistorique.org

info@kanhistorique.org



Issued Quarterly By:
Junior Historian Series





Available for downloading or reading at:
Nashiri Non-profit E-Publishing House
Internet Archive

Digital residence
Arabic identity
global performance